سعيد أيوب

الانحرافات الكبرى

القرى الظالمة في القرآن الكريم

دار الهادي
بيروت - لبنان

شبكة الفكر
alfeker.net

الانحرافات الكبرى

القرى الظالمة في القرآن الكريم

سعيد أيوب

الانحرافات الكبرى

القرى الظالمة في القرآن الكريم

دار الهادي
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: ٢٠٧٧٧ - MCS ٢٢٥٩٧ بلاغ -
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.

الإهداء

* إلى مصابيح الهدى الذين يقودون الناس إلى الهدى .

الذين علموا أن الغنى والفقر بعد العرض على الله يوم القيامة .

والذين صبروا صبر الأحرار .

والذين ينتظرون يوم العدل على الظالم .

إلى هؤلاء أهدي هذا الكتاب طمعاً في جـرعة مـاء من حوض النبي الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة . « فما هو كائن من الدنيا عن قليل لَمْ يَكُنْ . وما هو كائن من الآخرة عما قليل لَمْ يَزُلْ . وكل معدودٍ مُنْقَص . وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ . وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ »(*) .

. . . . **أيوب**

(*) من أقوال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . وصلوات الله وسلامه على محمد النبي الأكرم المبعوث بالشريعة الخاتمة وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين . وبعد :

لقد حث كتاب الله تعالى على التدبر في الكون والنظر في تاريخ الأمم السابقة وفحص حركة هذه الأمم والعوامل التي أدت إلى نهاية أجلها . قال تعالى : ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾(١) فالأجل في هذه الآية الكريمة . أضيف إلى الأمة إلى الوجود المجموعي للناس . فكما أن هناك أجل محدد ومحتوم لكل فرد . فكذلك هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الإجتماعي لهؤلاء الأفراد . للأمة بوصفها مجتمعاً ينشىء ما بين أفراده العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادىء . فهذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالأمة . له أجل . له موت . له حياة . له حركة . وكما أن الفرد يتحرك فيكون حياً ثم يموت . كذلك الأمة تكون حية ثم تموت . وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس . كذلك الأمم أيضاً لها آجالها المضبوطة(٢) من أجل هذا نبه كتاب الله الحاضر لكي

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٤ .

(٢) المدرسة القرآنية/ باقر الصدر : ص٥٦ .

ينظر إلى أطلال الجهد البشري في الماضي . ليتجه نحو المستقبل وهو على علم بالإنحراف وما يترتب عليه . ويعلم أن نصر الله قريب ولكن نصر الله له طريق . وما عليه إلّا أن يهتد إلى هذا الطريق . وبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً وعالياً وممتداً تكون الغايات صالحةً وممتدةً . وعلى إمتداد الصلاح يكون نصر الله ، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً أو منخفضاً تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضاً ولا يترتب على هذا إلّا فتن وعذاب وهلاك .

وعلى إمتداد هذا الكتاب قمنا بتسليط الضوء على الفقه الشيطاني الذي أنجب جميع المثل العليا المنخفضة التي واجهت أنبياء الله ورسله على إمتداد التاريخ الإنساني . وكيف واجه الأنبياء هذا الصد عن سبيل الله وهذا الإنحراف . ومادة هذا البحث طرحت بين يدي القرآن الكريم . وأجوبتها جاءت من القرآن الكريم . فالقرآن هو الطريق الوحيد للحصول على الخطوط الأساسية التي عليها جرت حركة هذه الأمم . ولقد اعتمدنا على العديد من التفاسير لكشف أعماق هذه الخطوط الأساسية وتقديمها للقارىء ليقف بيسر على صفحة الماضي وينطلق بيسر إلى المستقبل إذا شاء ذلك . وفي البداية نقول أنه مما تبين لنا خلال هذا البحث أن حركة الشيطان لم تكن فقط في دورات المياه كما قيل لنا . وإنما كانت حركة مضبوطة منذ طرده الله ولعنه . وهذه الحركة عمودها الفقري ينطلق من رفضه السجود لآدم . فقوله : ﴿ **أنا خير منه** ﴾ أرسى قاعدة التحقير التي رفعها المستكبرين ضد البشرية على امتداد التاريخ الإنساني . وحركة الإستكبار على امتداد التاريخ طويت صفحتها ليس من أجل إصابتها بالشيخوخة كما يقول البعض في أسباب سقوط الدول . وإنما طويت صفحتها في دائرة العذاب . عندما رفض أصحابها السجود لله كما أراد الله . وخلال هذا البحث قمنا بطرح ما قصه القرآن عن الأمم السابقة وحتى الرسالة الخاتمة . وعند الحديث عن الرسالة الخاتمة ألقينا بعض من الضوء على أحداث ما سمي « بالفتنة الكبرى » . تلك الأحداث التي يتجنب العديد من الباحثين الخوض فيها . في حين أنهم أمروا بالنظر في الماضي حتى لا ينطلقوا إلى المستقبل وعلى عقولهم بصمات هذه الفتن وهم لا يعرفون أهي بصمات حق . أم بصمات إنحراف . وعلى هذا يقعوا في الفتنة الأشد من التي اجتنبوها سأل رجل حذيفة : أي الفتن أشد ؟ قال : أن يعرض

عليك الخير والشر . لا تدري أيهما تركب[3] ومن الخطأ الشائع أن تاريخ الإسلام هو نفسه تاريخ المسلمين . ولهذا ظن العديد من الباحثين أن نقد تاريخ المسلمون هو نقد لتاريخ الإسلام . ونحن نقول : أن تاريخ الإسلام في الرسالة الخاتمة هو حركة الرسول ودعوته . وهذا التاريخ إمتداد طبيعي لتاريخ الدعوة منذ عهد نوح وآل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام . تاريخ الإسلام هو نفسه تاريخ الفطرة النقية التي لم تحيد عن الصراط المستقيم . وعلى إمتداد هذا التاريخ لا تجد إلّا نصر الله قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[4] وتاريخ الإسلام فيه الإبتلاء والصبر والنصر . قال تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب** ﴾[5] فتاريخ الإسلام تقام فيه الحجج على الذين كفروا . وتكافح فيه الفطرة النقية معسكر الإنحراف . أما تاريخ المسلمين فهو يتعلق بحركة المسلمين فما كان منه منطبقاً مع آيات الكتاب وحركة الرسول فهو من تاريخ الإسلام . أما ما خرج منه من دوائر الحقد والحسد والإستكبار فلا علاقة للإسلام به . ويبحث عن أصوله في فقه الإغواء والتزيين . تماماً كبني إسرائيل . فهم عندما ساروا مع موسى عليه السلام في اتجاه البحر وعبروا معه . كانوا يدونون بذلك تاريخ الإسلام ، وعندما عبدوا العجل وأرجلهم لم تجف بعد من ماء البحر ، كانوا يدونون تاريخ بني إسرائيل ولا علاقة للإسلام بهذا التاريخ . لذا نجد هارون عليه السلام يقول لموسى عليه السلام عندما سأله عن هذا الإنحراف وعاتبه : ﴿ **إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل** ﴾[6] لقد وضعهم في دائرة حركتهم التي تحمل العنوان الذي اشتهروا به بين الأمم « بني إسرائيل » . ولم يضعهم في دائرة الإسلام . وكان موسى عليه السلام قد قال لهم وهم تحت المظلة الفرعونية ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[7] إن حركة الفطرة ضد

(٣) أسد الغابة : ١/٤٦٨ .
(٤) سورة غافر ، الآية : ٥١ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢١٤ .
(٦) سورة طه ، الآية : ٩٤ .
(٧) سورة يونس ، الآية : ٨٤ .

الإنحراف تحت قيادة الرسل . هي بعينها تاريخ الإسلام الذي رفع عنواناً من اليوم الأول يقول فيه . ان دين الله لا إجبار فيه . أما حركة المال والسلاح والتخويف والتجويع والأهواء والطواغيت إلى غير ذلك . فهذا مدون في تاريخ الناس وهذا التاريخ يقبل الأخذ والرد ويخضع للنقد والبحث العلمي الجاد .

وعلى ضوء هذا التعريف بحركة التاريخ ناقشنا العديد من الأحداث . إنطلقنا من القرآن لنصل إلى أعماق الحدث عن طريق القرآن أيضاً . ثم نقبنا في الحدث لنرى أين أهداف الدعوة فيه . وأخيراً إذا كان هناك كلمة أخيرة فإنني أتوجه بها إلى الذين يختلفون معي في مفهومي لحركة التاريخ الذي يضع الفطرة في مربع والأفعال التي تأنف منها الفطرة رغم زينتها وزخرفها في مربع آخر . أقول لهؤلاء إن هذا الكتاب لن يفيدكم في شيء . وإنني أشفق عليكم أن تضيعوا أوقاتكم هنا . وبالله نستعين . **﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين ﴾**(٨).

صدق الله العظيم

سعيد أيوب
القاهرة في ١٩٩١/٧/١

---

(٨) سورة النور ، الآية: ٥٤ .

البذور والجذور

نظرات حول الفطرة وفي فقه الشيطان

مقدمة:

سبحان الله الواحد الأحد . الذي لم يسبقه وقت . ولم يتقدمه زمـان . ولم يتعاوره زيادة ولا نقصـان . ولم يوصف بـأين ولا بما ولا بمكـان . الذي بـطن من خفيات الأمور . وظهر في العقول بما يرى في خلقـه من علامـات التدبيـر . الذي سئلت الأنبيـاء عنه فلم تصفـه بحد ولا نقصـان . بل وصفتـه بأفعـالـه ودلت عليـه بـآياتـه . فسبحان من لا يحـد ولا يوصف ولا يشبهـه شيء . يصور مـا يشاء وليس بمصور . جل ثناؤه وتقدست أسمائه وتعـالى أن يكون لـه شبيه . من شبهـه بخلقه فهـو مشرك . ومن وصفـه بـالمكـان فهـو كـافـر ومن نسب إليـه مـا نهى عنـه فهـو كاذب[1] .

قبل أن يخلق سبحانه آدم عليه السـلام قـال لمـلائكته : ﴿ **إني جـاعل في الأرض خليفـة** ﴾[2] فهـو سبحـانـه خلق آدم ليكــون في الأرض لا في السمـاء . وعندما قالت الملائكة: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . .** ﴾[3] لم

---

(١) من أقوال الإمام علي ـ توضيح المراد : ٤٩٨ ـ ٥٠٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية: ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية: ٣٠ .

ينف سبحانه عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء . وقال سبحانه : ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾[٤] . فالإنسان قبل أن يُخلق قدر الله أن تكون حركته على الأرض . ولأن هذه الحركة لحكمة ومن وراء هذه الحكمة هدف . أقام الله الحجة على هذه الحركة . فإذا اقترف الإنسان المعاصي وسفك الدماء : كانت الحجة شاهد عليه . ولا يوصف بالعدل من نسب إلى الله ذنوب عباده .

١ ـ حجة الفطرة :

وإذا كانت حركة الإنسان قدر لها أن تكون على الأرض . فإن هذه الحركة لا ينبغي لها أن تخرج عن دائرة العبادة لله إذا أراد صاحبها النجاة . أما إذا أراد أن يدلي بدلوه في مربعات الفساد وسفك الدماء . فإنه بحركته هذه يدور في عكس إتجاه النجاة وعندئذٍ لا يلومن إلا نفسه . قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[٥] قال المفسرون : المراد بخلقهم للعبادة ، خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوي إختيار وعقل وإستطاعة ، والمعنى : أي ما خلقتهم إلاّ لأجل العبادة . ولم أرد من جميعهم إلا إياها . والغرض من خلقهم تعريضهم للثواب . وذلك لا يحصل إلاّ بأداء العبادات . ولما كان الإنسان قد خلق من أجل العبادة وعلى طريق هذه العبادة توجد دوائر للإفساد وسفك الدماء هدفها عرقلة هذه العبادة . فإنه تعالى وضع أصول هذه العبادة في حصن الفطرة الحصين . ليعبر الإنسان بفطرته السليمة تلك العقبات ويصل بعبادته إلى حيث ينال الثواب . فالفطرة شعاع يهدي صاحبه إلى طريق النجاة . والفطرة حجة بذاتها على الإنسان تنطق عليه بالحق يوم يقف أمام الله تعالى يوم القيامة ويقول له : ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ . ومخزون الفطرة الحجة بذاته جاء ذكره في أكثر من موضع من كتاب الله . منه قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾[٦] قال صاحب الميزان : أي أذكر للناس . موطناً قبل الدنيا أخذ فيه

---

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

(٥) سورة الذاريات ، الآيتان : ٥٦ ـ ٥٧ .

(٦) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٧٢ ـ ١٧٣ .

ربك ﴿ **من بني آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ فما من أحد منهم إلاّ استقل من غيره وتميز منه . فاجتمعوا هناك جميعاً . وهم فرادى . فأراهم ذواتهم المتعلقة بربهم ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم** ﴾ فلم يحتجبوا عنه . وعاينوا أنه ربهم كما أن كل شيء بفطرته يجد ربه من نفسه من غير أن يحتجب عنه . ﴿ **ألست بربكم** ﴾ وهو خطاب حقيقي لهم . لا بيان حال . وتكليم إلهي لهم فإنهم يفهمون مما يشاهدون . أن الله سبحانه يريد به منهم الإعتراف وإعطاء الموثق . وقوله : ﴿ **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ الخطاب للمخاطبين بقوله : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ القائلين ﴿ **بلى شهدنا** ﴾ فهم هناك يعاينون الإشهاد والتكليم من الله . والتكلم بالإعتراف من أنفسهم . وإن كانوا في نشأة الدنيا على غفلة مما عدا المعرفة بالإستدلال . ثم إذا كان يوم البعث وانطوى بساط الدنيا . وانمحت هذه الشواغل والحجب عادوا إلى مشاهدتهم ومعاينتهم . وذكروا ما جرى بينهم وبين ربهم(٧) .

والمراد أنا أخذنا ذريتهم من ظهورهم . وأشهدناهم على أنفسهم . فاعترفوا بربوبيتنا . فتمت لنا الحجة عليهم يوم القيامة . ولو لم نفعل هذا . ولم نشهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه . فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس . فلم يشهد أحد ان الله ربه . ولم يعلم ربه . لأقاموا جميعاً الحجة علينا يوم القيامة بأنهم كانوا غافلين في الدنيا عن ربوبيتنا . ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذة . وإن كنا لم نهمل أمر الإشهاد من رأس . وأشهدنا بعضهم على أنفسهم دون بعض بأن أشهدنا الآباء على هذا الأمر الهام العظيم دون ذرياتهم . ثم أشرك الجميع . كان شرك الآباء شركاً على علم بأن الله هو الرب لا رب غيره . فكانت معصية منهم . وأما الذرية فإنما كان شركهم بمجرد التقليد فيما لا سبيل لهم إلى العلم به لا إجمالاً ولا تفصيلاً . ومتابعة عملية محضة لآبائهم . فكان آباؤهم هم المشركون بالله العاصون في شركهم لعلمهم بحقيقة الأمر . وقد قادوا ذريتهم الضعاف في سبيل شركهم بتربيتهم عليه وتلقينهم ذلك . ولا سبيل لهم إلى العلم بحقيقة الأمر وإدراك ضلال آبائهم وإضلالهم إياهم . فكانت الحجة لهؤلاء الذرية على الله يوم القيامة . لأن الذين أشركوا وعصوا بذلك وأبطلوا الحق هم الآباء . فهم المستحقين للمؤاخذة . والفعل فعلهم . وأما الذرية فلم يعرفوا حقاً حتى

---

(٧) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي ط . مؤسسة الأعلمي بيروت : ص٣٢٢/٨ .

يأمروا به فيعصوا بمخالفته . فهم لم يعصوا شيئاً ولم يبطلوا حقاً . وحينئذ لم تتم حجة على الذرية . فلم تتم الحجة على جميع بني آدم . وهذا معنى قوله تعالى : **﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾**[٨] .

ولكي لا يكون للسلف وللخلف حجة على الله يوم القيامة . أخذ سبحانه الميثاق من بني آدم جميعاً . وهذا الميثاق هو مخزون الفطرة . وحجة بذاته على الإنسان في كل حركة له على الأرض . وميثاق الفطرة هو العمود الفقري للعبادة التي خلق الله الإنسان لها . وهو الكشاف الذي يهدي إلى الطريق المستقيم ويجنب صاحبه الإنزلاق في منجيات الإفساد وسفك الدماء التي لم ينف الله سبحانه وجودها عندما قالت الملائكة : **﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾** وإذا كانت الفطرة كشاف يهدي إلى الصراط المستقيم فإن حدود هذا الصراط وضوابطه يحددها أنبياء الله عليهم السلام . وأنبياء الله على إمتداد التاريخ الإنساني بعثوا بدين الفطرة . أي بالعبادة الحق التي تنسجم مع ميثاق الفطرة وتتكاتف معه على صراط مستقيم . فالأنبياء جاؤوا إلى نوع إنساني واحد ذات مقصد واحد . وهذا النوع له رب واحد . وهو الذي فطر السماوات والأرض . والربوبية والألوهية ليست من المناصب التشريفية الوضعية . حتى يختار الإنسان منها لنفسه ما يشاء وكم يشاء وكيف يشاء بل هي مبدئية تكوينية لتدبير أمره . والإنسان حقيقة نوعية واحدة . والنظام الجاري في تدبير أمره نظام واحد متصل مرتبط بعض أجزائه ببعض . ونظام التدبير الواحد لا يقوم به إلاّ مدبر واحد . لهذا فلا معنى لأن يختلف الإنسان في أمر الربوبية فيتخذ بعضهم رباً غير ما يتخذه الآخر . أو يسلك قوم في عبادته غير ما يسلكه الآخرون . فالإنسان نوع واحد يجب أن يتخذ رباً واحداً . هو رب بحقيقة الربوبية . وهو الله عز إسمه[٩] بهذا جاء رسل الله وعلى هذا قامت دعوتهم عليهم السلام .

٢ ـ بذور الإنحرافات الكبرى:

لم تظهر بذور الإفساد وسفك الدماء الذي ذكرته الملائكة عندما خاطبهم

---

(٨) المصدر السابق : ٨/٣٠٩ .

(٩) الميزان : ١٤/٣٢٢ .

الله بأنه جاعل في الأرض خليفة إلّا عندما أمر سبحانه الملائكة بالسجود لآدم . ففي هذا الوقت خط إبليس خط الإنحراف الذي تنمو عليه بذور الإفساد التي وضعها . يقول تعالى : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾(١٠) .

لقد ذكرت الآية أن مبدأ خلق الإنسان الطين . وفي سورة الروم التراب . وفي سورة الحجر صلصال من حمإ مسنون . وفي سورة الرحمن صلصال كالفخار . ولا ضير فإنها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي منها خلق وقد أشير في كل موضع إلى واحدة منها . وأمر الله تعالى الملائكة . إذا سوى الإنسان بتركيب أعضائه بعضها على بعض وتتميمها صورة إنسان تام . ونفخ الروح فيه أن يقعوا له ساجدين . وسجد الملائكة لأمر الله . ولم يذكر أحد منهم . أي علاقة بين طين ونور . فعندما أمروا بالسجود سجدوا . ولم يشذ في هذا المشهد المهيب سوى إبليس ﴿ **قال أنا خير منه** ﴾ لقد علل عدم سجوده بما يدعيه من شرافة ذاته وأنه لكونه خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين . ويظهر للمتدبر الفطن أن رفض إبليس للسجود . هو في نفس الوقت رفض للخضوع للإنسان والعمل في سبيل سعادته . وإعانته على كماله المطلوب . على خلاف ما ظهر من الملائكة . فهو بإيبائه عن السجدة خرج من جموع الملائكة كما يفيده قوله تعالى : ﴿ **ما لك ألاّ تكون مع الساجدين** ﴾ وأظهر الخصومة لنوع الإنسان والبراءة منهم ما حيوا وعاشوا .

* ـ بذور الإستعلاء والتحقير :

وإبليس بعد أن لعنه الله وجعله من المطرودين من رحمته . وظف هذا الحقد وهذه الخصومة فيما بعد وذلك أنه وسوس لصنف من الناس وألقى في نفوسهم مقولة أنهم أرقى من البشر وتجرى من عروقهم دماء الآلهة . ووفقاً لهذا

(١٠) سورة ص ، الآيات : ٧١ ـ ٧٦ .

الإعتقاد إدعى هذا الصنف من البشر الألوهية وفي عهودهم إندرج الإنسان إلى مستوى أقل من مستوى البهيمة . فإبليس بهذه المفولة ذل الإنسان على أيدي الإنسان . من منطلق حقده وخصومته لآدم وأبنائه . ولم يقذف الشيطان بفقه ﴿ **أنا خير منه** ﴾ على الجبابرة الذين ادعوا الألوهية على إمتداد التاريخ فقط . وإنما قذف بفقه ﴿ **أنا خير منه** ﴾ على الخاص والعام في الساحة الإنسانية لوقف تقدم دين الفطرة . فما من رسول أو نبي بعثه الله منذ ذرأ الله ذرية آدم إلاّ رفعت في وجهه لافتة تحقير الإنسان التي إنبثقت من فقه ﴿ **أنا خير منه** ﴾ الذي يحمل بين طياته الخصومة لبني الإنسان . لقد واجه الخاص والعام رسل الله عليهم السلام بقول واحد على امتداد الرسالات فقالوا : ﴿ **ما أنتم إلاّ بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء** ﴾[11] ، وقالوا : ﴿ **إن أنتم إلاّ بشر مثلنا تريدون أن تصدون عما كان يعبد آباؤنا** ﴾[12] وقالوا : ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم** ﴾[13] لقد قام إبليس بتوظيف خصومته للإنسان . بأن بث ثقافة من شأنها أن تمنع السجود لله . وإذا كان هو أصل هذه الثقافة يوم أن رفض السجود . فإن هذه الثقافة حملها في الدنيا الإنسان ضد الإنسان بعد أن دق الشيطان وتدها في الكيان الإنساني . وهذا الوتد كان له أثراً بالغاً في الصد عن سبيل الله . يقول تعالى : ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً** ﴾[14] وتحت مظلة تحقير الإنسان واجه رسول الله أشد الخصومات من الإنسان الذي إستحوذ عليه الشيطان . لقد وقف تلاميذ الشيطان أمام الهدى الذي يطالبهم بالسجود لله . وأثاروا قضية الشيطان القديمة ولكن في ثوب يستقيم مع عصورهم . فرفضوا النبي لأنه بشر خلقه الله من طين . فإذا كان لا بد من نبي فينبغي أن يكون ملكاً رسولاً . ملكاً من نار أو من نور . فهذا وحده الذي ينبغي أن يسمع لقوله . وتحت مظلة التحقير هذه إرتكبت أفظع الجرائم . وارتدت الأنانية أكثر من ثوب . وارتفع الأغيلمة السفهاء فوق الحلماء الأتقياء ، وتحت مظلة السفهاء تم تصنيف البشر إلى خدم وأراذل وأشراف ، وعلى إمتداد التاريخ الإنساني ، ضرب الكون سفهاء

---

(١١) سورة يس ، الآية : ٢٤ .

(١٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٠ .

(١٣) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ .

(١٤) سورة الإسراء ، الآية : ١٤ .

قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة وقوم فرعون وغيرهم . وهلك جميع هؤلاء ولكن فقه التحقير لم يهلك معهم لأنه باقي ما بقي الشيطان . فالشيطان يطرحه على قوم وعند ذهاب السلف يلقيه الشيطان على الخلف وهكذا حتى تتسع الحلقات ليكون التحقير مألوفاً على إمتداد القافلة البشرية . تلك هي خطة الشيطان في فقه التحقير الذي يرفض الهدى ليفتح أبواب النار ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾[١٥] .

* بذور المتاجرة بالدين:

بعد أن لعن الله أول فاتح فتح باب معصية الله . وعصاه في أمره . طلب إبليس الإنظار إلى يوم يبعثون . فلما أجيب إلى ما سأل . أظهر ما هو كامن في ذاته . وما أبداه كان في حقيقة الأمر خطته الكاملة تجاه آدم وذريته . والخطة الشيطانية لم تترك منفذاً إلّا وراقبته . وإذا كان إبليس قد استثمر قوله : ﴿ **أنا خير منه** ﴾ في وضع فقه التحقير الذي أنتج نوعاً من البشر يعمل ضد البشر . فإنه في مكان آخر عمل من أجل عرقلة طريق العبادة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس . قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون** ﴾[١٦] . قال المفسرون : إن الغرض العبادة . بمعنى كونهم عابدين لله . لا كونه معبوداً . فقد قال : ﴿ **ليعبدون** ﴾ ولم يقل : لأعبد أو لأكون معبوداً لهم . . . فالله هو المعبود الحق . وهو سبحانه قد بين للجن والإنس كيف يعبدوه . فالعبادة هي أن تعبد الله كما يريد الله . وإبليس أدلى بدلوه في إتجاهين . . الإتجاه الأول أنه وسوس للإنسان بعيداً عن المعنى المقصود ﴿ **ليعبدون** ﴾ ونصب خيمته في مربع ، لأكون معبوداً لهم . ووفقاً لتصورات هذا المربع تم عبادة الأصنام والطاغوت على إمتداد المسيرة البشرية . والإتجاه الثاني . وسوس للإنسان ليعرقل المسيرة نحو المعنى المقصود لقوله تعالى : ﴿ **ليعبدون** ﴾ **فالله تعالى** بين لعباده كيفية عبادته على لسان رسله عليهم السلام . ولما كانت دعوة الرسل على صراط مستقيم . فإن إبليس نصب له خيمة على هذا الصراط مهمتها الصد عن سبيل الله وعرقلة

---

(١٥) سورة الكهف ، الآية : ٥٠ .

(١٦) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦ .

الطريق أمام العبادة الحقة . وتلاميذ إبليس على هذا الصراط هم المنافقون على إمتداد التاريخ الإنساني . فالمنافق يسير على الصراط المستقيم بفقه الشعار وليس بفقه الشعور . وفقه الشعار لا يغني عنه من الله شيئاً ولا يحق له أي فوز في موطىء قدم فوق الصراط المستقيم عند العرض على الله يوم القيامة . وعرقلة الطريق على الصراط المستقيم وفقاً للخطة الشيطانية جاء في قول الله تعالى : ﴿ **قال فبما اغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾[١٧] قال المفسرون : أي لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السوي الذي يوصلهم إليك وينتهي بهم إلى سعادتهم . لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محالة مستقيم صراطك . فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه . وقوله : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم** . . . ﴾ الآية . بيان لما يصنعه بهم . وقد كمن لهم قاعداً على الصراط المستقيم . وهو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعة . . . والمراد بما بين أيديهم : ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم . مما يتعلق به الآمال والأماني من الأمور التي تهواه النفوس وتستلذه الطباع . ومما يكرهه الإنسان ويخاف نزوله به . كالفقر يخاف منه لو أنفق المال في سبيل الله . أو ذم الناس ولومهم لو ورد سبيلاً من سبل الخير والثواب . والمراد بخلفهم : ناحية الأولاد والأعقاب . فللإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد . أمال وأماني ومخاوف ومكاره . فإنه يخيل إليه . أنه يبقى ببقائهم . فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم . ويعد لهم ما استطاع من قوة فيهلك نفسه في سبيل حياتهم والمراد باليمين : وهو الجانب القوي الميمون من الإنسان ناحية سعادتهم وهو الدين . وإتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغة في بعض الأمور الدينية ، والتكلف بما لم يأمرهم به الله . وهو الذي يسميه الله تعالى بإتباع خطوات الشيطان . والمراد بالشمال : خلاف اليمين . وإتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء والمنكر ويدعوهم إلى إرتكاب المعاصي وإقتراف الذنوب وإتباع الأهواء[١٨] .

---

(١٧) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٦ - ١٧ .

(١٨) الميزان : ٨/٣١ .

فكل جهة من هذه الجهات لها في خيام النفـاق أساتـذة وعباقـرة . مهمتهم تمييع القضايا وترقيع الحقائق يـرقع البـاطل . أو تـزيين الباطـل بلافتـات الحق . ليصلوا بالجميع إلى محطة لا يكون فيها الدين إلاّ إسماً ولا يكون كتابه إلاّ رسماً . ووفقاً لهذا لا يتحقق المقصود من قولـه تعالى : ﴿ **ليعبـدون** ﴾ وفقه الشعـار الذي يعمل به أولياء الشيطان . أول من عمل به الشيـطان نفسه . ثم ألقـاه على عقولهم الصدئة في خيمة النفاق . ليعملوا به ضد البشرية ولكن بأسلوب آخر . وإستعمال كالشيطان لفقه الشعار . جاء في قوله تعالى : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما . وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجـرة إلاّ أن تكونـا ملكين أو تكونا من الخـالدين . وقـاسمهما إني لكمـا لمن الناصحين** ﴾[19] قـال المفسرون : المقاسمـة . المبالغـة في القسم أي حلف لهما وأغلظ في حلفـه أنه لهما لمن الناصحين . وروي عن أبي عبـدالله قال : لمـا خرج آدم من الجنـة نزل عليـه جبرائيـل . فقال : يـا آدم أليس خلقك الله بيـده . ونفخ فيـك من روحـه . وأسجد لك ملائكته . وزوجك حواء أمته . وأسكنك الجنة وأباحهـا لك . ونهـاك مشـافهة أن تـأكل من هـذه الشجرة . فـأكلت منهـا وعصيت الله ؟ فقـال آدم : يـا جبرائيل إن إبليس حلف لي بـالله أنه لي نـاصح . فمـا ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كذباً[20] وقال في المجمع : أن الله تعالى خلق آدم حجـة في أرضه . ولم يخلقـه للجنة . وكـانت المعصية من آدم في الجنـة لا في الأرض . وعصمتـه يجب أن تكـون في الأرض لتتم مقاديـر أمر الله عـز وجل . فلمـا أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾[21] .

والشيطان استعمل فقه الرمز في البداية . ولكن الله عصم آدم في النهايـة . ثم قـام الشيطان بتـوسيع هـذا الفقه داخـل خيمة الإنحـراف ليتزود منـه كل من لم يـدخل الإيمـان قلبه . لتـزل أقدامهم إلى مهـابط المغضوب عليهم أو الضـالين . ومن الـذين عملوا بفقـه الشعـار على الصـراط المستقيم ولم تغني عنهم أعمـالهم

---

(١٩) سورة الأعراف ، الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ .
(٢٠) الميزان : ٨/٦١ .
(٢١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٣ .

شيئاً . زوجتا أنبياء الله نوح ولوط عليهما السلام . لقد تزودت كل منهما بزاد من خيمة النفاق . فكان الزاد عليهما وبال وحسرة . ومن نفس الخيمة تزود تجار الأديان في بني إسرائيل الذين حرفوا الكلم عن مواضعه . ولحق بهم إخوانهم في عصر البعثة الخاتمة . الذين فضحهم القرآن في أكثر من موضع . وإذا كان تلاميذ الشيطان قد وضعوا العراقيل أمام العبادة الحقة . إلّا أن هذه العبادة ظلت راسخة في نفوس المؤمنين بها . وفي كل عصر تنهار الأصنام وتسقط الطواغيت . في الوقت الذي تسير فيه طلائع النهار رافعة لأعلام الفطرة التي فيها خلاص الإنسان .

* بذور المتاجرة بالشهوات

بعد أن دق الشيطان وتده في نفوس الجبابرة وأوهمهم بأن في عروقهم تجري دماء الآلهة . إنطلقوا ليملأوا الأرض ظلماً وقاست البشرية من الفراعنة والقياصرة والأكاسرة . وما من عصر من العصور إلا وعليه بصمة من بصمات هؤلاء رغم رحيلهم . وذلك لأن إبليس يوظف الإنحراف في كل عصر بعد أن يضع عليه ملابس جديدة . وما حدث مع الجبابرة وفقاً لأطروحة ﴿ **أنا خير منه** ﴾ يحدث مع جبابرة اللسان في عالم النفاق . فشذوذ النفاق لا يموت . ويوظف وفقاً للتطور البشري . والإنحراف وبشذوذ لا يموتان لأن الشيطان جعل لهما ركوبة تستقيم مع كل عصر . وهذه الركوبة صالحة للخاص والعام . للأمير وللخفير . للشريف وللحقير . والركوبة التي اعتمدها الشيطان تخضع لفقه التزيين والإغواء . فهذا الفقه وحده يحافظ على الشذوذ وينقله من عصر إلى عصر تحت حماية فقه الاحتناك .

وفقه التزيين والإغواء جاء في قوله : ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين** ﴾[٢٢] وفقه الاحتناك جاء في قوله : ﴿ **قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً** ﴾[٢٣] والفقه الأول يسير في حراسة الفقه الثاني . وفي تزيين الشيطان وإغوائه الناس قال المفسرون : قوله : ﴿ **لأزينن لهم في الأرض** ﴾ أي لأزينن لهم الباطل . أو

(٢٢) سورة الحجر ، الآية : ٣٩ .
(٢٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦٢ .

لأزينن لهم المعاصي . والمراد بالتزين لهم في الأرض . غرورهم في هذه الحياة الدنيا وهو السبب القريب للإغواء[٢٤] فالركوبة مزخرفة وتعبير من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل وهي تحمل زخارف كل عصر . وفي كل عصر يجري الذين اعتقدوا بأن في عروقهم تجري دماء الآلهة وغيرهم وراء الشهوات التي تستقيم مع كل منهم . وكل فرد فيهم يتحرك نحو شهوته بمقدار الغرس الذي غرسه الشيطان بداخله ﴿ **وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله** ﴾[٢٥] قال المفسرون : لأضلنهم بالاشتغال بعبادة غير الله بإقتراف المعاصي ولأغرنهم بالإشتغال بالآمال والأماني التي تصرفهم عن الإشتغال بواجب شأنهم وما يهمهم من أمرهم . ولآمرنهم بشق آذان الأنعام وتحريم ما أحل الله . ولآمرنهم بتغيير خلق الله وينطبق على مثل الاخصاء وأنواع المثلة واللواط والسحاق . وليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله ، الخروج عن حكم الفطرة وترك الدين الحنيف[٢٦] فهذه الأشياء غرس الشيطان . وكل من اتخذ الشيطان له ولياً ينطلق بغرسه ليصيب به ما يشتهيه في عالم الزينة والإغواء .

وتسير قافلة الزخرف والشهوات محملة بإنحرافاتها وشهواتها بضجيج أو بلا ضجيج في مجتمعات هيمن عليها فقه الإحتناك . والإحتناك : الإقتطاع من الأصل . يقال : إحتنك فلان من مال أو عِلم إذا إستقصاه فأخذه كله . وإحتنك الجراد الزرع إذا أكله كله . وحنك الدابة بحبلها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به . والمعنى الأخير هو الأصل في الباب . **والاحتناك**: الإلجام . وقال المفسرون : قوله ﴿ **لأحتنكن ذريته الا قليلا** ﴾ أي لألجمن ذريته إلّا قليلاً . فأتسلط عليهم تسلط راكب الدابة الملجم لها عليها . يطيعونني فيما آمرهم . ويتوجهون إلى حيث أشير لهم من غير أي عصيان وجماح . . انه فقه تلجيم العقول وتكميم الأفواه وتعصيب العيون فقه لا يخدم إلا الغوغاء وتجار الشهوات لنشر الإنحراف والشذوذ تحت لافتة براقة تنادي بالديمقراطية وحرية الإنسان فيما

---

(٢٤) الميزان : ١٢/١٦٤ .

(٢٥) سورة النساء ، الآيتان: ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢٦) الميزان : ٥/٨٤ .

يختار من مزابل الشيطان . إنه فقه يحمي الهجوم بالإنحراف لتدمير الجنس البشري بأيدي الجنس البشري .

٣ ـ الفقه الشيطاني في مهب الريح :

لقد استثنى الشيطان عباد الله المخلصين من عموم الإغواء والمخلصون ـ بفتح اللام ـ هم الذين أخلصهم الله لنفسه بعدما أخلصوا لله ، فليس لغيره سبحانه فيهم شركة . ولا في قلوبهم محل فلا يشتغلون بغيره تعالى . والمتدبر فيما عزم الشيطان عليه لتدمير البشر . يجد ان أسلحته وإن كانت تبدو فتاكة إلا انها أسلحة محاصرة ولا تصيب إلّا من دخل في مرماها أو حام حولها . وإذا كان الله قد أعطى إبليس سلاح . فإنه تعالى أعطى للمؤمن السلاح الأقوى . وعلى سبيل المثال . فإن الله تعالى أيد إبليس على الإنسان بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم . وأيد الإنسان عليه بالملائكة الباقين ببقاء الدنيا . وأيد إبليس بالتمكين بتزيين الباطل . وأيد الإنسان بأن هداه إلى الحق . وزين الإيمان في قلبه وفطره على التوحيد . وعرفه الفجور والتقوى . وجعل له نوراً يمشي به في الناس إن آمن بربه إلى غير ذلك من الأيادي . وبعث إليه الرسل والأنبياء بهداية التشريع الذي يحمي الله تعالى به عبده الصالح المجتنب عما يسخطه ويكرهه عن مضار الدنيا ويجنبه عن مضلات الفتن . ويلطف به ألطافاً ظاهرة أو خفية حتى يخرج من الدنيا سالماً دينه راضياً عنه ربه .

وخطوات الشيطان كلها تصب في آخر الزمان في سلة المسيح الدجال بمعنى أن كل إنحراف منذ ذرأ الله ذرية آدم وان بدأ في أول الطريق ضئيلاً إلّا ان الشيطان يتعهده على امتداد الطريق بإلقائه على المسيرة البشرية وفقاً لتطورها . ليكون في النهاية له صفة القانون . وتحت حماية الجماهير لهذا القانون يأتي المسيح الدجال رمزاً لقاعدة لا تعرف إلّا الإنحراف والشذوذ . وكما في روايات عديدة ان المسيح الدجال هو سر إبليس وحامل رايته آخر الزمان . وإذا كان الدجال ثمرة لطريق الإنحراف . فإن المهدي المنتظر الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو عنوان الفطرة النقية وتحت رايته سينتظم الذين ساروا على الصراط المستقيم ولم تعرقل خيمة الإنحراف والنفاق خطواتهم . وبين الحق والباطل ستدور معارك آخر الزمان . ومعسكر الشيطان مهزوم مهزوم . ولقد هزم

في كل عصر . هزم يوم أن قتل ابن آدم الأول أخيه بحجر وسيهزم بعد أن قتل ابن آدم أخيه بقنبلة ذرية . إن هزيمة الباطل في كل عصر هي عنوان للحق الأصيل في الوجود ودعوة للسائرين في طريق الإنحراف كي يصححوا مسارهم . ويعلموا ان الباطل طارىء لا أصالة فيه . وانه مطارد من الله . ولا بقاء لشيء يطارده الله . ونحن على امتداد هذا الكتاب سنسرد الأحداث كما وقعت ليتبين القارىء بنفسه موطن الإنحراف وموطن الدعوة الحق . ثم مصير كل منهما . وسيجد ان الإنحراف ضربه الله بالكون كله . ضربه يوماً بالطوفان . ويوماً بالريح العقيم . ويوماً بالصيحة ويوماً آخر بالحجارة . وعلى امتداد هذه الأيام وهذه الأهوال نجّا الله الذين آمنوا من ضربات الكون وأحياهم حياة طيبة . إن القارىء على إمتداد صفحات هذا الكتاب سيكتشف أماكن جراح ما زالت تنفجر منها الدماء . وسيحيط بجوانب هذه الجرائم التي دخلت بمعسكرات الإنحراف إلى عقاب لم يأخذ صورة الطوفان أو الريح أو الصيحة . وإنما أخذ صور أخرى حيث ضنك المعيشة وزخارف الفتن التي لا تحقق لمن تلبس بها أي أمن .

والفقه الشيطاني هزمه الله في كل عصر من العصور . وكانت هزيمته عنواناً لإنتصار الحق . ودعوة للسائرين في الظلام كي يخرجوا من خيام ضربت عليها الهزيمة في الحياة الدنيا ولها في الآخرة عذاب أليم . إلى رحاب الكون الذي يتنفس بمخزون الفطرة ويدور في إتجاه واحد نحو غاية واحدة . إن فقه الشيطان الذي قتل هابيل في أول الزمان بحجر ، حمل شذوذه وإنحرافه في سفك الدماء ، ووقف في الحاضر وبيده قنبلة ذرية ليقتل بها مليون هابيل . هذا الفقه المدجج بالسلاح والعتاد مكتوب عليه الفناء لأنه باطل والباطل طارىء لا أصالة فيه . والباطل يطارده الله . ولا بقاء لشيء يطارده الله . ونحن على إمتداد هذا الكتاب سنقص قصة الفطرة في مواجهة الباطل . وسنرى جراح ما زالت تتفجر منها الدماء . وسنحيط بجوانب هذه الجرائم لنعلم من المسؤول عن كل هذا .

انحرافات قوم نوح عليه السلام

﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ .

سورة الشعراء ، الآية : ١١١

* الأوائل والطوفان

أعلام تحقير الانسان

مقدمة :

روي أن بين آدم وبين نوح عليهما السلام عشرة قرون ، واختلفوا هل المراد بالقرن مائة سنة ؛ أم المراد بالقرن الجيل من الناس ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾(1) وبالجملة أن نوحاً عليه السلام بعثه الله تعالى عندما شرع الناس في الضلالة والكفر وعبدوا الأصنام والطواغيت . وفي عصر نوح الذي بُعثَ فيه نوح كان قومه قد ابتعدوا عن دين التوحيد وعن سُنَّة العدل الإجتماعي . فاستعلى القوي على الضعيف ، وصار الأقوياء بالأموال والأولاد يستبيحون حقوق من دونهم الذين لا يحملون إلا ألقاب المهانة ، ولا قيمة لهم في المجتمع . كانت دائرة الأقوياء تضم السادة والأشراف وباقي الطبقة المترفة ، وكانت دائرة الضعفاء تضم الأراذل والأخساء ومن لَا حَظَّ له من مال أو مكانة . وأصحاب هذه الدائرة ؛ كان الملأ الأقوياء ينظرون إليهم على أنهم جنس آدمي منخفض لا بدَّ أن يعمل لينتفع المثل الأعلى الآدمي المرتفع ـ والذين تمثله دائرة الأقوياء ـ من عمله وكده .

وعلى امتداد طريق الإنحراف قامت ثقافة المترفين بغرس الخرافات في

---

(1) سورة آل عمران ، الآية : ٣٣ .

عقول القوم ، وكانت المقدمة إلى هذا أنَّ المترفين وضعوا قـاعدة تقـول . بأن أي أمر لو كان حقاً نافعاً ؛ فإن قيمة هذا الحق وهذا النفع تتحدد في أتباع طبقة الأقوياء له . فإن أعرضت عنه هذه الطبقة ، أو اتبعه غيرهم من الضعفاء ؛ فـإن الحق مهما كان حجمه يكون لا خير فيه ! ووفقاً لهذه المقدمة غرس المترفين الأصنام في كـل مكـان ، ودَثَّـروهـا بـالخـرافـات التي تخـدم مصـالحهم وتحـافظ على مسيـرة الإنحـراف . وقد ذكـر القـرآن من هـذه الأصنـام : وَداً وسُـوَاعَـا ويغـوث ويعـوق ونَسْرَا . وكان كل صنم له كهـان وطقوس ويعبـده طائفـة من الناس . وأمـام جميع الـطوائف يتقـدم الأشـراف والأقـويـاء . ويلتقي الجميـع على طـريق الإنحـراف متخذين أهواءهم وشذوذ آبائهم عن الفطرة هدفاً لهم .

نوح عليه السلام :

نوح هو أول أولي العزم من الرسل ، وهو أول من قام لتعديل الطبقات ورفع التناقض من المجتمع الإنساني . وهو أول من طرح حجج التوحيد أمـام الكفار . وذكر الله تعالى في كتابه أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبـل الطوفـان ألف سنة إلّا خمسين عاماً . وروي أنه بُعث وله أربـع مائـة وثمانـون سنة ، وأنـه عاش بعـد الـطوفان ثـلاثمائـة وخمسين سنة فيكـون قد عـاش على هذا ألف سنـة وسبعمائـة وثمانين سنة[٢] ورُوي غير ذلك . واختلفوا في مقدار سنه يوم بُعث ؛ فقيل كان ابن خمسين سنة ، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين عاماً[٣] .

ونوح عليه السلام اصطفاه الله تعالى على العالمين[٤] ، وسمَّاه سبحـانه في كتـابه عبـداً شكوراً[٥] ، وعبـداً صـالحـاً[٦] ، كمـا عـدَّه الله سبحـانـه من عبـاده المحسنين[٧] ، ومن عبـاده المؤمنين[٨] ، والسور التي تعـرضت لقصة نـوح عليه

---

(٢) البداية والنهاية : ١/١٢٠ .

(٣) المصدر السابق : ١/١٠١ .

(٤) سورة الصافات ، الآية : ٨١ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٣ .

(٦) سورة التحريم ، الآية : ١٠ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية : ٨٤ .

(٨) سورة النمل، الآية: ١٥ .

السلام من القرآن الكريم ، هي ثمانية وعشرون سورة في ثلاثة وأربعين موضعاً . وذكرت قصة نوح عليه السلام مفصلة في سبع سور منها : الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح .

الانـــذار والصَّـــد

* أولاً : الإنـــذار :

كان خروج القوم عن سُنَّة العدل الإجتماعي التي أودعها الله في أعماق الفطرة . يعني أن الشيطان يقود قافلة كفارهم ؛ فالشيطان هو صاحب فقه الانتقاص والتحقير ، وكفار قوم نوح قطعوا شوطاً بعيداً داخل هذا الفقه ؛ فقاموا بتصنيف عباد الله وفقاً لما عندهم من أموال وأولاد وجاه أو مكانة . ثم عكفوا على أصنامهم يحيط بهم كهنة مهمتهم الحفاظ على عبادة الأصنام والصد عن سبيل الله . يحافظون على الأصنام تحت لافتة سُنَّة آبائهم القومية . ويصدون عن سبيل الله بطرح عادات وتقاليد وثقافات لا تدع لفكر الفطرة سبيل داخل المجتمع . وأمر مثل هذا ينطلق من ماضٍ معتم ، ويدمر حاضر هيمن عليه خُدَّام الأهواء وتلاميذ الشيطان . ويندفع نحو المستقبل من أجل توثيق طريق الفطرة . يكون خطراً على المسيرة البشرية . ويكون أكثر خطورة إذا كان القائمون عليه قوماً من أقوام صدر المسيرة البشرية ، لأنهم رأس القافلة ، والداء عندما يضرب رأس المسيرة البشرية ؛ فإن الإنحراف سيتسع شيئاً فشيئاً حتى لا يصبح هناك أملاً في كل مولود جديد إلّا من رحم الله .

وقوم نوح كانوا رأس القافلة البشرية . رأساً أصابها الداء ، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام بالرحمة التي تشفيهم من الداء ، لكنهم أبَوْا إلّا أن يزدادوا كفراً ، وعندئذٍ قُطعت الرأس وفقاً لعذاب الاستئصال . . لقد أغرقهم الله فدفنوا ومعهم انحرافهم في أعماق الطين ليكونوا عبرة للقافلة كلها . لقد دُفِنَ انحراف قوم نوح معهم ، ولكن أصول الإنحراف ما زالت في أيدي الشيطان ، فإذا ما لَوَّحَ الشيطان بها لأي جيل في أي زمان ومكان ؛ كان في الطوفان الذي اجتاح الرأس آية . .

لقد بعث الله تعالى نوحاً إلى قومه . بعد أن ساروا في اتجاه العذاب الأليم

ورفضوا منطق الفطرة الذي يهدي إلى صراط مستقيم قال تعالى : ﴿ **إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجَل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾ قال المفسرون : في الآية دلالة على أن قومه كانوا عُرضة للعذاب بشركهم ومعاصيهم . وذلك أن الإنذار تخويف ، والتخويف إنما يكون من خطر محتمل لا دافع له(٩) والله تعالى أمر نوحاً عليه السلام أن ينذر قومه بأس الله قبل حلوله بهم فإن تابوا وأنابوا رُفع عنهم(١٠) . فقام عليه السلام بتبليغ رسالته إجمالاً بقوله : ﴿ **إني لكم نذير مبين** ﴾ وتفصيلاً بقوله : ﴿ **أنِ اعبدوا الله واتقوه** ﴾ الآية . وفي قوله : ﴿ **أنِ اعبدوا الله** ﴾ دعوتهم إلى توحيده تعالى في عبادته . فإن القوم كانوا يعبدون الأصنام . وفي قوله ﴿ **واتقوه** ﴾ دعوتهم إلى اجتناب معاصيه من كبائر الإثم وصغائره . وفعل الأعمال الصالحة التي في تركها معصية(١١) . وفي قوله : ﴿ **وأطيعون** ﴾ دعوة لهم إلى طاعته فيما يأمرهم به وينهاهم عنه . وأخبرهم أنهم إذا فعلوا ما يأمرهم به وصدقوا ما أرسل به إليهم غفر الله لهم ذنوبهم . ومدَّ في أعمارهم ودرأ عنهم العذاب الذي إن لم يجتنبوا ما نهاهم عنه أوقعه الله بهم . وحثّهم أن يبادروا بالطاعة قبل حلول النقمة . فإنه إذا أمر الله تعالى بكَوْن ذلك . لا يُرد ولا يُمانع ، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء ، العزيز الذي دانت لعزته : جميع المخلوقات(١٢) .

لقد كان الإنذار من أجل أن تقف القافلة البشرية . لتعيد التفكير بمنطق الفطرة ، وتعود إلى رشدها بعبادة ربها ولكن جبهة الكفر والعصيان ، وقفوا من الإنذار الموقف الذي يأتيهم بالعذاب . لقد وجد القوم أن دعوة نوح إليهم لعبادة الله وحده ، وأمره إياهم أن يتقوا الله ويطيعوه . . رَأَوْا في هذا خروجاً عن نصوص الآباء وسنتهم القومية ؛ ولهذا رموا نوحاً عليه السلام بأكثر من تهمة . وكما أنذرهم نوح من قبل أن يأتيهم العذاب الأليم . راح عليه السلام ينذرهم وهم على طريق

---

(٩) الميزان : ١/٢٦ .

(١٠) تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٤ .

(١١) الميزان : ١/٢٦ .

(١٢) تفسير ابن كثير : ٤/٤٢٤ .

الانحراف ويخبرهم أنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم . فهو أنذرهم قبل أن يأتيهم العذاب الأليم . وعندما عَصَوْا وعاندوا ، أنذرهم بأن العذاب الأليم ينحصر في يوم أليم . وهو يخاف عليهم من هذا اليوم الذي وصفه الله بأنه أليم . فإذا كان هذا هو حال اليوم . فكيف يكون حال الذين يعيشون فيه يقول تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلاّ الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾[١٣] قال المفسرون : دعاهم إلى توحيد الله بتخويفهم من العذاب . وإنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفاً من سخطهم . فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم . ودبر شؤون حياتهم . وأمور معاشهم بخلق السماوات والأرض . وإشراق الشمس والقمر وإنزال الأمطار وإثبات الأرض وإنشاء الجنات وشق الأنهار . وإذا كان كذلك . كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه ؛ فليخافوا عذابه ، وليعبدوه وحده . وبعد أن دعاهم عليه السلام إلى توحيد الله ،**خَوَّفَهم من عذاب يوم وُصف بأنه أليم**[١٤] . والمراد بعذاب يوم أليم . عذاب الإستئصال . ونسبة الإيلام إلى اليوم دون العذاب من قبيل وصف الظرف بصفة المظروف . ونزول العذاب على الكفار والمستكبرين . مسألة حقيقية يقينية ، فإن من النواميس الكلية الجارية في الكون لزوم خضوع الضعيف للقوي . والمتأثر المقهور للمؤثر القاهر . فما قولك في الله الواحد القهار الذي إليه مصير الأمور . وقد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون . وربط بعضها ببعض . ثم أجرى الحوادث على نظام الأسباب . وعلى ذلك يجري كل شيء في نظام وجوده فلو انحرف أي جزء عن خطه المحدد له . . أدى ذلك إلى اختلال نظام الأسباب . وكان ذلك منازعة منه لها . وعند ذلك تنتهض سائر الأسباب الكونية من أجزاء الوجود لتعديل أمره وإرجاعه إلى خط يلائمها . وهي بذلك في مقام من يدفع الشر عن نفسه . فإن استقام هذا الجزء المنحرف على خطه المخطوط له فهو ؛ وإلاّ حطمته حاطمات الأسباب ونازلات النوائب والبلايا . وهذا أيضاً من النواميس الكلية . والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون له في حياته خط خطّه له الصنع والإيجاد ؛ فإن سلكه هداه إلى سعادته . ووافق بذلك سائر أجزاء الكون ،

---

(١٣) سورة هود ، الآية : ٢٦ .

(١٤) سورة الأعراف الآية : ٥٩ .

وفتحت له أبواب السماء ببركاتها . وسمحت له الأرض بكنوز خيراتها . وهذا هو الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى . المدعو إليه بدعوة نوح ومن بعده من الأنبياء والرسل عليهم السلام . فإذا تَخَطاه الإنسان وانحرف عنه . فقد نازع أسباب الكون وأجزاء الوجود في نظامها الجاري . وزاحمها في شؤون حياتها ، وعلى هذا فليتوقع مُرّ البلاء ولينتظر العذاب والعناء . فإن استقام في أمره . وخضع لإرادة الله . وهي ما تحطمه من الأسباب العامة . فمن المرجو أن تتجدد له النعمة بعد النقمة . وإلّا فهو الهلاك والفناء . وإن الله لغني عن العالمين[١٥] .

إن الذي يدور عكس دوران الفطرة التي فطر الله عليها الخلق ، يُعرِّض نفسه لضربات جميع أجزاء الكون ، فقوم نوح خرجوا عن خط ميثاق الفطرة الذي يشهد لله بالربوبية ، وأقبل على عبادة الأوثان والطواغيت ، وتحت سقفها قام بتدوين سُنَّة الظلم الإجتماعي ، ولقد خَوَّفهم نوح عليه السلام من عذاب يوم أليم ، لأنهم بأعمالهم هذه ينازعون أسباب الكون وأجزاء الوجود في نظامها الجاري . وهم بذلك يعرضون أنفسهم للقحط والجدب وللطوفان وقام عليه السلام بردهم إلى الطريق الصحيح الذي عليه تأتيهم البركات والسعادة الحقيقية ، وقال : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً * ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً** ﴾[١٦] قال المفسرون : محصل المعنى . لا ترجون لله وقاراً في ربوبيته . والحال أنه أنشأكم طوراً بعد طور يستعقب طوراً آخر . فأنشأ الواحد منكم تراباً ثم نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم جنيناً ثم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً ، وأنشأ جمعكم مختلفة الأفراد ، في الذكورة والأنوثة والألوان والهيئات والقوة والضعف إلى غير ذلك . وهل هذا إلّا التدبير ؟ فهو مدبر أمركم . هو ربّكم[١٧] . الذي يجب عليكم أن تعبدوه وحده . وقد عَدَّ عليه السلام النعم الدنيوية ، ووعد قومه توافر النعم وتواترها عليهم إن استغفروا ربهم . فلمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمات العامة . وانفتاح أبواب النعم من السماء والأرض أي أن هناك ارتباطاً خاصاً بين صلاح المجتمع

---

(١٥) الميزان : ١٠/٢٠٠ .

(١٦) سورة نوح ، الآيات : ١٠ ـ ١٤ .

(١٧) الميزان : ٢٠/٢٢ .

الإنساني وفساده وبين الأوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الإنسانية وطيب عيشه ونكده كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس** ﴾[١٨] وقوله : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾[١٩] وقوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[٢٠] .

لقد أرشدهم نوح عليه السلام إلى الطريق المستقيم ، فماذا كان رد القوم عليه بعد أن تلقوا منه الإنذار والتخويف ؟

* ثانياً : الصد عن سبيل الله :

١ ـ رفض بشرية الرسول :

لقد دعاهم نوح عليه السلام ليلاً ونهاراً ، والذي دعا إليه هو عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ، دعاهم من غير فتور ولا توان ، لكن القوم تشبثوا بخط الإنحراف ، وأجابوا دعوة نوح بالفرار والتمرد والتأبي ، كان يدعوهم ليغفر لهم الله وفي هذا دليل على أنه كان ناصحاً لهم في دعوته ولم يرد لهم إلّا ما فيه خير دنياهم وعقباهم ، لكنهم صدوا المرشد إلى الصراط المستقيم . بوضع أصابعهم في آذانهم حتى لا يستمعوا إلى دعوته . وغطوا بثيابهم رؤوسهم ووجوههم لئلا يروه . وألحوا على الامتناع من الاستماع واستكبروا عن قبول دعوته استكباراً عجيباً . ولم يواجه نوح عليه السلام استكبارهم هذا بالصمت بل توجه بدعوته إليهم سراً وعلانيةً . سالكاً في دعوته كل مذهب يمكن . وسائراً في كل مسير مرجو . ولقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم حجج نوح عليه السلام التي واجه بها قومه ، عندما خرج كفارهم للصد عن سبيل الله ، فبعد أن أخبر نوح قومه أنه لهم نذير مبين ، وأمرهم بعبادة الله وحده ، وخوفهم من عذاب يوم أليم . وخرج إليه أشراف القوم الذين يعتبرون أنفسهم ميزاناً لكل ما يدور على أرضهم . وصدوا عن سبيل الله . وفقاً لبنود قانونهم الذي خرجوا به عن سُنَّة العدل الإجتماعي وبمقتضاه

---

(١٨) سورة الروم ، الاية : ٦١ .

(١٩) سورة الشورى ، الآية : ٣٠ .

(٢٠) سورة الأعراف ، الآية : ٩٤ .

قاموا بانتقاص وتحقير كل من هو دونهم ، يقول تعالى : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشر مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾(٢١) .

لم يتجاوز الرد عيونهم ﴿ **ما نراك** ﴾ و ﴿ **ما نرى** ﴾ لقد كان لكفار قوم نوح السبق في تدوين فقه النظر الأعمى ما نراك وما نرى ، وهذا الفقه الذي وضعت بذرته الأولى على أرضية قوم نوح . أثمر فيما بعد وقامت على ثماره قاعدة عريضة عمودها الفقري ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ وهذه القاعدة تعهدها فرعون وألقى بها إلى المستقبل لتأخذ الأشكال والوجوه التي تلائم كل عصر من العصور ، لقد بدأ كفار قوم نوح بمصادرة النبوة في قولهم : ﴿ **ما نراك إلاّ بشر مثلنا** ﴾ وهذه المصادرة تبتغي في المقام الأول قطع شعاع الهدى عن الناس ليظلوا تحت شعاع الإغواء والتزيين الذي يشرف عليه الشيطان الرجيم . ورفض قوم نوح إطاعة النبي البشر هو من جنس رفض الشيطان السجود لآدم ، لأن الله تعالى هو الذي أمر بالطاعة للرسول وهو الذي أمر بالسجود لآدم ، فرفض الطاعة هو من حقيبة رفض السجود وصاحب حقيبة رفض السجود يطرح الرفض على أوليائه وفقاً للزمان والمكان بمعنى أنه ينتقص ويُحقر بما يتلاءم مع كل عصر . فقوم نوح قالوا لرسولهم : ﴿ **ما نراك إلا بشر مثلنا** ﴾ ومن تحت أقدامهم أخذ كفار البشر هذه المقولة وألقوا بها أمام كل رسول من عند الله ، يقول تعالى : ﴿ **ألم يأتكم نبأُ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد** ﴾(٢٢) .

لقد طرح الشيطان على عقول أتباعه شبكة الحركة ضد أسباب الكون وجزئياته . كي تعيش البشرية في الضنك وتحت العذاب وهو ما فعل ذلك إلاّ أنه كاره للبشر وعدوله . ولكن الأغبياء على امتداد المسيرة البشرية لم يتدبروا ذلك ، لأنهم وضعوا على عقولهم وعلى عيونهم شباك من زخرف الحياة . صنعت داخل مصانع الإغواء والتزيين الشيطانية . ورفض قوم نوح الرسول البشر ، يقابله أن

---

(٢١) سورة هود ، الآية : ٢٧ .

(٢٢) سورة التغابن ، الآيتان : ٥ ـ ٦ .

يكون الرسول إليهم مَلَك من الملائكة . وهذا ضد سُنَّة الخلق لأن الملائكة إذا نزلت فإنما تنزل على ملائكة يقول تعالى : ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً** ﴾[٢٣] ولأن الشيطان يعلم أن معيشة الملائكة بين الناس لا تستقيم مع حركة الكون . دق ضرورة وجودهم في عقول أتباعه حتى بقطع الطريق على دعوة الرسل عليهم السلام ، فوقف أتباعه على امتداد التاريخ يقولون بأنهم يسيطرون على المجتمع ، ولهم الكلمة العليا فيه ، والذين يَدّعون أنهم رسلاً من الله لا يملكون الصلاحيات التي تؤهلهم لذلك له لأنهم أولاً يماثلونهم في البشرية ولأنهم ثانياً لا يملكون ما يمتلكوه هم . وثالثاً أنهم لا يستطيعون قهرهم على عبادة الله . وعلى هذا فإذا كان لا بد من رسول . فيجب أن يكون مَلَكاً من الملائكة يفوقهم في كل شيء وتكون له اليد العليا عليهم . . وبالجملة طالبوا بمن يقهرهم على عبادة الله . وهذا الطلب في حد ذاته ضد سُنَّة الله في خلقه . إذ لا إجبار في دين الله منذ خلق الله آدم عليه السلام ، حتى يرث الله الأرض . . إن دين الله لا إجبار فيه لأن الله غني عن العالمين .

لقد قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ **ما نراك إلا بشر مثلنا** ﴾ أي أنك مثلنا في البشرية . ولو كنت رسولاً إلينا لم تكن كذلك ولم يقف الكفار عند هذا الحد ، بل وجهوا إلى نوح عليه السلام سيل من الجرائم من بينها التآمر عليهم كما اتهموه عليه السلام بأن به جِنَّة يقول تعالى : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * إنْ هو إلاّ رجل به جِنَّة فتربصوا به حتى حين** ﴾[٢٤] قال المفسرون : السباق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون عامة الناس لصرف وجوههم عنه وإغرائهم عليه وتحريضهم على إيذائه وإسكاته . وقولهم : ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم** ﴾ محصله . . أنه بشر مثلكم فلو كان صادقاً فيما يدعيه من الوحي والإتصال بالغيب . . كان نظير ما يدعيه متحققاً فيكم ، إذ لا تنقصون منه في شيء من البشرية ولوازمها . وبما أنه يدعي ما ليس فيكم فهو كاذب ، وكيف يمكن أن يكون هناك كمالاً في وسع البشر أن يناله . ثم

---

(٢٣) سورة الإسراء ، الآية : ٩٥ .

(٢٤) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٢٤ ـ ٢٥ .

لا يناله إلاّ واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد عليه ؟ وعلى هذا فلم يبق إلاّ أنه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم ، ويترأس فيكم ، ويؤيد هذا أنه يدعوكم إلى اتباعه وطاعته . وقولهم : ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾ محصله : أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوة غيبية . . لاختار لذلك الملائكة الذين هم مقربون عنده والروابط بيننا وبينه فأرسلهم إلينا . . لا بشر ممن لا نسبة بينه وبينه . وقولهم : ﴿ **ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾ محصله : أنه لو كانت دعوته حقة ، لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانية ، وآباؤنا كانوا أفضل منا وأعقل ولم ينقل عنهم ما يناظر هذه الدعوة ، وعلى هذا فليست هذه الدعوة إلاّ بدعة وأحدوثة كاذبة وقولهم : ﴿ **إنْ هو إلاّ رجل به جِنة** ﴾ الجِنَّة إما مصدر ، أي به جنون ، أو مفرد الجن ، أي حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعي ما لا يقبله العقل السليم . ويقول ما لا يقوله إلاّ مصاب في عقله فتربصوا وانتظروا به إلى حين ما . لعله يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه(٢٥) وكما رموه بالجِنَّة رموه أيضاً بالضلالة ليصرفوا عنه وجوه الناس ويغرونهم عليه ويمدون في ضلالهم قال تعالى : ﴿ **قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾(٢٦) .

قال المفسرون : الملأ هم أشراف القوم وخواصهم . سموا به لأنهم يملأون القلوب هيبة والعيون جمالاً وزينةً . ولقد رموا نوحاً عليه السلام بالضلال المبين . لأنهم لم يكونوا ليتوقعوا أنَّ معترضاً يعترض عليهم بالدعوة إلى رفض آلهتهم . وتوجيه العبادة إلى الله سبحانه بالرسالة والإنذار . فعندما فعل نوح ذلك واقتحم عالمهم بدعوته تعجبوا من ذلك وأكدوا لعامتهم ضلالته . ولقد رد عليهم بقوله : ﴿ **قال يا قوم ليس بي ضلالة** ﴾ أجابهم بنفي الضلال عن نفسه . وأنه رسولٌ من الله سبحانه . وذكره بوصفه « رب العالمين » ليجمع له سبحانه الربوبية كلها . قبال تقسيمهم إياها بين آلهتهم بتخصيص كل منها بشيء من شؤونها

---

(٢٥) الميزان : ٢٩/١٥ .

(٢٦) سورة الأعراف ، الآيات : ٦٠ ـ ٦٣ .

وأبوابها كربوبية البحر وربوبية البر وربوبيـة الأرض وغير ذلـك . ثم أخبرهم عليـه السـلام بأوصـاف نفسه . فبين أنـه يبلغهم رسالات ربـه . وهـذا شـأن الـرسـالـة ومقتضاها القريب الضروري . ثم ذكـر أنه ينصـح لهم ليقربهم من طـاعة ربهم . ويبعـدهم عن الاستكبـار والاستنكـاف عن عبـوديتـه . وأنـه يعلم من الله مـا لا يعلمون . كوقائع يوم القيامة من الثواب والعقاب وغير ذلـك . وما يستتبـع الطاعـة والمعصيـة من رضـاه تعـالى . وسخـطه ووجـوه نعمـه ونقمـه(٢٧) ثم قـال لهم : ﴿ **أوعجبتم أنْ جـاءكم ذكـر من ربكم على رجـل منكم** ﴾ لقـد أنكـر تعجبهم من دعواه الرسالة ، ودعوته إياهم إلى الدين الحق ، وقـال : لا تعجبوا من هـذا ، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم . رحمةً بكم ولـطفاً وإحسـاناً إليكم لينذركم . ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به(٢٨) .

ورغم هذا البيان كـان الشيطان قـد استحوذ على عقـول كفار القـوم ، فلقد ظلوا يروجون لثقافة رَفْض البشر الرسول ، تلك الثقافة التي وضع الشيطان أصولها يوم رفض السجود لآدم . وقام القوم بإضفاء الزينة على ثقـافتهم التي وجهوهـا من أجل الصد عن سبيل الله . فأضافوا أوراق الانتقـاص والتحقير إليهـا متهمين نوحـاً عليه السلام بالضلالة وأن به جِنَّة ، ولقد التقط طابور الشـذوذ على امتداد التـاريخ الإنسـاني هذه المقـولات وأضافـوا إليها . وإذا كـان قوم نـوح في أول الطريق قـد رفضوا البشر الرسول لأنه لا نسب بينه وبين المـلائكة . فـإن طابـور الإنحراف في ختام المسيرة البشرية قـد اخترع آلهـة وادعى أنه بينهـا وبين الله نسباً . وعلى هـذا الادعاء قامت دول ورفعت رايات كان الشيطان لها دليلاً .

إن الشـذوذ في أول الطريق يبـدو ضئيلاً ، ثم يتسـع شيئاً فشيئـاً . وإذا كان شـذوذ قوم نـوح قد دُفن في طين الـطوفـان . فـإن الشيـطان ظـل يـراقب تجـربـة الشذوذ ، ويلقي بآخر مرحلة من التجربة التي اندثر أصحابها على قـارعة الـطريق الذي يسير عليه المستكبرين الجدد ليلتقطوها . وهكذا . والله غـالب على أمره .

---

(٢٧) الميزان : ٨/١٧٥ .

(٢٨) تفسير ابن كثير : ٢/٢٢٣ .

٢ ـ تحقير أتباع الرسول :

وفقاً لفقه (ما نراك وما نرى) الذي وضع قواعده كفار قوم نوح في بداية المسيرة البشرية ، وبعد أن قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ **ما نراك إلّا بشر مثلنا** ﴾ انتقلوا إلى أتباعه الذين آمنوا برسالته وقالوا : ﴿ **وما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾(٢٩) : قال المفسرون : الرذل أي الخسيس الحقير من كل شيء(٣٠) لقد قالوا له ما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك ، لم يكن عن تروٍ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك ، ولهذا قالوا : ﴿**بادي الرأي**﴾(٣١) لقد نظروا إلى أتباع نوح عليه السلام . بمنظار الطبقة المملوءة الجيوب المنتفخة الأفخاخ والبطون . ثم قالوا بعد أن فرغوا من تحقّير أتباع نوح : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ أي أن دعوتكم لنا ونحن عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياة الدنيا كالمال والبنين والقوة . إنما تستقيم لو كان لكم شيء من الفضل تُفضّلون به علينا من زينة الحياة الدنيا أو علم من الغيب ، حتى يوجب ذلك خضوعاً منا لكم . ونحن لا نرى شيئاً من ذلك عندكم ، ودعوتكم هذه مع حالكم هذا ، تجعلنا نظن بأنكم كاذبون فيما تقولوه لنا ، وأنكم في الحقيقة لا تريدون إلّا نيل ما بأيدينا من أموال وثروات . والاستعلاء علينا بالحكم والرئاسة(٣٢) .

وهكذا اتهموا نوحاً عليه السلام بالتآمر عليهم عندما قالوا : ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم** ﴾(٣٣) واتهموه هو وأتباعه بنفس التهمة عندما قالوا : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾(٣٤) إن الشذوذ والإنحراف في قانونهم نظام ، قاعدة وغيره استثناء ، ومن يقترب من القاعدة بماء نظيف فهو خارج عن القانون ، لقد اتهموا الدعوة بأنها دعوة الجياع الذين يريدون

---

(٢٩) سورة هود ، الآية : ٢٧ .

(٣٠) الميزان : ١٠/٢٠٢ .

(٣١) تفسير ابن كثير : ٢/٤٤٢ .

(٣٢) الميزان : ١٠/٢٠٤ .

(٣٣) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ .

(٣٤) سورة هود ، الآية : ٢٧ .

الاستيلاء على الطعام وزخرف الحياة . ولوحوا إلى نوح عليه السلام بأن يطرد هؤلاء من حوله . نظراً لخطورتهم على المدى البعيد كما يعتقدون يقول تعالى : **﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إنْ حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين ﴾**[٣٥] . قال المفسرون : لقد ذكروا له أن متبعيه من العبيد والفقراء والسفلة وأرباب الحرف الدنيئة . فنفى عليه السلام علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به[٣٦] وقال وأي شيء يلزمني من أتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص ، إنما عليّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي وأكِلُ سرائرهم إلى الله عز وجل[٣٧] . وقوله : **﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾** كأنهم سألوا منه أن يبعدهم فقال : لا شأن لي إلا الإنذار والدعوة . فلست أطرد من أقبل عليّ وآمن بي[٣٨] فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني سواء كان شريفاً أو وضيعاً . جليلاً أو حقيراً[٣٩] وفي مجمل رده عليه السلام كما جاء في سورة هود قال : **﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إنْ طردتهم أفلا تذكرون ﴾**[٤٠] قال المفسرون : لقد أطلق المترفين على أتباعه لفظ الأراذل . فَغَيَّر عليه السلام اللفظ إلى الذين آمنوا تعظيماً لإيمانهم وارتباطهم بربهم . ورفض ان يطردهم من عنده . وعلل ذلك . بأن الذين آمنوا . لهم يوماً يُرجعون فيه إلى الله . فيحاسبهم على أعمالهم . فالملأ ينظر إلى أتباعه . على أنهم أراذل ولا يملكون مالاً أو جاهاً ، وهذه نظرة قاصرة ؛ فالحياة الدنيا عَرَض زائل وسراب باطل . ولا تخلو من خصال خمس : لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر . وهذه الخصال يتعلق بها أو ببعضها هوى الإنسان ، وهي أمور زائلة لا تبقى للإنسان . ولكن تكون النظرة ثاقبة . يجب النظر إلى عمل الإنسان . وهذا العمل سيظهر جلياً يوم القيامة .

---

(٣٥) سورة الشعراء ، الآيات : ١١١ ـ ١١٥ .

(٣٦) الميزان : ١٥/٢٩٦ .

(٣٧) ابن كثير : ٢/٣٤٠ .

(٣٨) الميزان : ١٥/٢٩٦ .

(٣٩) ابن كثير : ٣/٣٤٠ .

(٤٠) سورة هود ، الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠ .

والـذين آمنـوا سيعـرضـون على الله فيحـاسبهم ، ولا يملك أحـد أن يحـاسبهم سواه . . . ثم قال لهم : ﴿ **ويا قوم من ينصرني من الله إنْ طردتهم أفلا تذكرون** ﴾ أي من يمنعه من عذاب الله إن طردهم من عنده ، أفلا يتذكرون أن هذا العمـل إذا تم يكون ظلماً ؟ والله تعالى ينتصر للمظلوم من الظالم وينتقم منـه ، والعقل جـازم بـأن الله سبحانـه لا يساوي بين الـظالم والمظلوم ، ولا يـدع الظالم يـظلم دون أن يجـازيـه على ظلمـه بمـا يسـوءه ويشفي بـه غليـل صـدر المـظلوم والله عـزيـز ذو انتقام[٤١] .

لكن القوم لا يفقهون قولاً ، فدستـور التحقير الـذي وضع الشيـطان أصولـه جرى في عروقهم مجرى الدم ؛ فهم قادة عالم اللعب واللهو والزينـة وهم أساتـذة في التفاخر ، فإذا جاءهم مَنهج من غيرهم واتبعه عمالهم كان في ذلك شقـاؤهم . لهذا وقفوا منذ البداية في موقف الصَّد عن سبيل الله ، وتبنى الأشراف ثقافة تَشَرَّبها العامة والغوغاء بسهولة ، ثقافة تقول لهم : لا تضيِّعوا وقتكم أمام دعوة لا طائل من ورائها ! ثقافة تحرك لسانها بكلمات عذبة تُضمر خدعاً معسولة خدع معسولة تلفها أحابيل ماكرة . أحابيل مـاكرة مـا إنْ تسمعها آذان الغـوغاء حتى تحتضنهـا قلوبهم وتدافع عنها سواعدهم ، وكفى بالسواعد أن تـدافع عن نـظام الملأ ! ذلـك النظام الذي يهدده أراذل إخِسَّاء على رأسهم بشر يَـدَّعي أنه يـوحى إليه . ويـطالب القوم باتباعه وطاعته ، وهو ـ أي الـرسول ـ وهم ـ أي الأراذل ـ لا يملكـون لعباً ولا لهـواً ولا زينةً . والخلاصة أن فقه التحقير والانتقاص الذي وضعه الشيـطان ورعاه كفـار قوم نوح في بداية الطريق . كان بجميع المقاييس كارثة على المسيرة البشريـة فيما بعد لأنه كان عمود عتيق على طريق الانحراف والصد عن سبيل الله .

* ثالثاً : دفع الصَّد والتحقير :

لقد تقدم نوح عليه السلام برسالته التي بعثه الله تعالى بها إلى قومه ، وكانت الـرسالـة في مجملها إنـذار : أن لا يعبدوا إلا الله لأنـه يخـاف عليهم عـذاب يـوم أليم ، وعندما تقدم عليه السلام برسالته إلى قومه صدوه بردود ثلاثة :

الأول : قولهم : ﴿ **ما نراك إلا بشر مثلنا** ﴾ .

---

(٤١) الميزان : ١٠/٢٠٨ .

والثاني : قولهم : ﴿ **ما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي** ﴾ .

والثالث : قولهم : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ وانتهى القوم إلى حكم قالوا فيه : ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ وهو حكم يحتوي في مضمونه أن الدعوة ما سلكت هذا الطريق إلّا لهدف واحد : هو السيطرة على المال والثروات والحكم ! فماذا كان رد نوح عليه السلام على هذه الصدود الثلاث ؟ وعلى هذا الحكم الذي ترتب على هذه الصدود ؟ لقد كان رد نوح عليه السلام رداً شافياً كافياً ، وجاء ذلك في قول الله تعالى :

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إنْ كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيَتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلّا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين** ﴾(٤٢) .

قال المفسرون : لما كانت حجتهم مبنية على الحس ونفي ما وراءه ، وقد استنتجوا من حجتهم عدم الدليل على وجوب طاعته واتباعه . أجابهم عليه السلام : بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته وما يتبعه ، ونفي ما حاولوا إثباته . بإتهامه واتهام أتباعه بالكذب ، غير أنه عليه السلام استعطفهم بقوله : « يا قوم » مرة بعد مرة ليجلبهم إليه . فيقع نصحه موقع القبول منهم . وقد أبدعت الآيات الكريمة في تقرير حجته عليه السلام في جوابهم فقطعت حجتهم فصلاً فصلاً . فقوله : ﴿ **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة** . . . ﴾ جواب على قولهم : ﴿ **ما نراك إلّا بشر مثلنا** ﴾ وقوله : ﴿ **يا قوم لا أسألكم عليه مالاً** . . . ﴾ جواب عما اتهموه به من الكذب ولازمه أن تكون دعوته طريقاً إلى جلب أموالهم لأنه يريد أن يتفضل عليهم . وقوله : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** . . . ﴾ جواب عن قولهم : ﴿ **وما نرى اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** . . . ﴾ وقوله : ﴿ **ولا أقول لكم عندي خزائن الله** ﴾ جواب عن قولهم : ﴿ **ولا نرى لكم علينا من فضل** ﴾ .

---

(٤٢) سورة هود ، الآيات : ٢٨ ـ ٣١ .

١ - إثبات الرسالة :

لقد رفضوا الرسول البشر وقالوا : ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾(٤٣) فكانت حجته عليه السلام : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيَتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾(٤٤) قال المفسرون : كان سندهم في نفي الرسالة أنه بشر ، لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة والاتصال بالغيب . فكان عليه أن يظهر ما يفيد صدقه في دعوى الرسالة . وهي الآية المعجزة الدالة على صدق الرسول . في دعوى الرسالة . لان الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعادة الجارية . لا طريق إلى العلم بتحققه ، إلّا بوقوع أمر غيبي آخر خارق للعادة ، يوقن به كَوْن الرسول صادقاً في دعواه الرسالة ، ولذلك أشار عليه السلام بقوله : ﴿ **يا قوم أرأيتم إنْ كنتُ على بينة من ربي** ﴾ إلى أن معه بَيِّنَة من الله وآية معجزة تدل على صدقه في دعواه . وقوله : ﴿ **وآتاني رحمة من عنده** ﴾ يشير به إلى ما آتاه الله تعالى من الكتاب والعلم ، وقد تكرر في القرآن الكريم تسمية الكتاب وكذا تسمية العلم بالله وآياته رحمة(٤٥) . أما قوله : ﴿ **فعميت عليكم** ﴾ المراد منه : أن ما عندي من العلم والمعرفة أخفاها عليكم جهلكم وكراهتكم للحق . بعد ما ذكرتكم به وبثثته فيكم . وقوله : ﴿ **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ المراد إلزامهم الرحمة وهم لها كارهون .

والمعنى - والله أعلم - أخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدق رسالتي مع كوني بشر مثلكم ، وكانت عندي ما تحتاج إليه الرسالة . من كتاب وعلم يهديكم إلى الحق ، لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنادكم واستكباركم . . أيجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها ؟ أي عندي جميع ما يحتاج إليه رسول من الله في رسالته ، وقد أوقفتكم عليه . لكنكم لا تؤمنون به . طغياناً واستكباراً . وليس علي أن أجبركم عليها . إذ لا إجبار في دين الله سبحانه . . .

(٤٣) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ .

(٤٤) سورة هود ، الآية : ٢٨ .

(٤٥) قال تعالى : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً** ﴾ سورة هود ، الآية : ١٧ ، وقال تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة** ﴾ سورة النحل ، الآية : ٨٩ ، وقال تعالى : ﴿ **فوجد عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ سورة الكهف ، الآية : ٦٥ .

ففي بيانه تعريض لهم أنه قد تمت عليهم الحجة . وبانت لهم الحقيقة . فلم يؤمنوا . لكنهم مع ذلك يريدون أمراً يؤمنون لأجله ، وليس إلا الإجبار والإلزام على كراهية ، فهم في قولهم : لا نراك إلا بشراً مثلنا . . لا يريدون إلّا الإجبار ، ولا إجبار في دين الله ، والآية من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين ، وتدل على أن ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع ، وهي شريعة نوح عليه السلام ، وهذا الحكم باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ[٤٦] . وقد ظهر مما تقدم أن الآية ﴿ **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة** . . . ﴾ جواب عن قولهم : ﴿ **لا نراك إلا بشراً مثلنا** . . . ﴾ ويظهر بذلك فساد قول البعض إنه جواب عن قولهم : ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ أو قول آخرين إنه جواب : ﴿ **ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ أو غير ذلك[٤٧] .

لقد أقام نوح عليه السلام الحجة عليهم من أول يوم في بعثته . ولكن الذين كفروا لم يكن عندهم استعداد للوقوف في مجرى الرحمة الإلهية ، والوقوف في مهب النفحات الربانية ، لهذا لم ينفعهم ما يشاهدونه من آيات الله . وما يسمعون من مواعظ نوح . وما تلقنه لهم فطرتهم من الحجة والبينة . لقد نظروا بعيون العناد وفكروا بعقول الاستكبار ، ثم طالبوا نوحاً أن يثبت لهم أنه مبعوث إليهم . وكيف السبيل إلى ذلك وهم نزلوا بأسماعهم وبأبصارهم وبطونهم المنزلة التي في الأنعام . واستعملوها فيما تستعملها فيه الأنعام وهو التمتع من لذائذ البطن والفرج . ومنزلة الأنعام التي نزلوا إليها أرفع منهم وأقوم ، لأن الأنعام مهتدية بحسب تركيبها وخلقها . غير ضالة لأنها تسير على الطريق الذي خلقت لأجله . أما هؤلاء فقد قطعوا شوطاً طويلاً في عالم الضلال والغفلة وألقوا بإنسانيتهم في أسفل سافلين . وكل هذا من أجل حفنة من زخرف الحياة . لَوّنَها لهم الشيطان وغواهم بها .

٢ ـ الدفاع عن الإنسان :

لقد اتهموا نوحاً عليه السلام بأنه يريد بدعوته أن يتفضل عليهم ويترأس فيهم وينال هو وأتباعه ما بأيديهم من أموال وثروات ، فكان جوابه على هذا :

---

(٤٦) الميزان : ١٠/٢٠٧ .

(٤٧) الميزان : ١٠/٢٠٧ .

﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلّا على الله** ﴾(48) قال المفسرون : أي أنه إذ لم يسألهم شيئاً من أموالهم ، لم يكن لهم أن يتهموه بذلك(49) إنهم أبقوا بقضية الأموال وسط الساحة في حين أنه لا توجد له فيها ورقة ، ثم اتهموه مع أتباعه أن دعوته لها أهداف أخرى وأشاروا بطرد أتباعه والكف عن دعوته ، وعندما رفض هددوه بالرجم قال : ﴿ **وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلّا نذير مبين * قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾(50) . وعندما ربط القوم بين الأموال والأتباع جاء رده عليه السلام أولاً بنفي الأجر ثم بالدفاع عن الأتباع ثم إخبارهم بعد ذلك بأنه لا يملك الخزائن ، فهو أولاً لم يطمع فيما عندهم من مال ، ولا يسألهم على نصحه لهم أجراً ، وعلى هذا فالضعفاء الذين يؤمنون به لا يطمعون في مال عنده أخذه من القوم ولا يطمعون في كنوز يخفيها لأنه ليس عنده من هذه الكنوز شيئاً . . . ﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين** ﴾(51) .

قال المفسرون : بعد دفاعه عن الذين آمنوا وإظهار أنهم ما آمنوا إلّا ابتغاء وجه الله ، وأن حسابهم على الله ، قام بالرد على قولهم : ﴿ **ولا نرى لكم علينا من فضل** ﴾ فقال : ﴿ **ولا أقول لكم عندي خزائن الله** . . . ﴾ الآية . قال المفسرون : يرد عليهم قولهم بأني لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعون مني أن أدعيه . وبما أني أدعي الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يمتلك خزائن الرحمة الإلهية . فيغني الفقير ويشفي العليل ويحيي الموتى . ويتصرف في السماء والأرض وسائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء . وأن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون . . وأن يرتفع عن درجة البشرية

---

(48) سورة هود ، الآية : 29 .

(49) الميزان : 10/307 .

(50) سورة الشعراء ، الآيات : 114 ـ 116 .

(51) سورة هود ، الآيات : 29 ـ 31 .

إلى مقام الملائكة فيكون مَلِكاً منزهاً من ألواث الطبيعة ومبرى من حوائج البشرية ونقائصها فلا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يقع في تعب اكتساب الرزق . فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها ويمتلكها ، وقد أخطأتم ، فليس للرسول إلاّ الرسالة . وإني لست أدعي شيئاً من ذلك ، فلا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، وبالجملة لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقده ، وإنما أقول فقط : إني على بينة من ربي تصدق رسالتي ، وآتاني رحمة من عنده[٥٢] .

وبعد أن حطم عليه السلام الوثنية في أساطيرهم ، بدأ في تحطيم ميزانهم الذي أقاموه . بدلاً من سنة العدل الإجتماعي ، وبه قاموا بتصنيف خلق الله فقال : ﴿ **ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم** . . . ﴾ قال المفسرون : هذا الفصل إشارة إلى ما كان يعتقده الملأ الذين كفروا من قومه . وبنوا عليه سُنّة الاشرافية وطريقة السيادة . وهو أن أفراد الإنسان تنقسم إلى قسمين : الأقوياء والضعفاء ، أما الأقوياء فهم أولو الطول المعتضدون بالمال والعُدَّة . وأما الضعفاء فهم الباقون . الأقوياء هم السادة في المجتمع الإنساني ، ولهم النعمة والكرامة ، ولأجلهم انعقد المجتمع ، وغيرهم من الضعفاء . . . مخلوقون لأجلهم ، وبالجملة كان معتقدهم أن الضعيف في المجتمع . . . إنسان منحط أو حيوان في صورة إنسان . وهو داخل المجتمع يشارك في الحياة ليستفيد الشريف من عمله وينتفع من كده ، والضعيف في المجتمع محروم من الكرامة ، مطرود عن حظيرة الشرافة . . فهذا هو الذي كانوا يرونه ، وكان هو المعتمد عليه في مجتمعهم وقد ردّ نوح عليه السلام ذلك . وبَيَّنَ خطأهم في معتقدهم بقوله : ﴿ **الله أعلم بما في أنفسهم** ﴾ أي أن أعينكم إنما تزدريهم وتستحقرهم ، وتستهين أمرهم . لما تحس ظاهر ضعفهم وهوانهم ، وليس هذا الأساس في إحراز الخير ونيل الكرامة ، بل الأساس في ذلك أمر النفس وتحليها بحليّ الفضيلة ، ولا طريق لي ولا لكم إلى العلم ببواطن النفوس وخبايا القلوب ، فلله وحده ذلك ، وليس لي ولا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير

(٥٢) الميزان : ١٠/٢٠٩ .

والسعادة[٥٣] .

لقد حطم عليه السلام بحججه أصنام التحقير والانتقاص . وبَيَّن لهم أنه لا يدعي شيئاً مما يتوقعونه من رسالته ، فليس للرسول إلّا الرسالة وقد قدم لهم ما يثبت صدقه في أنه رسول من الله رب العالمين . لكنهم نظروا إلى البينة والرحمة بعيون الاستكبار فَعُمِّيَتْ عليهم . ثم أخبرهم أن الضعفاء الذين لهم هوان عندهم لم يؤمنوا طمعاً في مال عنده . لأنه لا يملك هذا المال بدليل أنه لم يسألهم أموالهم ولم يَدَّع أنه يملك خزائن الرحمة وعلم الغيب ، وبين لهم أن الله تعالى هو العليم بما في الصدور . وأن مُلاك الكرامة الدينية والرحمة الإلهية زكاء النفس وسلامة القلب ، فمن الجائز أن يعلم الله من نفوس هؤلاء الضعفاء خيراً فيؤتيهم خيراً ، ولا ينبغي أن يُقال لن يؤتِ الله هؤلاء خيراً ، لأن القول بهذا ظلم يدخل صاحبه في زمرة الظالمين . لقد قال نوح عليه السلام هذا وهو يدعوهم إلى التوحيد ، كان يخاصمهم ويحاجّهم بفنون الخصام والحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم وأنار الحق لهم على امتداد مئات من السنين . ولكن كفار قومه أصروا على التكذيب وعبادة الأوثان وتحقير الإنسان .

* رابعاً : الاضطهاد والتحدي :

أمام حجج نوح عليه السلام ؛ رفع طابور الكفر لافتة تتهم نوحاً بالجنون . يقول تعالى : ﴿ **فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** ﴾[٥٤] قال المفسرون : في التعبير عن نوح عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ **عبدنا** ﴾ تجليل لمقامه وتعظيم لأمره وإشارة إلى أن تكذيبهم له يرجع إليه تعالى ، لأنه عبد لا يملك شيئاً ، وما له فهو لله ، ولم يقتصروا على مجرد التكذيب ؛ بل نسبوه إلى الجنون ، فقالوا : هو مجنون ، وازدجره الجن ، فلا يتكلم إلا عن زجر وليس كلامه من الوحي السماوي في شيء ، وقيل المعنى : ازدجره القوم عن الدعوة والتبليغ بأنواع الإيذاء والتخويف[٥٥] . وأمام سياسة الإرهاب هذه واجه نوح عليه السلام قومه

---

(٥٣) الميزان : ١٠/٢١٤ .

(٥٤) سورة القمر ، الآية : ٩ .

(٥٥) الميزان : ١٩/٦٨ .

بما يقصم ظهورهم وَقَرَّع باستكبارهم في التراب يقول تعالى : ﴿ . . . **قال لقومه يـا قوم إن كـان كبر عليكم مقـامي وتذكيـري بآيـات الله فعلى الله توكلت فـاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمـة ثم اقضوا إليّ ولا تـنـظرون * فإن تـوليتم فمـا سـألتكم من أجـر ان أجـري الا على الله وأمـرت ان أكـون من المسلمين** ﴾(٥٦) .

قال المفسرون : لقد واجه قومه وهـو واحد . . . تحـداهم بأن يفعلوا بـه ما بدا لهم إن قدروا على ذلك ، وأتم الحجة على مكذبيه في ذلك : ﴿ **إذ قال لقـومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي** ﴾ ونهضتي لأمر الدعوة إلى التوحيد أو منـزلتي من الـرسالـة ﴿ **وتذكيـري بآيـات الله** ﴾ وهو داعيكم لا محـالة إلى قتلي ، وإيقـاع مـا تقـدرون عليه من الشـر بي ، لإراحة أنفسكم مني ﴿ **فعلى الله تـوكلت** ﴾ قبال مـا يهددني من تحرج صدوركم وضيق نفوسكم عليّ بإرجاع أمري إليه ، وجعله وكيلاً يتصرف في شؤوني ومن غير أن أشتغل بالتدبير ﴿ **فـاجمعوا أمـركم وشركـاءكم** ﴾ الذين تزعمون أنهم ينصرونكم في الشدائد ، واعـزموا عليّ بمـا بدا لكم ، وهـذا أمر تعجيزي ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ إن لم تكونوا اجتهدتم في التوسـل إلى كـل سبب في دفعي ﴿ **ثم اقضـوا إليّ** ﴾ بـدفعي وقتلي ﴿ **ولا تـنـظرون** ﴾ ولا تمهلوني .

وفي الآية تحديه عليه السلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم ، وإظهار أن ربـه قديـر على دفعهم عنه . وإنْ أجمعـوا عليـه وانتصروا بشـركـائهم وآلهتهم . وقوله : ﴿ **فـإن توليتم فمـا سألتكم عليـه من أجر** ﴾ أي فـإن توليتم وأعـرضتم عن استجابة دعوتي ، فلا ضير لي في ذلك فـإني لا أتضرر في إعـراضكم شيئاً ، لأني إنمـا كنت أتضـرر بـإعـراضكم عني لـو كنت سـألتكم أجـراً على ذلـك يفـوت بـالإعراض ، ومـا سألتكم عليـه من أجر ، إنْ أجـري إلّا على الله(٥٧) وبدأ القـوم يتذوقون العجز . . لم يستطيعوا القضاء على فرد واحد يقـول لهم هيا اقضـوا عليّ ولن تستـطيعـوا . لأني تـوكلت على الله ربي وربكم الـذي أدعـوكم إليـه ، وعلى

---

(٥٦) سورة يونس ، الآيتان : ٧١ ـ ٧٢ .
(٥٧) الميزان : ١٠/١٠٢ .

الرغم من وجودهم في دائرة العجز ، لم يؤمنوا وكذبوا نوحاً عليه السلام .

١ ـ استعجال العذاب :

رغم عجز القوم وعدم تحقيقهم أي تقدم للقضاء على نوح عليه السلام ؛ إلا أن استكبارهم أغراهم للقيام بمهمة أليمة تدفع بهم إلى يوم أليم . وهذه المهمة هي اتفاق الأشراف والكبراء على طلب العذاب من نوح : ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾(٥٨) لقد جاءهم بالبيّنة ليثبت صدقه، ولكنهم أعرضوا عنها ، وجاءهم بالتحدي ليثبت صدقه ، فلم يقدروا عليه وكذبوه ، وها هم يطالبوه بأن يأتيهم بالعذاب ليثبت صدقه ، يقولون هذا وعندما سيأتيهم العذاب لن يستطيعوا حتى التنفس ، يقول المفسرون : لقد قالوا هذا بعد أن عجزوا عن دحض حجته ، وأخفوا هذا العجز في ثياب الجبابرة ، ومعنى قولهم والله أعلم : يا نوح قد جادلتنا . فأكثرت جدالنا ، حتى سئمنا ومللنا ، وما نحن لك بمؤمنين ، فأتنا بما تعدنا من العذاب ، أي ما أنذرتنا به في أول دعوتك من عذاب يوم أليم .

فكان رد نوح عليه السلام على طلبهم للعذاب : ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين** ﴾ : أي أن الإتيان بالعذاب ليس إليه ، فما هو إلاّ رسول ، إنما الإتيان به إلى الله سبحانه ، لأنه تعالى هو الذي يملك أمرهم ، ولقد وعدهم بالعذاب بأمره تعالى ، لأن إليه مرجعهم كله ، ولا يرجع إلى نوح من أمر التدبير شيئاً ، فالله سبحانه إن يشأ يأتيهم بالعذاب ، وإن لم يشأ فلا(٥٩) .

٢ ـ الدعاء المستجاب :

إن المجتمع الذي يصادر الحقائق ويستعبد العباد ويطلب العذاب ، لا يمكن أن يقود قافلة إلى الهدىٰ . لقد أعرضوا عن العبادة الحق ، وقد دعاهم نوح عليه السلام إليها ليلاً ونهاراً من غير فتور ولا توان ، فقابلوه بجعل أصابعهم في آذانهم وغطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم لئلا يروا نوحاً ، واستكبروا عن قبول الدعوة استكباراً عجيباً ، كما دعاهم عليه السلام سراً وعلانيةً ، وطالبهم

---

(٥٨) سورة هود ، الآية : ٣٢ .

(٥٩) الميزان : ٢١٥/١٠ .

بالاستغفار ، لكنهم عصوه . وعلى امتداد الدعوة رموا نوحاً عليه السلام بالضلال وبالجنون وهددوه بالرجم . فلم يخرجه ذلك عن حلمه ، ولم يرد عليهم إلاّ بما تمليه أخلاق النبوة ، ونوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً . وعلى امتداد هذه المدة كان يدعوهم إلى الله ، وفي النهاية لم يركب معه في السفينة كما في رواية صحيحة سوى ثمانون رجلاً معهم أهلوهم . وفي هذا إشارة إلى أنه عليه السلام قاسى من قومه الكثير ؛ فالذين كان يدعوهم وهم شباب كانوا يقودون حركة الصَّد عن سبيل الله وهم شيوخ . وذلك لأن ثقافة التوثين كان يسهر عليها الأقوياء وهذه الثقافة حاصرت بقوتها وزينتها وزخرفها الأهواء المتعددة ، فهرول كل صاحب هوى إلى هواه ، مصادراً كل نداء للفطرة ، وكل دعوة تدعوه للنظر والتدبر في الكون .

ونوح عليه السلام دعا على قومه ولكنه لم يدع عليهم إلاّ بعد أن تبين أنهم ركبوا طريق الكفر الذي لا عودة فيه ، فعندما تبين هذا ﴿ **قال رب إن قومي كذَّبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين** ﴾[٦٠] قال المفسرون : هذا استفتاح منه عليه السلام . وقدم له قوله : ﴿ **رب إن قومي كذَّبون** ﴾ أي تحقق منهم التكذيب المطلق . الذي لا مطمع في تصديقهم بعده . وقوله : ﴿ **فافتح بيني وبينهم فتحاً** ﴾ كأنه وأتباعه والكفار من قومه قد اختلطوا في مكان واحد ، فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحة بينه وبين قومه ، يبتعد بذلك أحد القبيلين عن الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب ، ولا يهلك إلاّ الفاسق الفاجر الكَفَّار ، وعندما طلب عليه السلام من ربه أن ينصره ويفرق بينه وبين القوم الظالمين ؟ أوحى إليه ربه : ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾[٦١] وعندما أوحى الله تعالى بهذا إلى نوح . دعا عليه السلام على قومه الدعاء القاصم . قال المفسرون : يستفاد من قوله تعالى : ﴿ **إنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن . . .** ﴾ أن عذاب الاستئصال لا يضرب الكفار ما كان الإيمان مرجواً منهم ، فإذا ثبتت فيهم مَلَكة الكفر ورجس الشرك ، حق عليهم كلمة العذاب ، كما يستفاد أن دعاء نوح عليه السلام :

---

(٦٠) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٧ ـ ١٨ .

(٦١) سورة هود ، الآية : ٣٦ .

﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنـك إن تذرهم يضلوا عبـادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً** ﴾(٦٢) كان واقعـاً بعد وحي الله لـه ﴿ **انه لن يؤمن من قـومك إلاّ من قد آمن** ﴾ وذلك لأنه لا سبيل إلى العلم بعدم إيمان الكفار في المستقبل إلاّ عن طريق الوحي ، فهو عليه السـلام . علم أولاً من وحيه تعـالى إليه أنـه لن يؤمن من قـومـه إلاّ من قـد آمن ، وأن أحـداً منهم لا يؤمن بعـد ذلـك ولا في نسلهم من سيؤمن بالله ، ثم دعا عليهم بالعذاب ، وذكر في دعائه ما أُوحي إليه(٦٣) .

دعا نوح عليه السلام ربـه بعد أن أصبـح القوم لا فـائدة في بقـائهم . لأنهم أولاً يضلون المؤمنين . ولأنهم ثانياً لا فائدة فيهم لمن يلدونـه من الأولاد ، فهم لا يلدون إلاّ فاجراً كفاراً ، والفجور هو الفسق الشديد ، والكَفَّار هـو الذي يبـالغ في الكفـر ، واستجاب تعـالى دعوتـه ، وأمره سبحـانـه بصنع السفينـة وأخبـره أنهم مغرقون .

٣ ـ أوامـــر النجـــاة :

أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقـون** ﴾(٦٤) قال المفسـرون والمعنى : واصنع السفينة تحت مراقبتنا الكاملة وتعليمنا إياك ، ولا تسألني صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا ، فإنهم مقضى عليهم الغرق ، قضاء حتم لا مرد له(٦٥) . وأوحى الله تعالى إليه : ﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول منهم ولا تخـاطبني في الذين ظلمـوا إنهم مغرقـون** ﴾(٦٦) قال المفسرون : السياق يشهد على كون فوران التنور بالماء ، أمارة نزول العذاب عليهم . وفوران الماء من التنور وهو محل النار من عجيب الأمـر . ثم أمره تعـالى بأن يُدخـل في الفلك زوجين اثنين : ذكر وأنثى من كـل نوع من الحيـوان . وأهله والظاهر أنهم أهل بيته والمؤمنون به ، والمراد بمن سبق عليه القـول فمنهم امرأتـه

---

(٦٢) سورة نوح ، الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧ .
(٦٣) الميزان : ١٠/٢٢٢ .
(٦٤) سورة هود ، الآية : ٣٧ .
(٦٥) الميزان : ١٠/٢٢٤ .
(٦٦) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٧ .

الكافرة على ما فهم نوح عليه السلام ، وابنه الذي أبى ركوب السفينة وقوله تعالى : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ فكأنه قيل : أنهاك عن أصل تكليمي فيهم . فضلاً عن أن تشفع لهم . فقد شملهم غضبي شمولاً لا يدفعه دافع(٦٧) .

وبعد أن أوحى الله إليه بصنع السفينة وعلامة العذاب وهي فوران التنور ، وبعد أن نهاه عن الشفاعة في الذين ظلموا قال تعالى : ﴿ **فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين** ﴾(٦٨) قال المفسرون : علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك . على تنجيته تعالى من القوم الظالمين . وهذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتماً . وأن يسأله أن ينجيه من الطوفان وينزله على الأرض إنزالاً مباركاً . ذا خير كثير ثابت . فإنه خير المنزلين(٦٩) .

٤ ـ يوم الغضب :

وبدأ نوح عليه السلام في صناعة السفينة يقول تعالى : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾(٧٠) قال المفسرون : لم يقل عليه السلام إن تسخروا مني فإني أسخر منكم ، وفي هذا إشارة إلى ان أهله وأتباعه كانوا يشاركونه في صنع السفينة ، وكانت السخرية تتناولهم جميعاً ، وإن كانوا لم يذكروا في هزئهم إلا نوحاً فقط ، والطبع والعادة يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضاً . كما كانوا يسخرون منه ، فهم أهل مجتمع واحد . تربط المعاشرة بعضهم ببعض . وإن كانت سخريتهم سخرية منه في الحقيقة . لأنه هو الأصل الذي تقوم به الدعوة ولذا قيل : ﴿ **سخروا منه** ﴾ ولم يقل : « سخروا منه ومن المؤمنين » وعندما سخر القوم من نوح وأتباعه قال لهم عليه السلام : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم : سوف تعلمون من

---

(٦٧) الميزان : ١٥/٣٠ .
(٦٨) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٢٨ ـ ٢٩ .
(٦٩) الميزان : ١٥/٣٠ .
(٧٠) سورة هود ، الآيتان : ٣٨ ـ ٣٩ .

يأتيه عـذاب يخزيـه ؟ نحن أو أنتم ؟ ـ والمراد بـه عذاب الاستئصـال في الدنيـا ـ ويحل عليه عذاب مقيم ـ أي ينزل عليـه عذاب ثـابت لازم لا يفارق . وهـو عذاب النار في الآخرة[٧١] .

لقد قذفهم بعذابين الأول موصوف بالخزي والثاني مـوصوف بـالاقامـة[٧٢] قذفهم بالعذاب القادم لا محالة بعد أن تتابعوا عليه جماعة بعد جماعة ، يسخرون منـه لأنه يصنـع الفلك على وجه الأرض من غيـر ماء . وكـان عليه السـلام يصنـع الفلك على مـرأى منهم وفي ممر عـام . لقد كـان الصنع بـوحي من الله وكـان في الصنـع معجزة ، ولكن القـوم لم يجـدوا في عـالمهم وثقـافتهم سـوى السخـريـة والتحقيـر والانتقاص . وظلوا على هـذا الحـال . حتى جـاء اليـوم الأليم . وفـار التنور . وبدأ نوح عليه السلام يحمل في السفينة من آمن به . وما آمن بالله مع نوح إلاّ قليـل . وحمل عليـه السـلام معـه من كـل جنس من أجنـاس الحيـوان زوجين اثنين ، وكان القوم يشاهدون حركة نوح والذين آمنوا معه في اتجـاه السفينة . فـلا تزيدهم الحركة إلاّ سخرية . فلم يكن الذين كفروا يعلمون ماذا يعني بـالنسبة لهم فوران التنور . وما إن استقر الذين آمنوا مع نوح عليـه السلام على ظهـر السفينة . حتى لاحت بوادر غضب الله على الذين كفروا . فالسماء بدأت تزمجر إعلاناً ليـوم الغضب . وانهمر الماء من كل مكان . يقول تعالى :

﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمـر * وفجرنـا الأرض عيونـاً فالتقى المـاء على أمر قد قدر** ﴾[٧٣] قال المفسرون : صبت السماء المـاء صباً بـلا قطر ، صبـاً متوالياً كأنه مدخر وراء باب مسدود ثم فتح هذا الباب ، فانصب أشـد ما يكـون اما الأرض فجعلها عيوناً متفجرة عن الماء . تجري جرياناً متوافقاً متتابعاً . فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض على أهداف محددة ، تنفيذاً لأمـر قدره الله تعـالى ، من غير نقص ولا زيـادة ولا عجل ولا مهـل . وفي هـذا الهـول قـال نـوح عليـه السـلام : ﴿ **بسم الله مجراها ومـرساهـا إن ربي لغفور رحيم** ﴾[٧٤] قـال المفسرون : قـوله

---

(٧١) الميزان : ١٠/٢٢٥ .

(٧٢) ابن كثير : ٢/٤٤٥ .

(٧٣) سورة القمر ، الآيتان : ١١ ـ ١٢ .

(٧٤) سورة هود ، الآية : ٤١ .

هذا تسمية منه عليه السلام . يجلب به الخير والبركة لجري السفينة وإرسائها ، فإن في تعليق فعل من الأفعال ، أو أمر من الأمور ، على اسم الله تعالى وربطه به ؛ صيانة له من الهلاك والفساد ، واتقاء من الضلال والخسران ، فالله تعالى رفيع الدرجات ومن تعلق به مصون لا محالة من تطرق عارض السوء . وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله . فجرت . وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست .

وعندما كانت السفينة تجري بهم على وجه الماء الذي جرى في كل مكان ، كان الكفار يهرولون إلى كل مرتفع من الأرض طمعاً في أن لا يصل الماء إليهم . صعدوا فوق سقوف بيوتهم وفوق جذوع النخل وعلى قمم الجبال ، ولكن قممهم لم تغن عنهم من الله شيئاً ، فالأمواج طالت مرتفعاتهم ، وصفعت وجوه الظالمين وألقت بهم في أحضان العذاب الأليم ، كانوا يشاهدون السفينة التي صنعت من ألواح ودسر وهي تجري في موج كالجبال وعلى متنها الذين وصفهم الأشراف يوماً بالأراذل ، لقد شاهدوا ما كانوا يسخرون منه . فوجدوا نوحاً وأتباعه في رحاب الأمن . بينما هم في أحضان العذاب الأليم يتجرعون عذاب الخزي وهم في طريقهم إلى العذاب المقيم . وبينما كانت السفينة تجري على وجه الماء ظلّت الأحداث الأليمة في اليوم الأليم يقول تعالى : ﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾(٧٥) قال المفسرون : قيل إن هذا الابن الرابع لنوح عليه السلام(٧٦) وكان هذا الابن قد عزل نفسه عن أبيه والمؤمنين في مكان لا يقرب منهم . ولذلك قال : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ ولم يقل : وقال نوح لابنه . والمعنى : ونادى نوح ابنه . وكان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم . وقال في ندائه : يا بني ـ بالتصغير والإضافة دلالة على الإشفاق والرحمة ـ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركتهم في الصحبة وعدم ركوب السفينة . ولم يقل عليه السلام : ولا تكن من الكافرين . لأنه لم يكن يعلم نفاقه

---

(٧٥) سورة هود ، الآيتان : ٤٢ ـ ٤٣ .
(٧٦) ابن كثير : ٢/٤٤٦ .

وأنـه غير مؤمن إلّا بـاللفظ ولذلـك دعاه إلى الـركـوب : ﴿ **قـال سـآوي إلى جبـل يعصمني من المـاء** . . . ﴾ أي سأنضم إلى جبـل يعصمني ويقيني من المـاء فـلا أغرق ﴿ **قال لا عاصم اليوم من أمر الله** ﴾ أي قال نوح : لا عاصم اليـوم ـ وهو يـوم اشتد غضب الله وقضى بالغرق لأهل الأرض ، إلّا من التجأ منهم إلى **الله** ـ من الله لا جبل ولا غيره . وبعد أن قال نوح ذلك لابنه . حال بينهمـا الموج فكـان ابنه من المغرقين . ولو لم يحل الموج بينهما ولم ينقطع الكلام بذلك . لعرف كفـره وتبرأ منه(٧٧) .

إن نوحاً عليه السلام . لو كان يعلم إبطان ابنه للكفر ما كان يحزنـه أمره لأنـه القـائل : ﴿ **فـافتـح بيني وبينهم فتحـاً ونجني ومن معيَ من المؤمنين** ﴾(٧٨) وهـو القائل : ﴿ **رب لا تـذر على الأرض من الكافـرين ديارا** ﴾(٧٩) لم يكن نـوح عليه السلام يعلم حقيقة ابنه ، وعندما حال بينهما الموج تـوجه عليـه السلام بـوجدانـه وشعـوره إلى ربه جـل وعلا : ﴿ **ونـادى نوح ربـه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾(٨٠) قال المفسرون : رفع صوته بالـدعاء . كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ونادى نوح ربّـه** ﴾ ولم يقل : سـأل أو قال أو دعـا . ورفع الصوت بـالاستغاثـة من المضطر الـذي اشتد بـه الضر وهـاج به الـوجد أمـر طبيعي . وفي نداء نوح عليه السلام لم يجترىء أن يسأل نجاة ابنه بـالتضرع . بـل أورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر . وابتدر بـذكر مـا وعده الله من نجـاة أهله حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينة فقال له : ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك** ﴾ ولـذلك قـال عليه السـلام : ﴿ **رب إن ابني من أهلي وإن وعـدك الحق** ﴾ . . . فذكر وعد ربه وضمَّ إليه أنَّ ابنه من أهله . . فابنه كان مؤمناً به ظاهراً ولم يكن نوح يعلم ما يضمره ابنه في قلبه . فقوله : ﴿ **إن ابني من أهلي** ﴾ و ﴿ **إن وعدك الحق** ﴾ ينتجان بانضمام بعضهما إلى بعض الحكم بلزوم نجاة ابنه .

ومعنى الآيـة : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعـدك حق كـل الحق ، وإنّ

---

(٧٧) الميزان : ١٠/٢٣٠ .
(٧٨) سورة الشعراء ، الآية : ١١٨ .
(٧٩) سورة نوح ، الآية : ٢٦ .
(٨٠) سورة هود ، الآية : ٤٥ .

ذلك يدل على أن لا تأخذه سبحانك بعذاب القوم بالغرق ، ومع ذلك فالحكم الحق إليك فأنت سبحانك أحكم الحاكمين ، كأنه عليه السلام يستوضح ما هو حقيقة الأمر ، ولم يذكر نجاة ابنه . ولا زاد على هذا . وبعد إستفسار نوح عليه السلام . قال تعالى : ﴿ **قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾[٨١] قال المفسرون : بين الله سبحانه لنوح عليه السلام وجه الصواب فيما ذكره . فنوح قال : ﴿ **إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق** ﴾ فقال تعالى : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ فارتفع بذلك أثر حجته . والمراد بكونه ليس من أهله ـ والله أعلم ـ أنه ليس من أهله الذين وعده الله بنجاتهم ، لأن المراد بالأهل في قوله : ﴿ **وأهلك إلّا من سبق عليه القول** ﴾ الأهل الصالحون وهو ليس بصالح وإن كان ابنه ومن أهله ولذلك علل قوله : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ بقوله : ﴿ **انه عمل غير صالح** ﴾ أي أن ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم . ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ : ﴿ **إنه عَمِلَ غير صالح** ﴾ بالفعل الماضي . أي عَمِلَ عملاً غير صالح . وقوله تعالى : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ أي لكونه عملاً غير صالح . وأنت لا سبيل لك إلى العلم بذلك . فإياك أن تبادر إلى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم ، وقوله : ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ أي أني أنصح لك في القول أن لا تكون بسؤالك هذا من الجاهلين ، وبعد أن نادى نوح ربه في يوم الغضب يوم العذاب الأليم . وبعد أن أخبره ربه بالمخبوء من أمر ابنه قال نوح : ﴿ **قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين** ﴾[٨٢] قال المفسرون : لما تبين لنوح عليه السلام . إنه لو ساقه طبع الخطاب الذي خاطب به ربه إلى السؤال ، كان سائلاً ما ليس له به علم وكان من الجاهلين ، وإن عناية الله حالت بينه وبين الهلكة ؛ شكر ربه فاستعاذ بمغفرته ورحمته .

كانت هذه المشاهد وهذا النداء وإجابته في وقت كان الموج يضرب فيه بكل عنف ، وروي أن الماء قد أطبق جميع الأرض . وارتفع على رؤوس الجبال

---

(٨١) سورة هود ، الآية : ٤٦ .

(٨٢) سورة هود ، الآية : ٤٧ .

بخمسة عشر ذراعاً[٨٣] . وكانت السفينة جارية على وجه الماء ، سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته ، وروي أن السفينة سارت على وجه الماء بنوح وأتباعه مائة وخمسون يوماً[٨٤] وبعد أن غاب وجه الظلم تحت الماء في أعماق الطين . جاء أمر الله ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين** ﴾[٨٥] . (قيل) إن النداء نداء العظمة . والقائل هو الله . والأمر تحمله كلمة (كن) والأمر يترتب عليه من غير فصل . أن تبتلع الأرض . ما على وجهها من الماء وأن تكف السماء عن أمطارها .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وغيض الماء** ﴾ لم يذكر الأرض . وفي قوله : ﴿ **واستوت على الجودي** ﴾ لم يذكر السفينة . وفي قوله : ﴿ **بعداً للقوم الظالمين** ﴾ لم يقل بأنهم الظالمين من قوم نوح . إنها العظمة . ومن أراد أسماء النتائج فعليه بالمقدمات . وفي المقدمة قوم ظالمون وعدهم الله بالغرق . وبما أن هناك غرق ونجاة فلا بد من سفينة وماء . وعلى هذا فلو غيض الماء . فإنما تغيضه الأرض ولو استقر شيء واستوى ، فإنما هي السفينة ، وإذا قيل بعداً للقوم الظالمين ، فإن القائل هو الله . والقوم هم المقضى عليهم بالعذاب ، ولو قيل : قضي الأمر . فإنما القاضي هو الله . والأمر هو ما نهى عنه نوح في مخاطبته في الذين ظلموا . وروي أن السفينة إستقرت بهم على الجودي شهر[٨٦] والماء من حولها يذهب شيئاً فشيئاً بعد أن طهر الأرض من الذين وضعوا بذرة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان ودونوا لهذا الاستعباد فقهاً عريضاً ذو ثقافة واسعة هدفها تحقير الإنسان وانتقاصه لصالح الأهداف الشيطانية .

وبعد أن غيض الماء يقول تعالى : ﴿ **قيل يا نوح إهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾[٨٧] قال

---

(٨٣) ابن كثير : ٢/٤٤٦ .
(٨٤) البداية والنهاية : ١/١١٦ .
(٨٥) سورة هود ، الآية : ٤٤ .
(٨٦) البداية والنهاية : ١/١١٦ .
(٨٧) سورة هود ، الآية : ٤٨ .

المفسرون : معناه والله أعلم . يا نوح إنزل مع سلامة من العذاب ـ الطوفان ـ وبركات وخيرات نازلة منا عليك . أو إنزل بتحية وبركات نازلة منا عليك . وعلى من معك من المؤمنين ومن سيظهر من نسلهم من الصالحين . وممن معك أمم أو هناك أمم سنمتعهم ثم نعذبهم وهم غير مأذون لهم في التصرف في أمتعة الحياة إذن كرامة وزلفى . . وهذا الخطاب الإلهي تلقاه نوح عليه السلام في وقت لا يوجد فيه متنفس على وجه الأرض من إنسان وحيوان . فقد أغرقوا جميعاً . ولم يبق منهم إلا جماعة المؤمنين بالسفينة . وهؤلاء هم الذين قضى الله أن ينزلوا إلى الأرض فيعمرها ويعيشوا فيها إلى حين .

الخاتمة :

لقد كان الغرق شاملاً وهناك أدلة تثبت أن الطوفان كان شاملاً وعم الأرض كلها . ومنها أن الله تعالى أمر نوحاً عليه السلام بأن يحمل من كل زوجين اثنين ، فلو كان الطوفان في بقعة معينة . لم يكن في حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين ، ودعوة نوح عليه السلام كانت دعوة عامة ، ولقد قام عليه السلام بالتحرك في المجتمعات البشرية قَلَّت أو كثرت على امتداد دعوته ، وعموم الدعوة يقضي بعموم العذاب ، لهذا قال في دعائه : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً** ﴾ فالطائفة التي نزلت عند الجودي وهو جبل قيل إنه بديار نكر من الموصل . وقيل إنه شرقي دجلة على جزيرة ابن عمر . هذه الطائفة هي البذرة الأولى للمسيرة البشرية بعد الطوفان . وإلى هذه النواة ينتهي نسل البشر اليوم .

لقد شاء الله أن يجعل اليوم الأليم فاتحة لاستقرار طائفة المؤمنين على الأرض ، لترى البشرية على امتداد مسيرها أن أول لبنة في ماضيها من طين وماء ، فأما الطين فباطنه عذاب خزي وعذاب أليم . وأما الماء فعلى صفحته جرت سفينة ذات ألواح ودسر وعلى ظهرها المتقين ، لقد جعل الله العذاب الأليم بداية . كي تنظر الأمم في البدايات لتعتبر يقول تعالى : ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين** ﴾(٨٨) قال المفسرون : الضمير للواقعة أو النجاة .

---

(٨٨) سورة العنكبوت ، الآية : ١٥ .

والعالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة بهم . فالله جعل الواقعة أو النجاة آية ليتدبر فيها جميع الأجيال قال تعالى : ﴿ **ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾(٨٩) وقال : ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر** ﴾(٩٠) إن اليوم الأليم الذي ضرب انتفاخ الاستكبار أول الزمان دعوة لكي يكون الإنسان كريماً . وهو لن يكون كريماً إلّا إذا أصبح حراً ، والعبودية لله هي الحرية الحقيقية . وقافلة المؤمنين على السفينة الذين كان الانتفاخ الاستكباري يحتقرهم يوماً ما . دعوة لكل إنسان على الصراط المستقيم . كي يمسك المؤمن عقيدته الحقة بأسنان الصبر . وأن يقبض على دينه وإن كان كالجمر ، وأن يجعل قلبه بيتاً للإيمان بالله ، وأن يكون على يقين بأن العاقبة للمتقين حتى لو طال الليل ألف سنة إلّا خمسين عاماً . أو أكثر من ذلك .

وبعد أن قصَّ الله تعالى قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم . توجه سبحانه بالخطاب إلى نبيه الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾(٩١) قال المفسرون : أي إذا علمت ما آل إليه أمر نوح وقومه . من هلاك قومه ونجاة من معه . وأن الله تعالى قد أورثهم الأرض على ما صبروا . ونصر نوحاً على أعدائه على ما صبر . فاصبر على الحق . فإن العاقبة للمتقين .

وبعد الطوفان اتسعت القافلة البشرية حول الجودي . ثم تفرقت بعد ذلك هنا وهناك . وعندما طال الأمد نشأت أجيال اجتالتهم الشياطين بعد أن ساروا بلا رصيد إيماني في دروب الحياة متبعين أهواءهم . وهذه الأجيال هي الأجيال التي أخبر الله تعالى بها نوحاً بأنه سيمتعهم ثم يعذبهم ، ولقد هرولوا في طريق الانحراف والشذوذ ، وعلى امتداد الطريق زودهم الشيطان بالفقه المعدَّل لأطروحة رفض الرسول البشر كي ينسجم الفقه مع كل عصر ، كما زودهم بأكثر من فقه ينتقصون ويحتقرون به بعضهم بعضاً . وعلى امتداد رحلة التحقير خسر حزب الشيطان في كل العصور . وكانت العاقبة للمتقين في كل العصور .

---

(٨٩) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٢٠ ـ ١٢١

(٩٠) سورة القمر ، الآيتان : ١٥ ـ ١٦ .

(٩١) سورة هود ، الآية : ٤٩ .

انحرافات عاد قوم هود عليه السلام

﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴾

سورة فصلت ، الآية : ١٥

* عاد ! والأعمدة العالية

إنحراف القوة

مقدمة :

بعد الطوفان . . استقرت القافلة البشرية عند الجودي وما حوله ، وقام نوح عليه السلام ومن معه بإقامة مدينة ثمانين ، نسبة إلى عدد الناجين من قوم نوح[1] وكان نوح عليه السلام يبين للناس ما اختلفوا فيه ويبشر بينهم بنبي يأتي من بعده اسمه هود . وروي أن نوحاً عليه السلام قال لأتباعه : إن الله سيبعث هوداً وإنه سيدعو قومه وإن قومه سيكذبونه وعندئذ سيهلكهم الله تعالى بالريح . وأوصى نوح عليه السلام بأن على مَنْ يدرك هوداً أن يؤمن به . كما أمر ابنه سام بأن يتعاهد هذه الوصية وأن يعلنها على الملأ عند رأس كل سنة وأن يكون يوم الإعلان هذا عيداً للقوم يتذكرون فيه بعث هود . وظل سام بن نوح يعمل بوصية والده[2] وتبشير النبي السابق بالنبي اللاحق لطف من الله ورحمة بعباده . . فوضع أوصاف النبي الذي ما زال في علم الغيب في ذاكرة قافلة التوحيد ، يجعل الذاكرة تحمل على الدوام الأمل الذي يقاوم كل معاني الكفر والانحراف ، ومع هذا الأمل تمتد جذور الفطرة إلى جميع ملكات النفس الإنسانية فتحفظ لها توازنها في عالم يعمل من أجل فرض سياسات التوثين وثقافات التضليل ؛ فالذاكرة عندما تحتضن الأمل يعبر

---

(١) مروج الذهب/ المسعودي : ١/٢٦ .

(٢) الميزان : /١٠ .

صاحبها جميع طرق الانحراف مرتدياً رداء الصبر مرتبطاً بنبي سابق متجهاً نحو نبي لاحق إنْ أدركه آمن به وإنْ لم يـدركه وقـع أجره على الله . والـذاكرة التي تحتضن الأمل لا تأخذ إلاّ بالحق ولا تعمل إلاّ به . لأنها من البداية إلى النهاية انتظمت على الصـراط المستقيم ماضيـاً وحاضـراً ومستقبلاً . وعلى إمتـداد طريقهـا يكون رداء الصبر تحصين لها من عقائد وثقافات مـظلات الشذوذ فـالصبر إذا انـطلق من عالم المشاهدة إلى عالم الغيب المخبوء ليلتقي بـأمل يكـون له مـذاق خاص لأن الغـاية غيب ، والغيب في علم الله ، فهـذا الصبر الممـدود يغذي ملكـات النفس بالـزاد التوحيدي الذي يشعر معه صاحبه بأنه ليس من نسيج قـافلة الانحراف لأنـه لا يسير على صـراطهـا . وكمـا أن وضـع الأنبيـاء في الـذاكـرة تحصين للسمـع والبصـر والفؤاد ؛ كذلك فإن نسيان هـذا الإخبار بـالغيب يترتب عليـه أن يسير صـاحبه في طريق طويل وهو فاقد الذاكرة ، وفـاقد الـذاكرة بعيـد عن قافلة الصـراط المستقيم قـريب من دوائر الأهـواء والانحراف والشـذوذ وهـذه الـدوائـر لا تلتقط إلاّ أجيـال الـلاوعي لتنشىء منهم جدراً يصـدون عن سبيل الله . وأجيـال الـلاوعي هي التي ينتهي بها الطريق بـأن تتصدى لأنبيـاء الله تعالى عنـدما يبعثهم الله ليضعـوا قواعـد تستقيم مع الفطرة . ورفضهم لـلأنبياء ارتكـاس للفطرة نتيجـة لليل طـويل قـطعوه وراء اتباع الشياطين الـذين يغرسـون الأماني المـزخرفـة في النفوس ويقيمـون لها أصناماً من كل الألوان والأشكال والأجناس ، وعندما يـأتي الرسـول أو النبي إليهم يجدهم مستعدين للدفاع عن ما ألفته نفوسهم وما أصَّلَهُ فيهم آباؤهم ومـا تركـه لهم أجدادهم .

لقد غرس نوح عليه السلام اسم النبي الذي سيـأتي بعده في ذاكـرة قومـه . كي تتمسك الذاكرة بعلامات التوحيـا وتظل عـزوة التوحيـد تمدهم بـالزاد ، وهم يعبـرون من على طرق الـذين ظلـوا أنفسهم ويمتعهم الله ثم يمسُّهم منـه عـذاب أليم . وظل سام بن نوح يعمل بوصية والده ، وكان القوم يتعاهـدون بعث هود في يوم عيدهم . وعندما طـال الأمد وتفـرق الناس في الأمصـار ، اجتالت الشيـاطين الناس ، وظهرت الأهواء التي تمهد للوثنية من جديد ، وأصبحت وصية نـوح بهود عليهما السلام ، لا يهتم بهـا إلاّ طلاب العلم الـذين عكفوا على كتب العلم وآثـار علم النبوة ، وظهرت الأمم التي أخبر الله تعالى بها نوحاً عليه السلام بقولـه : ﴿ **يا نـوح اهبط بسـلام منـا وبـركـات عليـك وعلى أمم ممن معـك وأمم سنمتعهم ثم**

يمسهم منا عذاب أليم ﴾[٣] وكانت عاد من هذه الأمم .

❊ أولاً : عاد والدعوة إلى الله :

١ ـ عاد قوم هود :

ينتسب قوم عاد إلى عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[٤] وكان عاد يعبد القمر[٥] . ونزل هو وولده بالأحقاف وقيل إن الأحقاف واد بين عُمان وأرض مهرة . وقيل : من عُمان إلى حضرموت . وهي رمال مشرفة على البحر بالشحر[٦] وبعد عاد جاء من ولده من يعبد الأصنام فأقام في قومه ثلاثة أصنام عبدوها من دون الله وهي : صمود ، صداء ، الهباء[٧] . وعاد كانت تتكون من عشر قبائل ، كانوا جميعاً على هيئة النخل طولاً . ولقد خصهم الله تعالى من بين الأقوام ببسطة في الخلق وعظم الهيكل البدني . وبهذه القوة تمتعت عاد بين الأمم برقي في المدينة والحضارة . ويكفي بهم حضارة ما ذكره القرآن الكريم عن مدينتهم . عاد التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، كما كانت أرضهم خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم . فهذه الأشياء وغيرها تستوجب شكر الله عليها . ولكن عاداً فُتنت بقوتها وسارت في قافلة الكفر مبهورة بشبابها . وعلى امتداد طريق الكفر زين الشيطان لهم أعمالهم ، ومحا من ذاكرتهم ليس بعث هود فيهم فحسب ، وإنما الأحداث الحقيقية التي أدت إلى الطوفان الذي أطاح بكفار قوم نوح . فبعد أن طال الأمد وانتقلت عاد إلى أرضها الجديدة . كانت الأساطير والخرافات قد دثرت أحداث الطوفان . وعلى امتداد هذه الأساطير وقف العتاة والطغاة في عاد على أن الطوفان يمكن تفادي خسائره البشرية إذا شيدت الدور والأبنية على أعمدة عالية أو فوق قمم الجبال وعلى أي مرتفع من الأرض . ووفقاً لهذا الفهم الذي تنتهي أصوله إلى دائرة الآمال الطويلة وحب الحياة ؛ أقامت عاد أول حضارة لها على الأعمدة . . . يقول تعالى : **﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم**

---

(٣) سورة هود ، الآية : ٤٨ .

(٤) مروج الذهب : ٢/٥٧ ، ابن كثير : ٤/٥٠٧ .

(٥) مروج الذهب : ٢/٤٤ .

(٦) الميزان : ١٠/٣٠٧ .

(٧) مروج الذهب : ٢/١٥٧ .

يخلق مثلها في البلاد ﴾(٨) ذكر ابن كثير البغوي : أن هؤلاء هم عاد الأولى . وإرم اسم قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها . وكانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد . كما أنهم بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وعاد الأولى دمرها الله تعالى لتكون عبرة لعاد التي بعث الله تعالى إليها هوداً عليه السلام ، ولكن أهل الأحقاف لم يعتبروا ، وشيدوا حضارتهم بروح حضارة عاد الأولى ، فأقاموا المصانع التي تنحت الأحجار وشيدوا القصور والقلاع على الأرض ، ورفعوا فوق كل مرتفع من الأرض مأوى يحمي الناس من عوامل الطبيعة ، ومع هذه الأخلاق الحديدية ظهرت الثقافة الحديدية التي تنطلق من منطق القوة ، واستكبرت عاد في الأرض استكباراً لا حدود له . . . يقول تعالى : **﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾**(٩) لقد بَغَوْا وعَتَوْا وعَصَوْا . ولأنهم بلوا بشدة تركيبهم وقواهم اعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله(١٠) ومع عقيدة كهذه وثقافة كهذه ، تشنق الخيول المشلولة بلا أي جريرة . وتحت فقه الغطرسة الذي دونته عاد يكون السَّب والطعن وشتى الإهانات من نصيب كل من يحمل بين جنباته فطرة نقية سليمة ، فعاد شيدت الحصون على الأرض وفوق المرتفعات ، ووفقاً لفقه (مَنْ أشد منا قوة) الذي دونه الفقهاء الذين كانوا بآيات الله يجحدون . انطلقت عاد وراء الخلود خوفاً من الموت . وأعلام الخلود والأماني والآمال العريضة يحملها الشيطان . بربط الناس بالدنيا وهو من أجل هذا الهدف لا يترك طريقاً إلى الأهواء إلاّ زينة وزخرفة . ومن عالم الزينة تخرج الأقوال التي ما إنْ تسمعها الآذان حتى تنصت لها ، وتتحرك الأشياء التي ما إنْ تراها العيون حتى تحتضنها ، إن عالم عاد هو عالم كفران النعمة وكفران المنعم ، الذي يستهان فيه بالقتل ولا يقام فيه للفضيلة أي وزن ! وعاد أمسكت بذيل كفار قوم نوح عندما رفضوا بشرية الرسول **﴿ قالوا لو شاء الله ربنا لأنزل ملائكة ﴾**(١١) ورفض الرسول البشر ، غرس شيطاني يضمن به عدم قبول أكثر

---

(٨) سورة الفجر ، الآيتان : ٦ - ٧ .

(٩) سورة فصلت ، الآية : ١٥ .

(١٠) ابن كثير : ٤/٩٤ .

(١١) سورة فصلت ، الآية : ١٤ .

الناس الهداية التي تأتيهم من رسول يماثلهم في البشرية ، فالشيطان رفض البشرية من أساسها وظن في نفسه أنه أعلى منها مقاماً ، ووفقاً لهذا المخزون الذي تحتويه النفس الشيطانية ، طرح الشيطان منهج الرفض هذا بما يستقيم مع البشر ، فكل صاحب هوى وكل صاحب عدة وجموع سيرى في نفسه أنه أعلى مقاماً من الذي يدعوه وعلى هذا ستنحصر الهداية في رقعة . وينطلق الشيطان في الرقعة الأوسع . والشيطان بطابوره الطويل زرع له أولياء مهمتهم الصَّد عن سبيل الله ، معتمدين في ذلك على فقه التحقير بجميع أدواته من سب وطعن وغير ذلك ، والله تعالى حذر من سبل هؤلاء الأولياء وسيدهم ، وأخبر بأنهم أعداء للبشرية جمعاء ولا يريدون لها الخير . فقال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو وبئس للظالمين بدلاً** ﴾(١٢) لقد حذر سبحانه بأنه لا ينبغي للناس أن يفتتنوا بما يزينه لهم الشيطان وذريته من ملذات الدنيا وشهواتها لكي يعرضوا عن ذكر الله ، ولا ينبغي أن يطيعونهم فيما يدعون إليه !

وعاد افتتنت بما زينه الشيطان لها ، وأطاعته فيما يدعي إليه ، ورفعت أعلام (من أشد منا قوة ؟) وفي زمان الافتتان هذا ، وفي عالم الأخلاق الحديدية هذه ، بعث الله تعالى هوداً عليه السلام إلى عاد . ولقد تعرض القرآن الكريم لقصة عاد والنبي المبعوث فيها هود عليه السلام في عشر سور منه هي : الأعراف ، هود ، المؤمنون ، الشعراء ، فصلت ، الأحقاف ، الذاريات ، القمر ، الحاقة ، الفجر ، وعاد الأولى هي إرم ذات العماد . وصاحب إرم غير عاد قوم هود ، قال تعالى : ﴿ **ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود** ﴾ وإنما قال عاد قوم هود ليتميز عن عاد صاحب إرم ذات العماد . وجبار إرم ذات العماد أهلكه الله لتعتبر عاد ولكن عاداً أمسكت بذيله وسارت على طريقته فبعث الله فيها هوداً عليه السلام ، وهود عليه السلام كما يراه القلب من خلال قصته مع عاد ، كان إنساناً وقوراً رزيناً عاقلاً واسعاً صدره عظيماً عقله ، كبيرة نفسه ، ذا شعور قوي ، زاهداً عابداً عفيفاً أبيّاً غيوراً ، صلب الإيمان خشناً في ذات الله سبحانه وتعالى ، على الكافرين عذاباً صبّاً وللمؤمنين أباً رحيماً ، لا يقابل الشر بمثله بل لا يفارقه العطف

---

(١٢) سورة الكهف ، الآية : ٥٠ .

واللطف والحنان واستعمال اللين والإخلاص في أقواله مع قومه[13] وكان هود عليه السلام من قبيلة يُقال لها الخلود وكان من أوسطهم نسباً[14] وأصبحهم وجهاً، وكان في مثل أجسامهم أبيض بادي العنفقة طويل اللحية، وكان عليه السلام ينذر قومه، ويحذرهم بأس الله، ويضرب لهم الأمثال بقوم عاد الأولى وبقوم نوح عليه السلام قبلهم ويذكرهم بنعمة الله عليهم.

٢ ـ الدعوة إلى الله :

كان هود عليه السلام أول رسول من الله تعالى بعد نوح عليه السلام. وهو أول رسول بُعث إلى قوم افتتنوا بقوتهم وقالوا (من أشد منا قوة ؟) وهود عليه السلام تجمعه بقومه صلة القرابة، ودعوة القوم إلى الهداية بواحد منهم يعرفهم ويعرفونه، يجعل الدعوة تسير بسهولة ويسر، نظراً لأن القوم يعرفون أمانة وصدق المبعوث إليهم. كما أن عنصر القرابة يكون بمثابة مائدة للتعاطف من خلالها يفهمون الرسالة ويدافعون عنها وبث الدعوة أولاً بين أهل القوم الواحد، لطف من الله ورحمة بالعباد، فهو سبحانه بعث رسله على أرضية القربى لتفتح القربى طريق المودة، ووضع الدعوة في أول خطواتها على أرضية التعاطف والقربى والمودة إشارة إلى أن دين الله لا إجبار فيه. دين مقدمته قبل أن يتكلم تقوم على التعاطف. وبهذا كله مما تقبله الفطرة السليمة. ولكن عندما اجتالت الشياطين الناس أصبح أبناء التراب يرفضون أبناء التراب وأبناء الرحم الواحد يقاتلون إخوانهم وكل هذا تحت لافتة (أنا خير منه) تلك اللافتة التي رفضت البشر الرسول ورفضت بعد ذلك جميع الهداة الصادقين على امتداد التاريخ ! وفي هذا العالم الذي ألف دق خيام القسوة والظلم كان طريق الدعوة طريقاً شاقاً، وقام الجبابرة العتاة داخل كل قوم باضطهاد النبي المبعوث فيهم والذين آمنوا معه وهم جميعاً من أبناء جلدتهم، فتحت شعار الجبابرة (أنا خير منه) طُرد الأنبياء ورُجموا بالحجارة، ونتيجة لمقدمة الذين كفروا التي تحمل الحجر.. أصبحت الرسالة وأتباعها في جانب وأهل الكفر والأهواء في جانب آخر.

وعاد أول من دَوَّن فقه الغطرسة، وقفت من هود عليه السلام موقف الصَّد،

---

(١٣) الأنبياء ـ حياتهم وقصصهم/ الحسني العاملي : ١٠٢.
(١٤) ابن كثير : ٢/٢٢٥.

كان يدعوهم بكلمة المودة والتعاطف ﴿ يا قوم ﴾ فيواجهوه بالشر الجسيم والتمرد العظيم والجرأة الغليظة . وهود عليه السلام ما كان يدعوهم إلّا لعبادة الله . وما كان يخاطبهم إلّا بلطف وعطف . وكان عليه السلام يعاتبهم على ما يقومون به من البناء فوق كل مرتفع من الأرض وعلى اتخاذهم مصانع تصنع لهم الحصون لعلهم يخلدون ، وعلى شدتهم وخشونتهم في تعاملهم مع الناس ، وذكرهم بنعم الله تعالى عليهم من أموال وبنين وجنات وعيون ، ودعاهم إلى الرجوع إلى الله ، لأن عدم الرجوع إليه بالتوبة والعمل الصالح سيترتب عليه عذاب يوم عظيم . يقول تعالى :

﴿ كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾(١٥) .

لقد ردهم عليه السلام في دعوته إليهم إلى الحق الذي عليه تقوم الفطرة ، قال لهم : ﴿ **يا قوم** ﴾ ليلقى خطابه القبول في نفوسهم ، ودعاهم إلى تقوى الله ، وأخبرهم بأنه أمين لهم وأنه يدلهم على الطريق الذي لا يخيب مَنْ سار على هداه . وأمرهم بطاعته لأن طاعته هي طاعة الله ، وبين لهم أنه لا مطمع دنيوي له فيما يقوله لهم ، فهو لم يسألهم الأجر . فإذا كان هو الأمين الذي يعرفون أمانته . وهو أيضاً الذي لم يسألهم الأجر . فإن في كل هذا دليل على أنه ناصح لهم فيما يدعوهم إليه .

كانت هذه مُقدمته عليه السلام عندما خاطبهم . ثم بدأ ينتقد حضارة الأخلاق الحديدية فقال : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون** ﴾ قال البغوي : الريع : المكان المرتفع(١٦) . وكانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً محكماً هائلاً باهراً(١٧)

---

(١٥) سورة الشعراء ، الآيات : ١٢٣ ـ ١٣٥ .

(١٦) البغوي : ٦/٢٢٩ ، الميزان .

(١٧) تفسير البغوي : ٦/٢٢٩

والآية : العلامة والبناء على الأماكن المرتفعة ، اخترعته عاد الأولى هروباً من الطوفان بعد أن شوهت الأساطير حقيقة طوفان قوم نوح ، واعتبروه ثورة طبيعية يمكن مقاومتها بالبناء فوق المرتفعات وتحصين المنشآت على الأرض ضد السيول . وبعد أن أهلك الله عاداً الأولى ، جاءت عاد الثانية إلى الأحقاف ، وقاموا بسلخ العُمُد من الجبال حتى إن العمود الواحد كان بطول الجبل ، ثم ينقلون هذه الأعمدة وينصبونها ويبنون عليها القصور(١٨) ، ولقد أخبرهم هود عليه السلام أن هذا العمل لا يدرج إلّا تحت عنوان العبث ، لأن اليوم العظيم إذا جاء فلن تقف أمامه علامات فوق المرتفعات ، ولا حصون وقلاع على الأرض الممهدة ، فعملهم هذا عبث لا احتياج إليه ، وهو في الحقيقة مجرد لهو وإظهار للقوة(١٩) ثم انتقل عليه السلام إلى الشطر الثاني من حضارة القوة فقال : ﴿ **وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ قيل : المصانع كانت لنحت الجبال وبناء القصور . وقيل : هي البروج المشيدة والبنيان المخلد(٢٠) وكان القوم يعتقدون أن هذه المصانع كافية لحمايتهم من الموت ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء . . فقال لهم عليه السلام : أتتخذون مصانع لكي تقيموا فيها أبداً . وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم(٢١) .

وبعد أن انتقد أعمدة عاد التي أقامت عاد عليها حضارتها وثقافتها الحديدية انتقل من الأعمدة الصخرية إلى الأعمدة التي تتكون من لحم ودم وعظم وقال لهم : ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ لقد وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت(٢٢) « إذا بطشتم » أي إذا أخذتم وسطوتم « بطشتم جبارين » أي قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط . والجبار هو الذي يقتل ويضرب على الغضب(٢٣) لقد ربط عليه السلام بين الأعمدة . بين الحجارة والدماء . فأعمدة هناك تُنحت من الصخر ليُرفع فوقها أعلام التحدي ورجاء الخلود ، وأعمدة من لحم ودماء نزلت

---

(١٨) كتاب الأنبياء/٩٦ .
(١٩) البغوي : ٦/٢٢٩ .
(٢٠) البغوي : ٦/٢٢٩ .
(٢١) البغوي : ٦/٢٢٩ .
(٢٢) البغوي : ٦/٢٢٩ .
(٢٣) ابن كثير : ٦/٢٢٩ .

بـالإنسان إلى أسفـل سـافلين . فنهش أصحـابهـا أبـدان المستضعفين طمعـاً في امتلاك جلودهم . إن عالم الأعمدة هو عالم الجوع والخوف . لقد كفروا بالنعمة وبـالمنعم فألبسهم الله لبـاس الجوع والخـوف . إن القلاع ، . والحصـون خوف وجوع ، وبطش الجبـارين خوف وجـوع ، لأن الإطعام والأمن لا وجـود له إلاّ في دائـرة التقوى على الصـراط المستقيم . وعـاد قفـزت من الـدائـرة وانحـرفت عن الصراط . وبعد أن انتقد عليه السلام حضارتهم طالبهم بالدخول في دائـرة التقوى وأن يطيعوا الله تعالى فيما يأمرهم به من ترك الترف والاستكبار . لأن الله تعـالى هو الذي أمدهم بما يعلمون من بسطة في الخَلْق وعِظَم الهيكل البدني ، وهذا ظاهـر لهم حيث يفـوقـون الأمم من حـولهم في هـذا ، وهـذه القـوة زادت من قـوتهم ، فالواجب عليهم أن يشكروه عليها بـوضع النعمـة في موضعهـا ، لأن الهلاك سببـه كفران النعمة والطغيان بالمعصية ، ثم ذكر لهم عليه السلام ما أمدهم الله به وعليـه قامت أيضاً حضـارتهم . فالله تعـالى أمدهم بـالأموال والأنعـام والبنين وجعل لهم الجنات والعيون . فهـذا العطاء يجب أن يشكـروا الله عليه ويتقـوه فيه ، لأن عـدم شكـر الله قد يحـول هذا العـطاء من مجرى النعمـة إلى مجرى النقمـة ، ومجـرى النقمة يكون إذا آثروا المعصية على الطاعة . ثم قال عليه السـلام : ﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ أخبرهم أنه يخاف عليهم لأنهم قومه ، ويخـاف عليهم لأنه أمين لا يسألهم أجراً ، مشفق عليهم من عذاب الجبار خائف عليهم من نقمتـه وحلول غضبه على من تمرد عليه وبغى ، ولم يرحم نفسه بخضوعه لله الواحد الذي له سلطان الدنيا والآخرة .

كان عليه السلام يتعامل معهم على مائـدة القوم ، مـائدة التعـاطف ، فماذا كان ردهم ؟ لقد جـاء الرد بعيـداً عن مائـدة التعاطف جـاء من قوم لا يتعـاملون مع الطبيعة ومع الناس إلاّ تعامل الجبابرة ﴿ **قـالوا سـواء علينا أوَ عـظت أم لم تكن من الواعظين * إنْ هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين** ﴾[٢٤] لقد قابلوا خطابـه الذي اتسم باللطف والعطف والخلق الكريم ، قـابلوه بقسوة وقـالوا : مـا يعنينا أن تعظ أو لا تكون أصلاً من الواعظين . وأن ما ذكرتـه من الدعـوة إلى التوحيـد . وما

---

(٢٤) سورة الشعراء ، الآيات : ١٣٦ ـ ١٣٨ .

بينته من المواعظ في شأن ما تقوم عليه حياتنا . كل هذا من عادة البشر الأولين الماضين الذين نسمع عنهم في الأساطير والخرافات[25] .

والبشر الأولين بالنسبة لعاد هم قوم نوح بعد الطوفان ، فبعد نوح عليه السلام بدأت قوافل التوحيد تتحرك هنا وهناك تدعو إلى الله . وبعد أن طال الأمد طوى النسيان ما كانت تعظ به هذه القوافل . ثم اقتحم الانحراف بثقافته عالم النسيان . واعتبر كل ما كان يعظ به الأوائل شذوذ وهكذا فعلت الأهواء بأصحابها . أنستهم الله فعبدوا الأصنام . وأنستهم معجزات الله يوم الطوفان فأقاموا الأعمدة لتحميهم من الطوفان . وأنستهم صوت الحق والضمير على امتداد الأيام فاعتبروا التوبة والاستغفار رجعية . وإذا كانت عاد أول من قالوا : ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين** ﴾ ، فلقد أمسك كفار قريش الذين واجهوا الرسالة الخاتمة بذيلهم ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً** ﴾[26] . وذكر البغوي وابن كثير أن آخرين قرأوا ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين** ﴾ بضم الخاء واللام . يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر ، هو دين الأولين من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا . ولا بعث ولا معاد . ولهذا قالوا : ﴿ **وما نحن بمعذبين** ﴾[27] .

لقد انتفخت عاد بالغطرسة وانتفشوا بالغرور وازدادوا عتواً وتمرداً وعناداً أمام رسول الله الذي يدعوهم إلى الإيمان بالله على بصيرة ، ومع العتو والغرور . كان كل يوم يمر تشيد عاد المزيد من الحصون والقلاع والمخازن المملوءة بالحبوب وفقاً لثقافة (من أشد منا قوة) ؟

* ثانياً : تكبيل القوة :

لما دعاهم هود عليه السلام إلى الله تعالى وإلى دينه . وبالغ في وعظهم وإرشادهم . وحذرهم سطوة الجبار العلي القدير وعقوبته في الدنيا والآخرة . فلم ينفع معهم ولم يفد شيئاً . حبس الله سبحانه عنهم المطر كي يتنبهوا ويرتدعوا

---

(٢٥) البغوي : ٦/٢٢٠ .

(٢٦) ابن كثير .

(٢٧) ابن كثير : ١/٣٤٢ .

ويرجعوا إلى الطاعة . وإمساك المطر عنهم سيبعد بينهم وبين الترف لأن الترف أصل أصيل في إفساد الفطرة وإفقاد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب ، وإمساك المطر يؤدي بالإنسان إلى دائرة التضرع ، ليكون التضرع مدخلاً إلى التوبة . وروي ان الله تعالى أمسك عنهم المطر ثلاث سنوات حتى جهدوا وأجدبوا وقحطوا . فأبوا إلّا تمادياً فيما هم عليه ، وازدادوا عتواً وتمرداً وعناداً(٢٨) وعلى امتداد زمن القحط كان هود عليه السلام يدعوهم كي يستغفروا الله فيرسل سبحانه السماء عليهم مدراراً ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم الا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجري إلّا على الذي فطرني أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** ﴾(٢٩) .

لقد دعاهم وقوتهم التي يستندون عليها تئن تحت ضربات القحط . دعاهم إلى عبادة الله وحده وأخبرهم أنه لا يسألهم على ما يدعوهم إليه أجراً حتى يتهموه بأنه يريد بدعوته منفعة تعود إليه أو تضر بهم ، وهو إنما يبغي ثوابه من الذي فطره ، من الله الذي أوجده وأبدعه ، ودعاهم إلى تعقل ما يقوله لهم . حتى يتضح لهم أنه ناصح لهم في دعوته ، وأنه ما يريد إلّا أنه يحملهم على الحق . كما دعاهم إلى طلب المغفرة من الله وأن يتوبوا ويرجعوا إليه بالأعمال الصالحة ، حتى يرحمهم بارسال سحب هاطلة ممطرة **يحيي بها الأرض وينبت الزرع والعشب** . ويزدهم قوة الإيمان إلى قوة الأبدان ، وأخبرهم أن عبادتهم التي اتخذوها من دون الله إجرام منهم ومعصية توجب نزول السخط الإلهي عليهم ؛ وفي الآية دلالة على أنهم كانوا مبتلين بإمساك السماء والجدب وهذا في قوله : ﴿ **يرسل السماء عليكم** ﴾ وكذا قولهم في موضع آخر : ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم** ﴾(٣٠) كما أن الآية بها إشعار أن هناك ارتباطاً تاماً بين الأعمال الإنسانية وبين الحوادث الكونية التي تمر . فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات ونزول البركات ، والأعمال الطالحة

---

(٢٨) الميزان : ١٠/٣٠٦ ، ابن كثير : ٢/٢٢٥ .
(٢٩) سورة هود ، الآيات : ٥٠ ـ ٥٢ .
(٣٠) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٤ .

تستدعي تتابع البلايا والمحن وتجلب النقمة والشقاوة والهلكة[٣١] كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[٣٢] .

لقد دعاهم هود عليه السلام وهم تحت ضربات القحط إلى التعقل ، فالكون يخضع لنظام دقيق ، وإن الإطعام والأمن بين يدي الذي يملك الجوع والخوف ، فمن انحرف عن نظام الإطعام والأمن سقط في دائرة الجوع والخوف والمد والاستدراج فماذا كان رد عاد في عالم القحط والجدب ؟ ﴿ **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾[٣٣] لقد ردوا على هود عليه السلام فيما قاله لهم . فلقد طالبهم هود بأمرين هما : أن يتركوا آلهتهم ويعبدوا الله وحده ، وأن يؤمنوا به ويطيعوه فيما ينصح لهم ، فهذه كانت مطالب هود عليه السلام . أما الرد عليه فجاء إجمالاً وتفصيلاً . (أما إجمالا) فبقولهم : ﴿ **ما جئتنا ببينة** ﴾ أي ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه من الرسالة ، إن دعوتك لنا خالية من المعجزة . فما هي معجزتك الخارقة للعادة ؟ وبما انه لا توجد معك معجزة . فلا موجب للإصغاء إلى ما هذا شأنه (وأما تفصيلاً) فلقد رفضوا دعوته التي طالبهم فيها برفض الشركاء فقالوا : ﴿ **وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك** ﴾ كما رفضوا دعوته إياهم إلى الإيمان والطاعة فقالوا : ﴿ **وما نحن لك بمؤمنين** ﴾ ووفقاً للإجمال والتفصيل فقد آيسوه في كلتا الحالتين ، ثم قالوا له : ﴿ **انْ نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ أي نعتقد في أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل والجنون . لشتمك إياها وذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك . ومن كان هذا شأنه فلا يعبأ بما يقوله في دعوته[٣٤] .

لقد طالبوه بالمعجزة ، وأخبروه أنهم لن يتركوا آلهتهم عن قوله ، أي بمجرد قوله اتركوهم يتركوهم . وأعلنوه بصراحة أنهم له غير مؤمنين . ثم نظروا إلى

---

(٣١) الميزان : ١٠/٣٠٠ .

(٣٢) سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .

(٣٣) سورة هود ، الآيتان : ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣٤) الميزان : ١٠/٣٠١ .

حضارتهم وأعمدتهم وأصنامهم وأخبروه ان ما يقوله لهم ما هو إلّا نتيجة لما أصاب عقله من جنون وخبل ، ومصدر هذا الجنون تطاوله على الآلهة ونهيه عن عبادتها ! هكذا تفكر عاد في عالم القحط . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عمق الحضيض الذي تهاووا فيه بعد انحرافهم عن الصراط المستقيم ، إن الإنسان عندما يفقد الماء يتضرع ، ولكن أصحاب الأعمدة والصخور كانت لهم قلوب لا تعاني من فقد الماء . قلوب من حجارة . نبتت وترعرعت في خيام الأخلاق الحديدية .

* معجزة هود عليه السلام :

لقد انتفخ جبابرة عاد وطالبوه بالمعجزة ﴿ **قالوا يا هود ما جئتنا ببينة** ﴾ ثم قالوا بأن أصنامهم قد مسته بسوء ﴿ **إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ فجاء رد هود عليه السلام بما يريدون . جاء بالمعجزة التي تستقيم مع الذي عند قوم عاد . وعاد عندها القوة وتسير على ثقافة (من أشد منا قوة ؟) لهذا جاءتهم المعجزة التي تقصم ظهر قوتهم : قوة الفرد أو القبيلة أو المرتزقة أو الدولة ، والمعجزة جاءت في رد هود عليه السلام : ﴿ **قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾(٣٥) .

لقد أعلن البراءة من شركائهم . ولا ينفي ذلك كونه بريء منها من أول مرة . وإعلانه البراءة هنا ليضع القوم أمام التحدي وأمام المعجزة . فلقد قالوا بأن الأصنام قد مسته بسوء . فرد عليهم بأنه بريء منها لأنها لو كانت آلهة حقاً وتتمتع بعلم وقدرة فيجب عليها أن تقهره وتنتقم منه لنفسها وهو يعلن تبرؤه منها . فالتبرؤ حجة بينة على أنها ليست بآلهة وعلى أنها لم تعتره بسوء كما ادعوا . وبعد أن حطم عليه السلام القاعدة الصنمية للأوثان التي من حجر . انتقل إلى القاعدة الصنمية التي من لحم ودم وعظم . وقدم للجبابرة معجزته التي أذلتهم وهم في أزهى لباس للقوة قال : ﴿ **فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون** ﴾ لقد كان في قوله لهم أمر ونهي تعجيزيان لقد طالبهم أن يكيدوا له وفي قوله (جميعاً) إشارة إلى أن

---

(٣٥) سورة هود ، الآيات : ٥٤ ـ ٥٦ .

مراده تعجيزهم وتعجيز آلهتهم جميعاً ، وبهذا التعجيز الشامل يكون قد قدم أتم دلالة على كونه على الحق وكونهم على الباطل[٣٦] . لقد قال للعتاة الذين يبطشون بطش الجبارين : ﴿ **فكيدوني جميعاً** ﴾ ليشاهدوا وليعلموا أنهم بمضارتهم وثقافتهم وقوتهم لن يقدروا عليه بقتل أو بتنكيل . على الرغم من أنهم ذوي شدة وقوة لا يعادلهم فيها غيرهم من أهل الشدة والبطش . فليفعلوا ولن يستطيعوا أن يضروه . وعندما يضربهم العجز . فيجب عليهم أن يصدقوه . ويؤمنوا به وبرسالته التي من عند الله . لأنه لولا أنه نبي من عند الله ، صادق فيما يقوله ، مصون من عند ربه . . لقدروا عليه بكل ما أرادوا من عذاب أو دفع ، وأخبرهم بأن معجزة التحدي للقوة لا تعود إلى كونه أشد منهم قوة ولا إلى أنه ينتمي إلى جنس غير جنس البشر ، فهو بشر يخاف ويكره ، ولكنه لن يخاف من قوتهم الطاغية ، ليس لأنه يحمل معجزة التحدي للقوة ، وإنما لأنه توكل على الله ربه وربهم ، فهو سبحانه الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه . وهو سبحانه المحيط بهم جميعاً والقاهر لهم . وهو سبحانه الذي ينصر الحق ويظهره على الباطل إذا تقابلا .

وأمام معجزة هود عليه السلام ارتدت عاد ثوب المذلة ، فآلهتهم لم تفعل لهود عليه السلام شيئاً رغم سهر فقهاء الجبابرة أمامها وطلبهم تدخلها ، والجبابرة والعتاة لم يستطيعوا أن يضروا هوداً وهم أصحاب شعار (مَنْ أشد منا قوة ؟) إن دولة تحمل شعاراً لا تستطيع العمل بمضمونه هو - وفقاً لمقاييس أصحاب القمة - مذلة وهو - وفقاً لمقاييس أصحاب القاع - مهانة . ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٣٧] . وعندما كانت عاد في ثوب المذلة ، كان هود عليه السلام بين أتباعه في عافية وسلامة لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء أو يناله بشر ، وعندما ذاق جبابرة عاد مرارة العجز ، انسحبوا من المواجهة ، انسحبت الدولة كلها بأوثانها وفقهائها وجبابرتها وجنودها من أمام هود عليه السلام ، ووقفوا جميعاً في خندق من خنادق الصّد عن سبيل الله لا يملكون فيه إلّا بذاءة اللسان .

---

(٣٦) الميزان : ١٠/٣٠٢ .

(٣٧) سورة فصلت ، الآية : ١٥ .

* ثالثاً : استعجال العذاب :

ظل هود عليه السلام يدعو قومه ، لكن الاستكبار كان يجري في دمائهم . رغم ما يعانون من ذل نتيجة لعدم مقدرتهم على الكيد لهود . ولما يعانونه من القحط لامساك المطر عنهم . والمستكبر المحتاج أكثر خطراً من غيره ، لأنه يستعمل جميع أدوات البطش التي لا يستعملها غيره . وإن كان غيره يمكن أن يدمر من حوله من أجل نفسه فإن المستكبر المحتاج يمكن أن يدمر كل من حوله حتى نفسه ولا يتنازل عن هواه . وجميع الذين استكبروا قبل أن يضربهم عذاب الاستئصال أوقفهم الله في دائرة الحاجة كي يستغفروا . لكنهم خرجوا من الدائرة وهم يشهرون مخالبهم في وجه كل طاهر ، ويغرسون أنيابهم في جسم كل عفيف ، طمعاً في أن يخنقوا الأرض أو يصيبوها بالوباء . إن الاستكبار بجميع فصائله ينطلق من مملكة الظلم ، التي يديرها أصحاب الرؤوس الفارغة والقلوب القاسية ، وهؤلاء لا يتنازلون عن هوى من أهوائهم فيه حاجة لهم . وإن ترتب على ذلك الهلاك للجميع . لأنهم ببساطة ألد أعداء الجنس البشري وإن كانوا ينتمون إليه . هم ألد أعداء الإنسانية لأنهم يتصورون أن في عروقهم تجري الدماء النقية ، ووفقاً لهذا التصور أو الاعتقاد رفضوا قديماً النبي البشر ، وتطور الرفض فيما بعد إلى كل حامل عِلم لا يستقيم مع أهوائهم وإن كان حامل العلم معه سلطان وبرهان .

لقد خرجت عاد من دائرة الاحتياج رافضة للتوبة والاستغفار ، وأمام العناد كان هود عليه السلام يبلغ رسالات ربه إليهم ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾[٣٨] لم يحدثهم عن قلاعهم وحصونهم . إنما دعاهم فقط إلى عبادة الله . ولم يضف على ذلك شيئاً . فماذا كان ردهم ؟ ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه إنَّا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾[٣٩] لقد كان جوابهم له فيه احتقار ومهانة . واجهوه أولاً بأن فيه سفاهة . وواجهوه ثانياً بأنهم يظنون أنه من الكاذبين . . لقد واجهوه بهذه التهم لأنهم سمعوا منه دعوته أكثر من

---

(٣٨) سورة الأعراف ، الآية : ٦٥ .

(٣٩) سورة الأعراف ، الآية : ٦٦ .

مرة ، وفي كل مرة كان يعترض على آلهتهم . فأخرجوا من جعبتهم تهمة السفاهة ورموه بها ، والسفاهة : خفة العقل التي تؤدي إلى الخطأ في الآراء . ولقد زادت عاد وقاحة على قوم نوح ، فقوم نوح رموا نوحاً بالضلال في الرأي ، أما عاد فقد رموا هوداً بالسفاهة . إنها الغطرسة التي تلقي بالتهم هكذا جزافاً بلا تدبر ولا دليل ، ثم اتهموه بالكذب في غير تحرج ولا حياء ، أنظر إلى قولهم له : ﴿ **إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ ثم انظر إلى جوابه عليه السلام : ﴿ **يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين** ﴾(٤٠) لقد رد عليهم ردود الأنبياء . رموه بالسفاهة ، فلم يخرجه ذلك عن وقار النبوة ، ولم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوة الإلهية ، وأخبرهم أنه ليس به سفاهة ، ولكنه رسول من رب العالمين ، لا شأن له بما أنه رسول من الله ، إلّا تبليغ رسالات الله ، وإن كانوا يظنون أنه كاذباً . فهو ليس بغاش لهم فيما يريد أن يحملهم عليه ، ولا خائن لما عنده من الحق ، وكل ما يريده منهم هو التدين بدين التوحيد الذي يراه حقاً ، لان هذا الدين هو الذي فيه نفعهم وخيرهم ، وقد وصف عليه السلام نفسه بالأمين محاذاة لقولهم « وإنا لنظنك من الكاذبين »(٤١) .

لم يقابل هود عليه السلام الشر بمثله . ولم يفارقه العطف واللطف والحنان واستعمال اللين والإخلاص في أقواله مع قومه . لقد رموه بالسفاهة ، فقال : ليس بي سفاهة ، ورموه بالكذب فقال : أنا لكم ناصح أمين ، إنه منطق النبوة في الوعظ والإرشاد وهود عليه السلام كان واسع الصدر في دولة ترفع شعار (مَنْ أشد منا قوة ؟) وكان ذا شعور قوي وزاهداً عابداً عفيفاً أبيّاً غيوراً صلب الإيمان في دولة إذا بطشت بطشت بطش الجبارين ، وبعد أن نفى عن نفسه ما ألقوه عليه من تهم قال لهم : ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾(٤٢) . لقد أراد أن يجذبهم من خيمة الأهواء والغطرسة إلى رحاب

---

(٤٠) سورة الأعراف ، الآيتان : ٦٧ ـ ٦٨ .
(٤١) الميزان : ١٧٨/١٠ .
(٤٢) سورة الأعراف ، الآية : ٦٩ .

الشكر والحمد . فقال لهم : لا تعجبوا أنْ بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذلك ، واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ، واشكروا الله الذي جعلكم أطول من أبناء جنسكم . واذكروا نعم الله ومنته عليكم لعلكم تفلحون(٤٣) .

لقد طالبهم بالشكر في أربعة مواضع :

(**أولاً**) : أنه سبحانه بعث فيهم رسولاً منهم وهذه نعمة تستحق الشكر .

(**ثانياً**) : أنه سبحانه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح دون غيرهم من الأمم .

(**ثالثاً**) : أنه سبحانه زادهم في الخلق بصطة . وزيادة الخلق تزيد القوة ويترتب على ذلك إقامة المدينة والحضارة .

(**رابعاً**) : أنه سبحانه أعطاهم من النعم ما لا تحصى ولا تعد وكل نعمة من نعم الله يجب شكرها ، وشكرها أن توضع في موضعها ، فماذا كان رد الجبابرة عندما طالبهم هود عليه السلام بأن يذكروا الله ويشكروه ؟ ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾(٤٤) لقد رفضوا الذكر والشكر . وذلك لرفضهم عبادة الله وحده . كما حافظوا في ردهم على عبادة ما وجدوا عليه آباءهم . وفي خاتمة ردهم طالبوا بالعذاب . وهكذا طالب هود بمطالب تنسجم مع الفطرة ، فردوا بردود تنسجم مع العذاب العظيم لقد استكبرت عاد ! قالوا لهود عليه السلام : ﴿ **أجئتنا لنعبد الله وحده** ﴾ لقد وجدوا في التوحيد قيد ، وجدوا فيه افعل ولا تفعل . أما ما كان يعبد الآباء فلا قيد فيه . لأن الأصنام لا تأمر ولا تنهى . وعلى هذا تكون أهواء الجبابرة طليقة في عالم الإغواء والتزيين . والقوي فيهم يكون سيداً للغابة ، ولا قانون إلاّ قانونه ، وفي عالم الغابة هذا ، إذا قدمت ماءً صافياً لإنسان ، برزت أنيابه كذئب يعوي ! وإذا حملت طعاماً نقياً للجائعين ، لا ينظرون إليه . . بل إليك ! ويقتفون أثرك

---

(٤٣) ابن كثير : ٢/٢٢٤ .

(٤٤) سورة الأعراف ، الآية : ٧٠ .

كاللصوص ليسرقوك . أو كقطاع طرق ليقتلوك وفي عالم الغابة إذا قدمت فكرة ! كلمة ! ليتأملها عقل ، فستدفع ثمن إنسانيتك غالياً ، لأن الفكرة رحمة ، والذئاب تعتبر الرحمة شذوذاً . لقد رفض الجبابرة أن يعبدوا الله وحده ، وأرادوا أصنام الآباء وما كان يراه الآباء . فالجماجم تحت التراب تراث . ورفض التراث في قانونهم جريمة . والجماجم تحت التراب على هداها يسير الأحياء والشيطان لهم دليل . إنه عالم الصم البكم العمى ، رفضوا الشكر في المقدمة ورفعوا ما كان يعبد آباؤهم في الخاتمة ثم قالوا لهود عليه السلام : ﴿ **فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ وعندما قالوا ذلك سمعوا الرد الأخير على أقوالهم . الرد الذي ستأتيهم من بعده الخاتمة ليكونوا بعد ذلك أحاديث وعبرة لمن أراد الاعتبار . فعندما سألوا هوداً عليه السلام أن يأتيهم بالعذاب : ﴿ **قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾(٤٥) .

أجابهم علية السلام : بأنه قد وقع عليهم من ربهم رجس وغضب . لأنهم يحاجونه في هذه الأصنام التي سموها هم وآباؤهم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل الله لهم على عبادتها حجة ولا دليل(٤٦) وبأن إصرارهم على عبادة الأوثان بتقليد آبائهم . أوجب أن يحق عليهم البعد عن الله بالرجس والغضب . ثم هددهم بما يستعجلون من العذاب . وأخبرهم بنزوله عليهم لا محالة ، وأمرهم بالانتظار . وأخبرهم بأنه مثلهم في انتظار العذاب(٤٧) .

وعلى هذا انتهى الجدل ، وانتظر الجميع القول الفصل الذي يحمل العذاب الشامل على فريق الجبابرة وأتباعهم . ويكون رحمة شاملة على طائفة المؤمنين مع هود عليه السلام ، وجبابرة عاد عندما طلبوا العذاب ؛ ظنوا أن في هذا الطلب تعجيز لهود عليه السلام مقابل تعجيزه لهم في الكيد له . فأمام معجزته التي طرحها عليهم ﴿ **فكيدوني جميعاً** ﴾ قالوا له : ﴿ **فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ فقولهم : ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ يحمل ظنهم في عدم مقدرته

---

(٤٥) سورة الأعراف ، الآية : ٧١ .

(٤٦) ابن كثير : ٢/٢٢٥ .

(٤٧) الميزان

الإتيان بالعذاب ، لأنهم ابتداءً يكذبونه في رسالته . وهود عليه السلام عندما حذرهم من عذاب اليوم العظيم . كان في الحقيقة يحذرهم من عذاب الاستئصال ؛ لأن سنة الاستئصال كانت هي الجارية في صدر البشرية . وذلك لأن ظهور المجتمع الشاذ عن سبيل الفطرة في مرحلة تكوين المجتمعات الإنسانية . قد يؤدي إلى انتشار الشذوذ والانحراف في المجتمعات الأخرى . لهذا كان بتر العضو المريض الذي لم يتقبل الدواء . رحمة وعبرة وشفاء للإنسانية في كل مكان . رحمة لأن الداء قد بتر ودفن في مكانه ولم يجتحهم ، وعبرة كي يعيد المنحرف ترتيب أوراقه على أساس صحيح ، وشفاء لقوم مؤمنين وتثبيت وإبلاغ لهم بأن السماء لا يفر من تحتها الظالمون .

لقد دخلت عاد بأقدامها إلى دائرة الاستئصال ، وعندما قالوا لهود عليه السلام : ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾(٤٨) لم يزد عليه السلام في رده عن قوله : ﴿ **انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون** ﴾(٤٩) لقد قصر عليه السلام العلم بنزول العذاب في الله تعالى : ﴿ **إنما العلم عند الله** ﴾ لأن العذاب من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلّا الله عزّ وجلّ . أما هود فلا علم له ما هو العذاب ؟ ولا كيف هو ؟ ولا متى هو ؟ ولذلك عقب عليه السلام بقوله : ﴿ **وأبلغكم ما أرسلت به** ﴾ أي أن الذي حملته وأرسلت به إليكم هو الذي أبلغته إليكم ، ولا علم لي بالعذاب الذي أُمرت بانذاركم به ما هو ؟ وكيف هو ؟ ومتى هو ؟ ولا قدرة لي عليه ، وإني أراكم قوماً تجهلون ، فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم . حين تردون دعوة الله وتكذبون بآياته وتستهزؤون بما يوعدكم به من العذاب(٥٠) . لقد ظنت عاد أن طلبها للعذاب تعجيز لهود عليه السلام ، في الوقت الذي كانوا فيه يسيرون بأقدامهم على طريق العذاب الذي يصل بهم إلى اليوم العظيم . لقد كانت أقدامهم تدب على أرض جدباء أخذ أهلها حذرهم من الطوفان فأذلهم العطش .

---

(٤٨) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٢ .

(٤٩) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٣ .

(٥٠) الميزان : ١٨/٢١١ .

* **وجـاءت الريــاح :**

جلس قضاة الطاغوت في ديار الجبابرة ومن حولهم جنود عـاد الذين شـربوا من إناء الأخلاق الحديدية في ثقافة (من أشد منا قوة ؟) جلسوا تحت السماء التي تمسـك عنهم المطر ، ومن حـولهم نخالـة الحبوب النـاشفـة . وأوراق الأشجـار الميتة ، لم يرفعوا أكفهم إلى السماء حتى يرفع الله عنهم العقاب ، وإنما انـطلقوا في يوم عيدهم إلى أكبـر أصنامهم وتجمعـوا حولـه يسألـونه المـاء أساس حضـارة عاد ، ففي هذا العيد وكان يوافق دائماً يوم الأربعاء . خرج الجبابـرة وخدامهم من الفقهاء والجنود ومن حولهم الغوغاء والرعاع أصحاب العيون التي انطفـأ منها كـل بـريق يحمـل معنى من معــاني الـرحمــة ، وأمـام الصنم الأكبــر وقفـوا يبتهلون ويتضرعون بالآباء تحت لهيب الشمس المحرقة ، ولم تكن هناك رياح تسـري في الحدائق سريانها البـديع . ولم يكن للنسيم الـرقيق وجود بينهم يـوم زحامهم على أصنامهم . كان الحر شديداً وقطرة المـاء أمل لـلإنسان وللحضـارة العريضـة التي تتـربع عليهـا عاد ، وبينمـا هم ينظرون في الأفق شـاهدوا سحـابـاً ثقيـلاً يستقبـل أوديتهم . يقول تعالى : ﴿ **فلمـا رأوه عارضـاً مستقبل أوديتهم قـالوا هـذا عارض ممطرنا** ﴾[٥١] لقد حكموا على العارض بما يعلمون ، ولكن الحقيقة لا يعلمها إلاّ الله فما كل سحاب يأتي بالماء ، وما كل رياح تحمل الخير ، فعاد وفقاً لحضارتهـا وعقيدتها وثقافتها تحكم على الأشياء بما جرت به العـادة ، فالأب الأول في قـافلة الانحراف ترك صنماً ، وهذا الصنم عبدته القافلة كلها ، فإذا جاءت عـاد ووجدتـه يكون الخروج عن العادة والتقاليد شذوذاً . وأمام العادة والتقـاليد فليسقط السمـع والبصر والفؤاد . ووفقاً لهـذا المقياس شـاهدوا العـارض فقالـوا بأنـه ممطر ، لأن علمهم وقف عند الحد الـذي يقول بـأن السحاب لا يحمـل إلاّ الماء . أمـا الذين يؤمنون بالله فيعلمون أن العناصر كلها خاضعة لخالقها ، وقد تحمل هـذه العناصـر النعم لقوم بينما تحمل النقم لقوم آخرين ، وقد تمطر السماء هنا ماءً بينما تمطر في مكان آخر حجارة من سجيل منضـود . لهذا كـان الإيمان بـالله هو روح النـظر إلى الأشيـاء عند الـذين آمنوا . وكـانت تقـوى الله هي المقيـاس الـذي تتحـطم عليـه العادات والتقاليد ، وكان الخوف من مكر الله يجعلهم في ارتعاد دائم ؛ لأنهم بشر

---

(٥١) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٤ .

يعيشون على الأرض . والأرض يجري عليهـا الاختبار ويجـري عليها الاستـدراج والاستئصال . ويأتي العذاب للظالمين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون .

وعنـدما شـاهدت عـاد العارض وهي تحت مـظلة عقيـدة الأصنـام وثقـافـة الاستكبار ﴿ **قالـوا هذا عـارض ممطرنـا** ﴾ لكن الحقيقة كـانت على خلاف ذلـك يقول تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب إليم * تدمر كل شيء بأمر ربهـا فأصبحـوا لا يرى إلّا مسـاكنهم كذلـك نجزي القـوم المجرمين** ﴾[٥٢] فبين سبحانه أولاً أنه العذاب الـذي استعجلوه حين قالـوا لهود : ﴿ **فـاتنا بمـا تعدنـا إن كنت من الصـادقين** ﴾ وزاد سبحانـه في البيان ثـانياً بقـوله : ﴿ **ريـح فيها عـذاب أليم** ﴾ تهلك كل ما مرت عليه من إنسـان ودواب وأموال ، وفي مـوضع آخـر يقول سبحانه : ﴿ **أرسلنـا عليهم الريـح العقيم * ما تـذر من شيء أتت عليه إلّا جعلتـه كالرميم** ﴾[٥٣] والريح العقيم هي المفسدة التي لا تنتج شيئـاً[٥٤] والتي عقمت أن تأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح . كتنشئة سحاب أو تلقيح أشجار أو نفع حيوان أو تطيب هواء[٥٥] وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليها ريحاً صرصراً في يـوم نحس مستمـر * تنـزع النـاس كـأنهم أعجـاز نخـل منقعـر** ﴾[٥٦] وفُسـر الصرصر بـالريـح الشديـدة السموم ، والشـديدة البـرودة ، والشديـدة الصوت ، والشديدة الهبوب[٥٧] . وقوله تعالى : ﴿ **في يوم نحس مستمر** ﴾ المراد باليوم هنا قطعة من الزمن ، لا اليوم الذي يساوي سُبـع الأسبوع . لقـوله تعـالى في موضـع آخر : ﴿ **فأرسلنـا عليهم ريحاً صـرصراً في أيـام نحسات** ﴾[٥٨] وقـوله تعـالى : ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومـاً** ﴾[٥٩] . فتبارك الـذي يضرب في كل زمان وكل مكان ويرحم في كل زمان وكل مكان .

---

(٥٢) سورة الأحقاف ، الآيتان : ٢٤ ـ ٢٥ .

(٥٣) سورة الذاريات ، الآيتان : ٤١ ـ ٤٢ .

(٥٤) ابن كثير : ٤/٢٣٦ ، البغويّ : ٨/٧١ .

(٥٥) الميزان .

(٥٦) سورة القمر ، الآيتان : ١٩ ـ ٢٠ .

(٥٧) ابن كثير : ٤/٣٦٤ ، الميزان/ ، البغوي : ٨/١٣٤ .

(٥٨) سورة فصلت ، الآية : ١٦ .

(٥٩) سورة الحاقة ، الآية : ٧ .

لقد جاءت الريح لتضرب المرتفعات والأعمدة وتضرب المنخفضات والحصون ، جاءت الريح العقيم التي عقمت أن تأتي بفائدة مطلوبة في عالم حضارة عاد ، جاءت لتدمر كل شيء ﴿ **بأمر ربها** ﴾ فضاع الجبابرة وخدام الجبابرة أصحاب البطش والأخلاق الحديدية . روي أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار . ثم تنكسه على أم رأسه . فيسقط على الأرض فتثلغ رأسه . فيبقى جثة بلا رأس(٦٠) ولهذا قال تعالى : ﴿ **كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾(٦١) وعلى امتداد أيام العذاب كان الجبابرة والمستكبرين يهرولون في كل مكان هرباً من قسوة الرياح حتى إنهم كانوا يتحصنون الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من الله شيئاً(٦٢) لقد أقاموا الأعمدة إلى أعلى وفقاً لحسابات الطوفان ، وأسرفوا في هذا العبث إسرافاً كبيراً ، وعندما جاءتهم الريح جعلوا من أنفسهم أعمدة في بطن الأرض ، ولكن هيهات هيهات !

لقد طحنت الريح قصورهم وحصونهم ومدائنهم . عصفت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ وكانت ترفع الرجال والنساء إلى الجو ثم ترمي بهم فيقعون على رؤوسهم منكسين . وكانت الريح تقلع الرجال والنساء من تحت أرجلهم ثم ترفعهم إلى السماء ثم **تحطمهم حطماً**، كانت الريح تمر بأهل البادية فحملهم هم ومواشيهم وأموالهم حتى يكونوا بين السماء والأرض وتلقى بأهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة(٦٣) لقد قهرت الريح الذين فشوا في الأرض وقهروا أهلها تحت شعار (من أشد منا قوة ؟) أما هود عليه السلام وأتباعه فروي أنه عليه السلام اعتزل ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه إلاّ ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس(٦٤) ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من**

---

(٦٠) البغوي : ٨/١٣٥ ، ابن كثير : ٤/٢٦٥ .

(٦١) سورة القمر ، الآيات : ٢٠ ـ ٢٢ .

(٦٢) ابن كثير : ٣/٣٤٢ ، البغوي : ٦/٢٣١ .

(٦٣) ابن كثير : ٤/٤١٢ .

(٦٤) ابن كثير : ٢/٢٢٦ .

عذاب غليظ ﴾[٦٥] ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[٦٦] .

لقد جاءتهم الريح في يوم نحس كانوا يحتفلون فيه بمجد آبائهم الأوائل . ففي اليوم النحس جاءتهم الريح لتكون عليهم في أيام نحسات ذات غبار وتراب لا يرى فيها أحد أحداً . جاءتهم مسخرة من الله عليهم ، تضربهم مرة بعد مرة كي يستوعب الجميع الهلاك وذكر المسعودي : أن الريح أتتهم يوم الاربعاء . فما جاءت الاربعاء الثانية وفيهم أحد حي[٦٧] . وذهبت عاد وأصبحوا عبرة لمن أراد الاعتبار . وبقيت الريح . . نعم بقيت ، فهي على كل مكان من الأرض . وهي في جوف كل إنسان وهي في مخازن الله . وكما ذكرنا أن للمؤمن مقاييس ينظر بها إلى الأحداث من حوله وما يمكن أن يترتب عليها ، فليس كل ريح تأتي بخير وليس كل سحاب يأتي بماء . ولقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه . فلما سئل : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر . وإذا رأيته أنت عرفنا في وجهك الكراهية . قال عليه وآله الصلاة والسلام « ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب . قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا»[٦٨] وذهبت عاد . وقطع دابر الذين كفروا . فلا ترى لهم باقية . ليس في عصرنا أحد ينتسب إلى عاد بدمائه . لأن دابرهم قد قطع . ولكن في عصرنا مَنْ هواه على هوى عاد ، في عصرنا يوجد من يقول : (من أشد منا قوة ؟) وفي عصرنا أعلام ورايات تمارس سياسات التجويع والتخويف ، وفي عصرنا فُتحت للغطرسة معاهد ، وراجت الأخلاق الحديدية التي لا تقيم للفضيلة وزناً . بل ذبحتها تحت المقاصل تحت شعار روح العصر الحديث . وفي عالم الأخلاق الحديدية . زخرف الشيطان كل شيء بما يستقيم مع روح العصر . وفي عالم الزخرف اعتنق الناس فضائل الأهواء وكل فضيلة من حديد . كل فضيلة ظاهرها الرحمة وباطنها يقبع فيه

---

(٦٥) سورة هود ، الآية : ٥٨ .

(٦٦) سورة الأعراف ، الآية : ٧٢ .

(٦٧) مروج الذهب : ٢/١٥٩ .

(٦٨) ابن كثير : ٤/١٦١ .

عمود من أعمدة عاد ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون** ﴾[٦٩] .

وذهبت عاد . ولما كانت عاد في صدر القافلة البشرية من بعد قوم نوح . وأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في خاتمة القافلة الإنسانية فإن الله تعالى ربط بين البلاء والختام في مواضع من القرآن الكريم . وبين سبحانه أن عاداً كانوا من التمكن على درجة عالية لم تكن لكفار مكة . وكان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يستطيع به الإنسان الاحتيال لدفع المكاره والاتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة . لكن كل هذا لم يغن عنهم . ولم تنفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئاً عندما جحدوا آيات الله . فما الذي يؤمن كفار خاتمة القافلة من عذاب الله وهم جاحدون لآيات الله يقول تعالى بعد أن أخبر عن هلاك عاد ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾[٧٠] وفي الربط بين البدء والختام أيضاً يقول تعالى لرسوله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾[٧١] إنها تذكرة إنذارية ، ليكون البدء هناك عبرة للخاتمة هنا ﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد* واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاد كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود** ﴾[٧٢] .

*** مشهد وحركة :**

لقد جحدت عاد بآيات الله من الحكمة والموعظة والمعجزة التي أظهرت لهم طريق الرشد وميزت لهم الحق من الباطل ، جحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم ، وعصوا رسول ربهم هوداً عليه السلام ، ومن قبله من الرسل ، لأن عصيان الواحد منهم هو عصيان للجميع . فكلهم يدعون إلى دين واحد ، وعلى ذلك فهم عندما يعصون هوداً يكونون قد عصوا بعصيانه سائر رسل الله ، وسلسلة الأنبياء

---

(٦٩) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٢ .

(٧٠) سورة الأحقاف ، الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٧١) سورة فصلت ، الآية : ١٣ .

(٧٢) سورة هود ، الآيتان : ٥٩ ـ ٦٠ .

تنتهي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن سمع به ولم يؤمن بما أنزل معه يكون بعصيانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد عصى سائر رسل الله ، والذين عصوا هوداً عليه السلام إلى أين ذهبوا ؟ لقد ذهبوا إلى كل جبار يقهر الناس بإرادته ويكرههم على ما أراد واتبعوه . ولم يتبعوا كل جبار فقط ولكنهم اختاروا من بين الجبابرة كل جبار عنيد ، والجبار العنيد علاوة على أنه يقهر الناس إلاّ أنه فوق هذا كثير العناد فلا يقبل الحق . ﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾ وهذا الاختيار الذي رفضوا فيه هوداً عليه السلام واتبعوا فيه كل جبار عنيد ألقى بهم في دائرة اللعن في الدنيا ويوم القيامة حيث العذاب الخالد ، يوم يقف التابع والمتبوع من الذين استكبروا وهم ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين** ﴾(٧٣) في الدنيا كان الجبابرة وخدامهم يضعون الذين آمنوا في مربع المجرمين . أما في الآخرة فسيقولها الجبابرة لحملة أقلامهم وسياطهم وغوغائهم . يا لعدل الله . . تأمل قول الخدام لأئمة الكفر : ﴿ **لولا أنتم لكنا مؤمنين** ﴾ يتهمونهم بإجبارهم على الكفر . وأنهم حالوا بينهم وبين الإيمان . بالرغيف والشهوة والجاه والمال ، بالتخويف والتجويع والترغيب والترهيب . ثم تأمل رد أئمة الكفر في عاد وكل عاد مهما اختلفت الأسماء والأعلام . تأمل ردهم على الخدام الخلان « أنحن صددناكم ؟ » أنحن صرفناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟! إن بلوغه إليكم بواسطة الرسول أقوى دليل على أننا لم نحل بينه وبينكم لقد سمعتم الدعوة . وكنتم مختارين بين الإيمان وبين الكفر . لكنكم كنتم متلبسين بالإجرام مستمرين عليه ، فأجرمتم بالكفر بالإيمان لما جاءكم من غير أن يخبركم عليه ، فكفركم منكم ونحن برءاء منه(٧٤) إنه العتاب الذي لا يجدي . ويؤدي في النهاية إلى ضعف من العذاب لكل من الأئمة والخدام ، إن عاداً بداية وعبرة للمجرمين ﴿ **ولو ترى إذ المجرمين ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا**

---

(٧٣) سورة سبأ ، الآيتان : ٣١ ـ ٣٢ .
(٧٤) الميزان .

وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾[٧٥] أنظر الى المشهد والحركة في النص القرآني **﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾** لقط أحاط بهم الخزي والذل فنكسوا رؤوسهم واعترفوا بما كانوا ينكرونه في الدنيا. وسألوا ربهم العودة إلى الدنيا عندما تبين لهم أن النجاة في الإيمان والعمل الصالح . لقد سألوا العودة . ولن يعودوا .

لقد اتبع الجبابرة الصغار الجبابرة الكبار في الحياة الدنيا . التف الصغار حول كل جبار عنيد واتخذوه قدوة من يوم نوح عليه السلام وحتى يوم محمد صلى الله عليه وسلم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . ليصدوا عن سبيل الله . ولكن مدارس الصد على امتداد الزمان هي التي تسقط وهي التي تحترق . إن سقوط الباطل في كل زمان يعني انتصار الحق في كل زمان والباطل باطل وإن رفع شعار (من أشد منا قوة ؟) وكان معه أكثر الناس ، والحق حق وإنْ قل أتباعه والحق حق وإن وقف في حظيرة على الأرض . والباطل باطل وإن رفع أبنيته على الأعمدة ألم تر أن عاداً استأصلهم الله وأن هود أنجاه الله برحمة منه . ألم تر أننا نقص هنا أخبار المجرمين ليرى الحاضر سقوط الباطل المهين في الدنيا والآخرة .

---

(٧٥) سورة السجدة ، الآية : ١٢ .

انحرافات ثمود قوم صالح عليه السلام

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ .
سورة فصلت ، الآية : ١٧

* ثمود ! قبور في الصخور

[أعـــلام الجحـــود]

مقـــدمة :

بعد هلاك عاد بنحو مائة عام ، ظهرت حضارة ومدينة أخرى تقودها ثمـود . وثمود من العرب العاربة . جاءت قافلتهم من حول جبل الجـودي الذي استقـرت عليه سفينة نوح عليه السلام . شأنها كشأن العديد منّ القوافل التي تركت المنطقـة الأولى وانتشـرت في الأرض ، وكان على رأس قـافلة ثمـود : ثمـود بن عـابـر بن إرم بن سام بن نوح ، وانتهى مسيرها إلى موقع بين الشام والحجاز ، وكـانت أهم حـاضرة لهم مـدينة الحجـر . . وذكـر المسعـودي : أن حجـر ثمـود في الجنـوب الشرقي من أرض مدين وهي مصاقبة لخليج العقبة . . وما زالت آثار ثمود باقية إلى يومنا هذا والمكان الذي فيه ديارهم يعرف اليـوم بـ (فج النـاقة) . والنبي الـذي بعثه الله تعالى إلى ثمود . هو صالح عليه السلام . وكان بينه وبين هود عليه السلام ـ كمـا ذكر المسعـودي ـ نحو مـائة عـام[1] . وصالـح عليه السـلام ثـالث الأنبيـاء المـذكورين في القـرآن الكريم بـالقيام بـأمر الله والنهضـة للتوحيـد ضد الـوثنية . ويذكره الله تعالى بعد نـوح وهود عليهمـا السلام . ولقـد أثنى الله عليه بمـا أثنى به على أنبيائه ورسله . وذكر صالـح عليه السـلام في القرآن تسـع مرات في سـور : الأعـراف ، هود ، الشعـراء ، وذكرت ثمـود في القـرآن في أحـد عشـرة سـورة :

---

(١) مروج الذهب : ٢/٤٧ .

الأعراف ، هود ، الحجر ، الشعراء ، النمل ، فصلت ، الذاريات ، النجم ، القمر ، الحاقة ، الشمس .

* ١ ـ من خيام الانحراف :

قال تعالى : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾[٢] ويقول عز وجل : ﴿ **وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين** ﴾[٣] لقد كانت البداية هدى ، وهذا الهدى غزته ثقافة الجودي ، ثقافة ما بعد الطوفان التي قامت على أعمدة التوحيد ، وعندما انطلقوا لإقامة مجتمعاتهم الجديدة . كانت الفطرة في أعماقهم تدلهم على طريق الصواب . وبالجملة . عرفهم الله الحق وما يؤدي إليه والباطل وماذا يترتب عليه . فمن هنا كانت دائرة الاستبصار ، ولكن دائرة الاستبصار هذه انطفأت في صدور الذين كفروا . وذلك بعد أن زين لهم الشيطان أعمالهم واتبعوا أهواءهم . وعلى هذا كانت دائرة العمى ، وعندما جاءهم رسول من ربهم كي يعيدهم إلى دائرة الاستبصار ، صدوا عن سبيل الله ، وإلى هنا شق القوم طريقهم في اتجاه الاستئصال والله غني عن العالمين ، وطريق ثمود نحو الاستئصال هو نفسه طريق عاد . بكل شعاراته وأعلامه ، لقد رفضت ثمود ما رفضته عاد ، فمن خيمة الشذوذ والانحراف رفضوا الرسول البشر . . يقول تعالى : ﴿ **إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلاّ الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[٤] وفي احتجاجهم على نبيهم صالح عليه السلام قالوا له : ﴿ **ما أنت إلاّ بشر مثلنا** ﴾[٥] . لقد أمسكوا بذيل الآباء في رفض البشر الذين يدعونهم إلى عبادة الله وحده ، رغم أنهم يحملون المعجزات التي تؤيد دعواهم ، وذلك لأنهم يشاركونهم في البشرية . هذا في الظاهر . أما الحقيقة فلأنهم يروا أنفسهم أفضل من الأنبياء ، من حيث انهم يمتلكون الأموال والأولاد والأنعام وزينة الحياة الدنيا . ولديهم العتاد والجموع وهذا ما لم يتوفر للأنبياء ،

---

(٢) سورة فصلت ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٨ .

(٤) سورة فصلت ، الآية : ١٤ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية : ١٥٩ .

لقد كانوا يرون أنفسهم أفضل بني آدم . فأمسكوا بذيل الشيطان الذي قاسَ أفضليته على آدم بأن الله خلقه من نار بينما خلق آدم من طين . إن فقه الغباء لم يفطن في البداية أن الله هو الخالق ولم يفطن في النهاية إلى أن الله هو الرزاق وأن له في خلقه شؤون وما خلق سبحانه شيئاً إلاّ بهدف ومن وراء هذا الهدف حكمة .

وإذا كانت ثمود قد أمسكت بذيل عاد في رفض البشر الرسول ، فإنهم سقطوا معهم في قاع اتباع الهوى وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فأورثهم الصد عن الحق . وأما طول الأمل فأورثهم نسيان الآخرة ، ومع ثقافة الصد والنسيان لم تتدبر ثمود فهلك عاد وقوم نوح من قبل . فأقاموا بيوتهم في بطون الصخر وجعلوا لها أبواباً ضيقة يتحكمون فيها عند هبوب الرياح . حتى لا يهلكوا كما هلكت عاد . وكانت عاد من قبل قد شيدت لها أبنية على قمم المرتفعات حتى لا يهلكهم الطوفان الذي أهلك قوم نوح من قبل . وعن ثمود يقول تعالى : ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين** ﴾[٦] أي يسكنون الكهوف المنحوتة من الحجارة ظناً منهم أن هذا يجعلهم آمنين من الحوادث الأرضية والسماوية . إنها ثقافة النسيان . التي انطلقت إلى غابة طول الأمل الشيطانية . وهناك في كل جرف صخري داخل واديهم السحيق . أقاموا مساكنهم التي ظنوا أنها تدفع عنهم الموت ، ولم يكن يدري أهل ثقافة الانحراف . أن كفران النعمة أورثهم الجوع والخوف . والجائع لا يشبع من طعام ولا من حياة ، ولأنه يريد مزيد من الحياة ، خاف من المستقبل ، وفي عالم الخوف يقف الخائف وراء الجدر ، فلا يقاتل إلاّ من ورائها ولا يكيد إلاّ من ورائها ، وثمود لم تكتفِ بالوقوف وراء الجدر بل دخلت فيها . يقول تعالى : ﴿ **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** ﴾[٧] أي الذين ينحتون الصخر ويخرقونه ليتخذون منه بيوتاً[٨] . لقد ظنوا أن ما يصنعوه يؤمن سعادتهم في الدنيا ، ولم يدرِ أهل كفران النعمة ونسيان العهد ، أن بطون الجبال ستكون عذاباً لهم في يوم أليم وأن حضارتهم لن تحمل للمستقبل إلاّ دخاناً ، يدل على أن في هذا المكان يوماً ما اضطرمت نار الغضب ، كي يعتبر بهم من أراد الاعتبار .

---

(٦) سورة الحجر ، الآية : ٨٢ .

(٧) سورة الفجر ، الآية : ٩ .

(٨) ابن كثير : ٤/٥٠٨ .

* ٢ ـ الرســـول والدعـــوة :

١ ـ الرســـول :

بُعث صالح عليه السلام وكان يومئذ غلام حدث[٩] وروي أنه بُعث وهـو ابن ست عشرة سنة ، فلبث فيهم حتى بلغ مـائة وعشـرين سنة[١٠] وذكـر ابن الأثير في الكـامل أنـه بُعث وهو ابن ثـلاثين سنة ، ومـات وهو ابن ثمـان وخمسون سنـة[١١] ورواية بعثه وهو غلام رواها غير واحد ، وهناك روايات ذكرت أن دعوة صالـح عليه السلام كانت عشرين سنة ، وهـذه مدة غيـر كافيـة لنسيان ثقـافة خـروج الناقـة من الصخـرة . ومن المعروف أن معجـزة الناقـة أدت إلى إيمان العـديد وعلى رأسهم رئيس القوم[١٢] . أما الـرواية التي نصت على أن صـالحاً عليـه السلام بُعث وهـو غـلام أو ابن ست عشر سنـة وأنـه لبث فيهم حتى بلغ مـائـة وعشـرين سنـة ، فهي تستقيم مع الأحداث لأن المدة كافية لظهور أجيال ترى في الناقة عادة مألوفـة ، ولا تراها كمعجزة كما رآها الجيل السابق ، ومع هذه الأجيال تـدور معارك العقيـدة ، بين معسكر الحق ومعسكر الشذوذ الذي يسهر عليه آباء الانحراف الـذين لم يؤمنوا بـرسالـة صالـح وتمسكوا بـذيول الآبـاء . فالنـاقة كـانت في الحقيقـة حجـة على جيلين . جيل طلب الآية . وجَيل لم يطلب الآية ولكنه رآها وهو يشب بين القوم . الجيل الأول آمن منه مَنْ آمن وعاش في ثقافـة المعجزة ، أمـا الجيل الثـاني فجاء يسمع ثقافة المعجزة وثقافة الصد عن السبيل ، وهـو مخير بين هـذا وذاك . إما أن يكون مع الناجين . وإما أن يكـون امتداداً لأجيـال لن تلد إلاّ فاجـراً كفاراً وحينئـذ يكون عذاب الاستئصال .

بُعث صالح عليه السلام وهو غلام . وَبَعْثُ الله تعالى صالحـاً في هذا السن معجزة في حد ذاتها . ليرى فيه القوم رجاحة العقـل في زمن عَزَّ فيـه أن يُرى عـاقل تنجبه ثقافة الجوع والخوف والصخور ، وصـالح عليـه السلام كـان من بيت شرف

---

(٩) مروج الذهب/ المسعودي : ٢/٤٧ .

(١٠) الأنبياء / العاملي : ١٠٤ .

(١١) الفتح الرباني : ٢٠/٤٦ .

(١٢) مروج الذهب : ٢/٤٧ ، ابن كثير : ٢/٢٢٨ ، تفسير الميزان : ١٠/٣١٥ .

ومشهود له بالأمانة ، وعندما تتوج الأمانة والشرف إنساناً صادقاً في عالم يتخذ من خناجره معاول التمزيق أحشاء الصخور بحثاً عن الأمن . يكون هذا الإنسان في حد ذاته دعوة للسمع وللبصر . فلعل السمع منه يدل القوم إلى الأمن الذي يقود إلى السعادة الحقيقية ، لأنهم عندما يسمعون سيسمعون من عاقل ، وعندما ينظرون فسينظرون إلى أمين لا يسألهم أجراً ، لقد كان بعثه عليه السلام وهو غلام معجزة لم يتدبرها الأوائل ، لأنهم انطلقوا في ليل الانحراف الذي يغشى بأجنحته السوداء دروب الضياء والمعرفة ، وكان عليه السلام يراهم وهم يهرولون في اتجاه الصخور ويخبرهم أن الطريق إلى الأمن لا يحتاج إلى هذه المشاق . وأنه يبدأ من توحيد الله وعبادته والسير داخل المجتمع بالعدل والإحسان . وأن لا يُسرفوا ولا يَطْغَوْا ولا يعلوا في الأرض . كان يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن القوم تجنبوه في بداية الأمر ، ولم يجبه من قومه إلّا نفر يسير من الضعفاء ، الذين لا ينظرون إلى الصورة . ولكن يتعمقون في القول وبلاغته ومضمونه وأهدافه ، ولا ينظرون إلى طول الجسم وما عليه . وإنما ينظرون إلى أعماق الإنسان ، حيث الأمانة والعفة والطهر والنقاء والصدق ، كان هذا هو حال الضعفاء الذين اتبعوا صالحاً عليه السلام ، أما الجبابرة فتجنبوه لعدم استطاعتهم دفع حججه ، وأوهموا أتباعهم أنهم إنما تركوه لصغر سنه .

وشب صالح عليه السلام في ثمود ، وكان كل يوم يمر يشعر معه الجبابرة بالخطر الذي يحمله صالح عليه السلام . لقد وجدوه يحمل عقيدة تعمل من أجل الاطاحة بما كان عليه آباؤهم . وهذه العقيدة تلازمه من يوم أن شاهدوه في أول أمره كنبت أخضر ذي أصل ثابت . يتسلق فرعه في اتجاه السماء ، إلى اليوم الذي أصبح فيه كشجرة تشب مع الأجيال وتحمل لهم الثمار ، كان الجبابرة يشعرون بالخطر ، ولأنهم لا يتنفسون إلّا من خيمة الانحراف ، كان كل يوم يمر لا يزدهم من الإيمان إلّا بعداً ، لم يتدبروا يوماً في أحوال صالح الذي حمل الرشد والكمال في شخصه وبيته ، ولا يأتي منه إلّا الخير . ولا يترقب منه إلّا النفع .

٢ ـ الدعــــوة :

يقول تعالى : ﴿ **كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعونِ * وما أسألكم عليه من أجر إن**

أجري إلّا على رب العالمين * أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾[١٣] .

لقد هدم عليه السلام عقائدهم وثقافاتهم التي تقوم عليها ، فدعاهم لأن يتدبروا وأن يتقوا الله ، وأمرهم بطاعته لأن طاعته هي طاعة الله ، ثم نفى عن نفسه أي طمع دنيوي . والدليل أنه لم يسألهم الأجر كما يسألهم كهان الأوثان الأجر عندما يفتونهم ، وليس معنى أنه لا يسألهم الأجر أن ما يقوم به لا وزن له ، وإنما له ثواب وأجر عند الله رب العالمين وهو يطمع في هذا الأجر وهذا الثواب ، وبعد أن قرع عليه السلام آذانهم بالتوحيد . رد عقولهم إلى الحقيقة التي تعامَوْا عنها فقال : ﴿ **أتتركون في ما ها هنا آمنين** ﴾ ؟ أي أنكم لن تُتركوا في أرضكم وما أحاط بكم في أرضكم هذه . وأنتم مطلقوا العنان لا تُسألون عما تفعلون وآمنون من أي مؤاخذة إلٰهية[١٤] لقد وعظهم وحذرهم نقم الله أن تحل بهم . . وذكرهم بأنعم الله حيث أنبت الله لهم الجنات وفجَّر لهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات[١٥] لكنهم لم يشكروا النعمة ويضعوها في محلها ، وإنما اتخذوا تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها . وأنهم كانوا حانقين متقنين لنحتها ونقشها[١٦] ولأن ما يفعلوه لا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة ، أمرهم أن يقبلوا على الله بطاعته . لأن طاعته من طاعة الله . وأن لا يطيعوا أمر المسرفين . فلا يقلدوهم ولا يتبعوهم في أعمالهم وسلوكهم . وخطابه عليه السلام كان للعامة التابعين للمسرفين ، وكان للمسرفون الذين يقلدون آباءهم ويطيعون أمرهم ولذ . أمر بعدم طاعتهم لأنهم يفسدون في الأرض غير مصلحين . والإفساد لا يؤمن معه العذاب الإلٰهي والله عزيز ذو انتقام .

---

(١٣) سورة الشعراء ، الآيات : ١٤١ ـ ١٥٢ .

(١٤) الميزان .

(١٥) تفسير البغوي : ٦/٢٣٢ .

(١٦) ابن كثير : ٣/٣٤٣ ، البغوي : ٦/٢٣٣ .

ولقد حذرهم عليه السلام من الإمساك بذيل المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، لأن الكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة ، والكون ترتبط أجزاءه ارتباطاً محكماً ؛ وأي انحراف أو تفريط فإن الميل والانحراف يكون إفساداً للنظام المرسوم . ويتبعه إفساد غاياته . الإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية الجارية ، فإن جرى على ما تهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدرة له ، وإن تعدى حدود فطرته وأفسد في الأرض ، أخذه الله بالسنين وأنواع النكال والنقمة لعله يرجع إلى الصلاح والسداد . وإن أقاموا على ذلك الفساد لرسوخه في نفوسهم . أخذهم الله بعذاب الاستئصال ، وطهر الأرض من قذارة فسادهم(١٧) فماذا قال الجبابرة والمترفون والمسرفون لصالح عليه السلام عندما دعاهم إلى عبادة الله وحذرهم من نقمه . وعندما بين لهم أن الطريق الصحيح لن يكون في ذيل الذين يفسدون في الأرض ؟ يقول تعالى : ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلّا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾(١٨) لقد واجهوا النصح بحشد من **الإتهامات** فاتهموه بأنه ممن سُحر مرة بعد مرة حتى غلب السحر على عقله(١٩) وضعوا على كل مرحلة من مراحل حياته علامة تقول إنه مسحور . صادروا الحكمة والبلاغة والمضمون ودقوا وتد السحر . وعندما خاطبهم جمعوا له كل العلامات التي وضعوها على امتداد حياته وقالوا : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ ولم ينسَ طابور الانحراف أن يلقي بأثقال الآباء التي ألقى بها من قبل أمام نوح وهود عليهما السلام فقالوا لصالح عليه السلام : ﴿ **ما أنت إلّا بشر مثلنا** ﴾ ثم اقترحوا عليه أن يأتيهم بآية تثبت صدقه في دعواه فقالوا : ﴿ **فات بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ .

لقد دعاهم عليه السلام لكي يدخلوا في رحاب الأمن الحق الذي يربط أجزاء الكون بالعدل . ولكن العدل عند خيمة الانحراف ، أن تتركهم وما يفعلون ، وأن تتركهم وما يقولون ، وأن لا تحول بينهم وبين ما يحبون ! العدالة عندهم أن تتركهم حتى لو أدت أعمالهم إلى احتراق الأخضر واليابس في مشهد واحد .

---

(١٧) الميزان .

(١٨) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(١٩) الميزان .

* ٣ - انحـــراف جديـــــد :

كانت ثمود أمة من أمم الانحراف ، والانحراف لا بد وأن يتـرك تحت رماده بذور يصلح زرعها على أرض معسكر الانحراف . الذي يستلم الرايـة فيما بعـد . وهـذه البذور تـظل تحت الأرض لفترة حتى يـأتي من يتعهدهـا حتى تكبر وتصبـح شجرة من الدَّنس في نهاية الطريق . وإذا كانت ثمـود قد تعهـدت شجرة (مـا أنت إلّا بشر مثلنا) التي قام كفار قوم نوح بتسليمها لكفار قـوم هود ؛ فـإن ثمود كـان لها السبق في إضـافة معنى آخـر يقبل بشـرية الـرسول بشـروط ، ولقـد اتسعت هـذه الشروط فيما بعد وكان في اتساعها كارثة .

فعندما حاصر صالح عليه السلام ثمود بحججه الدامغة ، ولم تجد ثمود فيه إلّا كل الخصال الحميدة ، هرول إليه الضعاف واعتنقوا دعوتـه ، وأمام هـذا المد - وإن كـان ضعيفاً - اهتـز الـذين يحـرصـون على الحيـاة ، وأصبحت أوراق فقـه التحقيـر والانتقـاص من البشـر الـذين يحملون رسـالات الله لا تجـدي . بعـد أن أحرزت الدعوة تقدماً لها في ديار الضعاف . لهذا قام كفار ثمود لتطوير فقه التحقير والانتقاص بما يسحب البسـاط من تحت أقدام النبـوة فقالـوا كما أخبـر سبحانـه : **﴿أبشر منّا واحـد نتبعه إنـا إذاً لفي ضلال وسُعُـر * أأُلقي الذكـر عليه من بيننـا بل هـو كذاب أشر ﴾**[٢٠] لقد نصبوا شباك الصَّد عن سبيـل الله ، شباك صنعت من خيـوط الحسد ، وقالوا : « لقد خبنـا وخسرنـا إن سلمنا قيـادتنا لـواحد منـا »[٢١] فلو كان الوحي حقاً ، وجاز أن ينزل على البشر لنزل على البشـر جميعاً[٢٢] بـاختصار بثت أبواق ثمود ثقافة جديدة تقول للعامة والخاصة أن إثبات الرسالـة لصالـح وحده فيـه انتقاص لكم ، لأنكم تماثلونـه في البشريـة ، فإذا جـاز أن يدعي الـرسالـة ، فمن حقكم أن تدعوا الانتفاخ بالروح القدس . وهذا البيان لن يصب في النهـاية إلّا في سلة الجبـابرة . لأن الضعـاف لن يجرؤ واحـد منهم أن يـدعي الانتفـاخ أو يـدعي الرسالة . لأنه لا يملك أن يقدم البينة عليها ، فالبيان بالنسبة للضعفاء تحصين لهم في مواجهة صالح عليه السلام . أما بالنسبـة للجبابـرة ، فإنهم إذا ادعـوا الرسـالة

---

(٢٠) سورة القمر ، الآيتان : ٢٤ - ٢٥ .

(٢١) ابن كثير : ٤/٢٦٤ ، البغوي : ٨/١٣٥ .

(٢٢) الميزان .

يمكن أن يلوحوا بما لديهم من عدة وما معهم من جموع ؛ فالعدة والجموع قمم في عالم الانحراف والشذوذ ، وعلى امتداد دعوات الأنبياء والرسل كانت معسكرات الانحراف ترفض الرسل لأنهم لا عدة لهم ولا جموع معهم ، وأمام النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، دفعوا بما ورثوه عن ثمود ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾(٢٣) لقد بدأوا في صدر البشرية بأهداف خفية حملتها الجماهير ، أما عند الرسالة الخاتمة ظهر ما كان مخبوءاً . ظهر أن أهل العناد والعُتُو والتمرد صعب عليهم أن يكونوا مروا سنين كسائر الناس يَعُمُّهم حكم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا مال له ولا قوة من رجال وسلاح . كان الجبابرة في عهد الرسالة الخاتمة هم العنوان . ومن وراء الجبابرة وقفت الجماهير أتباع الناعق في كل زمان ومكان .

فإذا كانت ثمود قد دقت أوتاد العدة والجموع في أول الزمان ؛ فإن القرآن الكريم مزق هذه العدة وهذه الجموع في معسكر الباطل ، في رده على الذين قالوا : ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ فقال تعالى : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرر عليها يتكئون * وزخرفاً وإنْ كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾(٢٤) .

قال المفسرون : إن قولهم هذا ينبغي أن يُتعجب منه ؛ فإنهم يحكمون فيما لا يملكون ، فهذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها ويرزقون . وهي رحمة منا . لا قدْر لها ولا منزلة عندنا . وليست إلّا متاعاً زائلاً . نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيئتهم . فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى . وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد . فيعطونها عمن شاؤوا ويمنعونها عمن شاؤوا . إن متاع الدنيا من مال وزينة ، لا قدر لها عند الله سبحانه ولا منزلة ، ولولا أن يجتمع الناس على الكفر لو شاهدوا تنعم الكافرين ، لجعلنا لمن يكفر

---

(٢٣) سورة الزخرف ، الآية : ٣١ .

(٢٤) سورة الزخرف ، الآيات : ٣٢ ـ ٣٥ .

بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة . ودرجات عليها يظهرون بغيرهم ، وكل هذا لا قيمة له في الآخرة التي جعلها الله للمتقين سعادة دائمة وفلاح خالد(٢٥) . إن معيار الذهب والفضة والسلاح والجموع ، لا يصلح إلاّ في خيام ومعسكرات الانحراف ، فهذه المكاييل إذا كان يمتلكها كافر فلا يحق ولا يجوز له أن يحدد النبوة على أساسها ، لأنه يستعمل مكيال لا قدر له ولا منزلة في تحديد مصدر سعادة دائمة وفلاح خالد . إن الذي تكون مقدمته لا قدر لها ولا منزلة تكون نتائجه أيضاً لا قدر لها ولا منزلة . ولقد دقت ثمود أوتاداً لا قدر لها ولا منزلة . ومن خيمتهم اختنقت الأرض من الظلم ، وبعد أن اتسع الشذوذ ظهر الذين ادعوا الحكم الإلهي ، وظهر الأنبياء الكذبة ، والهداة الكذبة ، والفقهاء الكذبة ، والأمراء الكذبة ، ظهروا بعد أن أصبح المال يعسوباً ودليلاً في عالم المجاعات والأهواء ومع ثقافة المال وهدايته . أصبح الحب مقتاً ، والنهار ليلاً ، والأمل يأساً ، والسلم حرباً ، والفرح ألماً ، والسعادة شقاء ﴿ **ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود** ﴾(٢٦) ولما كانت مقدمة ثمود لا تنام ولا تكل شاء الله لها أن تجثوا تحت أقدام المسيح الدجال الذي يتاجر بالمال والأهواء . والمسيح الدجال حذر منه جميع رسل الله وأنبيائه وهو خارج آخر الزمان لا محالة(٢٧) ليتلقط أبناء الشذوذ والانحراف الذين أخلصوا لخيام معسكرات الانحراف ابتداء من يوم نوح عليه السلام ومروراً بعاد وثمود وقوم لوط . وانتهاءً بأتباع عجل بني إسرائيل والتثليث والمسجد الضرار . إن الدجال سيلتقط كل من يمثل رقعة من رقعات الشذوذ ليذيقه الله عذاب الذل والخزي في الدنيا ، وفي الآخرة عذاب أليم .

* ٤ ـ المعجـــزة :

اتهمت ثمود صالح عليه السلام بأنه من المسحرين ! وطالبوه بآية إنْ كان من الصادقين . وكان بعثه فيهم وهو غلام آية ولكنهم لم يتدبروها ، ولقد طالبوه بإظهار العلامات كما ذكر المسعودي : ليمنعوه من دعائهم . وليعجزوه عن

---

(٢٥) الميزان .

(٢٦) سورة هود ، الآية : ٦٨ .

(٢٧) راجع سلسلة بحوثنا عن المسيح الدجال .

خطابهم[٢٨] . . وكان صالح عليه السلام قد حضر جمعاً لهم . فسألوه أن يأتيهم بمعجزة تجانس أملاكهم ، وذلك بعد اتفاق آرائهم . وكان القوم أصحاب إبل . . وتقدم زعيم القوم وقال له : يا صالح إن كنت صادقاً في قولك ، وأنك معبر عن ربك ، **فأظهر** لنا من هذه الصخرة ناقة (وكانت صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر ، يقال لها الكاتبة[٢٩] وكانوا يعظمونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة)[٣٠] ولتكن هذه الناقة : وبراء ، سوداء ، عشراء ، نتوجاً حالكة ، صافية اللون ، ذا عرف وناصية وشعر ووبر[٣١] .

كان القوم لهم سبعون صنماً يعبدونها من دون الله ، وحول كل صنم جماهيره تهتف : يا صالح ادع لنا ربك يخرج لنا من هذه الصخرة الناقة التي سألنا . لقد سأل الجبابرة معجزة من جنس ما يملكون وهتفت الجماهير هتاف الصخر الذي فيه يعملون . فقال لهم صالح عليه السلام : « لقد سألتموني شيئاً يعظم عليّ ويهون على ربي سبحانه وتعالى »[٣٢] وعندئذ أوحى إليه الله تعالى : ﴿ **إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبّئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾[٣٣] لقد أوحى سبحانه إليه بأنه سيرسل على طريق الإعجاز الناقة التي سألوها ، امتحاناً لهم ، وأمره أن يصبر على أذاهم ، وأن يخبرهم بعد إرسال الناقة . أن الماء مقسوم بين الناقة وبين القوم ، لكل منهما نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه ، فالقوم يحضرون عند شربهم والناقة عند شربها[٣٤] وفي يوم عيد القوم ، وقف صالح عليه السلام أمام الصخرة يستغيث بربه ، فتحركت الصخرة وتململت ، وبدا منها حنين وأنين ، ثم انصدعت من بعد تمخض شديد ، كتمخض المرأة حين الولادة . وظهر منها ناقة على ما طلبوا من الصفة ،

---

(٢٨) مروج الذهب : ٢/٤٧ .
(٢٩) ابن كثير : ٢٢٨ .
(٣٠) الميزان : ١٠/٣١٥ .
(٣١) مروج الذهب : ٢/٤٧ .
(٣٢) الأنبياء/ العاملي : ١٠٥ .
(٣٣) سورة القمر ، الآيتان : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٣٤) الميزان : /١٩ .

ثم تلاها من الصخرة سقب لها (ولد الناقة) مثلها في الوصف[٣٥] وفي رواية ابن كثير « ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا »[٣٦] .

لقد خرجت الناقة بمشيئة الله ، أوجدها سبحانه كخلق آدم وحواء من غير أب ولا أم . . أوجدها تعالى تأييداً لصالح وتصديقاً لدعوته ، وآية من مبرىء الأكوان وموجد الزمان والمكان ، لتدل على وحدانيته سبحانه ، وعندما خرجت الناقة وولدها من الصخرة آمن خلق كثير[٣٧] وقال صالح عليه السلام : **﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾**[٣٨] .

قال المفسرون : دعاهم أولاً أن يعبدوا الله ، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ، وأخبرهم أنه قد جاءتهم من ربهم شاهد قاطع في شهادته ، وهي الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة . آية لنبوته بدعائه عليه السلام لربه ، ثم أمرهم أن يتركوها تأكل من أرض الله ، وحذرهم أن يمنعوها أو يمسوها بسوء كالعقر والنحر ، فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم ، ثم دعاهم إلى أن يوجهوا طاقاتهم التوجيه الصحيح ، بأن يذكروا نعم الله عليهم ، وذكرهم أن الله تعالى جعلهم خلفاء يخلفون أمماً من قبلهم كعاد ، وأن الله تعالى هو الذي مكنهم في منازلهم وكما أنه هو الذي أخرج لهم الناقة من بطن الصخرة فإنه تعالى هو الذي أعطاهم القوة ليتخذوا من السهول قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً . وهذا يدعوهم إلى ذكر آلاء الله فيهم ، ولا يعثوا في الأرض مفسدين كان هذا توجيه صالح عليه السلام لهم ، بعد أن أخرج الله الناقة من الصخرة الصماء ، بين دهشة القوم ، وتهليل وتكبير صالح عليه السلام والذين آمنوا معه .

---

(٣٥) مروج الذهب : ٢/٤٧ .
(٣٦) ابن كثير : ٢/٢٢٨ .
(٣٧) مروج الذهب : ٢/٤٧ ، ابن كثير : ٢/٢٢٨ .
(٣٨) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٣ ـ ٧٤ .

* ٥ ـ مواجهات بين الحق والباطل :

بعد معجزة الناقة آمن الناس ، وتوارى بعض من الملأ الذين أصروا على الاستكبار وراء جدر النفاق أو جدر الصخر . بعد أن كَبُرَ عليهم أن يصبحوا من رعايا الصراط المستقيم وتحت قيادة صالح عليه السلام الذي يصغرهم في السن ولا يمتلك ما يمتلكوه من مال وجموع ، والاستكبار في كل زمان ومكان لا يرضى إلّا بما يشبع نفسه الأمّارة بالسوء وأهواءه التي استنقعت في الدنس ، الاستكبار هو الاستكبار من يوم أن رفض الشيطان أن يسجد لآدم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، كان الاستكبار في ثمود يتنفس برئة آباء معسكر الانحراف ولا يجد لنفسه وجوداً إلّا في هذا المعسكر ، لذلك كان يعز عليهم أن يروا صالحاً عليه السلام ، وهو يحطم عقيدة وثقافة خيام الشذوذ والانحراف . ولأن حياتهم فيما يحطمه صالح عليه السلام ، فإنهم خاضوا العديد من المواجهات معه ، منها ما حمل لافتات الترغيب وعرض المناصب القيادية ، ومنها ما حمل لافتات التحقير والتشاؤم من الذين آمنوا ، ومنها ما حمل الخناجر والسيوف لقتل صالح وقتل الناقة ، وكان لكل لافتة زمان ورجال ، فالزمن الذي عاصر معجزة الناقة أو سمع عنها كان المستكبرون يرفعون لافتة الصَّد المناسبة له ، والزمن الذي لم يَرَ ولكنه سمع كان له لافتة تناسبه ؛ وفي جميع الأزمنة لم تخلُ الدائرة حول صالح عليه السلام من المؤمنين به وبرسالته .

١ ـ الترغيب بدائرة الضوء :

بعد أن امتص المجتمع معجزة الناقة ، رأى جبابرة ثمود أن وجود المستضعفين حول صالح عليه السلام فيه خطر عليهم ، فعلموا من أجل امتصاص الدعوة ، بمعنى أن يُدخلوها تحت عباءاتهم حتى إذا خرجت لا تحطم طرقهم ، وكان سبيلهم من أجل تحقيق ذلك هو التلويح بالمنصب الرفيع في ثمود لصالح إذا ترك آلهتهم وشأنها ، وقد رويت أحاديث عديدة في محاولات ثمود هذه . وفي كتاب الله تعالى إشارات تدل على عمليات التلويح بالمنصب . يقول تعالى : **﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك**

مما تدعونا إليه مريب* قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إنْ عصيته فما تزيدونني غير تخسير * ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾[٣٩] .

لقد بدأ حديثه ودعوته بقوله : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ وفي هذا تحطيم للأرباب والآلهة التي اتخذوها من دون الله . ومنهج صالح عليه السلام في هذا لا يتبدل ولا يتغير ، ثم ذكرهم بعد ذلك بنشأتهم من الأرض . وبين لهم أن الله الذي أنشاهم من الأرض استخلفهم فيها ، وعلى هذا فإنهم لا يفتقرون في وجودهم وبقائهم إلاّ إليه تعالى . لأنه تعالى هو الذي أنشأ وهو الذي استخلف ، وبما أنه تعالى هو الذي يجب عليهم أن يعبدوه ويتركوا غيره ، لأنه تعالى خالقهم والمدبر لأمر حياتهم ، فيجب عليهم أن يسألوه أن يغفر لهم معصيتهم التي اقترفوها بعبادة غيره وأن يرجعوا إليه بالإيمان به وعبادته إنه تعالى قريب مجيب .

هذا معنى ما قاله صالح عليه السلام . فماذا قال له رؤوس القوم الذين يحافظون على الانحراف ؟ ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا** ﴾ والمعنى : أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحين . تنفع بخدماتك مجتمعهم . . لما كانت تشاهد فيك من أمارات الرشد والكمال[٤٠] كنا نرجوك في عقلك[٤١] ولكن هذا الرجاء قد خاب[٤٢] لقد يئسوا منك ، وسبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سُنَّة من سنن دولتهم ، وتمحو أظهر مظاهر قوميتهم ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ كيف وإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة ، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت . ووحدة قومية لها استقامة في الرأي والإرادة[٤٣] ويقول

---

(٣٩) سورة هود ، الآيات : ٦١ ـ ٦٤ .
(٤٠) الميزان : ١٠/٣١٢ .
(٤١) ابن كثير : ٢/٤٥١ .
(٤٢) في ظلال القرآن : ٢/١٩٠٧ .
(٤٣) الميزان : ١٠/٣١٢ .

صاحب الميزان : وقوله تعالى : ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ يدل على معنى العبادة المستمرة وذلك لاتصال عبادة الأبناء بعبادة الآباء .

عندما قالوا لصالح عليه السلام : لقد كان لنا رجاء فيك ، وكنت مرجواً فينا لعلمك ولعقلك ولصدقك ولحسن تدبيرك . عندما قالوا هذا كانوا يلوحون بالمنصب في حقيقة الأمر . وعندما لوحوا بالمنصب عرضوا مطالبهم عندما قالوا : فكل شيء يا صالح إلاّ هذا ، وما كنا نتوقع أن تقولها . فيا لخيبة الرجاء فيك(٤٤) وأمام الترغيب بالمنصب لوحوا بقبضتهم الحديدية في حالة رفض مطالبهم عندما أخبروه أنهم في شك مما يدعوهم إليه شك يجعلهم يرتابون فيه وفيما يقول : ﴿ **وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ . وهكذا عرضت ثمود مطالبها . لقد أرادت الأصنام رمز وحدتها القومية ، فوضعت ما أرادت على سهم حديدي ، مقدمته رجاء إن أصاب هدفه تمت لهم السيطرة على الدعوة ، وإلاّ فثقافة التشكيك في مؤخرة السهم الحديدي من شأنها أن تقضي على الدعوة وتعود بالقطيع إلى غابات الآباء .

أمام ثمود وقف صالح عليه السلام يرى معالم الضياع على وجوه القوم ، هو يدعوهم إلى الطهارة وهم يعملون من أجل إقامة سنن دولتهم ، وهو قد حذرهم من قبل أن لا يمسوا الناقة بسوء ، وبايعوه على ذلك وها هو يرى علامات النكث ترى بين طيات فقه التشكيك الذي لوحوا به ، فقال لهم رداً على ما أثاروه : ﴿ **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة منه فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير** ﴾(٤٥) . والمعنى : أخبروني . إن كنت مؤيداً بآية معجزة تنبىء عن صحة دعوتي . وأعطاني الله الرسالة وأمرني تبليغ رسالته . فمن ينجيني من الله ويدفع عني إنْ أطعتكم فيما تسألون ووافقتكم فيما تريدونه مني ، وما يريدوه مني هو ترك الدعوة(٤٦) . إن حرصكم من أجل أن أترك الدعوة وأرجع إليكم لا يزيدني إلاّ خسارة . إن اللحوق بكم فيه غضب الله وحرماني شرف الرسالة وخزي في الدنيا وعذاب في الآخرة وهذا كله خسارة بعد خسارة .

---

(٤٤) في ظلال القرآن : ٢/١٩٠٧ .

(٤٥) سورة هود ، الآية : ٦٣ .

(٤٦) الميزان : ١٠/٣١٣ .

فطريقكم لا شيء فيه إلّا التخسير . وبعد أن رفض عليه السلام أطروحاتهم ، وضع قضية الناقة أمام عيونهم ؛ لأن رفضه لمطالبهم سيترتب عليه صد عن السبيل وهذا الصد إذا اقترب من ناقة الله فستكون الكارثة بالنسبة لهم ، فقال لهم : ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾[47] أخبرهم بوضوح شديد ؛ أن الناقة تأكل في أرض الله محررة ، وحذرهم أن يمسوها بسوء ، بجرح ، أو قتل أو حتى ضرب وأخبرهم أنهم إنْ فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل ، وبرفضه عليه السلام لعرضهم إحترقت ورقة الاستكبار التي رغب بها صالح عليه السلام للدخول في دائرة الضوء الثامودي .

٢ ـ حملات التشكيك :

قبل ظهور معجزة الناقة آمن بصالح عليه السلام أصحاب القلوب الصافية والعقول السليمة ، وهؤلاء في الغالب من المستضعفين . آمنوا بمجرد أن دعا صالح إلى الله تعالى ، كما هو الحال مع سائر الأنبياء والرسل ، أما رؤساء القوم وشيوخهم فكانوا في شك من نبوة صالح عليه السلام ورسالته وصدقه في كل ما يدعيه وبعد معجزة الناقة وخروجها من الصخرة حسب طلبهم وبعد اتفاقهم على ذلك ، آمنت منهم جموع كثيرة ، ودخلوا في دائرة الاستبصار . ولكن الحال لم يستمر على هذا طويلاً . فظهور الناقة أمامهم يوم شربها أصبح عادة كما أن العديد منهم ضاق ذرعاً بالناقة نظراً لأن دوابهم كانت تخاف منها وتفر من طريقها رغم أن الناقة لا تؤذيها . ومع طول الأمد بدأ الإغواء الشيطاني وإغواء النفس الأمارة بالسوء ، وتحرك الاستكبار من وراء الجدر ومن داخل الساحات العامة ، وتحرك الملحدين الجفاة الغلاظ ، وجرُّوا معهم ضعاف الإيمان وجماهير الغوغاء أهل الطيش الهمج الرعاع أتباع كل ناعق يحمل لهم رغيفاً .

كان يعيش على أرض ثمود مَنْ رأى معجزة خروج الناقة وسمع الوصية بها ، ومن لم يَرَ خروجها ولكنه سمع عنه وعن الوصية ، ومن آمن بصالح عليه السلام سواء رأى المعجزة أو لم يرها . وبالإضافة إلى هؤلاء كان على أرض ثمود عمالقة

(٤٧) سورة هود ، الآية : ٦٤ .

الانحراف ومديري أجهزة الصد عن سبيل الله ، ومن هذه الفئات جميعاً تكون حزبين ، أو فريقين : فريق مؤمن ، وفريق إستحب العمى على الهدى ، وقام الفريق الثاني فريق الكفر باقتحام الساحة بشذوذه معلناً حملات التشكيك في رسالة صالح عليه السلام والناقة أمام عيونهم في الطرقات .

وبدأ معسكر الباطل في العدوان يقول تعالى في تحركهم : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون** ﴾[٤٨] .

لقد وقف الاستكبار أمام رقعة الاستضعاف . ووجه حديثه إلى الذين آمنوا بصالح . كي تصل رسالة الاستكبار بطريق غير مباشر إلى جموع المستضعفين في ثمود ، وكانوا في الغالب الأعم يلجأون إلى صالح ويسمعون منه ، ولقد دل سبحانه بيان قوله : ﴿ **للذين استضعفوا** ﴾ بقوله : ﴿ **لمن آمن منهم** ﴾ على أن المستضعفين هم المؤمنون ، وأنَّ المؤمنين إنما كانوا من المستضعفين ، ولم يكن يؤمن به أحد من المستكبرين[٤٩] فأمام رقعة الاستضعاف وقف الذين استكبروا وطرحوا على المستضعفين سؤالاً ﴿ **أتعلمون أن صالحاً مرسلاً من ربه ؟** ﴾ إنه سؤال التشكيك بعد أن طال الأمد إلى حد ما وأصبحت معجزة الناقة تخضع للتراث ، إن شاؤوا أضافوا إليه أساطير التشويه ، وإن شاؤوا تركوه على حاله ولتفعل الأموال ما تريد فإن لم يكن فالسياط ، وأمام السؤال كان الجواب ﴿ **قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ إنه جواب الثقة بالنفس . جواب من لا يخاف التهديد والتخويف . لقد أعلنوا الإيمان بما أرسل به ، وما أرسل به لا يخضع لأساطير التشويه لأنهم على يقين من أمرهم . ولا يهتز أمام السخرية والاستنكار ، لأنه راسخ في أعماق الفطرة وأعماق الوجود ، ولا يخاف من سياسات التجويع والتخويف ، لأن من عرف الحق لا يجوع ومن تمسك بالصبر لا يخاف . وأمام هذا المشهد ألقى الاستكبار بورقته التي تحمل شهوة الملك ﴿ **قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون** ﴾ لم تعد القضية قضية الناقة ، لقد كفروا

(٤٨) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٥ ـ ٧٦ .
(٤٩) الميزان : ٨/١٨٢ .

بالصراط المستقيم وفقهه وبأنبياء الله ورسله ، وتمرغوا لأصنامهم ولأهوائهم في التراب ، بعد أن كبر عليهم أن يصبحوا من رعايا الصراط المستقيم تحت قيادة صالح عليه السلام ، الذي كان في منتهى الحزن من أجلهم لأنهم قومه وقبيلته وعشيرته ، ولو أطاعوا ربهم لأصبحوا أحباءه . وبعد المفاصلة بين الإيمان والكفر ، بدأ أسلوب العصي الغليظة ، وفي عالم العصي الغليظة تصبح الرحمة شذوذاً . وبدأ أسلوب التشهير والتجريح والتحقير ، وتحت ثقافة من هذا النوع تفقد الإنسانية إنسانيتها ؛ لأنها فقدت غايتها ، وبدأ فريق الاستكبار يقوم بتوسيع دائرة تشكيكه . ولم يجد هذا الفريق ورقة يلعب بها غير ورقة التشاؤم ، فأظهروا ضيقهم بصالح وبالذين معه ، تحت عنوان أنهم يرونهم شؤماً عليهم ، ويتوقعون الشر من ورائهم . يقول تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون * قال يٰقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون** ﴾[٥٠] يقول المفسرون :

لقد طرح صالح عليه السلام دعوته في حقيقة واحدة ﴿ **أن اعبدوا الله** ﴾ فكانت النتيجة ظهور فريقان . فريق مؤمن وفريق كافر[٥١] فأما الفريق الكافر فلقد استثمر مشاكله التي جاءت نتيجة لأفعاله في الصد عن سبيل الله ، وذلك عندما دعاهم صالح عليه السلام بأن يستغفروا الله لعله سبحانه أن يرحمهم . فقالوا له : ﴿ **اطيرنا بك وبمن معك** ﴾ « أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً » لقد تشاءمنا بك وبمن معك ممن آمن بك ، وبما أن قيامك بالدعوة وإيمانهم بك ، قارَن ما ابتلينا به من المحن والبلايا ؛ فلن نؤمن بك ولن نستغفر[٥٢] !

إنهم يشككون في صالح وأتباعه مستغلين أوضاعهم الإقتصادية في هذا التشكيك . أي يستثمرون مشاكلهم في الصد عن سبيل الله ، طامعين أن يعود عليهم هذا الاستثمار بالنصر المظفر على صالح عليه السلام والذين آمنوا معه ﴿ **ألا بعداً لثمود** ﴾ إن منطق التشكيك باستثمار المشاكل منطق غير سليم لأنه

---

(٥٠) سورة النمل ، الآيات : ٤٥ ـ ٤٧ .

(٥١) ابن كثير : ٣/٣٦٧ ، البغوي : ٦/٢٩٠ .

(٥٢) الميزان : ١٥/٣٧٣ .

بالنسبة لثمود وهي أول مَنْ دَقَّ وتده في المسيرة البشرية ، يستند على قاعدة غير سليمة ، وهي قاعدة التشاؤم ، فالتطير والتشاؤم مأخوذ من عادات الأقوام الجاهلية التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، ولقد كانوا يتشاءمون كثيراً بالطير ، ولذا سموا التشاؤم تطيراً . إنهم ليشككوا في الدعوة قالوا : « ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً » ! إن هذا منطق أصحاب الجيوب المنتفخة والعقول المنتفخة . وأمام منطقهم العاجز الذي نبت في تيه الوهم والخرافة . وقف صالح عليه السلام . ليردهم إلى نور اليقين وإلى الحقيقة الواضحة ، البعيدة عن الضباب والظلام ﴿ **قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ والمعنى : « طائركم الذي فيه نصيبكم من الشر عند الله ، وهو كتاب أعمالكم ، ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتى نسوق إليكم هذه الابتلاءات ، بل أنتم قوم تختبرون بهذه الأمور ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم »(٥٣) .

وأمام منطق صالح عليه السلام وحججه الدامغة ؛ بدأ الشيطان يقود قافلة الإنحراف بعد أن دعاها ولبت نداءه . وبدأت القافلة تخطط إلى ما هو أبعد من التشكيك ، كي تحتفظ بالقومية التي شيد آباؤهم خيامها في معسكر الانحراف .

* ٦ ـ نظرات في حركة الناقة :

لقد حافظ الانحراف في كل رمز من رموزه من أيام ابن آدم الأول قاتل أخيه . واحتوت خيامه على كل ثقافة للشذوذ وللتوثين تركها كفار قوم نوح وقوم هود . ولم تحفظ ذاكرة ثمود معجزة ناقة خرجت من الصخر بلا أب وبلا أم ، ونسبها الله إلى نفسه وقال : ﴿ **ناقة الله** ﴾ لقد احتفظت ذاكرتهم بكل ما يبعدهم عن الله ، وأبت عقولهم إلاّ أن تشرب من أوعية الدَّنس والعار التي تحتوي على ثقافة اتباع الهوى وطول الأمل . . تلك الثقافة التي خَطَّ الشيطان خطوطها الأولى . فمن ثمود مَنْ شاهد الناقة وهي تخرج من الصخرة ومن ورائها يجري ولدها ، وسمع بأم أذنيه تحذير صالح عليه السلام من مساسها بأي سوء ، ومنهم من سمع ولم يشاهد . ولكن هذا وذاك في معسكر الانحراف . لا قيمة لسمعهم

---

(٥٣) الميزان : ١٥/٣٧٣ .

ولا قيمة لأبصارهم ولا قيمة في أولادهم ولا قيمة في أموالهم ، لأنهم ركبوا بما يضمرون في أنفسهم قطار الاستدراج الذي ينتهي بهم إلى محطة الاستئصال ، وهناك يقطع الله تعالى دابرهم فلا ترى لهم من باقية .

إن أتباع الانحراف لهم آذان لا يسمعون بها ولهم عيون لا يبصرون بها ولهم قلوب لا يفقهون بها ، لأنهم يستعملون حواسهم فيما لا يعود عليهم وعلى الإنسانية بالسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، وهم ما فقدوا مقياس الاستعمال الصحيح لحواسهم إلّا بعد أن نسوا أو تعامَوْا عن الدليل الحق الذي يقودهم إلى الطريق الحق ، ومن كانت مقدمته النسيان أو التعامي عن الحق في أول الطريق تمرَّغ في نهاية الطريق على أرض السراب بحثاً عن الماء ولن يجد الماء ! لأن المقدمة كانت تقوم على نسيان الله ومن نسي الله في أول الطريق أنساه الله نفسه على امتداد الطريق وانتهى أمره إلى الهلاك والله غني عن العالمين . وثمود نست وتعامت ففقدت الدليل ، والدليل يحدثها من كل جانب . يقول لهم قولاً واحداً : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله** ﴾ ويحذرهم تحذيراً واحداً ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾[٥٤] لقد كان لوجود الناقة بينهم حكمة ، ومن وراء هذه الحكمة هدف ، إن الناقة كانت شيئاً مادياً يروه بأم أعينهم في طرقاتهم . كانت دابة على هيئة لم يألفوها ، إختار عباقرتهم وفقهاؤهم أوصافها بأنفسهم وأخرجها الله لهم من الصخرة التي عينوها أيضاً بأنفسهم ، وهذا في حد ذاته دعوة للتدبر على امتداد أجيال ثمود ، وإذا كانت الناقة وهيئتها هي الجزء المادي من المعجزة ؛ فإن أفعالها هي الشطر الثاني من المعجزة وأفعال الناقة كانت حجة على الجميع من الطفل الرضيع وحتى الشيخ الفاني . كانت حجة على الذي رأى وسمع والذي لم يَر ولم يسمع من ثمود . وكما أن الناقة بهيئتها معجزة تقود إلى الله الحق فإن أفعال الناقة كانت أيضاً معجزة تقود إلى الله الحق ، وبما أن طريق الله الحق يبينه لثمود صالح عليه السلام ؛ فإن معجزة الناقة المادية والفعلية هدفها أن تقف ثمود منصتةً إلى الرسول الحق الذي يدلهم إلى الطريق الحق .

لقد كان عمل الناقة الوحيد أن تشرب يوماً ولا يحضر شربها غيرها ، وأن

---

(٥٤) سورة الأعراف ، الآية : ٧٣ .

يشرب القوم يوماً ولا يحضر شربهم غيرهم . وكانت الناقة إذا كان يوم شربها خرجت بلونها البهي الجذاب لكونها حمراء شقراء وبراء ، وسارت في الطرقات بجسمها العظيم الضخم الذي تمتاز به عن غيرها من سائر نوق الدنيا ، وتوجهت إلى الماء فتشرب حتى إنها لم تبق لهم شيئاً من الماء يوم شربها . كما كانت تتوجه إلى المرعى فتأكل ما تشاء ولا يجوز لأحد منعها ومعارضتها ، ثم تعود إلى حيث تبيت دون أن تضر أحداً في نفسه أو زرعه وشجره . تعود كما خرجت وهي في جميع تحركاتها لا تحتاج إلى حارس ولا سائس ، وكانت سائر الدواب تخاف منها عندما تراها خارجة للذهاب إلى الماء والمرعى أو عائدة إلى ديارها ، كانت سائر الدواب تخاف منها وتفر من طريقها وهي لا تؤذيها كما روي(٥٥) أما في يوم شرب القوم فإنها لا تقرب الماء يوم شربهم ولا تزاحمهم ، هكذا من نفسها ، لأن واقع أمرها لا يدركه إلّا الذي خلقها وسواها . وكانت عندما تعود لمبيتها يحلبونها ، فلا يبقى في بلدتهم صغير ولا كبير إلّا شرب من لبنها في ذلك اليوم . هكذا جرت عليهم الأيام . يشربون لبن الناقة في اليوم الذي لا يشربون فيه الماء . ولا تأخذ الناقة منهم شيئاً في اليوم الذي لا يحق لها أن تشرب من الماء .

إن فقدان الماء في يوم وخاصة في عالم الصحراء . وبالأخص في عالم ثمود الذي يقوم فيه العمال والجنود بنحت الصخور . يكون أمراً شاقاً على مستوى الفرد وعلى مستوى الدولة التي تريد أن تنفذ خطتها وفق أطروحة الآمال الطويلة ، وهو أمر شاق أيضاً على سير التجارة وإنتقال القوافل من هنا إلى هناك ، لأن نقطة بدء الرحلة يتحدد يومها وفقاً للقسمة بين الناقة وبين القوم . كي تتزود القوافل بالماء اللازم في اليوم المحدد لها . هذا إذا توفر لها الماء فعلاً ، نظراً لأن الناقة في يومها كانت إما تشربه جميعاً أو تشرب معظمه ، وليس الماء فقط بل نبات المراعي أيضاً الذي تتزود منه القوافل ليكون زاداً لدوابهم . باختصار كان في فقدان الماء ليوم واحد فقط خطورة عظيمة تهدد أركان ثمود ، وبما أن الماء في يد القدرة الإلٰهية فكان أمام ثمود حلاً واحداً لا بديل له . وهو الإيمان بالله وعبادته وفقاً لهذا الإيمان . وخطوط هذه العبادة تكمن في طاعتهم لصالح عليه السلام لأن طاعته من طاعة الله .

---

(٥٥) ابن كثير : ٢/٢٢٨ .

وثمود عندما كانوا في دائرة الاستبصار بعد خروج الناقة من الصخرة ، كانت الناقة لا تشرب من الماء إلا قليلاً ، وكلما ابتعدت ثمود عن دائرة الاستبصار ، كلما شربت الناقة ، من الماء بقدر ابتعادهم ، حتى جاء اليوم الذي انهار فيه اقتصادهم . وتشاءموا من صالح عليه السلام . لقد كانوا يبتعدون . والناقة بأفعالها تدعوهم إلى دائرة الاستبصار . وصالح عليه السلام بأقواله وأفعاله يدعوهم إلى الهدى والطريق المستقيم يقول تعالى : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾[٥٦] قال المفسرون : (مبصرة) صفة للناقة . أي تدل ثمود إلى الطريق الحق ، وبأفعالها تدل على وحدانية من خلقها ، وصدْق رسوله الذي أجاب الله دعاؤه فيها . . فالناقة كانت مبصرة ، ومعجزتها ظاهرة البينة ، لقد كانت تتعامل مع الماء بحكمة فيها إعجاز تلتفت إليه ثمود ، ولكن ثمود ركبت دواب استعجال السيئات ، ولم ينصتوا لصوت الحكمة الذي تبثه الناقة ، ولا لصوت العقل الذي يبثه صالح عليه السلام . لقد طالبهم بأن لا يستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة . لأن حضور السيئة يبعد عنهم الماء . وأمرهم بأن يستغفروا الله ، لأن مع الاستغفار يكون الماء . وبما أن الله تعالى جعلهم خلائف من بعد عاد ، فصالح عليه السلام لم يقُل لهم إلاّ ما قاله هود لعاد : ﴿ **يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾[٥٧] ولم يقل لهم إلاّ ما قاله نوحٍ لقومه : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾[٥٨] إن الناقة على الأرض مقياس للماء . ولله في خلقه شؤون . ولكن أصحاب الأدمغة الفارغة ، والأحلام التافهة ، لم يفقهوا حقيقة الأمر ، ورفضوا الاستغفار واستثمروا أوضاعهم الإقتصادية المنهارة . التي يرجع سببها الرئيسي لكفرانهم بالنعمة ولصدهم عن سبيل الله . . استثمروها في مربعات التشكيك بصالح والذين معه ، قائلين له : ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً ! ﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطَّيَّرْنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون** ﴾[٥٩] .

---

(٥٦) سورة الإسراء ، الآية : ٥٩ .

(٥٧) سورة هود ، الآية : ٥٢ .

(٥٨) سورة نوح ، الآيتان : ١٠ ـ ١١ .

(٥٩) سورة النمل ، الآيتان : ٤٦ ـ ٤٧ .

لقد كانت الناقة دعوة للتأمل والتدبر . فخلقها عظيم مهيب ، وكانت دعوة للشكر ، لأن على لبنها عاش القوم ، وكانت دعوة للاستغفار من الذنوب . لأنها مقياس للماء على أرض ثمود صاحبة الأعلام والجنود ، كانت الناقة إشارة للذين يحفرون الصخور طلباً للخلود . إشارة تقول إذا كان هناك قوم قد أُهلكوا بالطوفان ؛ فليس بالضرورة أن يكون هلاك آخرين به . وقد يكون الهلاك في عدم وجود ماء . ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾(٦٠) إن ذاكرة ثمود لم تع الحدث العظيم ، لأنها استنقعت في أبوال إبل آبناء معسكر الانحراف ، وعندما تناسوا أو تعاموا عن الحدث وحكمته ابتعدوا عن دائرة الاستبصار ، واقتربوا من دوائر الفتن ، التي يجري على الهالك فيها قانون الاستدراج وهو قانون يضرب كل مفتون وكل جبار يرفض التوبة والاستغفار . لقد كانت الناقة عِلماً بذاتها . عِلماً يحمل لهم الخير . خيراً يدخل في أجوافهم . وخيراً يدخل عقولهم لو تدبروا . وكانت الناقة جداراً يحميهم من الفتن لأنها تردهم إلى صالح . لأنهم إذا سقطوا في الفتن بلا دليل . فلا أمل في نجاتهم . وصالح عليه السلام حَذَّرهم من الفتن التي ليس فيها دليل يقود حين قال لهم : ﴿ **طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون** ﴾(٦١) إن النجاة في عالم الفتنة لا تكون إلا لأصحاب البصائر الذين يعلمون أن طائرهم عند الله ، ولأنهم يبدأون طريقهم من الله ؛ فإنهم على امتداد الطريق تكون همتهم بالله وشغلهم فيه وفرارهم إليه ، وثمود قامت بحملات الترغيب والترهيب والتشكيك من أجل الصد عن سبيل الله ، وقال الذين استكبروا للذين آمنوا : ﴿ **أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا : إنا بما أُرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون** ﴾(٦٢) وثمود لم يسمعوا للدليل الذي بعثه الله فيهم ليقودهم إلى الطريق المستقيم . لم يسمعوا له حين قال لهم : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾(٦٣) ولقد عصوا الله وأطاعوا أمر المسرفين لأن معهم مصالحهم وفي أوعيتهم أهواءهم . وعندما عصوا

---

(٦٠) سورة الملك ، الآية : ٣٠ .

(٦١) سورة النمل ، الآية : ٤٧ .

(٦٢) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٥ ـ ٧٦ .

(٦٣) سورة الشعراء ، الآيات : ١٥٠ ـ ١٥٢ .

الله ورسوله ولم يتدبروا في معجزة الناقة كفرت ثمود . وفي عالم الكفر والظلام . ركبت ثمود دواب المسرفين كي يصلوا بها إلى خيمة الآباء العتيقة في معسكر الشذوذ والانحراف ، وبينما هم في رحلة الانحراف اتخذت ثمود أخطر قراراتها . ألا وهو قرارُ قتل الناقة ! الناقة التي تساعدهم كي يستغفروا ، وتساعدهم كي لا يقعوا في بحور الفتن ، وتدفعهم دفعاً في اتجاه المبعوث فيهم . وبقرار ثمود قتل الناقة ، يكونون قد دخلوا في حرب مع الله ، لأن على الناقة تحذير ، وهذا التحذير نقله إليهم صالح عليه السلام : ﴿ **يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾(٦٤) ﴿ **قال هذه ناقة لها شِرب ولكم شِرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾(٦٥) . لقد كانت الناقة لهم امتحان كما في قوله تعالى : ﴿ **إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر** ﴾(٦٦) فإذا كانت الناقة امتحان فإن الخروج عليها جريمة . ولما كانت الناقة لها علاقة بالماء والنبات والزمان ؛ فإن الخروج عليها في حقيقة الأمر خروج على النظام الكوني الذي ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض . وعلى هذا يكون قرار ثمود جريمة ما بعدها جريمة . وما أكثر الجرائم التي ارتكبت في عالم الفتن وظن أصحابها أنها إنما وقعت على أرضية لا يفسد فيها للود قضية ، هذا ظنهم ولكن الحقيقة أن هذه الجرائم من جنس الجريمة التي في ملف ثمود ويترتب عليها بصورة أو بأخرى ما أصاب ثمود .

* ٧ ـ سفك الدماء :

خرجت الناقة بلا حارس وبلا سائس في اليوم المحدد لها ومعها فصيلها (ابنها) وروي أن ثمود مشى بعضهم إلى بعض وقالوا : اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها . لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم . ثم قالوا : من الذي يقتلها ونجعل له جُعْلاً ما أحب ؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق . ولد زنا لا يعرف له أب . يُقال له : قدار . شقي الأشقياء . شؤم عليه . فجعلوا له جُعْلاً . فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده . تركها حتى شربت وأقبلت

(٦٤) سورة هود ، الآية : ٦٤ .

(٦٥) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٦٦) سورة القمر ، الآية : ٢٧ .

راجعة . فقعد لها في طريقها . فضربها بالسيف ضربة . فلم تعمل شيئاً . فضربها ضربة أخرى فقتلها . وخرت على الأرض على جنبها . وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل . فرغا ثلاث مرات إلى السماء[٦٧] وروي أن جماعة تبعوا فصيلها لما هرب منهم فرماه أحدهم بسهم فأصابه في قلبه . فسقط على الأرض ثم جروه برجليه وأنزلوه . ووضعوا لحمه مع لحم أمه واقتسموه بينهم[٦٨] .

وروى ابن كثير أنها عندما شد عليها قدار بالسيف . خرت ساقطة إلى الأرض . ورغت رُغاء واحداً تخدر سقبها (فصيلها) ثم طعنها قدار في لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها (فصيلها) حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى صخرة فيه ورغا . . وقال ابن كثير يقال إنه رغا ثلاث مرات وأنه دخل في صخرة فغاب فيها . ويقال : إنهم اتبعوه فعقروه مع أمه[٦٩] وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام . فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال : ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾[٧٠] وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء[٧١] وكان الله تعالى قد أوحى إلى نبيه صالح : أن قومك قد طَغَوْا وبَغَوْا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ، ولم يكن لهم منها ضرر . ولم يكن لهم فيها ضرر . وكان لهم أعظم المنفعة ، فقل لهم : إني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام . فإنْ هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم . . وإنْ هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث . . فلما أبلغهم صالح عليه السلام الذي أوحاه إليه ربه . اشتدوا وعتوا وتمردوا وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين[٧٢] .

لقد عقروا الناقة وابنها . واقتسموا لحم الابن وأمه بينهم ، لقد أكل القوم ناقة الله ! أكلوا ناقة الله ! ما هذا ؟ على أي درب من دروب الانحراف كان يقف هذا النمط من بني الإنسان ؟ وعندما أكلوا . . دعاهم نبيهم للاستغفار ، فقالوا

---

(٦٧) الميزان : ١٠/٣١٥ .
(٦٨) كتاب الأنبياء : ١٠٦ .
(٦٩) ابن كثير : ٢/٢٢٩ .
(٧٠) سورة هود ، الآية : ٦٥ .
(٧١) ابن كثير : ٢/٢٢٩ ، مروج الذهب .
(٧٢) كتاب الأنبياء : ١٠٦ .

كما قال كفار قوم نوح وقوم هود من قبل : ﴿ **ائتنا بما تعدنا** ﴾ فعلى أي شاطىء من الوحل كان يقف هذا النمط ؟ لقد خرجوا على الكون ، والصخور التي صنعوها لتكون لهم سكناً يحميهم من الرياح لن تقف حائلاً بينهم وبين ما يستحقون من عقوبة ، ولن تبكي عليهم الأرض ولا السماء وسوف يُلعنون على امتداد الرحلة البشرية داخل معسكرات الذين آمنوا .

لقد عقروا ناقة الله ، وعندما عقروها قال لهم الله : ﴿ **تمتعوا** ﴾ . . يا لعظمة الانتقام . ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام** ﴾ عقروا ناقة الله التي لا أب لها ولا أم . الناقة التي خلقها الله عن طريق الإعجاز كما خلق آدم . لتكون حجة عليهم ومقياساً للماء في ديارهم . وبعد أن عقروها . قال لهم رب العالمين العزيز الصبور : ﴿ **تمتعوا** ﴾ يتمتعون في مدينتهم . ويتنعمون بالحياة . ويتلذذون بأنواع النعم . ثلاثة أيام . يتمتعون بالحياة الرخيصة ، التي صدوا عن سبيل الله من أجلها ، وقتلوا من أجلها ويتلذذون بما لديهم من نعم ظنوا أنها تقودهم إلى السعادة ! وبعد ذلك سيعلمون الحقيقة في وقت لا يجدي فيه الندم .

* ٨ ـ محاولة قتل صالح عليه السلام :

عندما رفض القوم التوبة والإستغفار بعد قتل الناقة ، وعدهم صالح عليه السلام بالعذاب ، وكان ذلك يوم الأربعاء يقول المسعودي : فقالوا له مستهزئين : يا صالح متى يكون ما وعدتنا به من العذاب عن ربك ؟ فقال : تصبح وجوهكم يوم مؤنس (الخميس) مصفرة . ويوم العروبة محمرة . ويوم شبار مسودة . ثم يصبحكم العذاب يوم أول[٧٣] وعندما أعلن صالح عليه السلام عليهم هذا ، كان بالمدينة تسعة رهط[٧٤] ، وهم التسعة الذين أخبر الله عنهم في كتابه . بقوله : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾[٧٥] ، يقول ابن كثير : عن هؤلاء التسعة إنهم كانوا كبراء ثمود ورؤساءهم[٧٦] . وقال

(٧٣) مروج الذهب : ٢/٤٨ .
(٧٤) الرهط الجماعة من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى الأربعين .
(٧٥) سورة النمل ، الآية : ٤٨ .
(٧٦) ابن كثير : ٣/٣٦٧ .

البغـوي : كانـوا دعاة قـومهم إلى الضلال والكفـر وتكذيب صـالـح[٧٧] . فهؤلاء الجبابرة اجتمعوا بعد عقر الناقة . وبعد أن أخبرهـم صالـح عليه السـلام بالعـذاب الـذي سيحل بهم . وأصـدروا قراراً بقتـل صالـح عليه السـلام . حتى يستطيعـوا العيش كمـا يريـدون . ولا ينغص عليهم أحد هـذا العيش . فلقـد عقـروا النـاقـة وأكلوهـا ، ولم يبق إلاّ الـرسـول والـدعـوة ، فـإذا قُتـل صـالـح ، فلن يتبقى غيـر المستضعفين . وهؤلاء تقوّمهم السيوف التي قتلت الناقة .

يقول المسعودي : فهمَّ التسعة بقتل صالح وقـالوا : إن كـان صادقـاً (فيما أخبـرهم بالعـذاب) كنا عـاجلناه قبـل ان يعاجلنـا وإن كان كـاذباً كنـا قد ألحقنـاه بناقته[٧٨] . وقام الجبابرة بتحديد خطوات تنفيـذ جريمتهم . وقـد أخبر الله تعـالى عن خطوطها العريضة فقال : ﴿ **وكان في المدينة تسعـة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنّـه وأهله ثم لنقولن لـوليه مـا شهدنـا مهلك أهله وإنـا لصادقـون * ومكروا مكـراً ومكرنـا مكراً وهم لا يشعـرون** ﴾[٧٩] قـال المفسرون : قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله . لنقتلن صالحاً وأهله بالليل ﴿**لنبيتنه وأهله**﴾ **فالتبيت القصد** بالسـوء ليلاً ، وبعـد عملية قتله يقـولون لـوليه إذا حدث وعرفهم . ما شهدنا هلاك أهله . وفي هذا مكر منهم ، لأنهم عنـدما ينفـون مشاهدتهم **لمهلك أهل صالح عليه السلام** فإنهم في نفس الـوقت ينفون مشـاهدة مهلك صالح نفسـه . وأيضا بنفيهم مشـاهدة مهلك أهـل صالـح يضعهم في دائرة الصدق أمام القوم ، لأن الحقيقة أنهم شاهدوا مهلك صالح وأهله جميعـاً لا مهلك أهله فقط .

إن ثمود تحرت الـدقة في تنفيـذها للجـريمة كي يبـدوا الجبابـرة بملابسهم الفاخرة أمـام القوم في دائـرة الصدق والشـرف والمروءة ﴿ **ومكـروا مكراً ومكـرنا مكراً وهم لا يشعرون** ﴾ أما مكرهم فهـو التواطؤ على تبييتـه وأهله ، والتبييت كما ذكرنا السوء بالليل . وأما مكره تعالى . فهو تقديره سبحانه هلاكهم جميعاً . يقول المسعودي : فآتوه ليلاً ، فحالت الملائكـة بينهم وبينه وأمـطرتهم الحجارة ومنعـه

---

(٧٧) البغوي : ٦/٢٩١ .

(٧٨) مروج الذهب : ٢/٤٨ ، ابن كثير : ٢/٢٢٩ .

(٧٩) سورة النمل ، الآيات : ٤٨ ـ ٥٠ .

الله منهم[٨٠] وقال ابن كثير والبغوي : قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة هلم فلنقتل صالح ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته . فآتوه ليلاً ليبيّتوه في أهله . فدفعتهم الملائكة بالحجارة . فلما أبطأوا على أصحابهم . أتوا منزل صالح فوجدوهم (أي أصحابهم) منشدخين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً ، فأنتم من وراء ما تريدون . فانصرفوا عنهم[٨١] .

﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[٨٢] لقد ضربتهم الحجارة يوم الأربعاء . اليوم الذي عقروا فيه الناقة . ضربتهم قبل قومهم ، ليذوق القوم عذاب الذل . وهو يرى جبابرته وشيوخه وسادته . يسبحون في بحر من الدماء أمام بيت صالح عليه السلام . لقد قتلوا في الخلاء بعيداً عن بطون الجبال وأحشائها . وهم الذين قضوا حياتهم يحفرون في الصخر ليوفروا لأنفسهم نوماً آمناً ومعيشةً آمنةً . لقد شاهدوا شيوخهم في العراء بعد أن أعطوهم بيعة إلى الأبد ليقتلوا بها كل طاهر حتى يعيش الجبابرة وفقهاؤهم وجنودهم في أمان . فها هم الجبابرة محت الحجارة ملامحهم ، وها هم الغوغاء والرعاع الذين يرقصون مع كل قرد ينتظرون ألواناً ثلاثة على وجوههم : صفراء ، ومحمرة ، ومسودة ، وبعد ذلك يأخذهم العذاب الأليم . كي يلحق التابع بالمتبوع .

* ٩ ـ يوم الصيحة :

بعث الله تعالى في ثمود رسولاً منهم فكذبوه . وأيد سبحانه رسوله فيهم بآية مبصرة هي الناقة فعقروها ، والله تعالى عندما يرسل آياته إنما يرسلها تخويفاً للناس ليحذروا بمشاهدتها عما هو أشد منها وأفظع . ولكن ثمود لم يخافوا وتقبلوا العادة المتوارثة على ما هي عليه ، عادة آبائهم كفار قوم نوح وقوم هود الذين قالوا

---

(٨٠) مروج الذهب : ٢/٤٨ ، البغوي : ٦/٢٩٣ .

(٨١) ابن كثير : ٣/٣٦٨ ، البغوي : ٦/٢٩٣ .

(٨٢) سورة النمل ، الآيتان : ٥٠ ـ ٥١ .

لكل رسول عندما أنذرهم عذاب الله : ﴿ **ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ وعندما وعدهم صالح عليه السلام بأن العذاب نازل بهم في ثلاثة أيام هَمُّوا بقتله ولكن الله حال بينهم وبينه وأمطرتهم الحجارة . ومنعه الله منهم .

عندما أصبح القوم نظروا إلى وجوههم كما وعدهم صالح . فوجدوا اللون الأصفر على وجوههم وهو علامة اليوم الأول . فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : قد جاءكم ما قال صالح . فقال العتاة منهم : لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً . فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة . فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح . فقال العتاة منهم لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ! ولم يتوبوا ولم يرجعوا ! فلما كان اليوم الثالث أصبحوا وجوههم مسودة ، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح . فقال العتاة منهم : قد أتانا ما قال لنا صالح[٨٣] .

وهكذا أدار الجبابرة العتاة معركتهم مع التوبة ! لقد جرى في عروقهم الدم والموت ، ولكن الاستكبار الذي نقب الصخور ؛ أقام الدليل على انه التلميذ الوفيّ لآبائه الذين كانوا بدورهم أوفياء للشيطان ، وفي اليوم الأخير دقق العتاة في كل شق بكل صخرة وبكل جدار ، وعلموا أنهم لن يفعلوا بمشاعلهم شيئاً في الظلام . . وعندما أصبحوا من يوم الأحد . تغيرت الأجسام . وتيقن القوم صدق الوعد وأن العذاب واقع بهم . فجلسوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب ؟[٨٤] وأوحى الله تعالى إلى صالح عليه السلام بالخروج ، وخرج صالح في ليلة الأحد من بين ظهرانيهم مع مَنْ خف من المؤمنين فنزل موضع مدينة الرملة من بلاد فلسطين ، وآتاهم العذاب يوم الأحد[٨٥] آتاهم جبرائيل عليه السلام فصرخ لهم صرخة خرقت أسماعهم وفلقت قلوبهم وصَدَّعت أكبادهم ، وكانوا قد تحنطوا وتكفنوا في الأيام الثلاثة بعد أن علموا أن العذاب نازل بهم لا محالة ، فماتوا جيمعاً في طرفة عين . صغيرهم

---

(٨٣) الميزان : ١٠/٣١٦ .

(٨٤) ابن كثير : ٢/٢٢٩ .

(٨٥) مروج الذهب : ٢/٤٨ .

وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا رعية ولا شيء إلّا أهلكه الله ، فأصبحوا في ديارهم موتى ، وأرسل الله تعالى إليهم مع الصيحة نار من السماء فأحرقتهم أجمعين[٨٦] .

قد ذكر الله تعالى أن سبب هلاكهم أنهم أخذتهم الرجفة فقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾[٨٧] وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾[٨٨] وفي موضع ثالث قال سبحانه : ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون** ﴾[٨٩] والرجفة والصيحة والصاعقة دثار واحد لعذاب واحد أحاط بالظالمين من كل مكان وهذا العذاب عنوانه العريض هو الدمدمة . يقول تعالى : ﴿ **فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها** ﴾[٩٠] والدمدمة على الشيء : الإطباق عليه . يقال مثلاً : دمدم عليه القبر . أي أطبقه عليه . والدمدمة على ثمود أي شملهم الله بعذاب يقطع دابرهم بسبب ذنبهم . فسوى الدمدمة بينهم . فلم يفلت منهم قوي ولا ضعيف ولا كبير ولا صغير . وتحت عنوان الدمدمة تكون الصواعق التي لا تخلو عن صيحة هائلة تقارنها ومع هذا وذاك ترتجف الأرض نتيجة لملامسة الاهتزاز الجوي الشديد لها ، ونتيجة لذلك توجف القلوب . وترتعد الأركان ، فثمود جاء إليها العذاب الأليم من تحت دثار الدمدمة ، عذاب تحمله صاعقة سماوية اقتربت الصيحة هائلة ورجفة في الأرض وفي قلوبهم . فأصبحوا في دارهم وفي بلدهم جاثمين ساقطين على وجوههم وركبهم ، لقد ضربتهم صيحة واحدة أصبحوا بعدها كالشجر اليابس كما أصبحت عاد من قبل كجذوع نخل خاوية . يقول تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر** ﴾[٩١] أصبح العتاة وفقهاء الجبابرة كالشجر اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته . . إنه عدل الله ، لقد عقروا ناقة الله ،

(٨٦) الميزان : ١٠/٣١٦ .

(٨٧) سورة الأعراف ، الآية : ٧٨ .

(٨٨) سورة هود ، الآية : ٦٧ .

(٨٩) سورة فصلت ، الآية : ١٧ .

(٩٠) سورة الشمس ، الآيات : ١٣ - ١٥ .

(٩١) سورة القمر ، الآية : ٣١ .

واستكبروا أن تأكل وتشرب في أرض الله ، فجعلهم الله في مماتهم كشجر لا يصلح إلّا للدواب ، ولقد رفعوا رقابهم أمام صالح عليه السلام وتطاولوا على الذين آمنوا . فجعلهم الله في مماتهم ساقطين على وجوههم وركبهم . ولقد شيدوا دورهم ومساكنهم داخل الصخور وتطاولوا بها على المستضعفين من الذين آمنوا ﴿ **فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين** ﴾[٩٢] أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله . وهو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم[٩٣] . لقد أطبق العذاب على ثمود فلم يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم . . لقد حفروا في الصخور كي يتجنبوا الرياح المهلكة التي أطاحت بعاد . لكن العذاب جاءهم من طريق أسرع من الرياح . لقد حفروا في الصخور مخافة الموت فجلسوا فيما حفروا ينتظرون الموت . بعد أن تأكدوا من أن الذي وعدهم به صالح من عذاب آت لا ريب فيه . وأن عليهم أن يدفعوا ثمن خيانتهم للفطرة ولأنفسهم وللرسول وللمعجزة وللكون كله الذي ساروا فيه في عكس اتجاهه . لقد جلسوا وتحنطوا وتكفنوا ولم يعد في ثمود مَنْ يثق في أي قول يُقال له من العتاة الذين وثّنوا الفطرة ومهدوا السبيل لثقافة الانحراف والشذوذ وصدوا عن سبيل الله ، لم يعد هناك مَنْ يثق في قول العتاة وذلك في وقت لن يجدي فيه الندم ، بعد أن أطاحوا بالتوبة والاستغفار يوم أن دعاهم نبيهم إليها .

كان كل فرد في ثمود لا يثق إلّا في كفنه ، ذلك الشر الذي يطرد الشر من على صفحة هذه الأرض ، وبينما هم في الأكفان جاءتهم الرجفة التي لم يعملوا لها حساب وفقاً لمقاييس فروع الهندسة في عالم العتاة . والرجفة هي الاضطراب والاهتزاز الشديد كما يحدث في زلزلة الأرض وتلاطم البحر ، وعندما ضربتهم الرجفة أصبحوا في بيوتهم جاثمين ، والجثوم في الإنسان كالبروك في الإبل ، لقد برك الجبابرة وأتباعهم كل داخل دياره وعلى أبدانهم أكفانهم ليذوقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد . جثوا في بطون الجبال ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما**

---

(٩٢) سورة الذاريات ، الآيتان : ٤٤ ـ ٤٥ .

(٩٣) الميزان : ١٠/٣٨١ .

كانوا يكسبون ﴾(٩٤) لقد جرى عليهم العذاب وفق ما يأذن به الله . وبينما كانت الدمدمة تحيط بهم من كل جانب . كان صالح عليه السلام ومن معه لا يخافون ، لأنهم في رحاب الرحمة وداخل دائرة الأمن التي لا يشملها الغضب الإلهي **﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾**(٩٥) **﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾**(٩٦) .

وذهبت ثمود . بعد أن جعلها الله عبرة لكل من يعرض عن آيات الله . لقد كانت الناقة بينهم وتعيش على أرضهم وتنفعهم ولا تضرهم . ولكن قلوب الحجر التي في الصدور أعرضت عن آيات الله . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون إن وجود آية بين الناس حجة بالغة . وقتل هذه الآية جريمة من أعظم الجرائم يترتب عليها فتح أبواب الفتن وأبواب العقاب . لقد ذهبت ثمود ومن بعدها جاءت أمم أخذت منها سلاحها وأقوالها وأفعالها . ثم قامت بتطوير هذه الأدوات وهذه الثقافات وفقاً للعصور التي ابتليت بهم . وقامت هذه الأمم ببناء أكثر من جرف صخري وراء جدر النفس من أجل الصد عن سبيل الله ، ولكن تحت السماء لا يفر الظالمون . . واللسان والقلم في كل عصر مستعدان دوماً لأن يحكيان القصة الأخيرة عند المحطة الأخيرة لهذه الأمم . لأن سقوط الباطل علامة من علامات الحق . فالباطل طارىء لا أصالة له في الوجود . والباطل مطارد من الله . ولا بقاء لشيء يطارده الله . إن الباطل مهزوم مهزوم . ولن تبقى إلاّ آثاره التي تفوح بالأبخرة النتنة الكريهة تلك الأبخرة التي أنتجها الضمير الآثم على مر العصور .

---

(٩٤) سورة الحجر ، الآيات : ٨٢ ـ ٨٤ .

(٩٥) سورة هود ، الآيتان : ٦٧ ـ ٦٨ .

(٩٦) سورة النمل ، الآيتان : ٥٢ ـ ٥٣ .

انحرافات قوم لوط عليه السلام

﴿ قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون ﴾

سورة النمل ، الآية : ٥٦

المؤتفكة وأمطار بلا ماء

إنحـــراف المــــاء

مقـــــدمة :

بعد استئصال ثمود ذكر القرآن الكريم قوم لوط. ولوط عليه السلام كان في فاتحة دعوة إبراهيم عليه السلام . . فهـو من السابقين الأولين ممن آمن بـإبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى الأرض المقدسة ، ثم بعثه الله تعـالىٰ إلى قومـه في المكـان الذي استقـر فيه . ولأن أحـداث استئصال قـوم لوط تتـداخل معهـا بعض مواقف إبراهيم عليـه السلام . رأينـا أن نسلط الأضواء على المسيـرة الإبراهيميـة الطاهرة فيما يتعلق بمشاركتها لمسيرة لوط عليه السلام .

*** قافلــة الفطـــرة :**

بعد نوح عليه السلام هاجرت القوافل من حول الجودي الذي استقرت عليه سفينـة نوح ، فنـزل عاد إلى الأحقـاف ونزل ثمـود إلى الحِجر كمـا ذكرنـا ، وقال المسعـودي : « وسار ولـد كوش بن كنعـان نحو المغـرب حتى قطع نيـل مصر ثم افتـرقوا فسـارت منهم طائفـة ميمنـة بين المشـرق والمغـرب وهم النـوبـة والبجـة والزنج ، وسِـار فريق منهم نحـو المغرب وهم أنـواع كثيرة »[1] . . « ونـزل طسبم وجديس ابنا لاوز بن أرام إلى اليمامة والبحرين ومعهما أخوهما عمليق بن لاوز بن

---

(١) مروج الذهب : ٢/٣ .

إرم . ومنهم العماليق . تفرقوا في البلاد ونزل أخوهم أميم بن لاوز أرض فارس . ونـزل ماش بن إرم بن سـام بابـل على شاطىء الفرات فولـد نمرود بن مـاش وهو الذي بنى الصرح ببابل . وملك خمسمائة سنة . وهو ملك النبط . وفي زمانه فرق الله الألسن . فجعـل في ولد سـام تسعة عشـر لسانـاً ، وفي ولد حـام سبعـة عشـر لساناً ، وفي ولـد يافث ستـة وثلاثين لسـانـاً ، وتشعبت بعـد ذلك اللغـات وتفرقت الألسن ، وتفرق الناس في البلاد ، وولد أرفخشد بن سام بن نـوح شالـخ . فولـد شالخ فالخ بن شالخ (الذي قسم الأرض وهو جد إبراهيم عليه السلام) وعـابر بن شالخ وابنه قحطان بن عابر وابنه يعرب بن قحطان . وقحطان أبـو اليمن كلها وهـو أول من تكلم بالعربية لإعرابه عن المعاني وإبانته عنها ، ويقطن بن عابر بن شـالخ هو أبو جُرْهُم . وجُرْهُم بنـو عم يعرب ، وكـانت جُرْهُم ممن سكن اليمن وتكلمـوا بالعربية . ثم نزلوا بمكة فكانوا بها »[٢] .

لقـد تفرقت القبـائل وتعـددت الألسن ، وتعـددت دوائـر الشـذوذ وخـطوط الانحـراف عن الصـراط المستقيم ، فكـان إبـراهيم عليـه السـلام رحمـة من الله للبشـرية جمعـاء ، بعثه الله في هـذا الاتسـاع الـذي يمـوج بـالفتن ، ليكـون أبـاً للمسلمين وليواجه الانحراف ويبطل عقائد التعدد وربوبية النجوم والنار ويدعو إلى عبادة الله الواحد . وإذا كان نوح عليه السلام يُعتبر أباً للبشرية بعد الـطوفان ؛ فـإن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وإليه تنتهي أنسابهم . وإذا كان نوح قد نجاه الله من الغرق لتبدأ البشرية صفحة جديدة ، فإن الله سبحانه نجـا إبراهيم من الحـريق إيذاناً بمنطلق جديـد للدعوة إلى الله في عـالم البشر الفسيـح ـ لقد كـان نوح عليـه السلام بداية وكان إبراهيم عليه السلام بدايـة ـ والبدايـة هنا لا تختلف عن البـداية هناك ؛ لأن كلاً منهما من الصراط المستقيم وعليـه يقول تعـالى : ﴿ **ولقد أرسلنـا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة** ﴾[٣] إنهـا البدايـة . . النبوة والكتـاب ، فالله تعالى يخبر أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسـولاً ولا نبياً إلاّ من ذريته . وكذلك إبراهيم عليه السلام لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسـل رسولاً ولا أوحى إلى بشـر من بعده إلاّ وهـو من سلالتـه[٤] كمـا قـال تعـالى : ﴿ **وجعلنـا في**

---

(٢) مروج الذهب : ٣٧ ، ١/٣٨ .
(٣) سورة الحديد ، الآية : ٢٦ .
(٤) ابن كثير : ٤/٣١٥ .

ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ والبداية عند إبراهيم عليه السلام لا تخرج إلّا من البداية عند نوح عليه السلام يقول تعالى : **﴿ سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين * وإن من شيعته لإبراهيم ﴾**[٥] والشيعة هم القوم المشايعون لغيرهم الذاهبون على أثرهم . وبالجملة كل من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدم أو تأخر[٦] **﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾** أي من أهل دينه . وقيل : على منهاجه وسنته[٧] .

فنوح عليه السلام وذريته من أنبياء الله تصدوا للاستكبار الذي نقب الحجارة وقال من أشد منا قوة ؟ وتصدوا للاستكبار الذي تصدى لآيات الله وعقر الناقة فلم تغن عنهم بيوت الحجارة من الله شيئاً . وإبراهيم عليه السلام وذريته من أنبياء الله تصدوا للاستكبار الذي انطلق من قلوب أشد قسوة من الحجارة . وتصدوا للاستكبار الذي عقر كل فضيلة من وراء جدر النفس التي استولى الشيطان على مَلَكَاتها . وتصدوا للفتات الآدمي الذي اتخذ إلٰهه هواه . وإذا كان هنالك وفي عصر نوح وذريته من أنبياء الله فتات رفض بشرية الرسول فإن في عصر إبراهيم وذريته من أنبياء الله . يوجد أيضاً هذا الفتات ، وهذا الرفض انتهى آخر الأمر إلى اتخاذ الأهواء آلهة . فألوهية الهوى ابن طبيعي لعقيدة رفض الرسول البشر ؛ فالذين رفضوا الرسول البشر لأنهم يماثلونه في البشرية ويملكون من زخرف الحياة ما لا يملكه ؛ ساقهم الشيطان إلى دائرة الأنانية والطمع ثم إلى دائرة حب الذات فدائرة عبادة الذات والهوى . لقد أمسكوا بذيل الدنس الذي رفض السجود لآدم بحجة أفضليته لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين . والفتات الآدمي بدأ بمقدمة تقول بأنه أفضل من الأنبياء وانتهى بنتيجة من جنس العمل هي عبادة الذات والهوى ، فإبراهيم عليه السلام وذريته من أنبياء الله جاؤوا ليحطموا هذه الأوثان الآدمية آخر الزمان بعد أن حطموا حجارتها أول الزمان .

وإبراهيم عليه السلام هو الثاني من أولي العزم وأصحاب الشرائع العامة . ويقول فيه تعالى : **﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من**

---

(٥) سورة الصافات ، الآيات : ٧٩ ـ ٨٣ .
(٦) الميزان : ١٧/١٤٧ .
(٧) ابن كثير : ٤/١٢ .

المشـركين ﴾[8] كان عليـه السلام على دين لم يكن عليـه أحد غيـره ، كـان أمـة وحده ، عاش في طفولته في معـزل عن مجتمع قـومه ، ثم خـرج إليهم فوجـدهم يعبدون الأصنام . فلم يرض منهم ذلك ، وبدأ عليه السـلام يحاج أبـاه في عبادتـه الأصنام ، ويدعوه إلى رفضها وتـوحيد الله سبحـانه ، ولم يـزل يحاجـه ويلح عليه حتى طرده وأوعده أن يـرجحه إن لم ينتـه عن ذكر آلهتـه بسوء ، ولم يكتف بـرفض الأصنام في حدود البيت ، وإنما كان يحاج القوم في أمر الأصنام كما جاء في سورة الأنبياء والشعراء والصافات . ويحاج أقواماً آخرين منهم ، يعبدون الشمس والقمر والكواكب . وشاع خبـر إبراهيم في الانحـراف عن الأصنام والآلهـة ، حتى خرج القوم ذات يوم إلى عبادة جامعة خارج البلد ، واعتـل هو بـالسقم فلم يخرج معهم وتخلف عنهم ، فدخل بيت الأصنام . وانطلق على آلهتهم ضرباً بـاليمين . حتى جعلهم جُـذاذاً ، إلّا كبير لهم لعلهم يـرجعون إليـه ، فلما عـاد القوم وعلمـوا بما حدث بآلهتهم وفتشوا عمن ارتكب ذلك ، قال بعضهم : سمعنا فتى يُـذْكِر النـاس يقال له إبراهيم ، فأحضروه إلى مجمعهم ، وأَتَوْا بـه على مشهد من النـاس وبدأوا يسألوه . . فقالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . وقد كان أبقى كبير الأصنـام ولم يجذه ووضـع الفأس على عـاتقه أو مـا يقرب من ذلـك ليشهـد الحـال على أنـه هـو الـذي كسـر سـائـر الأصنام ، وهو عليه السلام قال ذلك وهو يعلم أنهم لا يصدقونه على ذلك ، لأنهم يعلمـون أنه جمـاد ، لكنه قـال ما قـال حتى يعترفـوا بصـريح القـول بـأن آلهتهم جمـادات لا حياة لهم ولا شعـور ، ولذلـك لما سمعـوا قولـه ، رجعوا إلى أنفسهم فقـالوا : إنكم أنتم الـظالمون ، ثم نُكِسُـوا على رؤوسهم . لقـد علمتَ مـا هؤلاء ينطقون . قـال : أفتعبدون من دون الله مـا لا يضركم ولا ينفعكم . أفٍ لكم ولمـا تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟ أتعبدون ما تنحتـون والله خلقكم وما تعملون ؟ وأقام الحجة الدامغة انطلق أصحاب الأدمغة الفارغـة . فقالوا : حرقـوه وانصروا آلهتكم ! فبنوا له بنياناً . وأسعروا فيه النار ، ثم ألقوه فيهـا ، فجعلها الله بـرداً عليه وسلاماً ، وأبطل كيدهم . كما جاء في سورة الأنبياء والصافات ، وقد تصدى عليه السـلام خلال هـذه الأيام لملك البـلاد وكان يعبـده القوم ويتخـذونه ربـاً ! فحـاج

(٨) سورة النحل ، الآية : ١٢ .

الملك إبراهيم في ربه . فقال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت ، فغالطه الملك وقال : أنا أحي وأميت ! أحضر من يستحق القتل وأطلق سراحه . فحاجه إبراهيم بأصرح ما يقطع مغالطته فقال : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب . فبهت الذي كفر كما جاء في سورة البقرة . ولما أنجاه الله من النار أخذ عليه السلام يدعو إلى الدين الحنيف دين التوحيد . فآمن له فئة قليلة . وقد سمى الله تعالى منهم لوطاً . ومنهم زوجته التي هاجر بها . ثم تبرأ عليه السلام هوومن معه من المؤمنين من قومهم . وتبرأ هو من آزر الذي كان يدعوه أباً . ولم يكن بوالده الحقيقي . بل كان عمه[٩] . وهاجر عليه السلام ومن معه وعلى رأسهم لوط إلى الأرض المقدسة . ليدعوا الله سبحانه من غير معارض يعارضه من قومه الجفاة الظالمين[١٠] يقول تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾[١١] .

وأثنى الله تعالى على إبراهيم في كتابه أجمل ثناء ، وكرر ذكر اسمه في نَيِّفٍ وستين موضعاً من كتابه . وإبراهيم اتخذه الله خليلاً (سورة النساء ، الآية : ١٢٥) وكان صديقاً نبياً (سورة مريم ، الآية : ٤١) وجعله الله للناس إماماً (سورة البقرة ، الآية : ١٢٤) وآتاه الله العلم والحكمة والكتاب والملك والهداية وجعلها كلمة باقية في عقبه (سورة النساء ، الآية : ٥٤ ، سورة الأنعام ، الآيات : ٧٤ ـ ٩٠ ، سورة الزخرف ، الآية : ٢٨) وجعل له لسان صدق في الآخرين (سورة الشعراء ، الآية : ٨٤ سورة مريم ، الآية : ٥٠) فهذه بعض من المنح التي منحها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام . الذي رفع لواء الفطرة في عالم أقام دوائر للشذوذ في كل مكان ووضع حول هذه الدوائر عساكره وخيوله للصد عن

---

(٩) الدليل على ان آزر لم يكن والده ان إبراهيم عليه السلام تبرأ من آزر في أوائل دعوته كما جاء في سورة التوبة ، الآية : ١١٤ . ثم استغفر عليه السلام لوالديه وهو على كبر في آخر عهده فقال : ﴿ **ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ سورة إبراهيم ، الآية : ٤١ . وآذر كان عم إبراهيم وليس والده . والعم يطلق عليه لفظ الأب كما في قوله تعالى : ﴿ **نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق** ﴾ ومعلوم أن إسماعيل كان عماً ليعقوب وقد أطلق عليه لفظ الأب .

(١٠) الميزان : ٧/٢١٥ .

(١١) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١ .

سبيل الله ، وبينما كان إبراهيم والذين معه يرفعون راية الفطرة كان هناك في مكان آخر قوم يعملون من أجل هدم الفطرة بتعطيلهم للنسل ، وذلك عندما ارتكبوا جريمة لم يسبقهم فيها أحد من العالمين ! .

* ١ ـ النبي والانحراف :

١ ـ لوط عليه السلام :

كان لوط عليه السلام من كلدان في أرض بابل ، ومن السابقين الأولين ممن آمن بإبراهيم عليه السلام ، آمن به وقال : إني مهاجر إلى ربي (سورة العنكبوت ، الآية : ٢١) فنجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المقدسة أرض فلسطين (سورة الأنبياء ، الآية : ٧١) يقول المسعودي : « وأرسل الله لوطاً إلى المدائن الخمس . وهي : سدوم . دعمورا . وادمونا . وصاعورا . وصابورا »[١٢] ومدينة سدوم وما والاها من المدائن سماها الله في كتابه بالمؤتفكات (سورة التوبة ، الآية : ٧٠) وكانوا يعبدون الأصنام ، ويأتون بالفاحشة : اللواط وهم أول من شاع فيهم ذلك (سورة الأعراف ، الآية : ٨٠) فأرسل الله لوطاً إليهم ، فدعاهم إلى تقوى الله وترك الفحشاء والرجوع إلى طريق الفطرة ، وأنذرهم وخوَّفهم فلم يزدهم إلّا عُتُوّاً .

ولوط عليه السلام هو ابن هاران بن تارح بن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، كما ذُكر انه ابن خالته أيضاً . وقد ذكر لوط في ثلاث عشر سورة من القرآن الكريم . هي : الأنعام ، الأعراف ، هود ، الحجر ، الأنبياء ، الحج ، الشعراء ، النمل ، العنكبوت ، الصافات ، ق ، القمر ، التحريم . والقرآن في ذكره تارة يفصل وأخرى يوجز في بيان الأحوال ، ولقد أثنى تعالى على نبيه لوط ثناءً جميلاً فقال تعالى : ﴿ **ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوماً فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين** ﴾[١٣] .

---

(١٢) مروج الذهب : ١/٤٢ .

(١٣) سورة الأنبياء ، الآيتان : ٧٤ ـ ٧٥ .

٢ ـ الدعــــوة :

كان قوم لوط أهل لهو ولغو وفساد ودجل وباطل . فلقد خلعوا جلباب الحياء فكـانوا لا يخجلون من فعـل القبيح الـذي تأبـاه البهائم وتنفـر منه جميـع النفـوس البشـرية من سـابق ولاحق ، وكانـوا لا يستحي بعضهم من بعض أن يأتي بـأفـظع المنكـرات ، فيجتمع كبيـرهم وصغيرهم والأب والابن والسيـد والعبـد منهم على نكاح الرجـل الغريب واللواط بـه ، ولو في محضـر نسائهم وبنـاتهم . ويتعاقبـون الآخـر بعد من سبقـه . . ولقد بعث فيهم لـوط عليه السـلام بعد أن اهتـدى بهدى إبـراهيم وتبعه في هجـرته ثم افتـرقا ليعمـلا بما فـرضه الله تعـالى عليهما من نشـر الفضائل ونصح الناس وإرشادهم وتبليغهم التكاليف ، وكان لوط عليه السلام غاية في الكرم واستمساك بالزمام ورعاية بالجار والنزيل ، فقد بالغ في جهاد الملحدين ودفع أذاهم ، وكان قومه إذا وفد إليهم أحد من الناس وثبوا إليـه ليفضحوه ويسلبـوا ماله . فكان عليه السلام يحجز بينهم ويدافعهم ويمنعهم عنه . ويحذر الوافد سوء معاملتهم حتى لقى منهم ما لقى من التهديد والأذى ولم يكن لـه فيهم من ناصـر ، وكان من أشد النـاس إليه أذى : زوجتـه ، فكانت هي عينـاً لقومهـا على زوجها ، فكانت كافرة ، ولم تؤمن بالله ولا برسوله ، فلذلك أهلكها الله تعالى معهم وأصابها ما أصابهم(١٤) .

وفي هذا الانحراف الساقط ووسط هذا الشذوذ الذي يحيط به الدنس والعار من كل اتجاه ، أطلق لوط عليه السلام صيحاته محذراً ، ولكن بجـاحة الشهـوة لا سمع لها ولا بصر ولا فؤاد ، لقد دار القوم ضد حركة الكـون وخرجـوا على كل مـا فيه . لقد خلق الله الذكر والأنثى . وجهـز كل صنف من الصنفين بـأعضاء وأدوات ومن يتأمل في صنع الله ، وإلقائه تعالى غريزة الشهوة في كل منهما والجمع بينهمـا بـالنكاح . يعلم أن الحكمـة من وراء ذلك هي التنـاسل الحـافظ لبقاء النـوع حتى حين ، فـالرجـل مخلوق للمرأة لا لـرجل مثله ، والمـرأة مخلوقة للرجـل لا لامرأة مثلها ، والنظرة الإنسانية تهدي إلى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجـال . وازدواج النساء بالرجال دون النساء ، ولكن القوم أقاموا جدراً داخل نفوسهم فلم يتدبروا . وأقاموا أسواراً عالية من السحب الداكنة السوداء حـول الفطرة فلم يسمحـوا لشعاع

---

(١٤) كتاب الأنبياء : ١٥٨ ، ١٧٤ .

من نور يخرج منها ليهديهم ، لقد أقاموا الأصنام بداخلهم وطقت أهواؤهم تحت جلودهم في مستنقع من أبوال الشياطين . وفي هذا المستنقع أصبحت الفاحشة سُنَّة قومية . الخارج عنها خارج عن القانون ! وبدأ لوط عليه السلام دعوته بالطريقة التي يبدأ بها رسل الله يقول تعالى : ﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين** ﴾[١٥] لقد كذبوا جميع المرسلين ؛ لأن الذي يكذب واحداً منهم يكون في الحقيقة قد كذبهم جميعاً . ولوط عليه السلام عندما دعاهم . دعاهم أولاً إلى تقوى الله . وأخبرهم بأنه أمين لا يغشهم . وأن طاعته من طاعة الله . ولأنه الأمين على ما يحمله إليهم من دعوة . فهو لم يسألهم على ما يدعوهم أجراً وجزاء . حتى لا يتهموه بأنه يطلب نفعاً يعود إليه . وهو أيضاً لا يدعوهم من غير جزاء مطلوب . فدعوته ليست عبثاً . ولكنه إنما يطلب الجزاء من الله رب العالمين . ثم بدأ عليه السلام يبث نداء الفطرة لعل النداء يقرع مسامعهم . فقال : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾[١٦] والمعنى : أتأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع[١٧] . فيكون في معنى قوله في موضع آخر : ﴿ **ما سبقكم بها أحد من العالمين** ﴾[١٨] . ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والذكران جمع ذكر مقابل الأنثى . وإتيانهم كناية عن اللواط ، والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس . أتأتون الذكران وتتركون ما خلق الله لكم من أزواجكم ؟ إنكم بهذا تكونون خارجين عن الحد الذي خطته لكم الفطرة . عندما قال لهم لوط ذلك ، لم يقولوا له ما أنت إلاّ بشر مثلنا ، ولم يسألوه أن يأتيهم بمعجزة تثبت أنه رسول من الله . لم يسألوا شيئاً من هذا ، لأن عقولهم هناك في مباول الشيطان وأفعالهم ضد البشرية لأنها تؤدي إلى اهمال طريق التناسل . إن القوم يعبدون الأوثان ويأتون الذكران ولا رد عند مَنْ هذا شأنه لذا كان ردهم الوحيد على لوط عليه السلام عندما أراد أن يردهم إلى رحاب

---

(١٥) سورة الشعراء ، الآيات : ١٦٠ ـ ١٦٤ .
(١٦) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(١٧) الميزان : ١٥/١٠٩ .
(١٨) سورة الأعراف ، الآية : ٨٠ .

الفطرة : ﴿ لئن لم تنتهِ يا لوط لتكونن من المخرجين * قال اني لعملكم من القالين * رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾[19] .

لقد لوح أهل الدنس بالقبضة الحديدية في وجه رسول الله ، أخبروه بأنه إذا لم ينته ويكف عن مواعظه ودعوته لهم بترك ما هم عليه ، فسيكون من المنفيين من قريتهم . فكان رده عليه السلام : إني لا أخاف الخروج من قريتكم ولا أكترث به . بل مبغض لعملكم[20] راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة . ثم دعا عليه السلام ربه أن ينجيه من أصل عملهم الذي يأتون به بمرأى ومسمع منه . فهو منزجر منه ، أو من وبال عملهم والعذاب الذي سيتبعه لا محالة ، ولم يذكر عليه السلام إلّا نفسه وأهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد[21] !

* ٢ ـ استعجال العذاب :

لبث لوط في قومه ثلاثين سنة ، يدعوهم إلى الله عز وجل . وكانوا لا يتنظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة[22] ولم ييأس لوط عليه السلام من دعوتهم ، وكانوا قد حذروه من قبل أنه إذا لم ينته فسيطرد من القرية ! لقد أراد أصحاب الدَّنس أن يقطعوا شعاع الرحمة النازل من السماء ، وليس في الوجود أشد حُمقاً من مثل هؤلاء . إنهم ينامون في الدَّنس والعار ، ولا يريدون أن يستيقظوا على صوت يدعوهم إلى التفكير في أحوالهم من منطلق فطري . حتى ولو كان هذا صوت الوحي ! إن هذا النوع من الناس ضيق الأفق لا يرى الأمور إلّا من وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر الشيطان ، ويكفيهم عاراً أن الشيطان زين لهم أدبار الذكران وغواهم في هذه الجزئية ، فاعتبروها دستوراً لحياتهم . لقد طالبوا لوطاً عليه السلام بالصمت لكن لوطاً نبي ليس له إلّا أن يبلغ رسالة ربه . وعندما قام لوط بالبلاغ أصدروا عليه قرار الطرد ! يقول تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم

---

(١٩) سورة الشعراء ، الآيات : ١٦٧ ـ ١٦٩ .

(٢٠) البغوي : ٦/٢٣٥ ، ابن كثير : ٣/٣٤٥ .

(٢١) الميزان : ١٥/٣١٠ .

(٢٢) كتاب الأنبياء : ١٦٢ .

إنهم أناس يتطهرون ﴾[٢٣] .

لقد خاطب الإحساس فيهم ، فقال : ﴿ **أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾** أي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضاً وينظر بعضكم إلى بعض حين الفحشاء !![٢٤] ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾** أي بل أنتم قوم مستمرون على الجهل ولا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم[٢٥] فماذا كان جواب القوم ؟ أعلنوا إعلانهم بإخراج آل لوط من القرية . وسبب قرار الطرد : أن آل لوط يتنزهون عن هذا بالعمل[٢٦] أو يتحرجون من فعل ما تفعلونه ومن إقرارهم على صنيعهم ، فإخراجهم من بين أظهرهم فإنهم لا يصلحون لمجاورتهم في بلادهم[٢٧] !! وقرار الإخراج ورد أيضاً في سورة الأعراف ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾**[٢٨] .

أخبرهم أن ما يفعلوه لم يفعله أحد من الأمم والجماعات من قبل ، وأنهم بهذا العمل تعدوا على سبيل الفطرة ، فترك سبيل النساء والاكتفاء بالرجال إسراف وجهل لأنه وضع للشيء في غير محله . ولم يكن يجد القوم جواباً على خطاب لوط . لقد كان خطاب لوط فيهم ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾** فجاءت إجابتهم عليه : ﴿ **أخرجوهم من قريتكم ﴾** لقد وضعوا ما ليس بجواب موضع الجواب وفي هذا دلالة على سفههم . وعندما أصدروا قرار الطرد أنذرهم لوط عليه السلام بالعذاب يقول تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾**[٢٩] أي خوفهم أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره وتخويفه[٣٠] ولم يلتفتوا

---

(٢٣) سورة النمل ، الآيات : ٥٤ ـ ٥٦ .
(٢٤) الميزان : ٥/٣٧٦ ، البغوي : ٦/٥٩٤ ، ابن كثير : ٦/٦٩٤ .
(٢٥) الميزان : ١٥/٣٧٦ .
(٢٦) الميزان : ٥/٣٧٦ .
(٢٧) البغوي : ٦/٢٩٤ ، ابن كثير : ٣/٣٦٨ .
(٢٨) سورة الأعراف ، الآيات : ٨٠ ـ ٨٢ .
(٢٩) سورة القمر ، الآية : ٣٦ .
(٣٠) الميزان : ١٩/٨١ .

إلى ذلك ولا أصغوا إليه بل شكوا فيه[٣١] .

وفي عالم الجدل العقيم اتسعت دائرة الشذوذ أكثر فأكثر وبدأ القوم يعملون من أجل تصدير فاحشتهم ، فقطعوا الطرق وعندما ابتعد المارة عن طرقهم حين شاع أمرهم صاروا يطلبون الرجال من البلاد ، ويدفعون على ذلك المال[٣٢] . وعند هذا الحد أنذرهم لوط عليه السلام العذاب الأليم ، لأن القوم بدأوا يحاربون الفطرة في أرض الله الواسعة ، لكنهم كعهدهم لم يسمعوا ولم ينصتوا إلى صوت الحق . وروي أن إبراهيم عليه السلام كان يأتي قوم لوط فيقول لهم : أنهاكم الله ان تعرضوا لعقوبته . فلم يطيعوه[٣٣] وأنذرهم لوط عليه السلام الإنذار الأخير . وكان جوابهم عليه هو أيضاً الجواب الأخير ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرني على القوم المفسدين** ﴾[٣٤] .

لقد كشف لوط عليه السلام عن الأهداف التي ستنتهي إليها أقدام هذا الفتات الآدمي المهلهل . الذي شق فيه الشيطان شقوقه وقدم له حلول قضاياه . فأخبرهم أن فعلهم هذا سيؤدي إلى إهمال طريق التناسل . وهذه جريمة لا تعادلها جريمة . كما أن فعلهم هذا سيؤدي إلى ثقافة تكون وصمة عار في جبين البشرية .

قال المفسرون : قوله : ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل** ﴾ هذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط وبقطع السبيل اهمال طريق التناسل وإلغاؤها وهي إتيان النساء ، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن[٣٥] فقطع النسل دوران في عكس اتجاه حركة الوجود . وعدم الاستقامة مع حركة الكون يؤدي إلى الضرب وعذاب الاستئصال . أما الورقة الثقافية التي ستنتج عن جريمة قوم لوط . يقول المفسرون : قوله : ﴿ **وتأتون في ناديكم**

---

(٣١) البغوي : ٨/١٣٧ .

(٣٢) كتاب الأنبياء : ١٦٢ .

(٣٣) ابن كثير : ٣/٤٥٤ .

(٣٤) سورة العنكبوت ، الآيات : ٢٨ ـ ٣٠ .

(٣٥) الميزان : ١٥/١٢٣ ، ابن كثير : ٦/٣٨٩ ، البغوي : ٦/٣٨٩ .

المنكر﴾ النادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه . ولا يسمى نادياً إلّا إذا كان فيه أهله . فوسط الأهل يأتون بالفحشاء أو بمقوماتها الشنيعة على مرأى ومسمع من الجميع[٣٦] إنها ورقة ثقافية قابلة للتصدير في عالم يعج بالأوثان والشهوات والرقيق والأهواء . وقيل إن المراد بقطع السبيل : قطع سبيل المارة بديارهم ، فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم ، وكانوا يرفعون ابن السبيل بالخذف . فأيهم أصابه كان أولى به . فيأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم وكان لهم قاضٍ يقضي بذلك[٣٧] ! ولكن السياق يقضي بخلاف ذلك . وقد يكون قد فعلوا ذلك . ولكن قطع السبيل بإهمال طريق التناسل وإلغاؤها هو الذي تدل عليه آيات القرآن في أكثر من موضع كما سيأتي وقيل إن إتيان المنكر في النادي هو أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات والقبائح مثل الشتم والسخف والقمار وخذف الأحجار على مَنْ مَرَّ بهم وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط[٣٨] .

لقد بين لهم لوط عليه السلام أن عملهم يقطع النسل ويشوه الوجه البشري خزياً وعاراً . لكن القوم لم يروا أن في هذا إخلال بالشرف لأنهم لا يعرفون ما هو الشرف . وأصروا على أن يكتبوا أسماءهم في قائمة الاستئصال وهم مختارون **﴿ فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾** لقد استهزأ أهل اللواط وسخروا ، كما استهزأ من قبلهم الأكثر منهم فحولة وذكورة . وأمام طلبهم لم يملك لوط عليه السلام إلّا أن يقول : **﴿ رب انصرني على القوم المفسدين ﴾** دعاء منه عليهم . وقد عدهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدد الإنسانية بالفناء[٣٩] .

* ٣ ـ ملائكة البشرى والعذاب :

كان إبراهيم عليه السلام في مكان قريب من مكان القوم الذين أُرسل إليهم لوط عليه السلام ، فبعد ارتحالهم من العراق إلى بلاد الشامات وفلسطين ، استقر

(٣٦) الميزان : ١٥/١٢٣ .
(٣٧) ابن كثير : ٦/٣٨٩ .
(٣٨) البغوي : ٦/٣٨٩ .
(٣٩) الميزان : ١٥/١٢٤ .

لوط عليه السلام في بلاد الأردن على الأظهر ، وكانت قريته التي حل بها وسكنها اسمها (سدوم) ويجاورها قراها الخمس . وذكر المسعودي : « ان هذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين إلاّ ان ذلك من خير الشام »[٤٠] فهذا مكان لوط عليه السلام . أما مكان إبراهيم عليه السلام فكان في قلب الأرض التي بارك الله حولها في فلسطين . فالمسافة كانت تسمح بالتزاور بينهما . والذي نقصده من قرب المسافة أن نضع مكان إبراهيم ومكان لوط على لوحة واحدة ، وننظر فيها بإمعان فإبراهيم عليه السلام هناك كان قد مسَّه الكبر ، وكانت زوجته عجوز عقيم . وقضية أن يكون لهما ولد قضية بمقاييس البشر مستحيلة . فالولد من رجل مَسَّه الكبر وامرأة عجوز عقيم لا يأتي إلاّ بمعجزة خارقة للعادة وبأمر (كن) هذا هو الحال في فلسطين ، أما في سدوم فالأمر مختلف ، فهناك اتفاق شيطاني للقضاء على النسل . فالغلام والشاب والرجل والكهل . ردوا على رسالة لوط إليهم بطريقة عملية تستقيم مع طريقة الذين رفضوا البشر الرسول من قوم نوح وعاد وثمود ، فالأوائل رفضوا بشرية الرسول لأنهم يمتلكون ما لا يمتلكه الرسول ، أما قوم لوط فرفضوا البشرية جمعاء بقطعهم السبيل ، وهذا الرفض صوره مُعَدَّلة من الرفض الشيطاني حين أُمر بالسجود لآدم فقال : أنا خير منه ! فالصورة الشيطانية لفقه أنا أخير منه ارتدى أكثر من رداء على امتداد المسيرة البشرية وجميع الأردية تصب في هدف واحد هو الصد عن سبيل الله .

إن إبراهيم عليه السلام يقف على أرضية جدباء لا ولد فيها وهو ممتلىء بالرضا ، وقوم لوط هناك يقفون على أرضية يمكن أن يكوْن عليها الخصب والولد ولكنهم أسرفوا وأفسدوا وقالوا لنبيهم ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . لقد وقفوا في خندق المحاربة لله . ومَنْ حارب الله قصمه الله وقطع دابره . إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلاّ لهدف ومن وراء هذا الهدف حكمة . وما تسقط من ورقة في هذا الكون الفسيح إلاّ يعلمها . لقد انطلق إبراهيم ولوط من العراق إلى الأرض الجديدة رافعين راية التوحيد والفطرة وعلى رقعة واحدة بدأ كل منهما في تنفيذ ما أمره الله تعالى به . إبراهيم في أعلى الشامات يرفع راية التوحيد والفطرة ولوط في أدنى الشامات يرفع نفس الراية وسط فتات آدمي مهلهل زين له الشيطان

---

(٤٠) مروج الذهب : ١/٤٢ .

وغواه واحتنكه وأذله . وبين الرايات جاء حكم الله أن الشيخ الفان والعجوز العاقر ينجبان الولد . ويبشران بعد الولد بولد . وأن الفتات الآدمي مقطوع دابره والله غني عن العالمين . لا وجود الشباب يغنيه ولا وجود الشيوخ يفقره . فسبحان الذي لا يحتاج إلى حمد الحامدين وشكر الشاكرين . وعندما قضى الله بالولد في أعلى الشامات وبالعذاب في أدناها حملت الملائكة خبر البشرى والعقاب .

١ ـ خبر البشرى :

أنذر لوط عليه السلام قومه من بطش الله ، فقالوا ائتنا بعذاب الله ، ونزلت الملائكة ومعهم ما طلبه القوم ، لكنهم قبل أن يصبوه على أهل الفحشاء والمنكر والدنس نزلوا أعلى الشامات بالبشرى علىٰ إبراهيم خليل الله . يقول تعالى : **﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾**[٤١] قال المفسرون : عندما دخلوا على إبراهيم جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة . ولم يمنن عليهم أولاً فيقول نأتيكم بطعام ؟ بل جاء به بسرعة وخفاء . وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتى سمين فقربه إليهم . لم يضعه وقال اقتربوا . بل وضعه بين أيديهم . ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال (ألا تأكلون) على سبيل العرض والتلطف[٤٢] . وإبراهيم عليه السلام فعل ما فعل عندما رأى هيئتهم الحسنة عندما مروا عليه وسلموا عليه وهم معتمون . عندئذ قال إبراهيم : لا يخدم هؤلاء إلّا أنا نفسي وكان عليه السلام صاحب ضيافة . وعندما شوى العجل وقربه إليهم . رأى أيديهم لا تصل إليه . فنكرهم وأوجس منهم خيفة . فلما رأى جبرائيل عليه السلام ذلك . حسر العمامة عن وجهه . فعرفه إبراهيم : فقال : أنت هو ؟ قال : نعم[٤٣] ثم قالوا له : لا تخف وبشروه بغلام عليم فبدلوا خوفه أمناً وسروراً[٤٤] .

---

(٤١) سورة الذاريات ، الآيات : ٢٤ ـ ٢٨ .

(٤٢) ابن كثير : ٤/٢٣٥ .

(٤٣) الميزان : ١٠/٣٢٨ .

(٤٤) الميزان : ١٠/٣٧٨ .

فماذا كان موقع البشرى على الشيخ الذي مَسَّه الكبر وزوجته العجوز العقيم ؟ فأما إبراهيم عليه السلام فقد قال : ﴿ **أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون** ﴾[٤٥] قال المفسرون : تلقى إبراهيم عليه السلام البشرى وهو شيخ كبير هرم . لا عقب له من زوجه ولذا تعجب من قولهم . واستفهمهم . كيف يبشرونه بالولد وحاله هذه الحال وزوجه عجوز عقيم . والمعنى : إني لأتعجب من بشارتكم إياي . والحال أني شيخ هرم فني شبابي وفقدت قوى بدني . والعادة تستدعي أن لا يولد لمن هذا شأنه[٤٦] وأمام تعجب إبراهيم قالوا (بشرناك بالحق) أي أن بشارتنا ملازمة للحق غير منفكة منه . فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمة الله . فقال إبراهيم : ﴿ **ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ أي أن القنوط من رحمة الله ما يختص بالضالين . ولست أنا بضال فليس سؤالي سؤال قانط مستبعد[٤٧] .

أما موقع البشرى على زوجة الخليل . فإنها عندما سمعت ﴿ **قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[٤٨] لقد وجدت نفسها أمام مفاجأة . فما لبثت أن قالت بكلمات (يا ويلتي) (أألد وأنا عجوز) (وهذا بعلي شيخاً) ثم أجملت (إن هذا لشيء عجيب) ومورد التعجب أنها لما سمعت بشارة الملائكة . تمثل لها الحال . كيف يولد ولد من عجوز عقيم وشيخ هرم بالغين في الكبر ولا يعهد من مثلهما الاستيلاد فهو أمر عجيب . ولقد أنكرت الملائكة تعجبها وقالوا : « أتعجبين من أمر الله » أضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب واستغراب لأن ساحة الألوهية لا يشق شيء عليها فهو سبحانه الخالق لكل شيء . ثم نبهوها بقولهم : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ وذلك لأن الله أنزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت . فليس من البعيد أن يكون من ذلك

---

(٤٥) سورة الحجر ، الآيات : ٥٤ ـ ٥٦ .

(٤٦) الميزان : ١٢/١٨١ ، ابن كثير : ٢/٥٥٤ .

(٤٧) الميزان : ١٢/١٨١ ، البغوي : ٥/٢٢ .

(٤٨) سورة هود ، الآيات : ٧٢ ـ ٧٣ .

تولد مولود من والدين في غير سنهما العادي المألوف لذلك ﴿ **إنه حميد مجيد** ﴾ فهو تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجُود ، يفيض من رحمته وبركاته على من يشاء من عباده[٤٩] .

إن مولوداً في أعلى الشامات أفضل عند الله من ملايين الملايين في أماكن أخرى . فالحق لا يَغلب بالكثرة ولا يُغلب لقلة ، وطاهر واحد من صلب خليل الله خير من الدنيا وما فيها ، وإنجاب الولد من والدين بالغين في الكبر صفعة على وجوه الأغبياء الذين لا يتدبرون في آيات الله ويدورون عكس دوران الوجود الذي لا يدور إلاّ على محور الفطرة .

٢ ـ خبـر العـذاب :

لما ذهب عن إبراهيم عليه السلام ما اعتراه من الخيفة بعد أن تبين أن النازلين به لا يريدون به سوءاً ولا يضمرون له شراً . وبعد أن جاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . وبعد أن بدل الملائكة خوف إبراهيم أمناً وسروراً قال إبراهيم للملائكة : ﴿ **ما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين** ﴾[٥٠] . قال المفسرون : والمعنى ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ **ما خطبكم** ﴾ والشأن الخطير الذي لكم ﴿ **أيها المرسلون** ﴾ من الملائكة ﴿ **قالوا** ﴾ أي الملائكة لإبراهيم ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ نكروهم ولم يسموهم صوناً للسان عن التصريح باسمهم تنفراً منه . ومستقبل الكلام يُعَيِّنهم مَنْ هُم . وذلك عندما استثنوا في موضع آخر وقالوا : ﴿ **إلاّ آل لوط** ﴾ أي لوط وخاصته فظهر بذلك أن القوم قومه . وإذا كان الملائكة هنا لم يسموا القوم ، فإنهم في موضع آخر لم يسموا القرية التي يسكنها القوم صوناً للسان عن التصريح باسمها تنفراً منه ، فقالوا لإبراهيم عليه السلام : ﴿ **إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين** ﴾[٥١] قال المفسرون : والإتيان بلفظ الإشارة القريبة ـ هذه القرية ـ فيه

---

(٤٩) الميزان : ١٠/٣٢٥ .

(٥٠) سورة الذاريات ، الآيات : ٣١ ـ ٣٤ .

(٥١) سورة العنكبوت ، الآية : ٣١ .

دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم عليه السلام نازلاً بها . وهي الأرض المقدسة . وبعد أن أخبر الملائكة إبراهيم عليه السلام بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين وأنهم مهلكوا أهل هذه القرية لأن أهلها كانوا ظالمين . أخبروه بالقوة التدميرية التي سيصبونها على رؤوس الظالمين فقالوا : ﴿ **لنرسل عليهم حجارة من طين** ﴾ طيناً متحجراً سماه الله سجيلاً ﴿ **مسومة** ﴾ مُعلمة ﴿ **عند ربك للمسرفين** ﴾ تختص بهم لإهلاكهم(٥٢) .

عندما سمع إبراهيم هذا الهول كان يعلم أن الله تعالى لا يعذب لوطاً وهو نبي مرسل . وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته . فالله سبحانه ينجي عباده المخلصين عند ضربات الكون للظالمين من كل اتجاه . كما كان يعلم أن الظالم المفسد في الأرض يُعرض نفسه لعقوبة الله . فإذا جاءته فلا يلومن إلاّ نفسه . لكنه عليه السلام عندما سمع من الملائكة ما سمع قال : ﴿ **إن فيها لوطاً** ﴾(٥٣) قال المفسرون : كان يريد بقوله : ﴿ **إن فيها لوطاً** ﴾ أن يصرف الله العذاب عن أهل القرية كرامة للوط . نظراً لأن فيها القاصر والعاجز والطفل الصغير الذي لا جناية له . ولا جناح عليه . وكان قوله هذا نتيجة لرقة قلبه وصفاء طوياته عليه السلام . فلم يملك نفسه أن بادر بالاستشفاع والجدال . فأجابته الملائكة : ﴿ **قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين** ﴾(٥٤) ولقد ذهب العديد إلى أن قوله : ﴿ **إن فيها لوطاً** ﴾ يعني أن يصرف الله العذاب عنهم لأن فيهم لوطاً وإهلاك أهل القرية يشمله . وقول مثل هذا لا يستقيم مع أحداث أيام الغضب الإلهي . فالله تعالى بعث الريح على عاد فمزقت أجسادهم وأفئدتهم في الوقت الذي كان فيه هود عليه السلام وأتباعه تصل إليهم الريح بما يشيع فيهم الأمن . والدليل على أن إبراهيم عليه السلام كان يجادل في قوم لوط وليس من أجل خوفه على لوط نظراً لأن إهلاك القوم يشمله قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم**

---

(٥٢) الميزان : ١٢/١٨٣ ، ١٨/٣٧٨ ، البغوي : ٨/٦٩ .

(٥٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٢ .

(٥٤) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٢ .

أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾(٥٥) فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه(٥٦) ويقول المفسرون : قوله تعالى : **﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾** فيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام . وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا . وكان كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعاً إلى الله في نجاتهم لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك . وفي قوله تعالى : **﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وأنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾** قطع للجدال . حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ، فإن القضاء حتم . والعذاب واقع لا محالة . فقولهم : **﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾** أي انصرف عن هذا الجدال ولا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه **﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾** أي بلغ أمره مبلغاً لا يدفع بدافع ولا يتبدل بمبدل **﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾** أي غير مدفوع عنهم بدافع فللَّه الحكم ولا معقب لحكمه(٥٧) .

ومن عند المكان الذي تلقى فيه إبراهيم البشرى وسمع خبر العقاب انطلق الملائكة في اتجاه القرية الظالمة التي أرادت أن تسنَّ سُنَّة يعطل بها النسل وتحت ردائها تشيع الفواحش وثقافة الانحطاط . انطلق الملائكة بعد أن وضعوا في ذاكرة المؤمنين معجزة المولود . والمعجزة لم توضع في الذاكرة الإيمانية بمفردها وإنما وضع بجانبها خبر العقاب . ليكون المشهد مولود هنا واستئصال هناك . مولود هنا يحمل رسالة واستئصال هناك لجموع خفيرة بلا رسالة وبلا هدف يجلدون فطرتهم ويلاحقون الضمير في كل مكان . لقد وضعوا في الذاكرة الايمانية أن الذين يقطعون السبيل لا يملكون شيئاً لأن الذي يُجري الماء قادر على أن يجريه في أي مكان وزمان . وإن قاطع السبيل لا يمكن أن يفر من تحت السماء .

---

(٥٥) سورة هود ، الآيات : ٧٤ ـ ٧٦ .
(٥٦) الميزان : ١٦/١٢٥ .
(٥٧) الميزان : ١٠/٣٢٧ .

* ٤ ـ الطريق إلى قوم لوط :

يقول تعالى : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب** ﴾[٥٨] قال المفسرون : والمعنى : لما جاءت رسلنا لوطاً وهم الملائكة الذين نزلوا عند إبراهيم ، . ساء مجيئهم لوطاً ، وعجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم . فالملائكة دخلوا عليه في صورة غلمان صبيحي المنظر . وكان قومه ذوي حرص شديد على إتيان الفحشاء وما كان من المترقب أن يعرضوا عنهم ويتركوهم على حالهم . ولذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال : ﴿ **هذا يوم عصيب** ﴾ أي شديد ملتف بعض شره ببعض[٥٩] وروي أن الملائكة أتَوْا لوطاً وهو في زراعة قرب القرية ، فسلموا عليه وهم معتمون ، فلما رأى هيئتهم حسنة : عليهم ثياب بيض وعمائم بيض . قال لهم : المنزل . فقالوا : نعم . فتقدموا هم ومشوا خلفه ، فندم على عرضه المنزل عليهم . فقال : أي شيء صنعت ؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم ؟ ثم قال لهم : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . قال جبرائيل : لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات . هذه واحدة . فمشى لوط ساعة ثم التفت إليهم فقال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . فقال جبرائيل : هذه اثنتان . ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم ثم قال : إنكم لتأتون شراراً من خلق الله . فقال جبرائيل : هذه الثالثة . ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله ، فلما رأتهم امرأته . رأت هيئة حسنة . فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا . فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يُهرعون ! حتى جاؤوا على الباب فنزلت إليهم فقالت : عندنا قوم ما رأيت قط قوماً أحسن منهم هيئة ، فجاؤوا إلى الباب ليدخلوا[٦٠] يقول تعالى : ﴿ **وجاءه قومه يُهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾[٦١] .

---

(٥٨) سورة هود ، الآية : ٧٧ .

(٥٩) الميزان : ١٠/٣٣٨ .

(٦٠) الميزان : ١٠/٣٤٨ .

(٦١) سورة هود ، الآيتان : ٧٨ ـ ٧٩ .

قال المفسرون : كان قومه قد نهوه أن يُضَيِّف رجلاً ، وعندما علموا بمن عنده . أسرعوا إليه فرحين بذلك(٦٢) ومن قبل ذلك كانوا يقترفون المعاصي ويأتون بالمنكرات . فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء . معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف . ولا يحجبهم من ذلك استحياء أو استشناع . ولا ينزجرون بموعظة أو ملامة أو مذمة . لأن العادة تسهل كل صعب وتزين كل قبيح ووقيح(٦٣) ولما رآهم تجمعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظة أو إغلاظ في الكلام . أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصية فيه من الحلال فعرض بناته عليهم . . وقيل ان المراد بقوله « هؤلاء بناتي » الإشارة إلى نساء القوم لأن النبي أبو أمته فنساؤه بناته كما أن رجالهم بنوه(٦٤) وكان عليه السلام يريد أنَّ قَصْدَ الإناث وهو سبيل فطري ، خيرٌ لهم وأطهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء(٦٥) وبعد ان ردهم إلى الطريق الفطري قال لهم : ﴿ **اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي** ﴾ قال المفسرون : أضاف الضيف إلى نفسه(٦٦) . وذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم ، كل ذلك رجاء أن يهيج صفة الفتوة والكرامة فيهم ، ولذلك عقب ذلك بالاستغاثة والاستنصار بقوله : ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ لعله يجد فيهم ذا رشد إنساني فينتصر له وينجيه وضيوفه من أيدي أولئك الظالمين . لكن القوم لم يؤثر ذلك فيهم أي أثر وأجابوه بما آيسوه به(٦٧) : ﴿**قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ هذا جواب القوم عما دعاهم إليه لوط من النكاح المباح . أخبروه أن ما يدعوهم إليه ليس حقاً لهم ، وهو يعلم ذلك ويعلم ما هو بغيتهم في هذا الهجوم وماذا يردون . فلوط يعرف ما يريدون لأنه كان ينهاهم عن سنّتهم القومية الجارية بينهم ويقول لهم : ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء** ﴾(٦٨) ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق**

---

(٦٢) ابن كثير : ٣/٤٥٣ .
(٦٣) الميزان : ١٠/٣٣٨ .
(٦٤) ابن كثير : ٢/٤٥٣ .
(٦٥) الميزان : ١٠/٣٣٩ .
(٦٦) الميزان : ١٠/٣٤٠ .
(٦٧) الميزان : ١٠/٣٤٠ .
(٦٨) سورة الأعراف ، الآية : ٨١ .

لكم ربكم من أزواجكم ﴾[٦٩] وبما أن الشذوذ في سنّتهم القومية قاعدة الخارج عنها خارج على القانون ! فلقد قاموا بنفي أي حق لا يتفق مع الحق الذي تجري عليه السنّة القومية التي أصّلتها أهواءهم ، ولا شك أن السُّنَّة القومية الجارية على فعل شيء يثبت حقاً فيه ، والجارية على تركه ينفي الحق . وقد قيل في معنى نفيهم الحق الكثير ، وبالجملة فهم يلفتون نظره عليه السلام إلى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء . بحسب السُّنَّة القومية . وما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره[٧٠] .

أفسدوا كل شيء وسخروا من كل فضيلة وطاردوا كل طاهر . وكل هذا باسم الحق والقانون لا يستطيع طاهر أن يبث شكواه لأحد ما دامت شكواك ضد السُّنَّة القومية الجارية . المواطن الصالح هناك هو نَهَّاز الفرص . الذي يتربص ويفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب دون أن يتعرض للخطر ! والفقيه الفذ في عالم عدالتهم هو الذي بعد ساعة من التأمل يستطيع أن يقدم عرضاً فريداً لجمهور الأشراف والأمراء داخل نواديهم ! والمثقف البارع هناك هو الذي يقدم كوميديا الشذوذ للسُّوقة والرعاع ، كي يوصل فيهم القومية ليؤدي كل منهم دوره في الحياة بلغة غير معروفة ، لغة يجهلها الكون من حولهم ومن الصعب ان يفهمها غيرهم ! فهذا هو الحق في عالم الشذوذ . لقد طفحت الأهواء بالدنس فغزلوا من الدنس قانوناً قدم فيه الشيطان حلول مشاكلهم !

﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾[٧١] بعد أن أخبروا لوطاً عليه السلام . بأنه يعلم أنهم لا حَقَّ لهم في النساء لأنهم لا إرب لهم فيهن ولا يشتهوهن وأنه ليس لهم غرض إلاّ في الذكور وهو يعلم ذلك[٧٢] قال لوط عليه السلام : ﴿ **لو أن لي بكم قوة** ﴾ قال المفسرون : أي ليت لي قدرة بانضمام رجل منكم رشيد يقوم بنصرتي فأدفعكم به ـ وقيل إن المعنى : أتمنى أن يكون لي منعة وقدرة وجماعة

(٦٩) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(٧٠) الميزان : ١٠/٣٤١ .
(٧١) سورة هود ، الآيتان : ٧٩ ـ ٨٠ .
(٧٢) تفسير ابن كثير : ٣/٤٥٣ .

أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي[٧٣] وقيل إن المعنى : لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي[٧٤] .

لم يكن لوط عليه السلام يعلم أن معه في الحجرة ركن من أقوى الأركان . وأي ركن أشد من جبرائيل عليه السلام ؟ وكان مع لوط تحت سقف واحد ! !

١ ـ الخروج ليلاً :

بعد أن طالبهم لوط عليه السلام بالناصر الرشيد . أقاموا على أنفسهم الحجة بأنه لا يوجد بينهم رجل رشيد . وتدافعوا على الباب وكسروه ثم توجهوا إلى باب لوط . وعندما كان لوط مع الملائكة في الحجرة بدأ الملائكة بمقدمات يُعَرِّفون بها لوطاً بحقيقة أمرهم وكما أن إبراهيم عليه السلام أنكرهم عندما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ، أنكرهم لوط عليه السلام أيضاً عندما شاهد منهم ما شاهد ﴿ **قال إنكم قوم منكرون** ﴾[٧٥] فلما قال ذلك عندما شاهد منهم فعل غير معهود ﴿ **قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحق وإنا لصادقون** ﴾[٧٦] والمراد بما كانوا فيه يمترون . العذاب الذي كان ينذرهم به لوط وهم يشكونه فيه والمراد بإتيانهم بالحق . إتيانهم بقضاء حق في أمر القوم لا معدل عنه وقيل المراد : وآتيناك بالعذاب الذي لا شك فيه[٧٧] وإظهار الضيوف حقيقتهم في يوم الهجوم على بيت لوط ورد في موضع آخر في سورة هود ﴿ **قالوا يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾[٧٨] وأشاعوا الطمأنينة في نفسه كما في سورة العنكبوت ﴿ **قالوا لا تخف ولا تحزن** ﴾[٧٩] .

وبالجملة لما بلغ الأمر المبلغ . قالت الملائكة مخاطبين لوطاً إنّا رسل ربك . وأظهروا له أنهم ملائكة . وعرفوه أنهم مرسلون من عند الله . وطيبوا نفسه

---

(٧٣) الميزان : ١٠/٣٤١ .
(٧٤) تفسير ابن كثير : ٣/٤٥٣ .
(٧٥) سورة الحجر ، الآية : ٦٢ .
(٧٦) سورة الحجر ، الآيتان : ٦٣ ـ ٦٤ .
(٧٧) الميزان : ١٢/١٨٢ .
(٧٨) سورة هود ، الآية : ٨١ .
(٧٩) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٣ .

أن القوم لن يصلوا إليه ، ولن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون ، وأنهم جاؤوا للقوم بالعذاب الذي لا شك فيه ، وروي أن جبرائيل قال يا لوط دعهم يدخلون . فلما دخلوا أهوى جبرائيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم[٨٠] وفي رواية أن جبرائيل أخذ كفاً من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال : شاهت الوجوه . فعمي أهل المدينة كلهم[٨١] وقال تعالى : ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم** ﴾[٨٢] وروي أنه بعد أن طمست عيونهم رجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ويتوعدون لوطاً عليه السلام بالصباح[٨٣] ولم يكن يعلمون أن الصباح عليهم عذاب لا محيط لهم عنه ولا انفكاك لهم منه .

وبينما كان القوم يتخبطون في الظلام يسيرون بجانب الجدران يتصايحون مطالبين بالانتقام . كان لوط عليه السلام يأخذ تعليمات النجاة من الملائكة ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلّا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾[٨٤] فالقول دستور من الملائكة للوط عليه السلام ، إرشاداً له إلى النجاة من العذاب النازل بالقوم صبيحة ليلتهم هذه ، وفيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله : ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ والمعنى : انج بنفسك وأهلك وسيروا أنت وأهلك بقطع من هذا الليل واخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب الله صبيحة ليلتهم هذه . ولا كثير وقت بينك وبين الصبح ولا ينظر أحدكم إلى الوراء وقوله : ﴿ **إلّا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ ظاهر السياق أنه استثناء من قوله : ﴿ **أهلك** ﴾ لا من قوله ﴿ **أحد** ﴾ وفي قوله : ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ بيان السبب لاستثنائها[٨٥] وقال تعالى في غير موضع : ﴿ **إلّا امرأتك قدرنا إنها لمن الغابرين** ﴾[٨٦] وبدأ لوط عليه السلام يستعد للخروج من القرية الظالمة التي قدر الله ضربها وموعد هلاكها الصبح ،

---

(٨٠) الميزان : ١٩/٨٢ .
(٨١) الميزان : ١٠/٣٤٦ .
(٨٢) سورة القمر ، الآية : ٣٧ .
(٨٣) البغوي : ٨/١٣٨ .
(٨٤) سورة هود ، الآية : ٨١ .
(٨٥) الميزان : ١٠/٣٤٣ .
(٨٦) سورة الحجر ، الآية : ٦٠ .

والصبح هو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين** ﴾[87] وقال المفسرون في قوله : ﴿ **إن موعدهم الصبح** . . . ﴾ ومن الجائز أن يكون لوط عليه السلام يستعجلهم في عذاب القوم فيجيبوه بقولهم : ﴿ **إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾ أي أن المقدر أن يهلكوا بالصبح وليس موعداً بعيداً ، أو يكون الجملة الأولى : ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ استعجالاً من الملائكة . والثانية : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ تسلية منهم للوط في استعجاله[88] . وبالجملة . بدأ لوط عليه السلام يستعد للخروج ليلاً قبل ان يهل الصبح ، وبدأت الملائكة تقدم للوط إرشادات السير والمحل الذي يتوجهون إليه . ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون** ﴾[89] قال المفسرون : والمعنى . وإذا جئناك بعذاب غير مردود وأمر من الله ماض يجب عليك أن تسير بأهلك ليلاً . وتأخذ أنت وراءهم لئلا يتخلفوا عن السير . ولا يلتفت أحد منكم إلى ورائه . وامضوا حيث تؤمرون . وفيه دلالة على أنه كانت أمامهم هداية إلٰهية تهديهم وقائد يقودهم[90] .

وبدأت قافلة الهداية تخرج من القرية الظالمة . ولم تكن قافلة الهداية جموع غفيرة . لقد كان عددها قليل قليل . لكنها كانت تحمل الإيمان بالله . يقول تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾[91] قال المفسرون : البيت هو بيت آل لوط[92] بيت واحد في مدن عامرة . وقد روي كما جاء في الدر المنثور أن عدد أهل هذه القرىٰ كان أربعة آلاف ألف[93] وإن كان العدد فيه أقوال كثيرة للمفسرين إلّا أن كثرة الباطل ثابتة ونسبته عالية ، حيث لم يخرج من القرى الخمس إلّا لوطاً وأهل بيته . والمعنى

---

(٨٧) سورة الحجر ، الآية : ٧٣ .
(٨٨) الميزان : ١٠/٣٤٣ .
(٨٩) سورة الحجر ، الآية : ٦٥ .
(٩٠) الميزان : ١٢/١٨٣ ، البغوي : ٥/٢٣ .
(٩١) سورة الذاريات ، الآيتان : ٣٥ ـ ٣٦ .
(٩٢) الميزان : ١٨/٣٧٩ ، البغوي : ٨/٦٩ ، ابن كثير : ٨/٦٩ .
(٩٣) الميزان : ١٠/٣٥٠ .

الذي وراءَ هذا . أن قوم لوط لم يتقدموا قدماً في اتجاه التوبـة ، لم يكن في بيوتهم وأنديتهم من يفكر في الطهارة : كان الجميع تحت عقيدة واحدة ويشربون من إنـاء ثقافة واحـدة . لذلـك عندمـا استشفع إبـراهيم عليه السـلام لهم كانت الإجـابة : **﴿ قـالوا نحن أعلم بمن فيهـا لننجينّه وأهله إلاّ امـرأته كـانت من الغابـرين ﴾**(٩٤) **﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هـذا إنه قـد جاء أمـر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾**(٩٥) .

لقد طمست عيون القرية التي كان يسكنها لوط عليه السلام بإشارة من إصبع جبرائيل عليـه السلام وطمست عيـون القرى بحفنـة من تراب ألقـاها وقـال شاهت الوجوه . وقضى الله أن يتخبطوا في الظلام كي يـذوقوا مـرارة الفزع قبـل أن يأتيهم العذاب الأليم حيث لا ينفعهم قانـون ولا ينفعهم قاضي الغلمـان . لقد عـاش قوم لوط ككتل آدمية تربت في الظلام ، تنفخ فيها ثقافة فتجعلها تكبـر سريعـاً . وكلما اشتد عودها كلما اعوجت وبدأت فظة مغمورة بـالدنس . لقـد اشتغلوا في حياتهم قطاع طرق ، ليس من أجل سرقـة الأمتعة فقط ، وإنمـا من أجل سلب نـور الفطرة بوضع أغطية الشذوذ عليها ليصبح الإنسان في مرتبة أدنى من مرتبة البهيمـة . وفي الوقت الذي كانوا يقطعون نـور الفطرة ببث ثقـافتهم هنا وهنـاك ، كانـوا يحاربـون الإنسان في كل مكان تحت عنوان قطع سبيل التناسل ، وأمـام سلبهم لنور الفـطرة طمس الله على عيونهم وتركهم في ظلمات يتخبطون . حتى يأتي الصباح ، فعنـد الصباح سيدفعون ثمن الجريمة كاملاً ، وفي الآخرة عذاب أليم .

٢ ـ عندما جاء الصباح :

يقول تعالى لـرسولـه الخاتم محمـد صلى الله عليه وآلـه وسلم : **﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليهـا سافلهـا وأمطرنا عليهم حجـارة من سجيل ﴾**(٩٦) قـال المفسرون : يقـول الله تعالى لنبيـه محمـد . أقسم بحياتـك وبقائـك يا محمـد . إنهم لفي سكـرتهم . وهي غفلتهم

(٩٤) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٢ .
(٩٥) سورة هود ، الآيتان : ٧٥ ـ ٧٦ .
(٩٦) سورة الحجر ، الآيات : ٧٢ ـ ٧٤ .

بانغمارهم في الفحشاء والمنكر . يترددون متحيرين . ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ وهي الصوت الهائل ﴿ **مشرقين** ﴾ أي حال كونهم داخلين في إشراق الصبح . فجعلنا عالي بلادهم سافلها . وفوقها تحتها ، وأمطرنا وأنزلنا من السماء عليهم حجارة من سجيل[٩٧] لقد أقسم الجبار سبحانه بحياة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . وعن ابن عباس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره . قال له الله : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ يقول له وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا : ﴿**إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾ رواه ابن جرير[٩٨] .

لقد كانوا في الضلالة يلعبون . . ركبوا طريق قطع النسل ، بعد أن زين لهم الشيطان أعمالهم ، وأغواهم حتى ساروا في طريق كراهية البشر . ذلك الطريق الذي لوّن الشيطان لافتاته . فتارة يحشر جمعه تحت لافتة رفض البشر الرسول وتارة تحت لافتة قطع نسل البشر . وكل ذلك لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين ، وها هم قوم لوط يضربون بحجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ، وخسر الشيطان جولته كاملة على أرض قوم لوط ، لقد سقطت ورقة تحقير البشر في صورتها الأخيرة . وتمت إبادة الدَّنس ﴿ **وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾[٩٩] قال المفسرون : والمعنى : وقضينا أمرنا العظيم في عذابهم موحياً ذلك إلى لوط . وهو أن دابر هؤلاء وأثرهم الذي من شأنه أن يبقى بعدهم من نسل وبناء وعمل مقطوع حال كونهم مصبحين[١٠٠] لقد سقطت ورقة الشيطان التي أقام قوم لوط عليها ثقافتهم . وعلى مكان ليس ببعيد من أرض لوط . بشر الله تعالى إبراهيم بالولد ، وبهذا الولد ستنهزم أوراق الشيطان ولافتاته ، لأن المولود هو إسحاق ومن بعد إسحاق يعقوب ثم بقية أنبياء بني إسرائيل . والأنبياء من عباد الله المخلصين الذين لا يستطيع الشيطان غوايتهم .

والخلاصة : لم تكن الضربات موجهة إلى قوم لوط وحدهم ، وإنما كانت

---

(٩٧) الميزان : ١٢/١٨٥ .

(٩٨) البغوي : ٥/٢٤ ، تفسير ابن كثير : ٥/٢٤ ، تفسير ابن كثير : ٢/٥٥٥ .

(٩٩) سورة الحجر ، الآية : ٦٦ .

(١٠٠) الميزان : ١٢/١٨٤ .

موجهة للشيطان أيضاً فعلاوة على هزيمة ورقة تزيينه التي أراد منها إبادة النسل ؛ فإن الله أباد أتباع الشيطان في مكان ، وَرَزَقَ الولد الذي لا يقدر عليه الشيطان في مكان آخر . إن الشيطان زين ورقة لقوم لوط فصارت الزينة ليل دائم ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾[101] ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[102] يقول المفسرون : والمعنى . لما جاء أمرنا بالعذاب وهو أمره تعالى الملائكة بعذابهم وهو كلمة (كن) التي أشار إليها سبحانه في قوله : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن** ﴾[103] جعلنا عالي أرضهم وبلادهم سافلها بتقليبها عليهم . وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود معلمة عند ربك . وفي علمه ليس لها أن تخطىء هدفها الذي رميت لأجل إصابته . وذكر البعض : أن القلب وقع علي بلادهم والإمطار بالسجيل عُذب به الغائبون منهم . وقيل : إن القرية هي التي أمطرت حين رفعها جبرائيل ليخسفها . وقيل : إنما أمطرت عليهم الحجارة بعدما قلبت قريتهم تغليظاً في العقوبة[104] .

لقد كان هناك قلب . وصيحة . وإمطار بالحجارة . ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين** ﴾[105] ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾[106] والمطر كان من حجارة من سجيل منضود ، والحجارة مسومة قال المفسرون : منضود : قال بعضهم منضود في السماء أي معدة لذلك ، وقال آخرون : منضود : أي ينبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم ، ومسومة : أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها ، كل حجر عليه اسم الذي ينزل عليه ، وقيل مسومة : مطوقة بحمرة ، وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها . فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث ، إذ جاءه حجر من

---

(١٠١) سورة الحجر ، الآية : ٧٤ .
(١٠٢) سورة هود ، الآية : ٨٢ .
(١٠٣) سورة يس ، الآية : ٨٢ .
(١٠٤) الميزان : ١٠/٣٤٤ .
(١٠٥) سورة الشعراء ، الآية : ١٧٣ .
(١٠٦) سورة الأعراف ، الآية : ٨٤ .

السماء فيسقط عليه من بين الناس فدمره . فتتبعتهم الحجارة في سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم ولم يتبق منهم أحد[١٠٧] .

لقد تتبعت الحجارة الذين يعملون من أجل تصدير وتسويق بضاعة الدنس . وتتبعت أتباع الدنس والعار في كل مكان يشترون فيه ويبيعون ، لأن للكون نظاماً ؛ وكل حركة فيه من أجل هدف ومن وراء هذا الهدف حكمة ، والذين خرجوا يستوردون ويصدرون لأهداف لهم لا تستقيم مع الفطرة ، ولأنهم ضد حركة الوجود ، قُلبوا . بين الصيحة والإمطار ، والله غني عن العالمين . وروي في عذابهم ، أنه لما انتصف الليل ، سار لوط ببناته ، وولت امرأته مدبرة إلى قومها ، تخبرهم أن لوطاً قد سار ببناته وخرج عن ديارهم ، فقال جبرائيل عليه السلام : وإني نوديت من تلقاء العرش لما طلع الفجر يا جبرائيل : حق القول من الله محتماً بعذاب قوم لوط ، فاقلع قريتهم من تحت سبع أرضين ، ثم أعرج بها إلى السماء . فأوقفها ، حتى يأتيك أمر الجبار في قلبها . ودع منها آية من منزل لوط عبرة للسيارة ، فهبطت على أهل القرية . فضربت بجناحي الأيمن على ما حوى عليه شرقيها ، وضربت بجناحي الأيسر على ما حوى عليها غربيها فاقتلعتها من تحت سبع أرضين . إلاّ منزل آل لوط . ثم عرجت بها في خوافي جناحي . فأوقفتها حيث يسمع أهل السماء صياح ديوكها ونباح كلابها ، فلما طلعت الشمس . نوديت من تلقاء العرش . يا جبرائيل أقلب القرية على القوم . فقلبتها عليهم . حتى صار أسفلها أعلاها . وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل[١٠٨] ولا خلاف بين الأمم وأهل الأديانْ في قلب مدائن لوط ، ولكن يوجد اختلاف في كيفية خسف بلادهم وقلبها .

٣ ـ عبرة وتذكرة :

لقد ذهبت أصول الدنس وقطع الله دابر قوم لوط ولم يبق منهم أحد ولكن ثقافتهم تسللت ، تماماً كي تسللت ثقافة كفار قوم نوح الذين قطع الله دابرهم بالطوفان ، فمن الذي حمل الشذوذ من عالم السكون وألقاه في عالم الضجيج .

---

(١٠٧) ابن كثير : ٣/٤٥٥ .

(١٠٨) كتاب الأنبياء : ١٦٣ .

من الذي له مصلحة في ذلك ؟ إنه الشيطان ، فالشيطان يجيد عملية تزيين الأوراق وإعـادة ترتيبهـا وطرحهـا على أصحاب النفـوس الأمَّـارة بـالسـوء وعلى أصحـاب النفوس الضعيفة التي تترك الإيمان عند أول حاجـة لها . وإذا كـان الشيطان يجيـد عمليات التزيين والإغواء . فإن كيده يكون ضعيفاً أمام كل متمسك بهدى الصراط المستقيم . فـالله تعالى يـرسل رحمتـه على الإنسانيـة . ويقوم أنبيـاؤه على امتداد المسيـرة بإرشـاد العبـاد إلى الصـراط المستقيم . فمن دخـل في عقيـدة الصـراط وثقـافته ، كـان كيد الشيـطان أمامـه ضعيفاً . ومن ابتعـد عن الصراط المستقيم . اقترب في الوقت نفسه من عالم الزينة والإغواء الذي ينادي على كل ضال كي يأتي ويستـريح تحت شجـرته . وتحت الشجـر تُدَوَّن القـوانين التي تضبط الأهواء كمـا يريد الشيطان ، ثم تخرج القوانين لتحمل أسمـاء بَرَّاقـة : حريـة . ديمقراطيـة . وهل يوجد من يكره الحرية ؟ ولكن أي حرية ؟ إن للأهواء حـرية ، وهـذه الحريـة ينتظرها حجر ما زال في السماء . وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

إن أوراق الشيطان التي تحمل بصمات قوم لوط ألقيت في عالم الضجيج . وتلقفها الذين على هوى قوم لوط . وأضافوا على زينة الشيطان ملايين الـزينات ، وفي عالم الزينة ظهر الهبوط في كل شيء ، كمـا ظهر مـرض الإيدز ، وهـو مرض يضرب الشاذين جنسياً ، وهذا المرض يسري سـريان النـار في الهشيم . لم يعلم أصحاب قوم لوط في العصر الحديث . أن المرض الذي يضربهم اليـوم ، هو من حجر ضرب أشياعهم بالأمس ، فلقـد روي من طرق عـديدة . في قـوله تعـالى : ﴿ **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** ﴾ عن أبي عبـدالله (ع) قال : « مـا من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط . إلاّ رماه الله جندلـه من تلك الحجارة تكون منيته فيه . ولكن الخلق لا يرونـه » . وروي أيضاً عنـه أنه قـال : « من بات مصـراً على اللواط لم يمت حتى يـرميــه الله بحجـارة تكــون فيـه منيتــه ولا يـراه أحد »[١٠٩] إن الإيدز يفتك وعجز الطب عن مقاومتـه ، وإذا كان حجـر الأمس قد أخذ اسماً علمياً اليوم فهـو غداً سيـأخذ اسمـاً علمياً آخـر . ولا بقاء لشيء يـطارده الله . ﴿ **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عنـد ربك ومـا هي من**

---

(١٠٩) الميزان : ١٠/٣٤٧ .

الـظالمين ببعيد﴾[١١٠] تهـديد مـطلق فوق رؤوس الـظالمين . **﴿وأمطرنـا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لسبيـل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾**[١١١] قال المفسرون : إن في ذلك . أي فيما جرى من الأمر على قـوم لـوط وفي بـلادهم لعـلامـات من بقـايـا الآثـار للمتفـرسين . وإن تلك العلامات لسبيل للعابرين مقيم لم تنمح بالكلية بعد[١١٢] إن التهديد فوق الرؤوس والآثـار على الأرض . **﴿ وتركنـا فيها آيـة للذين يخافـون العـذاب الأليم ﴾**[١١٣] **﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾**[١١٤] قال المسعودي عن ديار قوم لوط : « وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز بما يلي الأردن وبلاد فلسطين . إلاّ أن ذلـك في حيز الشام . وهي مبقاة إلى وقتنا هـذا . وهو سنـة اثنتين وثلاثين وثـلاثمائـة ، خراباً لا أحد فيها ، والحجارة المسومـة موجـودة فيها يـراها النـاس السفار سـوداء بـراقة[١١٥] وذكـر بعض المؤرخين أنه قـد جاءت الأخبـار في الآونـة الأخيـرة أنهم اكتشفوا آثار هي من آثار مدن قوم لوط وذلك على حافة البحر الميت[١١٦] .

إن آثار قوم لوط باقيـة رآها النـاس أو لم يروهـا . وعقاب قـوم لوط بـاقٍ رآه الناس أو لم يروه .

والخـلاصة : أن قـوم لوط قـطعوا السبيـل بمنعهم جريـان الماء في مجـراه الـطبيعي ، وهذا ضـد حركـة الكون لأن الكـون حي . وكـل شيء فيـه خلقـه الله بقدر . وقوم لوط أشاعوا الفساد في الأرض ، والأرض جعلها الله قراراً . وإشـاعة الفساد فيها لا يجعـل للمفسدين على ظهـرها ثبـات ، لقد دار قـوم لوط في عكس اتجاه دوران الفطرة فأصابهم ما أصابهم ، وذهبـوا ، وبقيت أعلام الفـطرة ترفـرف على الكون ، وفي سورة النمل بعد أن قصَّ الله تعـالى قصة قـوم لوط بيَّن سبحـانه نعمه العديدة فقال جل شأنه : **﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فسـاء مطر المنـذرين * قل**

---

(١١٠) سورة هود ، الآيتان : ٨٢ ـ ٨٣ .
(١١١) سورة الحجر ، الآيات : ٧٤ ـ ٧٦ .
(١١٢) الميزان : ١٢/١٨٥ ، البغوي : ٥/٢٥ .
(١١٣) سورة الذاريات ، الآية : ٣٧ .
(١١٤) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٥ .
(١١٥) مروج الذهب : ١/٤٢ .
(١١٦) كتاب الأنباء : ١٦٠ .

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءآلله خيرٌ أما يشركون * أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلاً ما تذكرون . . . ﴾(١١٧) .

سبحان الله الذي لا إله إلّا هو . سبحان الذي يكشف السوء ويجري الماء فينبت به كل شيء . سبحان الذي جعل الإنسان في الأرض خليفة . وجعل له الأرض قراراً وفيها رواسي حتى لا تميد بمن عليها . . لقد ذهب قوم لوط بعد أن جعلهم الله عبرة لكل من يطلق لشهواته العنان ويصدم الفطرة بهواه ويُسخر كل إعلان وإعلام لخدمة أهدافه الدنيئة لقد ذهب قوم لوط أصحاب نوادي المنكر . وهواهم ما زال يواصل المسير في الوحل بلا كلل . بعد أن ارتدى ثياباً زاهية اقتحم بها أماكن كثيرة تحت عناوين جديدة . ولقد طَوَّر أصحاب الوحل مفهوم اللواط فلم يعد يقتصر على الذكران وإنما ضربوا به الفكر حتى جف وضربوا به الإرادة حتى تهاوت . لقد قطع الجدد أكثر من سبيل . ويا ترى إذا مروا على مكانهم القديم وشاهدوا آثارهم على الرمال . سينزجرون ؟ أم سينقبون بين الصخور كي يعثروا على دستورهم القديم ليعيدون طبعه من جديد ؟

---

(١١٧) سورة النمل ، الآيات : ٥٨ ـ ٦٢ .

انحرافات قوم شعيب عليه السلام

﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد
آباؤنا أو ان نفعل في أموالنا ما نشاء . . . ﴾ .

سورة هود ، الآية : ٨٧

* الأيكة ولهيب تحت الظلال

[إنحراف الكيل والميزان]

مقدمة :

تقع قرية مدين في طريق الشام من الجزيرة[1] ورأس قبيلة مدين هو مدين بن إبراهيم خليل الله عليه السلام[2] . وكان أهل القرية وما حولها منعمين بالخصب ورخص الأسعار والرفاهية ، فشاع الفساد بينهم برفع الأسعار والتطفيف بنقص المكيال والميزان ، وكان القوم يعبدون الأصنام ، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام وأمره أن ينهاهم عن عبادة الأصنام وعن الفساد في الأرض ونقص المكيال والميزان . وشعيب تأتي قصته مع قومه في كتاب الله بعد قصة لوط . وكان لسانه ولسان قومه عربياً . والله تعالى لم يبعث من العرب إلّا خمسة أنبياء هم : هود ، وصالح ، وإسماعيل ، وشعيب ومحمد صلى الله عليهم أجمعين ولبث شعيب في قومه مائتين واثنين وأربعين سنة ، اشتهر فيها بينهم بالعلم والحكمة والصدق والأمانة ، وعندما دعاهم إلى ما أمر الله به وذكرهم بما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ؛ لم يزدهم ذلك إلّا طغياناً وكفراً وفسوقاً ولم يؤمن به إلّا فئة قليلة ، ورماه قومه بالسحر وبالكذب ، وأخافوه

---

(١) الميزان : ١٠/٣٧٧ .

(٢) مروج الذهب : ٢/١٦١ .

بالرجم ، وهددوه بالإخراج من قريتهم !

وروي (أن الله تعالى ما بعث نبياً مرتين إلاّ شعيباً . مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة . ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظُّلَّة)(٣) وروى ابن عساكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام)(٤) وروى البغوي أن شعيباً أرسل مرتين(٥) وروي في جوامع الجامع « أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة »(٦) . وقال بعضهم إن مدين والأيكة أمة واحدة ، وان شعيباً لم يرسله الله إلاّ مرة واحدة ، ولم يقدموا حديثاً واحداً يثبت ما يقولون ، وإنما اعتمدوا على أن شعيباً وعظ هؤلاء وهؤلاء بوفاء المكيال والميزان فدل ذلك على أنهما أمة واحدة ، وما ذهب إليه أصحاب هذا القول لا يلازم الحقيقة ، لأن الأيكة كانت بالقرب من مدين وكانت مشهورة بترفها الزائد نظراً لأنها كثيرة المياه والأهوار والأشجار والحدائق الملتفة . والأيكة هي على ما قيل شجر ملتف كالغيضة ، وكان يسكنها طائفة من كبار التجار . أما مدين فكانت تمتاز بكثافة سكانية . وكان لأصحابها حظ من الترف ولكنه لا يقاس بترف أصحاب الأيكة . . ويمكن القول بأن الأيكة كانت قمة للترف ينساب الترف عبر قنواتها ليغذي مدين . وأصحاب الأيكة أهلكوا بعذاب الظُّلَّة أما أهل مدين فأهلكوا بالرجفة وهناك فرق بين الذين يهلكون تحت سحاب ظُلَّة يحمل حراً وناراً ، وبين الذين يأتي عليهم الصباح وقد ضربتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كما أصبح أهل ثمود في ديارهم جاثمين من قبل . إن شعيباً عليه السلام بعد أن دمر الله مدين توجه إلى أصحاب الأيكة فوعظهم بمثل ما وعظ به أهل مدين لأن الجميع كانوا على رقعة تجارية واحدة عامودها الفقري : الجشع والطمع والإفساد في الأرض ، وشعيب عندما بعثه الله إلى مدين قال سبحانه : ﴿ **وإِلى مدين أخاهم شعيباً** ﴾ أما عندما بعثه الله إلى أصحاب الأيكة الغيضة الملتف شجرها ؛ كان أجنبياً عنهم ، ولذلك قال

---

(٣) تفسير ابن كثير وقال فيه إسحاق بن بشر وهو ضعيف : ٣/٣٤٥ .
(٤) المصدر السابق وقال غريب وفي رفعه نظر : ٣/٣٤٥ .
(٥) الميزان : ١٥/٣١٣ .
(٦) الميزان : ١٠/٣٧١ .

تعالى : ﴿ **إذ قال لهم شعيب** ﴾ ولم يقل : أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما . وكذا لوط فقد كان نسيباً إلى قومه بالمصاهرة ولذا عبر عنهم سبحانه بقوله : ﴿ **أخوهم هود** ﴾ ﴿**أخوهم صالح**﴾ ﴿ **أخوهم لوط** ﴾ .

وتضارب الأقوال في أن شعيباً كان له قوماً به أو قوم واحد ، لا يغير النتيجة عند التأمل ، فالنتيجة واحدة هنا وهناك وتحمل قولاً واحداً هو أن الله تعالى أهلك الذين بعث فيهم شعيب ودمرهم بسبب تمردهم على الله وعلى رسوله وتكذيبهم له . وشعيب عليه السلام واجه تجار الجشع والطمع على أرض مدين والأيكة بمعارف وعلوم وأدب رفيع وأقام عليهم الحجة في أتم ما يكون ، وكان عليه السلام في زمرة الرسل المكرمين . وقد أشركه الله فيمن أثناهم به من الثناء الجميل في كتابه . وقصص شعيب . ذكر الله تعالى طرفاً منها في كتابه الكريم في سور : الأعراف ، هود ، الشعراء ، القصص ، العنكبوت وكان شعيب عليه السلام معاصراً لموسى عليه السلام . وقد زوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره موسى ثمان حجج وإن أتم عشر فمن عنده ، فخدمه موسى عشر سنين ، ثم ودعه ، وسار بأهله إلى مصر .

* ١ ـ من خيام الانحراف :

فطر الله تعالى الإنسان على فطرة تهديه إلى الحق ، ولأن الله تعالى خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض فإنه تعالى فطره على الاجتماع ، فطره على أن تكون حياته في مجتمع . لهذا قام الإنسان في البداية بتأسيس المجتمع المنزلي أولاً ثم اتسع عالم الإجتماع الإنساني شيئاً فشيئاً حتى صار مجتمعاً مدنياً تقوم عليه حضارات واسعة . والإنسان في خطوته الأولى زوده الله تعالى بالحرية ، فله أن يختار جانب الفعل وله ان يختار جانب الترك ، فأي فعل يقف عليه له مطلق العنان في أن يختار جانب الفعل . وله ان يختار جانب الترك ، وإلى جانب هذه الحرية . فإن للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرق الحياة ويعمل بما شاء من العمل . وليس لأحد من بني نوعه أن يستعلي عليه فيستعبده ويمتلك إرادته وعمله ويحمله على ما يكرهه فهذه الحرية ضمن عجينة الفطرة التي فطر الله الناس عليها . كي يقيم الإنسان المجتمع على الأرض . والإنسان على الأرض أحاطه

الله سبحانه بعلل وأسباب كونية تحيط به من جميع الجهات ، لا حرية له أمامها ، والإنسان أمام هذه العلل والأسباب الكونية لا يأخذ إلاّ ما أذنت فيه هذه العلل والأسباب ، وليس كل ما أحبه الإنسان وأراده بواقع ، ولا هو في كل ما اختاره لنفسه بموفق له ، ولكي يستقر المجتمع الذي شيده الإنسان على الأرض ، لا بد وأن يستقيم مع خط هذه العلل والأسباب حتى لا يحدث التصادم ، والاستقامة مع خط العلل لا يكون إلاّ بالخضوع التام لخالق العلل والأسباب وخالق الإنسان والأرض ، وخالق العلل والأسباب التي تحيط بالإنسان من جميع الجهات ولا حرية له أمامها لأنها تملكه وتحيط به . هو الله تعالى . فهو سبحانه الحاكم على الإطلاق والمطاع من غير قيد وشرط . والله تعالى كما ذكرنا فطر الإنسان على الاجتماع ، فالإنسان مدني بطبعه ، وما دام هناك مجتمع فلا بدّ أن يكون هناك قانون ، لأن المجتمع لا يقوم له صلب دون ان يجري فيه سنن وقوانين يتسلمها الأفراد ، فأفراد بلا قانون لا يقيمون مجتمعاً ، وعدم إقامة المجتمع يكون خروجاً عن الفطرة ، لأن الفطرة تدعو لإقامة مجتمع إنساني يكون الإنسان فيه خليفة في الأرض ، وإذا حدث وأُقيم مجتمع ما على قانون يستند على أهواء أفراده . فإن هذا أيضاً يكون خروجاً عن الفطرة ، لأن الأفراد الذين يضعون القانون لا حرية لهم أمام العلل والأسباب الكونية التي تحيط بهم من جميع الجهات . فكيف يضع العاجز قانوناً يحمي به الأفراد في حين أنه لا يملك حماية نفسه إن الاجتماع لا يتم إلاّ بقانون مَنْ أخذ به نزلت عليه بركات من السماء ومَنْ خرج عليه أحاطت به النكبات والمعيشة الضنك من كل الاتجاهات . والإجتماع لا يتم من الفرد إلاّ بإعطائه للأفراد المتعاونين له حقوقاً متقابلة محترمة عنده ، ليعطوه بإزائها حقوقاً يحترمونها ، وذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له ، وينفعهم بمقدار ما ينتفع بهم ، والاجتماع لا يتم إلاّ بوضع حدود وعلامات ، فليس للإنسان أن ينطلق ويسترسل في العمل على حساب الآخرين ، وليس له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، بل هو حر فيما لا يزاحم حرية الآخرين (٧) بهذا وبغيره يقوم المجتمع . ولا يوجد قانون ينظم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والطبيعة من جهة أخرى إلاّ قانون خالق الإنسان والطبيعة سبحانه وتعالى .

---

(٧) المصدر السابق : ١٠/٣٦٥ .

وشعيب عليه السلام بُعث في قوم يعملون كأحرار . كان منهم من يعمل بالزراعة ، فيتعامل مع الحبوب معاملة اللص . يبذرها في أرض الله . ليس من أجل أن يفيض الخير ويعم الناس الرخاء ، ولكن من أجل أن يسرع الخطى إلى مزيد من المال ليشيد بها أصنام الهوى داخل نفسه . وكان منهم من يعمل بالتجارة فيتعاملوا مع الثمار معاملة قطاع الطرق الذين لا يخشون من اللصوص في أي موقع كانوا ، فهم يسرقون وفي نفس الوقت في جيوبهم دليل براءتهم . ومجتمع مثل هذا لا يتاجر إلاّ في القوت ، ومتاجرته هذه لا تشيع إلاّ الفساد . . لا يمكن بحال أن يكون مجتمعاً مستقيماً مع فطرة الكون . ولكن يعود هذا المجتمع إلى رحاب الفطرة التي تدعو لإقامة مجتمع لا يفعل فيه الإنسان ما يشاء ويحكم ما يريد . بث شعيب عليه السلام دعوته في عالم عبد الأصنام ونقص الكيل والميزان فأفسد في الأرض . يقول صاحب الميزان : إن الاجتماع المدني الدائر بين أفراد النوع الإنساني مبني على المبادلة حقيقة ، فما من مواصلة ومرابطة بين فردين من أفراد النوع ، إلاّ وفيه إعطاء وأخذ ، فلا يزال المجتمعون يتعاونون في شؤون حياتهم ، يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه ، ويدفع إليه نفعاً ليجذب منه إلى نفسه نفعاً ، وهو المعاملة والمبادلة ، ومن أظهر مصاديق هذه المبادلة : المعاملات المالية ، وخاصة في الأمتعة التي لها حجم أو وزن مما يكتال به أو يوزن ، فإن ذلك من أقدم ما تنبه الإنسان لوجوب إجراء سُنَّة المبادلة فيه .

فالمعاملات المالية وخاصة البيع والشراء من أركان حياة الإنسان الإجتماعية ، فالإنسان يقدر ما يحتاج إليه في حياته الضرورية بالكيل أو الوزن ، وما يجب عليه أن يبذله في مقابلة من الثمن . ثم يسير في حياته بانياً لها على هذا التقدير والتدبير ، فإذا خانه الذي يعامله ونقص المكيال والميزان من حيث لا يشعر هو ، يكون بذلك قد أفسد تدبيره وأبطل تقديره ، ويختل بذلك نظام معيشته من الجهتين معاً . من جهة ما يقتنيه من لوازم الحياة بالاشتراء . ومن جهة ما يبذله من الثمن الزائد الذي يتعب نفسه في تحصيله بالاكتساب . فيسلب بهذا إصابة النظر وحسن التدبير في حياته . ويتخبط في حياته خبط العشواء وهو الفساد ، وإذا شاع ذلك في مجتمع . فقد شاع الفساد فيما بينهم . ولم يلبثوا دون أن يسلبوا الوثوق والاطمئنان واعتماد بعضهم على بعض . ويرتحل بذلك الأمن العام من بينهم وهو

النكبة الشاملة التي تحيط بالصالح والطالح والمطفف والذي يوفي المكيال والميزان على حد سواء . ويصبح بذلك اجتماعهم اجتماعاً على المكر وإفساد الحياة ، لا اجتماعاً على التعاون لسعادتها قال تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾(٨) .

فشعيب عليه السلام جاء لقوم احترفوا الفساد ، وركبوا التجارة وساروا بها في اتجاه النكبة الشاملة التي تحيط بالصالح والطالح ، وذلك لأن جشعهم امتد إلى غد الإنسان . فهم سرقوه في يومه ، والذي سُرق منه جزء يقيم صلبه ، ولكي يسترده لا بدّ له من أن يضاعف من عمله كي يأتي بالثمن ، وعندما يذهب ليشتري ما يقيم صلبه ، يدفعه أهل الطمع والجشع والاحتكار إلى يوم آخر يتعب فيه ليس من أجل نفسه ولكن من أجلهم ، ومع النهب يأتي الفساد ويسود الاضطراب وترفع أعلام العسف والطغيان ، وتفقد الإنسانية إنسانيتها ، وشعيب عليه السلام جاء إليهم بمشعل الهدى الذي به يقيمون المجتمع الصالح الذي يعرف الإنسان فيه ما له وما عليه ، وبَيَّنَ لهم أن القضية لم تكن يوماً من أجل أن يمتلك هذا أو ذاك المال الوفير ، لأن العلل والأسباب في كون الله لا تسمح لأحد من إنقاذ ثروته إذا جاء أمر الله .

* ٢ ـ مواجهة الانحراف :

يقول تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾(٩) .

قال المفسرون : يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام . قريباً من معان . بلاد تعرف بهم يقال لها

---

(٨) سورة الإسراء ، الآية : ٣٥ .

(٩) سورة هود ، الآيات : ٨٤ ـ ٨٦ .

مدين . فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ولهذا قال ﴿ أخاهم شعيباً ﴾[10] فأمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة . ثم خصص نقص المكيال والميزان من بين معاصيهم بالذكر ، دلالة على شيوعه بينهم وإقبالهم عليه ، وإفراطهم فيه . بحيث ظهر فساده وبان سيء أثره. فأوجب ذلك شدة اهتمام به من داعي الحق . فدعاهم إلى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي . ثم قال لهم : ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ أي أشاهدكم في خير . وهو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال ، وسعة الرزق والرخص والخصب . فلا حاجة لكم إلى نقص المكيال والميزان ، واختلاس القليل اليسير من أشياء الناس . طمعاً في ذلك من غير سبيله المشروع وظلماً وعتواً ، وعلى هذا فقوله : ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ تعليل لقوله : ﴿ **ولا تنقصوا المكيال والميزان** ﴾ .

ويمكن تعميم الخير . بأن يراد به ، أنكم مشمولون لعناية الله ، معنيون بنعمه ، آتاكم عقلاً ورشداً ورزقكم رزقاً ، فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهة من دونه وتشركوا به غيره . وأن تفسدوا في الأرض بنقص المكيال والميزان ، وعلى هذا يكون تعليلاً لما تقدمه من قوله : ﴿ **اعبدوا الله** ﴾ إلخ وقوله : ﴿ **ولا تنقصوا** ﴾ إلخ . فمحصل قوله : ﴿ **إني أراكم** ﴾ إلى آخر الآية : أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصية الله :

أحدهما : أنكم في خير ولا حاجة لكم إلى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها .

وثانيهما : أن وراء مخالفة أمر الله يوماً محيطاً يخاف عذابه ، ومعنى كَوْن اليوم ـ وهو يوم العذاب ـ محيطاً . . أنه لا مخرج منه ولا مفر ولا ملاذ من دون الله ، فلا يدفع فيه ناصر ولا معين ، ولا ينفع فيه توبة[11] ، وبعد أن أنار عليه السلام لهم الطريق بمشعل الهداية ، قال : ﴿ **يا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ لقد دعاهم أولاً في صدر حديثه إلى الصلاح بالنهي عن

---

(١٠) تفسير ابن كثير : ٢/٤٥٥ .
(١١) الميزان : ١٠/٣٦٢ .

نقص المكيال والميزان ، ثم عاد ثانياً فأمر بإيفاء المكيال والميزان ونهى عن بخس الناس أشياءهم ؛ إشارة إلى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقه (وإنما نهى عنه أولاً : لتكون معرفة إجمالية . هي كالمقدمة لمعرفة التكليف تفصيلاً) بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكياله وميزانه ، ويعطياهما حقهما ولا يبخسا ولا ينقصا الأشياء المنسوبة إلى الناس بالمعاملة ، حتى يعلما أنهما أديا إلى الناس أشياءهم . وردا إليهم مالهم على ما هو عليه[١٢] . ثم نهاهم عليه السلام عن الفساد في الأرض . ثم قال : ﴿ **بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ والبقية بمعنى الباقي . والمراد به الربح الحاصل للبائع ، وهو الذي يبقى له بعد تمام المعاملة والمعنى : أن الربح الذي هو بقية . هداكم الله إليه من طريق فطرتكم . هو خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف . ونقص المكيال والميزان إن كنتم مؤمنين ، فإن المؤمن إنما ينتفع من المال المشروع الذي ساقه الله إليه من طريق حِلِّه ، وأما غير ذلك مما لا يرتضيه الله ولا يرتضيه الناس ، بحسب فطرتهم . فلا خير له فيه ولا حاجة له إليه .

وبعد أن قال لهم إن كنتم مؤمنين علمتم صحة قولي ، إن بقية الله خير لكم ، قال : ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أي : وما يرجع إلى قدرتي شيء مما عندكم من نفس أو عمل أو طاعة أو رزق أو نعمة ، فإنما أنا رسول ليس عليه إلاّ البلاغ ، لكم أن تختاروا ما فيه رشدكم وخيركم ، أو تسقطوا في مهبط الهَلَكَة من غير أن أقدر على جلب خير لكم . أو دفع شر منكم[١٣] فهو كقوله تعالى : ﴿ **فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾[١٤] .

هكذا تحدث نبي الله شعيب عليه السلام ، هكذا دعا قومه إلى طريق الصواب ، وبين لهم العديد من حقائق المعارف التي غفلوا عنها ، فماذا كان رد قومه ؟ لقد كان ردهم هو رد اللصوص في كل زمان ومكان . رد الذين تخصصوا في سلب كل فرع وكل غصن وكل زهرة وكل ورقة وكل عشب في أرض الله

---

(١٢) الميزان : ١٠/٣٦٢ .

(١٣) الميزان : ١٠/٣٦٥ .

(١٤) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٤ .

الواسعة ، ليبيعوها إلى الناس ليسلبوا منهم كل قرش وكـل حبة عـرق وكل نَفَس ، ليحل الشقاء بأي إنسان ولتـظل جيوبهم منتفخـة وبطونهم منتفخـة وعقولهم أيضـاً ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مـا يعبد آبـاؤنا أو أن نفعـل في أموالنـا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾(١٥) قـال في الميزان : مغـزى مرادهـم : إنّـا في حرية فيما نختاره لأنفسنا من دين ، أو نتصرف به في أموالنا ، ولست تأمرنا بكل ما أحببت ، أو تنهانا عن كل ما كـرهت . فإن سـاءك شيء مما تشـاهد منـا بما تصلي وتتقرب إلى ربك . وأردت ان تأمر وتنهى . فـلا تتعد نفسـك . لأنك لا تملك إلاّ إياها . . وقد أدوا مرادهم هذا في صورة مشوبة بالتهكم واللوم معاً ، ومسبـوكة في قالب الاستفهام الإنكاري وهو : إن الذي تريده منا من ترك عبادة الأصنـام . وترك ما شئنا من التصرف في أموالنا . هو الذي بعثتك إليه صلاتك . ولست تملكنا أنت ولا صـلاتك . لأننـا أحرار في شعـورنـا وإرادتنـا ، لنـا أن نختـار أي دين شئنـا ، ونتصرف في أموالنا أي تصرف أردنا من غير حجر ولا منع ؛ ولم ننتحـل إلاّ ديننا ، الـذي هو دين آبـائنا . ولم نتصـرف إلاّ في أمـوالنـا . ولا حجـر على ذي مـال في ماله . فما معنى أن تأمرك إياك صلاتك بشيء ، ونكون نحن الممتثلون لما أمرتك به ؟ وبعبارة أخرى : ما معنى أن تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك ؟ فهـل هذا إلاّ سفهـاً في الرأي ؟ وإنـك لأنت الرشيـد والحليم . لا يعجـل في زجـر من يـراه مسيئاً . وانتقام من يراه مجرماً . حتى ينجلي له وجه الصواب . والـرشيد لا يقْـدم على أمـر فيه غيٌّ وضـلال فكيف أقدمت على مثـل هذا الأمـر السفهي . الـذي لا صورة له إلاّ الجهالة والغي ؟

وقد ظهر بهذا البيان :

أولاً : أنهم إنما نسبوا الأمر إلى الصلاة . لمـا فيها من البعث والـدعوة إلى معارضة القوم في عبادتهم الأصنام ونقصهم المكيال والميزان . وهذا هـو السر في تعبيرهم عن ذلك بقـولهم : ﴿ **أصلاتـك تأمـرك أن نترك** . . ﴾ دون أن يقـولوا : أصلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ مـع أن التعبير عن المنـع بالنهي عن الفعـل أقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك ، ولذلك عبّر عنه شعيب بـالنهي فيما بعـد

---

(١٥) سورة هود ، الآية : ٨٧ .

في جوابه عن قولهم إذ قال : ﴿ **وما أُريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ ولم يقل : إلى ما آمركم بتركه ، والمراد على أي حال : منعه إياهم عن عبادة الأصنام والتطفيف . فافهم ذلك .

ثانياً : أنهم إنما قالوا : ﴿ **أن نترك ما يعبد آباؤنا** ﴾ دون أن يقولوا : أن نترك آلهتنا ، أو أن نترك الأوثان . ليشيروا بذلك إلى الحجة في ذلك . وهي أن هذه الأصنام . دام على عبادتها آباؤنا ، فهي سُنَّة قومية لنا ، ولا خير في الجري على سنة قومية . ورثها الخلف من السلف . ونشأ عليها الجيل بعد الجيل . فإنا نعبد آلهتنا وندوم على ديننا . وهو دين آباؤنا . ونحفظ رسماً مليّاً عن الضيعة .

ثالثاً : انهم انما قالوا : « ان نفعل في أموالنا » فذكروا الأموال مضافة إلى أنفسهم . ليكون في ذلك ايماء إلى الحجة . فإن الشيء إذا صار مالاً لأحد ، لم يشك ذو ريب في أن له أن يتصرف فيه ، وليس لغيره ممن يعترف بماليته له ؛ أن يعارضه في ذلك ، وللمرء أن يسير في مسير الحياة ، ويتدبر في أمر المعيشة ، بما يستطيعه من الحذق والاحتيال ، ويهديه إليه الذكاء والكياسة .

رابعاً : إن قولهم : ﴿ **أصلاتك تأمرك - إلى قوله - إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ مبني على التهكم والاستهزاء . إلّا أن التهكم في تعليقهم أمر الصلاة شعيباً على تركهم ما يعبد آباؤهم . وكذا في نسبة الأمر إلى الصلاة لا غير ، وأما نسبة الحلم والرشد إليه . فليس فيه تهكم . ولذلك أكد قوله : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ بأن واللام وإتيان الخبر جملة اسمية ، ليكون أقوى في إثبات الحلم والرشد له ، فيصير أبلغ في ملامته والإنكار عليه . وأن الذي لا شك في حلمه ورشده ، قبيح عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر السفهي . وينتهض على سلب حرية الناس واستقلالهم في الشعور والإرادة(١٦) .

كان هذا بيان التجار وأعوانهم والمستكبرين وأشياعهم : بيان رفض الصلاة ، وتمسك بعبادة الآباء ونَسب الأموال إلى أنفسهم باعتبارهم أحراراً لهم الحق المطلق في اختيار الدين الذي يرون وفي تدبير أمور معيشتهم كما يريدون . فماذا كان رد شعيب عليه السلام على هذا البيان ؟ لقد دفع إليهم في حاضرهم

---

(١٦) الميزان : ٣٦٦/١٠ .

ببينة ربه التي تثبت صدق رسالته ، ثم دفع ذاكرتهم إلى الوراء حيث قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط . لقد وضعهم بين البينة وبين العقاب لعلهم يعيدوا التفكير على أسس صحيحة . ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد * واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود** ﴾(١٧) .

قال المفسرون : المراد بكونه على بينة من ربه . كونه على آية بينة . وهي آية النبوة والمعجزة الدالة على صدق النبي في دعوى النبوة ، والمراد بكونه رُزِقَ من الله رزقاً حسناً : أن الله آتاه من لدنه وحي النبوة ، المشتمل على أصول المعارف والشرائع ، والمعنى : أخبروني إن كنتُ رسولاً من الله إليكم ، وخصني بوحي المعارف والشرائع وأيدني بآية بينة تدل على صدق دعواي ، فهل أنا سفيه في رأيي ؟ وهل ما أدعوكم إليه دعوة سفهية ؟ وهل في ذلك تحكم مني عليكم أو سلب مني لحريتكم ؟ فإنما هو الله المالك لكل شيء ، ولستم بأحرار بالنسبة إليه ، بل أنتم عباده ، يأمركم بما شاء وله الحكم وإليه ترجعون(١٨) .

لقد رفض بيانهم ما سمعوه من شعيب . عندما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام والتطفيف . بحجة أن الدعوة مخالفة لما هم عليه من الحرية التي تسوغ لهم أن يعبدوا من شاؤوا ويفعلوا في أموالهم ما شاؤوا ، فبين لهم شعيب أنهم ليسوا بأحرار بالنسبة إلى الله بل هم عبيد . وأخبرهم : بأن الذي يدعوهم إليه ليس من قبل نفسه . حتى ينافي مسألتهم ذلك حريتهم . ويبطل به استقلالهم في الشعور والإرادة . بل هو رسول من ربهم إليهم ، وله على ذلك آية بينة . والذي آتاهم به من عند الله الذي يملكهم ويملك كل شيء ، وهم عباده لا حرية لهم قباله ، ولا خِيرَة لهم فيما يريده منهم ، ثم ذكر لهم أنه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع والعمل الصالح على مقدار ما له من الاستطاعة التي يوفقه الله تعالى

---

(١٧) سورة هود ، الآيات : ٨٨ ـ ٩٠ .
(١٨) الميزان : ١٠/٣٦٧ .

إليهـا . ثم أخبرهم محـذراً : احـذروا أن يتـرتب على مخـالفتكم ومعـاداتكم لي عذاب مثل عذاب قوم نـوح وهو الغـرق ، أو قوم هـود وهو الـريح العقيم ، أو قـوم صالح وهو الصيحة والـرجفة ﴿ **ومـا قوم لـوط منكم ببعيد** ﴾ أي لا فصـل كثير بين زمـانهم وزمـانكم ، وكـانت الفـاصلة الـزمـانيـة بين القـومين أقـل من ثـلاثـة قرون ، وقد كان لوط معاصراً لإبراهيم عليهما السـلام ، وشعيب معاصـراً لموسى عليهمـا السـلام[19] وقيـل المـراد نفي البعـد المكـاني ، والإشـارة إلى بـلادهم الخربة ، قريبة منكم لقرب مدين من سدوم ، بالمعنى : وما مكان قـوم لوط منكم ببعيد ، . تشاهدون مدائنهم المخسوفة وآثارهم الباقية الظاهرة .

وبعد أن أخبرهم بما أخبرهم ، وحذرهم بما حذرهم ، أمرهم أن يستغفروا الله من ذنوبهم وأن يرجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله ، إن الله ذو رحمة ومودة يـرحم المستغفـرين التـائبين ويحبهم ، فمـاذا كـان ردهم على البينـة التي تحتـوي على صدق الرسالة وتشتمل على أصول المعارف ؟ ماذا كـان ردهم عندمـا طالبهم بـأن يرجعوا بذاكرتهم إلى الماضي حيث الطوفـان والريـح والصيحة والحجـارة ؟ ماذا كان ردهم عندما طالبهم بالاستغفار والتـوبة ؟ لقـد كان ردهم عجيبـاً : ﴿ **قالـوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنَّا لنـراك فينا ضعيفـاً ولولا رهـطك لرجمنـاك وما أنت علينـا بعزيـز** ﴾[20] يقول صـاحب في ظلال القـرآن : فهم ضَيِّقُـوا الصـدور بالحق الواضح لا يريدون أن يدركوه ، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة ، فلا وزن عندهم للحقيقة القويـة التي يحملها شعيب ويـواجههم بهـا ، وفي حسابهم عصبيـة العشيـرة ، لا عصبيـة الاعتقـاد ، وصلة الـدم لا صلة القلب ، ثم هم يغفلون عن غيـرة الله على أوليائـه فلا يضعـونها في الحسـاب . . وحين تفرغ النفوس من العقيدة القومية والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فـإنها تقبـع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ، ولا تتحرج عن البطش بالداعية ، إلّا أن تكون له عُصبة تؤويه ، وإلّا أن تكون معه قوة مادية تحميه ، أما حرمـة العقيدة والحق والـدعوة ؛ فـلا وزن لها ، ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية[21] .

---

(١٩) الميزان : ١٠/٣٧٣ .

(٢٠) سورة هود ، الآية : ٩١ .

(٢١) في ظلال القرآن : ٤/١٩٢٢ .

﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾ قال صاحب الميزان : لما حاجهم شعيب عليه السلام ، وأعياهم بحجته لم يجدوا سبيلاً دون أن يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجة فذكروا له أولاً : أن كثيراً مما يقوله غير مفهوم لهم ، فيذهب كلامه لغي لا أثر له ، وهذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائدة فيه . ثم عقبوه بقولهم : ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفاً** ﴾ أي لا نفهم ما تقول ، ولست قوياً فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد في فهم كلامك والاهتمام بأخذه ، والسمع والقبول له ، فإنا لا نراك فينا إلّا ضعيفاً لا يُعبأ بأمره ولا يُلتفت إلى قوله ، ثم هددوه بقولهم : ﴿ **ولولا رهطك لرجمناك** ﴾ أي ولولا هذا النفر القليل ، الذين هم عشيرتك لرجمناك ، لكنا نراعي جانبهم فيك ، وفي تقليل العشيرة إيماء إلى أنهم لو أرادوا قتله يوماً قتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته ، وإنما كفّهم عن قتله نوع احترام وتكريم منهم لعشيرته . ثم عقبوه بقولهم : ﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ تأكيداً لقولهم : ﴿ **لولا رهطك لرجمناك** ﴾ أي لست بقوي منيع جانباً علينا ، حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتل ، وإنما يمنعنا رعاية جانب رهطك ، فمحصل قولهم إهانة شعيب ، وأنهم لا يعبأون به ولا بما قال ، وإنما يراعون في ترك التعرض له جانب رهطه(٢٢) .

لقد قال لهم إنه على بينة من ربه ، وإنه يريد إصلاحهم كي ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة ، ثم ذكّرهم بالأمم السابقة الذين كذبوا رسل الله وما حل بهم من عذاب ، ثم دعاهم إلى الاستغفار والتوبة ، فكان الرد عليه بلادة في الفهم وحجر في اليد ، رفعوا الحجر أمام الكلمة ، ولماذا لا يرفعون الحجر ؟ إن الساحة من حولهم تعج باللصوص ، والأشرار يحومون في كل مكان ، والجميع على استعداد لحمل الحجارة ويلقون بها على كل من حاول أن يهدي إلى الحق ، لأن الحق الذي يعرفونه هو الذي مسمره الشيطان على جسر الإنحراف الذي عبروا عليه إلى عالم الصم البكم العمي الذين لا يفقهون ، وعندما واجهوا شعيباً عليه السلام هذه المواجهة ، رد عليه السلام : ﴿ **قال يا قوم رهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط* ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا**

---

(٢٢) الميزان : ١٠/٣٧٥ .

إني معكم رقيب ﴾(٢٣) .

قال المفسرون : أي كيف تعززون رهطي وتحترمون جانبهم ، ولا تعززن الله ولا تحترمون جانبه ؟ وإني أنا الذي أدعوكم إليه من جانبه ؟ فهل رهطي أعز عليكم من الله ؟ وقد جعلتموه نسياً منسياً ، وليس لكم ذلك ، وما كان لكم ان تفعلوه . إن ربي بما تعملون محيط ، بما له من الإحاطة بكل شيء ، وجوداً وعلماً وقدرةً ثم هددهم أشد التهديد : فأخبرهم بأنه على وثوق مما يقول ، لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم به وتمردهم على دعوته ، فليعملوا على ما لهم من القوة والتمكن ، فلهم عملهم وله عمله ، فسوف يفاجئهم عذاب مخزٍ ، يعلمون عند ذلك من هو الذي يأخذه العذاب . هم أو هو ؟ ويعلمون من هو كاذب ؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب لا يفارقهم(٢٤) .

* ٣ ـ الصّد عن سبيل الله :

على أرض مدين دار الصراع بين الباطل الذي أقام جدرانه على أعمدة الظلم والجشع وبين الحق الذي ينصر الفطرة ويهدي إلى الصراط المستقيم ، وقمة هذا الصراع تُرى أطرافه في سورة الأعراف ، فشعيب عليه السلام بعد أن بث دعوته في قومه آمن به فئة قليلة ، ولكن الذين يفسدون في الأرض ، ركبوا كل طريق من أجل أن يفتنوا الذين آمنوا ويصدوهم عن سبيل الله المستقيم وعندما نهاهم شعيب عليه السلام عما يفعلونه بالذين آمنوا خيَّروهم إما أن يعودوا في ملتهم وإما الطرد من الديار !

١ ـ بيان شعيب عليه السلام :

في سورة الأعراف ضوء ساطع ، كشف كيف يفكر الذين يبغونها عِوجاً ؛ فالتفكير عند هؤلاء لا يستند إلّا على التهديد والحجر ، وقد ظهرت معالم هذا التفكير عندما واجههم شعيب عليه السلام بحجج دامغة يقول تعالى : **﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من**

---

(٢٣) سورة هود ، الآيتان : ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢٤) الميزان : ١٠/٣٧٥ .

ربكم فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عِوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين* وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾(٢٥) .

قال المفسرون : دعاهم (**أولاً**) : بعد التوحيد الذي هو أصل الدين ، إلى إيفاء الكيل والميزان وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم . لأن الإفساد في المعاملات كان رائجاً فيهم شائعاً بينهم . ثم دعاهم (**ثانياً**) : إلى الكف عن الفساد في الأرض بعدما أصلحها الله كي ينتظم أمر الحياة السعيدة ، ثم علل دعوته إلى الأمرين بقوله : **﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾** أما كونه إيفاء الكيل والميزان ، وعدم بخس الناس أشياءهم خير ، فلأن حياة الإنسان الإجتماعية في استقامتها ، مبنية على المبادلة بين الأفراد ، بإعطاء كل منهم ما يفضل من حاجته . وأخذ ما يعادله مما يتم به نقصه في ضروريات الحياة وما يتبعها ، وهذا يحتاج إلى أمن عام في المعاملات ، تحفظ به أوصاف الأشياء ومقاديرها على ما هي عليه . فمن يُجَوِّزُ لنفسه البخس في أشياء الناس ، فهو يُجَوِّزُ ذلك لكل مَنْ هو مثله ، وهو شيوعه . وإذا شاع البخس والغش كان فيه هلاك الأموال والنفوس جميعاً . وأما كَوْن الكف عن إفساد الأرض خيراً لهم ، فلأن سلب الأمن العام ، يوقف رحى المجتمع الإنساني عن حركتها من جميع الجهات ، وفي ذلك هلاك الحرث والنسل وفناء الإنسانية فالمعنى : إيفاء الكيل والميزان وعدم البخس والكف عن الفساد في الأرض خير لكم ، يظهر لكم خير نية إنْ كنتم مصدقين لقولي مؤمنين بي . أو المعنى : ذلكم خير لكم تعلمون أنه خير إن كنتم ذوي إيمان بالحق . . ثم دعاهم (**ثالثاً**) : إلى ترك التعرض لصراط الله المستقيم . الذي هو الدين . فإن في الكلام تلويحاً إلى أنهم كانوا يقعدون على طريق المؤمنين بشعيب عليه السلام . ويوعدونهم على إيمانهم به . والحضور عنده . والإستماع منه . وإجراء العبارات الدينية معه . ويصرفونهم عن التدين بدين الحق والسلوك في طريق التوحيد . . وبالجملة كانوا يقطعون الطريق على

---

(٢٥) سورة الأعراف ، الآيات : ٨٥ ـ ٨٧ .

الإيمان . بكل ما يستطيعون من قوة واحتيال ، فنهاهم عن ذلك ، ووصاهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ، ويعتبروا بالنظر إلى ما يعلمونه من تاريخ الأمم الغابرة ، وما آل إليه أمر المفسدين من عاقبة أمرهم . ثم دعاهم (**رابعاً**) : **إلى الصبر على** تقدير وقوع الإختلاف بينهم بالإيمان والكفر ، فإنه كان يوصيهم جميعاً قبل هذه الوصية . بالإجتماع على الإيمان بالله والعمل الصالح ، وكأنه أحسَّ منهم أن ذلك مما لا يكون البتة ، وأن الإختلاف كائن لا محالة . وأن الملأ المستكبرين من قومه ، وهم الذين كانوا يوعدون ويصدون عن سبيل الله ، سيأخذون في إفساد الأرض وإيذاء المؤمنين ويوجب ذلك في المؤمنين وهن عزيمتهم ، وتسلط الناس على قلوبهم . فأمرهم جميعاً بالصبر . وانتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم وهو خير الحاكمين ، فإن في ذلك صلاح المجتمع ، أما المؤمنون فلا يقعون في البأس من الحياة الآمنة . والاضطراب والحيرة من جهة دينهم ، وأما الكفار فلا يقعون في ندامة الإقدام من غير رؤية . ومفسدة المظلمة على جهالة ، فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين . فهو خير الحاكمين لا يساهل في حكم إذا حان حينه ، ولا يجور في حكم إذا ما حكم(٢٦) .

٢ ـ أنياب طابور الانحراف :

دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد . ثم دعاهم ثانياً إلى الكف عن الإفساد في الأرض ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ ثم دعاهم ثالثاً إلى ترك التعرض لصراط الله المستقيم ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن** ﴾ ودعاهم رابعاً إلى الصبر حتى يحكم الله بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ﴿ **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ فماذا كان رد القوم عليه ؟ يقول تعالى : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أوَلَوْ كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وقال الملأ الذين كفروا من**

---

(٢٦) الميزان : ١٨٩/٨ .

قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾[٢٧] .

قال المفسرون : لم يسترشد الملأ المستكبرون من قومه . بما أرشدهم إليه من الصبر وانتظار الحكم الفصل في ذلك من الله سبحانه . بل بادروا بتهديده وتهديد المؤمنين بإخراجهم من أرضهم . إلاّ أن يرجعوا إلى ملتهم بالارتداد عن دين التوحيد . وفي تأكيدهم القول ﴿ لنخرجنك ﴾ بالقسم ونون التأكيد . دلالة على قطعهم العزم على ذلك . ولذا بادر عليه السلام بعد استماع هذا القول منهم إلى الاستفتاح من الله سبحانه . . فعندما بلغ الكلام هذا المبلغ . وأخبر الذين كفروا طائفة الحق بعزمهم على أحد أمرين : الإخراج ، أو العودة إلى ملتهم . . أخبرهم شعيب عليه السلام بالعزم القاطع على عدم العودة إلى ملتهم والتجأ إلى ربه واستفتح بقوله عن نفسه وعن المؤمنين : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ سأل ربه أن يفتح بين شعيب والمؤمنين به ، وبين المشركين من قومه ، وهو الحكم الفاصل ، فإن الفتح بين شيئين ؛ يستلزم إبعاد كل منهما عن صاحبه ، حتى لا يماس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا[٢٨] .

وبعد أن استفتح شعيب من الله تعالى ، تمادى الذين كفروا من قومه ، فتوجهوا بأشد التهديد إلى الذين آمنوا ، وقالوا لهم : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فهذا تهديد منهم لمن آمن بشعيب ، أو أراد أن يؤمن به وفقاً لخطة الصد عن سبيل الله التي نهاهم شعيب عنها من قبل ، وقال المفسرون : ويحتمل ان يكون قولهم : ﴿ لئن اتبعتم ﴾ الاتباع بمعناه الظاهر . وهو اقتفاء أثر الماشي على الطريق ، والسالك السبيل . بأن يكون الملأ المستكبرون لما اضطروه ومن معه إلى أحد الأمرين : الخروج من أرضهم أو العودة في ملتهم ، ثم سمعوه يردا عليهم العودة إلى ملتهم رداً قاطعاً . ثم يدعو بمثل قوله : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . . ﴾ لم يشكوا أنه سيتركهم ويهاجر إلى أرض غير أرضهم ، ويتبعه في هذه المهاجرة المؤمنين به من القوم ، خاطبوا عند ذلك طائفة المؤمنين بقولهم : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فهددوهم وخوفوهم بالخسران

---

(٢٧) سورة الأعراف ، الآيات : ٨٨ ـ ٩٠ .
(٢٨) الميزان : ٨/١٩٢ .

إنْ تبعوه في الخروج من أرضهم ، ليخرج شعيب وحده[29] .

وهذا التفسير الأخير بما يكون الأقرب لفهم بعث شعيب عليه السلام إلى أصحاب الأيكة . بمعنى أنه عليه السلام كانت له مقدِمة بأي صورة من الصور إلى مكان خارج مدين . وبما أن خطابه كان فيما بعد للأيكة ، فإن الأيكة هي المرشحة لأن تكون هذا المكان ، وقد توجه إليها بالدعوة بعد أن فصل الله بينه وبين مدين والله تعالى أعلم .

وخلاصة القول : أن الاستكبار وضع قافلة الإيمان بين (فكي كماشة) كما يقولون . اما الخروج وإما العودة إلى ملتهم ، أما قافلة الإيمان فقد وضعت الاستكبار تحت قانون الاستفتاح ﴿ **على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ لقد وضعوا الاستكبار تحت قوة لا طاقة لهم بها ، فشعيب عليه السلام يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان ، ويعلم أن ربه تعالى هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ولقد قال لهم وهو يقيم عليهم الحجة في أول الطريق : ﴿ **ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب** ﴾[30] ثم قال لهم في وسط الطريق : ﴿ **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾[31] ثم دعا ربه في نهاية الطريق : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾[32] لقد كان شعيب عليه السلام يتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتي ليس منها مضر ، إلّا بفتح من ربّه ونصر .

* ٤ ـ وجاء الفتح :

لقد دار أهل مدين في اتجاه عكسي لدوران الكون ! خالفوا الفطرة ، ونصروا الهوى وأشاعوا الفساد في الأرض . إن نقص المكيال والميزان سرقة للأرزاق ، وسرقة الأقوات مقدمة يستغلها الشيطان من أجل التشكيك في الرَّزاق ، وبالتشكيك يربط بين ضعاف الإيمان وبين المستكبرين الذين في سعة من زخرف

---

(٢٩) الميزان : ٨/١٩٣ .

(٣٠) سورة هود ، الآية : ٩٣ .

(٣١) سورة الأعراف ، الآية : ٨٧ .

(٣٢) سورة الأعراف ، الآية : ٨٩ .

الحياة الدنيا ، فيستعبد القوي الضعيف في مرحلة ، ويعبد الضعيف القوي في مرحلة أخرى ، إن سرقة الأقوات بكل صورها هي التي ساعدت على قيام الأوثان على الأرض وفقاً لسرقات كل عصر ، فهناك عصر سرق الإنسان بأي صورة من الصور وباعه في أسواق العبيد ! فأدى هذا إلى شرخ في الجدار الإنساني . ترتب عليه سخرة في مكان واستكبار واستعلاء في مكان آخر ، وفي عصر آخر قام الاستكبار بوضع أصنامه ومن حولها جيوش عالم السخرة للدفاع عنها . وفي عصر ثالث قام لصوص الأقوات بنقص الكيل والميزان . كي يتسع عالم السخرة ، وبدلاً من وضع قيود الحديد في رقاب العبيد قديماً . وضعوا بدلاً منها قيود الديون وبقيود الديون يقف الجميع أمام الصنم الجديد الذي فرضه اللصوص الجدد . إن نقص المكيال والميزان يخضع لفقه الأهواء ولا يشيع إلّا الجوع . جوع في القمة يتفنن كل يوم في نقص جديد ، وجوع في القاع اضطربت معيشته ؛ وفي عالم المعيشة الضنك يتحول الجميع إلى ذئاب آدمية ، الكل ضد الكل . ومدين قامت بوضع وتد من أوتاد الشذوذ ، وقامت بنصب خيمة ، تحتها وضع قانون لا يقل خطورة عن قانون رفض بشرية الرسول ، الذي اعتنى به آباؤهم الأوائل في عاد وثمود ، فرفض البشرية تحقير للإنسان وابتعاد به عن منارات الهدى ، ونقص المكيال والميزان تحقير للإنسان وإلقاء به في عالم المادة والأوثان ، ولأن مدين دارت في عكس دوران الفطرة جاءها العقاب يقول تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾(٣٣) وقال تعالى : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يَغْنَوْا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود** ﴾(٣٤) .

وهم في دارهم أخذتهم الرجفة فوقعوا على وجوههم ، وهم في ديارهم أخذتهم الصيحة فوقعوا على وجوههم .

والرجفة : الاضطراب الشديد . والجثوم في المكان : القعود فيه أو البروك على الأرض . وهو كناية عن الموت . والمعنى : أخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك بهم . لقد ضربتهم الرجفة

---

(٣٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٧ .

(٣٤) سورة هود ، الآيتان : ٩٤ ـ ٩٥ .

داخل دورهم ، وضربتهم الصيحة خارج الجدران وهم في الحقول وعلى قمم الجبال ، فمن لم يمت بالرجفة مات بالصيحة ، والصيحة صوت هائل ترتعد له القلوب والأركان . لقد جاءتهم الرجفة عندما دخلوا في وقت الصباح ، وقت خروجهم من أجل امتصاص الأرزاق ، وعندما جاء الصباح لم يجدهم ، لأن الرجفة قد أخذتهم في أيسر زمان . يقول تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾(٣٥) .

قال المفسرون : كان حالهم كحال الذين لم يطيلوا الإقامة في أرضهم . فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها في عشيرة أو أهل أو دار أو ضياع وعقار ، وأما من تمكن في أرض واستوطنها وأطال المقام بها ، وتعلق بها بكل ما يقع به التعلق في الحياة المادية ؛ فإن تركها له متعسر كالمتعذر ، وخاصة ترك الأمة القاطنة في أرض أرضها ، وما اقتنته فيها طول مقامها ، وقد ترك هؤلاء وهم أمة عريقة في الأرض دارهم وما فيها في أيسر زمان أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . وقد كانوا يزعمون أن شعيباً . ومن تبعه سيخسرون ، فخاب ظنهم ، وانقلبت الدائرة عليهم ، فكانوا هم الخاسرين ، فمكروا . ومكر الله والله خير الماكرين(٣٦) . لقد تصرفوا كأحرار والكون يحيط بهم من كل مكان ولا حرية لهم أمام علله وأسبابه وقد حذرهم شعيب عليه السلام من عذاب محيط ﴿ **وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾(٣٧) .

لكنهم لم يفكروا فيما حولهم . فجاءهم العذاب الذي يحيط بدارهم وبديارهم . عذاب فيه رجفة تهتز لها الجدران والقلوب وفيه صيحة تقرع أسماع الذين خارج الجدران ويعملون في الحبوب والحقول . وبَعُدت مدين كما بُعدت ثمود .

* ٥ ـ حدائق الأيكة :

روي أن الأيكة كانت قريبة من مدين . وكانت تمتاز بحدائقها الملتفة

---

(٣٥) سورة الأعراف ، الآيتان : ٩١ ـ ٩٢ .

(٣٦) الميزان : ٨/١٩٣ .

(٣٧) سورة هود ، الآية : ٨٤ .

الغَنَّاء . وتوابعها الكثيرة : المياه والأهوار والأشجار . ولقد ذكر بعضهم أن الأيكة هي مدين ، ولكن خالف العديد أصحاب هذا الرأي ، ومنهم قتادة وغيره من الذين ذهبوا إلى أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين[٣٨] . والذين قالوا بأن الأيكة غير مدين أصابوا .

أولاً : لأنهم استندوا إلى أحاديث أما غيرهم فلم يستند إلّا على رأيه .

وثانياً : أنهم استندوا على عذاب الأيكة الذي خالف عذاب مدين من حيث نوعه . فمدين ضُربت بالرجفة والصيحة ، والأيكة ضربت بعذاب الظُّلَّة ، واستندوا على كتاب الله ، فالله تعالى نسب شعيباً إلى مدين ولم ينسبه إلى الأيكة ، ثم إن هناك ملامح طرد وهجرة لأتباع شعيب من مدين في كتاب الله . فربما أن تكون مقدمة شعيب قد وصلت الأيكة ثم تحرك ركب الإيمان إليهم بعد أن عَمَّ التدمير مدين كلها . وأخيراً لقد فجر أصحاب الأيكة قضية رفض البشر الرسول وهو الذي لم يحدث في مدين ، وليس معنى هذا أن مدين كانت تعترف ببشرية الرسول ، فمدين عبدوا الأصنام وتصرفوا وفقاً لأهوائهم ، ولكنهم لم يفجروا هذه القضية لأنهم لم يملكوا مؤهلاتها فالقضية لا تفجر إلّا في مجتمع مترف . وأصحاب الأيكة امتلكوا الأيكة ، وكان من عندهم يتدفق النهر الذي تحمل أمواجه الزخرف ، ومدين ما هي إلّا موجة من أمواجهم ، أراد شعيب عليه السلام أن يطهرهم وبهم يطهر ما حولهم . لكنهم أبَوْا إلّا العذاب ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، ودخل شعيب والذين آمنوا معه الأيكة ليبدأوا معها الطريق الذي بدأوه مع مدين ، يقول تعالى :

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجري إلّا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾[٣٩] .

---

(٣٨) البداية والنهاية : ١/١٨٩ .

(٣٩) سورة الشعراء ، الآيات : ١٧٦ ـ ١٨٤ .

قال المفسرون : الأيكة الغيضة الملتف شجرها . قيل : إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام . وكان أجنبياً منهم . ولقد أمرهم بتقوى الله . وبين أنه رسول من عند الله . أمينٌ على ما حملته من الرسالة ، لا أبلغكم إلّا ما أمرني ربي وأراده منكم ، ولذا فرع عليه قوله : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعة لله ، ثم نفى سؤال الأجر لنفي الطمع الدنيوي ، وأثبت أن أجره على الله رب العالمين ، ثم أمرهم بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن ، وأن لا يبخسوا الناس سلعهم وأمتعتهم ، وأن لا يفسدوا إفساداً في الأرض . ثم أمرهم أن يتقوا الله الذي خلقهم وآباءهم الأولين . الذين فطرهم وقرر في جبلتهم تقبيح الفساد والإعتراف بشؤمه .

لقد خاطبهم في صدر خطابه لهم ، كما خاطب هود وصالح عليهما السلام الجبابرة في قومهما ، أمرهم بالتقوى ونفي الأجر حتى لا يتهموه ثم أمرهم بما يستقيم مع الفطرة . . فماذا كان ردهم ؟ يقول تعالى : ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلّا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كِسَفاً من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربي أعلم بما تعملون** ﴾(٤٠) .

قال المفسرون : يخبر تعالى عن جوابهم له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها ، تشابهت قلوبهم حيث قالوا : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾(٤١) وبعد ذلك فجروا قضيتهم التي وضع الشيطان بذورها ، وقال بها كل مترف مستكبر متكبر عال في الأرض ، لقد خاطبوه بعيونهم ، حيث شاهدوا من حولهم حدائقهم وعبيدهم وتجارتهم التي تجوب الجزيرة والشام وتأتي إليهم بالمال الوفير ، في الوقت الذي لا يمتلك هو وأتباعه ما يعلوهم ويقهرهم . لقد خاطبوه وفقاً لفقه الأعمى الذي لا ينظر إلى الوجود بعيون الفطرة ، وإنما ينظر إليها وفقاً لأعمدة فقه الزينة والإغواء ، ولقد اختصر أصحاب الأيكة الطريق ، فبعد أن اتهموه بالكذب ، طالبوه بالعذاب إنْ كان من الصادقين ، وحددوا العذاب الذي يريدون ﴿ **فأسقط علينا كسفاً من السماء** ﴾ أي أسقط علينا قطعاً من السماء . وقيل :

---

(٤٠) سورة الشعراء ، الآيات : ١٨٥ ـ ١٨٨ .

(٤١) ابن كثير : ٣/٣٤٦ .

عذاب من السماء وما طلبوه مبني على التعجيز والإستهزاء . وما طلبوه أول الزمان طلبه كفار قريش من النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم فيما بعد ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** - إلى أن قالوا - **أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كِسَفَاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً** ﴾[٤٢] لقد اختصر أصحاب الأيكة الطريق . وذهبوا ليأكلوا الأموال . ويشيعوا في الأرض الفساد . وعندما طالبوا شعيباً عليه السلام بالعذاب ﴿ **قال ربي أعلم بما تعملون** ﴾ وهو كناية عن أنه ليس له من الأمر شيء وإنما الأمر إلى الله . لأنه أعلم بما يعملون . وأن عملهم هل يستوجب عذاباً ؟ وما هو العذاب الذي يستوجبه إذا استوجب ؟ فهو كقول هود لقومه : ﴿ **إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به** ﴾[٤٣] .

* ٦ - لهيب تحت الظلال :

داخل الأعشاش كان أصحاب الأيكة يتمتعون بالظل والظلال ، كانت خيامهم أشجاراً مورقة ، والطريق إلى منازلهم مفروشة بالزهور المتفتحة . إذا وقف أحدهم على مرتفع وقف تحت الظلال ، وإذا نظر من حوله رأى ممتلكاته التي تبشره بجني ثمر جديد ، يُدرُّ عليه ربحاً جديداً ، ولم يكن يدور بخلد أحدهم أن الأخطار تترصده ، لأن هذا النوع من الناس ضيق الأفق محدود التفكير ولا يرى الأمور إلّا من وجهة نظر واحدة ختمها هواه ، لقد انتقل أصحاب الأيكة بين الأزهار والثمار والأشجار والأنهار ، وكان كل شيء حولهم يوحي لهم بالاطمئنان . فالمنطقة تفيض بالخير لينعموا هم بالرخاء ، وكل منهم يعتقد بأنه يسلك الطريق الصحيح لامتصاص الأقوات والأرزاق وحبات العرق . ويوم الظلة جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون يقول تعالى : ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾[٤٤] .

قال المفسرون : يوم الظلة . . يوم عُذبوا فيه بظلة من الغمام ، وروي أنه يوم حر وسمائم . وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله

---

(٤٢) سورة الإسراء ، الآيات : ٩٠ - ٩٢ .

(٤٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٣ .

(٤٤) سورة الشعراء ، الآية : ١٨٩ .

سبحانه وتعالى . جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء . ثم أقبلت سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر . فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً(٤٥) .

وروي أن الله تعالى أسقط عليهم الحر الشديد سبعة أيام ، حتى علت مياههم وفارت ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا تحتها للاستظلال بها من وهج الشمس وحرها ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا وهلكوا بأجمعهم ، وروي أن الله تعالى أرسل عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم ، فلم ينفعهم الظل ولا الماء ، ثم بعث الله عليهم ريحاً طيبة . فنادى بعضهم بعضاً عليكم بها . فخرجوا إلى البرية . فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلة(٤٦) لقد ضربهم الحر وهم تحت الظلال ، وهم الذين اختاروا هذا العذاب ، لم يطلبوا الهداية وإنما طلبوا أن يسقط الله عليهم كسفاً من السماء فجاءهم . . ويقول عنه تعالى : ﴿ **إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ . لقد ضرب الله أصحاب نقص الكيل والميزان مرتين وبيَّن ذلك في كتابه . إشارة إلى أن هذه الجريمة تدفع بالمجتمع الإنساني إلى عالم الذئاب ، وعلى المجتمع الإنساني أن يقاومها إذا كان يؤمن بالله وباليوم الآخر ، وروي أن الله تعالى أوحى إلى شعيب أني معذب من قومك مائة ألف ، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم . فقال عليه السلام : يا رب هؤلاء الأشرار . فما بال الأخيار ؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : لمداهنتهم أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي(٤٧) إن الشيطان يقف وراء البراويز المزخرفة : براويز شهوات البطن والفرج ، وعالم المكيال والميزان : أرضية خصبة ، يدخل الشيطان من خلالها إلى شهوات البطن والفرج والاستعلاء على عباد الله ، ولقد فتحت مدين وأصحاب الأيكة أبوابهم ، وتاجروا بالأخضر واليابس وفقاً لأهوائهم ، بعد أن تعامَوْا عن أن الإنسان تحيط به علل وأسباب في كون الله الواسع . وهذه العلل والأسباب تتحكم فيه ولا حرية له قبالها . فإذا

---

(٤٥) الميزان : ١٥/٣١٢ ، ابن كثير : ٣/٣٤٦ .
(٤٦) كتاب الأنباء : ٢٥٣ ، تفسير ابن كثير : ٣/٣٤٦ .
(٤٧) كتاب الأنباء : ٢٥٣ .

استقـام على طريق الفـطرة أفاض خـالق العلل والأسبـاب عليـه البـركـات ، وإن انحـرف عن سبيل الله ضـربته العلل والأسبـاب (بكن) فيهلك كل منهم بـذنبه . يقول تعالى في استئصال الأمم الماضية : ﴿ **فكلاً أخـذنا بـذنبه فمنهم مَنْ أرسلنـا عليـه حاصبـاً ومنهم من أخـذتـه الصيحـة ومنهم مَنْ خسفنـا بـه الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهـم يظلمون** ﴾(٤٨) .

* ٧ ـ العـــودة :

روي أن الله بعد أن أهلك أصحاب الأيكـة . رجع شعيب عليـه السلام إلى مقره الأول وموطن قبيلته وهي مدين ومعه أصحابه والمؤمنون ، وهناك رواية معتبرة صحيحة أن شعيباً صار أخيراً إلى مدين هو والمؤمنون به وأقام بها(٤٩) . وأصبحت مـدين مقصودة يـأتيها النـاس من كل مكـان للتجارة ، وعنـدما هـرب موسى عليـه السلام من مصر . توجه إلى مدين . وقد ألهمه الله تعالى ذلك . لحكمة اقتضـاها سبحانه .

وروي أن موسى عليه السلام قطع رحلته من مصر إلى مدين في ثمان ليال ، فلما بلغ مدين رأى بئراً يستقي منها الناس لأغنامهم وإذا جاريتان ضعيفتـان . وإذا معهما غنمية لهما . . قال مـا خطبكمـا ؟ قالتـا : أبونـا شيخ كبيـر ونحن جاريتـان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال . فإذا سقى الناس سقينا ، فـرحمهما ، فـأخذ دلوهما فقال لهما : قدّما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس . ثم تـولى موسى إلى الشجرة التي بجانب البئر وجلس تحتهـا وقال : ﴿ **رب إني لمـا أنزلت إليَّ من خير فقير** ﴾ وروي أنه قال ذلك ، وهو محتـاج إلى شق تمرة . فلمـا رجعتا إلى أبيهما قال : ما أعجلكما في هذه الساعة ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنـا فسقى لنـا . فقال لإحـداهما اذهبي فـادعيه لي . فجـاءتـه إحـداهمـا تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجـزيك أجـر ما سقيت لنـا فروي أن مـوسى عليه السلام قال لها : وجهيني إلى الطريق وامشي خلفي ، فإنا بني يعقـوب لا ننظر في أعجـاز النساء ، فلمـا جاءه وقص عليـه القصص قال : لا تخـف نجوت من القوم الظالمين ، ثم قال لـه شعيب : إني أريد أن أنكحـك إحدى ابنتيَّ هـاتين على أن

---

(٤٨) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٠ .
(٤٩) كتاب الأنباء : ٢٥٣ .

تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وروي أنه قضى أتمهما لأن الأنبياء عليهم السلام لا تأخذ الا بالفضل والتمام(٥٠) .

وأصبح موسى عليه السلام صهراً لشعيب عليه السلام . وراعياً لغنمه ، ومن عند شعيب خرج موسى متوجهاً إلى مصر وكانت بيده عصا روي أن شعيباً كان يحتفظ بها ضمن عصى الأنبياء التي كان يضعها في بيت خاص بها . وفي طريقه إلى مصر ناداه ربه سبحانه وتعالى كما سنبين في حينه .

لقد طويت مدين وطوى أصحاب الأيكة . لقد ذهب أصحاب اللحوم التي من معدن ، الذين أعجبوا بحياتهم وعاشوا وسط الأجولة المكدسة بالبضائع والأدوات لامتصاص دماء الإنسان الذي يقترب منهم . لقد احترقت أكواخهم في لمح البصر . . أخذوا على غرة ، وتعذبوا ليالي طويلة في يوم عذاب عظيم ، وبعد ذهابهم جاء الذين ساروا على أهواء مدين والأيكة ، فوقف وراء كل غصن لص ، وانقلبت جميع الموازين وجميع المكاييل ، انقلبت في الوقت الذي خضعت حياة الإنسان كلها للتجارة ، وفي عالم كله تجارة لا ميزان ولا مكيال فيها ، أصبح السعداء يصيبهم الشقاء بسبب الأشقياء ، وأصبح الأشقياء يصيبهم الشقاء بسبب السعداء ، وأصبح العبيد للمادة لا حصر لهم ، ترى ألا يشعر هؤلاء يوماً بالحر ؟ ربما تكون الرياح تسري عندهم داخل غرفهم وعلى شواطئهم وفي أيكاتهم ، وربما يكون الظلال من حولهم في كل مكان . ولكن ألا يعلموا أن في كون الله ظلالاً أخرى . لا مخبأ منها والحياة تحتها لا تدوم طويلاً؟

(٥٠) الميزان : ٢٩/١٦ .

انحرافات فرعون موسى عليه السلام

﴿ وإن فرعون لعال في الأرض وانه لمن المسرفين ﴾ .
سورة يونس ، الآية : ٨٣

* آل فرعون ! جيش بلا قبور

[إنحــــراف الدولـــــة]

مقدمــــــة :

كان فرعون قمة إنتاج فقه الإنحراف ، بمعنى أن كفار قـوم نوح الـذين دونوا فقه النظر القاصر الذي صنف عباد الله إلى أشراف وأراذل ، والذين تعهدوا الغرس الشيطاني الذي يقـوم على رفض بشريـة الرسـول هؤلاء توجـد بصمات شـذوذهم وانحرافهم على الوجه الفرعوني . ففرعـون موسى رفض النبي البشـر وصنف عباد الله ﴿ **فقالوا أنؤمن لبَشَرَيْن مثلنا وقومهما لنا عابدون** ﴾[1] وإذا كانت عاد قوم هـود هم الذين دونوا فقه الغطرسـة واستكبروا وقـالوا من أشـد منا قـوة ؟ فإن بصمـاتهم حملها الوجـه الفرعـوني ، ففرعـون وَمَلَئِهِ استكبـروا وكانـوا قومـاً عالين[2] . وإذا كانت ثمود قوم صالـح قد جحـدوا بآيـات الله وسخروا من رسـوله ؛ فـإن بصمات الجحود والسخريـة ترى بـوضوح على الـوجه الفـرعوني ، ففـرعون تـولى بركنـه ووصف نبي الله مـوسى عليه السـلام بأنـه ساحـر أو مجنون[3] . وعنـدما جـاءهم موسى بآيات الله كانوا منها يضحكون[4] ! وإذا كان النمرود قد قـال لإبراهيم عليـه

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٤٧ .

(٢) يقول تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ **إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين** ﴾ .

(٣) قال تعالى : ﴿ **فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون** ﴾ سورة الذاريات ، الآية : ٣٩ .

(٤) يقول تعالى : ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون** ﴾ سورة الزخرف، الآية : ٤٧ .

السلام : أنا أحي وأميت ؛ فإن بصمات الدولة النمرودية توجب على صفحات الدولة الفرعونية ! ففرعون هو القائل : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾[٥] وهو القائل لقومه : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾[٦] وإذا كان قوم لوط قد تآمروا على إبادة النسل بطريقتهم الخاصة ؛ فإن لفرعون طريقته للتآمر على النسل وتبدو صورتها واضحة في خطة فرعون من أجل إبادة نسل بني إسرائيل . وإبادة نسل كل من آمن بالله الواحد ﴿ **قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾[٧] فلقد تتبع مواليد بني إسرائيل وتتبع السحرة الذين آمنوا بموسى حتى يعم في الأرض الفساد . وإذا كانت مدين قد دونت فقه نقص الكيل والميزان فإن فرعون نقص الميزان بطريقته الخاصة . فلقد غش قومه واستخفه ولم يطرح عليهم حقيقة كاملة فدولته كانت كل شيء فيها بميزان ، ولكن هذا الميزان كان في قصر فرعون والعامل عليه لا يرى إلّا بعيون فرعون ﴿ **ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون** ﴾[٨] لقد كان الميزان كله عند فرعون ، فرعون الذي استكبر وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلى الله لا يرجعون !

لقد حمل فرعون على أكتافه جميع الانحرافات والشذوذ ، بعد أن طورها لتلائم المسيرة البشرية ، وشاء الله أن يتصدى له موسى وهارون عليهما السلام ، وموسى أحد الخمسة أولي العزم الذين هم سادة الأنبياء ، وقد خصهم الله بالذكر في قوله : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾[٩] وقال : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾[١٠] وموسى عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن فقد ذكر اسمه في مائة وستة وثلاثين موضعاً ، وذكر البعض أن الله تعالى أشار إليه في ثلاثين موضعاً آخر ،

---

(٥) سورة النازعات ، الآية : ٢٤ .
(٦) سورة القصص ، الآية : ٣٨ .
(٧) سورة غافر ، الآية : ٢٥ .
(٨) سورة الزخرف ، الآية : ٥١ .
(٩) سورة الأحزاب ، الآية : ٧ .
(١٠) سورة الشورى ، الآية : ١٣ .

وأشير إلى قصته إجمالاً أو تفصيلاً في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن ، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات والآيات التي أيد الله بها دعوته وقد ذكر القرآن منها معجزة العصا ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وفلق البحر ، وإنزال المنّ والسَّلوى ، وإنبجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، وإحياء الموتى ، ورفع الطور فوق القوم وغير ذلك .

ولقد أثنى الله تعالى على موسى عليه السلام بأجمل الثناء في قوله : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً** ﴾[١١] وقال سبحانه : ﴿ **وكان عند الله وجيهاً** ﴾[١٢] وقال : ﴿ **وكلم الله موسى تكليماً** ﴾[١٣] وذكره في جملة مَنْ ذكرهم من الأنبياء في سورة الأنعام ، فأخبر سبحانه أنهم كانوا محسنين صالحين ، وأنه فضلهم على العالمين ، واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم . . فاجتمع بذلك له عليه السلام معنى الإخلاص والتقريب والوجاهة والاحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية ، أما أخوه هارون عليه السلام ؛ فلقد أشركه الله تعالى مع موسى عليه السلام في سورة الصافات في المن وإيتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم ، وفي التسليم وأنه من المحسنين ومن عباده المؤمنين[١٤] وعده سبحانه من المرسلين كما في سورة صّ[١٥] ومن النبيين كما في سورة مريم[١٦] وأنه ممن أنعم الله عليهم[١٧] وأشركه سبحانه مع من عدهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان والصلاح والفضل والإجتباء والهداية[١٨] .

---

(١١) سورة مريم ، الآيتان : ٥١ ـ ٥٢ .
(١٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٦٩ .
(١٣) سورة النساء ، الآية : ١٦٤ .
(١٤) سورة الصافات ، الآيات : ١١٤ ـ ١٢٢ .
(١٥) سورة طه ، الآية : ٤٧ .
(١٦) سورة مريم ، الآية : ٥٣ .
(١٧) سورة مريم ، الآية : ٥٨ .
(١٨) سورة الأنعام ، الآية : ٨٤ ـ ٨٨ .

* ١ ـ أضواء على الفرعونية :

في الظاهر أن الباطل هو الذي يطارد الحق ، ولكن الحقيقة تخالف ذلك ، والدليل يكمن في نتيجة المطاردة ، من انتصر على من ؟ إن الباطل مهما طالت أيامه وكثر جنده واشتد ساعده ، مُطَارَد والذي يطارده هو الله ، ولا بقاءَ لشيء يطارده الله ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾[١٩] إن الباطل طارىء لا أصالة فيه ، اما الحق فهو أصيل في الوجود ، والحق لا يخفى بأي وجه وعلى أي تقدير وهو من أبده البديهيات ، وليس في الوجود أي محبوب أو مطلوب أعز وأشرف وأغلى من الحق ، لهذا فالحق هو الذي يطارد الباطل ، ودائماً وأبداً تكون نهاية هذه المطاردة أن الحق هو المنتصر في الدنيا ظاهراً وباطناً . لقد كان كفار قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وقومه . في خندق الباطل . فماذا كانت عاقبة المفسدين الذين ملأوا القلوب رُعباً ، والنفوس دهشة ، وخربوا الديار ، ونهبوا الأموال ، وسفكوا الدماء ، وأفنوا الجموع . واستعبدوا العباد وأذلوا الرقاب ، لقد مَهَّلَهُم الله في عتوهم واعتدائهم ، حتى إذا بلغوا أوج قدرتهم . واستووا على أريكة شوكتهم وغرتهم الدنيا بزينتها ، واجتذبتهم الشهوات إلى خلاعتها ، واشتغلوا بملاهي الحياة والعيش . واتخذوا إلههم هواهم ، جاءتهم الضربة القاصمة ، فلم يبق منهم إلّا أسماء إن لم تُنْسَ ، ولم يتبق من هيمنتهم إلّا أحاديث !

وفرعون قصة من قصص الجبابرة ، جاءت قصته بعد أن قص الله قصة شعيب مع قومه ، ولقد توفر للدولة الفرعونية كل أسباب القوة ، من نيل يفيض بالماء على أرض خصبة ، إلى سواعد فتية ترفع الأحجار وتحفر في الصخور ، لقد توفر للدولة المناخ والطبيعة والإنسان . وهذه نعم من الله يجب الشكر عليها ، ولكن الفرعونية أمسكت بسمع وبصر القوم ، فتلاشى القوم ولم يظهر إلّا فرعون !

١ ـ الفرعونيـــــة :

بعث الله تعالى إدريس عليه السلام إلى مصر بعد الطوفان ـ فيما ذكره البعض ـ وأقام في مدينة منف . وبعد أن أقام الحجة على القوم في بداية الطريق

---

(١٩) سورة الأنبياء ، الآية : ١٨ .

وتوفاه الله ، اتجه القوم نحو رفض بشرية الرسول ، وظهرت ثقافة دَوَّنها الكهنة عامودها الفقري . أن الآلهة حكموا الأرض من قديم الزمان ، الآلهة لم يكن يراهم أحد ، إلّا أن أرواحهم وقوتهم تحيط بالأرض ، ووفقاً لهذا التصور أقاموا التماثيل لهؤلاء الآلهة الذين في تخيلاتهم ، وتقربوا إليها وأقاموا لها المعابد ، وبغد مدة من الزمان ادعى الفراعنة أمام قومهم بأنهم أبناء لهؤلاء الآلهة ، وأنهم يجلسون فوق عروشهم بأمر منهم ، وكان الفرعون خفرع هو أول من ادعى بنوته للإله « رع »[٢٠] ! وعلى سُنَّته سار جميع الفراعنة وبمقتضى هذه البنوة كان للفراعنة الحق في امتلاك كل شيء على أرض مصر ، لقد رفضوا البنوة في بداية الطريق ، لأن النبي بشر ولا ينبغي أن يكون كذلك ! وفي نهاية الطريق أصبح الذين رفضوا النبي بالأمس ، أبناء آلهة ! لتكون هذه البنوة فيما بعد مقدمة للجلوس في دائرة الآلهة . إن ثقافة رفض النبي البشر ، قام الشيطان بتغذيتها حتى هضمتها الشعوب ، وفي النهاية جاء بمن يجلس على الرقاب ، ويقول بأن دماء الآلهة تجري في عروقه . وعلى هذا فهو نصف إنسان ونصف إله ! وعلى الجميع السمع له والطاعة !

والفرعون خفرع لم يدَّع بنوته للإله رع بدون مقدمات ، فمن قديم وأسطورة (أوزير) الذي أطلق عليه الإغريق فيما بعد (أوزوريس) تنخر في عقول المصريين ، وكانت هذه الأسطورة هي الأساس الشرعي الذي استند عليه الفرعون خفرع في بنوته للإله ، وخلاصة هذه الأسطورة أن أوزير كان إلهاً يحكم على الأرض ، ولكن غريمه إله الشر (ست) قتله واستولى على ملكه ، فقامت (أوزوريس) معشوقة أوزير بإعادة الإله المقتول إلى الحياة ، وعندما عاد ضاجعها فحملت منه بالإله (حور) الذي أطلق عليه الإغريق اسم (حورس) وبدأ حور يقاتل ست من أجل استرداد حقوق أبيه . وفي نهاية المطاف استردها . وتنازل له الإله (أوزير) عن الحكم فوق الأرض ، وذهب ليحكم تحت الأرض في عالم الأموات فهذه المقدمة شيدت في ذهن القوم إمكانية انجاب الولد من الإله ، ولقد بدأت ثقافة (أوزير) تنخر في العقول منذ بداية العصور التاريخية التي بدأت من القرن ٣٢ قبل الميلاد حتى جاء الفرعون (خفرع) في عصر الدولة القديمة الذي

---

(٢٠) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف ـ تحت الطبع ـ .

بدا بعصر الأسرة الثالثة وامتد حتى نهاية عصر الأسرة السادسة (٢٧٧٨ ـ ٢٤٢٣ ق . م تقريباً) وقام بدق وتد الشذوذ وادعى بنوته للإله (رع) . وهذا الادعاء الذي سهرت عليه ثقافة الدولة . كان حجر عثرة في وجه كل رسول يأتي من قِبَل الله تعالى ، فكيف يستمع الناس لبشر رسول ، وعلى رأسهم نصف إله يحكم ويملك يضرب ويقتل ؟ وبعد أن سن خفرع سُنَّته ، تلقفها كل مَنْ حكم مصر من الغرباء ، لمعرفتهم مدى تغلغل هذه الثقافة في أعماق الشعب . فالفراعنة ذوو الأصل الأثيوبي أو الليبي الذين حكموا مصر ادعوا أنهم أبناء آلهة(٢١) . وحكام البطالمة ومن قبلهم الاسكندر ادعوا أنهم أبناء آلهة . حتى كليوباترا عندما أنجبت ولدها قيصر الذي سماه أهل الإسكندرية قيصرون ، من عشيقها يوليوس قيصر ، أعلنت على الملأ بأن الإله آمون جاءها في صورة يوليوس قيصر وضاجعها فأنجبت قيصر الصغير(٢٢) ، ومن هذا الباب ركب قيصر عرش الفراعنة ، لأن القوم لا يعنيهم سوى أن تكون في عروقه يجري دماء الآلهة .

إن لافتة الحق الإلهي التي رفعها الجبابرة ، ابن شرعي لفقه الرفض الذي بدأه الشيطان يوم رفض السجود لآدم عليه السلام ، ثم رعاه بعد طرده إلى الأرض . ببث ثقافة التحقير والانتقاص لكل بشر اختاره الله لحمل رسالته إلى الناس ، ففقه الرفض الذي بدأ يوماً بمقولة (خلقتني من نار وخلقته من طين) ، تطور فيما بعد وقام بتصنيف الناس فمنهم الأشراف ومنهم الأراذل . والأشراف هم أصحاب الفضل . وشرط اعترافهم بالرسول أن يكون من الملائكة ويمتلك ما لا يمتلكون ، ثم تطور فقه الرفض فاعترف ببشرية الرسول على أيام صالح عليه السلام بشرط أن يكونوا جميعاً رسلاً . فبما أنهم يماثلون الرسول في بشريته فلا مانع من أن يَدَّعوا ما يدَّعيه ، ثم تطور هذا الفقه في عهد الفراعنة . فرفع فرد مهدت له ثقافة ، ليتحدث باسم آلهة الجوع والخوف والدجل والأهواء ، ثم تطور فيما بعد ليصبح داخل كل فرد فرعون صغير ! إنه عالم الأهواء ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

---

(٢١) المصدر السابق .

(٢٢) تاريخ مصر في عهد البطالمة/ وإبراهيم نصحي : ٢/٢٦ .

٢ ـ الفرعــون :

في عصر فرعون موسى كان بناء الشذوذ والانحراف قد اكتمل . ففرعون علا في الأرض يقول تعالى : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم** ﴾[٢٣] يقول المفسرون : العلو في الأرض كناية عن التجبر والاستكبار . ومحصل المعنى : أن فرعون علا في الأرض ، وتفوق فيها ببسط السلطة على الناس ، وإنفاذ القدرة فيهم ، وجعل أهلها شيعاً وفرقاً مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء وبذلك ضعف عامة قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته . وهو يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل ، وهم أولاد يعقوب عليه السلام وقد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف عليه السلام أباه وإخوته فسكنوها وتناسلوا بها[٢٤] .

فالذي رفع لافتة الحق الإلٰهي ، فرّق الناس حتى لا يجتمعون على كلمة . وفي عالم الإختلاف أسرف فرعون وتجاوز الحد في الظلم والتعذيب ، ولقد وصفه القرآن بأنه : ﴿ **كان عالياً من المسرفين** ﴾[٢٥] وأنه طغى[٢٦] وأنه أضل قومه وما هدى[٢٧] وأنه ذو الأوتاد[٢٨] الذي كان يتفنن في قتل ضحاياه ، وفرعون هذا الذي استكبر في الأرض ، كان هو المصدر الوحيد للتشريع ، فلقد أعلن على قومه إعلانه الهام ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾[٢٩] ﴿ **وقال فرعون يـٰأيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري** ﴾[٣٠] ووفقاً لهذا الإعلان ﴿ **قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد** ﴾[٣١] وقومه الذين اختلفوا فيما بينهم بعد أن

---

(٢٣) سورة القصص ، الآية : ٤ .
(٢٤) الميزان : ١٦/٨ .
(٢٥) سورة الدخان ، الآية : ٣١ .
(٢٦) سورة طه ، الآية : ٢٤ .
(٢٧) سورة طه ، الآية : ٧٩ .
(٢٨) سورة الفجر ، الآية : ١٠ .
(٢٩) سورة النازعات ، الآية : ٢٤ .
(٣٠) سورة القصص ، الآية : ٣٨ .
(٣١) سورة غافر ، الآية : ٢٩ .

فرقهم فرعون شيعاً وفرقاً مختلفة . لم يجتمعوا على شيء إلّا على فرعون ، لأنه ابن الإله الذي سينعمون معه في عالم الخلود تحت الأرض بعد أن تنتهي حياتهم ، فهم حسب عقيدتهم ما كانوا يؤمنون بالبعث والحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب بجنة أو نار . لهذا قال فيهم يوسف عليه السلام : ﴿ **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ (٣٢) فالقوم كانت لهم تصوراتهم الخاصة . وعندما بعث الله تعالى موسى عليه السلام إليهم أثبت للقوم كفرهم بالساعة وما يترتب عليها فقال تعالى : ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنَّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾(٣٣) فأخبر سبحانه أن الساعة آتية والجزاء واقعاً . وأمر سبحانه موسى عليه السلام أن لا يصرفه عن الإيمان بها وذكرها الذين اتبعوا أهواءهم . فصاروا يكفرون بها ويعرضون عن عبادة ربهم . وهؤلاء هم الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام .

لقد كان القوم يؤمنون بأنهم بعد الموت سيعيشون في عالم الخلود في رحاب (أوزير) الذي يحكم تحت الأرض . وعيشتهم الراخية هذه تتوقف على مدى طاعتهم للفرعون ابن الإله . ففرعون هو باب المعيشة الهنيئة بعد الموت . وأوزير ورع وآمون وطابورهما الطويل عندهم المستقر ، لهذا كانت القبور علامة مميزة لما يرتع داخل نفوسهم . فالقبر حياة في عقيدتهم وثقافتهم . . فرعون على بابه كابن للإله ، وبداخله يبدأ عالم الأموات فينال كل منهم نصيبه وفقاً لما أداه من خدمة للابن القابع على رقبة الأحياء(٣٤) . لهذا كله كان لا معنى للعقيدة المصرية القديمة بدون فرعون على رأسها ، فعدم وجود فرعون يعني ضياع العقيدة . لهذا حرص المصريين القدماء على وجود فرعون حتى في ظل الغزاة الأجانب عن مصر .

﴿ **قال فرعون ما أريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد** ﴾(٣٥) فما

---

(٣٢) سورة يوسف ، الآية : ٣٧ .
(٣٣) سورة طه ، الآيات : ١٤ - ١٦ .
(٣٤) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف . تحت الطبع .
(٣٥) سورة غافر ، الآية : ٢٩ .

كان من قومه إلّا أن ينظروا بعيونه ويسمعوا بآذانه ويحبون ويكرهون بقلبه . وعنهم يقول تعالى : ﴿ **فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يَقْدُمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾[٣٦] ووصف قوم فرعون في كتاب الله بأوصاف عديدة . يقول تعالى : ﴿ **إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[٣٧] وقال : ﴿ **إن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾[٣٨] وقال : ﴿ **فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾[٣٩] وسماهم : ﴿ **القوم الكافرين** ﴾[٤٠] والقوم الظالمين[٤١] .

ولأن فرعون تجري في عروقه دماء الآلهة ! والقوم من حوله يصنعون ويشيدون له ما يريد طمعاً في الخلد الدائم تحت الأرض . فما فقه التحقير والانتقاص تحت المظلة الفرعونية . فعندما جاءهم موسى وهارون عليهما السلام بالرسالة . ما وجد فرعون أي حرج في قومه وهو يعلن لهم ﴿ **ان رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون** ﴾[٤٢] ولم يجد حرجاً وهو على أريكة ملكه بين صفوة دولته بأن يتهم موسى عليه السلام ويقول ﴿**ساحر أو مجنون**﴾[٤٣] بل الأكثر من ذلك أن يسخر هو وقومه من معجزات موسى التي أيده الله بها . يقول تعالى : ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون** ﴾[٤٤] والخلاصة أن الفرعونية خرجت من تحت عباءة فقه التحقير والانتقاص من عباد الله . وما أراد الشيطان من هذه العقيدة وغيرها من العقائد الوثنية إلّا الابتعاد بالسواد الأعظم من الناس عن منابع الهدى ليحقق بذلك هدفه الأكبر ألا وهو : غواية الناس أجمعين إلّا من رحم الله . وعباده المخلصين . والفرعونية لها أشكالها . فلقد بدأت بصورة في بداية العصور

---

(٣٦) سورة هود ، الآيتان : ٩٧ ـ ٩٨ .

(٣٧) سورة النمل ، الآية : ١٢ ، سورة الزخرف ، الآية : ٥٤ ، سورة القصص ، الآية : ٣٢ .

(٣٨) سورة الدخان ، الآية : ٢٢ .

(٣٩) سورة يونس ، الآية : ٧٥ .

(٤٠) سورة يونس ، الآية : ٨٦ .

(٤١) سورة يونس ، الآية : ٨٥ ، سورة التحريم ، الآية : ١١ .

(٤٢) سورة الشعراء ، الآية : ٢٧ .

(٤٣) سورة الذاريات ، الآية : ٣٩ .

(٤٤) سورة الزخرف ، الآية : ٤٧ .

التاريخية (٣٢ق . م ـ ٢٧٨٠ق . م) وأضافت إلى الصورة . صورة أخرى في عصر الدولة القديمة (٢٧٨٠ ـ ٢٤٢٣ ق . م) وعبرت عصور الاضمحلال إلى الدولة الوسطى (٢١٦ ـ ١٧٧٨ق . م) بوجوه احتفظت جميعها بالأصل ، حتى جاء عصر الدولة الحديثة (١٥٧٥ ـ ٩٤٥ ق . م) وظهر فرعون موسى الذي هضم التجربة كلها وامتص كل ما هو أسوأ ولم يلتفت إلى رياح يوسف عليه السلام ومن بعده رياح أخناتون. ثم عبرت الفرعونية بعد عصر فرعون موسى إلى العصور الفرعونية المتأخرة (٩٤٥ ـ ٣٤٣ق . م) بوجه جديد ، استلمه الإسكندر وقذف به إلى عالم الفلاسفة ليصبح فرعون الحجر قديماً بيده قلم وقرطاس في عهد الإغريق[٤٥] .

ولما كانت للفرعونية وجوه تعود إلى أصل واحد ، وبما أن فرعون موسى هو التجسيد الحي للشذوذ الذي دونه آبائه في عالم الانحراف ، وهو المقدمة للذين جاؤوا من بعده وجلسوا على أريكة الظلم والإسراف والاستكبار ؛ فإن الله تعالى جعله وقومه أئمة يدعون إلى النار يقول تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾[٤٦] قال المفسرون : الدعوة إلى النار ، هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي ، ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار : تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون . وقوله تعالى : ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ فهم لكونهم أئمة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي ؛ لا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي من مقتديهم ومتبعيهم ، وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين ، فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم ، فالآية في معنى قوله تعالى : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾[٤٧] وقوله : ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾[٤٨] وتنكير اللعنة للدلالة على تفخيمها واستمرارها [٤٩] .

---

(٤٥) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف تحت الطبع .
(٤٦) سورة القصص ، الآيتان : ٤١ ـ ٤٢ .
(٤٧) سورة العنكبوت ، الآية : ١٣ .
(٤٨) سورة يس ، الآية : ١٢ .
(٤٩) الميزان : ١٦/٣٩ .

إن الإمام لم يكن رشيداً ، ولكنهم اتبعوه لأن هواه يوافق أهواءهم : **﴿ وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾**[٥٠] قال المفسرون : **﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾** الظاهر أن المراد بالأمر : ما هو أعم من القول والفعل ، كما قال سبحانه عن فرعون في قوله : **﴿ قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد ﴾**[٥١] فينطبق على السُّنّة والطريقة التي كان يتخذها ويأمر بها وكأن الآية محاذاة لقول فرعون هذا ، فكذبه الله تعالى بقوله : **﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾** والرشيد : فعيل من الرشد خلاف الغي ، أي : وما أمر فرعون بذي رشد حتى يهدي إلى الحق ، بل كان ذا غي وجهالة[٥٢] .

لقد كان فرعون إمام ضلال : **﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾** وكان فرعون وقومه : **﴿أئمة يدعون إلى النار﴾** فعلى القمة وعلى القاعدة أئمة يدعون إلى النار. إن الآمر جريمة والمنفذ جريمة . ولما كانت الفرعونية خطر على الجنس البشري ؛ ضرب الله تعالى رأسها ليكون في ضرب الرأس عبرة لمن خلفه سواء أكان في القمة أو في القاع . تماماً كما ضرب سبحانه عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ؛ فكل قوم من هؤلاء نسج خيامه من الشذوذ وأقامها في معسكر الانحراف ليصد عن سبيل الله ، فجعلهم الله عبرة . لأنه تعالى الرحمن الرحيم بعباده الذين في بطن الغيب ، فاستئصال الذين ظلموا . . يكون أمام أبناء المستقبل دليل ليحذروا من الوقوع فيما وقع فيه أبناء الماضي . واستئصال الذين ظلموا في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل هو لاتباع الصراط المستقيم في كل زمان ومكان دعوة للتمسك بالهدى لأن النجاة والفوز في رحابه .

* ٢ ـ مولود على أرض الفراعنة :

إن الله تعالى رحيم مع كل جيل ، وهو سبحانه يعلم ماذا يضمر الشيطان وأتباعه للصد عن سبيل الله . لهذا يقذف الله بالحق في كل مكان وزمان . ويقذف

---

(٥٠) سورة هود ، الآيات : ٩٧ ـ ٩٩ .
(٥١) سورة غافر ، الآية : ٢٩ .
(٥٢) الميزان : ١٠/٣٨٠ .

به في الماضي لتسري ذكراه مع كل حاضر . وعندما يأتي الزمان المقدر له ، يواجه أتباع الشيطان . الذين قذفوا بأوراق الشذوذ وثقافة الانحراف على امتداد الأيام ، من أجل إيجاد أجيال لهم في المستقبل تعتنق الشذوذ وتدافع عن الانحراف . ففي الوقت الذي كان أتباع الشيطان يمهدون بثقافة ابن الإله التي ركب عليها فرعون موسى . . كان يوسف عليه السلام يبشر بموسى الذي سيواجه قمة الإنتاج الفرعوني . فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : «لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته وأهل بيته ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم أخذ يحدثهم بشدة تنالهم ، يقتل فيها الرجال وتشق فيها بطون الحبالى وتذبح الأطفال ، حتى يظهر الله الحق في القائم من ولد لاوى بن يعقوب، وهو رجل أسمر طويل . ثم وصفه لهم بنعته . . . »[٥٣] .

وظل بنو إسرائيل يتعاهدون هذه الوصية ، وعندما طال الأمد . . استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ، ووافق خيارهم شرارهم فسلط الله عليهم القبط يعذبونهم[٥٤] . وفي زمان فرعون موسى تفنن في تعذيبهم وكان يستعبدهم وصنفهم في أعماله : فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ويزرعون ويغرسون ، وصنف يتولون الأعمال القذرة[٥٥] وليس معنى ذلك أن وصية يوسف بموسى قد ذهبت أدراج الرياح ، فمن بين بني إسرائيل مَنْ كان يحفظها عن ظهر قلب ، ويورثها لأبنائه جيلاً بعد جيل . وقد أثبتنا في كتابنا تاريخ الجوع والخوف في مصر ، أن إنطلاقة أخناتون كان فيها أثر من تعاليم يوسف ومن قبله إبراهيم عليهما السلام . فأخناتون كان باحثاً عن الحقيقة وكانت لا تربطه أي علاقة بأي وجه من وجوه الفرعونية المستكبرة المفسدة فبنو إسرائيل كانوا يحتفظون بالوصية ، وكان من بين المصريين من عشقها حتى اختلطت بلحمه ودمه كأخناتون وامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون ، وعندما شاع أمر هذه الوصية في عهد فرعون موسى ؛ تاجر بها كهان الدجل ، فنصبوا أنفسهم في مقام العالمين بأخبار الغيب . وهم لا يرون أبعد من أنافهم ، وعندما رأى فرعون في منامه أن ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتى دخلت بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط ولم تمس بني إسرائيل ، قال له

(٥٣) كتاب الأنباء : ٢٦٤ .

(٥٤) كتاب الأنباء : ٢٦٥ .

(٥٥) كتاب الأنباء : ٢٦٦ .

الكهنة : إنه يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدِّل ، وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه . ووفقاً لأطروحة الكهنة التي دثروها بخوفهم على فرعون ، ووفقاً لما كان يذكره بنو إسرائيل عن موسى الذي بَشَّرَ به يوسف ؛ أمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل ! وفي حديث الثعلبي : كان فرعون يقتل الغلمان الذين كانوا في وقته من بني إسرائيل . ومن يولد منهم بعد ذلك . ويعذب الحبالى حتى يضعن ما في بطونهم . . وعندما اعترى الناس الخوف والرعب ؛ دخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له : إن الموت وقع في بني إسرائيل وأنت تذبح صغارهم ويموت كبارهم . فيوشك أن يقع العمل علينا ، فأمر فرعون أن يقتل أطفالهم سنة ويتركهم سنة . فولد هارون في السنة التي لا يقتل فيها . وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها(٥٦) .

وعندما وضعت أم موسى ولدها موسى ، ونظرت إليه اغتمت كثيراً ، وتيقنت بأنه لا يبقى لها ، بل يقتلوه . ثم جاء الفرج يقول تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحَزَناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾(٥٧) قال المفسرون : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل . تحذراً من انهدام ملكهم وذهاب سلطانهم ، فقتلوا الجم الغفير من الأبناء ولا شأن لهم في ذلك ، وتركوا موسى حيث التقطوه وربوه في حجورهم ، وكان هو الذي بيده انقراض دولتهم وزوال ملكهم .

لقد فتح فرعون الصندوق وعندما وجد فيه صبياً قال : هذا من بني إسرائيل ! وهمَّ بقتله وعزم على إعدامه ولكن لما نظر إليه ، ألقى الله تعالى في قلبه محبته محبة شديدة ، وكذلك أحبته آسية زوج فرعون ومع ذلك فقلب فرعون أحس بالشر وأراد قتله . فقالت له زوجته : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وهم لا يشعرون أنه موسى ، وعندما التقطه آل فرعون ، حرَّم الله عليه

---

(٥٦) كتاب الأنباء : ٢٦٧ .

(٥٧) سورة القصص ، الآيتان : ٧ ـ ٨ .

المراضع ، فجعله لا يقبل ثدي مرضع . فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها ، حتي جاءت أخته ورأت الحال ـ وكانت أمه قد قالت لأخته حين ألقت به في النيل أنْ تتبَّع أثره ـ قالت لآل فرعون : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم وهم له ناصحون ؟ فاستمعوا لها بالقبول ، فدلتهم على أمه فسلموه إليها . كي تقر عينها .

ثم إن موسى شبَّ حتى أصبح رجلاً في بيت فرعون . وكان بارعاً باسلاً قوي البأس ، وافر القوة ذا عقل ورشد وكياسة حسن التصرف ، كبير النفس ، عالي الهمة ، بعيد النظر ، بطلاً شجاعاً مهيباً ، غريب في آرائه واختياره ، عجيب في مسلكه ومدخله ومخرجه ، وجميل في سياسته ومعاملة الناس ، ففيه نبوغ ظاهر وعلم باهر وخلق حسن ومروءة ولطف ودهاء ، إلى ما لا يوصف ولا مثيل له ، وقد جاء في الطبري : أنه من حينما شب موسى وقوي ، كف المصريون عن بني إسرائيل ، ومن الأمور البديهية أن يعرف فيه بنو إسرائيل الظهير والنصير لهم ، وأن يلجأ إليه المضطهد والمظلوم منهم ، ومع ذلك كله لم يخف عليه . من أنه دخيل في بيت فرعون . وأنه لو كشف أمره لظهر أنه من ذاك الشعب الذي يضطهده فرعون(٥٨) .

* ٣ ـ الفرار إلى مدين :

ذكر البيضاوي أن موسى مكث في آل فرعون ثلاثين سنة . وأنه خرج يوماً حينما كان في بيت فرعون على حين غفلة من أهل المدينة فوجد مصرياً يأخذ عبرانياً ليسخره في بعض عمله بغير رضى منه ، وهو يمتنع منه ، فلما رأى العبراني موسى استغاث به فجاء موسى إلى المصري ووكزه فقتله ، ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل العبراني الذي نصره موسى . وذكر الطبري أن المصريين لما عثروا على القتيل ، قالوا لفرعون : إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ! فقال لهم : أروني قاتله ومن يشهد عليه ، فحينئذ أخذ آل فرعون في الفحص عن خصمهم . وبينما هم يطوفون في سكك المدينة مستمرين في التجسس والتفتيش ، إذ مر موسى فوجد ذلك العبراني الذي كان سبباً في قتل

---

(٥٨) كتاب الأنباء : ٢٦٢ .

الفرعوني يقاتل فرعونياً آخر . فاستغاثه العبراني على الفرعوني . فخاطبه موسى قائلاً له : إنك لغوي مبين ، وعنى بالغوي العبراني ، لأنه أحرج موقف موسى وأصبح بسببه خائفاً من أن يظهر أمره وبعد القتل ظل موسى في المدينة ولم يرجع إلىٰ بلاط فرعون ، وعندما وبَّخ موسى العبراني ، ظن العبراني أن موسى إنما يريد أن يبطش به ، فقال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ! فعلم المصري عند ذلك أن موسى هو الذي قتل قتيل الأمس . فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر . فأتمروا بموسى وعزموا على قتله .

وأرسل فرعون في طلبه جماعة ممن أعدهم لمثل مهمته هذه ، فسبقهم مؤمن آل فرعون ، وأعلمه بما عزم عليه القوم وأنهم يريدونه ، ونصحه بأن ينجو بنفسه ، ويفارق بلاد مصر حتى لا تمتد أيديهم إليه بسوء . فحينذاك خرج منها خائفاً يترقب . يقول تعالى : ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين** ﴾(٥٩) .

وروي أنه عندما خرج من مصر خائفاً يترقب ، خرج بغير ظهر ولا دابة ولا خادم ، تخفضه أرض وترفعه أخرى حتى انتهى إلى أرض مدين ، وهناك التقى مع نبي الله شعيب ، وعندما قص عليه القصص ، قال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، وفي مدين تزوج موسى بإحدى بنات شعيب كما ذكرنا من قبل ، وقد ذكر البعض أن الشيخ الذي لقيه موسى في مدين لم يكن شعيب . وإنما كان أحد أتباع شعيب . وهذا ليس من الحقيقة في شيء ، لأن الذي اشتهر بين الأمم وأجمع عليه علماء المسلمين . هو زواج بنت شعيب من موسى بن عمران ومصاهرته له . وإن لم يصرح القرآن الكريم بذلك . وإن الثابت عن طريق أهل بيت محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو أن العلاقة الزوجية انما تحققت بين موسى وابنة النبي شعيب .

* ٤ ـ الوادي المقدس طوى :

روي أن موسى بعد أن قضى أتم الأجلين ، وسار بأهله منفصلاً عن أرض

---

(٥٩) سورة القصص ، الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ .

مدين يؤم مصر ومعه أغنمامه وامرأته . . انطلق سائراً في برية الشام ، عادلاً عن المدن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا في الشام ، فسار غير عارف بالطريق . حتى انتهى إلى جانب الطور الغربي الأيمن ، في عشية شتائية شديدة البرد وقد أظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر ، وبينما موسى يتأمل ما قرب وما بعد ، إذ آنس من جانب الطور ناراً ، فحسبه ناراً ، فقال لأهله : امكثوا إني آنست ناراً .

﴿ **وهل آتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** ﴾[٦٠] قال المفسرون : رأى ناراً ، فرأى أن يذهب إليها . فإن وجد عندها أحد سأله الطريق وإلّا أخذ قبساً من النار ليضرموا به ناراً فيصطلوا بها . وفي قوله : ﴿**قال لأهله امكثوا**﴾ إشعار بل دلالة على أنه كان مع أهله غيره . كما أن في قوله : ﴿ **إني آنست ناراً** ﴾ دلالة على أنه إنما رآها وحده وما كان يراها غيره من أهله . ويؤيد ذلك قوله أيضاً أولاً : ﴿ **إذ رأى ناراً** ﴾ .

﴿ **فلما آتاها نودي يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾[٦١] .

قال المفسرون : ولما سمع موسى عليه السلام قوله تعالى : ﴿ **يا موسى * إني أنا ربك** ﴾ فَهِمَ من ذلك فَهْمَ يقينٍ أن الذي يكلمه هو ربه . وفي قوله : ﴿ **نودي** ﴾ حيث طوى ذكر الفاعل ولم يقل : ناديناه أو ناداه الله : من اللطف ما لا يقدَّر بقدر . وفيه تلويح أن ظهور هذه الآية لموسى كان على سبيل المفاجأة . وقوله تعالى : ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾[٦٢] هذا هو الوحي الذي أمر عليه السلام بالاستماع له في إحدى عشر آية . تشتمل على النبوة والرسالة معاً ، أما النبوة ففي هذه الآية والآيتين بعده ، وأما الرسالة فتأخذ من

---

(٦٠) سورة طه ، الآيتان : ٩ ـ ١٠ .

(٦١) سورة طه ، الآيات : ١١ ـ ١٦ .

(٦٢) سورة الشورى ، الآية : ٥١ .

قوله : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾ وتنتهي في قوله : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ وقد نص تعالى أن موسى كان رسولاً نبياً معاً في قوله : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً** ﴾[٦٣] . وقد ذكر في الآيات الثلاث المشتملة على النبوة الركنان معاً . وهما ركن الاعتقاد وركن العمل . وأصول الاعتقاد ثلاثة : التوحيد والنبوة والمعاد . وقد ذكر منها التوحيد والمعاد . وطوى عن النبوة ، لأن الكلام مع النبي نفسه . وأما ركن العمل . فقد لخص على ما فيه من التفصيل في كلمة واحدة هي قوله : ﴿ **فاعبدني** ﴾ فتمت بذلك أصول الدين وفروعه في ثلاث آيات[٦٤] وبعد أن أوحى سبحانه إلى موسى من أمر الساعة ما أوحى ، وما ذكرناه من قبل من أن قدماء المصريين كانوا لا يؤمنون بالبعث بمفهومه الحقيقي ؛ بدأت الرسالة . قال تعالى : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ .

قال المفسرون : أمر سبحانه موسى أن يلقي عصاه ، فلما ألقى العصا صارت حية تتحرك بجد وجلادة ، وذلك أمر غير مترقب من جماد لا حياة له ، وهو قوله : ﴿ **فألقاها فإذا هي حية تسعى** ﴾ وقد عبر تعالى عن سعيها في موضع آخر بقوله : ﴿ **رآها تهتز كأنها جان** ﴾[٦٥] وعبر عن الحية في موضع آخر لقوله : ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين** ﴾[٦٦] ثم أمره سبحانه أن يجمع يده تحت إبطه ، أي يدخلها في جيبه تخرج بيضاء .

وبعد أن شاهد موسى آيات الله ، وأُمر بالذهاب إلى فرعون ﴿ **قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله**

---

(٦٣) سورة مريم ، الآية : ٥١ .
(٦٤) الميزان : ١٤٠/١٤ .
(٦٥) سورة القصص ، الآية : ٣١ .
(٦٦) سورة الأعراف ، الآية : ١٠٧ .

معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾[٦٧] قال المفسرون : أشار عليه السلام إلى قتله القبطي بالوكز ، وكان يخاف أن يقتلوه قصاصاً ، ثم قال عليه السلام : إن أخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معيناً لي يبين صدقي في دعواي إذا خاصموني ، إني أخاف أن يكذبون فلا أستطيع بيان صدق دعواي ، وكان في لسانه عليه السلام لكنة ، فخاف أن تكون هذه اللكنة عائقاً في بيان حجته وبيان ذلك في موضع آخر من كتاب الله ﴿ **قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون** ﴾[٦٨] وبعد أن سأل موسى ربه أجاب سبحانه أدعيته جميعاً : ﴿ **قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾[٦٩] .

قال المفسرون : شد عضده بأخيه . كناية عن تقويته به . وعدم الوصول إليهما كناية من عدم التسلط عليهما بالقتل ونحوه ، كأن الطائفتين يتسابقان ، وإحداهما متقدمة دائماً والأخرى لا تدركهم بالوصول إليهم ، فضلاً عن أن يسبقوهم لقد عجزت عاد قوم هود الذين دونوا فقه من أشد منا قوة ! عجزت عن أن تكيد لهود بقتل أو بغيره . وها هي دولة الفراعنة تواجه نفس الموقف ؛ ففرعون ذو الأوتاد ، صاحب الجنود والأحجار ، الذي استكبر في الأرض مضروب عليه وعلى قوته ، فلن يستطيع أن يمس موسى وهارون عليهما السلام بأي أذى ، وإذا كان قد قال يوماً لمن حوله : ﴿ **ذروني أقتل موسى** ﴾ فإن هذا القول يدل في المقام الأول على العجز ، فمنذ متى وفرعون يستأذن في قتل إنسان ؟ إنه قال (ذروني أقتل موسى) لأنه مقيد بقانون ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ ، وبعد أن أجاب الله سؤال موسى أمر بالذهاب إلى فرعون وأن يقولا له قولاً ليناً وقال تعالى : ﴿ **فاتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾[٧٠] قال المفسرون : في سياق الآيات استهانة بأمر فرعون . وبما تزيَّن به من زخارف الدنيا ، وتظاهر به من الكبر والخيلاء ما لا يخفى . فقد قيل :

---

(٦٧) سورة القصص ، الآيتان : ٣٣ ـ ٣٤ .
(٦٨) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٢ ـ ١٣ .
(٦٩) سورة القصص ، الآية : ٣٥ .
(٧٠) سورة طه ، الآيتان : ٤٧ ـ ٤٨ .

﴿ **فاتياه** ﴾ ولم يقل : اذهبا إليه . وإتيان الشيء أقرب مساساً به من الذهاب إليه . ولم يكن إتيان فرعون وهو ملك مصر بذاك السهل الميسور . وقيل : ﴿ **فقولا** ﴾ ولم يقل : فقولا له . كأنه لا يعتني به . وقيل : ﴿ **إنا رسولا ربك** ﴾ و ﴿ **بآية من ربك** ﴾ فقرع سمعه مرتين بأن له رباً وهو الذي كان ينادي بقوله : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ وقيل : ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ ولم يورد بالخطاب إليه . ونظيره قوله : ﴿ **إن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ من غير خطاب . . . وليس في ذلك خشونة في الكلام . وخروج عن لين القول الذي أمر به أولاً . لأن ذلك حق القول الذي لا مناص من قرعه سمع فرعون . من غير تملق ولا احتشام وتأثر من ظاهر سلطانه الباطل وعزته الكاذبة(٧١) .

* ٥ ـ النبي في مواجهة الانحراف :

رويٍ أن موسى عليه السلام بعد أن كلمه الله تعالى في الوادي المقدس ، توجه سائراً ومعه أهله ومواشيه إلى مصر ودخلها ليلاً . ونزل في دار أهله التي فيها أمه وأخوه وبقية أهله وقد كان أخوه هارون قد استقبله وتلقاه عند شاطىء النيل وعلم بإعلام الله له ، وعندما نزل في دار أهله كان لملاقاتهم له واجتماعهم به بعد تلك الغيبة الدهشة والسرور العظيم الباهر خصوصا لأمه الطاهرة . وقد أخبرهم بأمره ومجمل ما حلًّ به ، وروي أن موسى عندما ذهب إلى فرعون . أتى بابه فاستأذن عليه . فلم يأذن له . فضرب بعصاه الباب فاصطكت الأبواب منفتحة ثم دخل على فرعون فأخبره أنه رسول رب العالمين وسأله أن يرسل معه بني إسرائيل . وكان خطاب موسى لفرعون خطاب رفق ولطف ولين مع كمال الصبر في تبليغه(٧٢) .

لقد قام موسى عليه السلام بإبلاغ الرسالة إلى فرعون في المقام الأول ، وفرعون إذا كان يحكم مصر وحده كما هو ظاهر ، إلّا أنه له أعوان يمهدون له كل طريق للظلم ويرفعون له كل كراسي الاستكبار ، وإذا كان فرعون في مرتبة ، وهم في مرتبة أخرى . إلّا أن الجميع مجموعة عمل واحدة ، وحزمة واحدة على طريق

---

(٧١) الميزان : ١٤/١٥٨ .
(٧٢) كتاب الأنباء : ٢٨٥ .

الشذوذ والانحراف . ومجموعة عمل الفرعون تتمثل في هامان الكاهن الأكبر وجنوده من الكهان الذين ينتشرون في معابد آمون والمعابد الأخرى الخاضعة لمذهب الدولة ، وهامان كان عبداً مملوكاً لفرعون ونظراً لإخلاصه إلى فرعون وشدة ملازمته له أصبح مستشاره ونديمه وشريكه في جميع أموره(٧٣) . لذا وضعه على رأس المعابد لأن المعابد كانت المصدر الوحيد للدوخة الدينية التي يعيشها الشعب ، ومهمة الدوخة الدينية كانت ربط الناس بفرعون . وكانت المعابد تملك أخصب الأراضي ولها تجارتها وصناعتها وجنودها . باختصار كانت دولة داخل الدولة وعليها يعتمد فرعون(٧٤) أما الشخصية الثانية في مجموعة العمل الفرعونية فهو قارون ، وقارون هو الشخص الذي يقف وراء السلطة بالمال . وهو أيضاً أهم عيون فرعون على بني إسرائيل ، فقارون كان على عِلم بالكيمياء التي تتعلق بانتاج الذهب وعلى علم بالتجارة وسائر المكاسب ، وبما أنه من بني إسرائيل ، جعله فرعون أميراً على بني إسرائيل(٧٥) فالشخصية الكانزة هي نفسها الشخصية المتسلطة . وهذا وذاك يصب في آمال فرعون ويتجه نحو أهدافه . لهذا توجه موسى عليه السلام برسالته إلى مجموعة العمل التي تعمل من أجل التوثين والصد عن سبيل الله . فالرسالة تخاطب فرعون كممثل للجميع لأنه إذا آمن بموسى وما يدعو إليه . آمن الناس كلهم لأنهم جميعاً تبع له ، ولقد كان موسى عليه السلام شديد الرغبة في إيمان فرعون ليس من أجل فرعون ، ولكن لأن إيمانه يعني أنه لن يبقى أحد في مصر إلّا آمن بالله العلي العظيم . فالأمم من قبل كانت تجادل رسلها . أما في هذه الحالة ، فلا قول إلّا قول فرعون . لهذا توجهت الرسالة في مقدمتها الأولى إلى فرعون . ثم إلى باقي أفراد مجموعة العمل كي يقيم الله تعالى عليهم الحجة ليوم يأتي فيه الناس فرادى يقول تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب** ﴾(٧٦) ويقول تعالى : ﴿ **وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات**

---

(٧٣) كتاب الأنباء : ٢٨٦ .

(٧٤) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف/ تحت الطبع .

(٧٥) كتاب الأنباء : ٣٤٧ .

(٧٦) سورة غافر ، الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤ .

فاستكبروا في الأرض . . . ﴾[77] .

إنها مجموعة عمل واحدة جمعت بين السلطة والفتوى والمال ، وتوجهت لتطحن الفطرة ، وتصد عن سبيل الله رب العالمين ؛ وعندما دخل موسى إلى فرعون وأخبره بأنه رسول رب العالمين وطالبه بأن يرسل معه بني إسرائيل ، قال له فرعون : ﴿ **ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين** ﴾[78] قال المفسرون : مراده الاعتراض عليه أولاً من جهة دعواه الرسالة والمعنى : أنت الذي ربيناك وأنت وليد ، ولبثت فينا من عمرك سنين عديدة ، نعرفك باسمك ونعتك ، ولم ننس شيئاً من أحوالك ، فمن أين لك هذه الرسالة وأنت مَنْ نعرفك ولا نجهل أصلك ؟ ثم تطرق إلى قتله عليه السلام للقبطي ، فقال : ولقد فعلت فعلتك وأفسدت في الأرض بقتل النفس ، فكفرت بنعمتي وأنت من عبيدي العبرانيين ، فمن أين جاءتك الرسالة ؟ وكيف تكون رسولاً وأنت هذا الذي نعرفك ونعرف فعلتك[79] فأجاب موسى عليه السلام : ﴿ **قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين * وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل** ﴾[80] .

قال المفسرون : الآيات الثلاث : جواب موسى عليه السلام عما اعترض به فرعون ، وبالنظر إلى جوابه عليه السلام وما اعترض به فرعون . نتبين أنه عليه السلام حلل كلام فرعون إلى القدح في دعواه الرسالة من ثلاثة أوجه :

أحدهما : استغراب رسالته واستبعادها ، وهو الذي يعلم حاله وقد أشار إليه بقوله : ﴿ **ألم نربك فينا وليداً . . .** ﴾ .

والثاني : استقباح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله : ﴿ **وفعلت فعلتك التي فعلت** ﴾ .

---

(٧٧) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٩ .
(٧٨) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٨ ـ ١٩ .
(٧٩) الميزان : ١٥/٢٦١ .
(٨٠) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٠ ـ ٢٢ .

والثالث : المن عليه . بأنه من عبيده ويستفاد ذلك من قولـه : ﴿ **وأنت من الكافرين** ﴾ وبدأ عليه السـلام يجيب ، فغير التـرتيب في الجواب ، فـأجاب أولاً عن اعتراضه الثاني . وهو القتل لأن فرعون يعلق عليه آمال وينسج من أجله كيد . ثم أجـاب عن الاعتـراض الأول ثم عن الثـالث . فقـولـه : ﴿ **فعلتهـا إذاً وأنـا من الضـالين** ﴾ جواب عن اعتـراضه بقتـل القبطي . والمـراد : أني فعلتهـا حينئـذٍ . والحال أني في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه ، والحق الذي يجب أن يتبع هنـاك ، فـأقـدمت على الـدفـاع عمن استنصـرني . ولم أعلم انـه يؤدي إلى قتـل الرجل . ويؤدي ذلك إلى عاقبة وخيمة ، تحـوجني إلى خروجي من مصـر وفراري إلى مدين والتغرب عن الوطن سنين .

ثم بين عليه السلام أن فراره من مصر كان لخوفه منهم ، حيث أصبح المـلأ لا شاغل لهم إلّا الفتك به ، كما أخبر الله في سـورة القصص : ﴿ **وجاء رجـل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بـك ليقتلوك فاخـرج . . .** ﴾ ثم أجـاب عليـه السـلام عن اعتـراض فـرعـون الأول ، وهـو استغـراب رسـالتـه واستبعادها وهم يعرفونه فقال : ﴿ **فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين** ﴾ فبين أن استغـرابهم واستبعادهم رسـالته استنـاداً إلى سابق معـرفتهم بحالـه ، إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمراً اكتسابياً ، يمكن أن يتوقع حصـوله بحصـول مقدمـاته الاختيارية ، وليس الأمر كذلـك ، بل هي أمـر وهبي ، لا تأثيـر للأسبـاب العاديـة فيهـا ، وقد جعله الله من المـرسلين ، كما وهب لـه الحكم بغيـر اكتسـاب . أمـا اعتراض فرعون الثالث . حيث قام فيه بتقريع مـوسى على اعتباره من عبيـده فكان جوابه : ﴿ **وتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل** ﴾ أي أن هذا الـذي تعده نعمة ، وتقرعني بكفرانها ، سلطة ظلم وتغلُّب ، إذ عبّدت بني إسرائيل ، والتعبيد ظلماً وتغلباً ، ليس من النعمة في شيء[٨١] .

١ ـ الحجـج الدامغـة :

﴿ **قال فرعون وما رب العالمين** ﴾[٨٢] . قال المفسرون : لما كلّم فـرعون

(٨١) الميزان : ١٥/٢٦٥ .

(٨٢) سورة الشعراء ، الآية : ٢٣ .

موسى عليه السلام في معنى رسالته قادحاً فيها ، فتلقى الجواب بما كان فيه إفحامه ، أخذ يكلمه في خصوص مرسله فاستوضحه : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ ؟ فجاءته الإجابة : ﴿ **قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾[٨٣] وكانت هذه صفعة للعقيدة المصرية القديمة . فالقوم كانوا يعتبرون (أوزير) إلٰهاً للموتى وأيضاً للخصب ، و (رع) إلٰهاً في السماء ! وكل مذهب وكل فرقة قامت بتقسيم آلهتها في السماء والأرض وما بينهما . لهذا كانت إجابة موسى ، كفأس إبراهيم عليه السلام التي أطاحت برقاب الأوثان في معامل الانحراف ، لقد سأل فرعون عن رب العالمين ، فوضع موسى ﴿ **السماوات والأرض وما بينهما** ﴾ مكان العالمين ثم قال : ﴿ **ان كنتم موقنين** ﴾ أي أن رب العالمين هو الذي يوقن الموقنون بربوبيته لجميع السماوات والأرض وما بينهما . إذا نظروا إليها وشاهدوا وحدة التدبير الذي فيها .

وأمام هذه الصفعة التي أطاحت بعقائد الفراعنة التي سهروا من أجلها قرون طويلة نظر فرعون إلى من حوله ﴿ **قال لمن حول ألا تستمعون** ﴾[٨٤] ؟ قال المفسرون : أي ألا تصغون إلى ما يقوله موسى ؟ والاستفهام للتعجب ، يريد أن يصغوا إليه فيتعجبوا من قوله . . وعندما لفت فرعون أنظار مجموعة عمله إلى ما يقوله موسى ، جاءه الجواب مرة ثانية من موسى : ﴿ **قال ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾[٨٥] والفراعنة على امتداد تاريخهم لم يتفقوا على معبود واحد . فطبقة منهم عبدت قديماً الإله (حور) في بداية الأسرات ، ثم انعقدت العبادة للإله (رع) منذ أواسط الدولة القديمة ، ثم انتقلت الرئاسة للإله (آمون) في الدولة الوسطى . ثم (آمون رع) في بداية الدولة الحديثة التي كان من أهم رموزها فرعون موسى[٨٦] لهذا جاء جواب موسى عليه السلام ، جواباً ناسفاً للبداية والنهاية معاً . لقد أجاب أنه ليس في الوجود إلّا رب واحد للإنسانية وهو رب العالمين الذي أرسلني إليكم ، وأمام حجج التحطيم التي يقذف بها موسى عليه

---

(٨٣) سورة الشعراء ، الآية : ٢٤ .

(٨٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٥ .

(٨٥) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .

(٨٦) تاريخ الجوع والخوف / للمؤلف .

السلام بدأ فرعون يحرك أنيابه ﴿ **قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون** ﴾[٨٧] قال المفسرون : سمى فرعون موسى رسولاً تهكماً واستهزاءً ، وأضافه إلى مَنْ حوله ، ترفعاً من أن يكون رسولاً إليه ، وقد رماه بالجنون مستنداً إلى قوله عليه السلام : ﴿ **ربكم ورب آبائكم** ﴾ .

وعندما اتهم فرعون موسى عليه السلام بالجنون ، قذف موسى إليه بحجة قاصمة ، أطاحت بعقيدة (أوزير) رب الموتى وبعقيدة (رع) أما عقيدة رب الموتى فكان المصريون القدماء يقيمون معظم أبواب مقابرهم في اتجاه الغرب ظناً منهم أن هذا الاتجاه منه يدخل الإله ويمنح الخلود للميت ! وأما عقيدة (رع) فكانوا يعتقدون بأن (رع) هو رب الأرباب ويعني قرص الشمس ، فالشمس عندما تشرق في الصباح تخرج من عند الإله (خبر) وعند الظهيرة تكتمل باسم الإله (رع) وعند النهاية تذهب باسم الإله (آتوم) ! باختصار كان للشمس وشروقها وغروبها فقه طويل كل اتجاه فيه له إله ، وهذا الإله له صنم على الأرض تحل الروح فيه ويتقرب إليه الناس ويدعي الفراعنة أنهم أبناؤه ، فقام موسى عليه السلام بنسف هذه الاعتقادات من أصولها ، فقال لفرعون وهو يحدثه عن رب العالمين : ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾[٨٨] وقوله : ﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ فيه تعريض لفرعون . مقابل استهزائه له عندما قال لمن حوله : ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ ثم عندما رماه بالجنون ، فقوله : ﴿ **ان كنتم تعقلون** ﴾ إشارة إلى أنهم هم المحرومون من نعمة التعقل والتفقه . إن ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما** ﴾ تقرير لما جاء في الجواب الأول ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما** ﴾ وأنه برهان على وحدة المدبر من طريق وحدة التدبير . وفي ذلك تعريف لرب العالمين . بأنه المدبر الواحد الذي يدل عليه التدبير الواحد في جميع العالمين . وعندما أفحم موسى عليه السلام فرعون ، لم يجد الطاغية إلا أسلوب السلطة والقهر ﴿ **قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾[٨٩] قال المفسرون : والمعنى : لو دمت على ما تقول لأجعلنك

---

(٨٧) سورة الشعراء ، الآية : ٢٧ .

(٨٨) سورة الشعراء ، الآية : ٢٨ .

(٨٩) سورة الشعراء ، الآية : ٢٩ .

في زمرة الذين في سجني . على ما تعلم من سوء حالهم وشدة عذابهم .

ونسف عقيدة القوم وردت أيضاً في سورة طه . فلقد سأل فرعون عن القرون الأولى . حيث آبائه الأولين فكان جواب موسى عليه السلام ناسفاً لجملة عقائدهم ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهي * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾(٩٠) .

لقد كان فرعون يعيش في وهم أن دماء الآلهة تجري في عروقه ، وبما أنه ابناً للإله ! فهو يباشر جميع سلطات هذا الإله ! بمعنى أنه الصورة الظاهرة للإلٰه الخفي الذي يعبده حزبه ! ومن المعروف أن إلٰه الفرعون الحاكم تكون له الهيمنة على جميع آلهة مصر ، وعلى هذا فهو عندما يقول : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ يسري حكمه على أتباع مذهبه ، وعلى أتباع بقية المذاهب لانعقاد الهيمنة لممثل الإلٰه الذي يحكم ، وتحت رداء الحاكم كان يوجد أرباب أخرى متعددة في الأقاليم ، فهذا رب للفيضان وهذا رب للحكمة وآخر للخضرة والنماء ، وكل هذه الأرباب يقرها فرعون لأن ما يقدم إليها من قرابين ونذور يعود عليه بالنفع قبل غيره . وعندما أخبره موسى وهارون بأنهما رسولا رب العالمين . قال : ﴿ **فمن ربكما** ﴾ ظناً منه أنهما يعبدان رباً من أرباب القوم أو رباً من أرباب الممالك المجاورة . فإذا كانا يعبدان رباً من أرباب مصر ، فلفرعون الهيمنة على جميع الأرباب فيها . والشعب يعلم بأن طريقته هي الطريقة المثلى ولن يترك لموسى أدنى فرصة لأن يذره وآلهته . وإذا كانا يعبدان رباً من أرباب الممالك المجاورة كان القتل أو السجن أو الطرد من نصيبهما ، ولكن إجابة موسى عليه السلام جاءت على غير ما يتوقع فرعون ﴿ **قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ لقد سأل : من ربكما ؟ فكان من الحري أن يجاب بأن ربنا هو رب العالمين ، ليشملهما وإياه وغيرهم جميعاً ، ولكن الإجابة جاءت بما هو أبلغ من ذلك فقيل : ﴿**ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ أي بأنه رب كل شيء ، لا رب غيره ، فإن خلقه الأشياء

---

(٩٠) سورة طه ، الآيات : ٤٩ ـ ٥٥ .

وايجاده لها ، يستلزم ملكه لوجودها وملك تدبير أمرها ، وعندما سأله فرعون عن القرون الأولى أجاب بأنها معلومة لله محفوظة عنده في كتاب . لا يتطرق إليه خطأ ولا تغيير ولا غيبة وزوال ، ثم بدأ عليه السلام في نسف أرباب النماء والفيضان والنيل وغير ذلك فقال : إن ربه هو الذي ﴿ **جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً شتى** ﴾ أي أن الله تعالى أقر الإنسان في الأرض يحيا فيها حياة أرضية ليتخذ منها زاداً لحياته العلوية في الآخرة . وجعل للإنسان فيها سبلاً ، ليتنبه بذلك ، ان بينه وبين غايته ، وهي التقرب لله سبحانه سبيلاً يجب أن يسلكها كما يسلك السبل الأرضية لمآربه الحيوية ، وأنزل من السماء ماءً وهو ماء الأمطار ومنه مياه عيون الأرض وأنهارها وبحارها ، فأنبت منه أزواجاً أي أنواعاً وأصنافاً متقاربة من نبات يهديكم إلى مالكها ففي ذلك آيات تدل أرباب العقول إلى هدايته وربوبيته تعالى . ثم تطرق إلى قضية رئيسية أخرى . ألا وهي قضية البعث فقال إن ربه هو الذي بدأ خلق الإنسان من الأرض ثم يعيده فيها ، ثم يخرجه منها للرجوع إليه .

٢ ـ الاستكبار والمعجزة :

استمع فرعون ، لكنه تمادى في دفعه وصده ، ورأى عظيماً عليه أن يلبي دعوة موسى ويتبع دينه . ويخلع عبادة الأوثان والربوبية عن نفسه . استمع الطاغوت الأكبر ، لكنه لم يتدبر وقام بتحريك مخالبه وأنيابه ، بعد أن هدم له موسى قوائم الظلم التي بدأت قديماً من القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد هدم له قوائم خور وحتحور وبتاح وأوزير ورع وآمون وعجل أبيس ، تلك القوائم التي انطلق بها الكهنة ووضعوها حول الرؤوس ليعيش الشعب في دوخة دينية فتركوا الحياة كلها لفرعون وتفرغوا للنهل من ثقافة القبور . أكلمه في حياة عادلة بعد الموت ، ولكن هيهات هيهات . فأي عدل هذا الذي يقف فرعون على بابه ، لقد استمع فرعون ، فتحركت مخالبه من أجل الدفاع عن دماء الآلهة التي تجري في عروق البشر الذين يحكمون الناس ، ومن أجل الدفاع عن تراث عميق ودفين دوّنه الآباء . ﴿ **قال لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾[٩١] هكذا لوّح

---

(٩١) سورة الشعراء ، الآية : ٢٩ .

فرعون بالقضبان ، ﴿ **وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيقٌ عَليَّ أن لا أقول على الله إلاّ الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين** ﴾[٩٢] قال المفسرون : أي أنا حَرِيٌّ بأن أقول الحق ولا أنسب إلى الله في رسالتي منه إليك شيئاً من الباطل ، ثم أخبره أن معه بينة من ربّه وحجة قاطعة على صدق ما جاءهم به وأمره أن يطلق بني إسرائيل من أسره وقهره وأن يدعهم ليعبدوا الله ربّه وربّهم ، فقال له فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنتَ صادقاً فيما ادعيت[٩٣] .

﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾[٩٤] .

لقد جاء إليهم بجنس ما عندهم وبجنس ما يحبون . فالقوم كانوا عباقرة في السحر . وروي أن فرعون وهامان هما من أمهر السحرة سحراً ، وتغلبا على الناس بالسحر[٩٥] ، وكشفت البرديات أن مجلس التاسوع ومن بعده مجلس الثلاثين كان يزاول السحر على أوسع نطاق وكانوا يقتحمون عقول القوم بالأساطير المدعمة بالأمور السحرية لتصبح فيما بعد عقائد يدافع الناس عنها[٩٦] فالعصا معجزة تخضع لها أعناق السحرة ، أما اليد البيضاء ، فإن القوم كانوا يعتبرون الشمس (رع) رب الأرباب ورب العالمين ، وكان لشروقها وغروبها فقه طويل عريض ، فجاءت معجزة اليد البيضاء ، وقال صاحب الميزان : والأخبار التي وردت فيها أن يده عليه السلام كانت تضيء كالشمس الطالعة . والآيات الكريمة لا تقص أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين ، إلاّ أن كونها آية معجزة ، تدل على أنها كانت تبيض ابيضاضاً لا يشك الناظرون في أنها حالة خارقة للعادة[٩٧] لقد كانت

---

(٩٢) سورة الأعراف ، الآيات : ١٠٤ ـ ١٠٦ .
(٩٣) ابن كثير : ٢/٢٣٦ .
(٩٤) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٠٧ ـ ١٠٨ .
(٩٥) كتاب الأنبياء : ٢٨٦ .
(٩٦) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف تحت الطبع .
(٩٧) الميزان : ٨/٢١٣ .

معجزة اليد البيضاء التي تضيء كالشمس الطالعة آية لغير السحرة وللسحرة في نفس الوقت ، آية تضرب عقيدة عبادة الشمس التي تفنن قدماء المصريين في التقرب إليها ، فالشمس هي محور الارتكاز (رع) الإلـه الأكبر الذي نسب الفرعون خفرع نفسه إليه . بعد أن جَسَّدوا لها صنماً على الأرض وقالوا إن روح (رع) قد حلت به . والقوم لهم في كل حركة للشمس رباً وهذا الرب له صنم على الأرض . فالشمس تخرج في الصباح باسم الإلـه (خبر) وتشتد باسم الإلـه (رع) وتبلغ النهاية باسم الإله (آتوم) وهناك فرق وشيع أطلقوا أسماء أخرى على هذه الحركة ، وكل فرعون يأتي من طائفة يدعي أنه ابن للإله الذي تلتف حوله هذه الطائفة ويحكم ويبني المعابد باسمه ! وعندما جاء إليهم موسى عليه السلام فتح يده أمامهم ليروا ضوءاً كثيراً فأشغلهم مثله . فماذا قال فقهاء الشمس وعباقرة السحر عندما شاهدوا الاعجاز ؟ لقد ملأهم الرعب عندما شاهدوا آية العصا ، وأخذتهم الدهشة عندما شاهدوا آية اليد البيضاء ، لكنهم هدأوا بعد ذلك ، ونسبوا ما شاهدوه إلى السحر ! يقول تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب** ﴾(٩٨) كان هذا قرار مجموعة العمل ، ثم قام فرعون بإسناد تهمة جديدة إلى موسى لتكون ورقة في يده لتحريك الجماهير ضد موسى ﴿ **قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** ﴾(٩٩) قال المفسرون : اتُهم موسى **أولاً** : بالسحر ، لئلا يلزمه الاعتراف بصدق ما جاء به من الآيات المعجزة وحقية دعوته .

وثانياً : بأنه يريد إخراج المصريين من أرض مصر ! وهي تهمة سياسية ، يريد بها صرف الناس عنه ، وإثارة أفكارهم عليه . . بأنه عدوهم يريد أن يطردهم من بيئتهم ووطنهم بمكيدته ! ولا حياة لمن لا بيئة له(١٠٠) .

وما أن ألقى فرعون ببيان اتهام موسى بالسحر وبأنه يريد إخراج المصريين من مصر . . حتى التقط أشراف القوم البيان ورددوه كما أذيع ﴿ **قال للملإ حوله إنّ**

---

(٩٨) سورة غافر ، الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤ .
(٩٩) سورة طه ، الآية : ٥٧ .
(١٠٠) الميزان : ١٤/١٧٢ .

هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾[١٠١] وبعد أن قال الملأ الذين حول فرعون ما قاله فرعون حرفياً ، قال لهم موسى : **﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾**[١٠٢] قال المفسرون : المراد بالحق هو الآية الحقة كالثعبان واليد البيضاء . ولقد أنكر موسى عليه السلام مقالتهم برميهم الحق بأنه سحر ، وقال فرعون وملؤه لموسى : **﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾** وتصرفنا **﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾** يريدون سُنَّة قدمائهم وطريقتهم **﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾** يعنون الرئاسة والحكومة وانبساط القدرة ونفوذ الإرادة[١٠٣] إن زادهم في إناء الآباء ، وحرفتهم هي الحكم . يدافعون عن الحكم بطرح أوراق التراث التي في إناء الآباء ، وهم يطرحون أوراق التراث من أجل إلهاب مشاعر الجماهير ليدافعوا عن الحكم ! فيحافظون بذلك على مصالحهم ويحافظون بذلك على الانحراف والشذوذ ، والخاسر الوحيد في هذه القضية هم الجماهير الذين كفنوا الحاضر ليضعوه في توابيت المستقبل ! والحياة من حولهم تناديهم أن رب العالمين هو خالق الكون ، لكنهم لم يسمعوا نداء الحياة لأنهم لا يروا معالمها ، فهم ينظرون بعيون فرعون ويفكرون بعقله . . يقول تعالى : **﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلّا سحر مفترى وماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين * وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومَنْ تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾**[١٠٤] .

قال المفسرون : عندما شاهدوا المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدق موسى وهارون ، وأيقنوا أنها من عند الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة . وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا : **﴿ ما هذا إلّا سحر مفترى ﴾** أي مفتعل مصنوع[١٠٥] وأن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن

---

(١٠١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٣٤ ـ ٣٥ .

(١٠٢) سورة يونس ، الآيتان : ٧٧ ـ ٧٨ .

(١٠٣) الميزان : ١٠٩/١٠ ، ابن كثير : ٤٢٦/٢ .

(١٠٤) سورة القصص ، الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .

(١٠٥) ابن كثير : ٣٨٩/٣ .

آبائنا الأولين انهم اتخذوه في وقت من الأوقات(١٠٦) هكذا ردوا كل شيء إلى إناء الآباء ، على الرغم من مشاهدتهم للدلالة القاطعة التي تدعوهم إلى الحياة الكريمة الشريفة ، وعندما قالوا : ﴿ **ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾ كان جواب موسى مبنياً على التحدي ﴿ **وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار** ﴾ قال المفسرون : كأنه يقول : إن ربي ـ وهو رب العالمين له الخلق والأمر ـ هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار . وهو الذي أرسلني رسولاً بديني التوحيد ووعدني أن مَنْ أخذ بدني فله عاقبة الدار ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ وفي هذا تعريض لفرعون وقومه ، وفيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار ، فإنهم بنوا سُنَّة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني(١٠٧) .

والخلاصة : عرض موسى عليه السلام معجزاته ، ولكن مجموعة العمل رفضت الهدى ، ووفقاً لهذا رفض القوم ما رآه فرعون غير صالح لهم ، واتبعوا أمر الطاغية ، وما أمر فرعون برشيد ، ﴿ **وأضل فرعون قومه وما هدى** ﴾(١٠٨) لقد تكاتفوا حول عقيدة الشمس التي دَوَّنها آباء الضلال ، في الوقت الذي كان فيه نور أبيض يسطع في يد موسى يدعوهم إلى الهدى ، لكنهم تعاموا عنه . لأن مصلحة فرعون ليست في هذا النور .

٣ ـ القـرار الفرعونـي :

بعد أن شاهد فرعون المعجزات . واتهم موسى عليه السلام بالسحر وبأنه يعمل من أجل إخراج أهل مصر من مصر ؛ إغراءً لمن حوله وحثّاً لهم على أن يتفقوا معه على دفع موسى بأي وسيلة ممكنة . ولما اتفقوا معه وتبنوا أطروحته . قال : إذا كان الشأن هذا فماذا تشيرون عليَّ أن أعامله به حتى أعمل به ؟ ﴿ **قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحَّار عليم** ﴾(١٠٩) قال المفسرون : أي أخِّر موسى وأخاه وأمهلهما ، ولا تعجل إليهما بسياسة أو سجن

---

(١٠٦) الميزان : ١٦/٣٧ .

(١٠٧) الميزان : ١٦/٣٦ .

(١٠٨) سورة طه ، الآية : ٧٩ .

(١٠٩) سورة الشعراء ، الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .

ونحوه ، حتى تعارض سحرهما بسحر مثله ، وابعث في البلاد عدة من شرطتك وجنودك يحشرون كل سحار عليم فيها ويأتوك بهم والتعبير بـ (كل سحّار) إشارة إلى ان هناك مَنْ هو أعلم منه بفنون السحر وأكثر عملاً . واعتمد فرعون الخطة ، وقالوا لموسى : ﴿ **فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوَى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾(110) قال المفسرون : جعل موسى عليه السلام الموعد يوم الزينة . وكان يوماً لهم يجري بينهم مجرى العيد . ويظهر من لفظة أنهم كانوا يتزينون فيه ويزينون الأسواق . واشترط موسى أن يحشر الناس ضحى أي وقت انبساط الشمس من النهار ، ليكون ما يأتي به ويأتون به على أعين الناس في ساعة مبصرة ، وبدأت الأبواق الفرعونية تجوب البلاد لجمع السحرة كي تتم المنازلة الكبرى ، وبدأت الجماهير تستعد لمشاهدة معركة من معارك فرعون ! ﴿ **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين** ﴾(111) قال المفسرون : اجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم . وقال قائلهم : ﴿ **لعلنا نتبع السحرة** ﴾ ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم(112) .

وجاء السحرة وطلبوا الأجر من فرعون إن كانوا هم الغالبين ، فجعل لهم الأجر وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقربين ، وقبل المنازلة توجه موسى عليه السلام إلى السحرة وقال : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى** ﴾(113) قال المفسرون : قال لهم موسى : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذباً** ﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم . إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة وليست مخلوقة ، فتكونون قد كذبتم على الله . فيهلككم بعقوبة ، هلاكاً لا بقية له(114) . وبعد أن قال لهم موسى ذلك يقول تعالى : ﴿ **فتنازعوا أمرهم**

---

(110) سورة طه ، الآيتان : ٥٨ ـ ٥٩ .
(111) سورة الشعراء ، الآيتان : ٣٩ ـ ٤٠ .
(112) ابن كثير : ٣/٣٣٤ .
(113) سورة طه ، الآية : ٦١ .
(114) ابن كثير : ٣/١٥٧ .

بينهم وأسرّوا النجوى ﴾[115] ومعناه : أنهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر[116] وانتهى أمرهم بأن قالوا : ﴿ **إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾[117] أي : قال السحرة فيما بينهم . تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر ، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ، ويقاتلا فرعون وجنوده ، فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم[118] ثم أضافوا إلى ذلك أمراً آخر أشد من الخروج من الديار وهو ذهاب طريقتهم المثلى وسُنّتهم القومية ، التي هي ملة الوثنية الحاكمة فيهم قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ! وقد اشتد بها عظمهم وثبت عليها لحمهم . والعامة تقدس السُّنن القومية ، وعلى الأخص ما اعتادت عليه وظنت بأنها سنن ظاهرة سماوية[119] فقالوا : إذا غلب هذان . أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بالرئاسة كان في ذلك الفناء بالمرة لأنهما سيذهبان بسُنّة قومية تعتمد عليها ملتهم وتستند إليها شوكتهم وعظمتهم وتعتصم بها حياتهم . فلو اختلفوا وتركوا مقابلة موسى ، واستعلى هو عليهم كان في ذلك الفناء المحقق ، ثم كان الرأي هو أن يجمعوا كل كيد لهم ، ثم يتركوا الاختلاف ، ويأتوا صفاً حتى يستعلوا ﴿ **وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾[120] أي منا ومنه . فالفائز اليوم هو الفالح .

٤ ـ التخيل والسحر :

اتفق السحرة على أن يتحدوا ولا يهنوا في حفظ ملتهم ومدينتهم ويكروا على عدوهم كَرَّة رجل واحد ، وجلس فرعون على سرير مملكته واصطف له أكابر

---

(١١٥) سورة طه ، الآية : ٦٢ .
(١١٦) ابن كثير : ٣/١٥٧ .
(١١٧) سورة طه ، الآيتان : ٦٣ ـ ٦٤ .
(١١٨) ابن كثير : ٣/١٥٦ .
(١١٩) الميزان : ١٤/١٧٦ .
(١٢٠) الميزان : ١٤/١٧٦ .

دولته ووقفت الرعـايا على يمينـه ويسراه[١٢١] وقـال السحرة : ﴿ **يـا موسى إمـا أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقـوا فإذا حبـالهم وعصيهم يخيل إليـه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفـة موسى * قلنـا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾[١٢٢] قال المفسرون : خيَّروا موسى بين أن يبـدأ بالإلقـاء أو يصبر حتى يلقـوا ، فأخلى لهم الـظرف كي يأتـوا بما يـأتون بـه ، وهو معتمـد على ربّـه واثق بـوعده ، من غيـر قلق واضطراب وقـد قال ربّـه فيما قـال : ﴿ **إنني معكما أسمـع وأرى** ﴾[١٢٣] وقال : ﴿ **ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بـآياتنـا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾[١٢٤] . وعندمـا ألقى السحرة حبـالهم وعصيهم ﴿ **قالـوا بعزة فـرعون إنّـا لنحن الغالبـون** ﴾[١٢٥] . فإذا بحبـالهم وعصيهم يخيـل للنـاس أنهـا تسعى . فخاف موسى عليه السلام على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه[١٢٦] وقيل : إنه خاف أن يتفرق النـاس بعد رؤيـة سحرهم ولا يصبـروا إلى أن يلقي عصاه . وقيـل : إنه خـاف أن يلتبس الأمـر على النـاس فـلا يميزوا بين آيته وسحرهم للتشابه فيشكوا ولا يؤمنوا ولا يتبعوه ، ولـم يكن يعلم بعـد أن عصاه ستلقف ما يأفكون ، وقيل : أحسَّ في نفسه نوعاً من الخوف لا يعبأ بـه . لأنهم أظهروا للناس من السحر ما يشابه آيته المعجزة أو ما يقرب منه . وإنْ كان مـا أتوا به سحراً لا حقيقة لـه ، وما أتى بـه آية معجـزة ذات حقيقة . وقـد استعظم الله سحرهم إذ قال : ﴿ **فلما ألقوا سحـروا أعين الناس واستـرهبوهم وجـاؤوا بسحر عظيم** ﴾[١٢٧] .

وعندما ألقوا حبالهم وعصيهم خيل لمـوسى من سحرهم أنها تسعى ، فلقـد اختص سبحـانـه مـوسى من بين النـاس بـأنـه ﴿ **يخيـل إليـه من سحـرهم أنهـا تسعى** ﴾[١٢٨] امـا بقية النـاس فلقد ذكـرهم الله تعـالى في مـوضـع آخـر فقـال :

---

(١٢١) ابن كثير : ٣/١٥٧ .
(١٢٢) سورة طه ، الآيات : ٦٥ ـ ٦٨ .
(١٢٣) سورة طه ، الآية : ٤٦ .
(١٢٤) سورة القصص ، الآية : ٣٥ .
(١٢٥) سورة الشعراء ، الآية : ٤٤ .
(١٢٦) ابن كثير : ٣/١٥٨ .
(١٢٧) سورة الأعراف ، الآية : ١١٦ .
(١٢٨) سورة طه ، الآية : ٦٦ .

﴿ **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** ﴾(١٢٩) واسترهبوهم أي أخافوهم . وبما أن خوف الناس ليس كخوف موسى . لأن موسى واثق من نصر الله . وهو ما خاف إلاّ على الناس ، لأنه كان يطمع أن يؤمنوا ، فإذا تفرقوا قبل أن يلقي بعصاه خسروا . فكذلك هناك فرق بين موسى والناس في عملية سحروا أعين الناس ، هناك فرق بين (يخيل إليه) وهذا خاص بموسى . وبين (سحروا أعين الناس) وهذا خاص بالناس يوم الزينة خارج منهم موسى . والناس عندما اجتمعوا يوم الزينة كان عندهم الاستعداد التام للإيمان بالسحرة . قالوا : ﴿ **لعلنا نتبع السحرة إنْ كانوا هم الغالبين** ﴾(١٣٠) وهذا الاستعداد له دخل كبير في عملية تلقي الحدث . أما موسى عليه السلام فكان له موقف آخر عندما ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾(١٣١) قال المفسرون : والحقيقة التي بيَّنها لهم أن الذي جاؤوا به سحر ، والسحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورة الحق الواقع لحواس الناس وأنظارهم ، وإذا كان باطلاً في نفسه ؛ فإن الله سيبطله ، لأن السُّنة الإلٰهية جارية على إقرار الحق وإحقاقه في التكوين ، وازهاق الباطل وابطاله ، فالدولة للحق وإن كان للباطل جولة أحياناً ﴿ **إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ وقد جرت السُّنَّة الإلٰهية أن يصلح ما هو صالح ويفسد ما هو فاسد وهذه الحقيقة تستلزم أن السحر وكل باطل غيره لا يدوم في الوجود ، إن موسى عند إلقاء السحرة حبالهم ، كان على يقين من أن الباطل إلى زوال لكنه كان يريد للناس أن يكونوا تحت مظلة الحق لا تحت مظلة الباطل ، وخيفة موسى لم تكن كخوف الناس ، وتخيل موسى ، لم يكن كسحر عيون الناس ، ولعل في هذا كفاية لمن قالوا إن الذي جرى على الناس جرى على موسى عليه السلام .

* ٦ ـ المجازر والخوف والاستكبار :

عندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيهم ، وسحروا أعين الناس . صار

---

(١٢٩) سورة الأعراف ، الآية : ١١٦ .

(١٣٠) سورة الشعراء ، الآية : ٤٠ .

(١٣١) سورة يونس ، الآية : ٨١ .

الوادي وكأنه ملآن بالحيات يركب بعضها بعضاً ، وعندما ألقى موسى عليه السلام بعصاه ، صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي ، حتى لم تُبْقِ منها شيئاً إلّا تلقفته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرةً نهاراً ضحوةً ، فقامت المعجزة واتضح البرهان(١٣٢) يقول تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون** ﴾(١٣٣) .

قال المفسرون : السحرة هم الذين ألقوا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، وذلك إشارة إلى كمال تأثير آية موسى فيهم وإدهاشها إياهم ، فلم يشعروا بأنفسهم حينما شاهدوا عظمة الآية وظهورها عليهم ، إلّا وهم ملقون ساجدون . . . فاضطرتهم الآية إلى الخرور على الأرض ساجدين ، والإيمان برب العالمين الذي اتخذه موسى وهارون . وفي ذكر موسى وهارون دلالة على الإيمان بهما مع الإيمان برب العالمين . كما أن بيانهم رب العالمين برب موسى وهارون إشارة إلى رفضهم لعقيدة (رع) رب العالمين الذي تجري دماؤه في عروق الدجاجلة الكبار والصغار ، وعلى رأسهم الفرعون المتكبر المسرف العال في الأرض . وما إن أعلن السحرة ذلك ، حتى هاج فرعون ، وبدأ يُلقي بالاتهامات ﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر** ﴾(١٣٤) ! قوله إنه لكبيركم . ورقة سياسية يريد بها تهييج العامة عليهم ، فهو يريد أن يقول : إنهم تواطأوا مع رئيسهم عند المنازلة فتخاذلوا وانهزموا وآمنوا لتَتَّبِعُهُم العامة وتذهب الطريقة المثلى ! ولهذا قال في موضع آخر : ﴿ **قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون** ﴾(١٣٥) !

وبدأ فرعون يحدد العقاب ، فقال للسحرة : ﴿ **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم**

---

(١٣٢) ابن كثير : ٣/١٥٨ .

(١٣٣) سورة الأعراف ، الآيات : ١٢٢ .

(١٣٤) سورة طه ، الآية : ٧١ .

(١٣٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٣ .

من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾(١٣٦) وفي الوقت الذي كان فرعون يهدد فيه بالعقاب ، جاءه الرد من السحرة : **﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلّا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾**(١٣٧) .

قال المفسرون : لقد آمنوا بالبعث ، وذلك في قوله : **﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾** . وقد قابلوه بما يبطل كيده ، وتنقطع به حجته ، وهو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظناً منك أن ذلك شر لنا ، إن ذلك ليس بشراً لأننا نرجع إلى ربنا ، وإن ما تظنه أنت جُرماً هو لنا خير . لقد حطموا له قاعدته : (ما أريكم إلّا ما أرى) . أخبروه أنهم قد تحققوا أنهم إلى الله راجعون . وأن عذاب الله أشد من عذابه . وأنهم يصبرون اليوم على عذاب فرعون طمعاً في أن ينجيهم الله من عذابه الأليم يوم القيامة ، ولهذا قالوا : **﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾** أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه **﴿ وتوفنا مسلمين ﴾** أي متابعين لموسى وهارون ، وقالوا لفرعون : **﴿ فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾** وهكذا كانوا في أول النهار سحرة يقولون قد أفلح اليوم من استعلى . ويلقون حبالهم قائلين بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . وبعد أن شاهدوا آية ربهم لما جاءتهم آمنوا ، ثم وقفوا بإيمانهم أمام الجبروت الفرعوني ، واستغاثوا بربهم أن يفرغ عليهم الصبر ، لقد شبهوا أنفسهم بالآنية والصبر بالماء ، وإعطاءه بإفراغ الإناء بالماء ، وهو صبه فيه حتى يغمره ، وإنما سألوا ذلك . ليفيض الله عليهم من الصبر ، ما لا يجزعون به عند نزول أي عذاب وألم ينزل بهم .

لقد طلبوا صب الصبر عليهم ، لأن الفرعون قاس ، وفي آخر النهار كان السحرة على جذوع النخل . تجري الدماء من أطرافهم ، لكنها كانت دماء كماء الصبر ، وهكذا بدأوا النهار سحرة وختموه شهداء بررة . أما فرعون فانطلق إلى قصره كالثور الهائج يهدد ويتوعد **﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّا**

---

(١٣٦) سورة طه ، الآية : ٧١ .

(١٣٧) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٢٥ ـ ١٢٦ .

فوقهم قاهرون ﴾[١٣٨] قال المفسرون : هذا إغراء من القوم لفرعون وتحريض له أن يقتل موسى وقومه ، لأنهم يفسدون أهل رعيته ويدعوهم إلى عبادة ربهم وترك آلهة فرعون وعبادته[١٣٩] . وكانت الألوهية في عهد الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٩٤ق . م) معقودة (لآمون رع) وكان فرعون يمثله على الأرض ! ويحكم باسمه[١٤٠] . فكان رد فرعون (ابن آمون رع !) أن وعد الملأ من قومه . . أن يعيد إلى بني إسرائيل تعذيبه السابق ، وهو قتل أبنائهم واستحياء نسائهم واستبقاؤهن للخدمة ، وعَقَّبَ بقوله : **﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾** وهو تطييب قلوبهم وإسكان ما في نفوسهم من الاضطراب[١٤١] . وبعد وعده لقومه بقتل أبناء بني إسرائيل . جلس مع مجموعة مجملة ، وحددوا أن الذي ينبغي أن يقتل من بني إسرائيل هم أبناء الذين آمنوا لا غير . يقول تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾**[١٤٢] فبين الوعد بالقتل في قوله : **﴿ سنقتل أبناءهم ﴾** وبين التنفيذ في قوله : **﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾** إشارة إلى تدخل أطراف في تحديد مَنْ الذي يُقتل . ولما كان تحديد أبناء الذين آمنوا قد جاء في آية يتصدرها فرعون وهامان وقارون ؛ فإن قارون بصفته أميراً على بني إسرائيل من قبل فرعون ، يكون قد ساهم مساهمة فعَّالة في التحديد وفي التنفيذ ، وعن مجموعة العمل هذه يقول المفسرون : أما فرعون فهو الجبار حاكم القبط ، وأما هامان فوزيره ، وأما قارون فمن طغاة بني إسرائيل ذو الخزائن المليئة ، ولقد اختص الله الثلاثة بالذكر ، لكونهم أصولاً ينتهي إليها كل فساد ، وقد جاءهم موسى بالحق ، وكان من الواجب أن يقبلوه ولا يردوه لأنه حق . وكان ما جاءهم به من عند الله ، وكان من الواجب أن يقبلوه ولا يردوه ، فقابلوه بالكيد ، وصدوا عن سبيل الله وأمروا بقتل أبناء الذين آمنوا !

---

(١٣٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٧ .
(١٣٩) ابن كثير : ٢/٢٣٩ .
(١٤٠) تاريخ الخوف والجوع/ تحت الطبع .
(١٤١) الميزان : ٨/٢٢٤ .
(١٤٢) سورة غافر ، الآيات : ٢٣ ـ ٢٥ .

لم تكن ملامح الفطام على جذوع النخل فقط حيث صلب السحرة ، ولم تكن في بيوت ضعفاء قوم موسى ، وإنما كانت ملامحه أيضاً داخل القصر الفرعوني نفسه ، فالسيدة آسية زوجة فرعون لم تنجُ من البطش لأنها آمنت برسالة موسى عليه السلام ، وهي التي كانت تتعهده عندما كان صغيراً في بيت فرعون ، يقول تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾(١٤٣) قال المفسرون : قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة : الجمع بين كون البيت المبنى لها عند الله في الجنة . لكون الجنة دار القرب من الله وجوار رب العالمين . فقد اختارت جوار ربها والقرب منه ، على أن تكون أنيسة فرعون وملكة مصر ، وآثرت بيتاً يبنيه لها ربها على بيت فرعون ، الذي فيه مما تشتهيه الأنفس وتتمناه القلوب . لقد عزفت نفسها عما هي فيه من زينة الحياة الدنيا ، وهي لها خاضعة ، وتعلقت بما عند ربها من الكرامة والزلفى ، فآمنت بالغيب ، واستقامت على إيمانها حتى لقت ربها شهيدة . وقولها : ونجني من فرعون وعمله ؛ سؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون ، ومن عمله الذي يدعو ضرورة المصاحبة والمعاشرة . لقد استغاثت بالله من مجتمعها الخاص . وقولها : ونجني من القوم الظالمين - وهم قوم فرعون - كان استغاثة بالله أن ينجيها من المجتمع العام - لقد رفضت آسية الخاص والعام ، وطلبت القرب والجوار فجمعت بين الكرامتين .

قتلها فرعون بعد خزيه في يوم الزينة ، عندما علم بإيمانها برسالة موسى عليه السلام كما قتل الماشطة وأولادها وكانت الماشطة تقوم بخدمة بنات فرعون ، قتلها ومعها أولادها عندما علم أنها رفضته ورفضت شذوذ آبائه ، لقد تتبع فرعون كل طاقة تحمل نور الإيمان وأجرى فيها الدماء . كان أطفال المؤمنين في الماء المغلي ، ثم يقطع أطراف الآباء بين ضحكات الملأ وهتاف الجماهير . لقد كانوا يظنون أنهم يبلغون مع كل قتيل يقتلونه القمة ! وأن الأطراف المقطوعة والأجساد المعلقة على جذوع النخل بطوله لا تحتاج دليل .

---

(١٤٣) سورة التحريم ، الآية : ١١ .

١ ـ الخوف :

في عـالم ما أريكم إلّا مـا أرى تـرتجف الفـطرة ويعم الخـوف ! وفي عـالم فرعون خاف الكل من الكل ! وكان مجرد ذكر اسم موسى جريمة في قانون فرعون وبهذا صد فرعون عن سبيـل الله . يقول تعـالى : ﴿ **فما آمن لمـوسى إلّا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعـالٍ في الأرض وإنه لمن المسـرفين * وقـال مـوسى يـا قـوم إن كنتم آمنتم بـالله فعليـه تـوكلوا إن كنتم مسلمين * فقـالوا على الله تـوكلنا ربنـا لا تجعلنـا فتنـة للقـوم الـظالمين * ونجنـا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾(١٤٤) قال المفسرون : قال البعض إن الضميـر في قومه راجع إلى فرعون والذرية التي آمنت من قوم فرعون ، وقال آخرون ومنهم ابن جرير : إن الضميـر لموسى والمـراد بالـذرية جمـاعة من بني إسـرائيل لا من قـوم فرعون(١٤٥) . وذهب صـاحب الميزان مـع ابن جريـر فيما قـال . وقال : والـذي يفيـده السياق ـ وهـو الظاهـر من الآية ـ ، أن يكـون الضمير راجعـاً إلى مـوسى ، والمـراد بالـذرية من قـوم مـوسى . بعض الضعفـاء من بني إسـرائيـل دون ملئهم الأشراف الأقوياء ، والاعتبار يساعد على ذلك ، فإن بني إسرائيل كانوا محكـومين بحكم آل فرعون ، والعـادة الجاريـة في أمثال هـذه الموارد ؛ أن يتـوسل الأقـوياء والأشـراف بأي وسيلة أمكنت ، إلى حفظ مكـانتهم الإجتماعيـة وجاههم القـومي ـ كقارون مثلاً ـ ويتقـربوا إلى الجبـار المسيطر عليهم بـإرضائـه بالمـال والتظاهـر بالخدمة والتجنب عما لا يرتضيه ، فلم يكن في وسع الملأ من بني إسـرائيل ، أن يعلنوا موافقة موسى على دعوته وأن يتظاهروا بالإيمان بـه ، وقصص بني إسرائيـل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيراً من عتاة بني إسـرائيل ومستكبـريهم لم يؤمنوا بموسى إلى أواخر عهده ، وإن كانوا يسلمون له ويطيعونه في عامة أوامره التي كان يصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني إسرائيل . لما كان فيها صلاح قـوميتهم وحرية شعبهم ومنافع أشخاصهم ، فالإطاعة في هذه الأمور شيء والإيمان بالله وما جاء به الرسول شيئاً آخر ، ويستقيم على هـذا المعنى قولـه : ﴿ **وملائهم** ﴾ بـأن يكـون الضمير إلى الـذرية . ويفيـد النص أن الذريـة الضعفاء كـانوا في إيمـانهم

---

(١٤٤) سورة يونس ، الآيات : ٨٣ ـ ٨٦ .

(١٤٥) ابن كثير : ٢/٤٢٧ .

يخافون الملأ والأشراف من بني إسرائيل . فإن الأشراف في بني إسرائيل ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم أنفسهم ، أو تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون وقومه[146] .

وخلاصة ما نريد أن نقوله : إن الضعفاء كانوا يخافون من الداخل ومن الخارج ، ففي الداخل يوجد أصحاب المصالح الذين يُضحون بأي شيء في سبيلها ، وفي الخارج فرعون وهامان وجنودها . اما فرعون فهو عال في الأرض لا يعدل فيما يحكم ويتفنن في التعذيب والقتل ، وأما هامان فبقاؤه في بقاء فرعون وأما الجنود فغوغاء أتباع لكل ناعق ، لقد كان الضعفاء يخافون على دينهم الذي يدفعون من أجله أبناءهم . من الذين يخافون على دنياهم ولا يتحرجون في فعل أي شيء من أجل الحفاظ إما على المصلحة وإما على الكرسي . إن عالم الخوف هذا الذي وضع قيوده وأسواره حول الفطرة . يعود إلى النظام الذي أقامه فرعون ، فنظام فرعون هو أخطر النظم على الفطرة ، لأنه محمل بالذهب وغني بالمصالح ومسلح بالبطش ويسهر عليه فقهاء فرق وشيع كل منهم يقدم هوى ، وجميع الأهواء تصب في النهاية عند ابن آمون وفي عالم الخوف هذا يقول تعالى : ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾[147] قال المفسرون : لقد استنهضهم للاستعانة بالله والصبر على الشدائد ، لأن الأرض لله يورثها من يشاء ، وفرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء ، ويمنع من التمتع بها من يشاء . وقد جرت السُّنَّة الإلهية أن يخص الله مَنْ يتقيه من عباده بحسن العاقبة ، والله تعالى نظَّم الكون نظماً يؤدي كل نوع إلى غاية وجوده وسعادته التي خُلق لأجلها ، فإن جرى على صراطه الذي ركب عليه ، ولم يخرج عن خط سيره الذي خط له ؛ بلغ سعادته لا محالة ، والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع أيضاً حاله هذا الحال ، إنْ جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة ، واتقى الخروج عنه والتعدي منه إلى غير سبيل الله ، هداه الله إلى عاقبته الحسنة ، وأحياه الحياة الطيبة ، وأرشده إلى كل خير يبتغيه .

إن فرعون لا يملك الأرض ، وإنما يمتلك أجساداً في سجون أهوائه ،

---

(١٤٦) الميزان : ١٠/١١٣ .

(١٤٧) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٨ .

والأرض لله ، والعاقبة مطلقاً للمتقين . وعلى المتقين يجري الإختبار . قد يكون اختبارهم تحت مظلة فرعون ، وقد يكون تحت مظلة عاد أو ثمود أو أصحاب الأيكة . وفي جميع الأحوال ، فإن أصحاب مظلات الصد عن سبيل الله ، يتربعون على عروش هي أنسب شيء لشقاء لا ينتهي . فالأرض عليها تقي وشقي ، فالمتقي لا يعنيه إنْ كان في القمة أو في القاع لأنه يأخذ بالأسباب ويسير في حياته وفقاً لفقه الحلال والحرام ، والشقي هو تحت الزخرف والزينة شقي ، لأنه يقم حياته على مقاييس تتصادم مع الكون وفطرة الوجود ، ولذلك فزواله حتمي ، لأن زواله سُنَّة من سنن الوجود .

لقد كان الضعفاء يخافون من جبابرة الداخل والخارج ، وكان موسى عليه السلام يبث فيهم الاستعانة بالله والصبر على الشدائد ، وعندما قالوا له : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾[٢٤٨] قال لهم قولاً بليغاً ينسف قواعد تجار الأهواء والمصالح من بني إسرائيل ، الذين حرَّفوا التوراة بعد ذلك ، معتبرين أن العاقبة لبني إسرائيل ، ولا تحتمل شرطاً ولا قيداً : ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾[١٤٩] قال المفسرون : كأنه قال : ما أمرتكم به . أن اتقوا الله في سبيل مقصدكم ، هذه كلمة حية ثابتة ، فإن عملتم بها كان من المرجو أن يهلك الله عدوكم ويستخلفكم في الأرض . بإيمانكم إياها . والله لا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاءً جزافاً ، ولا يكرمكم إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد ، بل ليمتحنكم بهذا الملك ، ويبتليكم بهذا الاستخلاف ، فينظر كيف تعملون ، قال تعالى : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء** ﴾[١٥٠] والقرآن بهذا يبين خطأ ما يعتقده اليهود من كرامتهم على الله كرامة لا تقبل عزلاً . ولا تحتمل شرطاً ولا قيداً ، والتوراة تعد شعب إسرائيل شعب الله الذين لهم الأرض المقدسة ، كأنهم ملكوها من الله سبحانه ملكاً لا تقبل نقلاً ولا إقالة[١٥١] وقد بيَّنا زيف ذلك الادعاء

---

(١٤٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٩ .

(١٤٩) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٩ .

(١٥٠) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠ .

(١٥١) الميزا : ٨/٢٢٥ .

في سلسلة بحوثنا عن المسيح الدجال الذي مقدر له الخروج آخر الزمان .

لقد واجه الذين آمنوا الخوف الذي غرس فرعون رموزه وأوتاده وقضبانه في كل مكان ، وأمام سيل الخوف الجارف بث موسى عليه السلام بين أتباعه الصبر ، كان فرعون يقتل الأطفال . فيروي الذين آمنوا الدماء بالدموع ، ويقدمون الحزن والآهات والدموع إلى موسى كي يشهد عليها ويرفعها في دعائه إلى الله .

٢ ـ الاستكبــــار :

لم يستطع فرعون أنه يواجه حجة موسى عليه السلام التي دمر بها عقيدة الشمس وفروعها ، تلك العقيدة التي قالت بأن الآلهة قد زاولوا مهمة الحكم على الأرض يوماً ! ثم غادروها ليأتي بعد ذلك أبناؤهم من البشر ليحكموا أهلها . لقد دمر الأصنام التي شيدتها الأساطير أصنام (رع) (أوزير) (آمون) (حور) (بتاح) (آتوم) (حتحور) (أبيس) (تحوت) ذلك الطابور الذي تعد أوثانه بالآلاف . وعندما لم يستطع فرعون وفقهاؤه أن يواجهوا حجج موسى ومعجزاته القاهرة مارسوا عمليات قتل الأطفال والرجال والنساء ، ولأن عمليات القتل لم يتدخل فيها من يقهر فرعون ويجبره على الكف عنها . تطاول فرعون في هذا الميدان الخالي ، واستغل هذا الموقف أمام شعبه . فطلب منهم أن يتركوه ليقتل موسى . وليدع موسى ربه ﴿ **وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر في الأرض الفساد** ﴾(١٥٢) .

قال المفسرون : « ذروني » أي اتركوني . خطاب يخاطب به ملأه . وفيه دلالة على أن هناك مانعاً يمنعه . مانعاً شخصياً وهو أنه عاجز عن ذلك . يقول الله تعالى لموسى : ﴿ **ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا** ﴾(١٥٣) ومانعاً داخلياً أنه كان هناك مَنْ يشير عليه أن لا يقتل موسى ويكف عنه ، وهؤلاء جاء ذكرهم في كتاب الله كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾(١٥٤) فقوله : ﴿ **ذروني أقتل موسى** ﴾ كان فرعون يريد به أهدافاً سياسية ، اتخذ موسى مدخلاً لها . وهو وإن كان لم يظهر عجزه أمام شعبه إلّا أنه تاجر بهامش

---

(١٥٢) سورة غافر ، الآية : ٢٦ .

(١٥٣) سورة القصص ، الآية : ٣٥ .

(١٥٤) سورة الشعراء ، الآية : ٣٦ .

(الديمقراطيـة) التي يعطيهـا لهم لتصب في أهدافـه في نهايـة الأمر . . فسيـاسة « ذروني » تفيد أن هناك اعتـراض على قتل مـوسى ، وهذا الاعتـراض يستقيم مع الخوف الداخلي للفرعون . وخوف فرعون الداخلي هذا ، لا يتعارض مع خروجه وراء موسى بعد ذلك إلى البحر الـذي لاقى فرعـون فيه حتفـه . لأن هذا الخـروج كـان يخضع لسنَّـة الاستئصال ، فـالله تعالى أخـرجـه من دائـرة الغيظ التي كـانت تشتعل بداخله لعدم مقدرته قتل موسى الذي يهدد ملكه ، كما أخرجه وأخرج قومه من جنات وعيون وكنوز . كان فرعون يعـطيهم فيها مسحـة من الحريـة التي تصب في أهـدافه يقـول تعالى : ﴿ فـأخـرجنـاهم من جنـات وعيـون * وكنـوز ومقـام كريم ﴾[١٥٥] .

﴿ وقـال فرعـون ذروني أقتل مـوسى وليـدع ربـه ﴾ . قـال المفسـرون : وقوله : ﴿ وليـدع ربه ﴾ أي فليـدع ربه أن ينجيـه من يدي وليخلصـه من القتل إنْ قدر . . وقوله هذا مكمـل لما سبق للوصـول إلى أهدافـه السياسيـة ، فكأنـه يقول لقومه : اتركوني أقتل موسى الـذي يقول لكم : إنـه رسول رب العـالمين ، وليدع ربه أن يخلصه من القتل ، فأنتم شـاهدتم وتشـاهدون أنني أقتـل أتباع مـوسى ولم يخلصهم إلٰه موسى من يدي ، وهذا يثبت ألـوهيتي . . وبعد هـذه المقدمـة طرح فرعون أهـدافه ﴿ إني أخـاف أن يبدل دينكم أو يـظهر في الأرض الفسـاد ﴾[١٥٦] فعدم مقدرته على قتل موسى ، جعله يفكر في فرض حصار على دعوة موسى حتى لا تنتشر بين المصريين . قـال المفسرون : ذكـر لهم أنه يخـاف موسى عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنيـاهم . أما من جهـة دينهم والذي هـو عبادة الأوثـان . فأن يقوم موسى بتبديله ويضع موضعه عبادة الله وحده ، وأما من جهة دنياهم ، فإنـه إذا عظم أمر موسى وتقوى جانبه وكثر متبعوه فيترتب على هذا تمرد . وينتهي الأمر إلى ضياع الأمن في البلاد[١٥٧] .

لقد كانت أطروحات فرعون تنطلق من دائرة التكبـر والجحود والعنـاد ، فهو يقتل ولكن دماء القتيل ستطوق عنقه يوم القيامة ، وهو يدافع عن دين الأوثان ودنيـا

---

(١٥٥) سورة الشعراء ، الآيتان : ٥٧ ـ ٥٨ .

(١٥٦) سورة غافر ، الآية : ٢٦ .

(١٥٧) الميزان : ١٧/٣٢٨ .

الأوثـان لأن في هذا مصلحتـه ، ويـوم القيـامـة سيقف هـو وأتبـاعـه يلعن بعضهم بعضـاً ، وبعد خـطاب فرعـون الذي أراد بـه أن يحاصـر الدعـوة قال مـوسى عليه السلام : ﴿ **إني عذت بربي وربكم من كل متكبـر لا يؤمن بيوم الحسـاب** ﴾[158] قال المفسرون : قوله : ﴿ **عذت بربي وربكم** ﴾ فيه مقابلة منه لفرعون في قوله : ﴿ **وليدع ربه** ﴾ حيث خص فـرعون ربـوبية الله بمـوسى . فأشـار موسى بقـوله : ﴿ **عذت بربي وربكم** ﴾ أي أنه تعالى ربهم كما هو ربه ، نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه ، ومن هنا يـظهر أن الخـطاب في قولـه : ﴿ **وربكم** ﴾ لفرعـون ومن معه دون قومه من بني إسـرائيل . وقـوله : ﴿ **من كـل متكبر لا يؤمن بيـوم الحساب** ﴾ يشير إلى فرعون وكل من يشاركه في صفتي التكبر وعدم الإيمان بيوم الحسـاب ولا يؤمن مَنْ اجتمعت فيه الصفتان أصلاً[159] .

ولم يذهب التهديد بقتل مـوسى عليه السـلام سدى ، فلقـد انتفض الإيمان ممثـلاً في مؤمن آل فرعـون ، الـذي قـام وواجـه الجبـابـرة بـأبلغ الكـلام وأقـوى الحجـج . لقد قـام مؤمن آل فرعـون بعد خـطاب فرعـون . وألزم نفسـه أن ينطق بـالعدل في عـالم يحرمـه الأجساد ولا يعـدل في حق الله أو حق النـاس . . يقـول تعالى : ﴿ **وقال رجـل مؤمن من آل فرعـون يكتم إيمانـه أتقتلون رجلاً أن يقـول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يكُ كاذبـاً فعليه كـذبه وإن يـك صادقـاً يصبكم بعض الـذي يعدكم إن الله لا يهـدي من هو مسـرف كـذاب * يـا قـوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قـال فرعـون ما أريكم إلّا مـا أرى وما أهـديكم إلّا سبيل الـرشاد** ﴾[160] قـال المفسـرون : كـان الرجل من القبط من خاصة فرعون . وهم لا يعلمـون بايمـانه لكتمـانه إيـاهم ذلك تقية ، ولقد أنكر قتلهم لموسى ، وأخبرهم بأن موسى جاءهم بالبينات من ربهم ، وعلى هـذا فقتله هو قتـل رجل جـاء بالحق من ربهم ، ثم قـال لهم إن يكُ مـوسى صادقاً . يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب . وإن يـكُ كاذبـاً . كفاه كـذبه . ثم قال : يا قوم لكم الملك اليوم غـالبين عالين في أرض مصـر . على من دونكم من بني إسرائيل . فمن ينصرنا من أخْذِ الله وعذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا . وقـد

(158) سورة غافر ، الآية : 27 .
(159) الميزان : 17/328 .
(160) سورة غافر ، الآيتان : 28 ـ 29 .

أدخل المؤمن نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ، ليكون أبلغ في النصح وأوقع في قلوبهم ، إنه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه ، وكان رد فرعون على ما أشار به المؤمن : ﴿ **ما أريكم إلاّ ما أرى** ﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلاّ ما أراه لنفسي ، وأنه على يقين مما يهدي إليه قومه ، وأمام هذا الاستكبار الفرعوني قال المؤمن : ﴿ **يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد** ﴾[١٦١] قال المفسرون : لقد حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وذكرهم بالذين كذبوا رسل الله في القديم كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ولا صدّه عنهم صاد ، وما أهلكهم الله إلاّ بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ، وما الله يريد ظلماً للعباد[١٦٢] .

وبعد أن ذكّرهم بالأمم الماضية . ذكرهم بيوسف عليه السلام فقال : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾[١٦٣] قال المفسرون : أقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البيّنات التي لا تدع ريباً في رسالته من الله . فما زلتم في شك مما جاءكم به ما دام حياً ، حتى إذا هلك ومات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ، فناقضتم أنفسكم ولم تبالوا ، ثم أكده بقوله : ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾[١٦٤] وكان الله تعالى قد بعث في مصر رسولاً من قبل موسى وهو يوسف عليه السلام كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلاّ بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ، وعندما مات قالوا طامعين لن يبعث الله من بعده رسولاً ! وذلك لكفرهم وتكذيبهم ، ومن كان حاله هذا يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه[١٦٥] .

---

(١٦١) سورة غافر ، الآيتان : ٣٠ ـ ٣١ .
(١٦٢) ابن كثير : ٤/٧٩ ، الميزان : ١٧/٣٣٠ .
(١٦٣) سورة غافر ، الآية : ٣٤ .
(١٦٤) الميزان : ١٧/٣٣٠ .
(١٦٥) ابن كثير : ٤/٧٩ .

وبعد أن قام المؤمن بتشخيص حالة القوم ، قام بوصف المسرف المرتاب فقال : ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾(١٦٦) قال المفسرون : وصف لكل مسرف مرتاب ، فإن من تعدى طوره بالإعراض عن الحق واتباع الهوى ، واستقر في نفسه الارتياب ، فكان لا يستقر على علم ولا يطمئن إلى حجة تهديه إلى الحق ، جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه ، وقوله : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجة ولا يركنون إلى برهان(١٦٧) ومن كانت هذه صفته لا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً(١٦٨) .

كان الرد الفرعوني على هذا العلم الواسع . هو رد المسرف الكذاب والمسرف المرتاب والمتكبر الجبار ، لقد أشار إلى مجموعة عمله ﴿ **وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زُين لفرعون سوء عمله وصدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلاّ في تباب** ﴾(١٦٩) قال المفسرون : أمرٌ منه لوزيره هامان أن يبني له بناء يتوصل به إلى الاطلاع إلى إله موسى ! ولعله أصدر هذا الأمر أثناء محاجة الذي آمن ، ولذلك وقع ذكره بين مواعظ الذي آمن واحتجاجاته ، والمعنى : آمرك يا هامان ببنائه ، لأني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ، ثم فسر الأسباب بقوله : ﴿ **أسباب السماوات** ﴾ وفرع عليه قوله : ﴿ **فأطلع إلى إله موسى** ﴾ كأنه يقول : أن الإله الذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري . فلعله في السماء ، فابن لي صرحاً لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء ، فأطلع من جهتها إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً . وقيل : إن مراده أن يبني له رصداً يرصد فيه الأوضاع السماوية لعله يعثر فيها على ما يستدل به على وجود إله موسى . بعد اليأس من الظفر عليه بالوسائل

---

(١٦٦) سورة غافر ، الآية : ٣٥ .

(١٦٧) الميزان .

(١٦٨) ابن كثير : ٤/٧٩ .

(١٦٩) سورة غافر ، الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .

الأرضية . وهذا لا يستقيم على شيءٍ من مذاهب الوثنية ، ولعل فرعون قال ذلك تمويهاً على الناس أو جهلاً منه ، وما هو من الظالمين ببعيد ، ولقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسناً ، وصده عن سبيل الرشاد ، فرأى انصداده عنها ركوباً عليها ، فجادل في آيات الله بالباطل ، وأتى بمثل هذه الأعمال القبيحة والمكائد السفهية لإدحاض الحق ولذلك ختمت الآية ﴿ **وما كيد فرعون إلّا في تباب** ﴾ أي هلاك وانقطاع[170] .

وبعد صدور الأوامر ببناء الصرح من الذي يقول لقومه : ﴿ **ما أريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد** ﴾ هرول الجميع من أجل تنفيذ التعليمات الفرعونية ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إلٰه موسى وإني لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون** ﴾[171] إنها ثقافة عقيدة الشمس . فالقوم يعتقدون أن الآلهة في الفضاء أجسام تحل أرواحها على الأرض في أصنام من حجارة وأصنام من بشر ، لقد كان فرعون الذي يهدي قومه سبيل الرشاد يرى أن الله تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجو أو في الأفلاك ! فكان يرجو إذا نظر من الصرح أن يطلع إليه ، وهو يعلم أنه لن يستطيع أن يقدم لقومه دليلاً واحداً على أنه الآلهة (آمون) و (رع) وغيرهما لهم وجود في الفضاء أو في الأرض ، لأن أوثانه لا توجد إلّا داخل الأساطير الخرافية التي زينها الشيطان ثم احتوتها مدارس الفراعنة ! إن الأمر ببناء الصرح كان له أهداف سياسية يريد بها التعمية على الناس وإضلالهم ، إنها سياسة ما أريكم إلّا ما أرى . التي تصب في إناء ابن آمون ، ولأنها سياسة خالية من الرشد والرشاد ؛ خاطب المؤمن قوم فرعون كما يقول تعالى : ﴿ **وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار** ﴾[172] .

قال المفسرون : دعاهم إلى اتباعه ليهديهم ، وإتباعه اتباع لموسى . وفي

---

(١٧٠) الميزان : ١٧/٣٣٢ .

(١٧١) سورة القصص ، الآيتان : ٣٨ ـ ٣٩ .

(١٧٢) سورة غافر ، الآيتان : ٣٨ ـ ٣٩ .

قوله : ﴿ **أهدكم سبيل الرشاد** ﴾ تعريض لفرعون حيث قال : ﴿ **ما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد** ﴾ ثم بين لهم أن الذي يستند إليه سلوك سبيل الرشاد ، ولا يستغني عنه الدين الحق هو الإعتقاد بأن للإنسان حياة خالدة مؤبدة . . هي الحياة الآخرة ، وأن هذه الحياة الدنيا متاع في الآخرة ، ومقدمة مقصودة لأجلها ، ولذلك بدء به في بيان سبيل الرشاد . ثم ذكر السيئة والعمل الصالح ﴿ **من عمل سيئة فلا يجزى إلاّ مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾[173] فقد أجمع الدين الحق ، وهو سبيل الرشاد في أوجز بيان ، وهو أن للإنسان دار قرار ، يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيىء أو صالح ، فليعمل صالحاً ولا يعمل سيئاً ، وزاد بياناً ، إذ أفاد أنه إن عمل صالحاً يُرزق بغير حساب[174] .

ثم ختم المؤمن الذي يعيش في ديار الاستكبار بيانه بدعوة لا يرفضها إلاّ مسرف مرتاب ومتكبر جبار قال : ﴿ **ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جَرَمَ أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأنَّ مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾[175] قال المفسرون : قال : يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة ، أي النجاة من النار ، وتدعونني إلى النار . وقد كان يدعوهم إلى سبب النجاة ، ويدعونه إلى سبب دخول النار ، ثم فسر ما دعوه إليه وما دعاهم إليه . فقال : تدعونني لأكفر . أي إلى أن أكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، أي أُشرك به شيئاً لا حجة لي على كونه شريكاً ، فأفتري على الله بغير علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الذي يَغلب ولا يُغلب ، الغفار لمن تاب إليه وآمن به ، أي أدعوكم إلى الإيمان به والإسلام له . . لقد ثبت ثبوتاً أن ما تدعونني إليه ، مما تسمونه شريكاً له سبحانه . ليس له دعوة في الدنيا . إذ لم يعهد نبي أُرسل إلى الناس من ناحية ليدعوهم إلى عبادته ، ولا في الآخرة إذ لا رجوع إليه فيها من

---

(١٧٣) سورة غافر ، الآية : ٤٠ .

(١٧٤) الميزان : ١٧/٣٣٣ .

(١٧٥) سورة غافر ، الآيات : ٤١ ـ ٤٤ .

أحد ، وأما الذي أدعوكم إليه ، وهو الله سبحانه ؛ فإن له دعوة في الدنيا ، وهي التي تصداها أنبياؤه ورسله المبعوثون من عنده ، المؤيدون بالحجج والبينات ، وفي الآخرة وهي التي يتبعها رجوع الخلق إليه لفصل القضاء بينهم . . ومن المعلوم أن الربوبية لا تتم بدون دعوة في الدنيا ونظيرتها الدعوة في الآخرة ، وإذا كان الذي يدعوهم إليه ذا دعوة في الدنيا والآخرة ، دون ما يدعونه إليه ، فهو الإله دون ما يدعون إليه .

وقوله : ﴿ **وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **أنما تدعونني** ﴾ أي لا جرم أن مردنا إلى الله ، فيجب الإسلام له واتباع سبيله ورعاية حدود العبودية ، ولا جرم أن المسرفين وهم المتعدون طور العبودية ـ وهم أنتم ـ أصحاب النار ، فالذي أدعوكم إليه فيه النجاة دون ما تدعونني إليه . ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ صدر الآية موعظة وتخويف لهم ، وهو تفريع على قوله : ﴿ **وأن مردنا إلى الله** ﴾ أي إذا كان لا بد من الرجوع إلى الله ، وحلول العذاب بالمسرفين ، وأنتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم ، فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب ، وتعلمون عند ذاك أني كنت ناصحاً لكم(١٧٦) .

﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ .

* ٧ ـ أيام من العذاب :

لم يستمع القوم إلى ما قاله المؤمن لهم ، ورموه بالتُّهم الباطلة حتى تضيع كلماته ويجلب فرعون لنفسه المنفعة ، لقد صبوا عليه الاتهامات لأنه ألقى بحججه على حياة الباطل وسمعته ، وعرى أفعالهم المرعبة النكراء التي رسمتها الشياطين المخيفة في مجالسهم ومعايدهم . صبوا عليه الاتهامات بعد أن أخبرهم أنه عند ساعة الموت سيكتشفون الحقيقة ، والحقيقة لن تكون أبداً فيما نقلوه لهم عن أوزير ورع وآمون ، فهذا الطابور هَراء وهَباء ضائع في خلاء وليس له دعوة . ولا يحمل إلاّ بصمات الشياطين ، وإذا كانوا يظنون أن الموت يضع حداً لشقائهم بعد أن أضاعوا حياتهم في حمل الأحجار ونقشها خدمة للفرعون ، فإن الحقيقة أنه

---

(١٧٦) الميزان : ١٧/٣٣٤ .

من عند الموت ستبدأ مأساتهم إلى ما لا نهاية . فهناك في أسفل ، لن يروا أوزير إله الرحمة . وسيروا مقاماً من العذاب في ميزان لا نهائية ، عندما قال لهم المؤمن هذا صبوا عليه الاتهامات لأنه لم يدخل السرور والمتعة على عمر الخلود . . الخلود الذي يقف على بابه الفرعون ابن آمون رع ، وابن حور بن أوزير إله الخصب والموتى[١٧٧] .

لم يستمعوا إلى صوت المؤمن ، ولم ينصتوا لموسى عليه السلام ، فأخذهم الله بالقحوط المتعددة لعلهم يذكرون يقول تعالى : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾[١٧٨] قال المفسرون : أي اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم بالسنين وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع[١٧٩] لقد ضربهم الله بالجدب كي يتبينوا أن النيل والشمس لا يملكان لهم من الله شيئاً ، والنيل والشمس كانا من أهم أرباب الفراعنة ، وعندما ضربهم القحط لم يتذكر القوم ولم يتدبروا في آيات الله ، ومقابل هذا الجمود ضربهم الله تعالى بما هو أشد كي يفكروا ويتوبوا ويؤمنون بالله ورسوله يقول تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾[١٨٠] لقد أرسل سبحانه عليهم ما يدعوهم للخضوع لله . ولكنهم استكبروا وكانوا قوماً مجرمين . يقول المفسرون : قوله تعالى : ﴿ **آيات مفصلات** ﴾ يدل على أنها أرسلت متفرقة لا مجتمعة ، منفصلة بعضها عن بعض ، وكل آية من هذه الآيات كانت تأتيهم عن أخبار موسى وإنذاره . لقد أرسل الله عليهم آياته . أرسل الطوفان فصب عليهم الماء ، وعندما خافوا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك . ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل وهكذا فعلوا مع كل آية ، يخافون فيذهبون إلى موسى ، ويعطوه العهد . . فلما يكشف عنهم العذاب يضحكون وينكثون وينقضون عهدهم . يقول تعالى : ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا**

---

(١٧٧) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف تحت الطبع .

(١٧٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٠ .

(١٧٩) ابن كثير : ٢/٢٣٩ .

(١٨٠) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٣ .

هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلّا وهي أكبر من أختها * وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيّها الساحر ادع لنا بك بما عهد عندك إننا لمهتدون * فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾[١٨١] والعذاب عندما ضرب ، ضرب الجميع في المنازل والقصور . وفي الشوارع وفي الحقول ، ولكن القوم في كل مكان لم يكن لديهم أي استعداد فطري للخروج على ما يراه فرعون لهم ، كانوا يتعذبون بالجوع والطوفان والجراد والقمل وغير ذلك ، وعيونهم على فرعون ليضعوا في عقولهم ما سينطق به ، لقد تعذبوا من أجل فرعون ، وساروا في طريق العذاب كي ينعموا بما وعدهم الفراعنة وكهان الفراعنة بالخلود الدائم بعد الموت . ذلك الخلود الذي لا يكتمل إلّا بطاعة فرعون .

وبعد أن كشف الله العذاب عنهم ، ذلك العذاب الذي كان دعوة للتوبة ، بدأ فرعون في ممارسة سياسة التشكيك في الآيات التي ضربتهم كما بدأ في ممارسة سياسة التحقير من موسى عليه السلام ، ويخبر الله تعالى عن رد فرعون بعد أن جاءه موسى عليه السلام بآيات الله التسع بأنه قال : ﴿ **إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلّا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾**[١٨٢] قال المفسرون : ذكر هٰهنا التسع آيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً[١٨٣] وفرعون بعد هذه الآيات ازداد عناداً وكفراً واتهم موسى عليه السلام بأنه مسحوراً أي اختل عقله ، فقال له موسى : لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلّا رب السماوات والأرض ، أنزلها بصائر تبصر بها لتمييز الحق من الباطل . وإني لأظنك يا فرعون هالكاً بالآخرة لعنادك وجحودك ، وإنما أخذ موسى الظن دون اليقين لأن الحكم لله[١٨٤] .

إنها سياسة التشكيك في الآيات سياسة تصف موسى مرة بأنه ساحر ، ومرة بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ومع سياسة التشكيك هذه سارت سياسة التحقير

---

(١٨١) سورة الزخرف ، الآيات : ٤٧ ـ ٥٠ .
(١٨٢) سورة الإسراء ، الآيتان : ١٠١ ـ ١٠٢ .
(١٨٣) ابن كثير : ٣/٦٧ .
(١٨٤) الميزان : ١٣/٢١٩ .

معها جنباً بجنب . فكـان فرعـون ينادي في قـومه : انـظروا أنا من طبقـة أعلى من طبقة البشر . أعلى بكثير من طبقة موسى ، وها هي الأنهار وها هم الجنود والكهنة الجميع على أرض مصر مسخر لخدمتي ، كما سخروا لخدمة آبائي من قبل الذين تشهد متون الأهرامات بأنهم كانوا آلهة أبناء آلهة(١٨٥) فكيف يأتي موسى وهو الذي لا يمتلك شيئاً ولا يرجى منه شيئاً . وليس له أن يكون حمالاً عندنا كيف يأتي ويفرض نفسه دليلاً علينا . يقول تعالى عن الفقه الفرعوني في سياسـة التشهير بعـد جحود القـوم بآيات الله : ﴿ **ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهـار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قـومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾(١٨٦) قال المفسرون : جمـع قومـه ونادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها . قائلاً : أفلا ترون ما أنا فيـه من العظمـة والملك . وموسى وأتباعـه فقراء ضعفـاء لا ملك لهم ولا سلطان ، كما أن مـوسى الذي يريد أن يكون عليكم ﴿ **لا يكاد يبين** ﴾ أي أن لسانه فيه ثقل وفرعـون في هذا كاذب ، لأن الله تعالى رفع عن موسى هذا الثقل لقـوله تعـالى : ﴿ **قال قـد أوتيت سؤلـك يا مـوسى** ﴾(١٨٧) بعد قـوله عليـه السلام : ﴿ **واحلل عقـدة من لسـاني * يفقهوا قولي** ﴾(١٨٨) وفرعون عندما يطرح على قومه ما هو ليس بموجـود دليل على أنه كان يعلم أن عقول قومه في سلة مهملاته . ثم قال فرعون ما قالـه قبله كفار قـوم نوح وكفار عاد وثمود . ولكن على طريقة فرعون ، فقال : لو كان موسى رسـولاً . لألقى إليه أسورة من ذهب أو جاء معه المـلائكة يخـدمونـه ويشهدون بتصـديقه ، وكانت المعابد الفرعونية تعج حينئذ بالعديد من الكهان السحـرة . الذين يـوهمون النـاس بأن داخـل المعابـد ملائكـة تعمل في خـدمة الفـرعون ، وعلى هـذا شب القوم . . . وعندما قال فرعون هذا لقومه وافقوه ﴿ **فاستخف قومـه فأطـاعوه** ﴾ أي استخف عقولهم وأحلامهم ، ودعاهم إلى الضلالـة فاستجـابوا لـه(١٨٩) والمقولـة

---

(١٨٥) تاريخ الجوع والخوف/ للمؤلف/ تحت الطبع .
(١٨٦) سورة الزخرف ، الآيات : ٥١ ـ ٥٤ .
(١٨٧) سورة طه ، الآية : ٣٦ .
(١٨٨) سورة طه ، الآيتان : ٢٧ ـ ٢٨ .
(١٨٩) الميزان : ١٨/١١١ ، ابن كثير : ٤/١٣٠ .

الفرعونية التي تطالب بالملائكة لتكون في خدمة الرسول . رفعها من بعده كفار قريش فقالوا : ﴿ **لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً** ﴾(١٩٠) وكم كان في قريش من فرعون .

وبعد أن شقت سياسة التشكيك والتحقير طريقها . وبعد أن توغل فرعون في عقول قومه . بدأ فرعون يلوح بسياسة الإرهاب ، وبدأ القوم يعلنون أن الرجم بالحجر سيكون مصير موسى . وعندما علم موسى عليه السلام بذلك قال : ﴿ **. . . وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون** ﴾(١٩١) قال المفسرون : معناه : أني التجأت إلى الله تعالى من رجمكم إياي فلا تقدرون على ذلك ، فالظاهر أنه أشار إلى ما أمنه ربه من قبل المجيء إلى القوم كما في قوله تعالى : ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾(١٩٢) وبعد أن التجأ موسى إلى حصن الله الحصين ، قال لهم : إن لم يؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني . لا لي ولا علي ، ولا تتعرضوا إليّ بخير أو شر(١٩٣) .

وأمام سياسة التشكيك والتحقير والإرهاب توجه موسى بالدعاء : ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾(١٩٤) قال المفسرون : دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون ، وقد ذكر من دعائه السبب الداعي له إلى الدعاء ، وهو إجرامهم إلى حد يستحقون معه الهلاك ، ويعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال بعد ذلك : ﴿ **فأسر بعبادي ليلاً** ﴾ وهو الهلاك(١٩٥) وتفصيل دعاء موسى عليه السلام جاء في موضع آخر من كتاب الله ، عندما أمر الله تعالى موسى وهارون أن يجعلوا بيوت بني إسرائيل في مصر متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي وجهة واحدة ، كي يتمكنا من القوم بالتبليغ ويتمكنوا من إقامة الصلاة . فبعد هذا دعا موسى ربه

---

(١٩٠) سورة الفرقان ، الآية : ٧ .
(١٩١) سورة الدخان ، الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ .
(١٩٢) سورة طه ، الآيتان : ٤٥ ـ ٤٦ .
(١٩٣) الميزان : ١٨/١٣٩ .
(١٩٤) سورة الدخان ، الآية : ٢٢ .
(١٩٥) الميزان : ١٨/١٤٠ .

الدعاء القاصم لفرعون وقومه ، يقول تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين * وقال موسى ربّنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** ﴾(١٩٦) قال المفسرون : وهذه الدعوة كانت من موسى غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السلام فقال : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً** ﴾(١٩٧) واستجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة(١٩٨) . وذكر المفسرون أن موسى عليه السلام كان يدعو . وكان هارون يؤمنّ له . فقد كانا معاً يدعوان وإن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده ، وأمرهما الله تعالى بعد أن أجاب دعوتهما أن يستقيما أي أن يثبتا على ما أمرهم الله به وإحياء كلمة الحق ولا يتبعان سبيل الذين لا يعلمون بإجابة ما يقترحونه عليهما عن أهواء أنفسهم ودواعي شهواتهم وفي هذا تلويح إلى أن فرعون وملائه سيسألون أموراً فيها إحياء سنّتهم القومية وسيرتهم الجاهلية(١٩٩) وتحت مظلة الدعاء وقف موسى وقومه في محراب الإيمان . ووقف فرعون وقومه على طريق الانحراف والشذوذ والصد عن سبيل الله لم يفكروا ما الذي ينتظرهم هناك في نهاية الطريق ؟ وهم لم يفكروا لأنهم صادروا العقل وصادروا البصيرة من قديم ، والتفوا حول كهنة المعابد ليأخذ القوم نصيبهم من الدخان ويأخذ فرعون نصيبه من الأمتعة التي تحيط به في الدنيا وترتفع به إلى عالم الاستكبار ، وعند موته تربط الأمتعة ربطاً متيناً وتوضع معه في قبره . فلا يستفيد الأحياء منها ولا الأموات . إن عقيدة الشمس تقف بأصحابها عند السراب في نهاية الطريق . ولكن القوم رضوا بها لأن عليها بصمات الآباء ، تلك البصمات التي حجبت نفوسهم فلم يتدبروا حقيقة النور الذي جعله الله تعالى في يد موسى عليه

---

(١٩٦) سورة يونس ، الآيات : ٨٧ ـ ٨٩ .

(١٩٧) سورة نوح ، الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧ .

(١٩٨) ابن كثير : ٢/٤٢٩ .

(١٩٩) الميزان : ١٠/١١٧ .

السلام ، وهم لم يتدبروا إلّا لأنهم صادروا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم . صادروها لصالح فرعون وحده . فرعون الذي أوهمتهم عقيدة الشمس بأنه باب الخلود الدائم والنعم المقيم .

لقد وقف فرعون وملأه تحت مظلة الدعاء الذي دعا به موسى ، وقف يتباهى بالأنهار والحقول والذهب والجنود ، وفي محراب الإيمان جلس موسى عليه السلام يبشر المؤمنين ، وهو على أرضية اليقين بأن الله تعالى استجاب الدعوة المتضمنة لعذاب فرعون وملئه وعدم توفيقهم للإيمان حتى يروا العذاب الأليم .

*** ٨ - يوم الغضب :**

بعد أن أوحى الله تعالى لموسى وهارون أن يتخذا لقومهما مساكن من البيوت في مصر ، وكانوا قبل ذلك يعيش معظمهم عِيشة البدو في أماكن مختلفة . وأمرهم سبحانه أن يجعلوا بيوتهم متقابلة وفي وجهة واحدة ليسهل اتصال بعضهم ببعض ويتمشى أمر التبليغ والمشاورة والإجتماع والصلوات . بعد أن أمر سبحانه بذلك ، قام موسى وهارون عليهما السلام بتنفيذ ما أمر به الله وكان فرعون يظن أن اجتماع القوم على رقعة واحدة من الأرض في صالحه . لأنه يسهل عليه مراقبة المداخل والمخارج ويستطيع الإغارة عليهم في وقت واحد ومن جهة واحدة فيقضي عليهم جميعاً ، لهذا تركهم فرعون يجتمعون ويشيدون مساكنهم ، وبعد أن ظن فرعون أن بني إسرائيل يشيدون لأنفسهم المصيدة التي فيها يهلكون ، جاء الوحي الإلٰهي الذي فيه هلاك فرعون وملأه . يقول تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسْرِ بعبادي إنكم متبعون** ﴾(٢٠٠) قال المفسرون : أمرهم سبحانه بالسير ليلاً ، وقوله : ﴿ **إنكم متّبعون** ﴾ تعليل للأمر ، أي سِرْ بهم ليلاً ليتبعكم آل فرعون ، وفيه دلالة على أن لله في اتباعهم أمراً(٢٠١) ، وكان موسى عليه السلام يعلم بوحي من الله الاتجاه الذي يسير فيه بقومه والطرق التي يسلكها .

وكان لاقتراب البيوت بعضها من بعض فائدة كبيرة ، حيث تم تنفيذ الأوامر

---

(٢٠٠) سورة الشعراء ، الآية : ٥٢ .

(٢٠١) الميزان : ١٥/٢٧٦ .

بدقة وفي وقت قصير ، وما إن تحرك ركب بني إسرائيل خارج المنطقة حتى علم فرعون بهذا التحرك . يقول تعالى : ﴿ **فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنّا لجميع حاذرون** ﴾[٢٠٢] قال المفسرون : لما علم فرعون بذلك أرسل في (المدائن) التي تحت سلطانه رجالاً (حاشرين) يحشرون الناس ويجمعون الجموع . قائلين للناس : إن (هؤلاء) بني إسرائيل لشرذمة قليلون (وإنهم لنا لغائظون) يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به (وإنا لجميع) مجموع متفق فيما نعزم عليه (حاذرون) نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا وإن كان ضعيفاً قليلاً .

وبعد أن قال فرعون هذا ونقلت أبواق دعايته بلاغه هرولت الجموع الفرعونية ووقفت صفوفاً وراء فرعون ، وانطلق الجميع وراء موسى وقومه يقول تعالى : ﴿ **فأخرجناهم من جنّات وعيون * وكنوز ومقام كريم** ﴾[٢٠٣] قال المفسرون : لما كان خروجهم عن مكر إلهي . بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار التي فيهم ، نسب سبحانه إلى نفسه أنه أخرجهم من قصورهم المشيدة وبيوتهم الرفيعة[٢٠٤] وبدأ جيش الاستكبار يشق الظلام ليدخل في ظلام . وموسى عليه السلام ينطلق بقومه في اتجاه البحر . يقول تعالى : ﴿ **فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين** ﴾[٢٠٥] قال المفسرون : تقدمت جحافل فرعون التي فيها أهل الحل والعقد والأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ولحقوا ببني إسرائيل ﴿ **مشرقين** ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها ﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ أي دنا بعضهم من بعض . فرأى كل من الجمعين الآخر ﴿ **قال أصحاب موسى** ﴾ من بني إسرائيل خائفين فزعين ﴿ **إنا لمدركون** ﴾ سيدركنا جنود فرعون . قال موسى كلا لن يدركونا ﴿ **إن معي ربي سيهدين** ﴾ والمراد بهذه المعية ، معية الحفظ والنصرة . وهي التي وعدها له ربه أول ما بعثه وأخاه إلى

---

(٢٠٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٥٣ ـ ٥٦ .
(٢٠٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٥٧ ـ ٥٨ .
(٢٠٤) الميزان : ١٥/٢٧٧ .
(٢٠٥) سورة الشعراء ، الآيات : ٦٠ ـ ٦٢ .

فرعون ﴿ **إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ أما قوله : ﴿ **سيهدين** ﴾ أي سيدلني على طريق لا يدركني فرعون معها(٢٠٦) .

وانتهى موسى عليه السلام بقومه إلى البحر ، ومن خلفهم تجري عربات وخيول فرعون يقودها الصفوة في الدولة ، وكل واحد فيهم يريد أن يكون له شرف قتل موسى ليزداد قرباً من فرعون ، وعند مسافة قدرها الله بين الطرفين ، جاء وقت المفاصلة . يقول تعالى : ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾(٢٠٧) قال المفسرون : أي كل قطعة منفصلة من الماء (كالطود) وهو القطعة من الجبل العظيم . وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشىٰ** ﴾(٢٠٨) قال المفسرون : عندما ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق كل فرق كالطود العظيم ، أرسل الله تعالى الريح على أرض البحر . فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض . وقوله : ﴿ **لا تخاف دركاً** ﴾ أي من فرعون ﴿ **ولا تخشى** ﴾ أي من البحر(٢٠٩) .

وحفظ الله تعالى البحر على حاله وهيئته حتى قطعه موسى ومن معه وخرجوا منه ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : ﴿ **واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون** ﴾(٢١٠) . قال المفسرون : أي اتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون(٢١١) . وجاء فرعون وجنوده . وشاهدوا الطريق اليابس . واندفعوا فيه ، لم يسجل القرآن أن فرعون تدبر في الأمر ، وأيقن كعسكري أن الذي أمامه مانع طبيعي وليس صناعياً ووجود الطريق اليابس في المانع الطبيعي في لحظة يعني أن هناك معجزة ، وهذا في حد ذاته يدعوه كرجل عسكري أن يعيد تقدير الموقف على أساس جديد . لم يسجل القرآن ذلك ليسقط فرعون أمام التاريخ كعسكري وكفرعون وكإنسان ، وانطلق فرعون بغياً وراء موسى

---

(٢٠٦) الميزان : ١٥/٢٧٧ .
(٢٠٧) سورة الشعراء ، الآية : ٦٣ .
(٢٠٨) سورة طه ، الآية : ٧٧ .
(٢٠٩) ابن كثير : ٣/١٦٠ .
(٢١٠) سورة الدخان ، الآية : ٢٤ .
(٢١١) الميزان : ١٨/١٤٠ .

وقومه يقول تعالى : ﴿ **فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾[٢١٢] فعندما دخل آخرهم الطريق اليابس في البحر . انطبق البحر عليهم يقول تعالى : ﴿ **فأغرقناه ومن معه جميعاً** ﴾[٢١٣] ﴿ **انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾[٢١٤] لم ينجُ أحد لقد غرق الكهنة صناع الآلهة التي من ذهب والتي من طين ! وغرق الأمراء الذين أفنوا حياتهم في الإرتعاش أمام كل فرعون . لينالوا بارتعاشهم كل شيء ترجوه من متاع رخيص ، وغرق الجنود الذين أفنوا حياتهم في الارتعاش والصياح ، لقد أصبح الجميع فريسة للأمواج وسقط فرعون معهم ، والذي كان يتباهى منهم بالتصور أصبح أرخص من أي شيء في الوجود . يقول تعالى : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾[٢١٥] قال المفسرون : أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحداً[٢١٦] . وفي الآية من الاستهزاء بأمرهم وتهويل العذاب الواقع بهم[٢١٧] وفي موضع آخر يقول تعالى عن فرعون : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم** ﴾[٢١٨] قال المفسرون : النبذ : الطرح للشيء من غير أن يُعتد به . والمعنى : فأخذناه وجنوده . وهم ركنه . وطرحناهم في البحر . والحال أنه أتى من الكفر والجحود والطغيان بما يُلام عليه . وإنما خص فرعون بالملامة مع أن الجميع يشاركونه فيها . لأنه إمامهم الذي قادهم إلى الهلاك ، وفي الآية من الإيماء إلى عظمة القدرة وهول الأخذ ، وهوان أمر فرعون وجنوده ما لا يخفى[٢١٩] .

لقد غرقوا . ولم يكونوا في حاجة إلى قبر وشاهد يدل عليهم ، لقد غرقوا ولم يُغنِ عنهم أوزير الذي نسجه الخيال وقال لهم إنه ينتظر الموتى ليضعهم بين الأبرار ، لقد غرقوا وقت شروق الشمس التي طالما سبحوا بحمدها ! ودخل الطين

---

(٢١٢) سورة طه ، الآية : ٧٨ .
(٢١٣) سورة الإسراء ، الآية : ١٠٣ .
(٢١٤) سورة الزخرف ، الآية : ٥٥ .
(٢١٥) سورة القصص ، الآية : ٤٠ .
(٢١٦) ابن كثير : ٣/٣٩٠ .
(٢١٧) الميزان : ١٦/٣٨ .
(٢١٨) سورة الذاريات ، الآية : ٤٠ .
(٢١٩) الميزان : ١٨/٣٨٠ .

في أفواههم القذرة . يقول تعالى في نهايتهم : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾[٢٢٠] قال المفسرون : بكاء السماء والأرض على شيء فائت ، كناية تخيلية عن تأثرهما عن قوته وفقده ، فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم ، كناية عن هوان أمرهم على الله . وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون[٢٢١] وقيل : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم[٢٢٢] .

* مقتل الفرعون :

لقد كان لكل مستكبر قصة وهو يصارع الغرق ، ولكن القرآن تخطى الفراعنة الصغار فلم يصف حالهم مع الموج ، لأنهم صغار أتباع لكل ناعق ! أما فرعون فلقد وقف عنده القرآن ليصف موقفه مع الغرق في مشهد وحركة ، ففرعون هو صاحب التاج الأكبر والجوزة الأعظم ! وهو مؤسس فقه الاستحواز ومؤصل عُقدة الامتلاك ، وهو سيد كل طريق مسدود يبصر فيه بالجنود ويبصر بالعبيد ولا يدخل إليه إلّا كل محني الظهر . يقول تعالى في مشهد فرعون وهو يصارع الأمواج : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلَه إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾[٢٢٣] يقول المفسرون : أي آمنت بأنه ـ وقد وصف الله ـ بالذي آمنت به بنو إسرائيل . ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم . وهو مجاوزة البحر والأمان من الغرق ، ولذلك أيضاً جمع بين الإيمان والإسلام . ليزيل بذلك أثر ما كان يصر عليه من المعصية . فالإيمان كان من أجل مصلحة ، وهذا النوع من الإيمان لا ينفع صاحبه حين البأس . قال تعالى : ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنَّة آلله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾[٢٢٤] إنها سُنَّة الله في عباده أن لا تقبل

---

(٢٢٠) سورة الدخان ، الآية : ٢٩ .

(٢٢١) الميزان : ١٨/١٤١ .

(٢٢٢) ابن كثير : ٤/١٤٢ .

(٢٢٣) الميزان : ١٠/١١٧ .

(٢٢٤) سورة غافر ، الآيتان : ٨٤ ـ ٨٥ .

توبة بعد رؤية البأس[٢٢٥] لهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾[٢٢٦] قال المفسرون : آلآن : أي أتؤمن بالله الآن وهو حين أدركك العذاب ولا إيمان وتوبة حين غشيان العذاب ومجيء الموت من كل مكان ، وقد عصيت قبل هذا وكنت من المفسدين ، وأفنيت أيامك في معصيته . ولم تقدم التوبة لوقتها . فماذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته . وهذا هو الذي كان موسى وهارون سألاه ربهما . أن يأخذه بعذاب أليم ويسد سبيله إلى الإيمان . إلّا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان ولا تغني عنه التوبة شيئاً[٢٢٧] .

إن التجارة لها ميدانها ، وحساب الربح والخسارة له موائده ، أما التجارة في العقيدة والبيع والشراء في آيات الله فكل هذه جرائم لا يفلت مرتكبها من تحت السماء ! ولقد تاجر فرعون في حياته بكل شيء ، وعندما ضربه الموج لم يجد في جعبته إلّا أوراق الإيمان والإسلام ، ولكن هيهات هيهات ، لقد امتلأت بزَّته الحربية بالماء وغاصت به في الأوحال ، وبعد حين دفعه الموج إلى الضفة التي بلغها يوماً وهو مزهواً بالنصر ، بعد أن راوده الأمل في اللحوق بموسى ، لقد قذف به البحر إلى الشاطىء ليكون عبرة لنهاية طريق . وهو الذي التقط يوماً صندوقاً قذف به البحر إلى الشاطىء ليكون الذي بداخله آية لجميع الظالمين . ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾[٢٢٨] لقد قذف اليم في أول الرحلة صندوقاً به موسى . وقذف اليم في آخر الرحلة الفرعون ! قذفه لهدف ومن وراء هذا الهدف حكمة ، فبعد مصرع الفرعون قال تعالى : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾[٢٢٩] قال المفسرون : لم يقل سبحانه : ﴿ **ننجيك** ﴾ وإنما قال : ﴿ **ننجيك ببدنك** ﴾ ومعناه ننجي بدنك . وتنجيته ببدنه تدل على أن له أمراً آخر وراء البدن ، فقده بدنه بغشيان العذاب وهو النفس التي تسمى أيضاً

---

(٢٢٥) الميزان : ١٧/٣٥٧ ، ابن كثير : ٢/٤٣٠ .
(٢٢٦) سورة يونس ، الآية : ٩١ .
(٢٢٧) الميزان : ١٠/١١٨ .
(٢٢٨) سورة القصص ، الآية : ٨ .
(٢٢٩) سورة يونس ، الآية : ٩٢ .

روحاً ، وهذه النفس المأخوذة هي التي يتوفاها الله ويأخذها حين موتها كما قال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾(٢٣٠) وهذه النفس هي التي يخبر عنها الإنسان بقوله : (أنا) وهي التي بها تتحقق للإنسان إنسانيته . وهي التي تدرك وتريد وتفعل الأفعال الإنسانية بواسطة البدن، بما له من القوى والأعضاء المادية . وليس للبدن إلّا أنه آلة وأداة تعمل بها النفس أعمالها المادية ، ولمكان الاتحاد الذي بينها وبين البدن ، يُسمى باسمها البدن ، وإلّا فأسماء الأشخاص في الحقيقة لنفوسهم لا لأبدانهم . وناهيك في ذلك التغير المستمر الذي يعرض البدن مدى الحياة ، والتبدل الطبيعي الذي يطرأ عليه حيناً بعد حين . حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه إلى أجزاء أُخر تتركب بدناً آخر . فلو كان زيد مثلاً هو البدن الذي ولدته أمه يوم ولدته ، والاسم له ، لكان غيره وهو ذو سبعين وثمانين قطعاً والاسم لغيره حتماً ، فهذه وأمثالها شواهد قطعية على أن إنسانية الإنسان بنفسه دون بدنه . والأسماء للنفوس لا للأبدان ، يدركها الإنسان ويعرفها إجمالاً ، وإن كان ربما أنكرها في مقام التفصيل ، وبالجملة فالآية ﴿ اليوم ننجيك ببدنك ﴾ كالصريح أو هو صريح في أن النفوس وراء الأبدان ، وأن الأسماء للنفوس دون الأبدان . إلّا ما يطلق على الأبدان بعناية الاتحاد . فمعنى ﴿ننجيك ببدنك﴾ نخرج بدنك من اليم وننجيه . وهو نوع من تنجيتك . لما بين النفس والبدن من الاتحاد القاضي بكون العمل الواقع على أحدهما واقعاً بنحو على الآخر . . وهذا بوجه نظير قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾(٢٣١) فإن الذي يعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فليست نسبة الإعادة إلى الإنسان إلّا لما بين نفسه وبدنه من الاتحاد . وقد ذكر بعضهم أن مفاد قوله : ﴿ ننجيك ﴾ أن يكون فرعون خارجاً من اليم حياً ، وقال البعض الآخر : إن المراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب يُعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه ، والحق أن هذا كله تكلف لا حاجة إليه . فلم يقل : ﴿ ننجيك ﴾ وإنما قال ﴿ ننجيك ببدنك ﴾ ومعناه ننجي بدنك والباء للآلية أو السببية . والعناية هي الاتحاد الذي بين النفس والبدن . وقال البعض :

---

(٢٣٠) سورة الزمر ، الآية : ٤٢ .

(٢٣١) سورة طه ، الآية : ٥٥ .

﴿ **ننجيك ببدنك** ﴾ بمعنى نجعلك على نجوة من الأرض وهذا لا يفي بدفع الإشكال من أصله . فإن الذي جعل على نجوة هو بدن فرعون على قولهم . وهو غير فرعون قطعاً وإلّا كان حياً سالماً . ولا مناص إلّا أن يقال : إن ذلك بعناية الاتحاد الذي بين الإنسان وبدنه ، ولو صححت هذه العناية إطلاق اسم الإنسان على بدنه من غير نفس ، لكان لها أن تصحح نسبة التنجية إلى الإنسان من جهة وقوع التنجية ببدنه . وخاصة مع وجود القرينة الدالة على أن المراد بالتنجية هي التي للبدن ، دون التي للإنسان المستتبع لحفظ حياته وسلامته نفساً وبدناً والقرينة هي قوله : ﴿ **ببدنك** ﴾[٢٣٢] .

* مشـهد من حيـاة النـار :

دفعت الأمواج بالبدن ليكون للأجيال عبرة وليعلموا أن الله تعالى هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ﴿ **وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون[٢٣٣] لقد ذهب فرعون وقومه ، بعد أن خطوا على جبين الرحلة البشرية خطوطاً عديدة للانحراف ، كانوا هم أئمتها وفقهاؤها . ولقد حذر الله تعالى عباده من هذه الخطوط ومن هؤلاء الأدلة . قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾[٢٣٤] قال المفسرون الدعوة إلى النار ، هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي ، ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار . تصييرهم سابقين يقتدي بهم اللاحقون وقال تعالى : ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة** ﴾[٢٣٥] قال المفسرون : فهم لكونهم أئمة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي ، لا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي من مقتديهم ومتبعيهم وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم ، فالآية في معنى قوله تعالى : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾[٢٣٦] .

---

(٢٣٢) الميزان : ١٠/١١٩ .
(٢٣٣) ابن كثير : ٢/٤٣١ .
(٢٣٤) سورة القصص ، الآية : ٤١ .
(٢٣٥) سورة القصص ، الآية : ٤٢ .
(٢٣٦) سورة العنكبوت ، الآية : ١٣ .

وفرعون دليل القوم في الدنيا . . هو نفسه سيكون دليل أتباعه يوم القيامة يقول تعالى : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾(٢٣٧) قال المفسرون : يقدم قومه : فإنهم اتبعوا أمره . فكان إماماً لهم من أئمة الضلال . ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ أي يقدمهم فيوردهم النار ﴿ **وبئس الورد المورود** ﴾ والورد هو الماء الذي يرده العِطاش من الحيوان والإنسان للشرب . والورود أصله قصد الماء ، وقد يستعمل في غيره ، وفي هذا استعارة لطيفة ، بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعية المبذولة ، بالماء الذي يقصده العطشان ، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله والجنة . لكن قوم فرعون لما غووا باتباع أمر فرعون ، وأخطأوا سبيل السعادة الحقيقية ، تبدلت غايتهم إلى النار ، فكانت النار هي الورد الذي يردونه ، وبئس الورد المورود ، لأن الورد هو الذي يجمد لهيب الصدر ويروي العطشان ، فإذا تبدل إلى عذاب النار . فبئس الورد المورود ﴿ **واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ أي هم اتبعوا أمر فرعون . فأتبعتهم لعنة من الله في هذه الدنيا ، وإبعاد من رحمته وطرد من ساحة قربه ، وبئس الرفد رفدهم يوم القيامة ، وهو النار التي يسجرون فيها(٢٣٨) .

والنار التي وعد الله بها فرعون ومن اتبعه يوم القيامة . لن تكون بعيدة عنهم قبل يوم القيامة ، فهم يعرضون عليها في عالم البرزخ جزاءً لهم لما قدمته أيديهم وخطته على جبين الرحلة البشرية . يقول تعالى : ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب * وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد** ﴾(٢٣٩) قال المفسرون : الآية صريحة أولاً في أن هناك عرضاً على النار ، ثم إدخالاً فيها ، والادخال أشد من العرض . وثانياً في أن العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ ـ عالم متوسط بين

---

(٢٣٧) سورة هود ، الآيتان : ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢٣٨) الميزان : ١٠/٣٨٢ .

(٢٣٩) سورة غافر ، الآيات : ٤٥ ـ ٤٨ .

الموت والبعث ـ وثالثاً أن التعذيب في البرزخ ويوم تقوم الساعة بشيء واحد ، وهو نار الآخرة ، لكن البرزخيين يعذبون بها من بعيد وأهل الآخرة بدخولها . والمعنى : وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار ، أو . . واذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون في النار ، فيقول الضعفاء منهم . للذين استكبروا . إنا كنا في الدنيا لكم تبعاً . وكان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولا شدة أشد مما نحن فيه . فهل أنتم مغنون عنا نصيب من النار . وإن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض . وهذا ظهور مما رسخ في نفوسهم في الدنيا من الالتجاء بكبريائهم ومتبوعيهم من دون الله . يظهر منهم ذلك يوم القيامة . وهم يعلمون أنهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله . فيقول مستكبريهم : إن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل ، فالأسباب ساقطة عن التأثير ، وقد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة ، فحالنا وحالكم ونحن جميعاً في النار واحدة ، ولسنا نختص دونكم بقوة حتى نغني عنكم شيئاً من العذاب ومما قيل في الآية : إن الضمير في قوله : ﴿ **يتحاجون** ﴾ لمطلق الكفار من أهل النار . . بعيد . والقول بأن الضمير لقريش أبعد(٢٤٠) .

لقد انتهت الرحلة بالنار ، نار في عالم البرزخ ونار يوم القيامة ، كما انتهت بلعن في الدنيا ، وفي الآخرة هم من المقبوحين . لقد انتهت الرحلة في الدنيا بالغرق وتدمير ما يعرشون ويوم القيامة بئس الرفد المرفود . إن فرعون وقومه إنتاج حقيقي لعالم الانحراف بجميع رموزه وأعلامه ، لقد حملت الدولة الفرعونية شذوذ وانحراف قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وأهل مدين ففرعون إمام دولة له مجموعة عمل قادرة على التأثير ، ولديه الإمكانيات الهائلة التي يمكن أن ينفذ بها سياسته التي دق الكفر أوتادها على امتداد زمن طويل ، ولأن فرعون مدخل للصد عن سبيل الله ومدخل إلى النار أفاض القرآن في قصته وحذر تعالى الإنسانية كلها من طرق وخطوط فرعون فقال تعالى : ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾(٢٤١) قال المفسرون : إن في حديث موسى وقصته لعبرة لمن كان له خشية ، وكان من غريزته أن يخشى الشقاء والعذاب والإنسان من

---

(٢٤٠) الميزان : ١٧/٣٣٦ .
(٢٤١) سورة النازعات ، الآية : ٢٦ .

غريزته ذلك . ففيه عبرة لمن كان إنساناً مستقيماً على طريق الفطرة[٢٤٢] وقال تعالى : ﴿ **فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين** ﴾[٢٤٣] جعلهم سلفاً للآخرين لتقدمهم عليهم في دخول النار ، وجعلهم مثلاً لهم لكونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا واتعظوا ، ففرعون مجموعة من الجرائم ساعده قومه على ارتكابها ، تحت شعار الحفاظ على سُنَّة الآباء ، التي لا يستفيد منها سوى فرعون وطابور كهنته الذين يطبخون له الفتوى التي يريد ! لقد أجرى فرعون الدماء على جذوع النخل وفي البيوت وفي القصور وجحد بآيات الله وكل ذلك من أجل حماية شذوذه وامتلك فرعون الكثير ، ولكن هيهات هيهات . لقد انهالت على السهل أعاصير الشتاء فدمرت ما كانوا يعرشون ، وقلب البحر الهائج سطحه ، وهبط فرعون وقومه إلى الجحيم ليصبحوا عبرة لأصحاب المداخل المسدودة الذين يدونون أوراق الفقه الواحد ، الذي يعبر عن وجهة نظر فرعونية . . قادرة على امتصاص جميع الأهواء وصهرها في قالب ذهبي واحد !

---

(٢٤٢) الميزان : ٢٠/١٨٩ .

(٢٤٣) سورة الزخرف ، الآية : ٥٦ .

انحرافات بني اسرائيل

﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ .
سورة البقرة ، الآية : ٨٨

* الحمار يحمل أسفارا

[الطريق الى المسيح الدجال]

مقدمـــة :

أثناء حكم يوسف عليه السلام لمصر . جاء بنو إسرائيل وأقاموا فيها ، وسار فيهم يوسف بشريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، وأرسى قواعد التوحيد الذي لا يعبد فيه إلاّ الله وحده لا شريك له في نفوسهم ، وبعد رحيل يوسف عليه السلام هبت عواصف الفراعنة تحمل الوثنية وتطرحها على أرض مصر من جديد[1] . ويُرى هذا لدى قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾[2] وعلى امتداد الثقافة الفرعونية تأثرت الروح الإسرائيلية بالوثنية الفرعونية ومنها عبادة عجل أبيس الذي اعتقدوا أن روح الآلهة تسكنه ! وتحت الراية الفرعونية شرب بنو إسرائيل من وعاء المادية حتى أصبحت المادية أصل أصيل داخل نفوسهم . وهذه المادية هي التي جعلتهم يحكمون في الله سبحانه بما يعقلون من أوصاف الماديات ، ورغم أن شعب بني إسرائيل أجرى حياته في ظل الفرعونية وفيما بعد على المادة إلاّ أن عصبيتهم

---

(١) تاريخ الجوع والخوف/ تحت الطبع .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٣٤ .

القومية كانت تحتفظ لهم بدين آبائهم بصورة من الصور . وعلى الرغم من أن الكثرة منهم كانوا يجرون في حياتهم على أصالة الحس ولا يعنون بما وراء الحس ، إلّا أن عصبيتهم القومية كانت تعتني بما وراء الحس اعتناءً تشريفياً من غير أصالة .

وعندما بعث موسى عليه السلام لم يؤمن به إلاّ القلة إيماناً حقيقياً ، أما الكثرة فكانوا يؤمنون به إيماناً قومياً عاموده الفقري انجاز المصالح . وبعد خروج بني إسرائيل من مصر إلى سيناء ، بَوَّأهم الله المبَوَّأ الطيب الذي يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من مسكن وهواء وماء . فسيناء صحراء جرداء لا شجر فيها ولا سكن والشمس فيها شديدة ، ولكن يطيب لهم المكان ، ساق الله إليهم الغمام ليظلهم ويقيهم وهج الشمس ، وأرسل لهم سبحانه الرياح تحمل لهم المَنّ والسلوى ، وأمر سبحانه موسى أن يضرب بعصاه الحجر ، فلما ضربه انبجست منه اثنتا عشرة عيناً من الماء ، وبالجملة أصبحوا وهم مع رسول الله موسى عليه السلام أحراراً يملكون أنفسهم ويعملون بكل حرية وكرامة ويعبدون إله الخلق . ولكن شعب بني إسرائيل لم يشكر النعمة التي أنعمها الله عليه . فلقد كانت الكثرة إلى الكفر أسبق . والناقضون لعهد الله فيهم أكثر ، فبعد أن ملّوا من العيش في سيناء ، طلب القوم من موسى عليه السلام سعة العيش ، وقالوا له : لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض . فقال لهم موسى : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم . فقالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون .

قال المفسرون : توقف في المراد ما هو امصر فرعون أم مصر من الأمصار . والحق أن المراد مصر من الأمصار[٣] فموسى عليه السلام حينما أراد الانتقال بهم إلى إحدى المدن وإلى مصر من الأمصار من بلاد الشام امتنعوا عليه[٤] ، وقالوا لا قدرة لنا على مقاومتهم وقتالهم فلما رغبهم بوعظه ونصائحه ، وببيان آياته التي أجراها الله على يديه ، وعلموا منه الجد في لزوم دخول تلك البلاد ، وسكنى تلك الأرض المقدسة ﴿ **قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت**

---

(٣) ابن كثير : ١٠٢/١ .
(٤) كتاب الأنباء : ص٣٢٢ .

وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون * قال رب إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾[٥] . لقد طالبهم رسولهم بالقتال ، والإنسان ذو الفطرة النقية يحب الاستشهاد تحت قيادة نبي الله ورسوله . ولكن القوم لم يرتفعوا إلى هذا الفهم نظراً لأنهم لا يعنون بما وراء الحس إلاّ اعتناءً تشريفياً من غير أصالة ولا حقيقة ، ومن أجل هذا قاموا بأعمال تثبت أنهم أكثر أمم الأرض لجاجاً وخصاماً وأبعدهم عن الانقياد للحق ، لأنهم يتمادون في الجهالة والضلالة ولا يأبون عن أنواع الظلم وإن عظمت ، وعن نقض المواثيق وإن غلظت . والقرآن الكريم سجل لهم العديد من مواقف الكفر والجحود وبأنهم كفروا النعمة وفرقوا الكلمة واختلفوا في الحق ، ولم يكن اختلافهم عن عذر الجهل ، وإنما اختلفوا عن علم . وشعب بني إسرائيل لم يعبد كله العجل . ولا كلهم عصوا الأنبياء ولا كلهم قتلوا الأنبياء إلى غير ذلك من معاصيهم ، وإنما نسبت المعاصي إلى الكل رغم أنها صادرة عن البعض ، لكونهم جامعة ذات قومية واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض ، وينسب فعل بعضهم إلى الآخرين . لمكان الوحدة الموجودة فيهم ، وكما رأينا قبل ذلك أن الذي عقر ناقة صالح كان فرداً واحداً ولكن الله تعالى نسب عملية العقر إلى ثمود كلها لأنهم قومية واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض .

* ١ ـ بصمات الانحراف على وجه شعب إسرائيل :

لقد فَضَّل الله تعالى بني إسرائيل على العالمين ، لأن فيهم أنبياء بني إسرائيل ، فوجود النبوة هو العمود الفقري للتفضيل وليس وجود الشعب ، قال تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾**[٦] قال المفسرون :

(٥) سورة المائدة ، الآيتان : ٢٤ ـ ٢٥ .

(٦) سورة الأنعام ، الآيات : ٨٣ ـ ٨٨ .

قوله : ﴿ **وكـلا فضلنا على العـالمين** ﴾ فالعـالم هو الجمـاعة من النـاس . كعالم العـرب وعالم العجم وعـالم الروم . ومعنى تفضيلهم على العـالمين ، تقـديمهم بحسب المنزلة على عالمي زمانهم . لما أن الهدايـة الخاصـة الإلٰهية أخـذتهم بلا واسطة . وأما غيرهم من الناس فإنما تشملهم رحمة الهدايـة بواسـطتهم . ويمكن أن يكون المراد . تفضيلهم بما أنهم طائفة مهدية بالهداية الفـطرية الإلٰهيـة من غير واسطة على جميع العالمين من الناس . سواء عاصروهم أو لم يعاصـروهم . فإن الهداية الإلٰهية من غير واسطة . نعمة يتقـدم بها . تلبس بهـا على من لم يتلبس . وقد شملت المذكورين من الأنبياء ومن لحق بهم من آبائهم وذرياتهم وإخـوانهم . فالمجتمع الحاصل من الأنبياء الملتف حولهم مفضل على غيرهم جميعـاً بتفضيل إلٰهي (٧) .

فالذين حـول دائرة النبـوة ، مهديـون إلى صراط مستقيم وفي أمن إلٰهي من خطرات السير وعثـرات الطريق . أمـا الذين يسيـرون على طريق يفـرقون فيـه بين رسـل الله ، فيؤمنـون ببعض ويكفـرون ببعض ، أو يفـرقـون فيـه بين أحكـام الله وشرائعه ، فيؤخذ فيه ببعض ويترك بعض ، أو يركبون الطرق التي لا تضمن سعادة حياة المجتمع الإنساني ، فهذه الطرق هي الطرق التي لا مرضاة فيها لله سبحانه ، لأن أصحابها انحرفوا عن دائرة الأنبياء التي هي شريعة الفـطرة إلى مهابط الضـلال ومزالق الأهواء . فبني إسرائيل فضلهم الله على العالمين لأنهم الأرضية لأنبياء بني إسرائيل . فبدون الأنبياء مـا ذكر اسم بني إسـرائيل . وبني إسـرائيل بـدون الدين الحق لا قيمة لهم ولا وزن . ولذا نـرى أنهم عندمـا طالبـوا موسى بـأن يجعل لهم آلهـة من دون الله ، ردهم عليه السـلام إلى دائرة التفضيـل التي لا تستنـد إلّا على الـدين الحق . يقول تعـالى : ﴿ **وجاوزنـا ببني إسرائيـل البحـر فـأتـوا على قـوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهـاً كما لهم آلهـة قال إنكم قـوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وبطل ما كانـوا يعملون * قال أغيـر الله أبغيكم إلٰهـاً وهو فضلكم على العـالمين * وإذ أنجاكم من آل فـرعون يسـومـونكم سـوء العذاب . . . .** ﴾(٨) الآية قال المفسرون : كانت نفوسهم قـد تأثـرت بالعبـادات

---

(٧) الميزان : ٧/٢٤٣ .

(٨) سورة الأعراف ، الآيات : ١٣٨ ـ ١٤١ .

المصرية . لذلك كانوا يتصورون أن الله سبحانه جسم من الأجسام ! وكلما كان موسى عليه السلام يقرب لهم الحق من أذهانهم حولوه إلى أشكال وتماثيل . . لهذه العلة لما شاهدوا في مسيرهم قوماً يعكفون على أصنام لهم إستحسنوا مثل ذلك لأنفسهم ، فسألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلٰهاً كما لهم آلهة يعكفون عليها ! فقال : كيف ألتمس لكم رباً مصنوعاً وهو غير الله ربكم ، وإذا كان غيره فعبادته متبرة باطلة . فقالوا : فكيف نعبده ولا نراه . ولا سبيل لنا إلى ما لا نشاهده ـ كما يقول عبدة الأصنام ـ فقال : اعبدوه بما تعرفونه من صفته . فإنه فضلكم على سائر الأمم بآياته الباهرة ودينه الحق . وإنجائكم من فرعون وعمله .

فكما ترى . دفعهم موسى عليه السلام بألطف بيان وأوجز برهان يجلي عن الحق الصريح للأذهان الضعيفة التغفل[9] لقد ردهم عليه السلام إليه بصفته رسول الله الذي على يديه شاهدوا المعجزات وبصفته أعلم الناس بدين الله الحق لأن الله فضله على العالمين ، وبردهم إليه أدخلهم في دائرة التفضيل . وهم داخل هذه الدائرة ما داموا في ظلال الأنبياء . فإذا كذبوا الأنبياء أو قتلوهم ، فلا مكان لهم على الصراط المستقيم ولو رفعوا آلاف الرايات التي تحمل في ظاهرها رموز الصراط المستقيم ، وبني إسرائيل تاجروا بالاسم على امتداد فترة طويلة من تاريخهم ، وذلك بعد أن قفزوا بعيداً خارج دائرة الأنبياء . لقد تمردوا على موسى وهارون عليهما السلام . يقول تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم** ﴾[10] قال المفسرون : أي لم توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة[11] ولم يقف الأمر عند موسى ، بل تمردوا على جميع أنبياء الشجرة الإسرائيلية ، حتى لعنهم داوود وعيسى ابن مريم عليهم السلام . يقول تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾[12] قال المفسرون : إخبار

---

(٩) الميزان : ٨/٢٣٥ .
(١٠) سورة الصف ، الآية : ٥ .
(١١) ابن كثير : ٤/٣٥٩ .
(١٢) سورة المائدة ، الآيات : ٧٨ ـ ٧٩ .

بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم ، وفيه تعريض لهؤلاء الذين كَفَّرهم الله في هذه الآيات . بأنهم ملعونين بدعوة أنبيائهم أنفسهم . وذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم واستمرارهم على الاعتداء .

لقد قطع بنو إسرائيل شوطاً طويلاً في عالم الانحراف . فحرّفوا الكلم عن مواضعه . وكفروا بآيات الله . وقتلوا الأنبياء بغير حق . وقالوا قلوبنا غلف . وبعد هذا يقولون . إن الله فضَّلهم على العالمين ! إن الشذوذ الذي دق قوم نوح أوتاده انتهى آخر الأمر إلى سلة بني إسرائيل ! بمعنى أن الانحراف الذي وضعه قوم نوح ، ضرب الله أصحابه بالغرق ليكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم . . أما الانحراف نفسه فإن طرحه على الأجيال في كل زمان ، مهمة شيطانية . . فالشيطان يلتقط الانحراف بعد التجربة الإنسانية الأولى . ثم يزينه بما يستقيم مع جيل آخر . وبعد انتهاء الجيل يقوم بتعديل الانحراف بعد التجربة الإنسانية الثانية . ليلقيه على جيل ثالث . وهكذا . فمن كان له عبرة في السلف وتذكر ضربات الطوفان والرياح والصيحة وغير ذلك . . ابتعد بفطرته النقية عن مصادر الشذوذ الملون والانحراف المغلف بأغلفة براقة ! أما الذين تربَّعت عبادة العجول على عقولهم ، فإن في سلالهم تتجمع جميع الانحرافات ابتداءً من قابيل قاتل أخيه وانتهاءً بآخر انحراف وآخر شذوذ . وبنو إسرائيل استحوذوا على جميع الانحرافات ثم قاموا بنشرها على صفحة العالم للصد عن سبيل الله ، معتمدين في ذلك على أديان اخترقوها وقاموا بتوجيهها نحو أهدافهم وأيضا على منظمات وجمعيات تحمل لافتات براقة ظاهرها الرحمة والعدل وباطنها العذاب الأليم . ونحن سنوجز هنا انحرافات الأوائل التي استقرت في السلال الإسرائيلية بعد أن قام تلاميذ الشيطان بتحويرها وتهذيبها وتجميلها حتى استقرت في الصورة الأخيرة .

١ ـ بصمة انحراف قوم نوح :

كما ذكرنا من قبل أن قوم نوح عبدوا الأصنام ، ورفضوا بشرية الرسول ، وأطاحوا بسنة العدل الإجتماعي فقسموا البشر إلى أقوياء وضعفاء ، فالأقوياء هم الأشراف . والضعفاء هم الأراذل ، وبنو إسرائيل لم يخرجوا قيد أنملة عن هذا ، لقد عبدوا العجل واتبعوا الأهواء ، وسنتكلم عن هذا في موضعه ، أما رفضهم للرسول البشر . . فلق رفعوا هذه اللافتة في وجه نبي الله الخاتم محمد صلى الله

عليه وآله وسلم . يقول تعالى : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾(١٣) قال المفسرون : أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وعليه فالسائل هو الطائفتان جميعاً دون اليهود فحسب . والطائفتين ترجعان إلى أصل واحد . وهو شعب إسرائيل ، بُعث إليهم موسى وعيسى عليهما السلام ، ودعوة عيسى انتشرت بعد رفعه في غير نبي إسرائيل ، وما قوم عيسى بأقل غلماً لعيسى من اليهود لموسى عليه السلام(١٤) . لقد سألوا رسول الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء مكتوب من الله إلى فلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به(١٥) . وهذا السؤال بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن . لم يكن إلاّ سؤالاً جزافياً لا يصدر إلاّ ممن لا يخضع للحق ولا ينقاد للحقيقة ، وإنما يلغوا ويهذوا بما قدمت له أيدي الأهواء . من غير أن يتقيد بقيد أو يثبت على أساس(١٦) .

ولم يطلبوا خطاب السماء فقط . وإنما طالبوا أيضاً بآية على الأرض يقول تعالى : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين * فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير** ﴾(١٧) قال المفسرون : كذب الله تعالى هؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار . وأخبر على لسان رسوله . بأنه قد جاءهم رسل من قبل محمد بالحجج والبراهين وبنار تأكل القرابين . فلماذا قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلوهم . أمثال زكريا ويحيى من أنبياء بني إسّرائيل المقتولين بأيديهم . ثم أخبر الله تعالى رسوله بأن لا يوهنه تكذيب هؤلاء له . فله أسوة بمن قبله من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البينات .

---

(١٣) سورة النساء ، الآية : ١٥٣ .
(١٤) الميزان : ٥/١٢٩ .
(١٥) ابن كثير : ١/٥٧٢ .
(١٦) الميزان : ٥/١٣٠ .
(١٧) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٨٣ ـ ١٨٤ .

وبنو إسرائيل الذين يرفعون لافتة التفضيل على العالمين. قالوا لمحمد رسول الله ما قاله فرعون لموسى عليه السلام لقد وصف فرعون آيات موسى بالسحر. وبنو إسرائيل لم يفعلوا أكثر من هذا. يقول تعالى: ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾[18] قال المفسرون: ملخص دعوة عيسى عليه السلام ﴿ **أني رسول الله إليكم** ﴾ أشار بهذا إلى أنه لا شأن له إلّا أنه حامل رسالة من الله إليهم، ثم بين متن ما أرسل إليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله: ﴿ **مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول...** ﴾ فقوله: ﴿ **مصدقاً لما بين يدي من التوراة** ﴾ بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة. ولا تناقض شريعتها بل تصدقها، ولم تنسخ من أحكامها إلّا يسيراً. والنسخ بيان انتهاء أمر الحكم وليس بإبطال. ولذا جمع عليه السلام بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها في قوله: ﴿ **ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم** ﴾[19] ولم يبين لهم إلّا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله: ﴿ **قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[20].

وقوله: ﴿ **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته عليه السلام. وقد أشار إلى الشطر الأول بقوله: ﴿ **مصدقاً لما بين يدي من التوراة** ﴾ ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه، ولا يكون إلّا بشيء من الخير يوافيه ويعود إليه، والخير المترقب من بعثة النبي ودعوته. هو انفتاح باب الرحمة الإلهية على الناس، فيه سعادة دنياهم وعقباهم، من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما... فماذا فعل بنو إسرائيل في الرسول الذي بعثه الله ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم وبين لهم بعض ما يختلفون فيه؟ وماذا كان موقفهم من النبي أحمد صلى الله عليه وآله الذي بشر به عيسى والذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؟ لقد كان موقفهم من

---

(١٨) سورة الصف، الآية: ٦.
(١٩) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.
(٢٠) سورة الزخرف، الآية: ٦٣.

عيسى أنهم كذبوه . وحاصروه . فرفعه الله إليه . أما موقفهم من أحمد صلى الله عليه وآله فكان هو نفس موقف فرعون من موسى ﴿ **قالوا هذا سحر مبين** ﴾ .

أليس في هذا بصمات كفار قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم فرعون ، لقد رفضوا بشرية الرسول بما يستقيم مع أهوائهم . فطالبوا بكتاب من السماء وقربان تأكله النار وعندما شاهدوا المعجزة أمام عيونهم بعدما شاهدوا معالمها على صفحات كتبهم قالوا : هذا سحر مبين . وبعد أن رفضوا القمة على امتداد عصورهم ، بدأوا يرفضون القاعدة وفقاً لفقه كفار قوم نوح الذين صنفوا البشرية إلى قسمين : أشراف وأراذل ! فهذا الفقه سار بشذوذه على امتداد المسيرة البشرية ، واستقر في النهاية داخل سلة بني إسرائيل ، فادَّعوا أنهم شعب الله المختار ! وأنهم أولياء الله وأحباؤه ، وباقي البشر بالنسبة لهم مجرد حيوانات آدمية تَكِدّ من أجلهم ، وتحمل على ظهورها أحجار هيكلهم ، ولقد أطاح القرآن الكريم بتصنيفهم للبشر ، وتحداهم بأن يتمنوا الموت أمام رسول الله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : ﴿ **قل يا أيها الذين هادوا إنْ زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين** ﴾(٢١) قال المفسرون : ومحصل المعنى : قل لليهود مخاطباً لهم . يا أيها الذين تهودوا ، إن كنتم اعتقدتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، إن كنتم صادقين في دعواكم . فتمنوا الموت ، لأن الولي يحب لقاء وليه ، ومن أيقن أنه ولي لله وجبت له الجنة ، ولا حاجب بينه وبينها إلاّ الموت ، وعلى هذا فهو يحب الموت ويتمنى أن يحل به ، ليدخل دار الكرامة ، ويتخلص من هذه الحياة الدَّنِيَّة التي ما فيها إلاّ الهم والغم والمحنة والمصيبة . وقد علل سبحانه عدم تمنيهم الموت بما قدمت أيديهم ، وهو كناية عن الظلم والفسوق ، ومعنى الآية ﴿ **ولا يتمنونه أبداً** ﴾ أي ولا يتمنون الموت أبداً بسبب ما قدمته أيديهم من الظلم ، فكانوا ظالمين والله عليم بالظالمين ، يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه ، لا ولاية بينه وبينهم ولا محبة ، والآيتان مع معنى قوله تعالى : ﴿ **قل إنْ كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين** ﴾(٢٢) إن ادِّعاء

---

(٢١) سورة الجمعة ، الآية : ٦ ـ ٧ .

(٢٢) سورة البقرة ، الآيتان : ٩٤ ـ ٩٥ .

الولاية تطوير لأطروحة الأشراف والأراذل . . تلك الأطروحة التي مرت بتجارب عديدة داخل المعامل الشيطانية حتى طالت الكبير والصغير، داخل البيت الواحد والشارع الواحد والقرية الواحدة . لقد رفع الأشراف أعلامهم ، وما زالوا يسخرون من الأراذل الذين يجمعون الألواح والدُّسُر . إن ادِّعاء بني إسرائيل هذا كان مظلة كبرى قاست البشرية من تحتها جرائم لا حصر لها ، وحتماً سيأتي الطوفان يوماً ، وليس كل طوفان من ماء . وليس كل سفينة من ألواح ودُسُر .

٢ ـ بصمة انحراف قوم عاد :

استكبرت عاد قوم هود ، ودقت في خيام الانحراف وتد وثقافة (مَنْ أشد منا قوة ؟) ، وهذا الشذوذ ناله التطوير على امتداد المسيرة البشرية ، فتلاميذ الشيطان ، وفَّروا لكل منحرف جرعته ! أما فيما يتعلق ببني إسرائيل . فلقد امتلأت سلالهم بالذهب وبالمكائد ، بالترغيب والترهيب ، بالتجويع والتخويف . والقرآن عندما سجل لهم انبهارهم بما عندهم وضعهم في موضع الخزي ، فعاد عندما قالوا من أشد منا قوة ؟ لم يشيروا إلى الله سبحانه صراحة . لهذا قال تعالى : ﴿ **أو لم يَرَوْا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة . . .** ﴾[٢٣] أما بنو إسرائيل فلقد طرحوا الفقه بعد تطويره وقالوا إن الله فقير !! وإن يده مغلولة !!! أمَّا هم فأغنياء . يقول تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾[٢٤] قال المفسرون : إنهم إنما تكلموا بهذه الكلمة الأثيمة في شيء من أمر الرزق . إما في خصوص المؤمنين ، لما في عامتهم من الفقر الشامل والعُسرة وضيق المعيشة ، وأنهم إنما قالوا هذا القول استهزاءً بالله سبحانه ، إيماءً إلى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به وإنجائهم من الفقر . وإما أنهم إنما تفوهوا بذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾[٢٥] فقالوا : يد الله مغلولة لا يقدر على تحصيل ما ينفق في حوائجه . لترويج دينه وإحياء دعوته ، وقد رد الله عزّ

---

(٢٣) سورة فصّلت ، الآية : ١٥ .

(٢٤) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .

(٢٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٤٥ .

وجلّ عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه(٢٦) . ولعنهم . ولعنة الله تعالى لأحد . . إنما هو تعذيبه بعذاب إما دنيوي أو أخروي . فاللعن هو العذاب المساوي لغل أيديهم أو الأعم منه ومن غيره(٢٧) .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذب الحريق** ﴾(٢٨) قال المفسرون : القائلون هم اليهود ، بقرينة ما في ذيل الآية من قتلهم الأنبياء وغير ذلك ، بأنهم قالوا ذلك لما رأوا فقر عامة المؤمنين وفاقتهم ، فقالوا ذلك تعريضاً بأن ربهم لو كان غنياً لغار لهم وأغناهم . فليس إلّا فقير ونحن أغنياء !!! وقد رد الله عز وجل عليهم ما قابلوه . وأخبر سبحانه أن قولهم هذا ومعاملتهم رسل الله . وقد قارن الله قولهم هذا بقتل الأنبياء : لكونه قولاً عظيماً . سيجزيهم الله عليه شر الجزاء .

لقد تمدد فقه عاد آخر الزمان وجاب البحار وحلق في الفضاء وجلس على مقاعد الصفوف الأولى في المحافل الدولية ! وتسلل من تحت الأظافر ليتجسس على الناس ويحصي الكلمات حتى في السكون ! وجميع ذلك في الظاهر من أجل حقوق الإنسان . أما في الباطن فمن أجل إنسان واحد ، يعتقد بأن الله فضله على العالمين وأنه شعب الله المختار ، بدون قيد أو شرط . إنه فقه القوة وبناء الأعمدة والجدران ! إنه فقه الغطرسة والاستكبار ، وما عاد من الظالمين ببعيد !

٣ - بصمة انحراف ثمود :

لقد عقرت ثمود الناقة التي جعلها الله آية لصالح عليه السلام ، وإذا كان عقر الحقائق قد شق طريقه وسط المسيرة البشرية ، بواسطة تلاميذ الشيطان . فإن فقه العقر عندما وصل إلى سلة بني إسرائيل كان قد ذهب مذهباً بعيداً . فالقوم تخصصوا في قتل الأنبياء . يقول تعالى : ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون** ﴾(٢٩)

---

(٢٦) ابن كثير : ٢/٧٥ .

(٢٧) الميزان : ٦/٣٣ .

(٢٨) سورة آل عمران ، الآية : ١٨١ .

(٢٩) سورة المائدة ، الآية : ٧٠ .

قال المفسرون : يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق ، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه[٣٠] وعلى هذا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساؤوا مواجهته وإجابته وجعلوا الرسل المبعوثين فيهم فريقين : فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ، وقد ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بما فعلوا ، فأعمى ذلك الظن والحسبان أبصارهم عن إبصار الحق ! وأصم ذلك آذانهم من سماع ما ينفعهم من دعوة أنبيائهم !

واليهود قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام . وكان الله قادراً على منعهم من قتلهما ، كما كان سبحانه قادراً على منع ثمود من عقر الناقة ، ولكن كل شيء يجري لهدف ومن وراء هذا الهدف حكمة ؛ فزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام هم آخر أنبياء الشجرة الإسرائيلية . ومن عدل الله سبحانه أنه جعل سد منافذ الهدى يأتي على أيدي الظالمين ، ليكون رفضهم للهدى هو عين إقامة الحجة عليهم بأنهم قد جاءهم من الله هدى . وقتل بني إسرائيل لأنبياء الله ، يدل على أن القوم اتسعوا في الانحراف والشذوذ ، ومعنى رفضهم للهدى من أجل المحافظة على الانحراف ، أنهم باختيارهم خرجوا من دائرة التفضيل على العالمين ، لكونهم شعب غير جدير بالجندية تحت قيادة أنبياء الله . باختصار لم يظلمهم الله ، فهم الذين قتلوا الأنبياء وهم الذين قفزوا خارج دائرة التفضيل ، ولأن قيادة البشرية ليست حكراً على أحد ، فقد جاء الله تعالى بالذين يتولون قيادة المسيرة من بعد شعب بني إسرائيل الذي تفرغ للكيد والظلم والفساد . وبني إسرائيل كان عمدتهم في قتل الأنبياء وتكذيبهم ، أنهم لا يجدون عندهم ما تهوى أنفسهم . بمعنى أنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم !! وهذا ضد حركة الوجود لقوله تعالى : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن** ﴾[٣١] قال المفسرون : إن الذين يكرهون الحق . انما يكرهونه لمخالفته هواهم . فهم يريدون من الحق ان يتبع أهواءهم وهذا مما لا يكون ، إذ لو اتبع الحق أهواءهم .

---

(٣٠) ابن كثير : ٢/٨٠ .

(٣١) سورة المؤمنون ، الآية : ٧١ .

تركوا وما يهونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام واتخذوا الأرباب واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء والمنكر والفساد . جاز أن يتبعهم الحق في غير ذلك من الخليقة والنظام الذي يجري فيها بالحق . فيعطي كل واحد منهم ما يشتهيه من جريان النظام ، ولا يكون ذلك إلّا بتغيير أجزاء الكون عما هي عليه ، فتبدل العلل والأسباب ، وتغير الروابط المنتظمة إلى روابط جزافية مختلة متدافعة ، توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم . وفي هذا فساد السماوات والأرض ومن فيهن ، واختلال النظام ، وانتفاض القوانين الجارية في الكون ، لأنه من البين أن الهوى لا يقف على حد ولا يستقر على قرار .

وقديماً عقرت ثمود الناقة ، وكانت الناقة ترشدهم إلى الطريق الحق ، فعندما تغوص ثمود في أوحال الذنوب تشرب الناقة من الماء الكثير ولا تترك لهم إلّا القليل ، كما تأكل من العشب مثل ذلك ، وعندما يخرجوا من أوحال الذنوب لا تشرب الناقة ولا تأكل إلّا القليل ، كانت الناقة تفعل وصالح عليه السلام يترجم . لكنهم أَبَوْا إلّا الأوحال وأرادوا أن توافق حركة الناقة أفعالهم التي تمليها أهواءهم ولأن الحق لا يتبع الأهواء . . عقروها ، ولأن الأنبياء لم يأتوا بني إسرائيل بما لا تهوى أنفسهم قتلوهم ، فأي فرق بين ثمود وبين بني إسرائيل ؟ لقد قتلوا زكريا ويحيى وقالوا : ﴿ **إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾[٣٢] لقد شاهدوا معجزاته الباهرات التي كان يبرىء بها الأكمه والأبرص وَيُحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها ، وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه ! وخالفوه ! وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم ! حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام . ولم يتركوه في سياحته فعملوا على حصاره ، وعندما شرعوا في الهجوم عليه ، رفعه الله إليه ، وألقى الله شبه عيسى على آخر . فلما رأوا شبيهه ظنوه إياه فألقوا القبض عليه وصلبوه .

إن حركة ثمود لم تَمُتْ . بل تجددت ولبست أكثر من ثوب ذواعاً عن الأهواء ، بعد أن فقد القوم روح الطاعة والسمع لرسل الله . وبعد أن استقرت

---

(٣٢) سورة النساء ، الآية : ١٥٧ .

مَلَكَة الاستكبار والعتو فيهم . فإن حركة ثمود باقية تحفر بخناجرها الصخور والقبور ليدفنوا كل ناقة ، وكم في كون الله من ناقة لا تسير على أربع ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾(٣٣) .

٤ ـ بصمة انحراف قوم لوط :

قوم لوط قطعوا السبيل ودقوا أوتاد اللاأخلاق في طريق المسيرة البشرية ، ورقعوا الحجارة في وجه من يريد الإصلاح ! وهددوه بالرجم وخوفوه بالإخراج من قريتهم ! كان لوط عليه السلام يريد زرع الأخلاق الفاضلة وإزالة الأخلاق الرذيلة لأن المعارف الحقة والعلوم المفيدة لا تكون في متناول البشر إلّا عندما تصلح أخلاقهم كان عليه السلام يريد أن يرتفع القوم ويخرج من حياة الحضيض حيث الفحشاء والوقاحة والفساد إلى بئر العفة حيث يتعلمون الأدب ولا يتركون شيئاً إلّا لله ولا يتعلقون بسبب إلّا وهم متعلقون بربهم قبله ومعه وبعده . ولكن القوم أَبَوْا إلّا الفحشاء والعار فحل بهم الدمار . ومن بعدهم بدأت الفحشاء حول وتدهم الذي دقوه تتسع شيئاً فشيئاً ، وعندما استقرت الفحشاء في معامل بني إسرائيل خرجت بوجوه عديدة ، تنطلق من فقه يحب أن تشيع الفاحشة بين الناس ، ومن أجل هذا الهدف زينوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . زينوا المقدمات والنتائج . وبعد أن رفعت أعلام الفواحش فتحوا الأبواب للمنكر ودوّنوا له الدساتير وبعد أن استقر في عالمهم المنكر دخل البغي .

إنها دوائر تسلم بعضها بعضاً ، فالفاحشة في عهد قوم لوط كانت بقعة قذرة ، أما في عهد بني إسرائيل فكانت أقذر وأوسع ، لقد سيطرت أدواتهم على عالم السهرات والأزياء وبيوت التجميل ومعامل السينما ودور العرض ووسائل الإعلام مسموعة ومنظورة ومقروءة . وظهرت في مدارسهم اللاأخلاقية أجيال المخنثين وفي هذه الدوائر ظهر الجنس الثالث حيث الرجال للرجال ! والجنس الرابع حيث النساء للنساء ! واتسعت تجارة اللواط والزنا والسحاق وأصبحت لها مدن ودول واستيراد وتصدير ! وبالجملة قطع الفساد شوطاً طويلاً في عالم الانحراف والشذوذ وأصبح يهدد البشرية في عمقها . وتهديد العمق البشري يُدرج

---

(٣٣) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧

في جرائم إهلاك النسل ، وفي عصر الهيمنة لبني إسرائيل وأتباعهم سعى الجميع في الأرض ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل ، وكما رفع قوم لوط الحجارة في وجه الذين يتطهرون ؛ فإن بني إسرائيل عملوا من أجل إشعال الحروب للفتك بالذين يتطهرون . يقول تعالى : ﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين** ﴾[٣٤] قال المفسرون : أي أنه كلما أثاروا حرباً على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين . أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم ، والآية على ما يدل السياق تسجل عليهم خيبة المسعى في إيقاد النيران التي يوقدونها على دين الله وعلى المسلمين . بما أنهم مؤمنين بالله وآياته[٣٥] وقوله : ﴿ **ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض والله لا يحب مَنْ هذه صفته[٣٦] . إن فقه الفساد الذي يحوي بين دفتيه جميع صور الفواحش . سهر عليه الذين لعنهم الله في القرآن ، والله تعالى لعن في القرآن إبليس ولعن فيه اليهود ولعن فيه المشركين ولعن فيه المنافقين . والملعون لا يمكن بحال أن يقيم مجتمعاً فاضلاً عادلاً ، لأن المجتمع الفاضل لا يقومك إلّا بالأخلاق الفاضلة ، والأخلاق الفاضلة تحتاج إلى عامل يحرسها ويحفظها في ثباتها ودوامها ، ولا يكون هذا العامل سوى التوحيد .

٥ ـ بصمة انحراف أهل مدين :

لقد نهى الله تعالى عن نقص المكيال والميزان ، وسماه إفساداً في الأرض ، ومدين دقت وتدها في طريق المسيرة البشرية ، ولقد نصحهم شعيب عليه السلام فَأَبَوْا إلّا بخس الناس أشياءهم ، وفي عهد بني إسرائيل اتسعت دوائر المعاملات المالية ، وأصبح للمال بيوت عتيقة دولية وإقليمية ، وقلَّما تجد بيتاً عتيقاً من هذه البيوت ليس لليهود فيه خيط ، فالقوم أحكموا السيطرة لمعرفتهم بخفايا الربح السريع على امتداد تاريخهم الطويل . والقرآن الكريم وصفهم بأنهم في معاملاتهم يأكلون السُّحْت ، والسُّحْت هو كل مال اكتسب من حرام . يقول

---

(٣٤) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .

(٣٥) الميزان : ٦/٣٦ .

(٣٦) ابن كثير : ٢/٧٦ .

تعالى : ﴿ **وترى كثيراً منهم يسارعـون في الإثم والعدوان وأكلهم السُّحْت لبئس ما كانوا يعملون** ﴾[٣٧] ، وقال تعـالى : ﴿ **وأخْذِهِمُ الـرِّبا وقـد نُهُوا عنـه وأكلهم أموال الناس بالباطل** ﴾[٣٨] قال المفسرون : لقد نهـاهم الله عن الربـا . فتناولـوه وأخـذوه.واحتالـوا عليـه بـأنـواع الحيـل وصنـوف من الشُّبـه وأكلوا أمـوال النـاس بـالباطـل[٣٩] وأهل الكتـاب كل ثمين عنـدهم خضع للتجـارة فحـرفـوا الكلم عن مـواضعه وأخـذوا على ذلك رشـوة . ويقول تعـالى في طائفـة منهم : ﴿**فويـلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فـويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾[٤٠] قال المفسرون : هؤلاء صنف من اليهـود وهم الدعـاة إلى الضـلال بـالـزور والكـذب على الله وأكـل أمـوال النـاس بالباطل[٤١] وقال تعالى : ﴿ **إن كثيراً من الأحبـار والرهبـان لَيأكلون أمـوال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله** ﴾[٤٢] .

فـإذا كانت القـاعدة والقمـة مهمتها بخس النـاس أشيـاءهم وأكـل أمـوالهم بالباطل ، فإنه لا أمل في إقامة المجتمع الإنساني الـذي يليق بالإنسـان الفطري . وكيف يتم هذا إذا كان أهل القمة على أرائك الدين قد انحرفوا إلى سبيل الباطل . وهم المعنيـون بـإصـلاح قلوب النـاس وأعمـالهم ودفـع النـاس في سلوك طـريق العبـودية . في الحقيقـة إن أباطـرة الحال في المحـافـل الـدوليـة العتيقـة لم يكن الإصلاح هدفاً لهم في يوم من الأيـام . وكيف يكون ذلـك وهم الذين يسعـون في الأرض فساداً بنص القرآن . لقد امتدت أيديهم إلى الجهة المالية التي يقـوم عليها المجتمع الإنساني واستحوذوا عليها ، ثم بدأوا العمل المنظم الذي يؤدي إمـا إلى فقر مفرط ، وإما إلى غنى مفرط ، لأن هـذه النتيجة ستؤدي في النهـاية إلى فـرض تـربيتهم وسياستهم ؛ وفي ظـل التربيـة والسياسـة هذه لا تُـرى ملامـح حكمة ولا يُصغى فيه لموعظة . . لقد هيمن أصحاب الأرائك الـدينية على الجهـات الماليـة

---

(٣٧) سورة المائدة ، الآية : ٦٢ .
(٣٨) سورة النساء ، الآية : ١٦١ .
(٣٩) ابن كثير : ١/٥٨٤ .
(٤٠) سورة البقرة ، الآية : ٧٩ .
(٤١) ابن كثير : ١/١١٧ .
(٤٢) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

للصد عن سبيل الله كما نصت الآية ﴿ **ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله** ﴾ وعندما بدأ العبث المنظم بالجهة المالية للمجتمع الإنساني ، ترتب على هذا العبث جنايات وتعديات ومظالم تنتهي بالتحليل . . إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعديات المالية ، وإما إلى غنى مفرط يدعو إلى الاتراف والإسراف في المأكل والمشرب والمنكح والمسكن والاسترسال في الشهوات ، وهتك الحرمات ، وبسط التسلط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم .

وأصحاب الأرائك . أو أصحاب الأيكة الجدد لا يضرهم الذين ساروا في طريق الفقر الذي انتهى إلى قطعهم للطرق واختلاسهم لأموال الناس . ولا يضرهم الذين ساروا في طريق الغنى الذي انتهى بهم إلى الاسترسال في الشهوات لأن خيوط اللعبة كلها في أيديهم . فإذا اختل النظام الحاكم في حيازة الأموال هنا . رد عليه نظام آخر في اقتناء الثروة هناك ، إن أصحاب الأيكة الجدد يقبضون على المال ويظفرون بالثروة وهي بين أهلها الذين قتلهم الفقر أو الذين قتل فيهم الترف إنسانيتهم ، والقبض على المال ليس غاية وإنما الصد عن سبيل الله هو الغاية . والمحيط الإنساني عندما يجري فيه قُطَّاع الطرق الذين يبحثون عندما يسرقون . ويجري فيه الذين يبحثون عن مشتهيات النفس ومتعتها ، ينقلب هذا المحيط إلى محيط حيواني رديء . لا هَمَّ فيه إلّا البطن وما دونه ، ولا يملك فيه أحد إرادته ، وَبِفُشُوّ الفساد وشيوع الانحطاط الأخلاقي تُغْلق أبواب الحكمة والمواعظ وهذا هو هدف أصحاب الأيكة الجدد . وأن لا يقوم مجتمع حي فعَّال يليق بالإنسان الفطري ، المتوجه إلى سعادته الفطرية . ولأن السعادة الحقيقية يصل إليها الإنسان ، أو يعمل للوصول إليها عندما يكون مؤمناً بالله وكافراً بالطاغوت ، قام أصحاب الأيكة الجدد برفع أعلام أكثر من طاغوت . أعلام مغلَّفة بأغلفة تستقيم مع روح العصر الحديث . فأيهما أبشع وجهاً . أهل مدين أم أصحاب الأيكة الجدد ؟

٦ ـ بصمة انحراف الفراعنة :

تقوم العقيدة الفرعونية في الأساس على عبادة الشمس ، وهذه العبادة

أنتجت في النهاية ثالوثاً عموده الفقري أسطورة إيزيس وأوزير وولدهما حور ، ورغم أن صورة هذا الثالوث شملت جميع الآلهة عند الفراعنة فيما بعد حيث جعلوا (لرع) وغيره زوجة وابناً . إلاّ أن عجل أبيس كان هو الصورة المثلى للثالوث ولحلول روح الإله فيه ! وكان إذا مات عجل من هذه العجول أقامت مصر الحداد وخضعت الجثة لفقه معقد وسارت الجنازة وفقاً لطقوس عجيبة . وكانت أهم مدافن هذه العجول سيرابيوم سقارة(٤٣) وبنو إسرائيل عندما كانوا في مصر بالقطع شاهدوا الحداد وشاركوا في جنازات العجول ، بل واكتسبت قلوب أكثرهم حب هذه العجول ، كما أن بعضهم اختلطت نفسه بعقيدة ابن الإله . . وإلاّ فلماذا عبدوا العجل ، ولماذا قالوا عُزيرٌ ابن الله !؟ ووفقاً لأطروحتهم هذه . . لم يُغلق باب بني إسرائيل حتى قالوا بأن المسيح ابن الله ! ونحن إذا عدنا إلى نقطة البداية . . عندما عبر بهم موسى عليه السلام البحر . نجد أنهم عندما شاهدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم . . طالبوا موسى أن يجعل لهم إلٰهاً كما لهم آلهة . وبالجملة كان القوم على استعداد للانحراف نظراً لعبء الثقافة الفرعونية على عقله وقلبه . ولقد آتت هذه الثقافة ثمارها ، عندما وعد الله تعالى موسى عليه السلام أن يُنزل عليه التوراة والألواح إلى ثلاثين يوماً ، وأخبر موسى قومه بذلك وجعل عليهم أخاه هاروناً عليه السلام ، فلما جاء الثلاثون يوماً ولم يرجع موسى . عَصَوْا وأرادوا أن يقتلوا هارون ! وقالوا : إن موسى كذب وهرب منا ، وعندئذ تقدم السامري وكان من أصحاب موسى وكان على مقدمة القوم يوم أغرق الله فرعون وأصحابه ، وروي أن السامري وهو على مقدمة القوم شاهد فرس جبرائيل كلما وضعت حافرها على موضع من الأرض . تحرك ذلك الموضع فأخذ السامري قبضة من هذا التراب ، وصرها في صرة وكان يفتخر بها على بني إسرائيل . وعندما هَمَّ القوم بهارون واتهموا موسى بالهرب . . أمر السامري بجمع الذهب . وفي رواية أن الشيطان جاءهم في صورة رجل وقال لهم : إن موسى قد هرب منكم ولا يرجع إليكم أبداً فاجمعوا لي حُلَيِّكُم حتى أتَّخِذَ لكم إلٰهاً تعبدونه ، وعندما جاء القوم بالذهب وصنعوا العجل . . ألقى السامري بالتراب الذي معه في جوف العجل . فلما وقع التراب في جوفه خار فسجد له أكثر بني إسرائيل !

---

(٤٣) تاريخ الجوع والخوف/ تحت الطبع .

قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهم عجلاً جسداً له خُوار** ﴾[٤٤] وكان اتخاذ العجل خطوة أساسية في عالم الانحراف ما زالت باقية في عالم المادة . وعلى الرغم من أن العجل قام موسى عليه السلام بنسفه في اليَمِّ ولم يَعُد له وجود إلّا أن العجل قبل أن ينسفه موسى كان قد شربته القلوب ! يقول تعالى : ﴿ **وأُشْرِبوا في قلوبهم العجل بكفرهم** ﴾[٤٥] قال المفسرون : الإشراب هو السَّقي ، والمراد بالعجل : حب العجل ، وُضع موضعه للمبالغة كأنهم قد أُشربوا نفس العجل[٤٦] ، لقد جرت ثقافته في الدماء ، يبتلعها كل مَنْ وجد هواه فيها ، ومن امتص قلبه الزخرف وقع تحت العقاب في أي زمان وفي أي مكان قال تعالى : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾[٤٧] قال المفسرون : أبهم الله تعالى ما سينالهم من غضبه وذلة الحياة . فلم يبين ما هما . وذيل الآية : ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾ يدل على أن غضب الله وذلة الحياة الدنيا . سُنَّة جارية إلٰهية في المفترين على الله[٤٨] ، ونائلة لكل مَنْ افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفه . وإنَّ ذل البدعة على أكتافهم وإن همجلت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين . وقد نبه تعالى عباده وأرشدهم أنه يقبل توبة عباده[٤٩] . فالتوبة إذا تحققت بحقيقة معناها في أي سيئة كانت . لم يمنع من قبولها مانع[٥٠] .

وعقاب الذلة الذي ضربه الله على الذين اتخذوا العجل . ظل علامة مميزة لهم على امتداد الزمان يحمله الذين جاؤوا على أهوائهم جيلاً بعد جيل . يقول تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عَصَوْا وكانوا**

---

(٤٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٨ .
(٤٥) سورة البقرة ، الآية : ٩٣ .
(٤٦) الميزان : ١/٢٢٢ .
(٤٧) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٢ .
(٤٨) الميزان : ٨/٢٥٣ .
(٤٩) ابن كثير : ٢/٢٤٨ .
(٥٠) الميزان : ٨/٢٥٣ .

يعتدون ﴾[٥١] قال المفسرون : أي وضعت عليهم الذلة والمسكنة . وأُلزموا بها شرعاً وقدراً . أي لا يزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم[٥٢] . إن الذلة كانت علامة آبائهم الأوائل الذين جلسوا حول العجل ، وعندما جاء الذين يسيرون على هدى الآباء ، قتلوا الأنبياء ، لأن الأنبياء لم يأتوا لهم بما يستقيم مع الذي في قلوبهم . ويقول تعالى عن الذين يحملون علامات الذل في موضع آخر : **﴿ ضُربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾**[٥٣] قال المفسرون : إن الذلة مضروبة عليهم كضرب الخيمة على الإنسان أو كضرب السِّكة على الفَلِزّ فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذلة إلاّ بحبل وسبب من الله . وحبل وسبب من الناس وقد كرر لفظ الحبل بإضافته إلى الله وإلى الناس لاختلاف المعنى بالإضافة ، فإنه من الله القضاء والحكم تكويناً أو تشريعاً ، ومن الناس البناء والعمل . والمراد بضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم والدليل على ذلك قوله : **﴿ أين ما ثقفوا ﴾** فإن ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أي تسلطوا عليهم ، وهو إنما يناسب الذلة التشريعية التي من آثارها الجزية ،فيؤول معنى الآية إلى أنهم أذلاء بحسب حكم الشرع الإسلامي . إلاّ أن يدخلوا تحت الذمة أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء .

وقال بعض المفسرين : إن قوله : **﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾** ليس في مقام تشريع الحكم . بل إخبار عما جرى عليه أمرهم بقضاء من الله وقدر . فإن الإسلام أدرك اليهود وهم يؤدون الجزية إلى المجوس ، وبعض شعبهم كانوا تحت سلطة النصارى ، وهذا المعنى لا بأس به[٥٤] .

لقد اتبعوا عجول الفراعنة فضربتهم الذلة بعد عجل سيناء ، ولأنهم يعلمون أن مقامهم في الذلة يتحدد بدقة ، إذا هيمن الدين الحق ؛ لم يدخروا جهداً في وضع العراقيل أمام مشاعل النور للدين الحق . واشتروا بذهب العجول كل

---

(٥١) سورة البقرة ، الآية : ٦١ .
(٥٢) ابن كثير : ١/١٠٢ .
(٥٣) سورة آل عمران ، الآية : ١١٢ .
(٥٤) الميزان : ٣/٣٨٤ .

رخيص وكل سلاح وأحصوا الكلمات وتتبعوا المواليد خوفاً من أن يخرجْ منهم من يؤرق مضاجعهم وحاصروا الشواطىء وتحول كل واحد فيهم إلى هامان جديد .

* ٢ ـ من معالم الخزي في الحي اليهودي :

عندما شاء الله أن يتقدم بني إسرائيل المسيرة البشرية وراء أنبيائهم في عالم يعج بعبادة غير الله ؛ أقام الأنبياء الحجة الكاملة على البشرية ، وفي نفس الوقت على القاعدة التي منها ينطلقون ألا وهم بنو إسرائيل . وإقامة الحجة هي العامود الفقري فإما أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا ، فهذه قضية أخرى عامودها الفقري ان الله غني عن العالمين ، فالله تعالى هو خالق الإنسان وبما أنه خالقه فهو سبحانه أعلم بما يصلحه ، فبعث إليه الأنبياء والرسل بالإصلاح ، فمن تقبل الدواء نال الشفاء ومن أبى إلّا المرض عاش فيه وأصابه ما أصابه ، فإن عاد بالتوبة قبله الله ، وإن أصر على المعصية ففي الدنيا عذاب وفي الآخرة عذاب . ودين الله لا إجبار فيه والله غني عن العالمين ، ولأن بني إسرائيل كانوا في المقدمة يوم أن فضلهم الله على العالمين ؛ فإن الله تعالى جعل في بعضهم آيات تكون عبرة للقوم كي يستقيم المعوج وتواصل المقدمة المسيرة . ولكن تكون عبرة لمن يأتي بعدهم لينظر كيف تكون حركة التاريخ . ومن هذه الآيات بعد خروجهم من مصر : إهلاك السبعين وإحياؤهم ، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، والتظليل بالغمام وإنزال المنّ والسلوى ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة . وآية البقرة ومسخ بعضهم قردة خاسئين . وآيات كثيرة حدثت على امتداد رحلة تفضيلهم وهم وراء الأنبياء من بعد موسى عليه السلام ، منها خروج قوم من أوطانهم هرباً من الطاعون وكانوا أعداداً كثيرة ، فأماتهم الله دهراً طويلاً ثم بعثهم في وقت واحد ، فهذه كلها آيات كان من المفروض أن تكون زاداً لبني إسرائيل يمنعهم من الانحراف ؛ لكن القوم تركوا وراء ظهورهم الآيات والعبر وعندما انتهت رحلة التفضيل ، وانتقل الطريق والقافلة إلى غيرهم ؛ جلسوا يجترون الذكريات ويعيشون في أوهام التفضيل وأعلامه . ونحن لن نسرد كل آيات العذاب التي ضربهم بها الله ليستقيم المعوج منهم ، وإنما سنلقي الضوء على آيتين لما فيهما من عبر جامعة لم يلتفت إليها القوم . الأولى خاصة برجل آتاه الله الأموال وكانت عنده الكنوز والثانية لرجل آتاه الله العلم وأراه الآيات العليا . ولكن الرجلان جرت في دمائهما كل معالم

الانحراف فلم يشكرا النعمة والمنعم . فأخذهما الله أخذ عزيز مقتدر . فلم يغنِ عن الأول كنوزه . ولم يقوَ الثاني على حماية نفسه . لقد كانت آيات الله في المال والعلم زاجراً لبني إسرائيل ، لكن الذئاب منهم شقوا مسيرهم نحو الكنوز ونحو دروب التحريف وأكل أموال الناس بالباطل !

١ ـ عبرة قارون :

كان قارون من بني إسرائيل ، وآتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة إلى القوة ، فظن أنه هو الذي جمعه بعلمه وجودة فكره وحسن تدبيره ! وأمن العذاب الإلٰهي ، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة ، وبغى الفساد في الأرض . يقول تعالى : ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين* وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾(٥٥) قال المفسرون : وعظوه أن لا يبطر بما هو فيه من مال . وأن يشكر الله على ما أعطاه وأن يطلب فيما أعطاه الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ، ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى ، وقالوا له : لا تنسَ أن نصيبك من الدنيا ـ وقد أقبلت عليك ـ شيء قليل مما أوتيت ، وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلاً ، والباقي فضل ستتركه لغيرك . فخذ منها ما يكفيك ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ أي أنفقه لغيرك إحساناً ، كما آتاكه الله إحساناً ، ولا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة . إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح والإصلاح(٥٦) فماذا كان رد قارون على العظة ؟ قال تعالى : ﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندي** ﴾(٥٧) قال المفسرون : أجاب بنفي كونه إنما أوتيه إحساناً من غير استحقاق . . لقد ادعى إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره . وبما أن هذا باستحقاق فقد استقل بما عنده وله أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء ويستدره في أنواع التنعم وبسط السلطة والعلو والبلوغ إلى الآمال والأماني .

---

(٥٥) سورة القصص ، الآيتان : ٧٦ ـ ٧٧ .

(٥٦) الميزان : ١٦/٧٦ ، ابن كثير : ٣/٣٩٩ .

(٥٧) سورة القصص ، الآية : ٧٨ .

وهذا الزعم الذي ابتلى به كقارون أهلكه . إن قوله : ﴿ **إنما أوتيته** ﴾ من غير إسناد الإتياء إلى الله سبحانه كما في قول الناصحين له : ﴿ **فيما آتاك الله** ﴾ نوع إعراض عن ذكر الله ، ولقد رد سبحانه مقولته فقال : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمين** ﴾(٥٨) قال المفسرون : استفهام توبيخي وجواب عن قوله : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي** ﴾ أي إذا كان يرى أن الذي اقتنى به المال ويبقيه له هو علمه ؛ فهو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هم أشد منه قوة وأكثر جمعاً . فلو كانت قوتهم وجمعهم عن علم عندهم . فقد أهلكهم الله بجرمهم ، فلو كان العلم هو الجامع للمال والحافظ لهم لنجاهم من الهلاك . . وجاء يوم الغضب الذي يحمل عذاباً غير مردود يقول تعالى : ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلاّ الصابرون** ﴾(٥٩) قال المفسرون : ﴿ **الذين يريدون الحياة الدنيا** ﴾ أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم . ليس لهم وراءها غاية . فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى : ﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم** ﴾(٦٠) ولذلك عدوا ما أوتيه قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد وشرط .

﴿ **وقال الذين أوتوا العلم** . . ﴾ أي المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون وعدُّوه سعادة عظيمة على الإطلاق . قالوا : إن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أوتي قارون فإذا كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوا ثواب الله . ﴿ **ولا يلقاها إلاّ الصابرون** ﴾ أي وما يفهم هذا القول وهو قولهم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً إلاّ الصابرون . . وعلى مشهد من الجميع من أصحاب الدنيا وأصحاب العلم ابتلعت الأرض الطاغية المستكبر . . يقول تعالى : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من**

---

(٥٨) سورة القصص ، الآية : ٧٨ .
(٥٩) سورة القصص ، الآيتان : ٧٩ ـ ٨٠ .
(٦٠) سورة النجم ، الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠ .

فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾[٦١] .

قال المفسرون : خسف به وبداره الأرض . . فما كان له جماعة يمنعونه العذاب ، وما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذي يجلب إليه الخير ، ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه اللذان اكتسبهما بعلمه ، فلم يَقِهِ جمعه وتَقِهِ قوته من دون الله ، وبأن الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه . فالفاء في قوله : ﴿ **فما كان** ﴾ لتفريع الجملة على قوله : ﴿ **فخسفنا به** ﴾ أي فظهر بخسفنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدعيه لنفسه من الاستحقاق والاستغناء عن الله ، وأن الذي يجلب إليه الخير ، ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه وقد اكتسبهما بنبوغه العلمي[٦٢] .

واعترف الذين تمنوا مكانه ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدقونه بأن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان وعلمه وجودة تدبيره لا بفضل من الله سبحانه . . لقد عرفوا الحقيقة بعد مشهد وحركة . وعلموا أن سعة الرزق وضيقه بمشيئة من الله ، وكان قارون علامة بارزة أمام بني إسرائيل لكن الكثرة عبروا عليها ولم يتبينوها ، لأن في قلوبهم حب العجل !

٢ ـ عبرة صاحب النبأ :

أبهم الله تعالى اسم صاحب النبأ ، واختلف المفسرون في تعيين من هو في الآية الكريمة . وأقوى الروايات أنه يدعى (بلعم بن باعوراء) ، وأن الله تعالى أعطاه الاسم الأعظم وكان يدعو به فيُستجاب له[٦٣] وروي أن موسى عليه السلام بعثه إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأعطاه الملك الأرض والمال فتبع بلعم بن باعوراء دينه[٦٤] . وروي غير ذلك . والخلاصة أنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه

---

(٦١) سورة القصص ، الآيتان : ٨١ ـ ٨٢ .

(٦٢) الميزان : ١٦/٧٦ .

(٦٣) الميزان : ٨/٣٣٧ ، ابن كثير : ٢/٢٦٥ .

(٦٤) ابن كثير : ٢/٢٦٤ .

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾(٦٥) قال المفسرون : أمر الله نبيه أن يتلو على بني إسرائيل أو على الناس خبراً عن أمر عظيم ، وهو نبأ الرجل الذي آتاه الله آياته ، وكشف لباطنه عن علائم وآثار إلٰهية عظام ، يرى بها حقيقة الأمور ، فانسلخ منها ورفضها ﴿ **فاتبعه الشيطان** ﴾ استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ، فكان من الهالكين الحائرين البائرين ، ولو شاء الله لرفعه من قاذورات الدنيا بالآيات العظيمة التي آتاه إياها . ولكنه أخذ بأسباب التدنس ومال إلى زينة الحياة الدنيا وأقبل على لذاتها ونعيمها . واتبع هواه وكان ذلك مورداً لإضلال الله له ، لا لهدايته . وهذا الرجل مثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . فهو ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته ومنعته أو تركته ﴿ **ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ فالتكذيب منهم سجية وهيئة نفسانية خبيثة لازمة . فلا تزال آيات الله تتكرر على حواسهم . ويتكرر التكذيب بها منهم ﴿ **فاقصص القصص** ﴾ أي قص القصة ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فينقادوا للحق وينزعوا عن الباطل .

لقد كان صاحب النبأ معه آيات باهرات ، لكنه أخذ بأسباب الزينة التي تشبع الأهواء ، فكان مصيره النار . لقد كان يحمل آيات باهرات ، لكنه لم يستعمل قلبه وبصره وأذنه فيما ينفعه ويحقق له السعادة الدائمة الحقيقية والله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وآله أن يقص القصة لعل بني إسرائيل العالمين بحال صاحب النبأ وما جرى له بسبب استعماله نعمة الله في غير طاعة الله ، لعلهم عندما يذكرهم النبي صلى الله عليه وآله بالقصة يتفكرون ليحذروا أن يكونوا مثله ، وهم بما أنهم أهل كتاب ، قد أعطاهم الله علماً ميزهم به على من عداهم من الأعراب . وبصرف النظر عن تحريفهم لكتابهم ، إلّا أن هذا الكتاب كان يحتوي بين دفتيه على آية عظيمة . إذا كفروا بها كان شأنهم كشأن صاحب النبأ الذي ترك الآيات وجلس بجوار الذهب والفضة . وهذه الآية التي في كتابهم خاصة بنبي الله

---

(٦٥) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٧٥ ـ ١٧٦ .

محمد صلى الله عليه وآلـه الذي يعـرفونـه من كتبهم كما يعـرفون أبنـاءهم . فهذه الآية دعوة لهم كي يتبعوه كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك ، فإن كتموا أو صدوا أو قالوا كما قال فرعون هذا سحر مبين . . كان الذل امتداداً لهم . .ذل في الدنيا موصول بذل الآخـرة . يقول تعـالى : ﴿ . . **عذابي أصيب بـه من أشـاء ورحمتي وسعت كـل شيء فسـأكتبها للذين يتقـون ويؤتون الـزكاة والـذين هم بآيـاتنا يؤمنـون * الذين يتبعون الرسـول النبي الأمي الذي يجـدونه مكتـوباً عنـدهم في التوراة والإنجيـل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعـزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[٦٦] .

فذكره صلى الله عليه وسلم بهذه الأوصاف الثلاثـة [الرسـول النبي الأمي] تدل على أنه كان مذكوراً في التوراة والإنجيل بهذه الأوصاف الثلاثـة . فماذا فعـل أتباع صاحب النبأ بهذه الأوصاف ؟ لقد حرفوهـا . ولكن التحريف لم يجهـز على الحقيقة أمام البحث والتدقيق[٦٧] . إن الحقيقة باقية لتكون حجة على أجيالهم في كل زمان . إن اتباع صاحب النبأ لم يحترمـوا العلم فجعلهم الله كمثل الحمـار كما جعل صاحبهم من قبل كمثل الكلب . يقول تعالى : ﴿ **مثل الذين حملوا التـوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بـآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[٦٨] قال المفسرون : المراد بـالذين حملوا التـوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التـوراة على رسولهم مـوسى عليه السـلام . فعلمهم ما فيها من المعارف والشرائـع . فتركـوها ولم يعملوا بهـا . فحمّلوها ولم يحملوهـا . فضرب الله لهم مثـل الحمار يحمـل أسفاراً وهـو لا يعرف مـا فيها من المعارف والحقائق . فلا يبقى له من حملها إلاّ التعب بتحمل ثقلها !

* ٣ ـ البعوث الدائمة والطمس الدائم :

لم يضرب عذاب الاستئصال شعب إسرائيل ضربة واحدة . كمـا ضرب من

---

(٦٦) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٦٧) راجع بحوثنا عن المسيح الدجال .
(٦٨) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .

قبل عاد وثمود وغيرهما . والحكمة من وراء هذا ، أن لشعب إسرائيل قيادة من أنبياء بني إسرائيل ، فالشعب باق ما دام لهم في علم الله قيادة منهم ، ومقدمات عذاب الاستئصال تأتي مع رفضهم لآخر نبي في الشجرة الإسرائيلية ، والله تعالى لا يستأصل قوماً إلّا بعد إنذار . وعلى هذا لا يأتي الاستئصال إلّا بعد إنذارهم من الله على لسان الرسول الذي يأتي بعد آخر رسول من شجرة إسرائيل ، ولما كان نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، هو أول رسول يأتي من خارج الشجرة الإسرائيلية وخاتم النبيين . فقد جاءهم بالرحمة والإنذار ، فلما رفضوا الرحمة شقوا طريقهم نحو عذاب الاستئصال . وقبل أن يشقوا هذا الطريق ، تعرضوا لضربات عدة فرادى وجماعات ، لعلهم يتذكرون ويلتفون حول رسلهم والصالحين منهم ولكنهم أبَوْا إلّا الأخذ بذيول الانحراف !

١ ـ البعوث الدائمة :

كتب الله على شعب إسرائيل القتل والأسر والاضطهاد على أيدي الجيوش الجرارة التي جاءت إليهم من جهات عديدة ، بعد أن ظلموا أنفسهم وسهروا من أجل الحفاظ على الانحراف والشذوذ ! وبعد أن تقلصت دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتسعت دوائر السلبية والظلم والبغي بينهم . وعلى امتداد مسيرة بني إسرائيل كان فيهم الصالحين وغير ذلك . ولكن غير الصالحين كانوا دائماً إلى الإفساد في الأرض أسرع ! وذلك لأن رقعة الانحراف كانت رقعة واحدة بينما كانت رقعة الصالحين تنقسم إلى قسمين : قسم ضعيف قليل العدد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والقسم الآخر يحتوي على كثرة لم ترتكب المعاصي ولكنها تركت الساحة للمفسدين كي يعربدوا فيها وينشروا ضلالتهم . ونظراً لهذا التقسيم انتشر الفساد لسهر أعوانه عليه . وفي سنّة الله تعالى إذا عمل قوم بالمعاصي ولم يغيره الناس أوشك الله أن يعمهم بعقاب ، لأن ارتكاب المعاصي مدخل رئيسي لهدم أركان الدين . ومن عدل الله سبحانه أنه قبل أن يعم بني إسرائيل بالعذاب الشامل ؛ وضع في بداية طريقهم حدثاً كان يجب عليهم أن يحفروه في ذاكرتهم ، ليعلموا أن الذي حدث في قرية صغيرة يمكن أن يضرب الأمة الكبيرة . يقول تعالى : ﴿ **وَاسْأَلْهُم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم**

كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون * فلما عَتَوْا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾(٦٩) .

قال المفسرون : « انقسم أهل القرية في أمر الله ثلاث فرق . فرقة ارتكبت ما نهى الله عنه . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت . وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، وقالت للفرقة التي نهت واعتزلت : لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من ذلك . فلا فائدة في نهيكم إياهم . فقالوا : ﴿ **معذرة إلى ربكم** ﴾ أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لعلهم بهذا الإنكار يتقون »(٧٠) . وفي قولهم : ﴿ **إلى ربكم** ﴾ حيث أضافوا الرب إلى الفريق الذي يلومهم ولم يقولوا : إلى ربنا . . إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم . لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يُعتذر إليه . ويُبذل الجهد في فراغ الذمة من تكاليفه والوظائف التي أحالها إلى عباده . وأنتم عباد له كما نحن عباده ، فعليكم من التكاليف ما هو علينا ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ وفيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين أي للفرقة التي ارتكبت ما نهى الله عنه . في ظلمهم وفسقهم حيث تركوا عظتهم ولم يهجروهم . وفي الآية دلالة على سنة إلٰهية عامة : وهي أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع وعظة ، مشاركة معهم في ظلمهم . وأن الأخذ الإلٰهي الشديد ، كما يترصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم(٧١) .

لقد ضرب العذاب الظالم المعتدي والظالم الذي سكت . وفي الحديث كانوا أثلاثاً : ثلث نهوا ، وثلث قالوا : ﴿ **لم تعظون** ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة . فما نجا إلّا الذين نهوا وهلك سائرهم(٧٢) وقال تعالى للذين عتوا عن أمره :

---

(٦٩) سورة الأعراف ، الآيات : ١٦٣ - ١٦٦ .
(٧٠) ابن كثير : ٢/٢٥٧ .
(٧١) الميزان : ٨/٢٩٦ .
(٧٢) رواه ابن عباس وقال ابن كثير إسناده جيد : ٢/٢٥٩ .

﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ أي ذليلين حقيرين مُهانين . لقد كانت أحداث هذه القرية إشارة للمسيرة الإسرائيلية بأن العذاب الشامل على الأبواب إذا لم يأخذوا بأسباب النجاة . وانهم إذا ركبوا المعاصي ولم تنههم الأحبار وغيرهم أخذتهم العقوبات . ولكن القوم توسعوا في الظلم . الظلم الذي يهدم . والظلم الذي يرى معالم الهدم ويعين على الهدم بصمته . وأمام هذا الاسراع الذي يسير في عكس اتجاه حركة الفطرة أصابهم العذاب الشامل . وكان رداءً ملازماً لهم على امتداد مسيرتهم . يقول تعالى : ﴿ وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم ﴾[٧٣] قال المفسرون : (تأذن) بمعنى اعلم . والمعنى : واذكر إذ أعلم ربك انه قد أقسم . ليبعثن على هؤلاء الظالمين بعثاً يدوم عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم ويوليهم سوء العذاب . وانه تعالى غفور للذنوب رحيم بعباده . لكنه إذا قضى لبعض عباده بالعقاب . لاستيجابهم ذلك بطغيان وعتو ونحو ذلك . فسرعان ما يتبعهم إذ لا مانع يمنع عنه . ولا عائق يعوقه .

وقد نزل ببني إسرائيل نوازل كثيرة . منها ما جرى عليهم بيد (نبوخذ ناصر) عام ٥٨٨ق . م وكان من ملوك بابل وكان يحمي بني إسرائيل مغصوه وتمردوا عليه فسار إليهم بجيوش لا قبل لهم بها وحاصر بلادهم ثم فتحها عنوة وخرب البلاد وهدم الهيكل وأحرق التوراة وأباد النفوس بالقتل العام . ولم يبق منهم إلّا شرذمة قليلة فأسرهم وسيرهم معه إلى بابل . وبعد رحيل (نبوخذ ناصر) دخلوا تحت حماية ملك الفرس (كورش) الذي أذن لهم في الرجوع إلى الأرض المقدسة . وأعانهم على تعمير الهيكل .

وظل اليهود خاضعين لحكم الفرس حتى جاء الاسكندر الأكبر ٣٢٣ق . م واجتاح المنطقة ، وبعد وفاة الإسكندر خضعت أورشاليم لبطليموس وكان واحداً من قواد الإسكندر الأكبر وكان يتولى حكم مصر . ثم اجتاح الرومان البلاد عام ٦٣ ق . م بعد أن ضعفت أيدي الإغريق . وحدث نزاع شديد بين اليهود والرومان انتهى بخراب أورشاليم وهدم الهيكل عام ٧٠ ميلادية على يد (تيطوس) الروماني . ثم حدثت مشادات بين اليهود والرومان . انتهت باستقلال

(٧٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٦٧ .

اليهود عن الرومان ثلاث سنوات وأصبحت أورشاليم عاصمة لهم وذلك عام ١٣٢م . وبعد ثلاث سنوات أي في عام ١٣٥م نكل الرومان باليهود وهدموا أورشاليم وبنوا على أنقاضها مدينة لهم وأقاموا بها معبد للإله (جوبتر) إله الرومان على أنقاض المعبد القديم . ولم يسمح الرومان لأي يهودي بدخول المدينة أو الاقتراب منها . وفي عام ٣١٣م أصبحت الديانة النصرانية دين الدولة الرومانية الرسمي . وهدم معبد جوبتر . وفي سنة ٣٢٦م جاءت الملكة هبلانة أم الامبراطور قسطنطين وقامت ببناء كنيسة القيامة في أورشاليم . وفي عام ٦١٤م غزا الفرس بلاد الشام وانتصروا على الرومان وهدموا كنيسة القيامة . ثم غلب الرومان الفرس . ثم جاء الفتح الإسلامي عام ٦٣٦م ولم يكن لليهود قائمة .

وفي عام ١٩٤٨ اعترفت الأمم المتحدة بدولة إسرائيل . وكان هذا الاعتراف ثمرة لجهد طويل قامت به الأيدي الخفية التي زينت كل قبيح في عالم الطمس الطويل الذي يسير في عكس اتجاه الفطرة . وفي بطن الغيب ما زالت البعوث قائمة . وانتظروا ونحن معكم منتظرون .

٢ ـ الطمس والمسخ :

(أولاً) أخذ اليهود بأسباب الضلال :

ظلت البعوث تطارد بني إسرائيل على ظلمهم . ولم يكن هذا يعني عدم وجود صالحين بينهم ؛ فلقد عاش معهم في كل منازلهم التي نزلوا بها من يدعوهم إلى تقوى الله . ولكن دعوته كانت تذهب أدراج الرياح . وفي كل جيل بعد ذلك كانت تقل نسبة الصالحين وتتسع نسبة الذين يهرولون إلى السيئات . حتى جاءت الأجيال التي لا خير فيها . أجيال ورثت الكتاب وتحمّلوا ما فيه من المعارف والأحكام والمواعظ والبشارات . وكان لازم هذا . ان يتقوا ويختاروا الدار الآخرة . ويتركوا أعراض الدنيا الفانية الصارفة عما عند الله من الثواب الدائم . لكنهم أخذوا ينكبون على اللذائذ الفانية ولم يبالوا بالمعصية وإن كثرت . ووضعوا في طريق الانحراف وتداً هو من أشد الأوتاد خطورة بعد وتد رفض بشرية الرسول . وكان هذا الوتد قولهم : « سيغفر الله لنا » لقد هرولوا إلى المعاصي تحت لافتة مغفرة الله لهم . وهذا قول بغير حق . شربوه في قلوبهم وسقوه للذين

من بعـدهم . يقول تعـالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثـوا الكتاب يـأخذون عـرض هذا الأدنى ويقـولون سيغفـر لنا وإن يـأتهم عرض مثله يـأخذوه ألم يؤخـذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسـوا ما فيـه والدار الآخـرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون * والذين يمسكون بالكتـاب وأقامـوا الصلاة إنـا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾[٧٤] .

قال المفسرون : لقد أخذ الله عليهم الميثـاق عند حملهم الكتـاب ﴿ **أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق** ﴾ والحال أنهم درسوا ما فيه . وعلمـوا بذلـك أن قولهم : ﴿ **سيغفـر لنا** ﴾ قـول بغير الحق . ليس لهم أن يتفـوهوا بـه . لأنـه يجـرئهم على معـاصي الله وهدم أركـان دينه « و » الحـال ان « الدار الآخـرة خير للذين يتقـون » لـدوام ثوابهـا وأمنها من كـل مكروه « أفـلا يتقون » . ثم بين سبحـانه أن التمسـك بالكتاب هو الاصلاح الذي يقابـل الافساد في الأرض أو افسـاد المجتمع البشـري فيها . وخص سبحانه الصلاة بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها وكونهـا ركناً من الدين يحفظ بها ذكر الله والخضوع إلى مقامه . .

وبـدأ الذين ورثـوا الكتاب يتعـاملون مع التـوراة بأهـوائهم تحت لافتة أنهم مغفـور لهم ولأنهم وضعـوا كتـاب الله وراء ظهـورهم سلط الله عليهم من جعلهم يتجرعون الذل . وخلال سبي شعب إسرائيل إلى بابل وكانوا وقتئـذ يعرفـون باسم العبرانيون[٧٥] . كان العبرانيون الذين ساروا على خطى الآبـاء تحت لافتة سيغفـر الله لهم . قد نسوا أيضاً هذه اللافتة عندما بدأوا في إعادة كتابة التـوراة في بابـل . وذلك لأن التوراة التي أنتجها العبرانيـون في بابـل أنتجت الدين اليهـودي . الذي سار فيما بعد بوقود الصهيونية التي تهدف إلى جمـع اليهود ولم شملهم وتهجيـرهم إلى فلسـطين لتأسيس دولـة يهوديـة فيها تـدين بالـدين اليهـودي وتتميـز بـالعنصـر اليهودي وبالثقافة اليهودية وبإرادة بعث مملكة داود . والتـوراة التي تم إنتاجهـا في بابل كتبت على يد « عزرا » شيـخ العنصريـة والتعصب الأعمى الأكبر[٧٦] حـوالي

---

(٧٤) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٦٩ ـ ١٧٠ .
(٧٥) أصول الصهيونية/ إسماعيل الناروقي . ط وهبه ص٨ .
(٧٦) أصول الصهيونية/ إسماعيل الناروقي . ط وهبه ص٤٦٠ .

سنة ٤٥٧ق . م(٧٧) فعزرا وتلاميذه كانوا بمثالة العجلات التي سارت عليها التوراة حتى استقرت في نهاية الأمر لتقول :

(**أولاً**) : إن المملكة العبرية هي عنوان وركيزة تخليص يهوه لشعبه ، فهي وعاء العهد الإبراهيمي المقطوع وتجسيمه !

(**ثانياً**) : إن أورشاليم اختارها يهوه بنفسه لتكون مسكناً له . فهي ليست عاصمة المملكة السياسية فحسب ؛ بل العاصمة الدينية التي لا يمكن للإله أن يستقر أو يسكن أو يعبد إلّا فيها !

(**ثالثاً**) : إن المملكة العبرية كلها أزلية . فمهما فعل الملوك ومهما تألبت الدول . لن يتخلى يهوه عنها !

(**رابعاً**) : ليس للأمم والملوك أن لا يقووا على هذه المملكة فحسب ، بل عليهم جميعاً أن يخضعوا لسلطانها !

(**خامساً**) : إن المملكة رغم اجتياحها من قبل الأجانب وسبي أهلها . إلّا أن الله قد تعهد بإرسال بطل يعيد لهم هذه المملكة فعزرا بكل حق هو مؤسس الدين اليهودي كما نعرفه الآن . ولا عجب ان اعتبرته اليهود « ابناً لله » لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية التي رأت النور ساطعاً في مملكة داود وسليمان بعد أن قضت أجيالاً طويلة في الظلام ، ثم تقلصت وكادت تنقرض تماماً من وجه الأرض لولا أن أنتجت عزرا(٧٨) ولا شك أن التوراة كانت في يوم ما كتاباً إلٰهياً عزيزاً ، إلّا أن طابور الذين أورثوا الكتاب أنجبوا في النهاية الجيل الذي جلس عزرا على قمته ، فحرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلٰهية ومراميها الأخلاقية وجعلوا منها كتاباً تعصبياً عنصرياً . ومن العجيب أن توراة عزرا التي بين أيدينا صورها الآن . لم تذكر اسم الشيطان مرة واحدة ، إن كاتب التوراة في بابل استبعد اسم الشيطان من توراة موسى ليس في إخراجه آدم وزوجته من الجنة فحسب ؛ بل في كل إصحاحات الأسفار الخمسة ووضع بدله (الحية) في التوراة العبرانية

---

(٧٧) الميزان : ٩/٢٤٣ وقيل ٤٢٣ ق . م .
(٧٨) الميزان : ٩٢ .

و (الثعبـان) في التوراة السـامريـة[٧٩] . والأعجب ، أن كـاتب التـوراة إستبعـد سجود الملائكة لآدم عليه السلام (!!)[٨٠] .

لمـاذا استبعد الشيـطان من كتاب يـدعي أتباعـه أنه من عنـد الله ؟ لا بـد أن يكون هذا الاستبعاد لغرض معين أو ربما يكون استبعاده من الأسفار الخمسـة كلها من أجل أن تتصرف أجيـال المستقبل بجسـارة ولا يهمها شيء . ثم لمـاذا استبعد سجود الملائكة لآدم ؟ يقول صاحب نقد التوراة : استبعد سجود الملائكة لآدم ، لأن السجود معناه أن الجنس البشري كله مكرم ومحترم . وهم لا يقولون بذلـك . بل يقولون إن بني إسرائيل وحدهم من سائر الأمم هم المصـطفين الأخيار[٨١] ولم يكن هذا فقط العجيب والأعجب عند كاتب التوراة . ان اسم الإله بدل . فبدل ان يدعى باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر . جعله كاتب التوراة « إلـه إبراهيم ويعقوب وإسرائيل » فحسب . وان كان له أي علاقـة بالعـالمين في نظرهم . فهـو فقط ليقهر العالمين لصالح شعبه المختار[٨٢] كما أن الحق الذي لا مراء فيه ، هـو أن إله اليهود كما تخيله كاتب التوراة لم يكن إلهاً توحيدياً ، لقد كان وثناً أو أوثاناً ، وضعتها زوجة يعقوب تحت فستانهـا كما في سفـر التكوين (إصحـاح ٣١/١٩ ، ٣٤ ، ٣٥) وأصبـح جنياً تصـارع مع يعقـوب طيلة الليل حتى تغلب عليـه يعقوب فسمي إسـرائيل والمنتصـر كمـا في سفـر التكـوين (إصحـاح ٣٢/٢٤ إلى ٣٢) وأصبح في عهد موسى وداود إلهاً نارياً قبلياً يسكن في قمة الجبل سواء في حوريب أو صهيون . وتحول من بعد ذلك إلى الإلـه الذي لا يعمـل إلّا لليهود . خيـراً لهم وشر الشعوب الأرض فكان الإله المستعبد . نعم . لقد أصبـح مجرداً وكـان دائماً أحداً . إلّا أنه لم يكن في أي يوم إلهاً توحيدياً عند كـاتب التوراة[٨٣] ومن السخف بمكان أن نقر ادعـاء اليهود أنفسهم والنصـاوى أن اليهود مـوحدون[٨٤] . إن الإلـه

---

(٧٩) نقد التوراة/ حجازي السقا . ط الكليات الأزهرية ص١٧٦ .
(٨٠) نقد التوراة/ حجازي السقا . ط الكليات الأزهرية ص١٧٦ .
(٨١) نقد التوراة/ حجازي السقا . ط الكليات الأزهرية ص١٧٦ .
(٨٢) أصول الصهيونية : ٩٥ .
(٨٣) أصول الصهيونية : ٩٧ .
(٨٤) أصول الصهيونية : ٩٦ .

الـذي تحدثت عنـه التوراة ليس إلٰهـاً توحيـدياً ولقـد تطور هـذا الإلـه على امتـداد التوراة . والصهيونية هي حركة هذا الإله في التاريخ(٨٥) .

وعزرا ادعى العلم بعد أن أطلق شائعة مفادها : أنـه عندمـا كان يبكي على قتـل علماء بني إسـرائيل وسبي كبـارهم وذهاب العلم منهم حتى سقـطت جفـون عينيه ، قالت لـه امرأة كـانت تبكي هي الأخرى عنـد جبانـة : اذهب إلى نهر كـذا فاغتسل منه وصلي ، فإنك ستلقى هناك شيخاً ، فما أطعمك فكله ، فذهب وفعل ما أمر به ، فإذا الشيخ فقال له : افتح فمك ، ففتح فمـه ، فألقى فيهـا شيئاً كهيئـة الجمرة العظيمة ، فرجع عزرا وهو أعلم الناس بالتوراة(٨٦) ، ولما رجع اليهـود من بابل بالتوراة المحرفة ، سكن السامريون في مدنهم ومعهم نسخـة من التوراة التي كتبها عزرا في بابل . وسكن العبرانيون في مدنهم ومعهم صورة من نفس التوراة . ورغم أن التـوراة واحدة . إلّا أنهم اختلفـوا على تعيين جهة القبلة المقـدسـة التي يترتب على تعيين المدينة التي تكون عاصمة لمملكة بني إسرائيـل . ودب الشقاق والنـزاع بين السامـريين والعبرانيين وكـره بعضهم بعضاً . وقـام العبرانيـون بتغيير كلمات في توراة عزرا ، وقام السـامريـون بتغيير كلمـات في توراة عـزرا . واستقر السامريون على أن تكون قبلتهم في اتجاه جبل « عيبـال » واستقر العبـرانيون على أن تكـون القبلة في اتجـاه « جـرزيم » وهــذه الكلمـات هي التي ميـزت بين التـوراتين . وزاد العبرانيـون على أسفار مـوسى الخمسة التي كتبهـا عـزرا أسفـار لأنبياء كانوا في بني إسرائيل من بعد موسى(٨٧) .

لقد جاء عزرا بتوراة ادعى أنهـا توراة مـوسى . في الوقت الـذي ذكرت فيـه توراة عزرا خبر موت موسى ودفنه في أرض مؤاب . فهل كان في توراة موسى خبـر مـوت مـوسى ودفنـه في أرض مؤاب وأنه إلى هـذا اليوم لا يعـرف أحـد مكـان قبره(٨٨) . لقد جاء عزرا بتـوراة لا يعرف مـوسى عنها شيئـاً . والمسيح عيسى ابن مـريم عليه السـلام ، كان يعلم أن التـوراة محـرفـة . بـدليـل أن في عصـره كـان

(٨٥) أصول الصهيونية : ٩٧ .
(٨٦) نقد التوراة : ص١٤٤ .
(٨٧) نقد التوراة : ١٤٦ .
(٨٨) نث .

السامريون والعبرانيـون يتعبد كـل منهم في اتجاه قبلتـه الخاصـة . وعندمـا سألت امرأة سامرية المسيح عن الصواب أجـاب : بأنـه سيأتي اليـوم الذي لا يقـدس فيه هذا الجبل ولا ذاك الجبل . ففي إنجيل يوحنا ٤/ ١٩ ـ ٢٤ « قـالت له المـرأة : يا سيد . أرى أنك نبي آباؤنا سجدوا في هذا الجبل . وأنتم تقولـون إن في أورشاليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه . فقال لها يسوع : يـا امرأة صـدقيني إنه تـأتي ساعة . لا في هـذا الجبل ولا في أورشـاليم تسجدون للرب . أنتم تسجـدون لما لستم تعلمون . أما نحن فنسجد لما نعلم » . لقد كان المسيح يعلم بالتحـريف . وأخبـرهم بالصـواب وبأن يعملوا أعمـال إبراهيم إن كـانوا هم أبنـاء إبـراهيم كمـا يـدعـون . لكنهم اعتمـدوا مـا عنـدهم وطـالبـوا عيسى بـأن يـأتي لهم بـالأرض والميراث . الذي غرسه عزرا وتلاميذه . وقاد القوم فيما بعد إلى المسيح الـدجال كما سنبين في حينه .

والقرآن الكريم أثبت تحريف اليهود للتوراة قال تعالى : ﴿ **من الذين هادوا يحـرفون الكلم عن مـواضعه** ﴾[٨٩] قـال المفسرون : وذلـك إما بتغيير مواضـع الألفاظ بالتقديم والتأخير والإسقاط والزيادة ، كمـا ينسب إلى التوراة المـوجودة . وإما بتفسير ما ورد عن الأنبياء بغير ما قصـد منه من المعنى الحق كمـا أولوا مـا ورد في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بشارات التوراة . ومن قبل أوَّلوا ما ورد في المسيح ابن مريم عليه السلام من البشارة وقالوا : إن الموعـود لم يجـيء بعد وهم ينتظرون قدومه إلى اليوم . ومن الممكن أن يكون المراد بتحـريف الكلم عن مواضعه استعمال القول بوضعه في غيـر المحل الـذي ينبغي أن يوضـع فيه[٩٠] . والتحـريف جاء بعـد أن شق شعب إسرائيـل طريقـه في الضلال . لقـد بدأوا بنبـذ كتـاب الله وراء ظهورهم . عنـدئذ فتحت عليهم أبـواب الأهواء ، فـدخلوا منها . وبـالدخـول أبعدوا من رحمـة الله ، ولكي يسيـروا في دروب الأهـواء تحت لافتـة دينية ؛ حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروها بغير ما أريد بها . فأوجب ذلـك أن نسوا حظاً من الدين وهذا الحظ يرتحل بارتحاله عنهم كل خير وسعادة . وأفسد ذلـك ما بقي بـأيديهم من الـدين ؛ لأن الدين مجمـوع من معارف وأحكـام مـرتبط بعضهـا

---

(٨٩) سورة النساء ، الآية : ٤٦ .

(٩٠) الميزان : ٤/٣٦٤ .

بعض ، يفسد بعضه بفساد بعض آخر ، سيما الأركان والأصول ، وذلك كمن يصلي لكن لا لوجه الله ، أو ينفق لا لمرضاة الله . أو يقاتل لا لاعلاء كلمة الحق ، فلا ما بقي في أيديهم نفعهم . إذ كان محرفاً فاسداً . ولا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه . ولا غنى عن الدين ولا سيما أصوله وأركانه .

لقد تاهوا في عالم الأهواء . وفي هذا التيه استقرت أقدامهم عند المسيح الدجال . والمسيح الدجال حذر منه جميع الأنبياء أقوامهم . ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلّا حذر أمته الدجال ، وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة »(٩١) . لقد حذرت أنبياء بني إسرائيل من المسيح الدجال . ووصفوه لشعب إسرائيل . ومن صفاته عندهم أنه يملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض(٩٢) وعندما مارس عزرا والذين من بعده عمليات العبث في التوراة وجدوا أن الأنبياء قد بشروا بمسيح يأتي في المستقبل ، وأيضاً حذروا من مسيح يأتي في المستقبل فأي مسيح يختاره الذين يعبثون في كتاب الله ؟ لقد اختاروا صاحب الأرض بعد أن زاولوا عملية تحريف الكلم عن مواضعه ، وضعوا على المسيح الذي معه الأرض والماء والخبز علامات التبشير . وعندما جاءهم المسيح ابن مريم الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل . صدوا عن سبيل الله وقالوا إن الموعود لم يجيء بعد ، واتهموا نبي الله عيسى بأنه كذاب في ادعائه للنبوة وذلك لأنهم اعتبروا أنه الذي حذرت منه رسلهم ! ومارسوا هذا العمل وهذا الصد عن سبيل الله عندما بعث الله رسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ورد هذا في أثر عن ابن عباس قال : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل** ﴾ أي لِمَ تخلطون الباطل مع الحق في كتابكم . صفة الدجال بصفة محمد ﴿ **وتكتمون الحق** ﴾ ولم تكتمون صفة محمد ونعته ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أي تعلمون ذلك في كتابكم(٩٣) .

إن القرآن يشهد بأن التوراة محرفة عمداً ، والذي يحرف كتاب الله عمداً

(٩١) رواه ابن ماجة والحاكم وصححه وأقره الذهبي وغيرهما .
(٩٢) راجع كتابنا عقيدة الدجال .
(٩٣) هامش الدر المنثور ١٨٣/١ تفسير سورة البقرة .

فهو ملعون ومن سار تحت رايته فهو ملعون يستظل بلعنة ويتجه نحو لعنة ! وعزرا هو الذي فتح الباب . وعزرا هذا ، هو عزير المذكور في القرآن في قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله** ﴾(٩٤) وعزير ليس بنبي كما حكى الشيخ الألوسي في تفسيره روح المعاني ؛ فعزرا الذي لم يذكر اسم الشيطان مرة واحدة في توراة موسى . ولم يذكر سجود الملائكة لآدم . ولم ينزه الله تعالى فيما كتب ، وطمس صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بعد أن علم أن الله قد استجاب دعاء إبراهيم في أن يكون نسل إسماعيل هداة للأمم ، وأن الله وعد بمباركة الأمم في آل إسماعيل بنبي يظهر فيهم في قول لإبراهيم « واما إسماعيل . فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة »(٩٥) عزرا هذا كان بمثابة نهاية طريق وبداية طريق آخر في التاريخ الإسرائيلي . هو نهاية طريق لأنه اكتفى بفقهاء الانحراف . وكان القوم من قبل فيهم من يدعو إلى الصلاح . وهو بداية طريق ، لأن انحرافات البشرية من قبل قد تم تزيينها على طريق عزرا نحو أرض المعاد التي هي في حقيقة أمرها أطروحة المسيح الدجال . وعزرا حمل أعلام وقراطيس الشذوذ في قومه . فهو بلا جدال حامل أعلام الذين عبدوا العجل . والذين سيسيرون على طريقه من أي دين آخر ، هم في الحقيقة إخوان للذين عبدوا العجل من بني إسرائيل . قال تعالى : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾(٩٦) . أخرج عبد الرازق وابن المنذر وابن أبي حاتم قال أبو قلابة : هو جزاء لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان : كذلك نجزي المفترين قال : كل صاحب بدعة ذليل . وقيل سفيان هل هي لأصحاب العجل خاصة قال : كلا اقرأوا ما بعدها . وكذلك نجزي المفترين . فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة(٩٧) ولقد حمل أتباع العجل مشاعلهم وساروا في اتجاه الدجال . وفي الطريق كانوا يلوحون لغيرهم للركوب

---

(٩٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٠ .
(٩٥) التكوين ١٧ / ٢٠ .
(٩٦) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٢ .
(٩٧) الدر المنثور : ١٢٨ / ٣ .

في قطارهم . وللأسف الشديد ركبت معهم أجناس عديدة من أديان شتى بعد أن اتبعوهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . وناموا معهم في كل جحر ضيق خرب . إن الطريق العجل المفروش بالذهب اللاحقيقي والذي ينتهي إلى دجال لا يمثل أي حقيقة سيركبه كل من حمل في قلبه انحراف . وكل من اكتسب ديناراً من فتنة عليها من الله تحذير .

(ثانياً) : اختراق النصارى :

لقد ذكرنا في كتابنا عقيدة المسيح الدجال عن اختراق اليهود للنصرانية الكثير . وسنذكر هنا ما تقتضيه الحاجة . لقد كان المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو آخر أنبياء الشجرة الإسرائيلية . ولكن فقهاء الانحراف من شعب إسرائيل لم يؤمنوا به وطالبوه إنْ كان هو المسيح حقاً فليأت إليهم بميراث إبراهيم . ولقد أخبرهم عليه السلام بأنه مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وتصديقه للتوراة التي بين يديه ، إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراة الأصل النازلة على موسى عليه السلام وهذا التعليم جاء في قول الله تعالى لمريم : ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** ﴾[٩٨] وفي هذا دليل على أنه لم يكن مصدقاً للتوراة التي في زمانه لكونها محرفة . وما جرى على عيسى عليه السلام جرى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم . لقد كان مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ولم يكن مصدقاً لما بين يدي عزرا . لأن الذي بين يدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الله ، ولأن عيسى عليه لم يكن مصدقاً بما بين يدي عزرا ؛ بدأ اليهود يغزلون له على مغازل الكيد ، ولما أيقن عيسى عليه السلام أن دعوته غير ناجحة بين بني إسرائيل كلهم أوجلهم ، وأنهم كافرون به لا محالة ، وأنهم لو أخمدوا أنفاسه بطلت الدعوة واشتدت المحنة . مهد لبقاء دعوته ﴿ **قال من أنصاري إلى الله** ﴾[٩٩] لقد أراد بهذا الاستفهام أن يتميز عدة من رجال قومه . فيتمحضوا للحق ، فتستقر فيهم عدة الدين ، وتتمركز فيهم قوته ، ثم تنتشر من عندهم دعوته ، وعندما استفهم عيسى منهم ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا**

---

(٩٨) سورة آل عمران ، الآية : ٤٨ .

(٩٩) سورة آل عمران ، الآية : ٥٢ .

بالله واشهد بأنَّا مسلمـون ﴾[١٠٠] وكان تعـالى قد أوحى إليهم أن يؤمنـوا بالمسيح يقـول تعالى : **﴿ وإذ أوحيت إلى الحـواريين أن آمنوا بي وبـرسـولي قـالـوا آمنـا واشهـد بـأننـا مسلمـون ﴾**[١٠١] قـال المفسـرون : المـراد بهـذا الـوحي وحي إلهام[١٠٢] .

لقد كان وحي الله للحواريين إشارة إلى أن أتباع توراة عزرا لا فائـدة فيهم . وأن الدعوة سيوضع في طريقها جميع أحجار شعب إسـرائيل حتى لا تعبـر إليهم ، ومن أجل ذلك أوحى الله إلى صدر القافلة التي قُدر لها أن تـواجه أحجـار الجموع كي يؤمنوا برسوله . وبدأ المسيح عليه السلام يقيم الحجة على شعب إسرائيـل . فلما وجد اليهود أن المسيح يـزاحمهم في مدنهم وفي هيكلهم ويتحـدث من توراة غير توراتهم التي لا تحمـل إلاّ معالم سمـاوية بـاهتة . بـدأوا يمارسـون سلطانهم الظاهر والخفي من أجل الإيقاع بـه ، ومكروا مكـراً ، وعند الله مكـرهم ، فأخبـر سبحانه عيسى عليه السلام بما يمكر اليهـود . قال تعـالى : **﴿ إذ قال الله يـا عيسى إني متوفيك ورافعـك إليّ ومطهـرك من الذين كفـروا وجاعـل الذين اتبعـوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾**[١٠٣] قال المفسرون : المراد بالوفـاة هنا النـوم كما قال تعالى : **﴿ وهـو الذي يتـوفاكم بـالليل ﴾**[١٠٤] وقـوله : **﴿ الله يتـوفى الأنفس حين مـوتها والتي لم تمت في منـامها ﴾**[١٠٥] وكـان الرسـول صلى الله عليـه وآلـه وسلم يقول إذا قام من النوم : (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا)[١٠٦] فالتوفي لم يستعمل في القرآن بمعنى الموت فقط . بل بعنـاية الأخـذ والحفظ . والمعنى أن الله رفعه في منامه وأبعده من الكفار وصانه عن مخالطتهم والوقوع في مجتمعهم المتقذر بقذارة الكفر والجحود وأن متبعيه من النصارى والمسلمين ستفوق حجتهم

---

(١٠٠) سورة آل عمران ، الآية : ٥٢ .
(١٠١) سورة المائدة ، الآية : ١١١ .
(١٠٢) ابن كثير : ٢/١١٥ .
(١٠٣) سورة آل عمران ، الآية : ٥٥ .
(١٠٤) سورة الأنعام ، الآية : ٦٠ .
(١٠٥) سورة الزمر ، الآية : ٤٢ .
(١٠٦) ابن كثر : ١/٣٦٦ .

على حجة الكافرين به إلى يوم القيامة .

وبدأ اليهود يعدون العدة للفتك بالمسيح عليه السلام كما فتكوا من قبل بزكريا ويحيى عليهما السلام ولكن الله تعالى نجّا المسيح ابن مريم من أيديهم ، وما وجدوا في بيت المسيح إلّا شبيه المسيح . الذي ألقى الله عليه الشبه بعد رفع المسيح إليه ، وخرج اليهود يهللون لانتصارهم الكبير يقول تعالى : ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلّا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾(١٠٧) قال المفسرون : ينص على أنه عليه السلام لم يتوف بأيديهم لا صلباً ولا غير مصلوب ، بل شبه لهم أمره . فأخذوا غير المسيح عليه السلام مكان المسيح فقتلوه أو صلبوه . وقد وردت به روايات أن الله تعالى ألقى شبهه على غيره فأخذ وقتل مكانه . . وقوله : ﴿ **وإن الذين اختلفوا فيه** ﴾ أي اختلفوا في عيسى أو في قتله ﴿ **لفي شك منه** ﴾ أي في جهل بالنسبة إلى أمره ﴿ **ما لهم به من علم إلّا اتباع الظن** ﴾ أي التخمين أو رجحان ما أخذه بعضهم من أفواه بعض . وقوله : ﴿**وما قتلوه يقيناً**﴾ أي ما قتلوه قتل يقين ، أو ما قتلوه أخبرك خبر يقين وقوله : ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ وهذه الآية بحسب السياق . تنفي وقوع ما ادعوه من القتل والصلب عليه . فقد سلم من قتلهم وصلبهم . وظاهر الآية أيضاً . أن الذي ادعوا إصابته بالقتل والصلب ، وهو عيسى عليه السلام ، رفعه الله بشخصه البدني ، وحفظه من كيدهم ، فعيسى رفع بجسمه وروحه ، لا أنه تُوفي ثم رَفع روحه إليه تعالى ، فهذا مما لا يحتمله ظاهر الآية بمقتضى السياق ، فإن الاضراب الواقع في قوله : ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ لا يتم بمجرد رفع الروح بعد الموت الذي يصح أن يجامع القتل والموت حتف الأنف . . . وبعد ذلك كله فالآيات التي جاءت بعد ذلك في سورة النساء ، لا تخلوا عن إشعار أو دلالة على حياته عليه السلام وعدم توفيه بعد(١٠٨) .

لم يتوف المسيح عليه السلام بقتل أو صلب ولا بالموت حتف الأنف .

---

(١٠٧) سورة النساء ، الآيتان : ١٥٧ ـ ١٥٨ .
(١٠٨) الميزان : ٥/١٣٣ .

وسيظهر آخر الزمان ليدافع عن اسمه أمام مسيح دجال وقف دليلاً لأصحاب جميع الانحرافات والشذوذ . ولن يكون أتباع المسيح ابن مريم أولئك الذين قالوا بأن المسيح ابن الله ! أو الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ! فجميع هؤلاء سيجدون كراسيهم وطعامهم عند مسيح آخر دجال . إذا ادعى النبوة صدقوه وإذا ادعى الألوهية صدقوه ، لأنهم تربوا على ثقافة تقول بأن لله ولد أو بأن لله جسد على هيئة الإنسان . فهؤلاء لن يشعروا بالغربة وهم مع المسيح لأنه امتداداً لانحرافهم . والدجال سيدعي كل هذا . سيطالب بميراث بني إسرائيل . فيصطف خلفه بني إسرائيل وخدام وكلاب بني إسرائيل . ثم يجري الله على يديه بعض الفتن . فيشفي الأكمه والأبرص فيتذكر النصارى معجزات المسيح ويهرولون إليه ، ثم يدعي الألوهية ، ليذوق الذين رفضوا البشر الرسول والذين جحدوا بآيات الله الذل على أيدي الدجال أذل خلق الله .

وبعد رفع المسيح ، وبعد أن ظن اليهود أنهم قتلوه ؛ بدأوا يتفرغون لأتباعه ، الذين كانوا قد تفرقوا على رؤوس الجبال انتظاراً لعودة المسيح عليه السلام ، وكان عليه السلام قد أخبر أتباعه بأن اليهود لن يصلوا إليه ، وأنه سيعود إليهم عندما يشاء الله . على هذا كانوا يحسبون أن العودة قريباً ، فتفرقوا في الجبال إنتظاراً لهذه العودة(١٠٩) .

لم يكن اليهود يشعرون بالراحة وبينهم أتباع المسيح . ومن أجل هذا بدأوا يعدون العدة لإخراجهم . ولكن ليس من القدس وما حولها فحسب وإنما من الدين أيضاً . وهذه المهمة قام بها واحد من اليهود المتعصبين لفكرة أرض الميعاد(١١٠) وكان يدعي « شاؤول » ويعرف في المسيحية باسم « بولس » فبولس قام بتفصيل دين لا يكون خطراً على اليهود في أي منزل من منازل البشرية نزل . وبعد فترة من رفع المسيح . تقدم بولس مخترقاً جدار المسيحية وقدم نفسه على أنه قد قابل المسيح . وأنه تلميذه الأمين . وفي بداية الأمر كان أتباع المسيح

---

(١٠٩) راجع بحوثنا في المسيح الدجال .

(١١٠) كان فريسياً . أي تابعاً للمذهب الأكثر تشدداً في اليهودية (أعمال الرسل : ٢٦/٧) .

يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ أما في نهاية الأمر فقد وضع بولس الدين الجديد الذي قال عنه الدكتور جوستاف لوبون « إن بولس أسس باسم يسوع ديناً . لا يفقهه يسوع لو كان حياً . ولو قُيل للحواريين الإثني عشر أن الله تجسد في يسوع . ما أدركوا هذه الفضيحة ولرفعوا أصواتهم محتجين[111] . لقد وضع بولس إنحراف التثليث الذي عكف عليه فقهاء عجل أبيس في مصر القديمة . وفقاً لأسطورة إيزيس وأوزير . وضعه داخل جدار المسيحية ولم يكتف بهذا . بل صاغ الدين الجديد على أساس أن يكون تابعاً لليهود وساهراً على مصالحهم بصورة من الصور . وعلى أن لا ينال النصارى مقابل اتباعهم لليهود شرف الانتساب إليهم في الدم أو الميراث الموعود . وفي هذا يقول توينبي : النجاح الذي يدعو للدهشة أن بولس انتزع مسيحية لا يهودية من الدين اليهودي . بحيث كان باستطاعة غير اليهودي أن يتقبلها بحرية من غير أن يلتزم بالشريعة اليهودية . ومما يدعو للإعجاب بشكل مساو للدهشة أن المسيحية ذات الصبغة اليهودية السابقة الذكر ، نجحت في النهاية في أن تضم إليها سكان الامبراطورية الرومانية باستثناء اليهود »[112] .

والخلاصة : وضع بولس اللبنة التي عليها يقوم صرح الدفاع عن شعب الله المختار . وفي هذا يقول الكردنال دانيلوا : « إن المسيحيين المخلصين ، يعتبرون بولس خائناً . وتصفه وثائق مسيحية بالعدو . وتتهمه بالتواطؤ التكتيكي[113] ويقول موريس بوكاي : « إن بولس كان أكثر وجوه المسيحية موضعاً للنقاش . وإذا كان قد اعتبر خائناً لفكر المسيح فذلك لأنه كون مسيحية على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح من حوله لنشر تعاليمه . ولم يكن بولس قد عرف المسيح في حياته[114] وباختصار شديد . إذا كان عزرا قد قاد القافلة في اتجاه الانحراف المظلم . فإن بولس قد لحق به . لأن عزرا جداً من أجداده . وأرض المعاد هدفاً من أهدافه . ويخطىء من يظن أن بولس قد أضاف للإنسانية

---

(١١١) حياة الحقائق/ جوستاف لوبون : ص١٨٧ .

(١١٢) تاريخ الجنس البشري/ توينبي : ١/٣٧٧ .

(١١٣) حقيقة التبشير/ أحمد عبد الوهاب : ٥٩ .

(١١٤) دراسات في الكتب المقدسة/ بوكاي : ص١٠١ .

بعداً كريماً . بل صنع أوثاناً جديدة وزين أوثاناً قديمة وفي هذا يقول وول ديورانت : « إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها[115] بعد أن هضمت تقاليد العقل الوثني فكرة المسيح الإله[116] وقصارى القول : إن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم[117] .

وهكذا شق الذين كفروا من أهل الكتاب طريقهم الذي بدأه عزرا وأنهاه بولس الذي لم يرَ المسيح ولم يسمع منه . وعلى الرغم من هذا كان يقول : « أنا أيضاً عندي روح الله الروح يفحص كل شيء وحتى أعماق الله »[118] وكان يقول : « المسيح افتدانا من لعنة الناموس . إذ صار لعنة لأجلنا . لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة »[119] هذا ما قاله بولس في حق نفسه وهذا ما قاله في حق المسيح . فأما هو فعنده روح الله وأما المسيح فلقد صار لعنة !! . وظل الحي اليهودي يموج في بعضه . حتى جاء يوم النجاة . ذلك اليوم الذي إذا رفضوه ضربهم عذاب الطمس .

(ثالثاً) : ما قيل عذاب الطمس :

في الحي اليهودي ذاق اليهود العذاب على أيدي الغزاة الأجانب . وذاق النصارى العذاب على أيدي بعضهم بعضاً . وفي هذا الظلام جاءهم الهدى يحمل رايته محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فبين لهم ما التبس عليهم وما اختلفوا فيه . وقص على بني إسرائيل قصصهم التي لا يعرفها غيرهم . وقص على النصارى أحداث ليلة رفع الله تعالى فيها المسيح وكان أتباع المسيح يعرفونها ولكن عندما طال الأمد قام اليهود بوضع رداء الفتنة على الأحداث ووجهوها في صالحهم . لقد قص القرآن على الأسماع الحقيقة التي يفوز من آمن بها ورد قولهم الذي يقول أن لله ولد . فقال تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من**

---

(١١٥) قصة الحضارة/ ديورانت مجلد ١١ باب ٢٧ ف٢ ص٢٧٦ .

(١١٦) قصة الحضارة/ ديورانت مجلد ١١ باب ٢٨ ف٥ ص٣٢٠ .

(١١٧) قصة الحضارة/ ديورانت مجلد ١١ باب ٢٧ فصل ٥ ص٢٧٦ .

(١١٨) كور : ٧/ ٤٠ .

(١١٩) غلاطية : ٣/ ١٣ .

إلـه إذا لـذهب كـل إلـه بمـا خلق ولعـلا بعضهم على بعض سبحـان الله عمـا يصفون ﴾(١٢٠) قال المفسرون : في الآية حجة على نفي التعدد . فمعنى ربـوبية الإله . في شطر من الكون ونوع من أنواعه ، هو تفويض التـدبير فيـه إليه . بحيث يستقل في أمره . من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه . فإذا كان هناك أربـاب فـلازم ذلك . أن يستقـل كل إلـه بما يـرجع إليـه من نوع التـدبير . وتنقـطع رابطة الاتحـاد والاتصال بين أنـواع التدابيـر الجاريـة في العالم . كـالنظام الجـاري في العالم الإنساني عن الأنـظمة الجـارية في أنـواع الحيوانـات والنبات والبـر والبحر والسهـل والجبل والأرض والسمـاء وغيرهـا . وكل منهـا عن كل منهـا . وفيه سـاد السماوات والأرض وما فيهن . وبما أن النظام الجاري في العالم يسير على صراط واحد فإن ذلك يعني أن المدبر واحد قوله : ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ بيانـه . أن التـدابير الجـارية في الكـون مختلفة . منهـا التدابيـر العرضيـة . كالتـدبيـرين الجاريين في البر والبحر . والتدبيـرين الجاريين في المـاء والنار . ومنهـا التدابيـر الطولية . التي تنقسم إلى تدبير عام كلي . وتدبير خاص جـزئي محكوم ؛ كتـدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه . وكتدبير العـالم السماوي وتـدبير كـوكب من الكـواكب التي في السماء . وكتـدبير العـالم المادي بـرمته . وتـدبير نـوع من الأنواع المادية .

فبعض التدبير ، وهو التدبير العام الكلي يعلو بعضـاً ، بمعنى أنه بحيث لـو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونـه لتقومـه بما فـوقه . كمـا انه لـو لم يكن هناك عـالم أرضي أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم ؛ لم يكن عالم إنساني ولا التدبيـر الذي يجري فيه بالخصوص ، ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يـرجع إليـه نوع عـال من التدبير . عالياً بالنسبة إلى الإله الذي فوض إليه من التدبير ما هو دونـه . واستعلاء الآلهـة يؤدي إلى فساد الكـون . وبما أن النـظام الكوني يسيـر على صراط مستقيم ملتئم الأجزاء متصل التدبير ؛ فـإن هذا يعني أن المـدبر واحـد لا إله إلاّ هـو . لقد تحدث الرسول الأعظم وتلى آيات ربه وأخبرهم بأنه لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كـل منهم بما خلق ، ونتيجة ذلك عدم انتظام الوجود . والوجود من أمامهم يُرى منتظم

---

(١٢٠) الميزان : ١٥/٦٢ .

متسق مرتبط بعضه ببعض في غـاية الكمـال ، وأخبرهم أن تعـدد الآلهة يكـون من نتيجته أن يقوم كل منهم بقهر الآخر ويعلو بعضهم على بعض .

أخبرهم بهذا وبأكثر من هذا كما في كتـاب الله ، ولكن رياح السلف كـانت تعصف داخل الجماجم الفارغة التي لم تقدم حقيقة واحدة تثبت صدق ادعـائها . واكتفـوا بركـوب دواب الأهواء التي يـأكلون بها أمـوال الناس بـالبـاطـل واتجهـوا بدوابهم وراء سلف ضل وأضل . ولله عليهم الحجة البالغة . وكمـا نهاهم القـرآن أن يقولوا بأن لله ولد ؛ نهاهم بأن لا يقولوا أن الله ثـالث ثلاثـة ، وأن لا يقولـوا على الله إلّا الحق . قال تعالى : ﴿ **يـا أهل الكتـاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولـوا على الله إلّا الحق إنمـا المسيح عيسى ابن مـريم رسـول الله وكلمتـه ألقـاهـا إلى مـريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكـم إنمـا الله إله واحـد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً** ﴾[121] قال المفسرون : إنه خـطاب للنصارى ، وإنمـا خوطبـوا بأهـل الكتاب ، وهـو وصف مشترك إشعاراً بأن تسميتهم بأهل الكتاب يقتضي أن لا يتجاوزوا حدود ما أنزلـه الله وبينه في كتبه . ومما بينه أن لا يقولوا عليه إلّا الحق . وقولـه : ﴿ **إنما المسيـح** ﴾ أي المبـارك « عيسى ابن مـريم » تصريـح بـالاسم واسم الأم . ليكـون أبعـد من التفسير والتأويل بأي معنى مغـاير . وليكـون دليلاً على كـونه إنسـاناً مخلوقـاً كأي إنسـان ذي أم . ﴿ **وكلمته ألقـاها إلى مـريم** ﴾ تفسير لمعنى الكلمـة ، فإنـه كلمة « كن » التي ألقيت إلى مريم البتول . لم يعمل في تكونه الأسباب العادية كالنكاح والأب . قال تعالى : ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾[122] فكل شيء كلمة له تعالى . غير أن سائر الأشيـاء مختلطة بالأسبـاب العاديـة . والذي اختص لأجله عيسى عليه السلام بوقوع اسم الكلمة . هو فقـدانه بعض الأسبـاب العاديـة في تولده ﴿ **وروح منـه** ﴾ والروح من الأمـر . قال تعـالى : ﴿ **قل الـروح من أمر ربي** ﴾[123] ولما كان عيسى عليه السلام . كلمـة « كن » التكوينيـة وهي أمر فهـو روح .

---

(١٢١) سورة النساء ، الآية : ١٧١ .

(١٢٢) سورة آل عمران ، الآية : ٤٧ .

(١٢٣) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

فإذا كان كذلك وجب عليكم الإيمان بالله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا . حال كون الانتهاء . أو حال كون الإيمان بالله ورسله . ونفي الثلاثة خيراً لكم . ﴿ **سبحانه أن يكون له ولد وله ما في السماوات وما في الأرض** ﴾ فإن الولد كيفما فرض ، هو الذي يماثل المولد في سنخ ذاته فتكونا منه . وإذا كان كل ما في السماوات والأرض مملوكاً في أصل ذاته وآثاره لله تعالى . وهو القيوم لكل شيء وحده . فلا يماثله شيء من هذه الأشياء فلا ولد له[١٢٤] .

لقد جاءهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى وتلى عليهم قول ربه : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلـه إلّا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾[١٢٥] قال المفسرون : هذا كالبيان ، لكون النصارى لم تنفعهم النصرانية والانتساب إلى المسيح عليه السلام . عن تعلق الكفر بهم . إذ أشركوا بالله . ولم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . . . ﴿ **وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ احتجاج على كفرهم وبطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه ، فإن قوله عليه السلام : ﴿ **اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ يدل على أنه عبد مربوب مثلهم . وقوله : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** ﴾ يدل على أن من يجعل الله شريكاً في ألوهيته ، فهو مشرك كافر محرم عليه الجنة .

وفي قوله عليه السلام : ﴿ **فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ عناية بإبطال ما ينسبونه إلى المسيح من حديث الفداء . وأنه عليه السلام باختياره الصلب ، فدى بنفسه عنهم ، فهم مغفور لهم ! مرفوع عنهم التكاليف الإلهية ! ومصيرهم إلى الجنة ولا يمسون ناراً ! وقوله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ أي أحد الثلاثة : الأب والابن والروح . أي هو

---

(١٢٤) الميزان : ٥/١٥٠ .

(١٢٥) سورة المائدة ، الآيات : ٧٢ - ٧٤ .

ينطبق على كل واحد من الثلاثة . وهذا لازم قولهم أن الأب إلـه . والابن إلـه والروح إله . وهو ثلاثة ! وهو واحد ! يضاهئون بذلك نظير قولنا : إن زيد بن عمرو إنسان . فهناك أمور ثلاثة هي : زيد وابن عمرو والإنسان . وهناك أمر واحد هو المنعوت بهذه النعوت . وقد غفلوا عن أن هذه الكثرة إن كانت حقيقة غير اعتبارية . أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقة . وأن المنعوت إن كان واحداً حقيقة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتبارية غير حقيقية . فالجمع بين هذه الكثرة العددية والوحدة العددية . في زيد المنعوت بحسب الحقيقة . مما يستنكف العقل عن تعقله . ولذا ربما ذكر بعض الدعاة من النصارى أن مسألة التثليث من المسائل المأثورة ، من مذاهب الأسلاف ، التي لا تقبل الحل بحسب الموازين العلمية . ولم يتنبه أن عليه أن يطالب الدليل على كل دعوى يقرع سمعه ، سواء كان من دعاوي الأسلاف أو من دعاوي الأخلاف .

وقوله : ﴿ **وما من إله إلاّ إله واحد** ﴾ فالمعنى : ليس في الوجود شيء من جنس الإلـه أصلاً إلاّ إلـه واحد نوعاً من الوحدة لا يقبل التعدد أصلاً ، لا تعدد الذات ولا تعدد الصفات لا خارجاً ولا فرضاً ، إن الله سبحانه لا يقبل بذاته المتعالية الكثرة بوجه من الوجوه ، فهو تعالى في ذاته واحد ، وإذا اتصف بصفاته الكريمة وأسمائه الحسنى ، لم يزد ذلك على ذاته الواحدة شيئاً ، ولا الصفة إذا أضيفت إلى الصفة . أورث ذلك كثرة وتعدداً فهو تعالى إحدى الذات لا ينقسم لا في الخارج ولا في وهم ولا في عقل . فليس الله سبحانه . بحيث يتجزأ في ذاته إلى شيء وشيء قط . ولا أن ذاته بحيث يجوز أن يضاف إليه شيء فيصير اثنين أو أكثر . كيف ؟ وهو تعالى مع هذا الشيء الذي تراد إضافته إليه تعالى في وهم أو فرض أو خارج . فهو تعالى واحد في ذاته لكن لا بالوحدة العددية . التي لسائر الأشياء . المتكون منها الكثرات . ولا منعوت بكثرة في ذات أو اسم . أو صفة . كيف ؟ وهذه الوحدة العددية والكثرة المتألفة منها كلتاهما من آثار صنعه وإيجاده ، فكيف يتصف بما هو من صنعه ؟(١٢٦) .

وقوله : ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب**

---

(١٢٦) الميزان : ٧١/٦ .

أليم ﴾ فالمعنى : ولما كان القول بالتثليث ليس في وسع عقول العامة أن تتعقله ، فأغلب النصارى ، يتلقونه قولاً مذهبياً مسلماً بلفظه من غير أن يعقلوا معناه . ولا أن يطمعوا في تعقله . وبما أنه ليس في وسع العقل السليم أن يعقله عقلاً صحيحاً .

كان هناك من النصارى من لا يقول بالتثليث . ولا يعتقد في المسيح إلاّ أنه عبد الله ورسوله . كما كانت على ذلك مسيحيو الحبشة وغيرها وعلى ما يضبطه التاريخ فقوله : ﴿ **ليمسن الذين كفروا منهم** ﴾ أي لئن لم ينتهِ النصارى عما يقولون ـ نسبة قول بعض الجماعة إلى جميعهم ـ ليمسن الذين كفروا منهم ـ وهم القائلون بالتثليث منهم ـ عذاب أليم . ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ تخصيص على التوبة والاستغفار . وتذكير بمغفرة الله ورحمته . أو انكار . أو توبيخ .

لقد توجهت آيات القرآن إلى أهل الكتاب تدعوهم إلى الإيمان قبل أن يطمس الله وجوههم ويسيروا وقد ختم الله على قلوبهم نحو الدجال . لا ينفعهم إيمان إذا جاء بأس الله . ولا يأذن الله لناصر ينصرهم بالهداية . قال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾(١٢٧) قال المفسرون : وأنتم تشهدون . الشهادة هي الحضور والعلم عن حس . دلالة على أن المراد بكفرهم بآيات الله : إنكارهم كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو النبي الموعود الذي بشر به في التوراة والإنجيل . مع مشاهدتهم انطباق الآيات والعلائم المذكورة فيهما عليه(١٢٨) . وقال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾(١٢٩) قال المفسرون : كانوا يخفون آيات النبوة وبشارتها . وكانوا يخفون حكم الرجم . وأما عفوه عن كثير ؛ فهو تركه كثيراً مما كانوا يخفونه من الكتاب . ويشهد بذلك الاختلاف الموجود في

---

(١٢٧) سورة آل عمران ، الآية : ٧٠ .

(١٢٨) الميزان : ٣/٢٥٦ .

(١٢٩) سورة المائدة ، الآيتان : ١٥ ـ ١٦ .

الكتابين . كاشتمال التوراة على أمور في التوحيد والنبوة . لا يصح استنادها إليه تعالى . كالتجسم والحلول في المكان ونحو ذلك . وما لا يجوز العقل نسبته إلى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر والفجور والزلات . وكفقدان التوراة ذكر المعاد من رأس . ولا يقوم دين على ساق إلّا بمعاد . وكاشتمال ما عندهم من الأناجيل ولا سيما إنجيل يوحنا على عقائد وثنية وقوله : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ المراد بالنور والكتاب المبين القرآن . وقد سمى الله تعالى القرآن نوراً في موارد من كتابه . ومن المحتمل أن يكون المراد بالنور النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد عده الله تعالى نوراً في قوله : ﴿ **وسراجاً منيراً** ﴾(١٣٠) .

وقوله : ﴿ **يهدي به الله من ابتع رضوانه** ﴾ قيد فيه تعالى قوله : ﴿ **يهدي به الله** ﴾ بقوله : ﴿ **من اتبع رضوانه** ﴾ ويؤول إلى اشتراط فعلية الهداية الإلٰهية باتباع رضوانه . ومعنى الآية والله أعلم : يهدي الله سبحانه ويورد بسبب كتابه أو بسبب نبيه . من اتبع رضاه سبلاً من شأنها أنه يسلم من سار فيها من شقاء الحياة الدنيا والآخرة . وكل ما تتكدر به العيشة السعيدة . فأمر الهداية إلى السلام والسعادة يدور مدار اتباع رضوان الله . وقد قال تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾(١٣١) وقال : ﴿ **فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾(١٣٢) ويتوقف بالآخرة على اجتناب سبيل الظلم والانخراط في سلك الظالمين . وقد نفى الله سبحانه عنهم هدايته ، وآيسهم من نيل هذه الكرامة الإلٰهية بقوله : ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾(١٣٣) فالآية أعني قوله : ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** ﴾ تجري مجرى قوله : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾(١٣٤) .

وقوله : ﴿ **ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه** ﴾ معنى إخراجهم بإذنه : إخراجهم بعلمه . . لقد دعاهم الرسول الأكرم إلى النور والمغفرة قال

---

(١٣٠) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٦ .
(١٣١) سورة الزمر ، الآية : ٧ .
(١٣٢) سورة التوبة ، الآية : ٩٦ .
(١٣٣) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .
(١٣٤) سورة الأنعام ، الآية : ٨٢ .

تعـالى : ﴿ **ولو أن أهـل الكتاب آمنـوا واتقوا لكفـرنا عنهم سيئـاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التـوراة والإنجيل ومـا أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فـوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾(١٣٥) قـال المفسـرون : المـراد بـالتقـوى بعـد الإيمان . التورع عن محارم الله واتقاء الذنوب التي تحتم السخط الإلهي وعـذاب النار . وهي الشرك بالله وسائر الكبائـر الموبقـة التي أوعد الله عليهـا النار وقـولـه : ﴿ **ولـو أنهم أقامـوا التوراة والإنجيـل وما أنـزل إليهم من ربهم** ﴾ المراد بـالتوراة والإنجيـل الكتابـان السماويـان اللذان يذكـر القـرآن أن الله أنـزلهمـا على مـوسى وعيسى عليهما السلام . دون ما بأيدي القوم من الكتب التي يذكر أنه لعبت بها يـد التحريف والظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ركبهم . سائر الكتب المنسـوبة إلى الأنبياء الموجـودة عندهـم كمـزامير داوود وغيـره وقولـه : ﴿ **لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ المراد بالأكل التنعم مطلقاً . والمراد من فـوقهم هو السمـاء ومن تحت أرجلهم هو الأرض .

والآية من الدليل على أن الإيمان والعمل الصالح له تـأثير في صـلاح النظام الكوني . من حيث ارتباطـه بالنـوع الإنساني . فلو صلح النـوع الإنساني ، صلح نظام الدنيا ، من حيث إيفائه باللازم لحياة الإنسان السعيدة من اندفاع النقم ووفور النعم . لقد عرض عليهم القرآن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم . كي يركبوا طريق الهدايـة . ثم عرض عليهم أن يقيمـوا التوراة والإنجيـل اللذان يذكـر القرآن أن الله أنزلهمـا على موسى وعيسى عليهمـا السلام . ففي حـالة ظهـورهما سيقطعون أقرب الطرق للإيمان بمحمد صلى الله عليه وآلـه وسلم فيؤمنون بـه عن طـريق كتبهم . لأنه مـوصوف فيهـا . وكان اليهـود والنصارى ينشـرون بينهم وفي العالم خبر نبوته كما قال تعالى : ﴿ **وكانـوا من قبل يستفتحـون على الذين كفـروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكـافرين** ﴾(١٣٦) قـال المفسرون : أي قبل مجيء النبي بالقرآن كانوا يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشـركين إذا قاتلوهم ويقولون أنه سيبعث نبي آخر الزمـان . نقتلكم معه قتـل عاد وإرم(١٣٧)

---

(١٣٥) سورة المائدة ، الآيتان : ٦٥ ـ ٦٦ .

(١٣٦) سورة البقرة ، الآية : ٨٩ .

(١٣٧) ابن كثير : ١/١٢٤ .

فلما جاءهم ما عرفوا أي عرفوا أنه هو بانطباق ما كان عندهم من أوصاف عليه كفروا[١٣٨] . وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض)[١٣٩] أي لو صدق برسالتي وما جئت به عشرة من علماء اليهود ورؤسائهم الذين يقتدى بهم ، لقادوا سائرهم إلى الدخول في الإسلام .

لقد كان النبي يريد أن يؤمن به قادة اليهود . ولكن قادة اليهود انطلقوا في عالم الطمس يتبعهم الظالمون من النصارى . ولن يغني عنهم إيمانهم بأنبياء بني إسرائيل . لأنهم فرقوا بين الله ورسله ، فقالت اليهود آمنا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ومحمد . والتوراة التي بأيديهم لا تحمل إلّا ملامح باهتة عن موسى . وقالت النصارى آمنا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد . والأناجيل التي بأيديهم منسوبة إلى تلاميذ يؤرخون لحياة المسيح وما وقع بينه وبين اليهود . وهي أولاً لا تتفق فيما بينها في كثير من المعاني . وثانياً فإنها تقول بالتثليث بينما التوراة لا تقول به . وهكذا فرقوا بين الله ورسله وكتبه . وحكم الله وحكمه الحق بأنهم كافرون بالله ورسله جميعاً . قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[١٤٠] فالكفر بالبعض والإيمان بالبعض . ليس إلّا تفرقة بين الله ورسله . ولا سبيل إلى الله إلّا الإيمان به وبرسله جميعاً . فإن الرسول ليس له من نفسه شيء . ولا له من الأمر من شيء . فالإيمان به إيمان بالله . والكفر به كفر بالله . لقد كانت الرسالة المحمدية هي الباب الأخير الذي بدخوله ينجوا بني إسرائيل من العذاب الذي دق أوتاده سلفهم حول العجل يوماً ما . كان الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو طوق النجاة الذي ينشلهم من

---

(١٣٨) الميزان : ١/٢٢٢ .

(١٣٩) رواه محمد وأبو داود ـ الفتح الرباني : ١/١٠٢ .

(١٤٠) سورة النساء ، الآيات : ١٥٠ ـ ١٥٢ .

بحار الفتن التي أدلى فيها سلفهم كل واحد منهم بدلوه المحمل بالشذوذ والانحراف . ولكن أصحاب الأيدي الخفية أولئك الذين يعملون من قديم من أجل تأصيل الشذوذ عملوا بكل جهد من أجل أن تسير مسيرة الفساد في اتجاه الدجال . ولأن الإسلام لا يكره أحداً على اتباعه . تركهم الله في طريقهم . وختم على قلوبهم بعد أن مهدوا لأنفسهم ودخلوا بأقدامهم تحت عذاب الطمس .

(رابعاً) : عذاب الطمس :

إن الإنسان سيد أعماله . وبداية الضلال من الإنسان نفسه . فليس للشيطان أية سلطة على الناس . ولا يتمكن من إكراه الناس على المعصية . إن الشيطان يزن الأعمال فقط . ويدعو الناس إلى الضلال فقط . وعندما يلبي الإنسان الدعوة . يضله الله عقاباً لسوء اختياره . ومعنى إضلال الله للعبد ، أن الله يقطع رحمته منه فينحرف باختياره . وبني إسرائيل شهدوا أكثر من آية مع أنبيائهم . ووضعهم الله تحت ضربات الغزاة كي يتوبوا ويستغفروا . لكنهم وهم في سبي الغزاة حرفوا التوراة وشكلوا جهازاً دينياً يسهر على مصالح المسيح الدجال . وواصلوا الانحراف حتى إنهم أحكموا القبضة على الأنبياء فقتلوهم . وأحكموا القبضة على دعوة عيسى بعد أن رفعه الله . فربطوها بالتوراة والتوراة لا تعلم عنها شيئاً . وظلت القافلة تسارع بالفساد في الأرض باختيارها حتى جاءهم الإنذار الإلهي القاصم . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها علىٰ أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾[١٤١] قال المفسرون : روي أن هناك من أسلم عندما سمع هذه الآية . وقال : « يا رب أسلمت » مخافة أن تصيبه هذه الآية . وقيل في طمس الوجوه الكثير . فمن قائل : طمسها أن تعمى . ومن قائل : جعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقري . وقيل : ترد على أدبارها أي تمنع عن الحق[١٤٢] وقال صاحب الميزان : تعرضت الآية لليهود أو طائفة منهم . فإنهم بإيزاء ما خانوا الله

---

(١٤١) سورة النساء ، الآية : ٤٧ .

(١٤٢) ابن كثير : ١/٥٠٥ .

ورسوله وأفسدوا صالح دينهم . ابتلوا بلعن من الله لحق جمعهم وسلبهم التوفيق للإيمان إلّا قليلاً . فعم الخطاب لجميع أهل الكتاب على ما يفيد قوله : ﴿ **يا أيها الذين أوتوا الكتاب** ﴾ ودعاهم الله إلى الإيمان بالكتاب الذي نزله مصدقاً لما معهم . وأوعدهم بالسخط الذي يلحقهم . لو تمردوا واستكبروا . من طمس أو لعن يتبعانهم اتباعاً لا ريب فيه . وطمس الوجوه . محو هذه الوجوه التي يتوجه بها البشر نحو مقاصدهم الحيوية . مما فيه سعادة الإنسان المرتقبة والمرجوة . وهذا المحو ليس هو المحو الذي يوجب فناء الوجوه وزوالها . بل محو يوجب ارتداد تلك الوجوه على أدبارها . فإذا كانت الوجوه تقصد مقاصدها على الفطرة التي فطر الله الناس عليها . فإن الوجوه المطموسة لا تقصد إلّا ما خلفته وراءها ولا تمشي إليه إلّا القهقري . وهذا الإنسان الذي يسير في غير اتجاه الفطرة . كلما توجه إلى ما يراه خيراً لنفسه وصلاحاً لدينه أو لدنياه . لم ينل إلّا شراً وفساداً . وكلما بالغ في التقدم زاد في التأخر وليس يفلح أبداً(١٤٣) .

اما قوله تعالى : ﴿ **أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت** ﴾ فآيات أصحاب السبت هي التي تخبر عن مسخهم قردة وقد ألقينا عليهم بعض الضوء عند حديثنا عن القرية التي أصبحت أمام أمر الله ثلاث فرق . وقال المفسرون : لفظة « أو » في قوله : ﴿ **أو نلعنهم** ﴾ على ظاهرها من إفادة الترديد . والفرق بين الوعيدين : أن الأول الذي هو الطمس ، يوجب تغيير مقاصد المغضوب عليهم من غير تغيير الخلقة إلّا في بعض كيفياتها . والثاني الذي هو اللعن كلعن أصحاب السبت . يوجب تغيير المقصد . بتغيير الخلقة الإنسانية إلى خلقة حيوانية كالقردة . فهؤلاء إن تمردوا عن الامتثال ولم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان لهم إحدى سخطتين : إما طمس الوجوه . وإما اللعن . ولكن الآية تدل على أن السخطة لا تعمهم جميعاً حيث قال تعالى : ﴿ **وجوهاً** ﴾ فأتى بالجمع المنكر . ولو كان المراد الجميع لم ينكر . ولتنكير الوجوه وعدم تعيينها نكتة هي أن المقام لما كان مقام الإبعاد والتهديد ، وهو إبعاد للجماعة بشر ، لا يلحق إلّا ببعضهم . كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهي أوقع في الإنذار والتخويف ،

---

(١٤٣) الميزان : ٤/٣٦٧ .

لأن وصفهم على إبهامه ، يقبل الانطباق على كل واحد من القوم ، فلا يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب . وفي قوله تعالى : ﴿ **أو نلعنهم** ﴾ حيث ارجع فيه ضمير « هم » الموضوع لأولي العقل إلى قوله : ﴿ **وجوهاً** ﴾ كما هو الظاهر تلويحاً أو تصريحاً . بأن المراد بالوجوه . الأشخاص من حيث استقبالهم مقاصدهم وبذلك يضعف احتمال أن يكون المراد بطمس الوجوه وردها على أدبارها تحويل وجوه الأبدان إلى الأقفية كما قال به البعض ويقوى ذلك احتمال أن المراد من تحويل الوجوه إلى الأدبار تحويل النفوس من حال استقامة الفكر وإدراك الواقعيات على واقعيتها إلى حال الاعوجاج والانحطاط الفكري . بحيث لا يشاهد حقاً إلّا أعرض عنه واشمأز منه ولا باطلاً إلّا مال إليه وتولع به . وهذا نوع من التصرف الإلٰهي . مقتاً ونقمةً . نظير ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾(١٤٤) .

فتبين مما مر أن المراد بطمس الوجوه في الآية نوع تصرف إلٰهي في النفوس ، يوجب تغيير طباعها من مطاوعة الحق وتجنب الباطل ، إلى اتباع الباطل والاحتراز عن الحق في باب الإيمان بالله وآياته كما يؤيده صدر الآية : ﴿ **آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم** . . ﴾ . . ومن الممكن أن يقال : إن المراد به تقليب أفئدتهم ، وطمس وجوه باطنهم من الحق إلى نحو الباطل فلا يفلحون بالإيمان بالله وآياته . ثم إن الدين الحق . لما كان هو الصراط المستقيم . الذي لا ينجح إنسان في سعادة حياته الدنيا إلّا بركوبه والاستواء عليه . وليس للناكب عنه إلّا الوقوع في كانون الفساد . والسقوط في مهابط الهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا** ﴾(١٤٥) وقال تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم** ﴾(١٤٦) ولازم هذه الحقيقة ؛ أن طمس الوجوه

---

(١٤٤) سورة الأنعام ، الآية : ١١٠ .

(١٤٥) سورة الروم ، الآية : ٤١ .

(١٤٦) سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .

عن المعارف الحقة الدينية ، طمس لها عن حقائق سعادة الحياة الدنيا بجميع أقسامها ، فالمحروم من سعادة الدين ، محروم من سعادة الدنيا . من استقرار الحال وتمهد الأمن وكل ما يطيب به العيش .

وآية الطمس ختمها الله بقوله : ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ أي أن الأمر لا محالة واقع(١٤٧) فأمره سبحانه لا يخالف ولا يمانع(١٤٨) .

باختصار عالم الطمس هو سير القطار بلا رجعة والله غني عن العالمين ، وفي عالم الطمس لن يفلحوا أبداً حتى ولو رفعوا أعلامهم على القمر وعلى جميع صناديق النقد الدولية . عالم الطمس كلما ازداد أصحابه تقدماً تأخروا لأنهم يسيرون عكس اتجاه الفطرة ونحو المسيح الدجال ، وتحت أقدامه يقفون يشكون الفقر والحاجة فيغذي أهواءهم . إن مربع الطمس يعيش داخل مربع الضلالة . فالضلالة هي التي تغذي قافلة الطمس . ومن كان غذاؤه من الضلالة فلا أمل في شفائه ﴿ **قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمٰن مداً** ﴾(١٤٩) قال المفسرون : من كان في الضلالة ، تدل على استمرارهم في الضلالة ، لا مجرد تحقيق ضلالة ما وبذلك يتم التهديد بمجازاتهم بالإمداد بما منه ضلالته ، كالزخارف الدنيوية . فينصرف عن الحق حتى يأتيه أمر الله من عذاب أو ساعة فيظهر له الحق عند ذلك . ولن ينتفع به . قال تعالى : ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً** ﴾(١٥٠) وهذا دليل على أن هذا المد خذلان في صورة إكرام . والمراد به أن ينصرف عن الحق بالاشتغال بزهرة الحياة . فلا يظهر له الحق إلاّ في وقت لا ينتفع به . كما قال تعالى : ﴿ **فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوْا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده** ﴾(١٥١) وقال : ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت**

---

(١٤٧) الميزان : ٤/٣٧٠ .
(١٤٨) ابن كثير : ١/٢٠٨ .
(١٤٩) سورة مريم ، الآية : ٧٥ .
(١٥٠) سورة مريم ، الآية : ٧٥ .
(١٥١) سورة غافر ، الآية : ٨٥ .

في إيمانها خيراً ﴾[١٥٢] .

(خامساً) : الخلاصة :

إن الذين يعبدون أصناماً من دون الله ويسيرون وراء أهوائهم هم في الحقيقة يدعون الشيطان العاري من كل خير ، ويسيرون في اتجاه طاعته ، لأن الشيطان أخذ على عاتقه أن يظلهم بالاشتغال بعبادة غير الله . واقتراف المعاصي وأن يغرينهم بالاشتغال بالآمال والأماني التي تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم . وما يهمهم من أمرهم . وأن يأمرهم بتحريم ما أحل الله وتغيير خلقه مثل الإخصاء واللواط والسحاق والخروج عن حكم الفطرة وترك الدين الحنيف . والظالمين من أهل الكتاب اشتغلوا بهذا كله . لقد اشتغلوا بآمال وأماني أرض المعاد . وجعلوا هذه الآمال عاموداً فقرياً لحركتهم . ولأنهم بظلمهم اتبعوا الأهواء وأعرضوا عن التعقل الصيح أضلهم الله ، ولم يأذن سبحانه لناصر ينصرهم بالهداية ولا منقذ ينقذهم من الضلال ، فأي خسران أبين من خسران من يبدل السعادة الحقيقية وكمال الخلقة بالمواعيد الكاذبة والأماني الموهومة ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾**[١٥٣] .

إن قافلة بني إسرائيل التي بدأت مع موسى عليه السلام على أرض مصر . اضطهدت في سبيل الله ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾**[١٥٤] قال المفسرون : كأنه يقول : ما أمرتكم به أن اتقوا الله في سبيل مقصدكم . كلمة حية ثابتة ، فإن عملتم بها ، كان المرجو أن يهلك الله عدوكم ويستخلفكم في الأرض بايراثكم إياها . ولا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاء جزافاً . ولا يكرمكم إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد . بل ليمتحنكم بهذا الملك . ويبتليكم بهذا التسليط والاستخلاف . فينظر كيف تعملون[١٥٥] .

---

(١٥٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٨ .

(١٥٣) سورة النساء ، الآية : ١١٩ .

(١٥٤) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(١٥٥) الميزان : ٨/٢٢٥ .

وانطلقت المسيرة الإسرائيلية تحمل الهدى للعالمين . وبينما هي تسير ظهر أصحاب العجل والبقرة . وأصحاب الكنوز وصاحب النبأ . وطابور النفاق الطويل وصنَّاع الأهواء والأصنام . ولم يكن في ذاكرة هؤلاء قول موسى : ﴿ **فينظر كيف تعملون** ﴾ وتطورت مسيرة الانحراف لتنتج في النهاية كتباً وإن كانت لا تخلو من حق إلّا أنها في خطوطها العريضة لا تحمل إلّا ملامح سماوية باهتة وهذه الكتب وقف وراءها فقهاء السوء يدعون الناس لطريق الطمس ، حيث علوم فقه التحقير الذي وضعه قوم نوح وعلى طريقه استؤصلوا ، وعلوم فقه الغطرسة الذي وضعته عاد وعلى طريقه جاءتهم الرياح ، وعلوم فقه الجحود الذي وضعته ثمود وعلى سبيله جاءتهم الصيحة ، وعلوم فقه اللواط الذي وضعه قوم لوط وعلى طريقه ضربتهم حجارة من سجيل منضود ، وعلوم فقه اللصوصية الذي دَوَّنَه أهل مدين وأصحاب الأيكة وعلى طريقه ضربتهم الصيحة وجاءتهم الظُّلَّة . لقد عمل فقهاء الانحراف داخل الحي الإسرائيلي من أجل تغليب الشذوذ ورفع رايات الأهواء على امتداد طريق الانحراف ، وتم توفير القنابل الذرية لحماية هذا الطريق . ولكن نهاية الطريق قد أخبرنا الله عنها ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾[١٥٦] ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون** ﴾[١٥٧] .

---

(١٥٦) سورة النور ، الآية : ٣٩ .

(١٥٧) سورة العنكبوت ، الآيات : ٤١ ـ ٤٣ .

النبي الخاتم صلى الله عليه واله وسلم

﴿ قل يا أيها الناس اني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .
سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨

* النبي الخاتم صلى الله عليه وآله والقافلة البشرية

[الحجـــة البالغـــة]

مقدمـــــة :

قبل البعثة المحمدية ، كانت القافلة البشرية تعيش أحط أدوارهـا ، فالقـرن السادس الميلادي كان قد طفح سطحه بعرق الإنحراف ووصف بأنه كان من أشـد القرون ظلاماً . حيث ادعى الجبابـرة في رقع كثيـرة من العالم الحق الإلٰهي وعلى هذا ملأوا العـالم ظلماء وخـرجوا يبحثـون بمخالبهم وأنيـابهم عن فريسـة من بني الإنسـان ليقتلوه أو يسبـوه خـلال حـروبهم . التي أشعلوهـا من أجـل مــزيـد من الشهوات والأهواء . قبل البعثة خـرج أصحاب بيـوت العنكبوت التي ليس لهـا من آثـار البيت إلّا اسمه بعـد أن وجـدوا أن البيت لا يـدفـع حـراً ولا بـرداً ولا يقي من مكروه ! خرجوا ليبحثوا عن بيـوت أخرى وكلمـا انتهوا إلى بيت وجـدوه كبيوتهـم ! وهكذا دارت جحافل الظلام في حلقة مفرغة . من بيت سوء إلى بيت سـوء ! ومن أولياء ليس لهم من الولايـة إلّا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضـرون ولا يملكون مـوتاً ولا حياةً ولا نشوراً . إلى أولياء لم يتخصصوا إلّا في بناء بيوت كبيوت العنكبوت !

كـانت الوثنيـة قد رفعت أعـلامها على بـلاد الروم واليـونان والهنـد والفرس ومصـر وسوريـا وغير ذلـك من البـلاد . وتحت ظـل الـوثنيـة أطيح بسنـة العـدل الإجتمـاعي ، وأنّت الفطرة تحت أحمـال غليظة ، وقـام فقهاء الانحـراف بتقديم ثقافة تفقـد الإنسان رشـده وقوة تمييـزه بين الخير والشـر . فلم يعرف في عـالمهم

الحسن من القبيح . وكيف يعرف من ألقى مقياس المعرفة الفطرية وراء ظهره وانطلق مسرعاً إلى عالم الضلال الذي لا يفلح من سار على طريقه أبداً . فتحت رايات الوثنية في الامبراطورية الرومانية الشرقية . كان الإنسان أرخص شيئاً على أرضها . كانوا يدفعون بالرقيق إلى حلبات المصارعة كي يصارع إنسان مثله حتى الموت أو يصارع السباع ! وكل هذا من أجل أن يدخلوا السرور على شريف من أشراف القوم بعد عناء يوم عمل . وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف . والمؤامرات والمجاملات الزائدة والقبائح والعادات السيئة . وكان هم الجميع هو اكتساب المال من أي وجه . فهناك من احترف قطع الطرق لسرقة الأفراد وهناك من احترف قطع الطرق لسرقة الشعوب . أما أوروبا فكانت تعيش في ظلام الجهل والأمية والحروب الدامية وكانت بعيدة عن قافلة الحضارة التي شيدها الناس من حولهم . كان لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم . وكانت أجسامهم قذرة ورؤوسهم مملوءة بالأوهام . وكان الرهبان هناك يبحثون في أن المرأة حيوان أم إنسان ؟ ولها روح خالدة أم ليس لها روح خالدة . وأن لها حق الملكية والبيع والشراء أم ليس لها شيء من ذلك . ويقول روبرت برفلوت : لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر . وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً . وكانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم . لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت . . وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها الحضارة وبلغت أوجها في الماضي كإيطاليا وفرنسا . فريسة الدمار والفوضى والخراب[1] أما الهند فكانت قبل عصر البعثة المحمدية قد احترفت صنع الآلهة وذكر صاحب كتاب الهندوكية السائدة . بأنهم ألحقوا بالديانة الهندوكية عدداً من الآلهة قد بلغ (٣٣٠ مليون) إله !! وفي ظل هذه الآلهة رتعت عقائد التثليث والتجسد والحلول وجميع معالم الانحراف . وفي بلاد فارس أقيمت للناس المعابد العديدة ! وفي بلاد العراق أقيمت المعابد للكواكب والأوثان ! أما العرب فقد انغمسوا في الوثنية بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنم خاص ، وكان في جوف

---

(١) السيرة النبوية/ الندوى : ص٩ .

الكعبة وفنائها ثلاثمائة وستون صنماً ، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الحجر من أي جنس كان ، وكانت لهم آلهة من الملائكة والجن والكواكب . وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ! وأن الجن شركاء الله ! واعتقدوا أن هؤلاء لهم مشاركة في تدبير الكون ! وقدرة ذاتية على النفع والضرر والإيجاد والافناء ! فآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم(٢) وعلى أرض العرب وبالتحديد في مكة كان العديد من علماء أهل الكتاب يقيمون فيها أو حولها انتظاراً لظهور النبي الموصوف عندهم في كتبهم والذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم نظراً لدقة الوصف الذي وصفه لهم الأحبار والرهبان الذين أؤتمنوا على ما أخاه سلفهم من الكتاب .

وبالجملة كانت القافلة البشرية في حاجة إلى مشعل هداية بعد أن سقطت أطروحات الأصنام في الأوحال العميقة . مشعل هداية يهدي إلى صراط الله المستقيم ، وجاء النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن جفت الحكمة وجف العلم من آنية أهل الكتاب .

أولاً : وجاء النور الهادي :

١ ـ من صفاته عند أهل الكتاب :

كان عليه الصلاة والسلام أمياً ، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب . قال القرطبي في تفسيره : « جاء في التوراة أن الله قال لموسى بن عمران « إني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبي مثلك . اجعل كلامي على فيه . فمن عصاه انتقمت منه » فَمَنْ إخوة بني إسرائيل ؟ فلا محالة أنهم العرب أو الروم . فأما الروم فلم يكن منهم نبي سوى أيوب وكان قبل موسى بزمان ، فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة . فلم يبق إلاّ العرب . فهو إذن محمد عليه السلام . وقد قال في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب « إنه يضع فسطاطه في وسط بلاد إخوته » فكني عن بني إسرائيل بأخوة إسماعيل . كما كني عن العرب بأخوة بني إسرائيل في قوله : « اني أقيم لبني إسرائيل من اخوتهم نبي مثلك » ويدل ذلك أيضاً قوله :

---

(٢) السيرة النبوية/ الندوى : ص١١ .

« اجعل كلامي على فيه » وتلقيناه من فلق فيه[3] واليهود يطلقون على أي أمة غير أمتهم لقب « الأمة الأمية » وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل** ﴾[4] . فالنبي الأميّ ليس من الحي الإسرائيلي . وإنما هو من بني إسماعيل . ووصفه بالأمي لا ينطبق إلّا عليه . لأن المسيح ابن مريم عليه السلام كان قارئاً وكاتباً . ففي إنجيل لوقا « وجاء إلى الناصرة حيث كان قد تربى ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ » (لوقا ٤/١٦) وفي إنجيل يوحنا « وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب » (يوحنا ٨/٦) وكان عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل . والبشارات بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل صنف فيها كتب كثيرة .

٢ ـ من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم :

○ اختصه الله بعموم الدعوة للناس كافة قال تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[6] . قال المفسرون : إن في مدلول الآية حجة على التوحيد . وذلك أن الرسالة من لوازم الربوبية ، التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم ومسيرهم إلى غايات وجودهم ، فعموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم . وهو رسول الله تعالى لا رسول غيره . دليل على أن الربوبية منحصرة في الله تعالى . فلو كان هناك رب غيره . لجاءهم رسوله . ولم يعم رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو عمتهم . واحتاجوا معه إلى غيره . ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ فإن دالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عز اسمه . أمس بجهل الناس من كونه صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً كافاً لهم عن المعاصي بشيراً ونذيراً . فمفاد الآية : لا يمكنهم أن يروك شريكاً له . والحال أنا لم نرسلك إلّا كافةً لجميع الناس بشيراً ونذيراً . ولو كان لهم إله غيرنا ، لم يسع لنا أن نرسلك إليهم وهم

(٣) البشارة نبي الإسلام/ أحمد حجازي السقا : ص١/٢٢٦ ط دار البيان .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٧٥ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .
(٦) سورة سبأ ، الآية : ٢٨ .

عباد لإله آخر . والله أعلم[٧] .

ونزول القرآن الكريم على رسول الله بلسان عربي ، لا ينافي عموم دعوته لعامة البشر ، لأن دعوته كانت مرتبة على مراحل ، فأول ما دعى دعى الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ، ثم كان يدعو بعد ذلك سراً مدة ، ثم أُمر بدعوة عشيرته الأقربين كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[٨] . ثم أمر بدعوة قومه كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾[٩] ثم أُمر بدعوة الناس عامة كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[١٠] وقوله : ﴿ **وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[١١] والدليل على عموم الدعوة . إنه كان من المؤمنين به سلمان وكان فارسياً ، وبلال وكان حبشياً ، وصهيب وكان رومياً ، وفي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم : (أنا سابق العرب . وصهيب سابق الروم . وسلمان سابق الفرس . وبلال سابق الحبشة) [١٢] (وبعد استقرار الدعوة أخذ صلى الله عليه وآله وسلم يدعو اليهود والنصارى والمجوس وكاتب العظماء والملوك في إيران ومصر والحبشة والروم . وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : (بعثت إلى الأحمر والأسود)[١٣] وقال : (أنا رسول من أدركت حياً ومن يولد بعد)[١٤] وقال : (ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة ولا يهودي ونصراني فلا يؤمن بي إلّا دخل النار)[١٥] وقال : (أنا النبي الأمي الصادق الزكي . الويل كل الويل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني . . .)[١٦] وقال : (إن الله بعثني بتمام

(٧) الميزان : ١٦/٣٧٧ .
(٨) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ .
(٩) سورة الحجر ، الآية : ٩٤ .
(١٠) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .
(١١) سورة الأنعام ، الآية : ١٩ .
(١٢) رواه الحاكم (كنز العمال ٦٤٤ / ١١) .
(١٣) رواه ابن سعد (كنز العمال ٤٤٥ / ١١) .
(١٤) رواه ابن سعد (كنز العمال ١١/٤٠٤) .
(١٥) رواه الحاكم (كنز العمال ١١/٤٥٣) .
(١٦) رواه ابن سعد (كنز العمال ١١/٤٠٣) .

مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأعمال)[١٧] وقال : (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[١٨] وقال : (أنا رحمة مهداة)[١٩] وقال : (إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ودينكم واحد ونبيكم واحد ، ولا فضل لعربي على عجمي ، ولا عجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلّا بالتقوى)[٢٠] .

○ ومن خصائصه أن الله تعالى فرض طاعته على العالم فرضاً مطلقاً لا شرط فيه ولا استثناء قال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** ﴾[٢١] وآيات القرآن في هذا المقام عديدة . كما جعل الله أتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم شرط في حب الله سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[٢٢] قال المفسرون : إن حب الشيء يقتضي حب جميع ما يتعلق به . ويوجب الخضوع والتسليم لكل ما هو في جانبه . والله سبحانه هو الله الواحد الأحد ، الذي يعتمد عليه كل شيء في جميع شؤون وجوده ويبتغي إليه الوسيلة ويصير إليه كل ما دق وجل . فمن الواجب أن يكون حبه والإخلاص له بالتدين بدين التوحيد وطريق الإسلام ، على قدر ما يطيقه إدراك الإنسان وشعوره ، وإن الدين عند الله الإسلام ، وهذا هو الدين الذي ينسَب إليه سفرائه . ويدعو إليه أنبيائه ورسله . وخاصة دين الإسلام الذي فيه من الإخلاص ما لا إخلاص فوقه . وهو الدين الفطري الذي يختم به الشرائع وطرق النبوة ، كما يختم بصادعه صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء عليهم السلام ، وقد عرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبيله الذي سلكه بسبيل التوحيد ، وطريقة الإخلاص على ما أمره الله تعالى حيث قال : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله**

---

(١٧) رواه الطبراني في الأوسط (كنز ٤٢٥/١١) .
(١٨) رواه ابن سعد والحاكم (كنز ٤٢٥/١١) .
(١٩) رواه ابن سعد والحاكم (كنز ٤٢٥/١١) .
(٢٠) رواه ابن النجار (كنز ٤٨٤/١١) .
(٢١) سورة النساء ، الآيتان : ١٣ - ١٤ .
(٢٢) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

وما أنا من المشركين ﴾(٢٣) فذكر أن سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة والإخلاص لله من غير شرك ، فسبيله دعوة وإخلاص ، واتباعه واقتفاء أثره ، إنما هو في ذلك صفة من اتبعه .

ثم ذكر الله سبحانه أن الشريعة التي شرعها له صلى الله عليه وآله وسلم هي الممثلة لهذا السبيل سبيل الدعوة والإخلاص فقال : **﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾**(٢٤) وذكر أيضاً أنه إسلام لله حيث قال : **﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾**(٢٥) ثم نسبه إلى نفسه وبيَّن أنه صراطه المستقيم فقال : **﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾**(٢٦) فتبين بذلك كله أن الإسلام ـ وهو الشريعة المشرعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي هو مجموع المعارف الأصلية والخلقية والعملية وسيرته في الحياة ـ هو سبيل الإخلاص عند الله سبحانه الذي يعتمد ويبتني على الحب ، فهو دين الإخلاص ، وهو دين الحب . ومن جميع ما تقدم يظهر معنى الآية **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾** فالمراد والله أعلم : إن كنتم تريدون أن تخلصوا لله في عبوديتكم بالبناء على الحب حقيقة ، فاتبعوا هذه الشريعة التي هي مبنية على الحب ، الذي ممثله الإخلاص والإسلام وهو صراط الله المستقيم الذي يسلك بسالكه إليه تعالى ، فإن اتبعتموني في سبيلي وشأنه هذا الشأن . أحبكم الله وهو أعظم البشارة للمحب ، وعند ذلك تجدون ما تريدون . وهذا هو الحب الذي يبتغيه محب بحبه(٢٧) .

○ ومن خصائصه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن من تقدمه من الأنبياء كانوا يدافعون عن أنفسهم ويردون على أعدائهم كقول نوح عليه السلام : **﴿ يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾**(٢٨) وقول هود عليه

---

(٢٣) سورة يوسف ، الآية : ١٠٨ .

(٢٤) سورة الجاثية ، الآية : ١٨ .

(٢٥) سورة آل عمران ، الآية : ٢٠ .

(٢٦) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .

(٢٧) الميزان : ٣/١٥٩ .

(٢٨) سورة الأعراف ، الآية : ٦١ .

السلام : ﴿ **يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين** ﴾[٢٩] وغير ذلك ، أما محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد تولى الله تعالى تنزيهه عما نسبه إليه أعداؤه والرد عليهم فقال تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هو إلّا ذكر وقرآن مبين** ﴾[٣٠] وقال تعالى : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾[٣١] وقال : ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى** ﴾[٣٢] .

○ ومن خصائصه أن كتابه معجز ، ومحفوظ ، يسره الله تعالى للذكر ليفهمه العامي والخاصي والأفهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه قال تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[٣٣] قال المفسرون : والمعنى لقد سهلنا القرآن لأن يتذكر به . فهل من متذكر فيؤمن بالله ويدين بما يدعو إليه الدين الحق . والقرآن لا انحراف فيه في جميع الأحوال . ولا يقبل النسخ والإبطال والتهذيب والتغيير . ووصف القرآن بالحكيم دليل على عدم وجود نقطة ضعف أو لهو الحديث فيه . وجميع المعارف الإلهية والحقائق الموجودة فيه تستند إلى حقيقة واحدة هي التوحيد . قال تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[٣٤] قال المفسرون : أي للملة التي هي أقوم كما قال تعالى : ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾[٣٥] وقد وصف الله سبحانه هذه الملة الحنفية بالقيام كما قال : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾[٣٦] وقال : ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم** ﴾[٣٧] وذلك لكون هذا الدين مهيمناً على ما فيه خير دنياهم وآخرتهم قيماً على إصلاح حالهم في معاشهم ومعادهم وليس إلّا لكونه موافقاً لما

---

(٢٩) سورة الأعراف ، الآية : ٦٧ .
(٣٠) سورة يس ، الآية : ٦٩ .
(٣١) سورة القلم ، الآية : ٢ .
(٣٢) سورة النجم ، الآيتان : ٢ ـ ٣ .
(٣٣) سورة القمر ، الآية : ٢٢ .
(٣٤) سورة الإسراء ، الآية : ٩ .
(٣٥) سورة الأنعام ، الآية : ١٦١ .
(٣٦) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .
(٣٧) سورة الروم ، الآية : ٤٣ .

تقتضيه الفطرة الإنسانية(٣٨) .

والقرآن الكريم لا يجد الباطل طريقاً إليه قال تعالى : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾(٣٩) قال المفسرون : لا ينبغي لهم أن يتنزلوا به . إنهم خلق شرير لا هَمَّ لهم إلّا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله . والقرآن حق لا سبيل للباطل إليه . فلا يناسب جبلتهم الشيطانية أن يلقوه إلى أحد ﴿ **ما يستطيعون** ﴾ أي وما يقدرون على التنزل به ، لأنه كتاب سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى : ﴿ **انهم عن السمع لمعزولون** ﴾ أي أن الشياطين عن سمع الأخبار السماوية والاطلاع على ما يجري في الملأ الأعلى معزولون . حيث يقذفون بالشهب الثاقبة لو تسمعوا(٤٠) والله تعالى تحدى بالقرآن الإنس والجن أن يأتوا بمثله فقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾(٤١) وعندما عجزوا أن يأتوا بمثله تحدى أن يأتوا بعشر سور من مثله قال تعالى : ﴿ **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** ﴾(٤٢) وعندما عجزوا تحدى أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾(٤٣) قال المفسرون : في الآيات تحد ظاهر ، والآيات ظاهرة في دوام التحدي ، وقد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحة والبلاغة اليوم . فلا ترى أثراً منهم . والقرآن باق على إعجازه متحد بنفسه كما كان(٤٤) .

○ ومن خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم أن الله جعل أهل بيته عليهم السلام طرفاً أصيلاً مع القرآن وانهم والقرآن لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ففي

---

(٣٨) الميزان : ١٣/٤٧ .
(٣٩) سورة الشعراء ، الآيات : ٢١٠ - ٢١٢ .
(٤٠) الميزان : ١٥/٣٢٨ .
(٤١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .
(٤٢) سورة هود ، الآية : ١٣ .
(٤٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .
(٤٤) الميزان : ١٣/٢٠١ .

الحديث : (إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)[٤٥] وأن الله تعالى طهر أهله بيته الذين ارتبطوا بالقرآن تطهيراً قال تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾[٤٦] كما أوجب الله تعالى مودة قرابة رسول الله في قوله تعالى : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى** ﴾[٤٧] وسيأتي الحديث عن أهل البيت فيما بعد مفصلاً . وخصائص النبي الأعظم عديدة ونكتفي بما أوردناه منها .

٣ ـ من صفاته عليه الصلاة والسلام :

قال الحسين بن علي عليهما السلام قال : سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصافاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأنا أشتهي أن يصف لي منه شيئاً لعلي أتعلق به فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطول من المربوع[٤٨] وأقصر من المشذب[٤٩] . عظيم الهامة » . إلى أن قال : « أزهر اللون واسع الجبين . أزج الحواجب سوابغ في غير قرن . بينهما عرق يدره القضب له نور يعلوه يحسبه من يتأمله أشم » إلى أن قال : « إذا مشى كأنما ينحط في صبب . وإذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . جل نظره الملاحظة . يبدأ من لقيه بالسلام » وما أوردناه من الصفات يوجد بتمامه في تفاسير أهل الكتاب . ثم قال الحسن فقلت له : صف لي منطقه . فقال : كان صلى الله عليه وآله وسلّم متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليس له راحة ، طويل الصمت لا يتكلم في غير حاجة . . يتكلم بجوامع الكلم فصلاً فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير . دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين . . . » وعن الحسين عليه السلام قال سألت أبي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « كان لا يجلس

---

(٤٥) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١٨٦/١) .

(٤٦) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٣ .

(٤٧) سورة الشورى ، الآية : ٢٣ .

(٤٨) المربوع : الذي بين الطويل والقصير .

(٤٩) المشذب : الذي لا كثير لحم على بدنه .

ولا يقوم إلّا على ذكر . لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها[٥٠] إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك . ويعطي كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف ، من سأله حاجة لم يرجع إلّا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس منه خلقه فصار لهم أباً ، وكانوا عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة . لا ترفع فيه الأصوات . ولا يؤبن فيه الحرم[٥١] . ولا تثنى فلتاته[٥٢] متعادلين ، متواصلين فيه بالتقوى ، متواضعين ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب . قال الحسين عليه السلام فقلت : كيف كانت سيرته صلى الله عليه وآله وسلم في جلسائه ؟ فقال : كان صلى الله عليه وآله وسلم دائم البشر[٥٣] . سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب[٥٤] ولا فحاش ولا عياب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي فلا يؤيس منه ولا يخيب منه مؤمنيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والإكثار وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيره . ولا يطلب عثراته ولا عوراته . ولا يتكلم إلّا فيما رجي ثوابه . وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير . فإذا سكت تكلموا . ولا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم انصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أوليتهم[٥٥] ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه . حتى إن كان أصحابه يستجلبونهم[٥٦] . ويقول : إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فارفدوه ، ولا يقبل الثناء إلّا من مكافىء[٥٧] . ولا يقطع على أحد

---

(٥٠) أي لا يعين لنفسه مجلساً خاصاً بين الجلساء حذراً من القصور .

(٥١) أي لا تعاب عنده حرمات الناس .

(٥٢) أي إذا وقعت فيه عثرة من أحد جلسائه بينها لهم ليحذروا من الوقوع فيها ثانياً .

(٥٣) البِشر : بشاشة الوجه .

(٥٤) الصخّاب : الشديد الصياح .

(٥٥) أي كانوا يتكلمون عنده الواحد بعد الآخر بالتناوب من غير أن يداخل أحدهم كلام الآخر .

(٥٦) أي يريدون جلبهم عنه وتخليصه منهم .

(٥٧) أي في مقابل نعمة أنعمها على أحدهم وهو الشكر الممدوح .

كلامه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام[٥٨] .

قال الحسين : فسألت أبي عن سكوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : كان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكير . فأما التقدير ، ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس . وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى وجمع له الحلم والصبر . فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه . وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسن ليقتدى به ، وتركه القبيح لينتهى عنه . واجتهاده الرأي في صلاح أمته . القيام فيما جمع له خير الدنيا والآخرة[٥٩] وما أوردناه ما هو إلّا بعض من صفات النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي وصفه الله بأنه على خلق عظيم . وصاحب هذا الخلق العظيم هو الذي قدر الله تعالى أن تكون هداية البشرية على يديه بما أنه خاتم الأنبياء والرسل . فهو صلى الله عليه وآله وسلم الذي يشير إلى قوافل الضلال والانحراف بمصباح الهدى كي يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فمن استجاب فقد فاز ، ومن أمسك بذيول آباء الضلال والانحراف فقد هلك والله غني عن العالمين .

ثانياً : الدعوة إلى الهدى :

١ ـ معسكرات الانحراف :

لم يكن طريق الدعوة بالطريق السهل . فالانحراف كان شاسعاً وعميقاً ، وعلى امتداد ليلة ظهرت له مخالب وأنياب تدافع عن الأهواء والشذوذ ، فأهل مكة كانوا قد أقسموا قبل إرسال الرسول إليهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من تلك الأمم التي كذبوا رسلهم ، وعندما جاءهم الرسول النبي الأمي الذي لم يعهدوا فيه إلّا كل خصلة كريمة ؛ نسوا ما كانوا قد أقسموا به من قبل . وغاصوا في مستنقعات الأوحال على دروب الانحراف . ومن داخل الأوحال قذفوا أتباع الهدى بجميع ما يستقيم مع ثقافة الانحراف . يقول تعالى عن خط الصد في مكة : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما**

---

(٥٨) حتى يجوز : أي يتعدى عن الحق فيقطعه حينئذ بنهي أو قيام .
(٥٩) الميزان : ٦/٣٠٦ وما بعدها .

زادهم إلّا نفوراً ﴾[٦٠] قال المفسـرون : حلفوا واجتهـدوا في الحلف أن يكونـوا أهدى من إحدى الأمم التي جاءهم نذير . فلما جاءهم تباعدوا عنه وهربوا ! فهـذا الخط من خطوط الصد وضع في طريق الدعوة العديد من العراقيل دفاعاً عن أهوائه وطريق آبائـه . ونفورهم واستكبـارهم لا يقودهم إلّا إلى السنـة الجاريـة في الأمم الماضية ، وهي العـذاب الإلهي ، ولن تجد لسنّـة الله تبديـلاً ، والله تعالى يبعث الرسل لإقامة الحجة ، ولكن لا يكون للناس على الله حجة . وخط الصد في مكة لبس الحجـة كاملة وهـو يقف على خنادق الانحـراف والشـذوذ . يقـول تعـالى : **﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقـولوا إنمـا أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإنْ كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمـة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾**[٦١] .

فالذي يمسك بحجر ويقف على خندق من خنادق الصد أقيمت عليه الحجة بالدعوة ، ولا يبالي الله بـه في أي وادٍ هلك ، ولم يكن حال أهـل الكتاب بـأحسن من حال كفار قريش ، فلقد شـاركوهم خـطوط الصد ولكن كـل حسب طريقتـه . وأهـل الكتاب كـانوا يستفتحـون ويستنصرون بخـروج محمد صلى الله عليـه وآله وسلم . فلما بعثه الله كفروا به وحسدوه قال تعالى : **﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الـذين كفروا فلمـا جاءهم مـا عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾**[٦٢] وأهل الكتاب تصدروا خطوط الصد بعد هجرة الرسول إلى المدينة ولذا كانت آيـات القرآن التي نـزلت على رسول الله في المدينة لتكشف كيدهم أكثر مما نزل عليـه في مكة . وبـاختصار لقـد وقف في وجه الدعـوة جميع أبنـاء الشذوذ والانحـراف الذين استقـامت أهواؤهم مـع أهواء الـظالمين في الأمم الماضيـة من عهد نـوح عليه السـلام ، ولقـد قـدمت الـدعـوة الإسلامية إلى هؤلاء الدواء الشافي من كـل داء لنخرجهم من الـظلمات إلى النـور فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

---

(٦٠) سورة فاطر ، الآية : ٤٢ .

(٦١) سورة الأنعام ، الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٦٢) سورة البقرة ، الآية : ٨٩ .

٢ ـ الداعـــي إلـى الله :

أمام معسكرات الشذوذ وخيام الانحراف تلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن الكريم في مكة ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين * قل إني أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ﴾[٦٣] قال المفسرون : كأنه قال : أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصاً له الدين ، ولا ذاك فحسب ، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل إليَّ من الوحي ، فأسلم له أولاً ثم أبلغه لغيري ، فأنا أخاف ربي وأعبده بإخلاص آمنتم به أو كفرتم[٦٤] . وعقب ذلك قال : ﴿ **فاعبدوا ما شئتم** ﴾ وهذا أمر تهديدي . بمعنى أن عبادتهم لن تنفعهم ، لأنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله ، حيث يخسرون أنفسهم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة ، كما يخسرون أهلهم بحملهم على الكفر والشرك ، وهذا هو الخسران الحقيقي لأنه لا زوال له ولا انقطاع . وأمام معسكرات الشذوذ وخيام الانحراف تلى الرسول الأعظم : ﴿ **إنما أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرَّمَها وله كل شيء وأُمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلوَا هذا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين** ﴾[٦٥] قال المفسرون : إن الدعوة تبشير وإنذار . ولا يرجع إليه صلى الله عليه وآله وسلم من أمرها شيئاً . وإنما الأمر إلى الله . ومعنى الآيات قل : ﴿**إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة** ﴾ ـ مكة المشرفة ـ التي حرمها الله ولم يشكر أهلها هذه النعمة . نعمة تحريم بلدهم . بل عبدوا الأصنام ! ولكي لا يتوهم كفار مكة أن الله يملك مكة فيكون حاله حال سائر الأصنام . جعلوا لكل منها جزء من أجزاء العالم كالسماء والأرض وبلدة كذا وقوم كذا وأسرة كذا قال : ﴿ **وله كل شيء** ﴾ إشارة إلى سعة ملكه تعالى وقوله : ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ أي من الذين أسلموا له فيما أراد ولا يريد إلّا ما يهدى إليه الخلقة وتهتف به الفطرة وهو الدين الحنيف الفطري الذي هو ملة إبراهيم .

---

(٦٣) سورة الزمر ، الآيات : ١١ ـ ١٣ .

(٦٤) الميزان : ١١/٢٣٧ .

(٦٥) سورة النمل ، الآيات : ٩٠ ـ ٩٢ .

وقوله : ﴿ **وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه** ﴾ أي أمرت أن أقرأ القرآن عليكم . فمن اهتدى بهذا القرآن فالذي ينتفع به هو نفسه ، ولا يعود نفعه إليَّ . ومن لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه . وهو الضلال . فعليه ضلاله ووبال كفره لا عليّ . لأني لست إلّا منذراً مأموراً بذلك ولست عليه بوكيل والله هو الوكيل عليه(٦٦) . وأمام معسكر الانحراف تلى الرسول الأعظم قول الله تعالى : ﴿**وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير** ﴾(٦٧) قال المفسرون : أي آمنت بالكتب السماوية التي نزلها الله على رسله . وأمرت أن أعدل بينكم أي أسوي بينكم . فلا أقدم قوياً على ضعيف ولا غني على فقير ولا كبير على صغير ولا أفضل أبيض على أسود ولا عربي على عجمي ولا هاشمياً أو قرشياً على غيره ، فالدعوة متوجهة إلى الجميع والناس قبال الشرع الإلهي سواء . فقوله : ﴿ **آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها وقوله : ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ تسوية بين الناس من حيث الدعوة وما جاء به الشرع وقوله : ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى . فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كلّ بربه ويتفاضلوا بالأرباب ، بل الله هو رب الجميع ، وهم جميعاً عباده المملوكون له المدبرون بأمره . وقوله : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ يشير إلى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء . ثواباً أو عقاباً إلّا أنها لا تتعدى عاملها . فلكل امرىءٍ ما عمل . فلا ينتفع أحد بعمل آخر . ولا يتضرر بعمل غيره وقوله : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم بتفاوت الدرجات . لأن ربنا واحد . ونحن لأننا جميعاً عباده ولكل نفس ما عملت ، فلا حجة في البين . أي لا خصومة حتى نتخذ لها حجة(٦٨) .

هذا هو شرع النبي الأعظم الذي أذاع معسكر الانحراف على الغوغاء والرعاع على امتداد الزمان أنه بدأ بالسيف وكان القهر عنوانه ، هذا هو محمد

---

(٦٦) الميزان : ١٥/٤٠٤ .

(٦٧) سورة الشورى ، الآية : ١٥ .

(٦٨) الميزان : ١٨/٣٤ .

صلى الله عليه وآله وسلم الذي صد عن سبيله رموز الانحراف والشذوذ الذين توغلوا في عالم الطمس والقردية واستمع إليهم القردة والخنازير في كل مكان . لقد جاء ليقول : « أمرت » ولم يرفع سيفاً إلاّ بأمر وذلك بعد أن خرج عليه أصحاب المخالب والأنياب يريدون إطفاء نور الله . ولكن أبى الله إلاّ أن يتم نوره . لقد أعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبيله في مكة في قوله تعالى : **﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ﴾**(٦٩) قال المفسرون : أمره الله أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه . هداه بهداية إلهية إلى صراط مستقيم وسبيل واضح قيم . لا تخلف فيه ولا اختلاف . ديناً قائماً على مصالح الدنيا والآخرة أحسن القيام ، لكونه مبنياً على الفطرة ملة إبراهيم حنيفاً . مائلاً عن التطرف بالشرك إلى اعتدال التوحيد وما كان من المشركين . وأمره تعالى أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه . كما أنه مأمور بذلك . ليكون أبعد من التهمة عندهم وأقرب إلى تلقيهم بالقبول . فإن من أمارة الصدق أن يعمل الإنسان بما يندب إليه ويطابق فعله قوله . فقال له سبحانه قل : إنني جعلت صلاتي ومطلق عبادتي ومحياي بجميع ما له من الشؤون الراجعة إليّ من أعمال وأوصاف وأفعال وتروك . ومماتي بجميع ما يعود إليّ من أموره وهي الجهات التي ترجع منه الحياة . جعلتها كلها لله رب العالمين . من غير أن أشرك به فيها أحداً . فأنا عبد في جميع شؤوني : في حياتي ومماتي لله وحده وجهت وجهي إليه . لا أقصد شيئاً ولا أتركه إلاّ له . ولا أسير في مسير حياتي ولا أرد مماتي إلاّ له . فإنه رب العالمين . يملك الكل ويدبر أمرهم . وقد أمرت بهذا النحو من العبودية . وأنا أول المسلمين له فيما أراده من العبودية التامة في كل باب وجهة(٧٠) .

فهل في سبيل رسول الله أي إكراه كما أشاعت جماهير الطمس على طريق القهقري ؟ **﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله**

---

(٦٩) سورة الأنعام ، الآيات : ١٦١ ـ ١٦٤ .
(٧٠) الميزان : ٧/٣٩٤ .

فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[71] ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾[72] .

٣ ـ هدم انحراف بلادة الفكر والوجدان :

طالب النبي صلى الله عليه وآله وسلم معسكر الانحراف بالنظر في الكون . ليعلموا أن النظام القائم في الكون يدل على توحيد الله تعالى . فالتدبير السائد على جميع أنحائه متواصل . وجميع أجزائه مسخرة لنظام واحد . تلى عليه الصلاة والسلام عليهم في مكة قوله تعالى : **﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فأنّى تُصرفون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون * قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون * قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلاّ أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾[73]** قال المفسرون : قل لهم يا محمد من يرزقكم من السماء بالأمطار والثلوج ونحوه . ومن الأرض بإنباتها نباتاً وتربيتها الحيوان ومنهما يرتزق الإنسان . وببركة هذه النعم الإلٰهية يبقى النوع الإنساني . أمن يملك السمع والأبصار منكم فتتم بهما فائدة رزقكم حيث ترزقون بتشخيصهما من طيبات الرزق . فهو تعالى متصرفاً في الحواس الإنسانية التي بها ينتظم للإنسان أنواع التمتع من الأرزاق المختلفة التي أذن الله تعالى أن يتمتع بها . فالإنسان إنما يشخص ويميز ما يريده مما لا يريده بأعمال السمع والبصر واللمس والذوق والشم فيتحرك نحو ما يريده . ويتوقف أو يفر مما يكرهه بها . فالحواس هي التي تتم بها فائدة الرزق الإلٰهي . وإنما خص الله السمع والبصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما في الأعمال الحيوية أكثر من غيرها . والله تعالى هو الذي يملكهما ويتصرف فيهما

---

(٧١) سورة الأنفال ، الآيتان : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٧٢) سورة الفرقان ، الآية : ٤٤ .

(٧٣) سورة يونس ، الآيات : ٣١ ـ ٣٥ .

بـالإعـطاء والمنـع والـزيـادة والنقيصـة . ولـولا نعم الله هـذه مـا وفقتم وفنيتم عن آخـركم . ﴿ **ومن يخرج الحي من الميت ويخـرج الميت من الحي** ﴾ من يخـرج من الأمور غير المفيدة في باب . أمور مفيدة في ذلـك الباب بـالكينونـة والتوالـد . كخلق الإنسـان الحي والحيـوان الحـي والنبـات الحـي من الـتـراب الميت وبالعكس . وكخروج الإنسـان العاقـل الصالـح من الإنسان الـذي لا عقل لـه ولا صلاح وبالعكس . وخروج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . ومن يدبر الأمر في جميـع خلقه ؟ ﴿ **فسيقـولون الله** ﴾ اعتـرافاً بـأنه الـذي ينتهي إليه جميـع هذه التدبيرات في الإنسان وغيره ولأن الوثنيين يعتقدون ذلك . أمر الله نبيّـه أن يوبخهم أولاً على ترك تقوى الله بعبادة غيره مع ظهور الحجـة . ثم يستنتج لهم من الحجـة وجوب توحيده تعالى فقـال : ﴿ **فقل أفـلا تتقون** ﴾ ثم قـال : ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ وقد وصف الله بالحق ليكون توضيحاً لمفاد الحجة وتوطئـة وتمهيداً لقـوله بعده : ﴿ **فماذا بعد الحق إلاّ الضلال** ﴾ لأنه إذا كانت ربـوبيته تعـالى حقه . فـإن الهدى في اتباعه وعبادته . لأن الهدى مع الحق لا غير . وعلى هـذا فلا يبقى عنـد غيره . الذي هو الباطل إلاّ الضلال . ثم تمم الآية بقوله : ﴿ **فأنى تصرفون** ﴾ أي إلى متى تصرفون عن الحق الذي معه الهدى إلى الضلال الذي مع الباطل .

وقـوله بعـد ذلك : ﴿ **كـذلك حقت كلمـة ربك على الـذين فسقـوا أنهم لا يؤمنـون** ﴾ الإشارة بقـوله : ﴿ **كـذلك** ﴾ إلى مـا تحصل من الآيـة السـابقـة . أن المشركين صرفوا عن الحق . وفسقوا عنه فوقعوا في الضلال . إذ ليس بعـد الحق إلاّ الضـلال . ومعنى قولـه : ﴿ **كذلـك حقت كلمـة ربـك** ﴾ أن الكلمـة الإلٰهيـة والقضاء الحتمي الذي قضى به في الفاسقين ـ وهـو أنهم لا يؤمنون ـ هكـذا حقت وثبتت في الخـارج وأخذت مصـداقها . وهـو أنهم صرفـوا عن الحق فـوقعـوا في الضلال . أي إنا لم نقضِ عدم هدى الفـاسقين وعدم إيمـانهم ظلماً ولا جـزافاً . وإنما قضينا ذلك . لأنهم صرفوا عن الحق وفسقوا فـوقعوا في الضـلال ولا واسطة بينهما .

ثم أمر الله تعالى نبيّه أن يقول : ﴿ **قل هل من شـركائكم من يبـدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ لأن الذي بيده كل شيء ثم يعيده يستحق ان يعبده النـاس . اتقاء من يـوم لقائه . ليأمن من أليم عذابه . وينال عظيم ثوابه يوم القيـامة . والله تعـالى له ذلـك

﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أي إلى متى تصرفون عن الحق ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدي الحق قل الله يهدي للحق** ﴾ وتوضيح ذلك . . أن من المرتكز في الفطرة الإنسانية . وبه يحكم عقله . إن من الواجب على الإنسان أن يتبع الحق . والهادي إلى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق . ومن الواجب ترجيحه على من لا يهدي إليه . أو يهدي إلى غيره . لأن اتباع الهادي إلى الحق اتباع لنفس الحق الذي معه وجوب اتباعه ضروري . وقد اعتمد في الحجة على هذه المقدمة الضرورية . فافتتح بسؤالهم عن شركائهم . هل فيهم من يهدي إلى الحق ؟ ومن الواضح أن لا جواب للمشركين في ذلك . لأن شركاءهم سواء أكانوا جماداً غير ذي حياة كالأوثان والأصنام . أم كانوا من الأحياء كالملائكة وأرباب الأنواع والجن والطواغيت من فرعون ونمرود وغيرهما . لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً . وإذ لم يكن للمشركين جواب في ذلك . أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب باثباتها لله فقال : ﴿ **قل الله يهدي للحق** ﴾ فإن الله سبحانه هو الذي يهدي كل شيء إلى مقاصده التكوينية والأمور التي يحتاج إليها في بقائه كما في قوله : ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾(٧٤) وقوله : ﴿ **الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى** ﴾(٧٥) وهو الذي يهدي الإنسان إلى سعادة الحياة ويدعوه إلى الجنة والمغفرة بإذنه . بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع . وأمرهم ببث الدعوة الحقة الدينية بين الناس . . وإذ تحقق أنه ليس من شركائهم من يهدي إلى الحق . وأن الله سبحانه يهدي إلى الحق سألهم بقوله : ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلّا أن يهدى** ﴾ أن يقضوا في الترجيح بين أتباعه تعالى وأتباع شركائهم . وهو تعالى يهدي إلى الحق وهم لا يهدون ولا يهتدون إلّا بغيرهم . ومن المعلوم أن الرجحان لمن يهدي على من لا يهدى أي لاتّباعه تعالى على أتباعهم . والمشركون يحكمون بالعكس . ولذلك لامهم ووبخهم بقوله : ﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾(٧٦) .

---

(٧٤) سورة طه ، الآية : ٥٠ .
(٧٥) سورة الأعلى ، الآيتان : ٢ ـ ٣ .
(٧٦) الميزان : ١٠/٥٧ .

إن هذا من مواجهات الإسلام مع أعدائه . فالدعوة الإسلامية تشق طريقها على أساس التوحيد الخالص . ومنذ أن بعث الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام لا يرى غير الله مَنْ يملك أي شيء . فالله وحده له ملك السماوات والأرض وما بينهما . وهو سبحانه المدبر لجميع خلقه . وهو الغني بذاته وعلى الإطلاق وغيره فقير . وهو الواحد القهار الذي لا يماثله شيء في وجوده وهو العزيز الذي لا يغلبه شيء وغير ذليل . والنبي صلى الله عليه وآله وسلم تلى على أسماع بني الإنسان في مكة آيات الله التي تدعو إلى النظر في الكون كي تضاء منطقة الفكر والوجدان لديهم ويفروا من حياة الظلام ولا يتمسكوا بقيود الضلال لأن تمسكهم يدرجهم في القوم الفاسقين الذين حقت عليهم كلمة الله . فهل دعوة الإسلام لإيقاظ الفكر ونجاة بني الإنسان جريمة ؟ إن جماهير الطمس والقهقري اعتبروها جريمة . وويل للظالمين من عذاب يوم عظيم .

٤ ـ هدم الانحراف السلفي :

لقد وضع معسكر الانحراف قاعدة اتباع الآباء ﴿ **قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾(٧٧) وعلى هذه القاعدة شقوا طريقهم وقالوا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾(٧٨) وعندما جاءتهم رسل الله قالوا : ﴿ **تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا** ﴾(٧٩) وباختصار كان طريق السلف الضال من أخطر الطرق على الفطرة . فتحت راياته تهود الفطرة أو تنصرها أو يتم توثينها بصورة من الصور . ومعسكر الانحراف استغل هذه القاعدة حتى في ارتكابه للفواحش يقول تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾(٨٠) وعلى أرضية آباء الضلال أقام معسكر الانحراف خيامه وقام فقهاء كل خيمة بالالتفاف حول عجل من العجول لا يعرفون لهم طريقاً إلّا به . إذا قلت قال الله . قالوا وماذا عن العجل وإذا قلت هذا سبيل رسول الله قالوا : وأين موضع العجل في هذا السبيل ؟

---

(٧٧) سورة لقمان ، الآية : ٢١ .

(٧٨) سورة الزخرف ، الآية : ٢٢ .

(٧٩) سورة إبراهيم ، الآية : ١٠ .

(٨٠) سورة الأعراف ، الآية : ٢٨ .

والرسالة الخاتمة قامت بتحطيم العجول بالحجة التي توقظ الفطرة وتغذي الفكر . لقد أخبرهم القرآن في أكثر من موضع بأنهم كانوا وآباؤهم في ضلال مبين . وأخبرهم أن آباءهم وأبناءهم لا يدرون أيهم أقرب لهم نفعاً[٨١] . وأن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجامع مواده أهل المحادّة والمعاندة من الكفار ولو قارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة والبنوة والأخوة وسائر أقسام القرابة ـ فبين الإيمان ومودة أهل المحاداة تضاد لا يجتمعان لذلك[٨٢] .

ولكن الحلف السلفي ظل متمسكاً بمنطق آبائه الذي لا يخدم إلى مخططات الشيطان من أجل هدم الإنسان . وكما ان تمسكهم بأعلام الآباء يخدم الشيطان . إلّا انه في الوقت ذاته يحقق لهم السير في الحياة وفقاً لأهوائهم التي تستقيم مع معطيات كل عصر . فهم يعربدون لتغذية أهواءهم الحاضرة تحت مظلة سنة الآباء الماضية . وفي صدر الرسالة المحمدية حاول الإنحراف السلفي أن يحاصر الرسالة بأدوات حاضرهم لحساب ماضيهم . فبدأوا بالتشكيك في الرسالة تارة والدخول من باب القضاء والقدر تارة أخرى .

ويخبر الله تعالى بأن فصائل الإنحراف قد قالوا : ﴿ **وقال الذين إشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء** ﴾ ثم صرف الله الخطاب عنهم لسقوط فهمهم وقال لنبيه : ﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلّا البلاغ المبين * ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[٨٣] قال المفسرون : فكأنهم يقولون : لو كانت الرسالة حقة . وكان ما جاء به الرسل من النهي عن عبادة الأصنام والأوثان والنهي عن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة وغيرها . نواهي الله سبحانه . كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئاً غيره . وأن لا نحرم من دونه شيئاً . ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره ولا نحرم شيئاً . لم نعبد ولم نحرم . لاستحالة

---

(٨١) سورة النساء ، الآية : ١١ .

(٨٢) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .

(٨٣) سورة النحل ، الآيتان : ٣٥ ـ ٣٦ .

تخلف مراده عن إرادته . لكنا نعبد غيره ونحرم أشياء فليس يشاء شيئاً من ذلك . فلا نهي ولا أمر منه تعالى . ولا شريعة ولا رسالة من قبله .

هذا تقرير حجتهم على ما يعطيه السياق ومغزى مرادهم . أن عبادتهم لغير الله وتحريمهم لما حرموه . وبالجملة عامة أعمالهم . لم تتعلق بها مشيئة من الله بنهي ولو تعلقت لم يعملوها ضرورة . وقوله تعالى : ﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين** ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . يأمره أن يبلغ رسالته بلاغاً مبيناً . ولا يعتني بما لفقوه من الحجة فإنها داحضة والحجة التامة عليهم بالبلاغ . فقوله : ﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾ أي على هذا الطريق الذي سلكه هؤلاء . سلك الذين من قبلهم . فعبدوا غير الله وحرموا ما لم يحرم الله . ثم إذا جاءتهم رسلهم ينهونهم عن ذلك قالوا : ﴿ **لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا** . . ﴾ وقوله : ﴿ **فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين** ﴾ أي بلغهم الرسالة بلاغاً مبيناً تتم به الحجة عليهم . فإنما وظيفة الرسل البلاغ المبين . وليس من وظيفتهم أن يلجئوا الناس إلى ما يدعونهم إليه وينهونهم عنه . ولا ان يحملوا معهم إرادة الله الموجبة التي لا تتخلف عن المراد . ولا أمره الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون . حتى يحوّلوا بذلك الكفر إلى الإيمان . ويضطروا العاصي على الطاعة .

فإنما الرسول بشر مثلهم . والرسالة التي بعث بها إنذار وتبشير . وهي مجموعة قوانين إجتماعية . أوحاها إليه الله . فيها صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم . صورتها صورةٌ الأوامر والنواهي المولوية . وحقيقتها الانذار والتبشير قال تعالى : ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك** ﴾[٨٤] فهذا ما أمر به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغهم . وقد أمر به نوحاً ومن بعده من الرسل عليهم السلام أن يبلغوه أممهم[٨٥] ولقد بعث الله تعالى في كل أمة رسول . وما كانت حقيقة بعث الرسول إلاّ أن يدعوهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت ومن الدليل على ذلك آثار الأمم الماضية الظالمة التي

---

(٨٤) سورة الأنعام ، الآية : ٥٠ .

(٨٥) الميزان : ١٢/٢٤١ .

تحكي عن نـزول العذاب عليهم . فسيـروا في الأرض فأنـظروا كيف كـان عـاقبـة المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوة النبوية التي هي إنذار حق وإن الرسالـة ليست كما تزعمون[٨٦] .

إن أصحـاب العقول الفـارغة يستمعـون إلى نـداء النبي وهـو يبلغ عن ربـه ومطالبته لهم بأن يجتنبوا عبادة العجول مع أشكالها فيقولون لو كـان النهي صحيحاً مـا شاء الله أن نعبـد غيرهـا . فإن قلت لقـد شاء الله وأرسـل لكم رسولاً ليـزيل من عقولكم بصمات سلفكم الضال ومعه المعجزة التي تثبت رسالتـه إليكم . هرولـوا إلى مـظلات السلف وقالـوا كما قـال الذين من قبلهم إنْ هـذا إلاّ خلق الأولين ومـا سمعنا بهذا من قبل يكفينا ما دوَّنه فقهاء الآباء وإنا على آثارهم مقتدون . وهكذا لا يسمع الصم الدعاء . وإذا كان هذا الفريق قد حاول الالتفاف حول الرسالـة . فإن الفريق الأقذر منه هو الذي حاول الـدخول من بـاب القضاء والقـدر يقول تعـالى : **﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء وكذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقـوا بأسنـا قل هـل عندكم من علم فتخـرجوه لنـا إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون * قل فللّه الحجة البـالغة فلو شـاء لهداكم أجمعين ﴾**[٨٧] إنـه فريق فقهـاء الجدل الـذي ينام في حـاضره تحت مـظلة سلفـه الضال . ولكي يخدم سُنَّة آبائه القوميـة . ويفتح لأهـوائه العنـان ، قال ببسـاطة : هب أننا مشركون . ألم يَشَأ الله لنا ذلك لماذا نلام على الشرك . قال المفسرون : وهي حجة داحضة باطلة . فالذين من قبلهم قالوا بهذا ولو كان قـولهم صحيحاً مـا أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم . **﴿ قل هـل عندكم من علم ﴾** أي بـأن ما تفعلوه هـو بـأمر الله **﴿ فتخـرجوه لنـا ﴾** أي فتظهـره لنا **﴿ إنْ تتبعـون إلاّ الـظن ﴾** أي الـوهم والخيال . والمراد بـالظن هنـا . الاعتقاد الفـاسد . **﴿ وإن أنتم إلاّ تخـرصون ﴾** تكذبون على الله فيما ادعيتموه[٨٨] وقال صاحب الميزان : الآية تذكر احتجـاجهم بهـذه الحجة . ثم تـرد عليهم بأنهم جـاهلون بها . وإنمـا يركنـون فيها إلى الـظن

---

(٨٦) الميزان : ١٢/٢٤٥ .
(٨٧) سورة الأنعام ، الآيتان : ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٨٨) ابن كثير : ٢/١٨٦ .

والتخمين . فإنهم احتجوا بها لإثبات أن شركهم وتحريمهم ما رزقهم الله . بإمضاء من الله سبحانه . لا بأس عليهم في ذلك .

فحجتهم : أن الله لو شاء منا خلاف ما نحن عليه من الشرك والتحريم . لكنا مضطرين على ترك الشرك والتحريم . فإذ لم يشأ كان ذلك إذناً في الشرك والتحريم فلا بأس بهذا الشرك والتحريم . كانت هذه حجتهم . وهذه الحجة لا تنتج هذه النتيجة . وإنما تنتج أن الله سبحانه إذ لم يشأ منهم ذلك . لم يوقعهم موقع الاضطرار والإجبار . فهم مختارون في الشرك والكف عنه . والتحريم وتركه . فله تعالى أن يدعوهم إلى الإيمان به ورفض الافتراض . فللّه الحجة البالغة ولا حجة لهم في ذلك . إلّا اتباع الظن والتخمين .

وقوله تعالى : ﴿ **قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ كأن الفاء الأولى لتفريع مضمون الجملة على ما تقدم من قولهم : ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا** ﴾ إلخ والفاء الثانية للتعليل . فيكون الكلام من قبيل قلب الحجة على الخصم بعد بيان مقتضاها . والمعنى : أن نتيجة الحجة قد التبست عليكم بجهلكم واتباعكم الظن وخرصكم في المعارف الإلٰهية فحجتكم تدل على أن لا حجة لكم في دعوته إياكم إلى رفض الشرك . وترك الافتراء عليه . وأن الحجة إنما هي لله عليكم . فإنه لو شاء لهداكم أجمعين . وأجبركم على الإيمان وترك الشرك والتحريم . وإذ لم يجبركم على ذلك . وأبقاكم على الاختيار . فله أن يدعوكم إلى ترك الشرك والتحريم . وبعبارة أخرى : يتفرع على حجتكم . أن الحجة عليكم . لأنه لو شاء لأجبر على الإيمان . فهداكم أجمعين . ولم يفعل بل جعلكم مختارين . يجوز بذلك دعوتكم إلى ما دعاكم إليه[٨٩] .

وهكذا أخرج فقهاء الانحراف كل ما في جعبتهم لمواجهة الدعوة الإسلامية في مكة . أرادوا أن يحاصروا الدعوة فزجوا باسم الله في عمليات الصد عن سبيل الله . ولكن حجج الله كانت لهم بالمرصاد . ولقد دخل من باب القضاء والقدر العديد من حملة المعاول التي تهدم الفطرة . وكم مارس فقهاء الانحراف من عمليات التمييع التي نسجت في النهاية شباك التغييب حول الفطرة الأمر الذي أدى

---

(٨٩) الميزان : ٧/٣١٧ .

بمعظم القافلة البشرية أن تسير بلا هدف . يقترفون كل منكر تحت لافتة لقد أمر الله بهذا ويحرفون كل نص ويقولون لقد شاء الله ذلك ولو شاء غير ذلك ما حرفنا وما تأولنا وما سرنا وراء من ترفضون . إن القول بالجبر لم يقل الإسلام به . لأنه لو قال به لما أقام حجته على العقلاء الذين يقولون أن الخير يجب أن يؤثر والحسن يجب أن يفعل والقبيح يجب أن يجتنب عنه . ويقولون بأنه لا بد من جزاء ومجازاة الإحسان بالإحسان والإساءة بالإساءة . ومن أحكامهم أن الأمر والنهي وكل حكم تشريعي لا يتوجه إلى إلّا المختار دون المضطر والمجبر على الفعل . فلو أنه سبحانه أجبر على الطاعات أو المعاصي . لم يكن جزاء المطيع بالجنة والعاصي بالنار إلّا خرافاً في مورد المطيع . وظلماً في مورد العاصي . والجزاف والظلم قبيحان عند العقلاء . ولا حجة في قبيح .

ولكن الإسلام جاء بما تستقيم عليه الفطرة لتغمر الحجة جميع العقلاء والأغبياء وقد قال تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾(٩٠) ويقول : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة** ﴾(٩١) يقول صاحب الميزان(٩٢) : إن التشريع ليس مبنياً على أساس الجبر في الأفعال . فالتكاليف مجعولة على وفق مصالح العباد في معاشهم أولاً . وهي متوجهة إلى العباد من حيث أنهم مختارون في الفعل والترك ثانياً . والمكلفون إنما يثابون أو يعاقبون بما كسبت أيديهم من خير وشر اختياراً . كما أن ما ينسبه القرآن إلى الله تعالى من الإضلال والخدعة والمكر والإمداد في الطغيان وتسليط الشيطان وتوليته على الإنسان وتقييض القرين ونظائر ذلك جميعها منسوب إليه تعالى على ما يلائم ساحة قدسه ونزاهته تعالى عن ألوان النقص والقبح والمنكر . فإن جميع هذه المعاني راجعة في النهاية إلى الاضلال وشعبه وأنواعه . ليس كل إضلال حتى الإضلال البدوي وعلى سبيل الإغفال المنسوب إليه ولا لائق بجنابه تعالى . بل الثابت له الإضلال مجازاة وخذلانا لمن يستقبل بسوء اختياره ذلك كما قال

---

(٩٠) سورة النساء ، الآية : ١٦٥ .

(٩١) سورة الأنفال ، الآية : ٤٢ .

(٩٢) الميزان : ١/٩٥ .

تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين** ﴾[٩٣] وقال : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾[٩٤] وقال : ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾[٩٥] .

إن معسكر الانحراف دخل من الباب الذي ترفضه الفطرة متاجرين بخلق أفعال العباد كي يحافظوا على شذوذ القديم ويعبرون به إلى المستقبل كي يزدحم طريق الطمس . وقديماً سئل أبو الحسن عليه السلام عن أفعال العباد ، أهي مخلوقة لله تعالى ؟ فقال : لو كان خالقاً لها لما تبرأ منها . وقد قال سبحانه : ﴿ **إن الله بريء من المشركين** ﴾ ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم . وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم[٩٦] وقيل لأبي عبدالله هل فوض الله الأمر إلى العباد ؟ قال : الله أكرم من أن يفوض إليهم . قيل : أأجبر الله العباد على أفعالهم ؟ قال : الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثم يعذبه عليه[٩٧] وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله . ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه »[٩٨] وروي عن الرضا (ع) أنه قال : « إن الله عز وجل لم يطع بإكراه . ولم يعص بغلبة . ولم يهمل العباد في ملكه . هو المالك لما ملكهم . والقادر على ما أقدرهم عليه . فإن ائتمر العباد بطاعته . لم يكن الله منها صاداً . ولا منها مانعاً . وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل . وإن لم يحل فعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه ثم قال عليه السلام : من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالقه »[٩٩] .

وكما تاجر فقهاء الانحراف بقضية الإجبار تاجروا أيضاً بلافتة الحسنة والسيئة . وحاولوا وضع رداء التمييع عليها كي تواصل القافلة مسيرها في ظلمة

---

(٩٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .
(٩٤) سورة الصف ، الآية : ٥ .
(٩٥) سورة غافر ، الآية : ٣٤ .
(٩٦) الميزان : ١/١٠١ .
(٩٧) الميزان : ١/١٠٣ .
(٩٨) الميزان : ١/١٠٣ .
(٩٩) الميزان : ١/٩٩ .

الليل إلى الدجال . وهم يظنون أن الحسنات والسيئات تلقى عليهم من السماء ليصيب الله بها من يشاء ولا دخل لهم فيما يقترفوه من سيئات . ولقد جاء الإسلام ليصحح هذه المفاهيم ليهلك من هلك عن بينة . مبيناً أن لكل شيء غاية فمثلاً الحياة النباتية لشجرة ما تؤدي إلى إثمارها ثمرة كذا . فهذه الثمرة هي غاية وجودها ـ فإذا كان هذا هو حال النبات . فما بالك بالإنسان . إن الإنسان له هدف وغاية وعلى امتداد طريقه يصيب الحسنات والسيئات ، والحسنات هي الأمور التي يستحسنها الإنسان بالطبع . كالعافية والنعمة والأمن . وكل ذلك من الله . والسيئات هي الأمور التي تسوء الإنسان كالمرض والذلة والمسكنة والفتنة . وكل ذلك يعود إلى الإنسان إليه سبحانه . يقول تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم** ﴾[(١٠٠)] لا ينافي ذلك رجوع جميع الحسنات والسيئات بنظر كلي آخر إليه تعالى . كما قال سبحانه : ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾[(١٠١)] وقال في الميزان : وإياك أن تظن أن الله سبحانه حين أوحى هذه الآية إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم نسي الحقيقة الباهرة التي أبانها بقوله : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾[(١٠٢)] وقوله : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾[(١٠٣)] فعد سبحانه كل شيء مخلوقاً حسناً في نفسه . وقد قال جل شأنه : ﴿ **وما كان ربك نسياً** ﴾[(١٠٤)] وقال : ﴿ **لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾[(١٠٥)] فمعنى قوله : ﴿ **ما أصابك من حسنة** ﴾ (الآية) أن ما أصابك من حسنة ـ وكل ما أصابك حسنة ـ فمن الله . وما أصابك من سيئة فهي سيئة بالنسبة إليك حيث لا يلائم ما تقصده وتشتهيه وإن كانت في نفسها حسنة فإنما جرتها إليك نفسك باختيارها السيىء . واستدعتها كذلك من

---

(١٠٠) سورة الأنفال ، الآية : ٥٣ .

(١٠١) سورة النساء ، الآيتان : ٧٨ ـ ٧٩ .

(١٠٢) سورة الزمر ، الآية : ٦٢ .

(١٠٣) سورة السجدة ، الآية : ٧ .

(١٠٤) سورة مريم ، الآية : ٦٤ .

(١٠٥) سورة طه ، الآية : ٥٢ .

الله . فالله أجل من أن يبدأك بشر وضـر . والآية وإن كـانت خصت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخطاب . لكن المعنى عام للجميع . وبعبارة أخرى . هذه الآية والآيتين الأخـريين ﴿ **ذلك بـأن الله لم يكُ مغيـراً** ﴾ (الآية) ﴿ **ومـا أصـابكم من مصيبة** ﴾ (الآية) متكفلة للخطاب الإجتماعي لتلفها للخطاب الفردي .

فإن للمجتمع الإنساني كينونة إنسانية وإرادة واختياراً غير ما للفرد من ذلك ، فـالمجتمع ذو كينـونة يستهلك فيهـا المـاضـون والغـابـرون من أفـراده . ويؤاخـذ متـأخروهم بسيئـات المتقدمين . وليس يصـح ذلك في الفـرد بحسب حكمـه في نفسـه أبداً . فهـذا رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم أصيب في غـزوة أحد في وجهه وثناياه . وأصيب المسلمون بما أصيبوا . وهو صلى الله عليه وآله وسلم نبي معصوم إن أسند ما أصيب به إلى مجتمعه وقد خالفوا أمر الله ورسولـه . كان ذلـك مصيبة سيئة صابته بمـا كسبت أيدي مجتمعـه وهو فيهم كمـوسى عليه السـلام فقد أصاب بني إسرائيل عذاب التيه في الصحراء بمـا كسبت أيديهم كـان موسى عليـه السـلام فيهم ـ وإن أسند إلى شخصـه الشريف كـان ذلك محنـة إلٰهية أصـابته في سبيل الله . وفي طريق دعوته الطاهرة إلى الله على بصيرة . فإنمـا هي نعمة رافعـة الدرجات . وكذا كل ما أصاب قوماً من السيئـات إنما تستنـد إلى أعمالهم على مـا يـراه القـرآن ولا يـرى إلّا الحق . وأن مـا أصـابهم من الحسنـات فمـن الله سبحانه . . .

والله تعالى يذكر في آياته ، أن شيئاً من خلقه لا يقدر على شيء ممـا يقصده من الغاية . ولا يهتدي إلى خير إلّا بإقدار الله وهدايته قال تعالى : ﴿ **الـذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾[١٠٦] وقال تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحـد أبداً** ﴾[١٠٧] ويتبين بهـاتين الآيتين وما تقـدم من معنى آخـر . لكون الحسنات لله عز اسمه . وهـو أن الإنسان لا يملك حسنـة إلّا بتمليك من الله وإيصـال منه . فـالحسنات كلهـا لله والسيئات لـلإنسان . وبـه يظهـر معنى قـولـه تعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصـابك من سيئـة فمن نفسك** ﴾ فللّه سبحانه الحسنات بما أن كل حسن مخلوق له . والخلق والحسن لا ينفكـان . وله

(١٠٦) سورة طه ، الآية : ٥٠ .
(١٠٧) سورة النور ، الآية : ٢١ .

الحسنات بما أنها خيرات . وبيده الخير لا يملكه غيره إلّا بتمليكه . ولا ينسب إليه شيء من السيئات من حيث إنها سيئة غير مخلوقة وشأنه الخلق . وإنما السيئة فقدان الإنسان مثلاً رحمة من لدنه تعالى أمسك عنها بما قد مات أيدي الناس(١٠٨) وهكذا أطاح الإسلام بالحجة الشيطانية التي أراد بها فقهاء الشيطان أن يتخذوا منها سنداً شرعياً لإضلال أكثر الناس والسير بهم في طريق القهقري الذي يحمل أعلام الغايات الشيطانية .

ثانياً : هدم الأهواء الشيطانية :

بعد أن طرح فقهاء الشيطان فكر اللافكر وعلم اللاعلم من داخل باب القضاء والقدر والحسنة والسيئة . حاصروا الفطرة بعلوم الأهواء التي تتميز بأنها لا غاية لها ولا هدف إلّا الصب في نهاية المطاف داخل الوعاء الشيطاني . والإسلام في مكة بعد أن قام بتصحيح النظر في الكون ودل الإنسان على الطريق المستقيم مبيناً له أنه ليس حصاة ملقاة على قارعة الطريق تحركها الأقدام والرياح حيث تريد . خاطب رسوله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الإنسان في أعماقه . كي يأخذ الإنسان بأسباب النجاة ويحطم الأصنام الراسخة في نفسه . لقد أخبرهم بأن اتباع الأهواء فيه تحقير منهم للكون وإذا كان الأقدمون قد حقروا وانتقصوا من الإنسان . فإن أبناءهم قاموا بتوسيع رقعة التحقير لتشمل الكون كله وذلك لأن اتباعهم للهوى يقتضي بأن يأتيهم الله بتشريع يلائم الأهواء وفي هذا مفسدة للتدبير السائد في الكون قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾(١٠٩) قال المفسرون : إن للإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون العام . وله في نوعيته غاية هي سعادته . وقد خُط له طريق إلى سعادته وكماله ينالها بطي الطريق المنصوب إليها نظير غيره من الأنواع الموجودة . وقد جهّزه الكون العام وخلقته الخاصة به من القوى والآلات بما يناسب سعادته والطريق المنصوب إليها . وهي الاعتقاد والعمل اللذان ينتهيان به إلى سعادته .

---

(١٠٨) الميزان : ١٥/٥ .

(١٠٩) سورة المؤمنون ، الآية : ٧١ .

فالطريق التي تنتهي بالإنسان إلى سعادته . أعني الاعتقادات والأعمال الخاصة المتوسطة بينه وبين سعادته . وهي التي تسمى بالدين وسنّة الحياة . فتعينه حسب اقتضاء النظام العام الكوني والنظام الخاص الإنساني الذي نسميه الفطرة وتابعه لذلك . وهذا هو الذي يشير إليه تعالى بقوله : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾(١١٠) فسنّة الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانية طريقة متعينة يقتضيها النظام بالحق . وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحق . وهذا الحق هو القوانين الثابتة غير المتغيرة التي تحكم في النظام الكوني الذي أحد أجزائه النظام الإنساني . وتدبره وتسوقه إلى غاياته وهو الذي قضى به الله سبحانه فكان حتماً مقضياً . فلو اتبع الحق أهواءهم . فاقتضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم . لم يكن ذلك إلّا بتغيير أجزاء الكون عما هي عليه وتبدل العلل والأسباب غيرها . وتغير الروابط المنتظمة إلى روابط جزافية مختلة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم . وفي ذلك فساد السماوات والأرض ومن فيهن في أنفسها والتدبير الجاري فيها . لأن كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين . والخلق والأمر متصلان غير منفصلين(١١١) بين لهم ان أهل الأهواء يطالبون بتشريع ينسجم مع ما يهوونه من الاعتقاد والعمل وما يريدوه من الفحشاء والمنكر والفساد . وبما أن الهوى لا يقف عند حد ولا يستقر على قرار . فإنهم يريدون مع كل جيل كوناً جديداً ينسجم مع حركتهم . وهذا خبر فطرة الوجود . ولكن طابور الأهواء في معسكر الانحراف وقف على حطام حججه التي حطمها الإسلام له . وأمسك بذيول آبائه ليكمل مسيرة الانحراف حتى نهايتها . وبعد قيام الحجة عليه أوصى تعالى إلى رسوله : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين** ﴾(١١٢) قال المفسرون : أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم باتباع ما يوحى إليه من الدين وأن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الحق . ويظهر من الآية . أن كل حكم عملي لم يستند

---

(١١٠) سورة الروم ، الآية : ٣ .

(١١١) الميزان : ١٥/٤٧ .

(١١٢) سورة الجاثية ، الآيتان : ١٨ ـ ١٩ .

إلى الوحي الإلهي ولم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم . وقوله : ﴿ **إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً** ﴾ أي أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلّا هو . والذريعة إلى ذلك اتباع دينه لا غير . فلا يغني عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئاً من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغني شيئاً من الإغناء . وقوله : ﴿ **إن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين** ﴾ المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعة وبالمتقين المتبعين لدين الله . والمعنى : إن الله ولي الذين يتبعون دينه لأنهم متقون والله وليهم . والذين يتبعون أهواء الجهلة . ليس هو تعالى ولياً لهم . بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون . والظالمون بعضهم أولياء بعض . فاتبع دين الله يكن لك ولياً ولا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئاً . وتسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق(١١٣) لما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ **أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وبالآخرة هم كافرون** ﴾(١١٤) .

فأهل الأهواء بجميع أنواعها وألوانها يربطهم جميعاً رباط واحد . ويسيرون في إتجاه واحد يحدده طريق الطمس الذي يسير القردة عليه أدلة لمن خلفهم . وهم ما سكلوا هذا الطريق إلّا بعد أن رفضوا الطريق الحق . قال تعالى لرسوله : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلّا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾(١١٥) قال المفسرون : المراد باتخاذ الهوى إلهاً : طاعته واتباعه من دون الله . وقد أكثر الله سبحانه في كتابه ذم اتباع الهوى . وعد طاعة الشيء عبادة له في قوله : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وان اعبدون** ﴾(١١٦) وقوله : ﴿ **أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ أي لست أنت وكيلاً عليه قائماً على نفسه وبأموره حتى تهديه إلى سبيل الرشد . فليس في مقدرتك ذلك . وقد أضله

(١١٣) الميزان : ١٨/١٦٧ .
(١١٤) سورة الأعراف ، الآيتان : ٤٤ ـ ٤٥ .
(١١٥) سورة الفرقان ، الآيتان : ٤٣ ـ ٤٤ .
(١١٦) سورة يس ، الآيتان : ٦٠ ـ ٦١ .

الله وقطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾[117] وقوله : ﴿ **وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾[118] والآية كالإجمال للتفصيل الذي في قوله : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله** ﴾[119] .

ثم يقول الله تعالى لرسوله : بل أتظن أن أكثرهم لهم استعداد لسماع الحق ليتبعه . أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ في دعوتهم ﴿ **إن هم إلّا كالأنعام** ﴾ أي أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون . أي أنهم ليسوا إلّا كالأنعام والبهائم في أنها لا تعقل ولا تسمع إلّا اللفظ دون المعنى ﴿ **بل هم أضل سبيلاً** ﴾ أي من الأنعام . وذلك أن الأنعام لا تقتحم على ما يضرها . وهؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم . وأيضاً الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق . فإنها لم تجهز في خلقتها بما يهديها إليه . وهؤلاء مجهزون وقد ضلوا[120] .

إن طابور الأهواء لم يبنوا شركهم على التعقل . بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم . لقد ظلموا أنفسهم أولاً فأدى بهم هذا الظلم إلى ركوب طريق الضلال . يقول تعالى : ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله** ﴾[121] قال المفسرون : كان مقتضى الظاهر أن يقال : بل اتبع الذين أشركوا . ولكنه قال : ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا** ﴾ فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال بعد ذلك في قوله : ﴿ **فمن يهدي من أضل الله** ﴾ فالظلم يستتبع الإضلال الإلٰهي . قال تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين * ويفعل الله ما يشاء** ﴾[122] .

إن الرسالة الخاتمة كانت رحمة من الله للعالمين . لقد قامت بتعرية طريق السلف الذي التقط المنهج الشيطاني . في أول الطريق . وقام بتعرية حججهم

---

(١١٧) سورة القصص ، الآية : ٥٦ .
(١١٨) سورة فاطر ، الآية : ٢٢ .
(١١٩) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .
(١٢٠) الميزان : ١٥/٢٢٤ .
(١٢١) سورة الروم ، الآية : ٢٩ .
(١٢٢) الميزان : ١٦/١٧٧ .

الواهية التي صاغوها لتحفظ لهم سنتهم القومية وترتع فيها أهواؤهم . وتعرية الإسلام لطريق الانحراف الهدف منه إقامة حجة الصراط المستقيم . ولم يكن الهدف في يوم من الأيام إكراه الناس على الإيمان . كما ادعى طابور الانحراف والشذوذ على امتداد تاريخه . قال تعالى لرسوله : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾(١٢٣) قال المفسرون : والمعنى في الآيات : لا تأسف عليهم . واتل ما يوحى إليك واصبر نفسك مع المؤمنين الفقراء وقل للكفار : الحق من ربكم . ولا تزد على ذلك . فمن شاء منهم أن يؤمن فليؤمن ومن شاء منهم أن يكفر فليكفر . فليس ينفعنا إيمانهم ولا يضرنا كفرهم . بل ما في ذلك من نفع أو ضرر وثواب أو تبعه عذاب عائد إليهم أنفسهم فليختاروا ما شاؤوا فقد اعتدنا للظالمين النار وللصالحين جنات تجري من تحتها الأنهار(١٢٤) وقال تعالى : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾(١٢٥) قال المفسرون : أي إن تكفروا بالله فلم توحدوه . فإنه غني عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم وطاعتكم ولا يتضرر بكفركم ومعصيتكم . فالنفع والضرر إنما يتحققان في مجال الإمكان والحاجة . وأما الواجب الغني بذاته فلا يتصور في حقه انتفاع ولا تضرر وقوله : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله : ﴿ **فإن الله غني عنكم** ﴾ إنه إذا لم يتضرر بكفر ولم ينتفع بإيمان . فلا موجب له أن يريد منا الإيمان والشكر فدفعه بأن تعلق العناية الإلهية بكم يقتضي أن لا يرضى بكفركم وأنتم عباده . والمراد بالكفر كفر النعمة الذي هو ترك الشكر بقرينة مقابلة قوله : ﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ والمحصل : أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون في نعمه ورابطة المولوية والعبودية . وهي نسبة المالكية والمملوكية . لا تلائمه أن يكفر العبد بنعمة سيده فينسى ولاية مولاه ويتخذ لنفسه أولياء من دونه ويعصي المولى ويطيع عدوه وهو عبد عليه طابع العبودية لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً(١٢٦) .

---

(١٢٣) سورة الكهف ، الآية : ٢٩ .

(١٢٤) الميزان : ١٣/٣٠٤ .

(١٢٥) سورة الزمر ، الآية : ٧ .

(١٢٦) الميزان : ١٧/٢٣٩ .

إن الإسلام عندما قام بتحطيم السلف الوثني وحججه كان يفسح الطريق أمام الإنسانية كي تتبين خطاها وتأخذ بأسباب الهدى . بعد أن أوحى الشيطان إلى أوليائه كي يفتحوا أبواب الفتن ويدخلوا من كل باب رافعين رايات القضاء والقدر والحسنة والسيئة تارة وحرية الإنسان الشخصية تارة أخرى . وأولياء الشيطان اعتبروا أن هذه أقرب الطرق للدخول بأكثر اللناس تحت ظلال الظلام الشيطانية من أجل تنفيذ المخطط الشيطاني الذي حمله الشيطان على عاتقه منذ أن رفض السجود لآدم . وبينما كان فقهاء الشيطان وتلاميذه يسيرون نحو غاياتهم . كانت سهامهم توجه إلى صدر الإسلام فيتهمونه تارة بأنه دين جامد لم يقدم دليلاً على أنه من عند الله وتارة أخرى على أنه دين يصادر الحرية ولا هم له إلّا السلب والنهب ! وإذا كنا هنا لم نقدم سوى بعض من الآيات المكية فقط . فإننا نقول لمعسكر الانحراف . هل في حجج الإسلام سلب ونهب وإكراه ؟ هل وجدتم جمود ؟ هل علم معسكر الانحراف نظام أعطى خصومه الحرية الكاملة لإبداء آرائهم وصححها بما يخدم إنسانيتهم أكثر من الإسلام ؟ إن الإسلام جاء ليتكلم هو لن يتكلم إلّا إذا تكلم الطرف الآخر . وبعد أن يقول الإسلام كلمته يذر الظالمين يخوضوا ويلعبوا حتى يأتيهم اليوم الذي يوعدون . فهل في هذا إكراه واجبار ؟ فإذا كانت الإجابة بلا . . فلماذا قلتم وتقولون وستقولون عن الإسلام بأنه دين للجمود والدماء ؟ إن القول الذي تقولون به من ثقافة طريق الطمس والإسلام أسمى من أن ينظر في ثقافة قردية الطمس فهؤلاء لهم يوم حدده الله . وفيه يكون عذاب الاستئصال . ونحن وإياكم في انتظاره . إن الزيت السلفي بدأ في الجفاف على كافة المستويات السياسية والإقتصادية والإجتماعية . والذين تاجروا بالأديان أصبحت تجارتهم راكدة . إن الجفاف الأكبر قادم . ومعه ستقطع حبال الأهواء التي يتدلى فيها أبناء الانحراف . وسيسقطون بينما تكون قوافل الهدى التي على الصراط المستقيم ترتل كتاب ربّها بآياته التي قرأها رسولهم أول مرة . والله ولي المتقين .

٥ ـ لبنات المجتمع الصالح :

لقد أيقظ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الفكر عند من أراد العودة إلى الله . وجعل قلوبهم عامرة بذكر الله ولم تكن الدعوة مقتصرة على ضرب الانحراف

والشذوذ بالحجج البالغة فقط . وإنما قدمت الدعوة البديل لاقامة المجتمع الصالح . الذي يحيا فيه الإنسان الحياة الشريفة وينال سعادته الحقيقية . والأساس الذي أقامه الإسلام لبناء هذا المجتمع يقوم على التوحيد . ولبنات هذا الصرح العظيم تتكون من الأخلاق الفاضلة . وذلك لأن المعارف الحقيقية والعلوم المفيدة لا تكون في متناول البشر إلّا عندما يصلح أخلاقه . فالشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم تنطلق بالأخلاق وبوقود التوحيد بصائر للناس يميزون بها أي الطرق يسلكونها لتؤدي بهم إلى الحياة الكريمة في الدنيا والآخرة . وفي مكة وفي الوقت الذي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينادي على معسكرات الانحراف بخلع ثياب الأهواء وإلقاء أعلام سلف الضلال . كان عليه الصلاة والسلام يتلو آيات البناء ومن هذه الآيات قوله تعالى : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظم لعلكم تذكرون * وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿ ولا تتخذوا إيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾**[127] قال المفسرون : قوله تعالى : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾** بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب . أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني . لما أن صلاح المجتمع العام . أهم ما يبتغيه الإسلام في تعاليمه . ولأن سعادة الفرد مبنية على صلاح الظرف الإجتماعي الذي يعيش هو فيه . وما أصعب أن يفلح فرد في مجتمع فاسد . أحاط به الشقاء من كل جانب . اهتم الإسلام في إصلاح المجتمع اهتماماً لا يعادله فيه غيره . وبذل الجهد البالغ في جعل الدساتير والتعاليم الدينية حتى العباداتِ من الصلاة والحج والصوم اجتماعية ما أمكن فيها ذلك . كل ذلك ليستصلح الإنسان في نفسه ومن جهة ظرف حياته .

فقوله : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾** العدل هو المساواة في المكافأة . إنْ خيراً فخير . وإنْ شراً فشر . والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه

---

(١٢٧) سورة النحل ، الآيتان : ٩٠ - ٩١ .

والشر بأقل منه . وظاهر السياق أن المراد بالعدل في الآية هو العـدل الإجتماعي . وهو أن يعامل كل من أفراد المجتمع بما يستحقه . ويوضع في موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه . وهذا أمر من الله بخصلة اجتماعيـة متوجـه إلى الأفراد المكلفين . بمعنى أن الله سبحانه يأمر كـل واحد من أفـراد المجتمع ان يـأتي بالعـدل . ولازم ذلـك . أن يتعلق الأمر بـالمجموع أيضـاً . فيكلف المجتمـع إقـامـة هـذا الحكم وتتقلده الحكومة بما أنها تتولى أمر المجتمع وتديره . والإحسان من حيث السيـاق كسابقه . فالمراد به الإحسان إلى الغير . والإحسان على ما فيه من صلاح حال مَنْ أذلته الفاقة وما فيه من نشر الـرحمة وإيجـاد المحبة . يعـود محمود أثـره إلى نفس المحسن . بـدوران الثـروة في المجتمـع وجلب الأمن . وقـولـه : ﴿ **وإيتـاء ذي القـربى** ﴾ أي إعـطاء المـال لـذوي القـرابـة . وهـو من أفـراد الإحسـان . خُص بالذكر . ليدل على مزيد العناية بإصلاح هذا المجتمع الصغير . الذي هـو السبب بالحقيقة لانعقاد المجتمع المدني الكبير . ومن المعلوم أن المجتمعـات المدنيـة الكبيرة ، إنما ابتدأت من مجتمع بيتي . عقده الزواج ثم بسطه التوالد والتناسل . ووسعـه حتى صار قبيلة وعشيـرة . ولم يـزل يتـزايـد ويتكـاثـر . حتى عـادت أمـة عظيمة(١٢٨) .

وقوله : ﴿ **وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغي** ﴾ الفحشـاء ما عـظم قبحه من الأفعال والأقوال . والمنكـر ما لا يعـرفه النـاس في مجتمعهم من الأعمال التي تكون متروكة عندهم لقبحها أو إثمها . كـالمواقعـة أو كشف العورة في مشهـد من الناس في المجتمعات الإسلامية . والبغي المـراد به في الآيـة التعدي على الغيـر ظلمـاً . وهذه الثـلاثـة : الفحشـاء . المنكـر . البغي . إذا أصـابت مجتمـع من المجتمعـات ظهر الفعـل الفاحش بين الأعمـال المجتمعة فيـه الصادرة من أهله . فينقطع بعضها من بعض . ويبـطل الالتئام بينهـا . وتفسد بـذلك النـظم . ويخل المجتمع في الحقيقة . وإن كـان على ساقـه . وفي ذلك هـلاك سعادة الأفـراد . فـالنهي عن الفحشـاء والمنكـر والبغي . أمـر بحسب المعنى . بـاتحـاد مجتمـع تتعـارف أجـزاؤه . وتتـلاءم أعمـالــه . لا يستعلي بعضهم على بعض بغيـاً ، ولا يشاهد بعضهم من بعض إلاّ الجميل الذي يعرفونـه ، لا فحشاء ولا منكـراً ، وعند

---

(١٢٨) الميزان : ١٢/٣٣٠ .

ذلك تستقر عليهم الرحمة والمحبة والالفة ، وترتكز فيهم القوة والشدة ، وتهجرهم السخطة والعداوة والنفرة . وكل خصلة سيئة تؤدي إلى التفرق والتهلكة . وختم الله تعالى الآية بقوله : ﴿ **يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ أي تتذكرون . فتعلمون أن الذي يدعوكم إليه . فيه حياتكم وسعادتكم[١٢٩] .

ثم أمر سبحانه بالوفاء بالعهد وعدم نقص اليمين بعد أن جعلوا الله عليهم كفيلاً . لأن نقص اليمين إهانة وإرزاء بساحة العزة والكرامة . مضافاً إلى ما في نقص اليمين والعهد معاً من الانقطاع والانفصال عنه سبحانه بعد توكيد الاتصال . ثم أمر سبحانه أن لا يتخذوا أيمانهم وسيلة للغدر والخدعة والخيانة . يطيبون بها نفوس الناس ثم يخونون ويخدعونهم بنقضها . لأن من يفعل ذلك تزل قدمه بعد الثبوت . ويذوق العذاب بما صد عن سبيل الله بإعراضه وامتناعه عن السنّة الفطرية التي فطر الله الناس عليها . ودعت الدعوة النبوية إليها من التزام الصدق والاستقامة ورعاية العهود والمواثيق والإيمان والتجنب عن الدغل والخدعة والخيانة والكذب والزور والغرور فمعنى الآية : ولا تتخذوا أيمانكم وسيلة دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك إلى الزوال عما ثبتم عليه ونقض ما أبرمتموه ، وفيه إعراض عن سبيل الله الذي هو التزام الفطرة والتحرز عن الغدر والخدعة والخيانة وبالجملة الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ويؤديكم ذلك إلى أن تذوقوا السوء والشقاء في حياتكم ولكم عذاب عظيم في الآخرة[١٣٠] فمن هنا يبدأ المجتمع الصالح ولقد جهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بآيات الله التي تدعو لإقامة المجتمع. الصالح ولكن أبناء الانحراف كانوا يريدون كوناً آخر يسير وفقاً لأهوائهم . وراحوا يحللون ويحرمون وفقاً لمقاييس فقهاء الجمود والصد . وعلى طريق الطمس رفعوا أصواتهم بأن الإسلام دين جمود لأنه لا يساير جماهيرهم وما جماهيرهم إلاّ جماهير الغدر والكذب والخيانة والفساد في الأرض . لقد حَرَّم آباؤهم من قبل ما لم يحرمه الله فتلى عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن رداً عليهم وفي نفس الوقت كان رده لبنة من لبنات المجتمع الصالح قال له

(١٢٩) الميزان : ١٢/٣٣٣ .
(١٣٠) الميزان : ١٢/٣٣٨ .

تعالى : ﴿ **قل مَنْ حَرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[١٣١] ففي هذه الآيات رداً على ما فعلوه وما قالوا به فيما سبق هذه الآية من آيات . وفيها قواعد أساسية لإقامة المجتمع الصالح وفيها أخيراً رداً كافياً على من اتهم الإسلام بالجمود فيما بعد . قال المفسرون : والمعنى : أن الله تعالى هدى الإنسان من طريق الفطرة إلى إيجاد أنواع الزينة التي يستحسنها مجتمعة ويستدعي انجذاب نفوسهم إليه وارتفاع نفرتهم واشمئزازهم عنه . فالله يخرج لهم الزينة . وقد كانت مخبية خفية . بإظهارها لحواسهم . ولو كان الإنسان يعيش في الدنيا وحده في غير مجتمع من أمثاله . لم يحتاج إلى زينة يتزين بها قط . ولا تنبه للزوم إيجادها . لأن ملاك التنبيه هو الحاجة . لكنه لما لم يسعه إلّا الحياة في مجتمع من الأفراد . وهم يعيشون بالإرادة والكراهة والحب والبغض . والرضى والسخط . فلا محيص لهم من العثور على ما يستحسنونه وما يستقبحونه من الهيئات والأزياء . فيلهمهم المعلم الغيبي من وراء فطرتهم بما يصلح ما فسد منهم ويزين ما يشين منهم .

وهذه المسماة بالزينة من أهم ما يعتمد عليه الاجتماع الإنساني . وهي من الآداب العريقة التي تلازم المجتمعات . وتترقى وتنزل على حسب تقدم المدنية والحضارة . ولو فرض ارتفاعها من أصلها في مجتمع من المجتمعات . انهدم الإجتماع . وتلاشت أجزاءه من حينه ، لأن معنى بطلانها ، ارتفاع الحسن والقبيح ، والحب والبغض ، والإرادة والكراهة ، ولا مصداق الإجتماع الإنساني عندئذ . وقوله : ﴿ **والطيبات من الرزق** ﴾ الطيب هو الملائم للطبع . وهي الأنواع المختلفة مما يرتزق به الإنسان بالتغذي منه . أو مطلق ما يستمد به في حياته وبقائه . كأنواع الطعام والشراب والمنكح والمسكن ونحوها . وقد جهز الله سبحانه الإنسان بما يحس بحاجته إلى أقسام الرزق . ويستدعي تناولها بأنواع من

---

(١٣١) سورة الأعراف ، الآيتان : ٣٢ ـ ٣٣ .

الشهوات الهائجة في بطنه . إلى ما يلائمها مما يرفع حاجته . وهذا هو الطيب والملاءمة الطبيعية .

وبناء حياة الإنسان السعيدة على طيبات الرزق غني عن البيان . فلا يسعد الإنسان في حياته من الرزق . إلاّ بما يلائم طباع قواه وأدواته التي جُهز بها . ويساعده على بقاء تركيبه الذي ركب به . وما جهز بشيء ولا ركب من جزء ، إلاّ لحاجة له إليه ، فلو تعدى في شيء مما يلائم فطرته إلى ما لا يلائمها طبعاً . اضطر إلى تتميم النقص الوارد عليه كالمنهوم الشره الذي يفرط في الأكل فيصيبه آفات الهضم . فيضطر إلى استعمال الأدوية المصلحة لجهاز الهضم . ولا يزال يستعمل ويفرط حتى يعتاد بها . فلا تؤثر فيه . فيصير إنساناً عليلاً تشغله العلة عن عامة واجبات الحياة . وأهمها الفكر السالم الحر ، والتعدي عن طيب الرزق يبدل الإنسان إلى شيء آخر . لا هو مخلوق لهذا العالم ولا هذا العالم مخلوق له . وأي خير يرجى في إنسان يتوخى أن يعيش في ظرف غير ظرفه الذي أعده له الكون . ويسلك طريقاً لم تهيئه له الفطرة . وينال غاية غير غايته . وهو أن يتوسع بالتمتع بكل ما تزينه له الشهوة والشره . ويصور له الخيال بآخر ما يقدر وأقصى ما يمكن .

والله تعالى يذكر في هذه الآية . أن هناك زينة أخرجها لعباده وأظهرها وبينها لهم من طريق الإلهام الفطري ولا تلهم الفطرة إلاّ بشيء قامت حاجة الإنسان إليه . ولا دليل على إباحة عمل من الأعمال وسلوك طريق من الطرق أقوى من الحاجة إليه . بحسب الوجود والطبيعة الذي يدل على أن الله سبحانه . وهو الرابط بين الإنسان المحتاج وبين ما يحتاج إليه . بما أودع في نفسه من القوى والأدوات الباعثة له إليه . بحسب الخلقة والتكوين . والفطرة تقضي بالوسط العدل في الزينة وطيبات الرزق . لأن التعدي إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط . فيه تهديد المجتمع الإنساني بالانحطاط . فما ظهر فساد في البر والبحر إلاّ عن إتراف الناس وإسرافهم في أمر الزينة أو الرزق(١٣٢) . إن الاسراف فساد وقال تعالى في صدر الآية التي نحن بصددها : **﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا**

---

(١٣٢) الميزان : ٨٠ ، ٨/٨١ .

يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . . . ﴾ وقال فيما قبل ذلك : **﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾** .

أما قوله تعالى : **﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾** قال المفسرون : بعد أن بين الزينة والرزق الطيب . بين ما حرم الله . والفواحش هي المعاصي البالغة قبحاً وشناعةً . كالزنا واللواط ونحوهما . والإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته وذلةً وهواناً سقوطاً كشرب الخمر . الذي يستعقب للإنسان تهلكة في جاهه وماله وعرضه ونفسه ونحو ذلك . والبغي هو طلب الإنسان ما ليس له بحق . كأنواع الظلم والتعدي على الناس والاستيلاء غير المشروع عليهم . ولما كان صدر الآية إباحة الزينة وطيبات الرزق ويمكن أن يكون في هذا داعياً في نفس السامع . إلى أن يحصل على ما حرمه الله . ألقى الله سبحانه في هذه الآية جماع القول في ذلك . ولا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينية . وهي تنقسم بوجه إلى قسمين : ما يرجع إلى الأفعال وهي الثلاثة الأول . وما يرجع إلى الأقوال والإعتقادات وهو الأخيران . والقسم الأول منه : ما يرجع إلى الناس وهو البغي بغير الحق . ومنه غيره وهو اما ذو قبح وشناعة فالفاحشة وأما غيره فالإثم . والقسم الثاني : إما شرك بالله أو افتراء على الله سبحانه(١٣٣) .

ما أعظم الرسالة الخاتمة . بثلاث آيات من سورة النحل وآيتين من سورة الأعراف وضعت قوائم المجتمع الصالح فما بالك بباقي آيات القرآن الكريم . وما ذكرناه من الآيات مكي فما بالك بالآيات التي أقامت دولة في المدينة . ومنها قوله تعالى : **﴿ قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلّا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وان هذا صراطي مستقيماً**

---

(١٣٣) الميزان : ٨/٨٦ .

فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(١٣٤) .

قال في الميزان : ومن شواهد أنها شرائع عامة ، أنّا نجدها فيما نقله الله سبحانه من خطابات الأنبياء أممهم في تبليغاتهم الدينية كالذي نقل من نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام . . . على أن المتأمل فيها يعطى أن الدين الإلهي لا يتم أمره ولا يستقيم حاله بدون شيء منها . وإن بلغ من الإجمال والبساطة ما بلغ . وبلغ الإنسان المنتحل به من السذاجة ما بلغ(١٣٥) .

فماذا كان موقف طابور الانحراف والصد من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة ؟ ماذا فعلوا عندما كان يزيح أصنام التوثين من دائرة الفكر والوجدان كي يتدبروا في خلق السماوات والأرض بحرية الإنسان . وماذا فعلوا وهو يدلهم على الطريق الحق الذي لم يبصره سلفهم الغير صالح ؟ هذا السلف الذي عكف على الفقه الشيطاني ليضع تعاريف لا تنتج إلّا الإنسان المشوه روحياً . إن طابور الانحراف واجه الرسالة الخاتمة بكل قواه للصد عن سبيل الله .

٦ ـ الصد عن سبيل الله :

أولاً : طرح قضية البشر الرسول :

لقد شكك الذين رفضوا الهدى في الرسول وفي القرآن وأثاروا قضية آبائهم التي ترفض البشر الرسول . يقول تعالى : ﴿ **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلّا رجلاً مسحوراً** ﴾ ثم يطيب الله تعالى خاطر رسوله بعد الذي قالوه فيقول سبحانه : ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً * تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾(١٣٦) قال المفسرون :

---

(١٣٤) سورة الأنعام ، الآيات : ١٥١ ـ ١٥٣ .
(١٣٥) الميزان : ٧/٣٧٣ .
(١٣٦) سورة الفرقان ، الآيات : ٧ ـ ١٠ .

تعبيرهم عنه صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم : ﴿ **هذا الرسول** ﴾ مع تكذيبهم برسالته مبني على التهكم والاستهزاء . وقولهم : ﴿ **ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق** ﴾ إن الرسالة لا تجامع أكل الطعام والمشي في الأسواق لاكتساب المعاش . فإنها اتصال غيبي لا يجامع التعلقات المادية وليست إلّا من شؤون الملائكة . وقولهم : ﴿ **لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً** ﴾ أي كيف يكون هذا المدّعي للرسالة رسولاً وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق والرسول لا يكون إلّا ملكاً منزهاً عن هذه الخصال المادية . فإن سلمنا برسالته وهو بشر . فلينزل إليه ملك يكون معه نذيراً . ليتصل الإنذار وتبليغ الرسالة بالغيب وسط الملك . ﴿ **أو يلقى إليه كنز** ﴾ أي إنْ لم ينزل إليه ملك . واستقل بالرسالة وهو بشر . فليلق إليه من السماء كنز . حتى يصرف منه في وجوه حوائجه المادية . ولا يكدح في الأسواق في اكتساب ما يعيش به . ونزول الكنز إليه أسْهل من نزول الملك إليه ليعينه في تبليغ الرسالة ﴿ **أو تكون له جنة يأكل منها** ﴾ وإن لم يُلقَ إليه كنز . فليكن له جنة يأكل منها . ولا يحتاج إلى كسب المعاش وهذا أسهل من إلقاء الكنز إليه .

﴿ **وقال الظالمون إنْ تتبعون إلّا رجلاً مسحوراً** ﴾ المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر ـ كما قيل ـ وقولهم : ﴿ **إن تتبعون** ﴾ خطاب منهم للمؤمنين . تعبيراً لهم وإغواء عن طريق الحق . ومرادهم بالرجل المسحور النبي صلى الله عليه وآله وسلم . يريدون أنه مسحور . سحره بعض السحرة . فصار يخيل إليه أنه رسول . يأتيه ملك بالرسالة والكتاب . وقوله تعالى : ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ محصلة : أنظر كيف وصفوك . فضلوا فيك ضلالاً لا يرجى معه اهتداؤهم إلى الحق . كقولهم إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة . لأن الرسول يجب أن يكون شخصاً غيبياً لا تعلق له بالمادة ! ولا أقل من عدم احتياجه إلى الأسباب العادية في تحصيل المعاش . وكقولهم : إنه رجل مسحور ﴿ **فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ أي تفرع على هذه الأمثال التي ضربوها لك أنهم ضلوا ضلالاً لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق . ولا يرجى لهم معه الاهتداء . فإن من أخطأ الطريق . ربما أخطأها بانحراف يسير يرجى معه ركوبها ثانياً . وربما استدبرها فصار كلما أمعن في مسيره زاد منها بعداً . ومن سمى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل

يـزيد تعنتـاً ولجاجـاً واستهزاءً بـالحق . كيف يرجى اهتـداؤه وحالـه هذه ؟ وقـوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي إن شاء جعـل لك خيـراً من ذلك جنـات تجري من تحتهـا الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾ الإشارة في قوله : ﴿ **من ذلك** ﴾ إلى ما اقترحـوه من قـولهم : ﴿ **أو تكون لـه جنة يـأكـل منهـا** ﴾ أو إلى مجمـوع مـا ذكـروه من الكنـز والجنة . ولم يقل سبحانه : قل إن شاء ربي جعل كذا وكذا . بل عدل إلى قوله : ﴿ **تبارك الذي إن شاء جعل لك . .** ﴾ وفيه تلويـح إلى أنهم لا يستحقون جـواباً . ولا يصلحـون لأن يخاطبـوا . لأنهم على علم بفساد مـا اقترحـوا به عليـه . فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . لم يذكر لهم إلاّ أنه بشر مثلهم يـوحى إليه . ولم يـدَّعِ أن له قدرة غيبية وسلطنة إلٰهية على كل مـا يريـد أو يراد منـه . أعرض سبحـانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عما اقترحوه . وإنما ذكر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم . ان ربه الذي اتخذه رسولاً وأنزل عليه الفرقان ليكـون للعالمين نـذيراً . قـادر على أعـظم مما يقتـرحونـه . فإن شـاء جعل لـه خيراً من تلك جنـات تجري من تحتهـا الأنهار ، ويجعل له قصوراً ، لا يبلغ وصفها واصف ، وذلك خيـر من أن يكون لـه جنة يأكل منها أو يلقى إليه كنز ليصرفه في حوائجه .

وبهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنـة . وأما نـزول الملك إليه ليشاركه في الإنذار ويعينه على التبليغ . فلم يـذكر جـواب عنه لـظهور بطلانه . وقد أجاب تعالى في مواضع بأجوبة مختلفـة[١٣٧] منها : ﴿ **وقـالوا لـولا أنـزل عليه ملك ولـو أنزلنـا ملكاً لقضي الأمـر ثم لا ينظرون * ولـو جعلنـاه ملكـاً لجعلنـاه رجـلاً وللبسنـا عليهم مـا يلبسـون** ﴾[١٣٨] إن الله لـو أنـزل عليهم ملكٌ بالرسـالة لم ينفعهم ذلـك في رفع حيـرتهم . فإن الله جـاعل الملك عنـدئذ رجـلاً يمـاثل الـرسول البشـري . وهم لابسون على أنفسهم معـه يتشككون . فـإنهم لا يريدون بهذه المسألة إلاّ أن يتخلصوا من الـرسول البشـري . الذي هـو في صورة رجل . ليبدلوا بذلك شكهم يقيناً . وإذا صار الملك على هذا النعت ـ ولا محالة ـ فهم لا ينتفعون بذلك شيئاً .

---

(١٣٧) الميزان : ١٨٦/١٥ .

(١٣٨) سورة الأنعام ، الآيتان : ٨ ـ ٩ .

وبالجملة فإن الدعوة الإلٰهية . لا يستقيم أمرها إلّا أن توضع على الاختيار الإنساني . من غير اضطرار وإلجاء . فالدار دار اختيار لا تتم فيها للإنسان سعادته الحقيقية إلّا بسلوك مسلك الاختيار . واكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته ويضره . وسلوك أي الطريقين رضى لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك قال تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾(١٣٩) فإنما هي هداية وإراءة للطريق . ليختار ما يختاره لنفسه . من التطرق والتمرد . من غير أن يضطر إلى شيء من الطريقين ويلجأ إلى سلوكه . بل يحرث لنفسه ثم يحصد ما حرث . قال تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾(١٤٠) فليس للإنسان إلّا مقتضى سعيه . فإن كان خيراً أراه الله ذلك . وإن كان شراً أمضاه له . قال تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منهاوما له في الآخرة من نصيب** ﴾(١٤١)
ولما كانت الدعوة الإلٰهية لا يستقيم أمرها إلّا أن توضع على الاختيار الإنساني من غير اضطرار وإلجاء . فلا محيص عن أن يكون الرسول الحامل لرسالات الله أحداً من الناس . يكلمهم بلسانهم فيختاروا لأنفسهم السعادة بالطاعة ، أو الشقاء بالمخالفة والمعصية . من غير أن يضطرهم الله إلى قبول الدعوة بآية سماوية يلجئهم إليه وإن قدر على ذلك كما قال : ﴿ **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾(١٤٢) فلو أنزل الله إليهم ملكاً رسولاً . لكان من واجب الحكمة أن يجعله رجلاً مثلهم فيربح الرابحون باكتسابهم ويخسر الخاسرون . فيلبسوا الحق بالباطل على أنفسهم وعلى أتباعهم كما يلبسون مع الرسول البشري . فيمضي الله ذلك ويلبس عليهم كما لبسوا . قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾(١٤٣) .

فإنزال الملك رسولاً . لا يترتب عليه من النفع والأثر أكثر مما يترتب على

---

(١٣٩) سورة الإنسان ، الآية : ٣ .
(١٤٠) سورة النجم ، الآيات : ٣٩ ـ ٤١ .
(١٤١) سورة الشورىٰ ، الآية : ٢٠ .
(١٤٢) سورة الشعراء ، الآيتان : ٣ ـ ٤ .
(١٤٣) سورة الصف ، الآية : ٥ .

إرسال الرسول البشري . ويكون حينئذ لغواً . فقول الذين كفروا : لولا أنزل إليه ملك . ليس إلّا سؤال لأمر لغو . لا يترتب عليه بخصوصه أثر خاص جديد كما رجوا . لقد أخرج كفار مكة ملفات بشرية الرسول التي دونتها الأمم السابقة . ولم يتفكروا ماذا حدث للأمم السابقة ؟ لقد أخبرهم الرسول عن ربه : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلّا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلّا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين** ﴾(١٤٤) لقد أخبرتهم الرسالة الخاتمة أن سؤالهم ورفضهم لبشرية الرسول ما هو إلّا نسخة مكررة على لسان آبائهم من آلاف السنين وكانت الإجابة على ما طرحه آباؤهم تبدو بوضوح على ما تركوه من آثار . ولكن الانحراف لا يفكر إلّا بعقلية الانحراف لقد ركبوا سفينة سلفهم التي لا أمل في وصولها إلى بر الأمان . وكما تمنى قوم نوح أن تكون الرسالة في واحد من الأفاضل والأشراف فكذلك فعل أبناؤهم في معسكر الانحراف الذي عاصر الدعوة الخاتمة يقول تعالى : ﴿ **قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ ثم يجيب تعالى على ما طلبوه فيقول لرسوله : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾(١٤٥) قال المفسرون : مرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلٰهية لا ينبغي أن يتلبس به إلّا رجل شريف في نفسه عظيم في قومه والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في نظرهم فاقد لهذه الخصلة . فلو كان القرآن الذي جاء به وحياً نازلاً من الله ، فلو نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة . فرد الله تعالى قولهم . ومحصله : أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه . فإنهم يحكمون فيما لا يملكون . هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون ويرتزقون وهي رحمة منا . لا قدر لها ولا منزلة عندنا . وليس إلّا متاعاً زائلاً . نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيئتهم . فكيف يقسمون النبوة التي هي

---

(١٤٤) سورة إبراهيم ، الآيتان : ٩ ـ ١٠ .

(١٤٥) سورة الزخرف ، الآيتان : ٣١ ـ ٣٢ .

الرحمة الكبرى . وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاؤوا ويمنعونها ممن شاؤوا . إنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة الله خاصة به حتى يمنعوك يا محمد منها ويعطوها لمن هووا . إن طابور الدفاع عن مقولات الآباء لم يفهم أن مقتضى العناية الإلهية هداية كل نوع من أنواع الخليقة إلى كماله وسعادته . والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع غير مستثنى من هذه الكلمة . ولا تتم سعادته في الحياة إلّا بأن يعيش عيشة اجتماعية تحكم فيها قوانين وسنن تضمن سعادة حياته في الدنيا وبعدها . وترفع الاختلافات الضرورية الناشئة بين الأفراد . وإذ كانت حياته حياة شعورية . فلا بدّ أن يجهز بما يتلقى به هذه القوانين والسنن . ولا يكفي في ذلك ما جهز به من العقل المميز بين خيره وشره . فإن العقل يعينه ويهديه إلى الإختلاف . فلا بدّ أن يجهز بشعور آخر يتلقى به ما يفيضه الله من المعارف والقوانين الرافعة للاختلاف الضامنة لسعادته وكماله . وهو شعور الوحي . والإنسان المتلبس به هو النبي(١٤٦) لم يفهم حملة أعلام السلف أن الذي يصلح لتلقي الوحي من الله هو الرسول ، وأما غيره فهم محرومون من ذلك لعدم استعدادهم لذلك .

ثانياً : دفاعهم عن تيار السلف :

خرج معسكر الانحراف من أجل الدفاع عن حجارته وأهوائه ومنهج شيطانه يقول تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلّا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلّا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إنْ هذا إلّا ساحر مبين** ﴾ ثم يطيب الله خاطر رسوله فيقول : ﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير * وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير * قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إنْ هو إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد * قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إنْ أجري إلّا على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾(١٤٧) قال المفسرون : خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم ، وتحريض لهم عليه

---

(١٤٦) الميزان : ١٥/٢٠٦ .

(١٤٧) سورة سبأ ، الآيات : ٤٣ ـ ٤٧ .

صلى الله عليه وآله وسلم . وفي توصيف الآيات بالبينات نوع عتبى كأنه قيل : إذا تتلى عليهم هذه الآيات . وهي بينة لا ريب فيها . فبدلاً من أن يدعو عامتهم إلى اتباعها . حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم وحرضوا عليه ـ وفي إضافة الآباء إلى ضمير « كم » مبالغة في التحريض والإثارة وقالوا لأتباعهم : ليس هذا إلاّ كلاماً مصروفاً عن وجهه . مكذوباً به على الله . بدلاً من أن يقولوا : إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى . والذين كفروا بعثهم الكفر إلى أن يقولوا للحق الصريح الذي بلغهم وظهر لهم . هذا سحر ظاهر سحريته وبطلانه . والحال أنا لم نعطهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل . ولم نرسل إليهم قبلك رسول ينذرهم ويبين لهم ذلك . فيقولوا استناداً إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول الرسول النذير : إنه حق أو باطل ﴿ **وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير** ﴾ أي : وكذب بالحق من الآيات ، الذين كانوا من قبل كفار قريش . من الأمم الماضية . ولم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة . فكذب أولئك الأقوام رسلي ، فكيف كان أخذي بالعذاب ، وما أهون أمر قريش . قل لهم : إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا . وتنتصبوا لوجه الله . متفرقين حتى يصفوا فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين . وواحداً واحداً . وتتفكروا في أمري . فقد صاحبتكم طول عمري على سداد من الرأي . وصدق وأمانة . ليس فيّ جنة . ما أنا إلاّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد يوم القيامة . فأنا ناصح لكم غير خائن ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم** . . . ﴾ كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة . فإنه إذا وهبهم كل ما سألهم من أجر . فليس له عليهم أجر مسؤول . ولازمه أن لا يسألهم . وهذا تطييب لنفوسهم . أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه . ثم تمم القول بقوله : ﴿ **إن أجري إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾ لئلا يرد عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الإنسان لا يروم عملاً بغير غاية . فدفعه . بأن لعملي أجر . لكنه على الله لا عليكم وهو يشهد عملي وهو على كل شيء شهيد(١٤٨) .

لقد أرادوا تهييج العامة والغوغاء ، فأمرهم الإسلام بالتفرق وتجنب التجمع والغوغاء . فإن الغوغاء لا شعور لها ولا فكر . وكثير ما تميت الحق وتحيي

---

(١٤٨) الميزان : ١٦/٣٨٩ .

الباطل . فهل فهم طابور الانحراف ما دعاهم إليه الإسلام ؟ لقد قابلوا العلم بالجهل . وغاب عن طابور الانحراف عقله المميز . الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم . وانطلقوا نحو دوائر التحقير التي شرب منها سلفهم حتى ارتووا يقول تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه** ﴾ وبعد أن عرض أبناء السلف مطالبهم قال تعالى لرسوله : ﴿ **قل سبحان ربي هل كنت إلّا بشراً رسولاً * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً * قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾(١٤٩) قال المفسرون : قالت قريش : « لن نؤمن لك » يا محمد « حتى تفجر » وتشق « لنا من الأرض » من مكة لقلة مائها « ينبوعاً » عيناً لا ينضب ماؤها « أو تكون » بالإعجاز « لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار » أي تشقها وتجريها « خلالها » أي وسط تلك الجنة وأثناءها « تفجيراً » « أو تسقط السماء كما زعمت » أي مماثلاً لما زعمت يشيرون به إلى قوله تعالى : ﴿ **أو نسقط عليهم كسفاً من السماء** ﴾(١٥٠) « علينا كسفاً » وقطعاً « أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً » مقابلاً نعاينهم ونشاهدهم . أو يكون لك بيت من زخرف وذهب « أو ترقى » وتصعد « في السماء ولن نؤمن لرقيك » وصعودك « حتى تنزل علينا » منها كتاباً « نقرؤه » ونتلوه(١٥١) .

لقد أمسكوا بذيول السلف بكل قوة وردوا مقولاتهم التي أرادوا بها التعجيز . ﴿ **قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾ قال المفسرون : أمره الله تعالى أن يجيب عما اقترحوه عليه وينبههم على جهلهم ومكابرتهم فيما لا

---

(١٤٩) سورة الإسراء ، الآيات : ٩٠ ـ ٩٦ .

(١٥٠) سورة سبأ ، الآية : ٩ . والآية لا تخلو من دلالة على تقدم سورة سبأ على هذه السورة نزولاً .

(١٥١) الميزان : ١٣/٢٠٢ .

يخفى على ذي نظر . فإنهم طالبوه بأمور عظام ، لا يقوى على أكثرها إلاّ القدرة الغيبية الإلهية . وفيها ما هو مستحيل بالذات كالإتيان بالله والملائكة قبيلاً . ولم يرضوا بهذا المقدار ولم يقنعوا به دون أن جعلوه هو المسؤول المتصدي لذلك . المجيب لما سألوه . فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا وكذا . بل قالوا : ﴿ **لن نؤمن لك حتى تفجر** ﴾ ﴿ **أو تكون لك** . . . ﴾ ﴿ **أو تأتي بالله** ﴾ إن أرادوا منه ذلك بما أنه بشر . فأين البشر من هذه القدرة المطلقة غير المتناهية . المحيطة حتى بالمحال الذاتي . وإن أدوا منه ذلك بما أنه يدعي الرسالة . فالرسالة لا تقتضي إلاّ حمل ما حمله الله من أمره وبعثه لتبليغه بالإنذار والتبشير لا تفويض القدرة الغيبية إليه وإقداره أن يخلق كل ما يريد . ويوجد كل ما شاؤوا . وهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يدعي لنفسه ذلك . فاقتراحهم ما اقترحوه مع ظهور الأمر من عجيب الاقتراح . ولذلك أمره تعالى أن يبادر في جوابهم أولاً إلى تنزيه ربه مما يلوح إليه اقتراحهم هذا . من المجازفة وتفويض القدرة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ولا يبعد أن يستفاد منه التعجب . فالمقام صالح لذلك . وثانياً . إلى الجواب بقوله في صورة الاستفهام ﴿ **هل كنت إلاّ بشراً رسولاً** ﴾ وهو يؤيد كون قوله : ﴿ **سبحان ربي** ﴾ واقعاً موقع التعجب . أي : إن كنتم اقترحتم عليّ هذه الأمور وطلبتموها مني بما أنا محمد . فإنما أنا بشر ولا قدرة للبشر على شيء من هذه الأمور . وإن كنتم اقترحتموها لأني رسول ادعي الرسالة . فلا شأن للرسول إلاّ حمل الرسالة وتبليغها لا تقلد القدرة الغيبية المطلقة .

قد ظهر بهذا البيان أن كلا من قوله « بشراً » و « رسولاً » دخيل في استقامة الجواب عن اقتراحهم . أما قوله : « بشراً » فليرد به اقتراحهم عليه أن يأتي بهذه الآيات عن قدرته في نفسه . وأما قوله : « رسولاً » فليرد به اقتراح اتيانها عن قدرة مكتسبة من ربه[١٥٢] .

---

(١٥٢) الميزان : ١٣/٢٠٥ .

ثالثاً : وجاءتهم كلمة العذاب :

بعد أن بيَّن لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة الأمر وأنه لا يملك إلّا ما يأذن فيه ربّه أمره ربّه جل وعلا أن يبلغهم أن الأمر بينه وبينهم إلى ربّـه يحكم فيه بمـا يشاء ﴿ **قـل كفى بالله شهيـداً بيني وبينكم إنه كـان بعباده خبيـراً بصيراً** ﴾ قـال المفسرون : لما احتج عليهم بما احتج . وبين لهم ما بين في أمـر معجزة رسـالته وهي القرآن الذي تحـدى به وهم على عنـادهم وجحودهم وعنتهم لا يعتنـون به . ويقترحون عليه بأمور جزافية أخرى . ولا يحترمون لحق ولا ينقطعون عن بـاطل . أمـر أن يرجـع الأمر إلى شهـادة الله . فهو شهيـد بما وقـع منه ومنهم . فقـد بلغ ما أرسل به ودعا واحتج وأعـذر . وقد سمعـوا وتمت عليهم الحجة واستكبـروا وعتوا والآية في معنى إعلام قطع المحاجة . وترك المخاصمة ورد الأمر إلى مالـك الأمر فليقض مـا هو قـاض[١٥٣] ﴿ **ومن يهد الله فهـو المهتـد ومن يضلل فلن تجـد لهم أولياء من دونه** ﴾[١٥٤] قال المفسرون : إن الهداية لله تعـالى لا يشاركـه فيها أحـد فمن هداه فهو المهتدي لا غير ومن أضله ولم يهده فلن تجد يـا محمد لـه أولياء من دونه يهدونـه . والله لا يهدي هؤلاء . فـانقطع عنهم ولا تكلف نفسـك في دعوتهم رجاء أن يؤمنوا[١٥٥] .

لقد دخل أبناء الانحراف داخل عباءة آبائهم . لم يتبعوا النـور الذي يهـدي إلى صراط الله . واتبعوا طـابور العمى الـذي لا يهدي إلاّ إلى الـظلام والضلال . كـان النبي الأمي صلى الله عليه وآلـه وسلم يتلوعليهم آيات ربـه فما يـزيـدهم إلاّ نفوراً . تحداهم بـالقرآن وطـالبهم أن يأتـوا بمثله ولن يأتـوا بمثله ولو كـان الثقلان أعواناً لهم وأعضـاداً يمدونهم . لكنهم هـربوا من أمـام المعجزة وطـالبوا بـالأنهار والحدائق وغير ذلك هربوا من أمام المعجزة كما هـرب آباؤهم من قبـل . وعندمـا طالبوا بما طالب به الأوائل في طابور الانحـراف تلى عليهم الرسـول الأعظم قـول ربـه : ﴿ **قل لا أقـول لكم عندي خـزائن اللهولا أعـلـم الغيب ولا أقول لكم إني**

---

(١٥٣) الميزان : ١٥/٢٠٨ .

(١٥٤) سورة الإسراء ، الآية : ٩٧ .

(١٥٥) الميزان : ١٥/٢٠٩ .

ملك إن اتبع إلاّ ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾[١٥٦] قال المفسرون : ﴿ **إن أتبع** ﴾ ليدل على كونه مأموراً بتبليغ ما يوحى إليه . ليس له إلاّ اتباع ذلك ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾ أي أني وإن ساويتكم في البشرية والعجز . لكن ذلك لا يمنعني عن دعوتكم إلى اتباعي . فإن ربي جعلني على بصيرة بما أوحى إلي دونكم . فأنا وأنتم كالبصير والأعمى لا يستويان في الحكم . وان كانا متساويين في الإنسانية . فإن التفكر في أمرهما يهدي الإنسان إلى القضاء بأن البصير يجب أن يتبعه الأعمى . والعالم يجب أن يتبعه الجاهل[١٥٧] !

وسارت قافلة الظلام تشق طريقها في غبار الضلال ﴿ **وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾[١٥٨] ! وبينما هم يقولون ذلك يقول تعالى لرسوله : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾[١٥٩] وقال : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾[١٦٠] وقال : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا** ﴾[١٦١] وقال : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾[١٦٢] لقد طيب الله تعالى خاطر رسوله وخاصة في السور المكية لشدة الأمر عليه وأخبره بأنه سبحانه نزل الذكر عليه وأنه تعالى يحفظه . فلا يضيق صدره بما يقولون فإن ما يقولوه دأب المجرمين من الأمم الإنسانية . وأن حال دعوته بالذكر المنزل عليه ، تشبه حال الرسالة من قبله ، فكلما أرسل الله من قبله رسولاً ، قابلوا الرسالة بالصد والاستهزاء . وهؤلاء المجرمين ، لو فتح الله عليهم باباً من السماء ، ويسر لهم الدخول في عالمها . فداموا فيه عروجاً بعد عروج ، حتى يتكرر لهم مشاهدة ما

---

(١٥٦) سورة الأنعام ، الآية : ٥٠ .

(١٥٧) الميزان : ٧/٩٧ .

(١٥٨) سورة الحجر ، الآية : ٦ .

(١٥٩) سورة القلم ، الآية : ٢ .

(١٦٠) سورة الأنعام ، الآية : ١٠ .

(١٦١) سورة الأنعام ، الآيتان : ٣٣ ـ ٣٤ .

(١٦٢) سورة الطور ، الآية : ٤٨ .

فيه من أسرار الغيب وملكوت الأشياء . لقالوا : إنما غشيت أبصارنا ، فشاهدت أموراً لا حقيقة لها . بل نحن قوم مسحورون وهو قوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾(١٦٣) .

إن طابور الانحراف توغل بأقدامه داخل دروب الظلام ولن يأخذ بأسباب الهدى حتى ولو فتحت له أبواب السماء لينظر بأم عينيه معجزات الله الباهرة . لقد بعث الله فيهم رسولاً منهم ليهديهم ولكنهم أغلقوا الأبواب فحقت عليهم كلمة العذاب يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ **إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾(١٦٤) قال المفسرون : المعنى : إنما أرسلك وأنزل عليك القرآن لتنذر وتخوف قوماً لم ينذر آباءهم فهم غافلون . والمراد بالقوم هو قريش ومن يلحق بهم . وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم نظراً إلى عموم رسالته . والمراد بالقول الذي حق عليهم . أنه قد وجب العذاب على أكثرهم وذلك لأن الله قد ختم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون رسله(١٦٥) . وقال تعالى إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة مَنْ جعل في عنقه غل فجمع يده مع عنقه تحت ذقنه وارتفع رأسه فصار مقمحاً ولهذا قال تعالى : ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ أي رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سداً** ﴾ عن الحق ﴿ **ومن خلفهم سداً** ﴾ عن الحق فهم مترددون(١٦٦) . وبالجملة غشينا أبصارهم عن الحق فلا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه . أي ركبوا طريق الطمس باختيارهم

---

(١٦٣) سورة الحجر ، الآيتان : ١٤ ـ ١٥ .

(١٦٤) سورة يسٓ ، الآيات : ٣ ـ ١٠ .

(١٦٥) تفسير ابن كثير : ٣/٥٦٤.

(١٦٦) تفسير ابن كثير : ٣/٥٦٤ .

فاستحقوا إضلال الله لهم . وقال في الميزان : المراد بالقول الذي حق عليهم كلمة العذاب التي تكلم بها الله سبحانه في بدء الخلقة مخاطباً بها إبليس ﴿ **فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن اتبعك منهم أجمعين** ﴾(١٦٧) والمراد بتبعية إبليس طاعته بما يأمر به بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية وترسخ في النفس كما يشير إليه قوله تعالى خطاباً لإبليس : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين** ﴾(١٦٨) ولازمه الطغيان والاستكبار على الحق كما يشير إليه ما قاله تعالى من تساؤل المتبوعين والتابعين في النار ﴿ **بل كنتم قوماً طاغين * فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين** ﴾(١٦٩) وقوله : ﴿ **ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾(١٧٠) .

لازمه الانكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة بالمرة ورسوخ ذلك في نفوسهم قال تعالى : ﴿ **ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وإن الله لا يهدي القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون** ﴾(١٧١) فيطبع الله على قلوبهم . ومن آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون** ﴾(١٧٢) بما تقدم ظهر أن الفاء في قوله : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ للتفريع لا للتعليل كما احتمله بعضهم(١٧٣) وقوله تعالى : ﴿ **وسواء عليهم أأنذتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ قال المفسرون : أي قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الانذار ولا يتأثرون

---

(١٦٧) سورة صٓ ، الآيتان : ٨٤ ـ ٨٥ .
(١٦٨) سورة الحجر ، الآيتان : ٤٢ ـ ٤٣ .
(١٦٩) سورة الصافات ، الآيات : ٣٠ ـ ٣٢ .
(١٧٠) سورة الزمر ، الآيتان : ٧١ ـ ٧٢ .
(١٧١) سورة النحل ، الآيات : ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(١٧٢) سورة يونس ، الآية : ٩٦ .
(١٧٣) الميزان : ١٧/٦٤ .

بـه . وكما قـال تعالى : ﴿ **إن الـذين حقت عليهم كلمة ربـك لا يؤمنـون * ولـو جاءتهم كل آيـة** ﴾[١٧٤] ولا منافـاة بين إخباره بـأنهم لا يؤمنون سـواءً أنذروا أم لم ينذروا وبين انذارهم . لأن في البـلاغ اتمامـاً للحجة[١٧٥] ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيـا من حي عن بينة** ﴾[١٧٦] .

لقـد طالبهم الـرسول صلى الله عليـه وآله وسلم أن ينـظروا في الكـون نـظر المتـدبر البصيـر كي يحطمـوا الأصنام بـأنفسهم تلك الأصنام القـابعة على طـريق عقولهم ووجدانهم ولكنهم أبوا إلّا طريق الآباء يقول تعالى : ﴿ **وكأين من آيـة في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بـالله إلّا وهم مشركون** ﴾[١٧٧] فأهل هـذه الآية هم الـذين تعامـوا عن آيات الله في الكـون وأمسكـوا زيول سلفهم على طـريق الإنحـراف . والله تعـالى كتب على نفسـه أن يصرف عن آياتـه كل من يُعـرض عن سبيل الهـدى قال تعـالى : ﴿ **سأصـرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبـوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾[١٧٨] قال المفسرون : أي سأضع فهم الحجج والأدلة الـدالة على عـظمتي وشريعتي وأحكـامي قلوب المتكبرين عن طـاعتي ويتكبرون على النـاس بغيـر حق . وقـال سفيـان : أنـزع عنهم فهم القـرآن وأصـرفهم عن آياتي . وقال ابن جرير : هذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة[١٧٩] وقـال في الميزان : الآية تقييـد التكبر في الأرض بغيـر الحق مع أن التكبـر فيها لا يكـون إلّا بغير الحق . كتقييد البغي في الأرض بغير الحق للتوضيح لا للإحتـراز . ويراد بـه الدلالة على وجه الذم . وأن التكبر كالبغي مذموم لكونه بغير الحق وقوله : ﴿ **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً** ﴾ أي اعتنائهم الشديـد ومراقبتهم الـدقيقة على

---

(١٧٤) ابن كثير : ٣/٥٦٥ .
(١٧٥) الميزان : ١٧/٧٢ .
(١٧٦) سورة الأنفال ، الآية : ٤٢ .
(١٧٧) سورة يوسف ، الآيتان : ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(١٧٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٦ .
(١٧٩) ابن كثير : ٢/٢٤٧ .

مخالفة سبيل الرشد . واتباع سبيل الغي . بحيث لا يعذرون بخطأ ولا تحتمل في حقهم جهل أو اشتباه(١٨٠) .

لقد جلس معسكر الانحراف في المكان الذي اختاره لنفسه . المكان الذي يكون فيه أضل من البهيمة . وذلك بعد أن صادر سمعه وبصره وفؤاده وألقى بنفسه في أحضان الشيطان يقول تعالى : ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾(١٨١) قال المفسرون : وليست ولايتهم وتصرفهم في الإنسان إلاّ ولاية الفتنة والغرور . فإذا افتتن واغتر بهم تصرفوا بما شاؤوا وكما أرادوا(١٨٢) لقد دعاهم الرسول الأعظم إلى الطهر والنقاء وسعادة الدارين . ولكنهم تعاملوا مع الدعوة كتجار فاعتبروها سلعة كل منهم يحسب مكسبه منها في حالة الاقتراب أو الابتعاد عنها . وفي جميع الحالات يتحرك التجار وفقاً لسنّة الآباء القومية . وفاتهم أن العقيدة لا تصلح للتجارة ولا تخضع لأكياس النقود .

٢ ـ استعجال العذاب :

على أرض مكة تعالت أصوات طوابير الإنحراف وأخذوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانهالت سياطهم وعصيهم على ظهور الضعفاء من الذين آمنوا . وتقدم سادة خيام الانحراف ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتيهم بالعذاب ان كان من الصادقين . آخذين في ذلك بسنّة آبائهم في قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين . كانوا يستجلون أي عذاب . سواء أكان عذاب في الدنيا أم عذاب الآخرة . يقول تعالى : ﴿ **وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾(١٨٣) قال المفسرون : أي امطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً . وإنما أفرد امطار الحجارة من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر . لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب

---

(١٨٠) الميزان : ٨/٢٤٧ .

(١٨١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٧ .

(١٨٢) الميزان : ٨/٧١ .

(١٨٣) سورة الأنفال ، الآية : ٣٢ .

الروح بما فيه من الذلة والإهانة(١٨٤) لقد استعجل طابور الإنحراف العذاب أي عذاب كان . يقول تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾(١٨٥) قال المفسرون : إشارة إلى قولهم كقول متقدميهم : إئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . وقال تعالى في استعجالهم للعذاب ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحسبه** ﴾(١٨٦) واستعجالهم للعذاب يدل على كمال جهلهم وفساد فهمهم . لأن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولاً . واستعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم . لأنهم مجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانياً . والمراد بالأجل المسمى في الآية هو الذي قضاه الله تعالى لبني آدم . حين أهبط آدم إلى الأرض فقال : ﴿ **ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾(١٨٧) وقال : ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾(١٨٨) وهذا العذاب الذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمى . هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة . كما قال تعالى : ﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً** ﴾(١٨٩) . ولا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إمهال وإنظار(١٩٠) . قال تعالى : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذب بها الأولون** ﴾(١٩١) .

وأمام استعجالهم للعذاب كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجيبهم بما أجاب به أنبياء الله أقوامهم حين طالبوهم بالعذاب قال تعالى : ﴿ **قل إن أدري**

---

(١٨٤) الميزان : ٩/٦٧ .
(١٨٥) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٥٣ ـ ٥٤ .
(١٨٦) سورة هود ، الآية : ٨ .
(١٨٧) سورة البقرة ، الآية : ٣٦ .
(١٨٨) سورة الأعراف ، الآية : ٣٤ .
(١٨٩) سورة الكهف ، الآية : ٥٨ .
(١٩٠) الميزان : ١٦/١٤١ .
(١٩١) سورة الإسراء ، الآية : ٥٩ .

أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾[١٩٢] وقال : ﴿ **إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾**[١٩٣] وقال : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً إلاّ ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون * قل أرأيتم إن آتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون * ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلاّ بما كنتم تكسبون * ويستنبؤنك أحق هو قل إي وربي إنه الحق وما أنتم بمعجزين ﴾**[١٩٤] قال المفسرون : سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود . وهو القضاء بينهم في الدنيا . والسائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي صلى الله عليه وآله وسلم . والدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله : ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلاّ ما شاء الله لكل أمة أجل** . . . ﴾ الآية . وقول البعض إن السؤال عن عذاب يوم القيامة . أو أن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقة لا يلتفت إليه[١٩٥] .

فقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . في معنى قولنا : أي وقت يفي ربك بما وعدك . أو يأتي بما أوعدنا به إنه يقضي بيننا وبينك . فيهلكنا وينجيك والمؤمنين بك . فيصفوا لكم الجو . ويكون لكم الأرض وتخلصون من شرنا ؟ فهل عجّل لكم ذلك ؟ وذلك إن كلامهم مسوق سوق الإستعجال تعجيزاً واستهزاءً . كما تدل على استعجالهم الآيات التالية في السورة . وهذا نظير قولهم : ﴿ **لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين** ﴾[١٩٦] . لقن سبحان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبدأهم في الجواب ببيان . إنه لا يملك لنفسه ضراً حتى يدفعه عنها . ولا نفعاً حتى يجلبه إليها ويستعجل ذلك إلاّ ما شاء الله أن

---

(١٩٢) سورة الجن ، الآية : ٢٥ .
(١٩٣) سورة الأنعام ، الآيتان : ١٣٤ ـ ١٣٥ .
(١٩٤) سورة يونس ، الآيات : ٤٨ ـ ٥٣ .
(١٩٥) الميزان : ١٠/٧٢ .
(١٩٦) سورة الحجر ، الآية : ٧ .

يملكه من ضر ونفع . فالأمر لله سبحانـه جميعاً . واقتـراحهم عليه بـأن يعجل لهم القضاء والعذاب من الجهل . ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جوابـاً إجمـالياً . بـالإعراض عن تعيين الـوقت والإقبال عن ذكـر ضرورة الـوقـوع . أمـا الأول : فإنه من الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله . وأمره الذي لا يتسلط عليه إلاّ هو . وأما الثاني : أعني ذكر ضرورة الوقوع فقد بيّن ذلك . بالإشارة إلى حقيقـة هي من النواميس العامة الجارية في الكون تنحل بها العقدة وتندفـع بها الشبهـة . وهي أن لكـل أمة أجـلاً لا يتخطاهم ولا يتخـطونه . فهـو آتيهم لا محالـة . وإذا آتـاهم لم يخبط في وقوعه موقعة ولا ساعة . وهـو قولـه تعالى : ﴿ **لكـل أمة أجـل فإذا جـاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ أي وأنتم أمة من الأمم فلا محالة لكم أيضاً أجل كمثلهم فإذا جاءكم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون .

فإذا فقهوا هذا الكلام وتدبروه . ظهـر لهم أن لكل أمـة حياة إجتمـاعية وراء الحياة الفردية التي لكل واحد من أفرادها . ولحياتها من البقاء والعمـر ما قضى بـه الله سبحـانه لهـا . ولها من السعـادة والشقاوة والتكليف والـرشـد والغيّ والثـواب والعقاب نصيبها . وهي مما اعتنى بها التدبير الإلٰهي . نـظير الفـرد من الإنسان . ويدلهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ . ويفصح عنـه الآثار من ديـارهم الخربـة ومسـاكنهم الخاليـة . وقد قص عليهم القـرآن أخبار بعضهم كقـوم نوح وعـاد قوم هود . وثمود قوم صالح . وكلدة قوم إبراهيم وأهل سـدوم وسائـر المؤتفكات قـوم لـوط والقبط قوم فـرعون وغيـرهم . فهؤلاء أمم منقـرضـة . سكنت أجـراسهم . وخمـدت أنفاسهم . ولم ينقـرضوا إلاّ بعـذاب وهلاك . ولم يعـذبـوا إلاّ بعـدمـا جاءتهم رسلهم بالبينات . ولم يأت قوماً منهم رسـوله إلاّ واختلفـوا في الحق الذي جاءهم . فمنهم من آمن ومنهم من كذب به وهم الأكثرون .

فهـذا يدلهم على أن هـذه الأمـة . ـ وقـد اختلفـوا في الحق لمـا جـاءهم ـ سيقضي الله بين رسوله وبينهم فيأخذهم بمـا أخذ بـه من خلت من قبلهم من الأمم وإن الله لبالمرصاد . وعلى الباحث المتدبر . أن يتنبه لأن الله سبحانـه وإن بدأ في وعيده بالمشركين . غير أنـه تعالى هـدد في آياتـه المجرمين فتعلق الـوعيد بهم . ومن أهل القبلة مجرمون كغيرهم . فلينتظروا عذاباً واصباً يفصل به الله بينهم وبين نبيه صلى الله عليه وآلـه وسلم . ولينسوا مـا يلقيه الشيـطان في روعهم . أن أمتهم

هذه أمة مرحومة رفع الله عنهم عذاب الدنيا إكراماً منه لنبيهم نبي الرحمة . فهم في أمن من عذاب الله وإن انهمكوا في كل إثم وخطيئة وهتكوا كل حجاب . مع أنه كرامة عند الله إلّا بالتقوى . وقد خاطب المؤمنين من هذه الأمة بمثل قوله : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به** ﴾(197) .

وربما تعدى المتعدي فعطف عذاب الآخرة على عذاب الدنيا . فذكر أن الأمة مغفور لها محسنهم ومسيئهم فلا يبقى لهم في الدنيا إلّا كرامة أن لهم أن يفعلوا ما شاؤوا . فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن . ولا في الآخرة إلّا المغفرة والجنة ؟! ولا يبقى على هذا للملة والشريعة . إلّا أنها تكاليف وأحكام جزافية لعب بها رب العالمين ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . تعالى عما يقولون علواً كبيراً . فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله وهجر كتابه . وقال الرسول : يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . أما قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ان آتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون** ﴾ فإنهم لما استعجلوا آية العذاب قال تعالى ملقنا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ وأخبروني ﴿ **إن آتاكم عذابه بياتاً** ﴾ ليلاً ﴿ **أو نهاراً** ﴾ فإنه عذاب لا يأتيكم إلّا بغتة إذ لستم تعلمون وقت نزوله ﴿ **ماذا يستعجل منه** ﴾ من العذاب ﴿ **المجرمون** ﴾ أي ماذا تستعجلون منه . وأنتم مجرمون لا يتخطاكم إذا آتاكم . ثم وبخهم على تأخير إيمانهم إلى حين لا ينفعهم الإيمان فيه . وهو حين نزول العذاب فقال تعالى : ﴿ **أثم إذا ما وقع** ﴾ العذاب ﴿ **آمنتم به** ﴾ أي بالقرآن أو بالدين أو بالله . « الآية » أي أتؤمنون به في هذا ﴿**الآن**﴾ والوقت ﴿ **وقد كنتم به تستعجلون** ﴾ وكان معنى استعجالهم عدم الإعتناء بشأن هذا العذاب وتحقيره وبالإستهزاء به . .

وقوله تعالى : ﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلّا بما كنتم تكسبون** ﴾ الأشبه أن تكون الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿ **لكل أمة أجل** ﴾ الخ . فتكون الآية الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم وإهلاكهم إياهم . والآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع والهلاك : ذوقوا عذاب الخلد وهو عذاب الآخرة . ولا تجزون إلّا أعمالكم التي كنتم تكسبونها وذنوبكم التي

(197) سورة النساء ، الآية : ١٢٣ .

تحملونها[١٩٨] .

لقد استعجلوا العذاب ولله في خلقه شؤون يقول تعالى : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون * أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون** ﴾[١٩٩] إن العذاب قادم . أما كيف ومتى فهذا في علم الله ﴿ **فإما نذهبن بك إنا منهم منتقمون * أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم** ﴾[٢٠٠] ﴿ **قل رب إما تريني ما يوعدون * رب فلا تجعلني في القوم الظالمين** ﴾[٢٠١] أللهم اغفر وارحم وأنت خير الراحمين . أللهم باعد بيننا وبين القوم الظالمين وصلى الله على نبيك وآله وسلم . لقد استعجلوا العذاب كما أخبر الله تعالى في كتابه في آيات نزلت بمكة واستعجلوه أيضاً في آيات نزلت بالمدينة وسيكون لنا حديث آخر مع إستعجال العذاب في موضعه بإذن الله تعالى .

٣ ـ الخروج من مكة :

لم يدخر معسكر الإنحراف جهداً من أجل الصد عن سبيل الله . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحث المؤمنين به على الصبر . في مواجهة جحافل الليل المغير تحت قيادة الجبابرة الذين ورثوا من قوم نوح تحقير عباد الله . ومن عاد الإستكبار بغير الحق . كان معسكر الإنحراف يضرب بالسيف وبالحجر وبلسانه . والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لا يدافع عن نفسه وعن المؤمنين إلّا بالكلمة الطيبة وبالوحي . وظلت جحافل الليل تكيد للإسلام . ولكن كيدهم في كل مرة كان يذهب كما تذهب رغوة جوفاء في خلاء واسع عريض . وتحداهم النبي الأعظم كما تحدى هود عليه السلام قومه أن يكيدوا له . لقد سخر منهم ومن قوتهم لأنهم باطل لا يستند إلّا على باطل . وعلى أسماعهم تلى قوله تعالى : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو**

---

(١٩٨) الميزان : ١٠/٧٥ .
(١٩٩) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٠٤ ـ ٢٠٧ .
(٢٠٠) سورة الزخرف ، الآيات : ٤١ ـ ٤٣ .
(٢٠١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٩٣ ـ ٩٤ .

يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾[٢٠٢] قال المفسرون : أي قل لهم ادعوا شركاءكم لنصركم عليّ . ثم كيدوني فلا تنظروني ولا تمهلوني . إن ربي ينصرني ويدفع عني كيدكم . فإنه الذي نزل الكتاب ليهدي به الناس . وهو يتولى الصالحين من عباده فينصرهم . وأنا من الصالحين فينصرني ولا محالة . وأما أربابكم الذين تدعون من دونه . فلا يستطيعون نصركم ولا نصر أنفسهم . ولا يسمعون ولا يبصرون فلا قدرة لهم ولا علم[٢٠٣] وأمام هذا التحدي عجز طابور الإنحراف في مكة على إحداث أي ضرر في الدعوة أو الداعية رغم محاولاتهم العديدة . يقول تعالى : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾**[٢٠٤] قال المفسرون : أذكر أو ليذكروا إذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك . أن يوقعوا بك أحد أمور ثلاثة : إما أن يحبسوك وإما أن يقتلوك وإما أن يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج . بياناً لما كانوا يمكرونه من مكر يدل أنه كان بينهم شورى . تشاور فيها مع بعضهم بعضاً في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وما كان يهمهم ويهتمون به من إطفاء نور دعوته[٢٠٥] .

لقد أرادوا أن تخرج هداية الله من بينهم . والله تعالى لا يريد أن تخرج هدايته إلّا بعد أن تبلغ حجته عليهم مداها . فكان ما أراد الله ورد الله كيدهم في نحورهم . وبعد أن أقامت الدعوة حجتها عليهم أمر تعالى رسوله بالخروج من مكة مهاجراً هو والذين آمنوا معه . . ليقف الذين مكروا من قبل لإخراج الرسول على أرضية إخراج الرسل . تلك الأرضية التي ينال من يقف عليها عذاب الخزي في الحياة الدنيا والآخرة . يقول تعالى في الطابور الذي أخرج الرسول ﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾**[٢٠٦]

---

(٢٠٢) سورة الأعراف ، الآيات : ١٩٥ ـ ١٩٧ .
(٢٠٣) الميزان : ٨/٣٧٨ .
(٢٠٤) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠ .
(٢٠٥) الميزان : ٩/٦٧ .
(٢٠٦) سورة محمد ، الآية : ١٣ .

قال المفسرون : المراد بالقرية : أهل القرية . بدليل قوله بعد ذلك : ﴿ أهلكناهم ﴾ وفي الآية تقوية لقلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وتهديد لأهل مكة وتحقير لأمرهم . فلقد أخبر سبحانه . أنه أهلك قرى كثيرة كل منها أشد قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم(٢٠٧) وفي الآية تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم وكانوا أشد قوة من هؤلاء . فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة(٢٠٨) وعلى الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج بعد ان رفض معسكر الإنحراف الهدى . فإن تلاميذ هذا المعسكر قاموا بوضع الإسلام في صورة المعتدي من يومه الأول . لم يتبين التلاميذ أن طلائع النهار قد تركوا وراء ظهورهم الأرض والأموال وتركوا جحافل الليل تتمتع بما تريد . ولم يفهم التلاميذ أن الله كان يمكن أن يخزي أعداء دينه ويُمكن لرسوله في مكة . ولكنه تعالى لم يفعل ذلك لأن صراطه المستقيم يقوم على أن لا اكراه في الدين . لقد رفضوا الدين وعندما أقيمت عليهم الحجة أخرج الرسول من باب الإخراج وليس من باب الخروج . لم يفهم التلاميذ ذلك لأنهم يسيرون في طريق الطمس وطريق القهقري الذي يتجه إلى الآباء وليس فيه علم يرى . بل أهواء يلوكها ذئاب الطابور الأول ثم تتلقفها كلاب الطابور الأخير .

خامساً : الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة :

١ ـ الدعوة في المدينة :

هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بعد أن أخرجه الذين كفروا من مكة بغير حق . وفي المدينة قام ببناء مسجده بعد أن آخا بين المهاجرين والأنصار بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً . فلقد قامت المؤاخاة بتذويب جميع الفوارق بين الإنسان وأخيه الإنسان . وفي المدينة بدأ النبي صلى الله عليه وآله

(٢٠٧) الميزان : ١٨/٢٣٢ .

(٢٠٨) ابن كثير : ٤/١٧٥ .

وسلم يهتم ببناء الفرد الذي هو أساس المجتمع فكان على صلة دائمة بالأفراد والقبائل يسألوه ويجيب ويبين لهم أمور دينهم . وفي عالم المدينة لم تختلف الدعوة كثيراً عنها في مكة . لأن الأسس التي وضعها الإسلام لبناء الفرد والجماعة أسس واحدة تقبلها الفطرة في كل زمان ومكان . فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم نادى في المدينة بما نادى به في مكة وحث على طاعة الله . وحفظ اللسان ومحاسبة النفس . وحث على التفكر . وحث على الصبر والقناعة والحياة وحسن الخلق والوفاء بالوعد . وحث على التواضع والتوبة والعفو . وحث على مخالفة الهوى وعلى الإقتصاد في جميع الأمور . ونهى عن الحسد وعن الكذب وعن الشماتة وعن الغرور . ونهى عن الإستحقار وعن الحرص وعن العجب وحب الجاه والزور . ونهى عن قتل النفس المحرمة وعقوق الوالدين وأكل مال اليتم ظلماً ونهى عن قذف المرأة المحصنة وقطيعة الرحم . ونهى عن السحر والإضرار بالآخرين . ونهى عن الزنا واللواط والسحاق ونهى عن السرقة وشرب الخمر وأكل الربا وأكل السحق وأكل لحم الميتة . ونهى عن البخس في المكيال وعن حبس الحقوق من غير عذر . ونهى عن ترك الصلاة المفروضة ومنع الزكاة الواجبة . ونهى عن الإضلال عن سبيل الله والحكم بغير ما أنزل الله . ونهى عن النفاق والظلم وإشاعة الفواحش . ونهى عن الغيبة والنميمة والإشتغال بالملاهي . ونهى عن الفتنة وعن التجسس على المسلمين ومحاربة المؤمنين وإيذائهم ونهى عن الرياء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دون عذر .

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقدم للنفس الدواء الشافي لها من أمراض الإنحراف وكان يرفع عن الفطرة الأحمال الغليظة التي وضعها معسكر الإنحراف من خلال ثقافته وتربيته . وبعد أن خاطب النبي كل فرد في أعماق نفسه ودعاه إلى سعادة الحياة وطيب العيش تحت مظلة التوحيد . نادى عليه الصلاة والسلام بالوحدة واعتنى بأمر الإجتماع قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾(٢٠٩) وقال : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** ﴾(٢١٠) لقد اهتم الإسلام من يومه الأول بالإجتماع . وجعله موضوعاً

---

(٢٠٩) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٢١٠) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٩ .

مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية . والإسلام في تعاليمه لا ينتج إلّا اجتماع قوي . لأنه يبدأ بتربية الأخلاق والغرائز في الفرد الذي هو أصل وجود المجتمع ونتيجة لذلك يكون المجتمع قادراً على قهر القوى الفردية المشتتة الأهواء حتى ولو اجتمعت تحت راية واحدة . والمجتمع الإسلامي الذي يقوم على القرآن وسنّة رسول الله ينطلق من قاعدته الأصيلة التي شيدت على اتباع الحق وابتغاء الأجر والجزاء من الله . أما غيره من مجتمعات فيقوم على الأهواء ولا أجر ولا جزاء عند الأهواء إلّا هباء ضائع في خلاء .

٢ ـ الصد عن سبيل الله :

لم تكف أجهزة ومؤسسات الصد عن سبيل الله عن الكيد للدعوة الإسلامية بعد الهجرة . بل قامت هذه الأجهزة باستعمال أسلحة جديدة للقضاء على دعوة الحق . منها سلاح أهل الكتاب وسلاح النفاق . ولم تكف قريش يوماً واحداً عن التحرش بأهل الإسلام من أجل جرهم إلى معركة حربية نظراً لما كانوا يعتقدون بأن المسلمين أمة جديدة لم يشتد ساعدها وعليهم ببتر هذا الساعد قبل أن يشتد ويطيح بخيام الإنحراف التي تغذي الأهواء . وأسلحة الصد التي استخدمها معسكر الإنحراف كثيرة نكتفي منها بثلاثة :

١ ـ الصد بالسلاح :

بعد الهجرة بدأت أجهزة الصد في مكة ترصد كل من قال الله ربي . فإذا أوقع في أيديهم إما أن يقتل وإما أن يخرجوه من الديار . كما بدأوا يتحرشون بأهل المدينة فتارة يقطعون طرقهم وتارة يبثون عليهم ما يفتن الناس في دينهم . وبعد أن قطع جبابرة الظلام شوطاً كبيراً في هذا المجال . أمر الله تعالى بالحرب . وقال لرسوله في آيات كريمة : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربنا الله** ﴾[٢١١] قال المفسرون : أذن ـ من جانب الله ـ للذين يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون بسبب أنهم ظلموا ـ من جانب المشركين ـ وإن الله على نصرهم لقدير . ثم بين تعالى كونهم مظلومين . وهو أنهم أخرجوا من ديارهم وقد أخرجهم المشركون من

---

(٢١١) سورة الحج ، الآيتان : ٣٩ ـ ٤٠ .

ديارهم بمكة بغير حق يجوز لهم إخراجهم . ولم يخرجوهم بحمل وتسفير . بل آذوهم وبالغوا في ايذائهم وشددوا التعذيب والتفتين . حتى اضطروهم إلى الهجرة من مكة والتغرب عن الوطن وترك الديار والأموال . فقوم إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة في هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فإخراجهم إياهم وإلجاؤهم إلى الخروج . ولقد أخرجوا بسبب أن يقولوا ربنا الله . وفي هذا إشارة إلى أن المشركين انحرفوا في فهمهم وألحدوا عن الحق . إلى حيث جعلوا قولة القائل ربنا الله . وهي كلمة الحق يبيح لهم أن يخرجوه من داره(٢١٢) .

والحرب في الإسلام غيرها تحت أي راية أخرى . ففي الإسلام الله هو الذي يأمر والله هو الذي يحدد الأهداف والله هو الذي ينصر من التزم بتعاليمه . أما الرايات الأخرى فالتاريخ يشهد أن القديم كان يحارب من أجل الأهواء والحديث يحارب من أجل الأهواء . أهواء الفرد أو القبيلة أو الحزب والجميع في خدمة أهواء بني إسرائيل الذين ينقبون في الطين عن ميراث مزعوم . والحرب في الإسلام تنطلق من قاعدة واحدة يقول تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾(٢١٣) قال المفسرون : كون القتال في سبيل الله . لأن الغرض منه إقامة الدين وإعلاء كلمة التوحيد . فهو عبادة يقصد بها وجه الله تعالى دون الإستيلاء على أموال الناس وأعراضهم . فالقتال في الإسلام دفاع يحفظ به حق الإنسانية المشروعة عند الفطرة السليمة . وقوله تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ الاعتداء هو الخروج عن الحد . والنهي عن الاعتداء ، مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتدى . كالقتال قبل ان يدعى إلى الحق . والإبتداء بالقتال . وقتل النساء والصبيان . وغير ذلك مما تبينه السنّة النبوية(٢١٤) فحروب الإسلام لا اعتداء فيها . لأن الذين يقومون بها يقومون من أجل الدفاع عن الفطرة والفطرة لا تقبل الإعتداء ولأنهم يدافعون عن الفطرة طالبهم الله تعالى بأن يعدوا لأعدائهم الذين يريدون هدم الفطرة . ما استطاعوا ليرهبوا به عدو الله الذي هو عدوهم .

---

(٢١٢) الميزان : ١٤/٣٨٤ .
(٢١٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠ .
(٢١٤) الميزان : ٢/٦١ .

قال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾(٢١٥) قال المفسرون وجه تعالى الخطاب إلى الناس . وذلك لأن الحكومة الإسلامية حكومة إنسانية . يحفظ فيها حقوق كل فرد ويراعي فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حد سواء . ولما كانت المنافع التي يهددها عدوهم هي منافع كل فرد . فعلى كل فرد أن يقوم بالذب عنها ويعد ما استطاع من قوة لحفظها من الضيعة . والإعداد وإن كان منه ما لا يقوم بأمره إلاّ الحكومات بما لها من الإستطاعة القوية والإمكانات البالغة . لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربية والتدريب بفنونها . فالتكليف تكليف الجميع . وبالجملة فان الإنفاق من أجل الإعداد فيه حفظ للمجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه وأعراضه وأمواله . والإنفاق والإعداد فيه حفظ للدين الذي به يعبد الله في أرضه . وكل فرد ينفق في سبيل الله مالاً أو جاهاً أو أي نعمة يرجع إلى نفسه نفع ما أنفقه من نماء في الدنيا والآخرة .

إن الإسلام يدافع عن البشرية ويحافظ على التوازن لأن أي إنحراف بشري هو في حقيقته إنحراف عن دوران الكون . وأي إنحراف ضد الكون يقابل إما بالطوفان وإما بالرياح وإما بالصيحة . ولله جنود السماوات والأرض . والإسلام كما طالب كل صغير وكبير بأن يُعد ما في استطاعته لدحر أعداء الكون . وضع للجميع دستوراً حربياً وفرض عليهم أن يتبعوه لأن النصر يتحقق به قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾(٢١٦) قال المفسرون : أوجب الله على المؤمنين أمور ستة . وطالبهم برعايتها في الحروب الإسلامية عند لقاء العدو وهي : الثبات . وذكر الله كثيراً . وطاعة الله ورسوله . وعدم التنازع . وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . وقال صاحب الميزان : ومجموع الأمور الستة دستوراً حربياً جامع لا يفقد من مهام الدستوران الحربية

---

(٢١٥) سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .

(٢١٦) سورة الأنفال ، الآيات : ٤٥ - ٤٧ .

شيئاً. والمتأمل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلامية الواقعة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبدر وأحد والخندق وحنين وغير ذلك يوضح أن الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين مواد هذا الدستور الإلهي وعدم رعايتها والمراقبة لها والمساهلة فيها[٢١٧] .

فأي حرب رفعت راية إسلامية ولم تلتزم في انطلاقها بقانون عدم الإعتداء ولم تأخذ بالأسباب لإعداد ما استطاعت من قوة ولم تلتزم بهذه الأمور الستة هي حرب للأهواء فيها نصيب كبير . ولا تصب نتائجها إلاّ في وعاء الفتنة والإسلام بريء من كل من ارتكب تحت لافتته الجرائم يريد بها الحياة الدنيا . وبريء من كل إتهام إتهمه به طابور الإنحراف الذي ليس عنده علم يرى . بل ظلمات بعضها فوق بعض . والإسلام كما أوضحنا لم يبدأ بقتال . فالقرآن الكريم في مكة أمر المسلمين بالكف عن القتال والصبر على كل أذى في سبيل الله سبحانه وتعالى . ثم نزلت آيات القتال بعد أن خرجت طوابير الإنحراف شاهرة أسلحتها . فمنها آيات القتال مع مشركي مكة ومن معهم[٢١٨] ومنها آيات القتال مع أهل الكتاب[٢١٩] ومنها آيات القتال مع المشركين عامة وهم غير أهل الكتاب[٢٢٠] . وآيات القتال هي آيات الدفاع عن الفطرة . فالإسلام هو دين التوحيد بناه الله تعالى على أساس الفطرة . ومن أجل هذا فهو القيم على إصلاح الإنسانية . فإقامة الإسلام والتحفظ عليه أهم حقوق الإنسانية المشروعة . لأنه وحده يمثل الدفاع عن حق الإنسانية في حياتها . فإذا كان في الشرك بالله هلاك الإنسانية وموت الفطرة . فكذلك كانت معارك الإسلام إعادة لحياة الإنسانية وإحيائها بعد الموات ولما كان الإسلام ديناً عالمياً لا بدّ أن تصل دعوته إلى بني الإنسان . ولأن العرب هم الطريق إلى العجم والعجم لا يؤمن حتى يؤمن العرب . ولأن العرب لا تؤمن حتى تؤمن قريش . كان لا بدّ من كسر شوكة قريش التي خرجت بها لتصد عن سبيل الله . والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في جميع معاركه كان

---

(٢١٧) الميزان : ٩/٩٦ .
(٢١٨) سورة الحج ، الآية : ٤٠ .
(٢١٩) سورة التوبة ، الآية : ٣٩ .
(٢٢٠) سورة التوبة ، الآية : ٣١ .

يـوصي سرايـاه وعساكـره بتقوى الله ويقـول : « اغزوا بـاسمٍ الله وفي سبيـل الله . قـاتلوا من كفـر بـالله . ولا تغـدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليـداً . وإذا لقيتم عـدوكم فادعوهم إلى إحدى ثلاث . فإن أجابوكم إلى واحدة فـاقبلوا منهم واكففوا عنهم : أدعوهم إلى الدخـول في الإسلام . فـإن فعلوا فاقبلوا منهم واكففـوا . ثم أدعوهم إلى التحول إلى دار المهاجـرين . فإن فعلوا . فـاخبروهم أن لهم مـا للمهاجـرين وعليهم ما على المهاجـرين . فإن أبـوا فادعـوهم إلى إعطاء الجـزية . فـإن فعلوا فاقبلوا منهم واكففوا عنهم . فإن أبوا فـاستعينوا بـالله وقاتلوهم » والـرسول الأكـرم صلى الله عليـه وآله وسلم لم يبـدأ معركـة قط إلّا بعد أن يقيم الحجـة . ولم يبـدأ بحرب قط من دائرة الإعتداء . وفي حربه مع قريش لم يلجأ إلى السلاح في بدايـة الأمـر وإنما رد اعتـدائهم بمحاربتهم إقتصـادياً بعـد الهجـرة . فسـد عليهم طـرق التجارة . رجاء أن يفيئـوا إلى أمر الله تعـالى . لكن قريش تمـادت في الإعتداء . فكـان في السيف دواء . كان السيف ضـرورة لا بدّ منهـا . لإفسـاح الـطريق أمـام الكلمة التي تقيم الحجة على الناس .

وعندما أهلكت الحروب المتعاقبة قريش . اضطروا إلى المعاهدة على ترك القتال . وبعد توقيع معـاهدة الحـديبية بين المسلمين وقـريش . وجد النبي صلى الله عليـه وآله وسلم مجـالاً لنشـر الـدعـوة الإسـلاميـة . فكتب إلى ملوك العـرب والعجم والأساقفة وشيوخ القبائـل يدعـوهم إلى الله سبحانـه . وبث عليه الصـلاة والسلام الدعاة في اليمن والبحرين واليمامة وبلاد غسان . وأسلم جمع من العرب والعجم خلال هذه الهدنة . بعد أن علموا أن مـا قالتـه قريش في محمـد صلى الله عليه وآله وسلم للصد عن دعوته ما هـو إلّا كذب وبهتـان وأن مرمـاه الشريـف حقن الدماء وصلة الأرحام ودعوته هي توحيد الله الواحـد القهار . وإذا كـانت قريش هم أول من رفـع السلاح للصـد عن سبيل الله فـإن اليهود بعـد الهجرة لم تكن أيـديهم بعيدة عن السلاح . فلقـد قامـوا بتوجيـه معسكر الإنحـراف نحو السـلاح وباركـوا خطواته . وروت السيـرة الشريفـة أن النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم عندمـا دخل المـدينة وأسلم أكثـر الأوس والخزرج . تقبـل اليهـود فكـرة المهـادنـة بينهم وبين المسلمين والتعاون المشترك لمصلحة الطرفين . وتعاهدوا مـع النبي وكتب السيرة تحتـوي على نصوص هـذه المعاهـدة التي وضعها النبي بينـه وبين يهـود المـدينـة وجوارها . ولكن اتجاه الإسلام وأهدافه التي تقوم على التآخي والعدالة والمساواة

وتحريم الربا والغش والإستغلال . هذا الإتجاه الذي كان من أبرز سمات الإسلام . لم يتفق مع أماني اليهود ورغباتهم ونواياهم السيئة التي كانوا يبيتونها لجميع الناس . لا سيما وقد لمسوا أن محمداً لا يُخدع ولا يستسلم لضغط من الضغوط مهما كان نوعها . ولا يمكن أن يستغل لصالح فريق على فريق . ووجدوا أن الإسلام يغزو النفوس ويسيطر على العقول ويسير في شبه الجزيرة بسرعة غير عادية بالرغم من ضراوة خصومه ومواقفهم المتصلبة في وجهه . فلم يعد لهم من سبيل حسب تقديرهم إلاّ أن يقفوا موقف الحذر الذي يستغل الفرصة للوقيعة بخصمه . . وعلى امتداد هذه المدة أسلم بعض أحبارهم وصدقوا في إسلامهم . كما تظاهر فريق منهم بالإسلام وأبطنوا الكفر والنفاق . وبدأ أكثر اليهود يستغلون المناسبات لإثارة الفتن ويسألون النبي عن أشياء بقصد تعجيزه والسخرية منه أحياناً . كما بدأوا يعملون من أجل إحداث فجوات بين المسلمين أنفسهم وانضم إلى اليهود جماعة من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وأسروا النفاق(٢٢١) وبدأ الكيد اليهودي يتسع شيئاً فشيئاً .وزجوا بنصارى نجران في ساحة الفتن فراحوا يبشرون بعقيدة المسيح الإله . وكان اليهود يطمعون في إشعال نار الحرب بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين الملوك الذين يقولون بعقيدة المسيح الإله أو المسيح ابن الإله . وعلى الرغم من أن الوحي كان يفضح سياسات اليهود . إلاّ أنهم كانوا يتمادون في طغيانهم . ونقضوا عهودهم ومواثيقهم التي أبرموها مع رسول الله واصطفوا أمام الدعوة على خندق واحد . الأمر الذي جعل السيف ضرورة لإفساح الطريق أمام الكلمة الحق التي تقيم الحجة على الناس أجمعين . وتحركت قوات الإسلام لرد الإعتداء ودكت حصون اليهود في بني قريظة وخيبر . وبني إسرائيل يعلمون أن القتال في سبيل الله إذا حدث . فهو ضرورة تحتمها الفطرة ولأنهم ضد الفطرة . كان لا بدّ من حملهم على الكف عن الصد . لأن عملهم يفتح الأبواب لضربات الكون وفناء البشر . ومن أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام . من حمل السلاح دفاعاً عن الفطرة . وكُتب بني إسرائيل تشهد بذلك . والقرآن يذكر طرفاً من هذا . يقول تعالى : ﴿ **وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير**

---

(٢٢١) سيرة المصطفى / هاشم معروف ط دار التعارف .

فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾[٢٢٢] .

لقد أزاحت طلائع الإسلام اليهود من الطريق عندما صدوا عن سبيل الله . فراح تلاميذ اليهود يصفون الإسلام بالبربرية والوحشية ويصفون دعوته بأنها من أجل الإمتلاك ! إمتلاك أي شيء يغذي الأهواء . والتقط القردة في كل مكان ما قاله تلاميذ اليهود . وراحوا يصفون سيف الفطرة بالعدوان . في الوقت الذي يشيدون فيه بسيف عزرا الذي يبحث عن أرض الميعاد . تلك الأرض التي لا وجود لها إلّا في عالم الطمس والقهقري .

٢ ـ الصد بتراث الآباء

في المدينة تاجر الإنحراف بما بين أيديه من تراث الآباء . فاليهود راحوا يدّعون أنهم أبناء إبراهيم وأن دينهم هو الدين الحق . والنصارى الذين يقولون بألوهية المسيح ادعوا أن إبراهيم معهم وفي معسكرهم النصراني والمشركين وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء . واستقروا في نهاية المطاف على قلوب اليهود وما تحتويه وبالجملة : لم تقف حملات التشكيك بعد الهجرة ففي الآيات المدنية شككوا في القرآن وفي الرسول بنفس الحجج التي نسفها لهم الوحي في مكة . والجديد في الأمر أن حججهم في المدينة كانت عليها بصمات أهل الكتاب مما يدل أن أهل الكتاب في هذه الآونة كانوا يتحركون ويبثون ثقافتهم على الأسماع بانتظام يقول تعالى : **﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم . . . ﴾**[٢٢٣] قال المفسرون : الذين لا يعلمون هم المشركون غير أهل الكتاب . ويدل عليه المقابلة التي في الآية السابقة على هذه الآية وهي قوله تعالى : **﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾** إلى قوله : **﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾** أن أهل الكتاب ألحقهم الله بقولهم بالمشركين والكفار من العرب وألحق المشركين والكفار بهم . فمن قبل إقتراح اليهود بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى عليه السلام . فهم والكفار متشابهون في أفكارهم وآرائهم يقول هؤلاء ما قاله أولئك وبالعكس . تشابهت

---

(٢٢٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٦ .

(٢٢٣) سورة البقرة ، الآية : ١١٨ .

قلوبهم[٢٢٤] .

وإذا كان المشركون قد التقطوا من اليهود أهـواء آبائهم الأوائـل وصدوا بها عن سبيل الله . فإن النصارى الذين أمسكوا بذيل بولس تاجروا أيضاً ببضاعة بولس في عهد المدينة المنورة . والجدير بالذكر أن أهل الكتاب في العهد المكي كانوا يتحركون بصورة تكاد تكون خفية . أما في أيام المدينة فلقد برزوا كعضو مؤثر في عالم الصد عن السبيل وهذا يبدو واضحاً في عدد الآيات التي كشفت حقدهم وحسدهم وعنادهم ففي المدينة فضحهم الوحي أما في مكة فكان الوحي يقص عليهم قصصهم ويبين لهم كثيراً مما اختلفوا فيه لعلهم يتوبوا إلى الله . وفي عهد المدينة خرجت من نجران قافلة ترفع لافتة المسيح الإله وسارت بهذه اللافتة على أرض التوحيد . وقص الوحي عليهم القول الحق في المسيح عليه السلام . ولكنهم أبو إلاّ أن يمسكوا بتراث الآباء الذين يتقدمهم بولس . وأمام هذا الإصرار تلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[٢٢٥] قال المفسرون : « الآيات نازلة في الإحتجاج ومتعرضه بشأن وفد نصارى نجران » . ومعنى الآية : إن مثل عيسى عند الله . أي وصفه الحاصل عنده تعالى . أي ما يعلمه الله تعالى من كيفية خلق عيسى الجاري بيده . إن كيفية خلقه يضاهي كيفية خلق آدم . وكيفية خلقه أنه جمع أجزائه من تراب ثم قال له كن فتكون تكويناً بشرياً من غير أب .

فالبيان بحسب الحقيقة منحل إلى حجتين . تفي كل واحدة منهما على وحدتها بنفي الألوهية عند المسيح عليه السلام :

إحداهما : ان عيسى مخلوق لله ـ على ما يعلمه الله ولا يضل في علمه ـ خلقه بشر وإن فقد الأب . ومن كان كذلك كان عبداً لا رباً .

وثانيهما : إن خلقته لا تزيد على خلقة آدم فلو اقتضى خلقه أن يقال بألوهيته بوجه . لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه . فوجب أن لا

---

(٢٢٤) الميزان : ١/٢٦٣ .

(٢٢٥) سورة آل عمران ، الآية : ٥٩ .

يقولوا بها في عيسى عليه السلام أيضاً لمكان المماثلة[226] .

ولم ينصت حملة التراث للحجة الدامغة . ولم يكن هناك من سبيل إلّا وضعهم أمام الموت . بمعنى أن يقف الأطراف ويتلاعنوا ليأخذ الله تعالى الظالم منهم . وعلى هذا فالذي على الحق ليس له أن يخاف لأن الردع الإلهي إذا جاء سيأخذ خصمه . وكانت المبادرة بوضع الأطراف أمام الموت مبادرة إسلامية . قال الله تعالى لرسوله : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾[227] قال المفسرون : المباهلة والملاعنة . وإن كانت في الظاهر كالمحاجة بين رسول الله وبين رجال النصارى . إلّا أنها عمت الدعوة وشملت الأبناء والنساء . ليكون ذلك أدل على إطمئنان الداعي بصدق دعواه . وأنه على الحق . فالمجيء بالأبناء والنساء فيه أن قلب الإنسان يميل إليهم ويحبهم ويشفق عليهم . ويركب الأهوال والمخاطر في سبيل حمايتهم . ولذلك قدم الأبناء على النساء لأن محبة الإنسان بالنسبة إليهم أشد وأدوم . فالمجيء بالأولاد والأحباب فيه تحدي للباطل وبأن الحق واثق من النصر . والنصارى بقبولهم هذا التحدي فإنما يضعون الحاضر والمستقبل فداء الماضي لا يعرفون عنه من كتبهم شيئاً وهم في شك مريب من أحداثه . بإختصار كان قدومهم بالأطفال والنساء من أجل الدفاع عن تراث الآباء خسارة كبيرة لهم وعندما وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدعوة للمباهلة . جاء رجال النصارى . وكان طرف المحجة عند رسول الله هو قوله : إن الله لا إله غيره وأن المسيح عيسى عبده ورسوله . أما الطرف الآخر من المحجة فكان عند النصارى وهو قولهم : إن عيسى هو الله . أو أنه ابن الله . أو أن الله ثالث ثلاثة . ولقد اتفقت الروايات وأصحاب التفاسير والتاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضر للمباهلة ولم يحضر معه إلّا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[228] . وأخرج ابن

---

(٢٢٦) الميزان : ٣/٢١٢ .

(٢٢٧) سورة آل عمران ، الآية : ٦١ .

(٢٢٨) الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي ورواه أبو نعيم في **الحلية** و**البيهقي** في الدلائل . وأورده ابن جرير في تفيسره وابن كثير (تفسير ابن كثير : ١/٣٧٠) .

جرير انه لما نزلت الآية : ﴿ **قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم** ﴾ الآية أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين . ودعا النصارى ليلاعنهم . فقال شاب منهم ويحكم أليس عهدتم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير ؟ لا تلاعنوا . فانتهوا . وفي رواية أخرى قال لهم أسقف نجران : يا معشر النصارى إني أرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها . فلا تباهلوا فتهلكوا فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك . وفي رواية قال كبيرهم : إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك . فقال النبي : وما هو ؟ قال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح . فمهما حكمت فينا فهو جائز . فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية(٢٢٩) وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران . ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير . ولاضطرم عليهم الوادي ناراً . ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر(٢٣٠) .

ثم دعا الإسلام أهل الكتاب إلى كلمة سواء . كلمة عدل يستوي فيها الإنسان صاحب الفطرة السوية وهي أن لا يعبدوا إلاّ الله ولا يشركوا به شيئاً . لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا شيء بل يفرد الجميع العبادة لله وحده لا شريك له . فإن رفض أهل الكتاب هذا فهم في طريقهم إلى عالم الطمس لا محالة . وفي حالة الرفض ينقطع بذلك خصامهم وحجاجهم . إذ لا حجة على الحق وأهله . وأخبرهم الإسلام أن تمسكهم بإبراهيم وطريقته وهم في طريق القهقري لا يدل إلاّ على الغباء لأن العقل يحكم أن الطهر والنقاء لا مكان له في عالم الرجس والشياطين يقول تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من**

(٢٢٩) الميزان : ٣/٢٣٤ .

(٢٣٠) الميزان : ٣/٢٣٢ .

المشركين ﴾[٢٣١] قال المفسرون : ومحاجتهم في إبـراهيم عليه السـلام . يضم كل طائفة إياه إلى نفسها . كأن تقول اليهود : إن إبـراهيم عليه السـلام الذي أثنى الله عليـه في كتابـه منا . فتقـول النصارى : إن إبـراهيم كان على الحق وقـد ظهر الحق بـظهور عيسى معـه . ثم تتبدل المحـاجة إلى اللجـاج والعصبيـة . فتـدعي اليهود انه كان يهودياً وتدعي النصارى انه كان نصرانيـاً . ومن المعلوم أن اليهوديـة والنصرانية إنمـا نشأتـا جميعاً بعـد نزول التـوراة والإنجيل . وقـد نزلا جميعـاً بعد إبـراهيم . فكيف يمكن أن يكون عليـه السلام يهـودياً . بمعنى المنتحـل بالـدين الذي يختص بموسى عليه السلام . أو نصرانياً بمعنى المتعبد بشريعـة عيسى عليه السلام . فلو قيل في إبراهيم شيء لوجب أن يقال : إنه كـان على الحق حنيفاً من الباطل إلى الحق مسلماً لله سبحانه .

والخلاصة : لقد تاجر الإنحراف بالطهر والنقاء . فاليهود قالوا كـان إبراهيم يهـودياً . أمـا النصارى فنصَّـرت إبـراهيم . وقـد جهلوا أن دين الله واحـد . وهـو الإسلام لله . واليهودية والنصرانية شعبتان من شعب كمال الإسلام الذي هو أصـل والأنبياء عليهم السلام بمنزلة بنـاة هذا البنيـان . لكل منهم مـوقعه فيمـا وضعه من الأسـاس ومما بنـا عليه من هـذا البنيان الـرفيع . وبـالجملة . فاليهـود والنصارى جهلوا أنه لا يلزم من كون إبراهيم مؤسساً للإسلام . وهـو الدين الأصيـل الحق ثم ظهـور دين حق باسم اليهـوديـة أو النصـرانيـة . وهـو اسم شعبـة من شعب كمـال ومراتب تمامـه . أن يكون إبـراهيم يهوديـاً ولا نصرانيـاً . بل يكـون مسلماً حنيفـاً متلبساً بإسم الإسلام . الذي أسسه وهو أصل اليهوديـة والنصرانيـة دون نفسهما . والأصل لا تنتسب إلى فرعه . بل ينبغي أن يعطف الفرع عليه[٢٣٢] .

إن المتاجرة بورقة إبراهيم عليه السلام . كان الهدف منها الـوقوف في وجـه النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أعلن من يومه الأول أنه على خطى أبيه إبـراهيم عليه السـلام . لقد رفعـوا الأوراق أمام العـامة يقـولـون فيهـا أنهم الأحق بإبراهيم . وعندئذ قام القرآن بتعريتهم . كي يعلم الخاص والعـام . أن المتاجـرة

---

(٢٣١) سورة آل عمران ، الآيات : ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢٣٢) الميزان : ٣/٣٥٢ .

بإبراهيم وبإرث إبراهيم من النيل إلى الفرات ما هو إلّا من عالم الدجل الذي يصل إليه كل من ركب طريق الطمس .

٣ ـ الصد بالمنافقين :

بعد أن تآكل معسكر الإنحراف في ميادين القتال وبعد أن حطم القرآن حجج أصحاب الأهواء وتجار التراث الذي ليس فيه من الله سلطان . لم يكن أمام معسكر الإنحراف سوى ورقة النفاق . وهذه الورقة كانت شر ورقة بل وأمضى سلاح استخدم في عالم الصد . وذلك لأن المنافق يعيش بلسانه وسط المسلمين بينما ينبض قلبه في خيمة من خيام الإنحراف التي يباركها الشيطان . فهو بلسانه دخل المساجد يصبح من المصلين له ما لهم وعليه ما عليهم . في نفس الوقت يحيط بقلبه غلالات الحقد والحسد وغلالات الأهواء المتنوعة التي تحمل بصمات سلف الإنحراف في جميع الأجيال . لقد كانت ورقة النفاق التي استعملها معسكر الصد عن سبيل الله . تحمل بذرة ملعونة أنبتت شجرة ملعونة هي من أسوأ أشجار معسكر الإنحراف لان المنافقين بملابس الإسلام قادوا أكثر من سبعين فريقاً إلى النار . بعد أن قاموا بتأويل الآيات وفقاً لأهوائهم . الأمر الذي أدى بهم في نهاية المطاف إلى اتباع سنن الذين من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . فشاركوهم الذل في الدنيا وفي الآخرة يشاركونهم . عذاب السعير يوم يكونوا في الدرك الأسفل من النار . والنفاق وإن كانت له معالم ضيقة في بداية الدعوة في مكة . إلّا أنه في المدينة اتسع وكان المنافقون يقفون مع أعداء الإسلام بصورة من الصور على الرغم من وجودهم في الخندق الإسلامي . والقرآن الكريم فضحهم في أكثر من موضع . ولأن درب النفاق طويل ويحتاج بحثاً منفصلاً فإننا سنسلط الأضواء هنا على الخطوط الرئيسية للنفاق في صدر الإسلام . تلك الخطوط التي سد عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم جميع المنافذ في حياته . وعندما تغافل عنها المسلمون بعد مماته . انطلقت للتاجر الشعار الخالي من كل شعور .

(أ) المنافقين أعدى أعداء الحق :

تكرر ذكر المنافقين في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر

والمنافقون والتحريم . وقد أوعدهم الله في كتابه أشد الوعيد . ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم . وإذهاب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار . وليس ذلك إلّا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم . فلم ينل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه . وناهيك فيهم قول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم يشير إليهم : ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾[٢٣٣] وقد ظهر آثار دسائسهم ومكائدهم أوائل ما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فورد ذكرهم في سورة البقرة . وقد نزلت ـ على ما قيل ـ على رأس ستة أشهر من الهجرة . ثم في السور الأخرى النازلة بعد بالإشارة إلى أمور من دسائسهم وفنون من مكائدهم . كانسلالهم من الجند الإسلامي يوم أحد وهم ثلثهم تقريباً . وعقدهم الحلف مع اليهود واستنهاضهم على المسلمين وبنائهم مسجد ضرار واشاعتهم حديث الإفك إلى غير ذلك مما تشير إليه الآيات القرآنية حتى بلغ أمرهم في الإفساد وتقليب الأمور على النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢٣٤] إلى حيث هددهم الله تعالى بقوله : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلّا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً** ﴾[٢٣٥] .

وأجهزة ومؤسسات النفاق عملت على خطوط الصد عن سبيل الله في كل موضع نظراً لإختفاء جنودها تحت اللافتة الإسلامية . وهذه الميزة جعلتهم يتسللون في كل مكان . والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعرف بعضهم . والبعض الآخر لا يعلمهم ولا يعلمهم إلّا الله . يقول تعالى لرسوله : ﴿ **وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم** ﴾[٢٣٦] قال المفسرون : أي من القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب

---

(٢٣٣) سورة المنافقون ، الآية : ٤ .

(٢٣٤) الميزان : ٢٨٨/١٩ .

(٢٣٥) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٦٠ ـ ٦١ .

(٢٣٦) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .

منافقون ومن أهل مدينتكم أيضاً أمثالهم أقوام منافقون ﴿ **مردوا على النفـاق** ﴾ أي مرنوا عليه ودربوا به . وقيل : مردوا على النفاق أي لجو فيه وأبو غيره . لا تعلمهم أنت يـا محمد . وهؤلاء المنـافقين الـذين وصفت لـك صفتهم نحن نعلمهم(٢٣٧) فهذا الفريق الذي مرن على النفـاق ودرب به ومـارسه.حتى اعتـاده . منه من أجـاد التسلل بين الأحـداث طمعاً في الـرئاسـة والإمارة والعـودة بروح القبيلة التي قضى عليها الإسلام بعـد أن أرسى قاعـدة إن أكرم النـاس عند الله أتقـاهم وهذا الصنف الـذي وضع الإمـارة أمام عينيـه شق طريقـه بالـركوبـة التي تنظم لـه الوصـول إلى هدفه . ومن المنافقين أيضاً من ارتد كما في قوله تعـالى : ﴿ **ذلك بـأنهم آمنوا ثم كفـروا فطبـع على قلوبهم فهم لا يفقهـون** ﴾(٢٣٨) . وكتم الارتـداد لا يحمـل إلاّ السوء للأمة والمتدبر في حوادث آخـر عهد النبي صلى الله عليـه وآله وسلم والفتن الواقعة بعد رحلته يجد صوراً عديدة تبـدو فيها مـلامح أولئـك الذين دربـوا ومرنـوا على النفاق .

وطـابور الإنحـراف الذي يحمـل اسم النفاق ويعمـل على خطوط الصـد له هيئته وهيبته بين الناس . فالفريق وإن كان بينـه الأخساء وأولاد الـزنا إلاّ انـه يجمع بين دفتيه الأشراف وأصحاب الصوت المسمـوع والكعب العالي . يقـول تعالى : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبـك أجسامهم وإن يقـولوا تسمـع لقولهم كـأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾(٢٣٩) قال المفسرون : المراد أنهم على صباحة من المنظر وتناسب من الأعضـاء . إذا رآهم الرائي أعجبته أجسامهم وفصاحة وبلاغة من القول إذا سمـع السامـع كلامهم مـال إلى الإصغاء إلى قولهم لحـلاوة ظاهـره وحسن نظمـه . وقولـه : ﴿ **كأنهم خشب مسندة** ﴾ ذم لهم . والمراد أن لهم أجسـاماً حسنـة معجبة وقـولاً رائعاً ذا حـلاوة . لكنهم كالخشب المسندة . أشباح بلا أرواح لا خير فيها ولا فائدة تعتـريها لكـونهم لا يفقهـون . وقولـه : ﴿ **يحسبون كـل صيحـة عليهم** ﴾ ذم آخـر لهم . أي أنهم لإبطانهم الكفر وكتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشـون على خوف ووجـل ووحشة .

---

(٢٣٧) ابن جرير في تفسيره : ٨/١١ .

(٢٣٨) سورة المنافقون ، الآية : ٣ .

(٢٣٩) سورة المنافقون ، الآية : ٤ .

يخافون ظهور أمرهم واطلاع الناس على باطنهم . ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وأنهم المقصودون بها وقوله : ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾ أي هم كاملون في العداوة . بالغون فيها . فإن أعدى أعداءك . من يعاديك وأنت تحسبه صديقك(٢٤٠) .

فالفريق الإنحرافي لهم مواهب عديدة دربوا عليها ولم يستعملوها إلّا في مواضعها . وما كانوا يحذروا إلّا أن ينزل الله فيهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . ورغم حذرهم هذا إلّا أن البعض منهم أقدم على أعمال من أجل عرقلة المسيرة . واضعين في اعتبارهم أن اكتشاف حقيقتهم يذوب أثره بمجرد أن يحلفوا بالله انهم ما فعلوا أو إنهم فعلوا هذا من باب اللهو . ولقد كشفت آيات القرآن الكريم خطة المنافقين في إستغلال القسم بالله للتمويه على جرائمهم في أكثر من سورة من سور القرآن منها قوله تعالى : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون** ﴾(٢٤١) قال المفسرون : ويحلفون بالله لكم أيها المؤمنون كذبا وباطلاً خوفاً منكم إنهم لمنكم في الدين والملة . وما هم منكم . أي ليسوا من أهل دينكم وملتكم . بل هم أهل شك ونفاق يخافونكم يقولون بألسنتهم إنا منكم ليأمنوا فيكم فلا يقتلون(٢٤٢) وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾(٢٤٣) .

فتحت دثار القسم هذا أرادوا لجرائمهم في حق الفطرة أن تعبر . ولكن الوحي كان لهم بالمرصاد فكشف الجرائم وجعلهم عبرة يعتبر بها من أخذ بذيل آباء النفاق أولئك الذين تاجروا بآيات الله وبالمساجد وبكل شعار للإسلام بعد أن فرغوه من كل شعور وروح .

(ب) من جرائم المنافقين :

جرائم معسكر النفاق الذي تلحف بلحاف المسلمين لا تصب نتائجها إلى

---

(٢٤٠) الميزان : ١٩/٢٨١ .
(٢٤١) سورة التوبة ، الآية : ٥٦ .
(٢٤٢) ابن جرير في التفسير : ١٠/١٠٧ .
(٢٤٣) سورة التوبة ، الآية : ٩٦ .

في صالح الذين كفروا بالإسلام ورسالته وذلك لأن المنافقين تربطهم بالذين كفروا أخوة الصد عن سبيل الله . وهذه الأخوة سجلها كتاب الله في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم . . .** ﴾[٢٤٤] لقد وضعهم الله تعالى في كتابه في خرمة واحدة مع الذين كفروا لأن أهدافهم واحدة . ولأن جرائم المنافقون في حق الفطرة عديدة فإننا نكتفي . بإلقاء الضوء على ما نرى انه يفي بالغرض . وأول هذه الجرائم محاولة طابور النفاق إغتيال الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولقد أفاضت كتب التفسير في وصف هذا الحدث . وقال بعض المفسرين في تفسير سورة التوبة أن إثني عشر رجلاً[٢٤٥] وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من تبوك . فأخبر جبرائيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك . وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم . وعمار بن ياسر كان يقود دابة رسول الله . وحذيفة يسوقها . فقال لحذيفة : أضرب وجوه رواحلهم . فضربها حتى نحاهم . فلما نزل . قال رسول الله لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً . فقال رسول الله (ص) : إنه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم فنقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم .

وفي رواية « . . . وأمر رسول الله حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه . وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة وحذيفة يسوقها . فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوهم . فغضب رسول الله . وأمر حذيفة أن يراهم ويتعرف عليهم . فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها بالمحجن . وأبصر القوم وهم متلثمون فأرعبوا حين أبصروا حذيفة . وظنوا أن مكرهم قد ظهر فأسرعوا حتى خالطوا الناس . وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله . فلما أدركه قال : أضرب الناقة يا حذيفة وامش أنت يا عمار . فأسرعوا وخرجوا من العقدة ينتظرون الناس . فقال النبي : يا حذيفة : هل عرفت

---

(٢٤٤) سورة الحشر ، الآية : ١١ .

(٢٤٥) وفي رواية خمسة عشر رجلاً .

أحد منهم ؟ فقال : عرفت راحلة فلان وفلان . وكانت ظلمة الليل قد غشيتهم وهم متلثمون . فقال رسول الله : هل عرفت ما شأنهم وما يريدون ؟ قال : لا يا رسول الله قال : فإنهم فكروا أن يسيروا معي حتى إذا صرت في العقبة طرحوني فيها . فقال : أهلا ترأف بهم إذا جاءك الناس ؟ قال : أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمداً قتل أصحابه ثم سماهم بأسمائهم .

ومن المعلوم من سير الحوادث . أن المسألة إذا كانت تتعلق بكبار الصحابة . فلا ترد أسماؤهم صريحة فيها . ويأتي التعبير عنهم بفلان وفلان . وكل مورد من هذا القبيل فهو يعني جماعة يخاف الراوي من التصريح بأسمائهم . أما إذا لم يكن الحادث مع الكبار من الصحابة . فيأتي الاسم صريحاً كما يبدو ذلك للمتتبع وسيأتي أمثلة ذلك فيما بعد وقصة المؤامرة مروية في كتب التفسير بالمأثور وجوامع الحديث وذكرها اليعقوبي في تاريخه بصورة مجملة وقال إن حذيفة كان يقول أنه يعرفهم بأسمائهم[٢٤٦] وروي أن ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب . وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد أن عمار قال في الفريق الذي أراد اغتيال رسول الله : « أشهد أن الاثني عشر الباقين منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا »[٢٤٧] .

إن طابور النفاق الذي أعد خطة اغتيال رسول الله لم يكن ليقدم على مثل هذه الخطوة إلّا بعد أن تأكد أن بين صفوفه العديد من الذين إذا قالوا استمع الناس لأقوالهم وإذا رآهم الناس أعجبتهم أجسامهم . فلو لم يكن الطابور على ثقة في كوادره وانهم يتمتعون باللسان الطليق وبمقدره على احتواء ما سيترتب عليه الحدث ما أقدموا على ذلك وخلاصة القول . لقد تحركوا لتنفيذ الجريمة من باب عدم الإيمان بالله والإستهزاء بآياته وانطلقوا في طريق الإنحراف من أجل سد أبواب الطهارة عن الفطرة . ولكن الله تعالى ردهم ولم ينالوا شيئاً . ووراء الجدران بدأوا يرتجفون خوفاً من ان ينزل الله فيهم سورة تخبر المؤمنين بهم . وأعدوا لهذا سيلاً من الأعذار طمعاً في النجاة . ووراء الجدر عاشوا حياة الظلام

---

(٢٤٦) سيرة المصطفى / هاشم معروف : ٦٣٣ .
(٢٤٧) مجمع الزوائد : ٦/١٩٥ .

وإن كانوا تحت الشمس وحياة الخوف وإن كانوا بين الجند .

أمـا الجريمـة الثانيـة التي نلقي عليها الضـوء . فهي جريمـة بناء المسجـد الضرار . لقد أراد طـابور الإنحـراف أن يشق الدعـوة برمـوز الدعـوة . ففي عصر الرسالة لم يكن في استطاعة هذا المعسكر سوى أن يقيم بنياناً تقام فيه الصلاة وتبث منه ثقافة تمهد لمجـيء الروم . يقول تعالى : ﴿ **والذين اتخـذوا مسجداً ضـراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسولـه من قبل وليحلفن إن أردنـا إلاّ الحسنى والله يشهد إنهم لكـاذبون** ﴾[٢٤٨] قـال المفسرون : إن البـاعث لهم على هذا العمل . كان أموراً أربعة :

الأول : الضرار وهو المضارة أي إيصال الضرر .

والثاني : الكفر بالإسلام وذلك أنهم أرادوا تقوية أهل النفاق .

والثـالث : التفريق بين المؤمنين . لأنهم أرادوا أن لا يحضـروا في مسجـد قباء . فتقل جماعتهم . ولا سيما إذا صلى النبي في مسجـدهم . فيؤدي ذلك إلى إختلاف الكلمة وبطلان الالفة .

والرابع : قوله : ﴿ **وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله** ﴾[٢٤٩] .

هذه أعمدة مسجد طابور الإنحراف . أعمدة هدفهـا الصد عن سبيـل الله . وبداية هذه العمل كما اتفق عليه أهل النقل : إن جماعة من بني عمرو بن عوف . بنوا مسجد قبا . وسألوا النبي ان يصلي فيه . فصلى فيه فحسدهم جمـاعة من بني غنم بن عـوف . وهم منافقـون . فبنوا مسجـداً إلى جنب مسجـد قبـا ليضـروا بـه ويفرقوا المؤمنين منه وينتظروا أبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الـروم ليخرجـوا النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم من المدينـة وأمرهم أن يستعـدوا للقتال معهم ، ولما بنوا المسجد أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتجهز إلى تبوك . وسألوه أن يأتيه ويصلي فيه . ويدعو لهم بالبركة . فوعـدهم إلى الفراغ من أمر تبوك والرجوع إلى المدينة . فلمـا رجع النبي من تبـوك نزلت الآيـات . وروي

---

(٢٤٨) سورة التوبة ، الآية : ١٠٧ .

(٢٤٩) ابن جرير في التفسير : ١٧/١٢ .

أن أحد المنافقين وهو أبو عامر الراهب قد أمرهم ببناء هـذا المسجد . وقـد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح . فلما دخل النبي المدينـة كان يشـاغب عليه . وبعـد أن فتح النبي مكة إلتجأ أبو عامر إلى الطائف . ولما أسلم أهل الطائف التحق ببلاد الشـام وتنصـر . وقـد أرسـل إلى المنـافقين أن يتمـوا بنـاء المسجـد ويجـدوا في أمرهم . ووعدهم بأنه سيذهب إلى قيصر . ويحرضه على إرسـال جيش قوي إلى المـدينة للقضـاء على محمد ومن معـه من المسلمين . فكان المنـافقون يتـوقعون ذلـك . ولكنه هلك قبـل أن يتصل بملك الـروم . ولما نـزل الـوحي على النبي . وقص عليه حديث هـذا المسجد أمـر النبي بإحـراقه.وأن يتخـذوه مكانـاً للأوسـاخ والنفايات .

لقد تظاهروا بالدين وتاجروا بالشعـارات وبناء المسـاجد . لأغـراض تخدم أعداء الدين . ويتخذون منها منطلقاً للمؤامـرة على الإسلام والمسلمين . فجهـاز النفاق كان يعد العدة لإغتيال الرسـول وهو في طـريق العودة من تبـوك . وفي نفس الوقت كان مسجدهم الضرار له مهمة أخرى في حال نجـاة الرسـول من القتل على طـريق تبوك . لكنهم لم يـربحوا هنـا أو هنـاك . وفضحتهم بصمـاتهم هنـاك على صفحات التاريخ وفضحهم مسجدهم هنا حيث أصبح محلاً للأوساخ والنفايات . وفضح الله امتدادهم على مـر الزمـان . كما فضـح الذين اتخـذوا العجل من بعـد موسى عليه السلام . فالذين اتخذوا العجـل قال فيهم سبحـانه : ﴿ **وأشـربوا في قلوبهم العجل بكفرهم** ﴾(٢٥٠) قال المفسرون : الإشـراب هو السقي . والمـراد بالعجل . حب العجل . وضع للمبالغة كـأنهم قد أشـربوا نفس العجـل(٢٥١) لقد أشربوا العَجل وناولوا كأسه لمن اتخذهم قدوة أو وقع هـواه على هواهم أمـا الذين اتخذوا المسجد الضرار ففيهم يقول تعالى : ﴿ **لا يزال بنيانهم الذي بنـوا ريبة في قلوبهم إلاّ أن تقـطع قلوبهم والله عليم حكيم** ﴾(٢٥٢) قال المفسـرون : أي شكـاً ونفـاقاً بسبب إقـدامهم على هذا الصنيـع الشنيع . أورثهم نفـاقـاً في قلوبهم كمـا

---

(٢٥٠) سورة البقرة ، الآية : ٩٣ .

(٢٥١) الميزان : ١/١٢٣ .

(٢٥٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٠ .

أشرب عابدوا العجل حبه[٢٥٣] لقد أتموا البناء وحلفوا بالله ما أرادوا ببنائهم إلّا خيراً ورفقاً بالناس والله يشهد انهم لكاذبون فيما قصدوا وفيما نووا[٢٥٤] لهذا جعلهم الله عبرة لمن أراد الإعتبار ولكي يتدبر في أحداثهم أولئك الذين يقيمون المساجد لأغراض لا تمت إلى الدين **بصلة** من الصلات . وليعلموا ان البناء الذي يفرق بين المسلمين ويدس على الإسلام ما ليس منه ويستند على أكتاف أعداء الله . هو في حقيقة الأمر إمتداد للبناء الأول والقائمون عليه شربوا من إناء سلفهم الأول وإن لم يروهم .

ومن جرائمهم أيضاً في صدر الإسلام تثاقلهم عن الجهاد وانسحابهم من المعركة بلا سبب . وعند حركتهم أثناء القتال قال تعالى : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** ﴾[٢٥٥] قال المفسرون : الخبال : هو الفساد واضطراب الرأي . والإيضاع : الإسراع في الشر والخلال : البين . والبغي : هو الطلب . فمعنى يبغونكم الفتنة : أي يطلبون لكم أو فيكم الفتنة . والفتنة هي المحنة واختلاف الكلمة . وقوله تعالى : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ أي فيكم مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم . . وقيل : فيكم سماعون لهم : أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم[٢٥٦] .

فخط الصد الذي يحمل إسم النفاق يعمل من أجل اختلاف الكلمة في أشد الأوقات ولقد عمل من أجل تفرق الجماعة في غزوة أحد حين رجع عبدالله بن أبي سلول بثلث القوم وخذل النبي . وتثاقلوا بعد ذلك في أكثر من غزوة وأرادوا بهذا الخذلان أن تأكل الحرب المسلمين ولم يكتف معسكر النفاق بإنسحابه من المعارك بل استعان بخط ثان يتجسس لحسابه ويدعو إلى الخلاف والخذلان عن الجهاد . وعلى الرغم من اختراق النفاق لأكثر من ساحة . إلّا أن الله رد كيدهم

---

(٢٥٣) ابن كثير في التفسير : ٢/٣٩١ .
(٢٥٤) ابن كثير في التفسير : ٢/٣٨٨ .
(٢٥٥) سورة التوبة ، الآية : ٤٧ .
(٢٥٦) ابن كثير في التفسير : ٢/٣٦١ .

فلم يلحقوا بالدعوة في عهد النبوة أي ضرر . ولم يستطيعوا النيل من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغم محاولاتهم العديدة للقضاء عليه . لم يستطيعوا هم أو غيرهم . لأن الله تعالى عصم رسوله منهم قال سبحانه : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾(٢٥٧) وتحدى سبحانه الناس أن يكيدوا لرسول الله وأن يضروه إن استطاعوا ولن يستطيعوا فقال جل شأنه : ﴿ **قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون** ﴾(٢٥٨) .

لقد كانت عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حجة بذاتها على أجهزة الكيد التي تخدم خطوط الإنحراف . فشلهم في كل مرة كان في حقيقة الأمر دعوة للتوبة والإيمان بالرسالة . ولكن أهل التذبذب والنفاق لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وتمادوا في طغيانهم ومكائدهم وسبحوا في الإتجاه المضاد لحركة الفطرة والكون . وهذه السباحة وهذا التغول في الظلام جعلهم غرضاً لضربات الكون . وهذه الضربات كانت أيضاً دعوة لهم كي يؤمنوا الإيمان الحق لكنهم لم يصححوا مسارهم نحو الإتجاه الصحيح يقول تعالى : ﴿ **أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون** ﴾(٢٥٩) قال المفسرون : اختلف أهل التأويل في معنى الفتنة التي ذكر الله في هذا الموضع . فقال بعضهم : ذلك اختبار الله إياهم بالقحط والشدة . وقال آخرون : بالسنة والجوع(٢٦٠) ومعنى الآية : أي ما لهم لا يتفكرون ولا يعتبرون . وهم يرون أنهم يبتلون ويمتحنون كل عام مرة أو مرتين . فيعصون الله ولا يخرجون من عهدة المحنة الإلهية وهم لا يتوبون ولا يتذكرون . ولو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب أمرهم . وأيقنوا أن الإستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم إلى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبد(٢٦١) .

وطابور النفاق الذي خرج من معسكر الإنحراف ليسير بين المسلمين .

---

(٢٥٧) سورة المائدة ، الآية : ٦٧ .

(٢٥٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٥ .

(٢٥٩) سورة التوبة ، الآية : ١٢٦ .

(٢٦٠) ابن جرير : ١١/٥٤ .

(٢٦١) الميزان : ٩/٤١٠ .

جاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفقاً لحركة الدعوة . فهو عليه الصلاة والسلام كان يخشى أن يخرج معسكر الكفر بلافتات تقول بأن محمد يقتل أصحابه . فهذا القول في حد ذاته لن يكون بحال في صالح الدعوة وعلى الأخص في صدرها الأول . فالرسول جاهدهم وفقاً لأمر الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾(٢٦٢) وقال المفسرون : المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم . فإن إقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا وإن اقتضت وعظوا باللسان وإن إقتضت أخرجوا وشردوا إلى غير الأرض(٢٦٣) .

والخلاصة : أن معسكر النفاق كان من أكبر الأخطار على الدعوة وعلى الفطرة الإنسانية . وتوعدهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا وبالدرك الأسفل من النار في الآخرة . وهذا المعسكر سيكون لأبنائه الذين ساروا على طريقه وراء راية المسيح الدجال . الذي أخبرت الأحاديث الشريفة بظهوره آخر الزمان . وتحت قيادة الدجال سيتجرعون الذل تحت ضربات عذاب الاستئصال . لأنهم في الحقيقة تلاميذ الشيطان الذين يضعون العراقيل على الصراط المستقيم .

سادساً : عذاب في بطن الغيب :

في عهد الرسالة الخاتمة عمل طابور النفاق في الخفاء . وتوارى أهل الكفر وراء الجدر في إنتظار الوقت المناسب الذي ينقضون فيه على طلائع النهار . وعلى الرغم من ذلك لم يضربهم الله بالطوفان أو بالريح العقيم أو بالصيحة . كما ضرب سبحانه الأمم السابقة من قبل . وذلك لأن القافلة البشرية لها أجل . وهذا الأجل لا ينتهي بإنتهاء حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . فرسول الله قام بتبليغ الرسالة عن ربه . وهذه الرسالة صالحة لقيادة القافلة البشرية حتى قيام الساعة . ومعنى أن العذاب لم يضرب جحافل الكفر ضربة الإستئصال في حياة الرسول . ان هذا العذاب مدخر في بطن الغيب . وله صورته وموعده ولا يعلمهما

---

(٢٦٢) سورة التوبة ، الآية : ٧٣ .

(٢٦٣) ابن جرير : ١٠/١٢٦ ، الميزان : ٦/٣٣٩ .

إلّا الله تعالى . وآيات القرآن الكريم تصرح في أكثر من موضع بهذا العذاب الذي يحمله المستقبل . وذلك لعلم الله تعالى بما ستقترفه الأمة من آثام بعد تبليغ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الدعوة . فالأمة التي إنحرفت عن كتاب الله واتبعت أبناء الطمس شبراً بشبر وذراعاً بذراع لا بد وأن يطول عذاب المنحرفين منهم قبل يوم القيامة ليكون لهم ذل في الدنيا . قال تعالى : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم** ﴾(٢٦٤) قال ابن كثير في التفسير : قال الحسن : عذاب في الدنيا وعذاب في القبر . . وقال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر . ثم يردون إلى عذاب عظيم . وذكر أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم . أسر إلى حذيفة بإثني عشر رجلاً من المنافقين فقال : ستة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم . يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدرة وستة يموتون موتاً(٢٦٥) . والعذاب المدخر في بطن الغيب ورد أيضاً في قوله تعالى : ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون** ﴾(٢٦٦) قال المفسرون : أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت(٢٦٧) وقيل : أي لا محالة سيقع بهم العذاب .

والدليل على أن عذاب الإستئصال مؤجل أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في آية من الآيات المدنية أن يصبر ولا يستعجل لهم . قال تعالى : ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾(٢٦٨) قال المفسرون : لا تستعجل لهم حلول العقوبة . كقوله تعالى : ﴿ **ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلاً** ﴾(٢٦٩) وقال تعالى لرسوله أيضاً في آية مدنية أخرى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما**

---

(٢٦٤) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .
(٢٦٥) تفسير ابن كثير : ٢/٣٨٥ .
(٢٦٦) سورة الزخرف ، الآية : ٤١ .
(٢٦٧) ابن كثير : ٤/١٢٨ وتفسير البغوي : ٧/٣٩٩ .
(٢٦٨) سورة الأحقاف ، الآية : ٣٥ .
(٢٦٩) تفسير ابن كثير : ٤/١٧٢ .

تعدون ﴾(٢٧٠) قال المفسرون : ان الله لا يعجل . فإن مقدار ألف سنة عند خلقه . كيوم واحد عنده . فالله تعالى لا يخاف الفوت حتى يعجل لهم بالعذاب . بل هو سبحانه حليم . يمهلهم حتى يستكملوا دركات شقائهم . ثم يأخذهم فيما قدر لهم من الأجل . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . . . من هذا يبدو أن المد والإمهال قد فتح بابه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحتى الوقت المعلوم وإذا كان طابور الكفر والنفاق قد استعجل العذاب بعد هجرة النبي فإنه قبل الهجرة قد إستعجل العذاب ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدعو عليهم بالإستئصال لعلمه من ربه جل وعلا أن لكل أمة أجل . ومن الآيات المكية التي سجلت عليهم استعجالهم للعذاب قوله تعالى : ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت إن متعناهم سنين** ﴾(٢٧١) قال المفسرون : أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر . وحيناً من الزمان وإن طال . ثم جاءهم أمر الله . أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم(٢٧٢) .

فهذه الآيات وأيضاً الأحاديث الشريفة التي أخبر فيها النبي عن ربه بما هو كائن إلى يوم القيامة . وما سترتكبه بعض فصائل الأمة من منكرات تقود إلى ملك عضوض وجبرية تنتج غثاء لا قيمة له يتبع سنن الذين من قبله شبراً بشبر وذراعاً بذراع ويهرول من ورائهم على إمتداد طريق الطمس هرولة الخادم المطيع . فهذا الإخبار بالغيب والذي ورد في أحاديث صحيحة يستقيم مع قول المفسرين بأن العذاب مدخر في بطن الزمان . ولا قيمة للرأي القائل بأن العذاب قد رفع عن هذه الأمة إكراماً لها . وهل الذين يهرولون وراء سنن الذين من قبلهم ولا يعرفون من الإسلام إلاّ إسمه ومن القرآن إلاّ رسمه . لهم كرامة عند الله . ما لهم كيف يحكمون ؟ هل للذين فرقوا دينهم وركبوا أعناق الأمة بإسم الإسلام كرامة عند الله ؟ كيف وقد برىء الله ورسوله منهم ! إن الذين قالوا برفع العذاب ما أرادوا إلاّ تأصيل الشذوذ والإنحراف . ولقد قطعوا بمقولتهم هذه شوطاً كبيراً في عالم تغييب

---

(٢٧٠) سورة الحج ، الآية : ٤٧ .

(٢٧١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٢٧٢) تفسير ابن كثير : ٣/٣٤٨ .

العقل وتوثين الوجدان وفقاً لأطروحة الأماني الشيطانية . إن للإسلام شريعة وهذه الشريعة لا تجامل أحداً فمن أخذ بها نجا ومن تركها وراء ظهره ضربه الذل في الدنيا وفي الآخرة عذاب أليم . أما كرامة من أخذ بذيول فقهاء الدجل وآباء الإنحراف فلا وجود لها في الإسلام ولقد أخبر الله تعالى بأن الأخير الذي استمتع بما إستمتع به رأس الإنحراف الأول وخاصة فيما خاض فيه أصحاب خيام الإنحراف والشذوذ . فهذا الأخير لا محالة سينال العقاب كما ناله الأوائل . ومن هذه الآيات قول الله تعالى : ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم * كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون * ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾(٢٧٣) قال المفسرون : ومعنى الآية والله أعلم : أنتم كالذين من قبلكم . كانت لهم قوة وأموال وأولاد بل أشد وأكثر في ذلك منكم . فاستمتعوا بنصيبهم . وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما استمتعوا . وخضتم كما خاضوا . أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك هم الخاسرون . وأنتم أيضاً أمثالهم في الحبط والخسران . ولذا وعدكم النار الخالدة ولعنكم . ثم ذكر سبحانه بما قص عليهم القرآن من قصص الأمم الماضين . فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق وعاد قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية . وثمود قوم صالح عذبهم بالرجفة . وقوم إبراهيم أهلك ملكهم وسلب عنهم النعمة . والمؤتفكات وهي قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها . فهذه الأقوام أتتهم رسلهم بالآيات البينة فكذبوها فانتهى أمرهم إلى الهلاك . ولم يكن من شأن السنّة الإلٰهية أن يظلمهم . لأنه بين لهم الحق والباطل . وميز الرشد من الغي والهدى من الضلال ولكن كان أولئك الأقوام والأمم أنفسهم يظلمون بالإستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في

(٢٧٣) سورة التوبة ، الآيات : ٦٨ - ٧٠ .

آيات الله[٢٧٤] وقال ابن جرير في تفسير الآية : اخبرهم يا محمد أن يحذروا أن يحل بهم عقوبة الله مثل الذي حل بالذين من قبلهم . . وقد سلك المنافقون سبيلهم في الإستمتاع بخلاقهم كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلهم وخاضوا كخوض تلك الأمم . . وذكر ابن جرير عن الربيع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ في هذه الآية ـ « حذركم » ـ الله ـ أن تحدثوا في الإسلام حدثاً . وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة . فقال تعالى في ذلك : ﴿ **فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم** ﴾ الآية . وإنما حسبوا أن لا يقع بهم من الفتنة ما وقع ببني إسرائيل قبلهم . وأن الفتن عائدة كما بدأت » وذكر ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لتأخذن كما أخذ الامم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو أن أحد من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه » قال أبو هريرة : إقرأوا إن شئتم القرآن ، ﴿**كالذين من قبلكم** ـ إلى قوله تعالى ـ **فاستمتعتم بخلاقكم** . . ﴾الآية[٢٧٥] وذكر ابن كثير عن ابن عباس أنه قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿**كالذين من قبلكم**﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم . والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه[٢٧٦] .

والخلاصة : إن العذاب قادم ولن ينجو منه إلّا من سار على الصراط المستقيم . وبني إسرائيل الذين قتلوا الأنبياء لم يضربهم عذاب الإستئصال بعد . ولكن لهم يوم سيصيبهم فيه هذا العذاب . ولن يكونوا وحدهم في هذا اليوم وإنما سيكون معهم الذين اتبعوهم وساروا على طريقتهم وشربوا معهم من أوعية الطمس التي ينبع ماؤها من نهر مخالف لنهر الفطرة . وأبناء الطمس وأتباعهم سينتظموا جميعاً في جيش واحد هو جيش المسيح الدجال الذي سيهلكه الله بأيدي طلائع النهار في آخر الزمان . ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون * فأعرض عنهم وانتظر إنهم**

(٢٧٤) الميزان : ٩/٣٣٧ .

(٢٧٥) ابن جرير في تفسيره : ١٠/١٢٢ .

(٢٧٦) ابن كثير في تفسيره : ٢/٣٦٨ .

منتظرون ﴾[٢٧٧] ولقد أجمع المفسرون على أن يوم الفتح في هذه الآية لم يحدث في الماضي وإنما هو في بطن الغيب[٢٧٨] .

سابعاً : الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مكة :

ظل معسكر الإنحراف يكيد للدعوة بكل قواه . ولم يعرقل كيدهم سير الدعوة . بل ظلت تفيض عليهم بالحجج التي تدعو إلى الإيمان . كانت الدعوة في جميع مراحلها تحمل كلمة الإخلاص وتعلن أن دين الله لا إكراه فيه . فمن رضي بالإسلام ديناً فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن رفض هذا الدين وأغلق عليه بابه ولم يصد عن سبيل الله فبينه وبين سيوف الإسلام حاجزاً . فإن تعدى هذا الحاجز فلا يلومن إلاّ نفسه . لم تكن الدعوة في أي يوم من أيامها تحمل أحقاداً ولقد سجل التاريخ أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عفا يوم فتح مكة عن أصحاب الجرائم الكبيرة في حق الإسلام والمسلمين ومن هؤلاء أبو سفيان بن حرب الذي قاد العديد من المعارك ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ومنهم زوجته هند بنت عتبة التي شاركت يوم أحد في قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ولم تكتف بقتله وانما أكلت كبده . ومنهم وحشي قاتل حمزة جاء إلى النبي يطلب الأمان فأجابه لذلك . وروي أنه لم ينظر إلى وجهه . ومنهم كعب بن زهير وكان شاعراً يهجو النبي وعند فتح مكة خرج هارباً منها . وأخيراً عفا عنه النبي . وغير هؤلاء الكثير . وروي أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لقريش يوم فتح مكة : « يا معشر قريش إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس لآدم وآدم من تراب . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[٢٧٩] ووجه حديثه إلى المكيين وسألهم : ماذا ترون أني فاعل بكم وما تظنون ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت وأصبح أمرنا بيدك . فقال إني أقول لكم ما قاله أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

---

(٢٧٧) سورة السجدة ، الآيات : ٢٨ ـ ٣٠ .

(٢٧٨) راجع كتابنا المسيح الدجال قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى .

(٢٧٩) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

الراحمين . إذهبوا فأنتم الطلقاء . .

قال لهم إذهبوا فأنتم الطلقاء على الرغم من أنهم لم يدخلوا في الإسلام . ولقد قال لهم هذا ليجعلهم أحراراً في قبول العقيدة . وبعد هذا القول اطمأن المكيون على مصيرهم . فمنهم من أسلم وأخلص في إسلامه . ومنهم من وجد أن حياته لن تكون إلّا بمهادنة الدعوة التي أقامت حجتها بالكلمة والسلاح . وجاء في شرح النهج عن الواقدي . أن العباس بن عبد المطلب قال لأبي سفيان عند دخول النبي إلى مكة « إذهب فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم رسول الله . فخرج أبو سفيان مسرعاً حتى دخل من كداء وهو ينادي : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . حتى انتهى إلى زوجته هند بنت عتبة . فقالت : ما وراءك يا أبا سفيان ؟ قال : هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد . وقد جعل لي أنه من دخل داري فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن . فقالت : قبحك الله من رسول قوم . وجعلت تقول . ويحكم أقتلوا وافداكم قبحه الله من وافد قوم . وأبو سفيان يقول : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم . فإني رأيت من الرجال والكراع والسلاح ما ليس لأحد به طاقة . إن محمداً في عشرة آلاف مقاتل أسلموا تسلموا . وجاء في رواية المبرد في الكامل : ان هند أمسكت رأسه وقالت لهم أقتلوه . وذكر البعض أن كبار المنافقين كانوا وقتئذ في دار أبي سفيان . وقول النبي من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . كان ليعرفهم .

والخلاصة : فتحت طلائع النهار مكة ولم تسل فيها دماً على الرغم من أنهار الدماء التي تسببت فيها قريش بعد هجرة النبي وكان فتح مكة مثلاً في الرحمة والعفو والترفع عن الحقد والإنتقام . مثلاً شاخصاً أمام العالم كله وأمام الأجيال في كل عصر وزمان وكان هذا العفو وهذه الرحمة دليلاً على خسة النفاق وأهله . ودعوة إلى طابور النفاق الذي دخل الإسلام خوفاً أو طمعاً . كي يصححوا نفوسهم بوضعها على الطريق الصحيح بعد أن شاهدوا وعلموا أن الإسلام لا يزرع خوفاً وإنما يزرع حرية . وفي مجال هذه الحرية يختار الإنسان عقيدته على أن يمارسها بشروط الإسلام . لأن الإسلام دين الفطرة . ولا يسمح بثقافة تسير في طرقاته تبشر بغير ثقافة الفطرة . كان العفو والترفع عن الحقد والإنتقام يوم فتح مكة دعوة

إلى طابور النفاق كي يتعامل مع الدنيا على اعتبار أنها قنطرة إلى الآخرة . وعلى هذا لا بدّ لمن يأكل أن يأكل بشرف ولمن يأخذ أن يأخذ بشرف . ولكن طابور النفاق في مجمله لم يتذوق هذه المعاني السامية وأضمر في أعماقه جوعاً وحقداً وانتقاماً . ومارس عمليات الحفر لينتج في النهاية حفراً عديدة إذا وضعت بذرة في إحداها لا تنبت إلّا مسخاً وغثاءً . وفي جميع الحالات النتيجة لصالح مراقب بني إسرائيل على طريق الطمس الذي يؤدي إلى نبي اليهود المنتظر والذي يسميه الإسلام بالمسيح الدجال . ويرى الباحث في السيرة النبوية أن طابور النفاق بعد فتح مكة نشطت خطواته . ويبدو هذا في أحداث غزوة حنين وغزوة تبوك والمسجد الضرار وكلها بعد فتح مكة .

ثامناً : من تعاليم النجاة :

على امتداد بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . كان الوحي يرشد إلى صراط الله ويقيم الحجة على عباد الله . ويوم فتح مكة هدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنيان دين الشرك وكسر الأصنام ليجعل بذلك العقل والوجدان في حرية تامة كي يختارا العقيدة التي ترتضيها الفطرة . وأمام الفطرة وضعت الشرائع التي تبث الأمن والأمان وتعلن يأس الكفار من النيل من هذا الدين . وتدعو الفطرة أن لا موجب للخشية بعد يأس هؤلاء . وأن عليها أن تخشى الله الذي بيده مصير الأمور قال تعالى : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون** ﴾(٢٨٠) قال المفسرون : أي بأن دين المسلمين في أمن من جهة الكفار مصون من الخطر المتوجه من قبلهم . وانه لا يتسرب إليه شيء من طوارق الفساد والهلاك إلّا من قبل المسلمين أنفسهم . وأن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة . ورفضهم هذا الدين الكامل المرضى . ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها إلى النقمة ويذيقهم لباس الجوع والخوف . ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية من قوله : ﴿ **فلا تخشوهم واخشون** ﴾ فعليه أن يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الإسلامي اليوم . ثم يرجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أصول القضايا وأعراقها .

---

(٢٨٠) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

لقد وضعت الفطرة أمام الصفحة البيضاء وعلى امتداد الرسالة الخاتمة . ولكن أعداء الحياة أعداء الفطرة عندما يئسوا من إحداث شرخ في جدار الشريعة نظراً لعظمة النص وبلاغته وقوة حجّته . حالوا على امتداد التاريخ فصل المسلمين عن الإسلام . فبعيداً عن الإسلام يسهل عليهم نزالهم نظراً لتجريدهم من القوة التي عليها يرتكزون . ولقد ساعدهم في ذلك طابور النفاق في القديم وفي الحديث . فقديماً كان يجلس داخل سور الأمة من يحب الدنيا ومن يحب الآخرة . فالذي يحب الدنيا عمل من أجلها . وقاده عمله إلى دائرة كفران النعمة التي عليها يترتب سلب الله لهذه النعمة . والذي أحب الآخرة عمل من أجلها وقاده عمله إلى حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة حيث النعيم وجرعة ماء لا يظمأ بعدها أبداً . وهذا المشهد يصوره ويجسده حديث شريف يقول فيه النبي : « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني . حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني . فلأقولن : أي رب . أصيحابي أصيحابي . فليقولن لي : إنك لا تدري بما أحدثوا بعدك »(٢٨١) وفي حديث رواه البخاري قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا فرطكم على الحوض . ليرفعن إليّ رجال منكم . حتى إذا أهويت لأناولهم . اختلجوا دوني . فأقول : أي رب أصحابي . يقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك »(٢٨٢) وفي رواية عند البخاري : « أنا على حوضي أنتظر من يرد عليّ . فسيؤخذ بناس من دوني . فأقول : أمتي . فيقول : لا تدري ! مشوا على القهقري »(٢٨٣) وعنده أيضاً عن سهل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا فرطكم على الحوض . من ورده شرب منه . ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً . ليرد عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني . ثم يحال بيني وبينهم »(٢٨٤) وفي رواية عند البخاري وابن ماجة : « يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي . فيحلون على الحوض . فأقول : أي رب ، أصحابي . فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك . إنهم إرتدوا بعدك على أدبارهم القهقري »(٢٨٥)

---

(٢٨١) رواه مسلم في صحيحه عن أنس : ١٥/١٥ .

(٢٨٢) رواه البخاري عن عبدالله : ٤/٢٢١ ورواه مسلم : ١٥/٥٩ .

(٢٨٣) رواه البخاري عن أسماء : ٤/٢٢١ .

(٢٨٤) البخاري : ٤/٢٢١ ، الإمام أحمد (الفتح الرباني : ١/١٩٥) .

(٢٨٥) كنز العمال : ١٤/٤١٧ .

وفي لسان العرب القهقري : الرجوع إلى الخلف . وتقهقر : تراجع على قفاه . وقال الأزهري في الحديث : « إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري » معناه الإرتداد عما كانوا عليه(*) بإختصار اتبعوا سنن الذين من قبلهم وركبوا معهم طريق الطمس . وأحاديث القهقري التي سار أصحابها في الإتجاه المعاكس للفطرة كأصحابهم من الأمم السابقة الذين ساروا في طريق الطمس . أحاديث عديدة تجدها في كتب التفسير والحديث . ولما كان للنفاق خيمة داخل سور الأمة . وهذه الخيمة تعمل على أهداف الأهواء التي تصب في وعاء بني إسرائيل في نهاية المطاف حدد الإسلام لأتباعه خطوطاً لا يستطيع النفاق في حالة عمله منفرداً أن يخترقها . ولا يمكن أن يخترقها أيضاً في حالة عمله بتوجيهات من معسكر الكفر بجميع أعلامه . ومن هذه الخطوط خط تجنب الرجس وخط تجنب النجس .

١ ـ حصار الرجس :

الرجس هو البحيرة أو الخيمة التي تتلحف بها قلوب المنافقين . قال تعالى وهو يحذر منهم : ﴿ **فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾[٢٨٦] والرجس هو : القذر . والشيء القذر . والفعل القبيح . والضلال . والعذاب[٢٨٧] وقوله تعالى : ﴿ **فأعرضوا عنهم إنهم رجس** ﴾ الآية . . أي : فأعرضوا عنهم لا تصديقاً لهم فيما يحلفون له من الأعذار . بل لأنهم رجس ينبغي ألا يقترب منهم . والقرآن الكريم حذر من أصحاب الرجس وطالب بالإبتعاد عنهم في كثير من آياته . قال تعالى : ﴿ **كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾[٢٨٨] قال المفسرون : الرجس هو القذر . والمعنى : كأن الرجس يعلوهم ويحيط بهم . فيحول بينهم وبين غيرهم . فتتنفر منهم الطباع كما يتنفر من الغذاء الملطخ بالقذر[٢٨٩] . وقال تعالى : ﴿ **قال قد وقع عليكم من**

(*) لسان العرب : ٣٦/٣٧٦٥ .

(٢٨٦) سورة التوبة ، الآيتان : ٦٥ ـ ٩٦ .

(٢٨٧) المعجم الوسيط : ١/٣٣٠ ، المختار : ٢٣٤ .

(٢٨٨) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .

(٢٨٩) الميزان : ٧/٣٤٣ .

ربكم رجس وغضب ﴾[٢٩٠] قال المفسرون : الرجس هنا هو الأمر الـذي إذا وقع على الشيء أوجب الإبتعـاد عنه . ولـذا يطلق على القـاذورات لأن الإنسان يتنفـر ويبتعد عنه . ويطلق على العذاب . لأن المعذب يبتعد عمن يعـذبه أو من النـاس الآمنين من العـذاب[٢٩١] . وطابـور الكفر والنفـاق الـذي اختـار بحيـرة الـرجس ليعيشوا فيها ولم يرضوا بها بديـلاً . كان عقـابهم من الله أنه سبحـانه زادهم رجسـاً على رجسهم قـال تعالى : ﴿ **وأمـا الـذين في قلوبهم مـرض فـزادتهم رجسـاً إلى رجسهم ومـاتـوا وهم كـافـرون** ﴾[٢٩٢] ومعنى الآيـة زادهم ضـلالاً جـديـداً إلى ضلالهم القديم . لأن السنّة الإلٰهية تقضي بأن تجعل الرجس والضلال على أهـل العنـاد والجحـود كمـا في قـولـه تعـالى : ﴿ **ويجعـل الـرجس على الـذين لا يعقلون** ﴾[٢٩٣] .

من هذه الآيات نعلم أن المنافقين يسيرون على أرض الإسلام ولكن بنفوس تسبح في بحيرة ماؤها قذر . ونظراً لأن النفاق عمل سري في المقام الأول . حيث يدخل صاحبه الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل منه[٢٩٤] كان الوحي يكشف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حركة هذا الطابور . فيتعامل معه وفقاً لحركة الـدعوة ومصلحـة الإسلام وحتى لا يـروج معسكر الكفـر مقولـة ان محمداً يقتل أصحابه . ولما كان النفاق لا يستطيع أن يحرز أي تقدم في دائـرة الوحي التي تكشف رجسه . علق طابور النفاق أمله في وفاة رسول الله . ولما كان الإسـلام هو دين الفطرة الخاتم . وهو ممتد بعد وفاة الرسول وحتى قيام الساعة . كان من عدل الله تعالى أنه حاصر دائرة الرجس بـآيات بـاهرة . إذا أخـذ بها المسلمـون قطعـوا الـطريق أمام منـاورات النفاق . وإذا لم يـأخذوا بهـا فلا إجبـار في دين الله . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي سبحانه الشاكرين . ولما كان النفاق في دائرة الرجس والسـواد الأعظم من النـاس لا يستطيـع أن يميز المنـافق من غيره

---

(٢٩٠) سورة الأعراف ، الآية : ٧١ .
(٢٩١) الميزان : ٨/١٧٩ .
(٢٩٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٥ .
(٢٩٣) سورة يونس ، الآية : ١٠٠ .
(٢٩٤) لسان العرب : ٤٥٠٨ .

بسهولة . لأن كلاهما عضو في الأسرة الإسلامية ويسير بشعار الإسلام حدد الله تعالى بيت من البيوت . وصرح في كتابه انه تعالى أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . وبهذا واجهت دائرة الرجس التي حددها الله دائرة التطهير التي حددها الله . فمن أدلى بدلوه هنا أو هناك فهو في حقيقة الأمر يكتب لنفسه شهادة الهلاك أو شهادة النجاة . لأن الرجس هنا هو المقياس . والذي يعلم ما تخفيه القلوب هو الذي قال فرق هذا رجس وحول هذا تطهير . والذين أحاطهم الله بالطهارة جاء ذكرهم في سورة من السور المدنية(٢٩٥) والآية التي ذكروا فيها من أعظم الآيات القرآنية وجميع آيات القرآن عظيمة . ففي الجزء الأول من الآية أمر الله تعالى نساء النبي أن يقرن في بيوتهن . وأمرهم بإمتثال الأوامر الدينية وطاعة الله ورسوله . وبعد توجيه الخطاب لنساء النبي قال جل شأنه : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾(٢٩٦) فإذا كان الشطر الأول من الآية قد خص نساء النبي فمن هم الذين خصهم الشطر الثاني من الآية ؟ والإجابة على هذا السؤال نجدها في الكتب الخاصة بالتفسير والحديث .

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين أم سلمة ان النبي كان في بيتها فأتته فاطمة ببرمة(٢٩٧) فيها خزبرة(٢٩٨) فدخلت بها عليه فقال : « ادعي زوجك وابنيك » قالت : فجاء علي والحسين والحسن . فدخلوا عليه . فجلسوا يأكلون من تلك الخزبرة وهو على منامة له(٢٩٩) . على دكا من تحته كساء له خيبري . قالت أم سلمة : وأنا أصلي في الحجرة . فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ قالت : فأخذ فضل الكساء فغشاهم به(٣٠٠) ثم أخرج يده فألوى(٣٠١) بها إلى السماء ثم قال « اللهم

---

(٢٩٥) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٣ .
(٢٩٦) البرمة/ القدر .
(٢٩٧) الخزبرة/ لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء فإذا نضج ذر عليه دقيق .
(٢٩٨) منامة/ أي الدكة التي ينام عليها .
(٣٩٩) أي غطاهم .
(٣٠٠) أي رفعها .
(٣٠١) قال في الفتح الرباني الحديث في إسناده عند الإمام أحمد رجل لم يسم لكن له طرق=

هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » قالت أم سلمة : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ قال : « إنك إلى خير إنك إلى خير »(٣٠٢) .

وحديث أم سلمة روي من طرق عديدة وذكره أصحاب التفاسير في تفاسيرهم(٣٠٢) وقال ابن جرير الآية نزلت في فاطمة وعلي وأولادهما(٣٠٣) ونظراً لأهمية الحدث وما سيترتب عليه كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يبث معرفته بين أزواجه من جهة وبين بقية المسلمين من جهة أخرى . وعلى سبيل المثال ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة . وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود . فجاء الحسن بن علي ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله . ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً(٣٠٤) ولكي يحدد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه من هم أهل بيته . كانوا عندما يجتمعون لصلاة الفجر في مسجده . ينادي على فاطمة وعلي وأولادهما ليسمع من في المسجد صيغة النداء . وهذا ما رواه الإمام أحمد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمر ببيت فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر فيقول الصلاة يا أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »(٣٠٥) وعلى الرغم من هذا البيان الذي شهد به أمهات المؤمنين

= أخرى عنده ليس فيها مجهول كما صرح بذلك عبد الملك في نفس الحديث . قال وحدثني أبو ليلى عن أم سلمة . ورواه أيضاً ابن جرير من طرق كثيرة ليس فيها مجهول يعضد بعضها بعضاً ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (الفتح الرباني : ١٨/٢٣٨) .

(٣٠٢) ابن كثير في التفسير : ٣/٤٨٤ ، البغوي في التفسير : ٦/٥٤٦ ، ابن جرير في التفسير : ٥/٢٠ .

(٣٠٣) ابن جرير : ٥/٢٠ .

(٣٠٤) صحيح مسلم : ص١٩٥/١٥ ط دار احياء التراث العربي .

(٣٠٥) رواه أحمد (الفتح الرباني : ٢٢/٢٠٣) ورواه الترمذي وقال حسن غريب وقال في تحفة الأحوازي أخرجه أحمد وإبن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه ابن مردويه (تحفة الأحوازي : ٩١٦٨) .

وجم غفيـر من الصحابـة إلّا أن هناك من أدخـل نساء النبي ضمن الـذين تقصدهم الآية . وقد رد الإمام الطحاوي على من قال بذلك . فقال : فإن (قال قائـل) فإن كتاب الله يدل على أن أزواج النبي هم المقصودون بتلك الآية . لأنه قال قبلهـا في السورة التي هي فيها : ﴿ يـا أيها النبي قـل لأزواجك إن كنتن تـردن الحياة الـدنيا ـ إلى قوله ـ الجاهلية الأولى ﴾ فكان ذلك كله يؤذن به لأنه على خطاب النساء . لا على خطاب الرجـال . ثم قال : ﴿ إنمـا يريـد الله ليذهب عنكم الـرجس ﴾ الآية (فكان جوابنا) إن الذي تلاه إلى آخر مـا قبل قـوله : ﴿ إنمـا يريـد الله ﴾ الآية . خطاب لأزواجه . ثم عقب ذلك بخطابه لأهواه بقوله تعـالى : ﴿ إنما يـريد الله ﴾ الآية . فجاء به على خطاب الرجال . لأنه قال فيـه : ﴿ ليذهب عنكم الـرجس ﴾ وهكذا خطاب الرجال . وما قبله فجاء به بالنون وكذلك خطاب النسـاء . (فقلنا) أن قـوله : ﴿ إنمـا يريـد الله ﴾ الآيـة . خـطاب لمن أراده من الـرجـال بـذلـك . ليعلمهم تشريفه لهم . ورفعة لمقدارهم أن جعل نساءهم ممن قد وصفه لما وصفه به مما في الآية المتلوة قبل الذي خاطبهم بـه تعالى . . والأحـاديث المرويـة دليل أيضاً على أن هذه الآية في فاطمة وعلي وإبناهما(٣٠٦) .

على هذا فالآية الكريمة خاطبت نساء النبي في شطرها الأول فقال تعـالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصـلاة وآتين الزكـاة وأطعن الله ورسوله ﴾ ووفقاً لهذا النص الحكيم حـدد الشرع حـركة نسـاء النبي . فأي حركة خارج هذه الدائرة تؤدي إلى فتن . والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحذر أزواجه من طريق الفتن في أحاديث كثيرة منها حديث نباح كلاب الحوأب . ومنها ما أخرجه الترمذي عن أم سلمـة . أن النبي صلى الله عليه وسلم إستيقظ ليلة فقال : سبحان الله مـاذا أنزل الليلة من الفتن؟ مـاذا أنزل من الخـزائن ؟ من يوقظ صـواحب الحجرات ؟ يـا رب كاسيـة في الـدنيـا عـاريـة في الآخـرة(٣٠٧) ـ وزاد البخـاري في روايته ـ « فـزعاً . فقـال سبحـان الله مـاذا أنـزل الله من الفتن » قـال المفسرون : إن النبي صلى الله عليه وسلم أوحي إليـه في قومـه ما سيقـع بعده من

---

(٣٠٦) مشكل الآثار/ الطماوي دار صادر : ١/٣٣٨ .

(٣٠٧) رواه الترمذي وقال حديث صحيح (تحفة الأحـوازي : ٦/٤٤٠) وقال في التحفـة أخرجه أحمد والبخاري .

الفتن . وقوله : (من يوقظ صواحب الحجرات) يعني : أزواجه . وإنما خصهم بالإيقاظ لأنهن الحاضرات . وأشار إلى موجب استيقاظ أزواجه . أي لا ينبغي لهن أن لا يتغافلن عن العبادة ويعتمدن على كونهن أزواج النبي . وقال الحافظ : واختلف في المراد بقوله : كاسية وعارية . على أوجه :

أحدهما : كاسية في الدنيا بالثياب لوجود الغنى . عارية في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا .

ثانيها : كاسية من نعم الله . عارية من الشكل الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب . . فأراد صلى الله عليه وسلم تحذير أزواجه من ذلك كله . وكذا غيرهن ممن بلغه ذلك[٣٠٨] .

فالآية الكريمة في شطرها الأول حددت الخطى لأمهات المؤمنين . وفي شطرها الثاني حددت أين يكون العلم وطهارة الفكر الذي يقود الأمة نحو أهداف الله . ويبتعد بها عن دروب الذين في قلوبهم زيغ . الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾[٣٠٩] وفي هذه الآية أخرج الترمذي عن أم المؤمنين عائشة إنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ . . .** ﴾ قال : « فإذا رأيتهم فاعرفيهم »[٣١٠] وقال في تحفة الأحوازي : أي واحذريهم خطاب لأم المؤمنين عائشة[٣١١] . وبعد أن جدد الله تعالى في كتابه دائرة الطهر كما بينا . أمر سبحانه المؤمنين أن يودوا قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم . لأنهم الطائفة التي يستحيل أن تكذب على النبي . كما أنهم لا يأخذون علومهم إلّا من النبي . يقول تعالى لرسوله : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى** ﴾[٣١٢] ولقد ذهبوا في تفسير هذه الآية إلى كل مذهب . فقال

---

(٣٠٨) تحفة الأحوازي شرح جامع الترمذي : ص٤٤٠/٦ .

(٣٠٩) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٣١٠) أخرجه الترمذي وقال في تحفة الأحوازي أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داوود وابن ماجة : (٨/٣٤٣) .

(٣١١) تحفة الأحوازي : ٨/٣٤٢ .

(٣١٢) سورة الشورى ، الآية : ٢٣ الآية مدنية والسورة مكية .

البعض : أن الخطاب لقريش . والأجر المسؤول هو مودتهم للنبي لقرابته منهم . وذلك لأنهم كانوا يكذبونه . فأمر الله تعالى رسوله . أن يسألهم . إن لم يؤمنوا به فليودوه . وهذا القول مردود ـ لأن معنى الأجر . إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر . فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال ونحوه . فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته . إنما يصح على تقدير إيمانهم به . لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته . لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر . وعلى تقدير الإيمان به ـ والنبوة أحد الأصول الثلاثة في الدين ـ لا يتصور بغض حتى تجعل المودة أجراً للرسالة ويسأل . وبالجملة لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسؤولين . ولا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا المودة ـ وقيل : المراد بالمودة في القربى مودة الأقرباء . والخطاب لقريش أو لعامة الناس وعلى هذا يكون المعنى : لا أسألكم على دعائي أجراً إلّا أن تودوا أقرباءكم . وهذا القول أيضاً غير مستقيم . لأن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام . قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾(٣١٣) وسياق هذه الآية لا يلائم . كونها مخصصة أو مقيدة لعموم قوله تعالى : ﴿ **إلّا المودة في القربى** ﴾ أو إطلاقه حتى تكون المودة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة . على أن هذه المودة الخاصة لا تلائم خطاب قريش أو عامة الناس . بل الذي يفيده سياق الآية . أن الذي يندب إليه الإسلام هو الحب في الله من غير أن يكون للقرابة خصوصية في ذلك . نعم هناك إهتمام شديد بأمر القرابة والرحم . لكنه بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال . على حبه ذوي القربى لا بعنوان مودة القربى . فلا حب إلّا لله عز وجل(٣١٤) .

وقيل المراد بالمودة في القربى . مودة قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام . وهذا هو القول المستقيم لورود روايات عديدة تؤيده . منها ما رواه ابن جرير عن ابي الديلم قال : لما جيء

---

(٣١٣) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .

(٣١٤) الميزان : ١٨/٤٥ .

بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً فأقيم على درج دمشق . قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم قال : ما قرأت : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى** ﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم(٣١٥) وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى** ﴾ قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال : علي وفاطمة وولداها » ومن الروايات أيضاً التي تؤيد قول القائل بأن ذو القربى هم أهل بيته . ما رواه الإمام أحمد عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني تارك فيكم خليفتين(٣١٦) . كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض . أو ما بين السماء إلى الأرض . وعترتي أهل بيتي . وإنهما لا يتفرقا حتى يردا علي الحوض(٣١٧) .

وهذا الحديث جعل الكتاب والعترة في رباط واحد . وأخبر أنهما لا يتفرقا حتى يردا علي الحوض . يوم يقال لطابور النفاق سحقاً سحقاً نظراً لإرتدادهم بعد رسول الله ـ كما بينا في الأحاديث التي أوردناها فيما سبق . ولقد ذهب البعض في تحديد معنى العترة كل مذهب . راكبين في ذلك قوارب الجدل التي لا تظهر إلّا عند البحث عن الصراط المستقيم . ولتحديد معنى العترة . نذكر ما ورد في لسان العرب وغيره . قال ابن الأثير : عترة الرجل أخص أقاربه . وقال ابن الأعرابي : العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه . وعترة النبي صلى الله عليه وسلم . ولد فاطمة البتول عليها السلام(٣١٨) وقال صاحب الفتح الرباني : وعترتي أهل بيتي

---

(٣١٥) ابن كثير في التفسير : ٤/١١٢ ، تفسير البغوي : ٧/٣٦٤ .

(٣١٦) وفي رواية ثقلين ـ بدل ـ خليفتين .

(٣١٧) رواه أحمد وقال البيهقي اسناده جيد (الفتح الرباني : ٢٢/١٠٥ . وقال البغوي في تفسيره وقد ثبت في الصحيح ان رسول الله قال في خطبته بغدير خم « اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وانهما لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » تفسير البغوي : ٧/٣٦٥ .

(٣١٨) لسان العرب : ص٢٧٩٦ .

وهم أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً(٣١٩) من هذا نعلم وفقاً للكتاب والسنّة أن دائرة الطهر دائرة معروفة ومحددة . ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وآله يعلن على الملأ في كل مكان « أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه . وأحبوني بحب الله . وأحبوا أهل بيتي بحبي »(٣٢٠) وقال : « لكل نبي عصبة ينتمون إليه إلاّ ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم »(٣٢١) ودائرة أهل البيت وإن كانت دائرة واسعة تضم أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعض أصحابه ومنهم سلمان الفارسي كما تضم أقاربه . إلاّ أن دائرة فاطمة وعلي عليهما السلام هي مركز الحركة التي تقود إلى أهداف الإسلام . ولذا أفاضت الأحاديث في الدعوة للالتفات من حولهم والتعلم منهم ومن هذه الأحاديث قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا . كتاب الله وعترتي أهل بيتي »(٣٢٢) . بل أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام بتذكير الأمة بهذا الأمر وهو على وشك الرحيل من الدنيا . فعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إني أوشك أن أدعى فأجيب(٣٢٣) وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي . كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض . وعترتي أهل بيتي . وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . فانظروني بم تخلفوني فيهما »(٣٢٤) وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم . قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر . ثم قال : « أما بعد . ألا أيها الناس . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب . وأنا تارك فيكم

---

(٣١٩) الفتح الرباني : ٢٢/١٠٤ .

(٣٢٠) البغوي في التفسير وقال رواه الترمذي : ٧/٢٦٧ .

(٣٢١) رواه الطبراني عن فاطمة . والحاكم عن جابر (كنز العمال : ١٢/١١٤) وابن عساكر عن جابر : ١٢/٩٨ كنز العمال .

(٣٢٢) قال البغوي في تفسيره رواه الترمذي وقال حسن غريب (البغوي : ٧/٢٦٧) .

(٣٢٣) يقصد موته صلى الله عليه وسلم .

(٣٢٤) رواه الإمام أحمد وفي اسناده : عطية بن سعد . ضعفه الثوري . وحسن له الترمذي أحاديث . وفي التهذيب قال أبو حاتم وابن سعد ومع ضعفه يكتب حديثه (الفتح الرباني : ٢٢/١٠٥) .

ثقلين . أولهمـا كتـاب الله تعـالى . فيـه الهـدى والنـور . فخـذوا بكتـاب الله واستمسكـوا به . وأهـل بيتي . أذكركم الله في أهـل بيتي . أذكـركم الله في أهـل بيتي ـ قالها ثلاثاً(٣٢٥) .

ولما كان علي بن أبي طالب قطباً أصيلاً في دائرة أهل البيت الذين أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسك بهم أفاضت الأحاديث التي تحـدد موضـع قدم علي بن أبي طـالب في هذه الـدائرة . ومن هـذه الأحاديث . عن زيـد بن أرقم . قـال : لما رجـع رسول الله من حجـة الوداع . وتـرك غدير خم . أمر بـدوحـات فقممن . ثم قال : « كأني دعيت فـأجبت . إني قد تـركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي . فانظروا كيف تخلفوني فيهما . فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . ثم قال : الله مولاي . وأنا ولي كل مؤمن . ثم أخذ بيـد علي . فقال : من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » قال ابن كثير : تفرد به النسائي من هذا الوجه وقال الذهبي وهذا حديث صحيح(٣٢٦) وعندما سئل زيد بن أرقم : هل سمعت هذا من رسول الله ؟ قال : مـا كان في الـدوحات أحـداً إلّا رآه بعينه وسمعه بأذنه(٣٢٧) وروى إبن جرير عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله قـال في هذا اليوم : « ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وأن محمـداً عبده ورسـوله وأن جنتـه حق وناره حق . وأن الموت حق وأن الساعة آتيـة لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبـور ؟ قالـوا : نشهد بـذلك . قـال أللهم إشهد . ثم قـال : أيها النـاس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بـالمؤمنين من أنفسهم . فمن كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه(٣٢٨) . وفي قول الله تعـالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعـل فما بلغت رسـالته والله يعصمـك من النـاس إن الله لا يهدي القـوم الكافـرين** ﴾(٣٢٩) اختلف المفسـرون في مكـان نزولها فمنهم من قال : إنها نزلت في مكة . وقـال آخرون : نـزلت في المدينـة .

---

(٣٢٥) البغوي في التفسير : ٦/٥٥٠ ، سنن ابن عاصم ٢/٦٤٣ .
(٣٢٦) البداية والنهاية/ ابن كثير : ٥/٢٠٩ .
(٣٢٧) البداية والنهاية : ٥/٢٠٩ ، سنن ابن عاصم : ٢/٦٤٤ .
(٣٢٨) ابن جرير (كنز العمال : ٥/٢٩٠) .
(٣٢٩) سورة المائدة ، الآية : ٦٧ .

إلّا أن أغلب الأحاديث الواردة في أسباب نزولها تظهر نزولها بالمدينة . وروى أبو الحسن الواحدي في كتابه المسمى بأسباب النزول . رفعه بسنده إلى أبي سعيد الخدري . قال : نزلت هذه الآية ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك** . . . ﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب . ورواه أيضاً في فتح القدير عن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري وكذلك في الدر المنثور للسيوطي . وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : نزلت هذه الآية في فضل علي بن أبي طالب . ولما نزلت هذه الآية . أخذ بيده وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه . أللهم وال من والاه وعاد من عاداه » فلقيه عمر رضي الله عنه فقال : هنيئاً لك يا بن أبي طالب . أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة . وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي(٣٣٠) .

وحديث من كنت مولاه . روى الإمام أحمد . أنه سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثون صحابياً . شهدوا به لعلي بن أبي طالب مما توزع أيام خلافته . وصرح بتواتر هذا الحديث العديد من العلماء . قاله المناوي في التيسير نقلاً عن السيوطي وشارح المواهب اللدنية . وفي الصفوة للمناوي قال ابن حجر . حديث من كنت مولاه . « أخرجه الترمذي والنسائي . وهو كثير الطرق جداً وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد وأكثر أسانيدها صحيح أو حسن »(٣٣١) . وكما أن حديث من كنت مولاه يحدد مكان علي بن أبي طالب داخل دائرة الأمة . فإن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم له : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي »(٣٣٢) . وفي رواية عند الإمام أحمد « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنك لست بنبي . انه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي »(٣٣٣) وفي رواية عند ابن أبي عاصم : « انه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي في كل مؤمن بعدي »(٣٣٤) .

---

(٣٣٠) الفخر الرازي في تفسيره : ص٤٨ ، ٤٩ ح١٢ .
(٣٣١) نظم المتناثر من الحديث المتواتر/ الحافظ الكتاني : ص١٩٤ .
(٣٣٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه : ١٥/١٧٤ .
(٣٣٣) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني : ٢١/٢٠٤) .
(٣٣٤) رواه ابن أبي عاصم وقال الألباني صحيح الاسناد : ٢/٥٦٥ .

فهذا الحديث يحدد أيضاً أقدام علي بن أبي طالب داخل دائرة الأمة . ولقد رواه نيفاً وعشرين صحابياً . وقال الحافظ الكتاني : هذا الحديث متواتر ولقد تتبع إبن عساكر طرقه في نحو عشرين ورقة[٣٣٥] . وهذا القول قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام عندما خرج إلى غزوة تبوك وكان قد ترك عليّ في المدينة . ومما يذكر أن حركة النفاق قد نشطت في هذه الفترة فلقد هموا باغتيال الرسول عند عودته من تبوك كما شيدوا مسجدهم الضرار على أمل أن يقوم الرسول بالصلاة فيه بعد عودته في حالة نجاته من القتل . ولكن الله رد كيدهم كما ذكرنا من قبل . ومنزلة هارون من موسى بينها القرآن الكريم في أكثر من موضع . ومنه قول موسى عليه السلام كما جاء في سورة طه : ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً** ﴾[٣٣٦] .

ومنزلة علي بن أبي طالب عليه السلام ومواقفه بجانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفاضت بها الأحاديث حتى قال ابن عباس : « ما أنزل الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ إلّا وعلي أميرها وشريفها . ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم في غير مكان . وما ذكر علياً إلّا بخير »[٣٣٧] وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : « نزلت في علي ثلاثمائة آية »[٣٣٨] وقال ابن عباس : « كان لعلي ثمان عشر منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة »[٣٣٩] . وروي أن عُمر علي بن أبي طالب يوم أسلم كان إحدى عشر سنة . على أصح ما ورد من الأخبار في إسلامه . وقد قيل ثلاث عشر سنة . وقيل سبع سنين . والثابت إحدى عشرة[٣٤٠] . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أخذ علياً من أبيه وهو صغير . في سنة أصابت قريشاً وقحط نالهم . وأخذ حمزة جعفراً . وأخذ العباس

(٣٣٥) نظم المتناثر من الحديث المتواتر : ص١٩٥ .
(٣٣٦) سورة طه ، الآيات : ٢٩ ـ ٣٤ .
(٣٣٧) تاريخ الخلفاء/ السيوطي : ص١٦٠ .
(٣٣٨) تاريخ الخلفاء/ السيوطي : ص١٦١ .
(٣٣٩) تاريخ الخلفاء/ السيوطي : ص١٦١ .
(٣٤٠) مقاتل الطالبين/ أبو الفرج الأصفهاني : ص٤١ .

طالباً . ليكفوا أباهم مؤنتهم ويخففوا عنه ثقلهم . وأخذ أبو طالب عقيلاً لميله كان إليه . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إخترت من إختار الله لي عليكم علياً »[٣٤١] ومنذ هذا الحين وعلي ينال تربيته على يد محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وبعد أن نزل الوحي روي عن ابن عباس قال : « أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد خديجة . علي »[٣٤٢] . ولما كانت فضائل علي بن أبي طالب أكثر من أن تحصى . فإننا سنورد هنا بعض الروايات التي تتعلق بإختيار الله تعالى لعلي في أكثر من موضع ومن هذه المواضع .

ما أخرجه الترمذي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا علياً يوم الطائف فانتجاه . فقال الناس . لقد طال نجواه مع ابن عمه . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما إنتجيته ولكن الله إنتجاه »[٣٤٣] وقال صاحب تحفة الأحوازي : وقوله ما إنتجيته . أي ما خصصت بالنجوى . ولكن الله إنتجاه . أي إني بلغت عن الله ما أمرني أن أبلغه إياه على سبيل النجوى . فحينئذ إنتجاه الله لا إنتجيته . وقال الطيبي : كان ذلك أسرار إلٰهية وأموراً غيبية جعله من خزانها[٣٤٤] ومنها ما أخرجه أحمد عن زيد بن أرقم . قال : كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أبواب شارعة في المسجد . فقال يوماً : « سدوا هذه الأبواب إلّا باب عليّ » فتكلم في ذلك الناس . فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد . فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلّا باب عليّ . وقال فيه قائلكم . وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته ولكني أمرت بشيء فاتبعته »[٣٤٥] وفي رواية عند الطبراني : « قالوا يا رسول الله

---

(٣٤١) مقاتل الطالبين/ أبو الفرج الأصفهاني : ص٤١ .

(٣٤٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني : ٢٣/١٢٢) وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير حبة العرفي وقد وثق .

(٣٤٣) رواه الترمذي حديث رقم ٣٨١٠ .

(٣٤٤) تحفة الأحوازي شرح جامع الترمذي/ المباركفوري ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة : ص٢٣١/١٠ .

(٣٤٥) رواه أحمد (الفتح الرباني : ٢٣/١١٧) ورواه بطريق آخر من سعد بن مالك وقال الهيثمي رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط واسناد أحمد حسن .

سددت أبوابنا كلها إلّا باب عليّ . قال : ما أنا سددت أبوابكم ولكن الله سدها »[٣٤٦] ومنها ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي . إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . قال يوم خيبر « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجوا أن يعطاها . فقال : أين علي بن أبي طالب . وكان يشتكي عينيه . فتفل في عينيه وأعطاه اللواء[٣٤٧] . ومنها ما أخرجه الإمام أحمد عن علي قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم . دعاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي : أدرك أبا بكر . فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه . فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم . فلحقته بالجحفة وأخذت الكتاب منه . ورجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله نزل فيّ شيء ؟ قال : لا . ولكن جبريل جاءني فقال : لا يؤدي عنك إلّا أنت أو رجل منك[٣٤٨] . وفي رواية : « أمرت أن لا يبلغه إلّا أنا أو رجل مني »[٣٤٩] . وروي في قوله تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[٣٥٠] عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم وقاعد . وإذا مسكين يسأل . فدخل رسول الله فقال : « أعطاك أحداً شيئاً » قال : نعم قال : « من ؟ » قال : ذلك الرجل القائم . قال : على أي حال أعطاكه ؟ قال : وهو راكع . قال : وذلك علي بن أبي طالب . قال : فكبر رسول الله صلى الله

---

(٣٤٦) الفتح الرباني : ٢١/١٢٣ .

(٣٤٧) أخرجه بألفاظ متعددة . أحمد . والبخاري ومسلم في فتح خيبر والترمذي في المناقب وابن سعد في الطبقات وابن هشام في السيرة .

(٣٤٨) أخرجه أحمد (الفتح الرباني : ١٨/١٥٧) وقال صاحب الفتح . قال الهيثمي رواه عبدالله بن أحمد . وفيه محمد بن جابر السحيمي وهو ضعيف وقد وثق .

(٣٤٩) أخرجه الإمام أحمد وقال في الفتح الرباني الحديث سنده صحيح وله شواهد كثيرة تعضده منها عند البخاري والإمام أحمد أيضاً من حديث أبا هريرة ومنها حديث أنس عن الترمذي وحديث ابن عباس عند الترمذي أيضاً (الفتح الرباني : ١٨/١٥٧) .

(٣٥٠) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .

عليه وآله وسلم عند ذلك وهو يقول : « من يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » . وهذا الحدث اتفق على نقله من غير رد . أئمة التفسير بالمأثور كأحمد والنسائي والطبري والطبراني وعبد بن حميد وغيرهم من الحفاظ وأئمة الحديث . ومن المعلوم ان الزكاة لا تؤدى في الصلاة . ولكن الله تعالى خص علي بن أبي طالب بهذا . كي يكون تحديده خارجاً للعادة من داخل الشرع الحنيف . كي تحفر صورة الحدث داخل الذاكرة .

فمن هذه الأحاديث يمكن للباحث أن يحدد موقع علي بن أبي طالب داخل دائرة أهل البيت وداخل دائرة الأمة . ففي أول الطريق يوم أن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس في مكة . جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشيرته عندما نزل قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾(٣٥٢) وقال لهم : « أيكم يواليني في الدنيا والآخرة . فأبوا . فقال علي بن أبي طالب . أنا أواليك في الدنيا والآخرة . فقال : « أنت وليي في الدنيا والآخرة »(٣٥٣) لقد كان عليّ وليه في أول الطريق وفي نهاية الطريق عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي : « أنت وليي في كل مؤمن بعدي »(٣٥٤) وفي رواية عن بريدة الأسلمي نحوه وفيها « فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي . وإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي »(٣٥٥) فموقع عليّ داخل دائرة الطهر هو موقع الولاية . ولا ولاية

---

(٣٥١) ابن جرير في تفسيره : ٦/١٨٦ .

(٣٥٢) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ .

(٣٥٣) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني . أخرجه الحاكم وأقره الذهبي (الفتح الرباني : ٢٣/١١٩) .

(٣٥٤) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني . أورده الهيثمي بلفظ « أنت ولي كل مؤمن بعدي » وقال رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط باختصار ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي بلج الفزازي وهو ثقة وفيه لين . وثقه ابن معين وابن سعد والنسائي والدارقطني وغيرهم (الفتح الرباني : ٢٣/١١٦) .

(٣٥٥) رواه أحمد وقال في الفتح الرباني أورده الهيثمي وقال رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط . (أسانيد الكبير رجاله رجال الصحيح . وقول الهيثمي معناه ان الطبراني رواه في الأوسط بإختصار عن الكبير والإمام أحمد . ورجال الإمام أحمد ثقاة (الفتح الرباني : ٢٣/١١٧) .

إلّا بعلم . ولقـد أثبت النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم العلم لعلي في أكثر من موضع منه ما قاله لفاطمة عليها السلام : « أما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً »(٣٥٦) وكان علي يقول : « والله ما نزلت آية إلّا وقد علمت فيم نـزلت وأين نـزلت . وعلى من نـزلت . إن ربي وهب لي قلباً عقـولاً ولساناً صادقاً »(٣٥٧) وكان يقول : « إسألوني قبل أن تفقدوني »(٣٥٨) قـال ابن أبي الحديد في شرح النهج : قد أجمع الناس كلهم إنه لم يقـل أحد من الصحـابة ولا أحـد من العلماء هـذا غير علي بن أبي طـالب عليه السـلام . . وفقه علي وغـزارة علمه شهد به عمر بن الخطاب حين قال : « علي أقضانا »(٣٥٩) . فمن هـذا وذاك لا يستغـرب أن يكون علياً من دون الناس هـو ولي المؤمنين بعد رسـول الله . فهو حامل علوم رسول الله . وبالعلم وحـده تبلغ الدعـوة هدفهـا وتصل بـالبشريـة إلى أهداف الإسلام . كمـا وصف بأنـه أعظم حلمـاً والحلم مفتاح للصبـر والصبر فيـه نجاة للفطرة . والحليم لا يرفع سيفـه إلّا إذا كان آخـر الدواء الكي ولم يكن العلم والحلم والشجـاعة هي كـل خصائصـه وإنما زود الله تعـالى عليـاً بمنقبـة هي عين مهمته في مجابهة المنافقين فعن علي إنـه قال : « عهـد إلي النبي الأمي صلى الله عليـه وآلـه وسلم : أنـه لا يحبـك إلّا مؤمن ولا يبغضـك إلّا منـافق »(٣٦٠) وعن أم سلمـة قالت : كـان رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم يقـول : « لا يحب عليـاً منـافق ولا يبغضـه مؤمن »(٣٦١) فهـذه المنقبـة أقـامت جـداراً بين الإيمـان وبين النفاق . وبهذه المنقبة يكتمل البناء وتقوم الحجة بعد أن مهد الإسلام الطريق أمام

---

(٣٥٦) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني . وفيه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وغيره وبقية رجاله ثقاة (الفتح الرباني : ٢٣/١٣٣) .

(٣٥٧) تاريخ الخلفاء : ص١٧٣ .

(٣٥٨) تـاريخ الخلفـاء : ص١٢٤ ، الحـاكم في المستـدرك : ٢/٤٦٦ ، الاصابـة : ٢/٥٠٩ .

(٣٥٩) قال في كشف الخفاء : رواه البخاري وأحمد عن ابن عباس بلفظ « قال عمـر علي أقضانا وأبي أقرؤنا » ورواه الحاكم وصححه من ابن مسعود بلفظ « كنا نتحدث ان أقضى أهل المدينة علي » كشف الخفاء : ١/١٨٤ .

(٣٦٠) رواه أحمد . ومسلم في كتاب الإيمان والترمذي في المناقب .

(٣٦١) رواه أحمد .

الفطرة وحصنها من كل ما يتلفها . وذلك عندما حدد دائرة الأمان وسط الرقعة العريضة ومجمل القول . إن الله تعالى أتم نعمته . وحدد سبحانه دوائر الإختبار . وفسرت السنّة الشريفة هذه الدوائر ولا اكراه في دين الله . لقد كان حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجال عظماء لا شك في إخلاصهم للدعوة . ولكن الله أوجد الإنسان على هذه الأرض ليختبره فيها . وعظماء الصدر الأول كانوا من الناس والله تعالى يقول : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون * من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين** ﴾(٣٦٢) قال المفسرون : أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم : آمنا ؟ . . إن الفتنة والإمتحان سنّة جارية لله وقد جرت في الذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن تجد لسنّة الله تبديلاً . ولا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والإمتحان . فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم . فمن كان يرجو لقاء الله فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً . ومن جاهد فإن جهاده يعود نفعه إلى نفسه لأن الله غني عن العالمين .

وعظماء الصدر الأول لا ينكر فضلهم أحداً . ولكنهم عاشوا على رقعة من الأرض احتوت على كل أنماط بني الإنسان صالح وطالح وهذا وذاك يخضع لسنّة الله الجارية من إمتحان وفتنة . وفي عالم الفتن والإبتلاء لا يعرف الرجل باسمه وإنما يعرف بالحق . فبالحق يعرف الرجال وليس بالرجال يعرف الحق . وهذه قاعدة قرآنية ذكرها الله في أكثر من موضع في كتابه . فالسامري كان وفقاً لفقه الشعار من أصحاب موسى عليه السلام . ولكن حقيقته عرفت بمعايير الحق . وصاحب النبأ(٣٦٣) كان من أصحاب موسى فما أغنى عنه علمه عندما سلط الحق

---

(٣٦٢) سورة العنكبوت ، الآيات : ٢ ـ ٦ .

(٣٦٣) ذكرنا قصته في الحديث عن بني إسرائيل .

أشعته عليه . فالإنسان وجد على الأرض ليختبر ولقد زوده الله تعالى بجميع وسائل النجاة وأحاطه بجميع معالم الزينة والزخرف . فمن كان يرجو لقاء الله إجتاز الدنيا بسلام . ورجال الصدر الأول هم من بني الإنسان . منهم من أخذ بأسباب النجاة ومنهم من أحاط به الشقاء وقد ذكر القرآن أن منهم من في قلبه مرض ومنهم سماعون للمنافقين ومنهم من يسميه فاسقاً ومنهم من تبرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عمله ومنهم من رضي الله عنه ومنهم من لم يرض عنه لأن الله لا يرضى عن الفاسق والمنافق ومن اتبع هواه إلى غير ذلك . وبالجملة : قال تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً** ـ إلى قوله تعالى ـ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾(٣٦٤) قال المفسرون : قوله : ﴿ **منهم** ﴾ أي لو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم** ﴾(٣٦٥) أو آمن أولاً ثم أشرك وكفر كما في قوله : ﴿ **ان الذين إرتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى** ـ إلى قوله ـ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم** ﴾(٣٦٦) أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك ـ ومن أهل الإفك من هو صحابي بدري وقد قال تعالى : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** ﴾(٣٦٧) ـ فأمثال ذلك لا يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم الذي وعد الله به في صدر الآية . وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾(٣٦٨) قال المفسرون : والمعنى : فإذا كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلاّ نفسه . كما لا ينتفع بالإيفاء إلاّ

---

(٣٦٤) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .
(٣٦٥) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .
(٣٦٦) سورة محمد ، الآيات : ٢٥ ـ ٣٠ .
(٣٦٧) سورة النور ، الآية : ٢٣ .
(٣٦٨) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

نفسه لأن الله غني عن العالمين ولقد دلت الحوادث أن هناك من نكث بيعته . فمثل هذا لا معنى للقول بأن له عند الله أجراً عظيماً . وعلى هذا فإننا نقول إن تحديد الدوائر كان رحمة من الله تعالى بعباده . كي يجتازوا بحور الفتن والإمتحان على سفن النجاة . وكما حاصر الإسلام دائرة الرجس التي يمثلها المنافقين . حاصر أيضاً دائرة النجس التي يمثلها الشرك وطابوره الطويل . فمن في دائرة النجس راقبوا من بعيد . بعد أن يئسوا من تدمير الصرح العظيم . راقبوا الأحداث في الداخل فلعل هذه الأحداث تأتيهم بإنسان جديد لوثه الرجس . فيلتقي الرجس مع النجس في منظومة واحدة تخطو في طريق الطمس والقهقري نحو غايات بني إسرائيل تلك الغايات التي يجلس على قمتها المسيح الدجال .

٢ ـ حصار النجس :

قال تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾(٣٦٩) وكل مستقذر نجس يقال . رجل نجس وامرأة نجس وقوم نجس . وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل : رجس نِجس ـ بكسر النون ـ ومعسكر الصد عن سبيل الله لا يسبح إلّا في بحيرات من الرجس والنجس ولذا حذر القرآن الكريم من الإقتراب منه في مواضع عديدة . لأن الإقتراب فيه هلاك . لأنه الخيام في بحيرات الرجس والدنس يعلوها بريق الزينة . ومن دخلها لن يخرج منها إلّا إلى عالم الغثاء والعالة . ويصبح مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بطريقة أصحاب الخيمة التي يسيرون بها في الحياة . ولهذا قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾(٣٧٠) قال المفسرون : ونهى عن مودتهم حتى لا يتجاذب الأرواح والنفوس . فإن ذلك يقلب حال المجتمع من السيرة الدينية المبنية على سعادة أتباع الحق . إلى سيرة الكفر المبنية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان والخروج عن صراط الحياة الفطرية . والولاية في الآية هي ولاية المحبة . وقوله تعالى : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ وذلك لتقارب نفوسهم وتجاذب أرواحهم وإجتماع آرائهم على اتباع

---

(٣٦٩) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .

(٣٧٠) سورة المائدة ، الآية : ٥١ .

الهوى والإستكبار عن الحق . واتحادهم على اطفاء نور الله . وتناصرهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين كأنهم نفس واحدة ذات ملة واحدة وليسوا على وحدة من الملية لكن يبعث القوم على الإتفاق . ويجعلهم يداً واحدة على المسلمين . أن الإسلام يدعوهم إلى الحق . ويخالف أعز المقاصد عندهم وهو إتباع الهوى . والإسترسال في مشتهيات النفس وملاذ الدنيا فهذا هو الذي جعل الطائفتين : اليهود والنصارى على ما بينهما من الشقاق مجتمعاً واحداً يقترب بعضه من بعض . . ويرتد بعضه إلى بعض . يتولى اليهود والنصارى وبالعكس . ويتولى بعض اليهود بعضاً . وبعض النصارى بعضاً . فالمعنى : لا تتخذوهم أولياء لأنهم على تفرقهم وشقاقهم فيما بينهم يد واحدة عليكم . لا نفع لكم في الإقتراب منهم بالمودة والمحبة . ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ أي أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم ومنهم . غير سالك سبيل الإيمان وهذا المتولي لهم ظالم مثلهم والله لا يهدي القوم الظالمين(٣٧١) .

ونداءات القرآن بإجتناب معسكرات الكفر عديدة . ومنها قول الله تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلّا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾(٣٧٢) قال المفسرون : أي لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً . توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلوهم على عوراتهم . فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء . أي ليس من حزب الله في شيء . إلّا أن تتقوا منهم تقاة . أو تكونوا في سلطانهم فتخافونهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم . وترفض قلوبكم ما هم فيه وعليه . ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم(٣٧٣) وكما حذر القرآن من التعامل مع معسكر الكفر . حذر أيضاً من التعامل مع معسكر النفاق الذي حمل على عاتقه عرقلة دعوة الفطرة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد**

---

(٣٧١) الميزان : ٥/٣٧٣ .

(٣٧٢) سورة آل عمران ، الآية : ٢٨ .

(٣٧٣) ابن جرير : ٣/١٥٢ .

بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ أخرج ابن جرير وإبن حاتم عن إبن عباس قال : هم المنافقون[٣٧٤] وقال المفسرون : أي لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دونكم . وجعل سبحانه البطانة مثلاً لخليل الرجل . والبطانة هي ما يلي البدن الثوب . والله تعالى نهى المؤمنين أن يتخذوا من الكفار أخلاء وأصفياء لما هم عليه من الغش والخيانة[٣٧٥] ولما هم عليه من الإستكبار بإتخاذهم الدين هزواً ولعباً . قضاء منهم بأن الدين ليس له من الواقعية والمكانة الحقيقية شيء . إلاّ أن يؤخذ به ليمزح به أو ليلعب به لعباً قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾**[٣٧٦] .

لقد حاصر الإسلام دائرة النجس والرجس . التي حمل أصحابها معاول الهدم التي تحمل شعارات قابيل وجبابرة قوم نوح وعاد وثمود . وانطلقوا ليحاصروا الفطرة بثقافة أهل المؤتفكة وأصحاب الأيكة وزخارف فرعون . لقد حاصر الإسلام تلك الدائرة الواسعة التي تحتوي على دوائر الماضي وفي محاصرته لها تحذير لأتباع الرسالة الخاتمة . حتى لا يكون للناس على الله حجة .

٣ ـ إتمام الحجة :

لم يكتف كتاب الله بحصار معسكر الكفر كله وتحذير المؤمنين منه . وإنما قضى الله أن العلم النافع يناله المؤمنون فقط . لذا أعلنت الشريعة الخاتمة أن المعارف الحقيقية تكون في متناول البشر عندما يصلح أخلاقه . وأن السعادة الحقيقية يصل الإنسان إليها عندما يكون مؤمناً بالله وكافراً بالطاغوت . أما غير ذلك من معارف وزخرف فلا تصل بالإنسان إلى طريق الهلاك وما عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم فرعون من الإنسانية ببعيد . ولما كان معسكر النفاق داخل البيت

---

(٣٧٤) الدر المنثور/ السيوطي : ٢/٦٦ .

(٣٧٥) ابن جرير : ٤/٤٠ ، الميزان : ٣/٣٨٦ .

(٣٧٦) سورة المائدة ، الآية : ٥٧ .

الإسلامي لا بد له من معارف ينطلق بها إلى عالم الفتنة . وإن معارفه سيستند فيها على كتاب الله بتأويل آياته بحيث ينتسخ دين الله وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله** ﴾(٣٧٧) قال المفسرون الزيغ هو الميل عن الإستقامة . والآية تكشف حال الناس بالنسبة إلى تلقي القرآن بمحكمه ومتشابهه . وأن منهم من هو زائغ القلب يتبع المتشابه إبتغاء الفتنة والتأويل . ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب يأخذ المحكم ويؤمن بالمتشابه . والمراد بإبتغاء الفتنة في الآية طلب إضلال الناس ومعنى الآية : يريدون بإتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله . وأمر آخر هو أعظم من ذلك . وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن . ومآخذ أحكام الحلال والحرام حتى يستغنوا عن إتباع محكمات الدين فينسخ بذلك دين الله من أصله »(٣٧٨) لما كان معسكر النفاق سيفرز الذين يتاجرون بالمتشابه . وفيهم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان »(٣٧٩) فإن كتاب الله عزل هذا الصنف عن معارفه وهو قوله تعالى : ﴿ **إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلاّ المطهرون** ﴾(٣٨٠) فمس الكتاب لا يقف عند الطهارة من الخبث أو الحدث عند مسك الكتاب باليد . بل ينطلق نحو تعريف أوسع . فإذا كانت الأيدي التي تمسه يجب أن تكون طاهرة فكذلك يجب أن تكون العقول التي تمسه طاهرة . ولأن عقول المنافقون ليس عليها مسحة من طهارة . فإن الله قضى أن لا يصيبهم علم نافع . ليتخبطوا في عالم المتشابه الذي يقودهم إلى الهلاك ومن ورائهم الذين مضغوا علومهم . وفي قوله تعالى : ﴿ **لا يمسه إلاّ المطهرون** ﴾ قال المفسرون : مسه هو العلم به . والمطهرون هم الذين طهر الله نفوسهم من أرجاس المعاصي وقاذورات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك وأدق وهو تطهير قلوبهم من التعلق بغير الله . وهذا المعنى من التطهير هو المناسب

---

(٣٧٧) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٣٧٨) الميزان : ٣/٢٣ .

(٣٧٩) رواه ابن عدي (كشف الخفاء : ١/١٦) .

(٣٨٠) سورة الواقعة ، الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث »[٣٨١] .

إن داخل البيت الإسلامي فريقان : فريق دسه معسكر الإنحراف والأهواء وفريق أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وكتاب الله يقرأه هذا وذاك . ومس الكتاب عند فريق يقود إلى تأويل الكتاب بحيث لا يكون الإسلام إلّا اسماً ولا يكون القرآن إلّا رسماً . بينما يكون عند فريقاً آخر مرشداً للبشرية ليسير بها نحو أهداف الله . ولأن الرسالة الخاتمة لها أهداف . فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرن كتاب الله بالعترة الطاهرة وأعلن أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . أما فريق اللاهدف واللاغاية فلقد أخبر النبي بأنهم عند الحوض سيقال لهم سحقاً سحقاً كما بينا من قبل . ولأن تأويل القرآن ووضعه في غير مواضعه وكذا إدعاء إنسان ما أنه أحق بالتأويل من الذين نص عليهم رسول بعد أمراً خطيراً تترتب عليه أمور خطيرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثر ما أتخوف على أمتي بعدي رجل يتأول القرآن . فيضعه على غير مواضعه . ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره »[٣٨٢] لقد حاصر كتاب الله دوائر الرجس والنجس . وحذر من الإقتراب من هذه الدوائر . وأمر كتاب الله بالجماعة . ولا جماعة إلّا بإمام مشهود له بالعلم من رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يقوم بدين الله . إلّا من حاطه من جميع جوانبه »[٣٨٣] وكما أن هناك جماعة يقودها إمامها إلى الجنة ففي البيت الإسلامي أيضاً جماعات يقودها أئمتها إلى النار فعن حذيفة قال : سألت رسول الله (ص) : هل بعد ذلك الخير من شر ؟ فقال : « نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : صفهم لنا ؟ قال : « هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قلت : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ؟ قال : « فاعتزل تلك الفرق كلها . ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[٣٨٤] في هذا الحديث كُشف الستار عن

(٣٨١) الميزان : ١٩/١٣٧ .
(٣٨٢) رواه الطبراني في الأوسط (كنز العمال : ١١/٢٠٠) .
(٣٨٣) رواه أبو نعيم (كنز العمال : ٣/٨٤) .
(٣٨٤) مسلم : ٦/٢٠ .

أجهزة الصد والفتنة الذين يدعون إلى النار مستخدمين في ذلك رموز الإسلام . وأمر عليه الصلاة والسلام بالإلتزام بالجماعة والإمام ولا إمام إلاّ بكتاب الله . ولم ينكر على حذيفة قوله : « فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام » بل قدم الدواء لهذا الداء لعلمه أن هذا واقع لا محالة . فأمر باعتزال الفرق كلها . وأمر بالعض على أصل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء حتى يأتي الموت فيجده على ذلك . لقد قامت الحجة على الماضي والحاضر والمستقبل . ولا إجبار في دين الله في جميع الأحوال .

٤ ـ يوم الخميس والرحيل :

على امتداد الرسالة كان صلى الله عليه وآله وسلم يتحدث إلى القافلة البشرية . كما تحدث الأنبياء من قبل . فنادى بالعدل مبيناً أن الإنسانية لم توجد ليأكل القوي فيها الضعيف . وإنما ليعيش هذا وذاك بإحساس أن كل منهما في حاجة إلى الآخر وأن فوق الجميع قوة الله القادر على كل شيء . وبهذه القوة يرزقون وبها يموتون ويبعثون يوم القيامة . وأنذر الجبابرة مبيناً أن فناء الباطل بالحق . وأن الذي يخرج عن معيار التوازن قوياً كان أو ضعيفاً فإنه يطارد في الكون أمام الأمواج كقوم نوح أو أمام الرياح كقوم عاد أو تحت الصيحة كثمود أو تحت الظلة كأصحاب الأيكة إلى غير ذلك من عذاب الله الغير مردود . وعندما أتم الله رسالته أتى الإنسانية . بآخر أنبيائه صلى الله عليه وآله وسلم . وعندما سدت جميع المنافذ التي يدخل منها الشيطان وأتباعه ليكون في هذا حجة على من يفتح نافذة للشيطان . تحت جلده أو داخل أسرته أو في مجتمعه الذي يعيش فيه . جاء وقت رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ولقد روي أن دموعه كانت تجري كثيراً في آخر أيامه صلى الله عليه وآله وسلم . وذلك لأنه كان يعلم من ربه الأحداث التي ستعصف بالأمة وتنتهي بالظالمين إلى عقاب الله المؤجل . كان يعلم أموراً روي أنه لم يرى بعدها ضاحكاً حتى مات . ولهذا كان عليه الصلاة والسلام حريصاً رغم إتمام الحجة أن يحذر مما سيقع ليكون كل تحذير يضاف حجة فوق الحجة . . . لتعلم الإنسانية بعد ذلك أن الطريق يعج بالفتن وهذه الفتن لم تأتِ من نفسها . فيحذر كل عضو فيها أن يكون من صناعها وحتى لا يصيبه العذاب . والله لا يظلم الناس والعذاب الذي يراه الناس ما هو إلاّ نتيجة طبيعية

لأعمـالهم . لقد كـان النبي في أيامـه الأخيرة يـدفع العـذاب بغرس التـوحيـد في النفـوس والدعـوة إلى الإعتصام بكتـاب الله وسنّته التي يبلغهـا عنـه من لا يكـذب عليه . والروايات عن أيامه الأخيرة صلى الله عليه وآله وسلم عديدة . منها روايات تتحدث عن بعث أسامة . حيث وضع النبي كل كبار الصحابة عدا علياً تحت قيادة أسامة بن زيد . وأمرهم بالخروج ولكن بعض الصحابة استصغروا أسامـة في قيادة هذه الحملة العسكرية وطعنوا فيه . فقال لهم النبي : « إن تـطعنوا في إمـارته فقـد طعنتم في إمـارة أبيه من قبـل »[٣٨٥] قال في فتـح الباري[٣٨٦]: كان الطاعن فيه من ينتسب إلى النفـاق ، وبعد أن قـال رسول الله ذلـك رفض ما ذهبـوا إليـه وطـالبهم بالخروج . ومات النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن تخرج حملة أسامة . ولم تخرج هذه الحملة إلّا في عهد أبي بكر . وروايـات الطعن في أسـامة واستصغـاره رغم تعيين الرسول له . روايات كثيـرة ترى في كتب التـراجم والسير والحـديث . ومن روايات الأيام الأخيـرة ما رواه الإمـام أحمد عن جـابر أن النبي صلى الله عليـه وآله وسلم . دعا عند موته بصحيفة ليكتب كتـاباً لا يضلون بعـده . فخالف عليهـا عمـر بن الخطاب حتى رفضهـا[٣٨٧] وجـاء في صحيـح البخـاري عن إبن عبـاس قال : لما حضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال : هلمَّ اكتب إليكم كتاباً لن تضلوا بعده . قال عمر إن النبي صلى الله عليـه وسلم غلبه الـوجـع . وعنـدكم القـرآن فحسبنـا كتـاب الله . واختلف أهـل البيت . واختصموا فمنهم من يقول : قـربوا يكتب لكم رسـول الله صلى الله عليه وسلم كتـاباً لن تضلوا بعـده . ومنهم من يقول مـا قالـه عمر . فلمـا أكثـروا اللغط والإختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قوموا عني »[٣٨٨] وروى الإمام

(٣٨٥) رواه البخاري في كتاب الأحكام .

(٣٨٦) فتح الباري : ١٣/١٨٠ .

(٣٨٧) رواه أحمد وقال رواه أحمد وفيه ابن بهيقة وفيه خلاف . وقال صاحب الفتح الرباني .
قلت : أي لأنه عن من في هذا الحديث وقالوا إذا عن ابن بهيقة فحديثه ضعيف وإذا قال حدثنا فحديثه صحيح أو حسن (الفتح الرباني : ٢١/١٣٦) .

(٣٨٨) صحيح البخاري : ٤/٢٧١ .

مسلم عن سعيد بن جبير عن إبن عباس انه قال : يوم الخميس وما يوم الخميس ؟ ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إئتوني بالكتف والدواة ـ أو أللوح والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً . فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجر[389] وعند البخاري : « فقال إئتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً . فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا : ما له أهجر »[390] وزاد البخاري وأحمد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه »[391] .

وفي لسان العرب : يهجر هجراً . إذا كثر الكلام فيما لا ينبغي . وهجر يهجر هجراً . بالفتح . إذا خلط في كلامه وإذا هذى[392] وقال إبن الأثير في النهاية : الهجر بالضم هو الخنا والقبيح من القول[393] . وأقر إبن الأثير كما في لسان العرب وفي النهاية بأن القائل هو عمر بن الخطاب . معتذراً بأن أقل ما يقبل في هذا المقام أن يكون قد قال : « أهجر » على سبيل الإستفهام .

ومما رواه الطبراني في هذا الحدث عن عمر بن الخطاب قال : لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم . قال : ادعوا لي بصحيفة ودواة أكتب كتاباً لا تضلوا بعده أبداً . فقال النسوة من وراء الستر : ألا تسمعون ما يقول رسول الله ؟ فقلت : إنكن صواحبات يوسف . إذا مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عصرتن أعينكن . وإذا صح ركبتن عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهن فإنهن خير منكم »[394] وخلاصة أحاديث الصحيفة . إن ردود النبي صلى الله عليه وآله وسلم على من حوله . لم تكن تحمل جانب من جوانب الرضا . فعندما قالوا حسبنا كتاب الله . وأكثروا اللغط والإختلاف قال : « قوموا

---

(389) صحيح مسلم : ٥/٧٦ .
(390) البخاري : ٢/٢٠٢ .
(391) البخاري : ٢/٢٠٢ ، أحمد (الفتح : ٢١/٢٣٤) .
(392) لسان العرب : ٥٥/٤٦١٨ .
(393) النهاية : ٤/٢٤٠ .
(394) الطبراني في الأوسط (كنز العمال : ٥/٦٤٤) .

عني » إن الرسول لا يقف على أرضية من اللغط والإختلاف . الرسول جاء ليتكلم وليستمع الناس . والرسول عندما يتكلم لا ينطق عن الهوى لهذا فرض الله تعالى على الناس طاعة النبي في جميع الأحوال. وعندما قالوا : هجر . أو : أهجر . قال : « دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه » وأيضاً ما قاله عن النسوة عندما قالوا : ألا تسمعون ما يقول رسول الله ؟ قال : دعوهن فإنهن خير منكم . فجميع هذه الردود لا تحمل معنى من معاني الرضا على سير الأحداث ويؤيد هذا بكاء إبن عباس . يوم الخميس وما يوم الخميس ؟ وذهب أكثر من باحث إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصر على كتابة الصحيفة التي لا يضلوا بعدها أبداً . لأن قولهم : « هجر » أو « أهجر » يمكن أن يكون مقدمة يشكك بها البعض فيما سيكتبه الرسول . بمعنى أن الرسول كتب ما كتب وهو في حالة لا تسمح له بذلك . والتشكيك مكتوب ربما يتعدى هذا المكتوب إلى مكتوب آخر تحت هذه الحجة . وقال آخرون : عندما أكثروا اللغط والإختلاف . علم أن الإختلاف واقع من بعده لا محالة كما أخبره ربه . ولذا اكتفى بما أقامه عليهم قبل ذلك من الحجج ورحل النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي المكي المدني صلى الله عليه وآله وسلم . رحل النبي الخاتم للمسيرة الشريفة التي تقدمها نوح وتوسطها إبراهيم عليهما السلام . ونشهد انه قد أدى الأمانة . ونصح الأمة . وجاهد في سبيل الله حق جهاده . ونسأل الله أن يحشرنا تحت لوائه . وأن يسقينا من حوضه جرعة ماء لا نظمأ بعدها أبداً . والمؤمنين أجمعين . إنه سميع مجيب .

حفائر قريش

﴿ وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾
سورة الفرقان ، الآية : ٣٠

* حفائر قريش

[الطريق إلى سنن الأولين]

أولاً : البدايات والنهايات :

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحذر من الفتن . لأن كل فتنة تصب في نهاية المطاف في سلة المسيح الدجال الذي ينتظره اليهود على امتداد طريق الطمس والقهقري . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « . . . وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلاّ لفتنة الدجال »(١) ولأن فتنة الدجال يجتمع فيها كل ثقافات معسكر الكفر والإنحراف منذ عهد نوح عليه السلام . فإن جميع الأنبياء حذروا أممهم من الإقتراب من شذوذ الذين مضوا . لأن هذا الشذوذ يحمل بصمات الدجال إليهم . وأن يتمسكوا بما معهم لأن في اختلافهم شذوذ يحمل بصمات الدجال وينطلق محتضناً لشذوذ الماضي إلى المستقبل حيث الدجال . قال النبي : « وأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلاّ حذر أمته الدجال »(٢) ولقد حذر النبي أمته أعظم تحذير . فقال : « لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من الدجال . ولن ينجو أحد مما قبلها إلاّ نجا منها »(٣) . فالذي ينجو من الدجال هو فقط الذي تفادى رياح الإنحراف والشذوذ والأهواء التي

---

(١) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح : (الزوائد : ٧/٣٣٥) .

(٢) رواه ابن ماجة : حديث ٤٠٧٧ .

(٣) رواه أحمد والبزار وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح : (١/٣٣٥) .

تحمل ثقافات أصنام الماضي والحاضر والمستقبل . . . فهذه الثقافة ستكون أرضية للدجال ولن ينجو منها إلاّ من عرفها .

ولقد حدد النبي ثلاث محطات في كل واحدة منها فتنة وطالب الأمة أن تحذرها فقال : « ثلاث من نجا منها فقد نجا . من نجا عند موتي . ومن نجا عند قتل خليفة يقتل مظلوماً وهو مصطبر يعطي الحق من نفسه ومن نجا من فتنة الدجال »[٤] . لقد أشار إلى أحداث تكون عند موته . وهذه الأحداث ستعصف بالعقول وبالقلوب . وأشار إلى أحداث تأتي عند قتل خليفة من صفاته إعطاء الحق وهذه الأحداث هي الوسط بين موته صلى الله عليه وسلم وبين ظهور الدجال . أي أحداث تحمل رياح الفرقة والإختلاف وإنقسام الأمة إلى أحزاب كل حزب يلعن الآخر . وما تلبث هذه الثقافة حتى تتعانق مع ثقافات الظلام الغابر لتمثل ثقافة عالمية واحدة يسهر عليها علماء الطمس والقهقري وتحميها القوى الدولية المتعددة ويعتبر الخارج عليها خارج عن القانون . ثم يأتي الدجال على إثر ذلك .

لقد حذر النبي من كل فتنة . حذر زوجاته وأصحابه وكان يقول : « هل ترون ما أرى إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر »[٥] قال النووي : أي أنها كثيرة وتعم الناس . لا تختص بها طائفة . وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كوقعة الجمل وصفّين والحرة ومقتل عثمان والحسين وغير ذلك[٦] وعن إبن عمر قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة فقال : «رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان »[٧] وحذر النبي جميع الأجيال المؤمنة التي تأتي في المستقبل والتي تجد نفسها في دوائر الفتن الماضية . حذرهم أن تصيبهم الرياح التي أصابت الذين ظلموا . لأن رياح الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة . بل تخترق الماضي ومنه إلى الحاضر ثم إلى المستقبل .

---

(٤) رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ربيعة بن لقيط وقد وثقه ورواه الخطيب في المتفق واللفظ له (كنز العمال : ١١/١٨٠) (الزوائد : ٧/٣٣٤) .
(٥) رواه مسلم : ٨/١٦٨ .
(٦) رواه مسلم : ٨/١٦٨ .
(٧) مسلم : ٨/١٨١ .

ويستقبلها كل من وقع هواه على ثقافتها . قال النبي : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير . عوداً عوداً . فأي قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء . وأي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبين . على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض . والآخر أسود مُرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلّا ما أشرب من هواه »[^8] وللنبي إرشادات عظيمة لكل مؤمن ضعيف يعيش في زمان هذه الفتن . منها أن يعتزل في حاله . وأن يصلي وراء هذا وذاك في حالة كي ينجو بإيمانه في عالم يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي . وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس »[^9] وإرشادات النبي لم تدعو الفرص الإيمان بالقوة لأن القاعدة أن دين الله لا إجبار فيه . فالمجتمع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحييه الله حياة طيبة . أما الذي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف فله في الكون ضربة لا تخطئة . وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

١ ـ أول الوهـــن :

تواتر في كتب السير والتواريخ والصحاح والمسانيد أن الأنصار بعد وفاة النبي رأى معظمهم أن لا تكون البيعة إلّا لعلي بن أبي طالب . ولكن نقل إليهم أن المهاجرين أرادوا الأمر . وعندئذ أخرج الأنصار سعد بن عبادة وهو مريض وقالوا : تولى هذا الأمر بعد النبي سعد بن عبادة فإن أبت مهاجرة قريش وقالوا : نحن المهاجرون الأولون . فإنا نقول : منا أمير ومنكم أمير . وعندئذ خرج من سقيفة بني ساعدة التي كان الأنصار يجتمعون فيها صوت يقول : « هذا أول الوهن » وعندما علم عمر بن الخطاب إنطلق إلى أبي بكر فقال له أبو بكر . ابسط يدك لأبايعك . فقال له عمر : أنت أفضل مني . فقال له أبو بكر : أنت أقوى مني . فقال عمر : فإن قوتي لك مع فضلك . فبايعه[*] وانطلقا سوياً إلى السقيفة

[^8]: (٨) مسلم : ١/٨٩ .
[^9]: (٩) مسلم : ٥/٢٠ .

(*) تاريخ الخلفاء : ص٦٥ .

ومعهما بعض المهاجرين ولم يكن من بينهم أحداً من بني هاشم . وفي السقيفة خطب أبو بكر وأشاد بسابقة قريش وبفضل الأنصار[١٠] . ومرت المحاورات بين منا أمير ومنكم أمير . أو منا أمير ومنكم وزير . وانتهى المطاف بأن لقب المسلمون أبو بكر بلقب خليفة رسول الله[١١] . ولم يبايع سعد بن عبادة وتوعد المهاجرين وقصة تخلفه عن بيعة أبي بكر مشهورة[١٢] وروي أنه خرج إلى الشام وأن الجن قتلوه وقالوا فيه شعراً . وروي أنه لما انتهت إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبناء السقيفة قال : ما قالت الأنصار ؟ قالوا : قالت منا أمير ومنكم أمير . قال : فهلا احتججتم عليهم بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم[١٣] . قالوا : وما في هذا من الحجة عليهم ؟ قال : لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم . ثم قال : فماذا قالت قريش ؟ قالوا : احتجت بانها شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة[١٤] .

والباحث في أوراق ما بعد وفاة الرسول لا يجد المعلومات الكافية عن مجريات الأحداث . ومن المؤكد أن معلومات كثيرة قد فقدت وهي في طريقها إلينا . وإن معلومات أخرى قد حجبت عندما أمر الخلفاء بعدم التوسع في رواية الحديث بحجة أنه يؤثر على القرآن . ولكن من خلال المعلومات التي وصلتنا في كتب السير والتواريخ وغيرها . يمكن للباحث أن يتصور . أنه بعد فتح مكة إتسعت رقعة النفاق ودخل الإسلام الذين قال الله فيهم : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾(*) وهؤلاء كان الرسول يعرفهم في حياته بل وحذر منهم وطرد

---

(١٠) أنظر الطبري وابن الأثير حوادث سنة ١١ .

(١١) الاصابة : ٤/١٠١ .

(١٢) الاصابة : ٣/٨٠ .

(١٣) وصية الرسول بالأنصار رواها البخاري ومسلم وفيها : « أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي . وقد قضوا الذي عليهم . وبقي الذي لهم . فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » البخاري : ٢/٣١٤ ، مسلم حديث رقم١٩٤٩ .

(١٤) أراد بالشجرة شجرة النبوة والثمرة آل البيت .

(*) سورة يس ، الآيتان : ٩ ـ ١٠ .

بعضهم فمن الممكن أن يقال أن هذا الفريق الذي إستصغر أسامة بن زيد في قيادة الحملة العسكرية . كره قيادة علي بن أبي طالب للأمة لأمور عـديدة منهـا أن سيفه كان له أثراً بليغاً في رقـابهم . لكنه لم يفصـح عن هذه الأمـور للصحابـة الكبار . وإنمـا عرض رفضـه على أساس إستصغـار علي . وأن قيادتـه ستفرق الشيـوخ من حوله . ويمكن أن يكون كبار الصحابة قد علموا مـواطن القوة عنـد هذا الفـريق . فأبعدوا علياً حتى لا تكون فرقة وإختلاف . ويمكن أن نكتشف ذلك من عدة أقوال حـول هذا الحـدث . منها قـول عمر كمـا جاء في الصحيـح : « أن بيعة أبي بكـر كـانت فلتة وقى الله شـرها » قـال في لسان العـرب : أراد الفجأة . لأنهـا لم تنتظر العوام وإنما إبتدرها أكابر الصحابة . . والفلتة كل شيء فعل من غير رويـة . وشبه يوم موت النبي بالفلتة في وقوع الشر من إرتداد العرب . والجري على عادة العرب في ألا يسود القبيلة إلاّ رجل منهـا . . ومنها مـا رواه ابن عباس . قـال : كنت أسير مع عمر بن الخطاب في ليلة . فقال : أم والله يـا بني عبد المـطلب لقد كـان علي فيكم أولى بهـذا الأمـر مني ومن أبي بكـر . فقلت في نفسي : لا أقـالني الله إن أقلتـه . فقلت : أنت تقول ذلـك يا أميـر المؤمنين وأنت وصـاحبـك وثبتمـا عليـه واقتـرعتما الأمـر منه دون النـاس ؟ فقال : إليكم يـا بني عبد المـطلب . أما إنكم أصحاب عمر بن الخطاب . قال : فتأخرت عنه وتقدم هنية . ثم قال عمر : سر لا سرت وقال : أعد علي كلامك . فقلت : إنما ذكرت شيئاً فرددت عليك جـوابه . ولو سكت سكتنا . فقال : إنا والله ما فعلنا ما فعلناه عن عداوة . ولكن استصغرنـاه وخشينا أن لا تجتمع عليه العرب وقريش لما قد وترها . قال : فأردت أن أقول كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعثه فينطح كبشها أفتستصغره أنت وصاحبك . فقـال : لا جـرم فكيف تـرى ؟ والله لا نقـطع أمـراً دونـه . ولا نعمـل شيئـاً حتى نستأذنه[١٥] وما ذهبنا إليه يقترب أيضاً مما رواه رافع الطائي قـال : حدثني أبـو بكر عن بيعته فقال : « بـايعوني وقبلتهـا منهم . وتخوفت أن تكـون فتنة يكـون بعدهـا ردة » [١٦] وأخـرج ابن إسحاق و ابن عـابد في مغـازيه عنـه أنه قـال لأبي بكر : مـا

(١٥) محاضرات الراغب : ٢/٢١٣ ونقل ابن أبي الحديد مثله في شرح النهج ١/١٣٤ عن كتاب السقيفة للجوهري .

(١٦) تاريخ الخلفاء/ السيوطي : ٦٦ .

حملك على أن تلي أمر الناس وقد نهيتني أن أتأمر على إثنين ؟ قال : لم أجد من ذلك بداً . خشيت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الفرقة(١٧) .

فقد تكون البداية أن دوائر النفاق داخل البيت الإسلامي قد لوجت بقبضتها فكان ما كان ولكن الذي يقف في أول الطريق لا يرى إلّا أول الطريق أو وسطه وأما نهاية الطريق فإنها لا ترى إلّا بعد أن تجيء . ونهاية الطريق كانت بكل المقاييس مأساة لا ينكرها باحث منصف لقد تقاتلت القبائل والطوائف وقامت بتصفية حساباتها على حساب الإسلام . وأصبح كرسي الحكم غاية وهدف لغلمان قريش وسفهائها . بل أصبح فيما بعد كعجل بني إسرائيل حوله المستفيد منه والخائف من عضبة .

٢ ـ الحفائــــر :

في عصر عمر بن الخطاب طفح على السطح فريق يذهب إلى المساجد بوجهه ويطلب الإمارة بقلبه . (منهم) : المغيرة بن شعبة . ذكر البغوي وابن شاهين أن المغيرة قال : أنا أول من رشا في الإسلام جئت إلى حاجب عمر وكنت أجالسه . فقلت له : خذ هذه العمامة فالبسها . فكان يأنس بي ويأذن لي أن أجلس من داخل الباب . فكنت أجلس في القائلة . فيمر المار فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة إنه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحداً(١٨) . واستعمل عمر المغيرة على البحرين فكرهوه وشكوا منه فعزله . ثم ولاه البصرة . ثم عزله لما شهد عليه أبو بكرة بالزنا . . ثم ولاه الكوفة . وأقره عثمان ثم عزله وبعد قتل عثمان حضر مع الحكمين . ثم بايع معاوية فولاه الكوفة . والمغيرة الذي إعتبر نفسه أول من رشا في الإسلام . إعتبره التاريخ أول من وضع بذرة الحكم الملكي في الإسلام . وذلك عندما علم أن معاوية سيعزله أشار إليه بتنصيب ابنه يزيد من بعده . فلم يعزله معاوية وطلب منه أن يعد العدة لذلك .

(ومنهم) : معاوية بن أبي سفيان ولاه عمر الشام وأقره عثمان . ثم إستمر فلم يبايع علياً بعد قتل عثمان . ثم حاربه وإستقل بالشام ثم أضاف إليها مصر ثم

---

(١٧) تاريخ الخلفاء/ السيوطي : ٦٦ .
(١٨) الاصابة : ٦/١٣٢ .

تسمى بالخلافة بعد صلحه مع الحسن . وقال في الإصابة : عاش إبن هند ـ يعني معاوية ـ عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة[١٩] . ومعاوية أسلم يوم الفتح مع أبيه وأمه . وروى البعض أنه أسلم بعد الحديبية وكتم إسلامه حتى أظهره يوم الفتح وإنه كان في عمرة القضاء مسلماً . وهذا يعارضه ما ثبت في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في العمرة في أشهر الحج . فعلناها وهذا يومئذ كافر[٢٠] .

(ومنهم) : عمرو بن العاص . نظر عمر بن الخطاب إليه وهو يمشي فقال : ما ينبغي لأبي عبدالله أن يمشي على الأرض إلّا أميراً[٢١] ولاه عمر فلسطين وذكر ابن سعد . ان عثمان لما عزله عن مصر قدم إلى المدينة . فجعل يطعن على عثمان . فبلغ عثمان ذلك فزجره . فخرج عمرو إلى أرض له بفلسطين . وبعد قتل عثمان بلغته بيعة علي ثم بلغته وقعة الجمل . وخروج معاوية . فلحق بمعاوية لعلمه أن علياً لا يشركه في أمره[٢٢] . وساند معاوية مقابل شيئاً واحداً . أن يعطيه معاوية مصر طعمة ما بقي[*] .

فهذه الطائفة وغيرهم ما كانت الدعوة هدفاً من أهدافهم وإنما كان الكرسي هو الهدف . كانوا في أول الطريق أصحاب أحمال خفيفة . أما في نهاية الطريق فقد أمطروا الأمة بفتن لا حد لها . وإذا كان عمر بن الخطاب قد اعتمد على سواعد الولاة القوية في بداية الطريق . فإن عثمان بن عفان لم يتخير إلّا أقاربه حتى ولو كانوا من الذين طردهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(ومنهم) : عبدالله بن أبي السرح . قال في الإصابة . كان أبوه من المنافقين[٢٣] . ويوم فتح مكة أمن الرسول الناس كلهم إلّا أربعة نفر منهم : إبن أبي السرح . الذي إختبأ عند عثمان وكان أخوه من الرضاعة . فجاء به عثمان

---

(١٩) الاصابة : ٦/١١٣ .
(٢٠) الاصابة : ٦/١١٣ .
(٢١) الاصابة : ٥/٣ .
(٢٢) الاصابة : ٦/٦١ .
(*) ابن الأثير : ١/١٧٩ .
(٢٣) الاصابة : ٤/٧٧ .

حتى أوقفه على النبي وهو يبايع الناس . فقال يا رسول الله : بايع عبدالله . فبايعه بعد ثلاث . ثم أقبل النبي على أصحابه وقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن مبايعته فيقتله[٢٤] وعبدالله هذا ولاه عثمان على مصر . وكان على الصعيد في زمن عمر ثم ضم إليه عثمان مصر كلها[٢٥] وفي مصر فرض عبدالله الضرائب وعامل الشعب هناك بقسوة . وترتب على هذا كله الخروج على عثمان وقتله .

(ومنهم) : الوليد بن عقبة الذي نزل فيه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ وقال ابن عبد البر لا خلاف بين أهل العلم ان الآية نزلت فيه[٢٦] والوليد نشأ في كنف عثمان وكان أخوه لأمه . إستخلفه عثمان على الكوفة . وقصة صلاته بالناس الصبح أربعاً وهو سكران مشهورة مخرجة[٢٧] وكان الوليد شاعراً وروي أنه كان يحرض معاوية على قتال علي بكتبه وبشعره[٢٨] .

(ومنهم) : الحكم بن العاص . عم عثمان ووالد مروان . أسلم يوم الفتح وسكن المدينة ثم نفاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف . ثم أعيد إلى المدينة في خلافة عثمان[٢٩] وروي في سبب طرده أنه كان يتبع سر رسول الله[٣٠] وروي أن أصحاب النبي دخلوا عليه وهو يلعن الحكم بن أبي العاص . فقالوا : أفلا نلعنه نحن ؟ قال : لا . فإني أنظر إلى بنيه يصعدون منبري وينزلونه . فقالوا يا رسول الله ألا نأخذهم ؟ قال : لا . ونفاه[٣١] وروي أن الحكم مر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال النبي : « ويل لأمتي مما في صلب هذا »[٣٢]

---

(٢٤) الاصابة : ٤/٧٧ .
(٢٥) الاصابة : ٤/٧٧ .
(٢٦) الاصابة : ٦/٣٢١ .
(٢٧) الاصابة : ٦/٣٢٢ .
(٢٨) الاصابة : ٦/٣٢٢ .
(٢٩) الاصابة : ٢/٢٨ .
(٣٠) الاصابة : ٢/٢٩ .
(٣١) الاصابة : ٢/٢٨ .
(٣٢) الاصابة : ٢/٢٩ .

والنبي لم يأمر بقتله . لأن الحكم وأمثاله ثمرة طريق وباب للفتن والرسالة أغلقت في وجوه هؤلاء الأبواب . فمن فتح الباب عليه إستقبل الرياح .

(ومنهم) : مروان بن الحكم . وهو ابن عم عثمان وكاتبه في خلافته[٣٣] كان قد خرج مع أبيه إلى الطائف حين نفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وعندما أذن عثمان للحكم في الرجوع إلى المدينة رجع مع أبيه[٣٤] روي أن عائشة قالت لمروان : أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله . لعن أباك وأنت في صلبه[٣٥] . وكان مروان من أسباب قتل عثمان[٣٦] وشهد الجمل مع عائشة ثم صفّين مع معاوية ثم ولي أمرة المدينة لمعاوية وخرج منها في أوائل إمرة يزيد بن معاوية . وبقي بالشام إلى إن مات معاوية بن يزيد بن معاوية . فبايع بعض أهل الشام مروان . وعندما تمت له المبايعة من هؤلاء . أراد أن يستحوذ على الشام بأسرها . فكانت الواقعة بينه وبين الضحاك بن قيس . وانتصر مروان واستوثق له ملك الشام . ثم توجه إلى مصر فاستولى عليها . وكان الطريد هذا وابن الطريد يلقب حينئذ بأمير المؤمنين في بلاده . إلى ان مات فعهد إلى ولده (أمير المؤمنين) عبد الملك بن مروان . لتبدأ سلسلة أمراء المؤمنين الذين طرد رسول الله أكبر رأس فيهم إن الفريق الذي كان يذهب إلى المساجد بوجهه ويطلب الإمارة بقلبه . حفر في نفوس الشعوب الحفائر العديدة . وهذه الحفائر أنتجت ثقافة . وعلى هذه الثقافة جاء غلمان قريش وسفهائها كل منهم يطلب الكرسي لنفسه . ولقد مهدت حفائر كل حلقة للأخرى حتى إستقرت عند الطريد الذي مهد إلى الضياع . ولقد كان بين كل حلقة وأخرى فتوحات . ولكن الفتوحات جاءت بالأموال حتى كثر التنافس الذي جر الفتن . والإسلام لم يكن في أصوله البحث عن الأموال والنعيم . وإنما في أصوله البحث عن الفطرة التي تئن تحت أحمال الجاهلية في أصول الإسلام أن وضع الفطرة في المكان الصحيح يترتب عليه

---

(٣٣) الاصابة : ٦/١٥٦ .
(٣٤) الاصابة : ٦/١٥٧ .
(٣٥) قال في الاصابة أصل القصة عند البخاري بدون هذه الزيادة ٢/٢٩ .
(٣٦) الاصابة : ٦/١٥٧ .

دوران صاحبها في إتجاه حركة الكون . ومع هذا الدوران الصحيح سيأتي حتماً الإطعام والأمن . وليس معنى ذلك أن الفتوحات كانت سياسة خاطئة وأن حركة جميع الولاة كانت في إتجاه الكرسي والمال . فالتاريخ يشهد بأن العديد من الفتوحات صان بيضة الإسلام من أعدائه المحيطين به . وأن من الولاة من عمل إبتغاء مرضاة الله . ولكن حركة الفريق الذي قدمناه وأمثالهم طغت على أعمال غيرهم . ووضعت مقدمات أثمرت نتائج هي بكل المقاييس لا علاقة لها بالإسلام إلّا بالإسم . وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الحركة لم تكن في الإتجاه الصحيح . فنحن لا نصدق على سبيل المثال لا الحصر ان ضرب الكعبة ورميها بالمنجانيق أو دخول الخيل إلى مسجد الرسول في واقعة الحرة أو قتل الحسين . لا نصدق أن كل هذا كان نتيجة صحيحة لمقدمة صحيحة . ولأننا لا نصدق فإننا نقول إن حركة هؤلاء الولاة منذ البداية كانت تعمل لخدمة هوى تلبس بالإسلام .

٣ ـ حفائر أهل الكتاب والأهواء :

إن الكفار من أهل الكتاب يقاتلون معاركهم من وراء جدر . فيدخلون المعارك وراء جدار الجواسيس ويقفون بأسلحتهم وراء الجدر المنيعة . وعلى هذا إذا رأيناهم داخل منطقة ما من البيت الإسلامي إجتماعية أو تربوية أو إقتصادية يجب أن نعلم إما أن لهم جدر تحمي حركتهم وإما فتكت أسلحتهم بهذه المنطقة فدخلوها وهم يعلمون أن أحداً لن يجابههم . وأهل الكتاب لم يستطيعوا أن يقاتلوا أمام المسلمين بسلاح . ولقد هزموا في جميع معاركهم . وبعد موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بدأوا يعدون لمعارك من نوع آخر يساعدهم فيها المنافقين داخل البيت الإسلامي . ومن هذه المعارك وضع الأحاديث ورواية القصص التي تحمل بين طياتها دماء أهل الكتاب . ولقد ساعد أهل الكتاب على ذلك أن الساحة أعطتهم هذه الفرصة الثمنية وهي لا تدري .

في عصر الرسول كانت رواية الحديث معروفة عملاً يقول الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ . ولم تنقطع رواية الحديث حتى يوم خطبة الوداع حيث قال فيها النبي : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وربما يكون الرسول قد أمر في صدر الدعوة بعدم رواية الحديث حتى يتمكن القرآن من النفوس . ولكن الحديث اتصلت روايته بعد ذلك . لأن الحديث مكمل

للتشريع . ومبين لمجملات القرآن ومخصص لعموماته ومطلقاته . كما تكفل لكثير من النواحي الأخلاقية والإجتماعية والتربوية . والذي حدث بعد وفاة الرسول أن رواية الحديث كانت في نطاق ضيق . وفي عصر عمر بن الخطاب ضاقت الدائرة أكثر وكان قد قال : « قلوا الرواية عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم »[٣٧] ثم ضاقت أكثر عندما توعد الخليفة الناس بالعقاب عليها ونحن نختلف مع الذين قالوا : أن النهي عن الرواية والتدوين في عهد عمر كان ضرورة حتى لا يلتبس القرآن بالحديث . وحتى لا ينصرف المسلمين عن كتاب الله . وذلك لأن للقرآن أسلوب لا يبلغه الإنس والجن مجتمعين . فكيف يلتبس القرآن بالحديث ؟ وكيف ينصرف الناس عن كتاب الله وهم يقرأونه في صلاتهم كل يوم . ويسهرون معه ليلاً طويلاً . وهل معنى إننا نخاف على القرآن أن نضيع سنة الرسول ؟ لقد كان من الأفضل أن تجتمع هيئة من الأمناء وتدون الحديث الصحيح كله بعد تدوين القرآن . وبهذا يقطع الطريق على الكذابين والوضاعين إما أن تمنع رواية الحديث تحت عنوان المحافظة على القرآن . فهذا لا يقبله عقل سليم ويفتح الطريق للقول بأن عدم الرواية والتدوين الهدف منه التعتيم على من طالب الرسول بالإلتفاف حولهم أو الذين حذر منهم وعلى أي حال فكما ذكرنا من قبل أن معلومات كثيرة فقدت عن هذه الفترة . ولا ندري السبب الحقيقي لأمر عمر بن الخطاب بعدم الرواية . ولكن من المؤكد أن حركة الوضع ترعرعت في هذا السكون وحمل شجرتها كعب الأحبار . وكعب كان من أكبر أحبار اليهود . أسلم في عهد عمر وسكن المدينة في خلافته . ثم تحول إلى الشام في عهد عثمان . فاستصغاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه !! ويقول الشيخ رشيد رضا : أن كعب كان من زنادقة اليهود . الذين أظهروا الإسلام والعبادة لتقبل أقوالهم في الدين . وقد راجت دسائسه . وانخدع به بعض الصحابة ورووا عنه وتناقلوا أقواله[٣٨] وقال ابن كثير في تفسيره : لما أسلم كعب في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه . فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده من غث وسمين . . وذكر أن كعباً كان متخصص في بث

---

(٣٧) الطبري : ٥/١٩ .
(٣٨) المنار : ٥٤١ - ٢٧/٧٨٣ .

الخرافات في أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوالهم والفتن والساعة والآخرة . وهذه الأمور قادرة على خلق أرضية ثقافية واسعة تخدم مخطط كعب الأحبار . وإذا كنا لا نعرف على وجه اليقين ماذا كان يريد كعباً من بث هذه الثقافة . إلّا أننا يمكننا بملاحظة الساحة أن نتبين ذلك . فروايات كعب كانت في مجملها قريبة من القصص . فهو يقص ولا يحدث . وفي الوقت الذي كان فيه عصر عمر شبه خالياً من رواية الحديث كان هناك قصاص يقصون في المساجد[٣٩] وآخرون يقصون في مقدمة الجيوش الفاتحة[٤٠] ومن المعروف أن القصص نشأ في عهد عمر . فكعب جاء بسلعة . الساحة في حاجة إليها . وظل كعب يمد الساحة بإنتاجه حتى غمرها . وبعد عهد عمر توسع كعب في عهد عثمان ومن عنده تحول إلى الشام ليكون مستشاراً لمعاوية . الذي إتسع القص في أيامه . فكانت هناك طائفة تعرف بالقصاص تفسر القرآن الكريم . وتخرج تفسيرها بقصص كثيرة تستمدها من موروثات أهل الكتب السماوية . وكانوا يستغلون ميل الناس إلى الأخبار العجيبة فيزيدون في قصصهم[٤١] وكان للأمويون في كل بلد قاص يقص على الناس في المسجد الجامع ويدعو إلى طاعتهم[٤٢] وقد أمر معاوية أن يكون القص مرتين في اليوم مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعين للقصاص مرتبات خاصة[٤٣] .

وكما فتح عدم رواية الحديث باب القص في المساجد . وترتب على ذلك جريان دماء أهل الكتاب في هذه القصص . كذلك ترتب على عدم رواية الحديث وعلى عدم أخذ علوم القرآن من أهله إتساع دائرة الرأي . يقول الشيخ محمد عبده : « كان الصحابة إذا رأوا المصلحة في شيء يحكمون به وإن خالف السنّة المتبعة »[٤٤] ويقول الدكتور عبد الحميد متولي : وكان عمر بن الخطاب من أبرز

---

(٣٩) طبقات ابن سعد : ٣٤١/٥ .

(٤٠) أسد الغابة : ٣٤١/٥ .

(٤١) الفن ومذاهبه في النثر العربي د . شوقي ضيف : ص٦٦ .

(٤٢) خطط المقريزي : ٢٥٣/٢ عن المصدر السابق .

(٤٣) الولاة والقضاة/ للكندي : ٣٠٤ .

(٤٤) علم أصول الفقه/ الشيخ خلاف : ٣٠١ ، المنار/ رشيد رضا : ٤/٢١٠ .

شخصيات الصحابة في هذا الباب . فهو لم يقتصر فحسب على الإجتهاد . حيث لا نص من كتاب أو سنّة . وإنما ذهب إلى مدى أبعد من ذلك . إذ كان يعمد إلى الإجتهاد . أو بعبارة أخرى : « إستعمال الرأي » ليبحث عن وجه العدالة أو المصلحة حتى رغم وجود نص من الكتاب أو السنّة . فكان لذلك لا يفسر النص طبقاً لحرفيته . وإنما يفسره طبقاً لحكمته . أي طبقاً لباطنه ولو أدى هذا التفسير إلى عدم تطبيق النص[٤٥] وقد إتسع مفهوم الرأي وذهب في كل واد بعد عصر عمر . وعندما ظهرت المذاهب والأحزاب . كان كل فريق ينظر إلى النصوص بعين مذهبهم « أي أنهم كانوا لا يرجعون إلى نص القرآن أو الحديث . إلاّ ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهب إمامهم . ولو أدى ذلك إلى سلوك التعسف في التفسير . ومما يذكر عن أحد علماء الحنفية وهو عبدالله الكرخي المتوفى ٣٤٠هـ أنه قال : « كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا ـ يقصد أتباع المذهب ـ فهو مؤول أو منسوخ »[٤٦] . وإتسعت الدائرة بعد ذلك فيقول الدكتور عبد الحميد متولي : إنه مما لا ريب فيه أن الرسول الذي خاطبه الله في كتابه الكريم بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ هو خير قدوة للبشرية . ولكن هذا لا يعني أن المسلمين في كل زمان ومكان ملزمون شرعاً أو قانوناً بالسير على نهجه واتباعه في جميع ما صدر منه من أقوال وأفعال . حقاً لقد قال الله : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ولكن الأسوة أو القدوة كما يقول الإمام ابن حزم مستحبة وليست واجبة . ولو كانت الأسوة أو القدوة واجبة لكان النص : « لقد كان عليكم »[٤٧] ! وهكذا نشأ الرأي في عصر ما قبل التدوين واستمر بعد التدوين واستقر في أغلب الدول الإسلامية تحت لافتة تقول : « الإسلام دين الدولة » مع العلم أن هذا الشعار لا يترتب عليه إلزام الدولة بتطبيق الشريعة . وكما قال البعض . ما هو إلاّ بمثابة تحية كريمة للعقيدة الدينية التي تدين بها الأغلبية أو بمثابة كفارة تقدمها الدولة لعدم إلتزامها بأحكام الشريعة الإسلامية في تشريعاتها .

---

(٤٥) أزمة الفكر السياسي في الإسلام/ د . عبد الحميد متولي : ص١٤٨ .
(٤٦) أزمة الفكر السياسي في الإسلام/ د . عبد الحميد متولي : ص٣٦ .
(٤٧) أزمة الفكر السياسي في الإسلام/ د . عبد الحميد متولي : ص٥٦ .

٤ ـ ما أشبه الليلة بالبارحة :

إذا كان كعب الأحبار قد مهد الطريق لوضع الأحاديث واتساع القصص في وقت ثم تضييق الخناق فيه على رواية الحديث . وإذا كان ظهور الرأي نتيجة حتمية لمقدمة لا رواية فيها ولا تأويل . فإن ظهور شعراء النصرانية في الساحة في وقت مبكر من وفاة الرسول كان مقدمة لنتيجة هي كارثة بجميع المقاييس. وشعراء النصرانية بدأوا في التسلل نحو المجتمع الإسلامي على امتداد عصور الفتوحات . وروي ان العديد منهم وفد على عمر بن الخطاب ومنهم حرملة بن المنذر أبو زيد الشاعر قال في الاصابة : كان نصرانياً وكان يزور عمر وعثمان(٤٨) وحرملة بن جابر قال في الاصابة : كان نصرانياً يدخل على عمر(٤٩) . والحطيئة الشاعر . قال في الاصابة : أسلم ثم إرتد . كان يقول الشعر . وكعب الأحبار يقول : هذا والله في التوراة . وكان يتردد على عمر(٥٠) وغير هؤلاء الكثير . وهؤلاء كانوا مقدمة لآخرين جاؤوا في عهد عثمان . وعن هذا العهد يقول الدكتور يوسف خليفة : بدأت الموجة في أول الأمر هادئة . حيث كانت أديرة النصارى المنتشرة في الحيرة النصرانية . تقدم ألواناً هادئة من اللهو. وتهيىء لروادها فرصة هادئة من الشراب(٥١) . ثم إتسعت الموجة . عندما بدأ الوليد بن عقبة وأبي عثمان على الكوفة وأخاه لأمه يشرب الخمر ويستمع إلى الغناء . وروي أنه كان يسمر مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح . وأنه كان يؤثر بمنادمته صديقاً له من نصارى تغلب هو أبو زبيد الطائي الشاعر . وأنه أنزله داراً على باب المسجد ثم وهبها له . فكان أبو زبيد يخرج من منزله حتى يشق الجامع على الوليد فيسهر عنده ويشرب معه . ثم يخرج فيشق المسجد وهو سكران . وروي أن الوليد صلى بالناس الصبح ذات يوم وهو سكران أربع ركعات . ثم إلتفت إلى الناس وقال : أزيدكم(٥٢) .

---

(٤٨) الاصابة/ ابن حجر : ٢/٦٠ .
(٤٩) الاصابة/ ابن حجر : ٢/٥٩ .
(٥٠) الاصابة/ ابن حجر : ٢/٦٣ .
(٥١) حياة الشعر/ د . يوسف خليفة : ص٢٠٧ .
(٥٢) أنظر هذه الأخبار في الأغاني : ٥/١٢٢ ـ ١٤٥ ، المسعودي : مروج الذهب :=

هكذا بدأت الموجة على أيدي الأمويين الأوائل . أمير يصلي سكران . وكان هذا الفعل من المقدمات التي مهدت للثورة على عثمان . ومعنى أن الأمير يتكاتف مع صديقه النصراني في حزمة واحدة . أن ثقافة اللهو قد بلغت مبلغها . وإذا كان الناس قد شهدوا في أيام عثمان أميرهم يشرب خمراً ويستمع إلى المغنيات . فإنهم في نهايات العصر الأموي شهدوا خليفة لهم يشرب الخمر . ويتغنى بها ويستمع إلى المغنيات . ويبعث في طلبهن من أقصى الأقاليم الإسلامية . بل يزيد على ذلك إستهانة بالدين وإستهتاراً به . وتحللاً من القيم الأخلاقية وإفراطاً في المجون والتهتك والخلاعة . وهو الوليد بن يزيد . الذي يصفه صاحب مروج الذهب . بأنه « صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه . وجالس الملهين وأظهر الشرب والملاهي والعزف . وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه على الخاص والعام »(٥٣) ويقول الدكتور يوسف خليفة : ومعنى هذا أننا أمام ظاهرة إجتماعية شديدة الخطر . لم يسبق للمجتمع الإسلامي أن شهد مثلها . فلأول مرة في تاريخ هذا المجتمع . نجد أنفسنا أمام خليفة ماجن متهتك خليع . نسي أنه (أمير المؤمنين) ! وأنه (إمام المسلمين !) فاندفع في حياة لاهية مستهترة حتى أطلق عليه لقب « مروان الخليع » والناس على دين ملوكهم . وفعلاً إندفع كثير من الناس يقلدون خليفتهم . دون أن يجدوا في ذلك حرجاً عليهم أو يخشوا تنفيذ الحدود فيهم . وإذا كان الوليد بن عقبة قد نفذ فيه الحد أيام عثمان عندما ثار الناس . فإن الخليفة الوليد بن يزيد . لم يجد أحداً ينفذه فيه . لأنه هو نفسه صاحب الحق الشرعي في تنفيذ الحدود . ولم يكن من المعقول . أن ينفذ الحد في نفسه . ولم يكن من المعقول أيضاً أن ينفذه في غيره(٥٤) ولكنه على أي حال فقه الرأي ..وهكذا بدأت الحلقة بأمير وانتهت بخليفة . وإذا كان الشعراء قد بدأوا عالم اللهو على إستحياء في عالم القص والوضع والرأي . فإن حركتهم بعد ذلك

= ١/٣٣٣ - ٣٣٦ ، الطبري : ١/٥/٢٨٤٣ ، العقد الفريد : ٣٤٨١٦ .

(٥٣) مروج الذهب : ٢/١٤٦ ، ١٤٩ ، الطبري : ٢/٣/١٧٤٠ وما بعدها ، ١٧٦٥ وما بعدها ، ١٨١١ ، ١٨١٢ ، الأغاني : ٧/١ - ٨٣ .

(٥٤) حياة الشعر في الكوفة : ٢٠٥ .

كانت من أجل وضع ثقافة على مثلها يأتي خليفة قبل الوليد بن يزيد . ولقد روي ان العديد من الشعراء والقصاصين كانوا على علاقة وطيدة بأديرة النصارى . وعلى أكتاف هؤلاء ظهر شعر المجون الذي زرع ثقافة ظلت تعبر من جيل إلى جيل وتعمل من أجل تكاتف دائرة الرجس مع دائرة النجس .

يقول الدكتور يوسف خليفة : كان ظهور الوليد بن عقبة وصاحبه النصراني في هذا الوقت المبكر . بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . إرهاصاً لموجة اللهو التي كانت في طريقها إلى ديار المسلمين لتغمرها شيئاً فشيئاً . ولعل أهم شاعر أخذت تغمره هذه الموجة المبكرة هو « الأقيشر الأسدي » وهو أحد المعمرين يرجح صاحب الأغاني أنه ولد في الجاهلية . وقد طال به العمر حتى أدرك خلافة عبد الملك بن مروان ومات فيها(٥٥) .

وإذا كان الحديث عن الخمر قد ظهر على إستحياء في شعر الوليد بن عقبة حيث قال وهو في طريقه إلى عثمان :

لا تَحْسبنّا قد نَسينا الإيجَافْ والنّشوَاتِ من عتيقٍ أوصَافْ
وَعزْفَ قَيْناتٍ علينا عُزافْ

وهو بذلك يحصر المتعة في ألوان ثلاث هي : الرحلة والشراب والسماع . فإذا كان ذكر الخمر قد ظهر هنا على إستحياء فإن (الأقيشر) لم يتورع عن التصريح بشربها في خلاعة وإستهتار غير ملوفين في هذا الوقت المبكر من حياة المجتمع الإسلامي . والظاهرة التي تلفت النظر في خمريات (الأقيشر) هي إستهتاره بالإسلام وإستخفافه بشعائره(٥٦) أما لماذا إختار هذا الشاعر الإسلام هدفاً ليرشق فيه نباله . فإن هذا يرجع إلى الدائرة التي كان يعيش فيها . فالأقيشر كان يتخير ندماه من أبناء البطارقة النصارى(٥٧) وفي شعره قال :

لا أشربن أبداً راحاً مُسَارقة إلّا مع الغُرّ أبناء البطاريق

(٥٥) الأغاني : ١١/٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
(٥٦) حياة الشعر : ٥٩٦ .
(٥٧) الأغاني : ١١/٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٥٦٠ ، ٢٦٣ .

والأقيشر هو الذي وضع مبادىء الزندقة في شعره . وأعلن أنه يشرب الخمر على المنبر . ويقف على الناس خطيباً . لا ليبصرهم بشؤون دينهم . ولا ليحثهم على مكارم الأخلاق . وإنما ليقلب لهم الأوضاع الدينية والأخلاقية والإجتماعية(٥٨) . وإذا كان الأقيشر قد إكتفى بإلقاء الشعر وتربية أجيال عليه . فإن (حنين الحيري) وكان معاصراً للأقيشر . قد قام بتوسيع هذه الدائرة . وخاصة إنه كان يجمع بين الشعر والغناء . وحنين الحيري كان يتخير لشعره الأوزان الخفيفة القصيرة والسريعة الإنتشار . وكان يتجنب الأوزان الطويلة الضخمة ليكون شعره صالحاً للتلحين والغناء . وهذا الإتجاه الموسيقي إزداد اتجاه الشعراء خلفه . وبخاصة شعراء اللهو . حتى أصبح بدعاً فنياً بينهم . وسمة من السمات المميزة لفنهم(٥٩) وحنين في عالم بني أمية صاغ منهجه بوضوح يقول الدكتور يوسف خليفة : عندما بدأ في نشر رسالته اللاهية التي زينها للناس . بدأ وكأنه يقول لهم : هذه هي حياتي فهل تحبون أمثالها . إنه نداء غير مباشر إلى حياة تقوم على المتعة المتحررة . وما من شك في أن هذا النداء وأمثاله كان يؤثر في نفوس الكثير من الشباب . ويخلب ألبابهم ويلفت أنظارهم إلى أن الحياة تشيع فيها البهجة والمتعة . وتسيل الخمر بين أيدي الندامى في ظلال الطبيعة . وفعلاً إستجاب كثير من الشباب إلى هذا النداء الساحر . الذي يوقعه مغنيهم على قيثارته . ومضوا يغرقون همومهم في هذه الحياة الصاخبة المعربدة . لعل رنين كؤوسها وصخب سكارها ينسيهم إنين الجرحى وعويل الثكالى - في العهد الأموي - ومضى التيار في ترفعه . ورياح المجتمع الجديد تدفعه . والناس من حوله يغرقون أنفسهم وفنهم فيه(٦٠) .

لم يكن هذا يحدث في بقعة واحدة من خيمة بني أمية . إنما كان يحدث في بقاع شتى . يقول صاحب حياة الشعر : فالأديرة كانت مقصداً لطلاب الخمر من المسلمين . ويتاح لهم فيها حظ كبير من الحرية والشراب واللهو مع من

---

(٥٨) حياة الشعر : ٥٩٧ الشعر في الأغاني : ١١/٢٦٨ ، ٢٦٩ .
(٥٩) حياة الشعر : ٥٩٩ .
(٦٠) حياة الشعر : ٥٩٨ .

يقومون على حاناتها من فتيان الرهبان ونساء القساوسة وبناتهم . وخاصة في أيام الآحاد والأعياد حيث تتوافد مواكب النصارى في أبهى زينة وأجمل زي . وقد وصف الشعراء هذه الأديرة وما يحيط بها من مظاهر الطبيعة . ووصفوا مجالس الشراب في حاناتها . ودور الضيافة بها . وتغزلوا في راهباتها الجميلات وفي أولئك الفتيان والفتيات . الذين كانوا يقدمون عليها ويقدمون الخمر لروادها . ووصفوا مواكب النصارى في طريقهم إليها . وما كان يجري فيها من ألوان العبث[٦١] . ولما كانت الأديرة تشرف على الثقافة الجديدة التي تجعل من الإسلام إسماً ومن القرآن رسماً بل لينتهي الأمر معها في عصر من العصور أن يخجل المسلم من الإنتساب إلى الإسلام . كان لا بد لتجار المتع أن يطفحوا بألسنتهم كل ما عندهم في هذا الوقت المبكر . ولهذا فتحت الأديرة أبوابها للقصاصين والشعراء . يقول صاحب حياة الشعر : كان من بين هؤلاء الشعراء جماعة يلازمون هذه الأديرة وكثر شعرهم فيها . ولعل أشهرهم شاعران : الثرواني وبكر بن خارجة . ويذكر الرواة أن الثرواني كان له صديقاً من رهبان دير الحريق بالحيرة . يوفر له جميع ألوان العبث ليفرغ الثرواني ما في جوفه من الشعر الذي يشيع فيه الجو النصراني . وقد بالغ الثرواني ووصل التطرف في شعره إلى درجة الرغبة في مشاركة النصارى أعيادهم وصلواتهم وعقائدهم بل إلى الدعوة إليها . ولا يبالي أن يفتضح أمره بين المسلمين . بل إنه يدعو إلى تعظيم أحبار النصارى ورهبانهم وصلبانهم التي يبدي إعجابه بها . وينادي بأن يكون مستقره في داخل البيع مع الرهبان والقساوسة . ثم يعلنها جريئة متطرفة : أنه لا يقول هذا عبثاً . وإنما هو جاء فيه . أنه ليس كأولئك الخلفاء المنافقين الذين يصطنعون الخلاعة إصطناعاً لينالوا من ورائها الشهرة . وهو يريد أن يكون أصحاب الخلاعة على حظ من الشجاعة المعنوية . فإما أن يؤمنوا في نفوسهم بما يفعلونه . وإما أن يتركوا سبيل العبث والخلاعة . ويلزموا سبيل التقوى والصلاح . فيحافظوا على الصلوات وشهود الجمعة وملازمة المساجد . أما هذا النفاق الديني فشيء لا يحبه ولا يرضاه لا لنفسه ولا لهم . ومن شعره في هذا :

عظم الأحبار والرهـ ـبان والصلب الملاحا

---

(٦١) حياة الشعر : ٦٣٣ .

واجعل البيعة والقصد / سر جميعا مستراحا
لا كمن يمزح بالشهـ / ـرة والخلع مزاحا
أو دع الشهرة والزم / كل من يهوى الصلاحا
والزم الجمعة والبكـ / ـرة فيها والرواحا[٦٢]

وانطلق هذا الشاعر وأمثاله في الكوفة والبصرة والحيرة والشام وغير ذلك من البلاد يدعون في أشعارهم إلى شرب الخمر في جو نصراني خالص . عندما تقرع النواقيس في الأديرة . وعندما يأخذ القساوسة والشمامسة في تراتيلهم الدينية على أنغام (الأرغن) الناعمة الحالمة[٦٣] وكثرت جماعات المجون وعصابات السوء . ودوت معزوفات ضخمة . إشترك فيها مجموعات هائلة من العزاف . وعلى الجسر الذي يصل الشاطئين الأموي والعباسي . أخذت جماعات من المجان والخلعاء تمر فوقه . مخلفة وراءها الفضيلة التي صرعت على مذابح اللهو والمجون والخلاعة . لتستقبل على الشاطىء الآخر الرذيلة وقد تجردت من ثيابها جميعاً . وبسطت ذراعيها إلى أقصاهما . لتضم إلى أحضانها هؤلاء الوافدين من طلابها . وتبلغ الغواية مداها . ويتساقط الشباب تساقط الفراش المتهافت على النار . وكلما اشتدت ظلمة الهاوية زاد عدد المتخبطين فيها . وفي أعماقها السحيقة مضت جماعات من الشعراء تضرب على غير هدى . وقد ألف اللهو بينهم . وربط المجون بين أسبابهم . كلهم فاسق . وكلهم خليع . وكلهم سكير . . وهذه المدرسة اللاهية . هي التي أرست قواعد غزل النساء وغزل الغلمان . وكلا اللونين لم يكونا تعبيراً عن عاطفة روحية . وإنما كان تعبيراً عن لذة حسية . فالغزل في هذه المدرسة . لم يكن حديث العاطفة وإنما كان حديث الغريزة . ولم يكن نجوى الروح وإنما كان نداء الجسد . وعلى بناء هذه المدرسة كثرة طائفة الجواري والمغنيات في المجتمع الإسلامي . وعلى أكتاف هذه المدرسة انتشرت الزندقة ودقت أوتادها . وراج شعر الأديرة[٦٤] .

(٦٢) حياة الشعر : ٦٣٣ ـ ٦٣٤ .
(٦٣) حياة الشعر : ٦٣٣ .
(٦٤) حياة الشعر : ٦٠٥ ـ ٦٠٦ .

والخلاصة : مهدت كل دائرة للأخرى في عالم القص والشعر . فالدائرة التي فيها أمير مهدت للدائرة التي فيها أميراً للمؤمنين (!) ومن دائرة أمير المؤمنين كانت أعلام الضياع . وهكذا أمير عينهُ على الشام وآخر عينه على مصر وأمير عينه على كأس . وينتهي الأمر بكارثة . هيمن فيها على الساحة خلف يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . القرآن في واد وهم في واد آخر . وتسير الجموع في طريق اللاهدف . دليلها أمير يريد كرسي وبيده شعاراً إسلامياً ضاع منه الشعور . وإذا كانت هناك إضافة لهذا الضياع الذي بدأ هادئاً وانتهى بكارثة . فاننا نضيف شيئاً مهماً آخر قد ضاع بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في عهد بني أمية . وهذا الشيء هو الصلاة .

فلقد روى البخاري عن الزهري انه قال : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي . فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : لا أعرف شيئاً مما أدركت إلّا هذه الصلاة . وهذه الصلاة قد ضيعت[٦٥] إن أنس لا يعرف حوله أي مظهر من المظاهر التي كانت على حياة رسول الله . إلّا الصلاة . وهذه الصلاة قد ضيعت . وما ضاعت الصلاة في نهاية الطريق إلّا عندما ضاع الحكم في أول الطريق وهذا هو الدليل . أخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن أبي أمامة الباهلي أن رسول الله (ص) قال : « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة . فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها . أولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة »[٦٦] .

ثانياً : العواصف :

١ ـ قتل عثمان :

في عهد عثمان بحث ولاة البيت الأموي عن الذهب والمتعة في كل مكان . وفي نهاية عهد عثمان تعرضت الدولة لانتفاضتين سببهما واحد . ظلم الولاة .

الإنتفاضة الأولى : مرت بهدوء ولكنها ألقت بظلالها على الثانية .

---

(٦٥) البخاري : ١/١٣ .

(٦٦) الخصائص الكبرى/ السيوطي : ٢/٢٦٥ .

والإنتفاضة الثانية : كانت عاصفة في عالم من السكون فعثمان كان محاصراً . على الرغم من وجود أكثر الصحابة في المدينة . وليس معنى هذا أن سكان المدينة كانوا من الضعف بحيث لا يستطيعون التصدي لحفنة قطعت طريقاً طويلاً من مصر إلى المدينة . وضمت إليها حفنة أخرى من هنا أو هناك . ولكن السكون كان له ما يبرره .

أولاً : لم يكن في السياسة ما يشجع للدفاع عنها . وهذه السياسة قام بتعريتها أبو ذر الغفاري حين فضح معاوية في الشام وعندما رده معاوية إلى عثمان قام الأخير بنفيه إلى الربذة . وهذا الحدث ثابت في كتب التواريخ والسير وغيرها .

ثانياً : إن السيدة عائشة أدلت بدلوها في الأحداث وأصدرت فتوى مبكرة في قتل عثمان وقالت : « أقتلوا نعثلاً فقد كفر » .

ثالثاً : كان هناك من الولاة من يهمه إنقلاب الأوضاع طمعاً في إلتهام قطعة من أرض الأمة . فعمرو بن العاص على سبيل المثال يذكر ابن سعد بأسانيده . أن عثمان لما عزله عن مصر قدم إلى المدينة فجعل يطعن على عثمان فبلغ عثمان . فزجره فخرج إلى أرض فلسطين فأقام بها[٦٧] . فهذه العوامل . أي السياسة الخطأ وشجن ابن العاص لأهل المدينة . وفتوى السيدة عائشة كل هذه عوامل تبرر هذا السكون الذي يرفع راية السلبية وأكبر رأس في الدولة محاصر ، ويضاف إلى هذا معاوية . لقد روي أنه كان بالمدينة في أوائل الأحداث وعلم أن هناك خطورة على عثمان ومع ذلك لم نرى على إمتداد الأحداث أن معاوية جاء بجيش جرار للدفاع عن رأس الأمويين . حتى أمراء الأجناد في المدينة وما حولها لم تر لجيادهم غبار . فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على إتفاق يقضي بالتضحية بثمرة لإمتلاك بستان فيه كثير من الثمر . فالأمراء من بني أمية والذهب في أيديهم وسحق القوى المعارضة مضمون . وعن مثل هذه الأنماط البشرية يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كان في بني إسرائيل جدّي في غنم كثيرة ترضعه أمه . فانفلت فرضع الغنم كلها . ثم لم يشبع . فبلغ ذلك نبيهم . فقال : ان هذا

---

(٦٧) الاصابة : ٦/٦١ .

مثل قوم يأتون بعدكم . يعطى الرجل منهم ما يكفي القبيلة أو الأمة ثم لا يشبع »[٦٨] . ومعاوية قال فيه رسول الله « لا أشبع الله له بطناً » وهذا ثابت في كتب الحديث .

إن عدم حركة بني أمية أثناء الحصار وعدم محاكمة قتلة عثمان بعد أن تولى معاوية خلافة المسلمين التي تاجر على أول أعتابها بقميص عثمان . هي من معالم الفئة الباغية التي لا ينكرها أحد . لقد كان السكون يدب في أرجاء المدينة . ولم يكن في بيت عثمان للدفاع عنه سوى قلة من الرجال من بينهم الحسن والحسين . جاؤوا لعلمهم بما سيحدث وفقاً لاخبار الرسول بما سيجري بعده . ففي الحديث عن يزيد ابن مريم عن أبيه قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم حدثنا ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة »[٦٩] وعن حذيفة قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فلم يدع شيئاً إلّا ذكره إلى أن تقوم الساعة . عقله من عقله ونسيه من نسيه » فالحسنين كانت دائرة الذهن عندهم تراقب الأحداث . فجاؤوا ليقيموا الحجة بأنهم ليسوا طرفاً في طبخ الفتنة . ولأن الفتنة واقعة لا محالة لأنها ثمرة لطريق طويل . وقف الحسن والحسين في مربع المقتول وليس القاتل . والوقوف في مربع المقتول ليس شهادة للمقتول . وإنما لأن مربع القاتل في دائرته أصابع خفية ستحكم وعندما تحكم ستذيق أمة محمد الذل ألواناً . وعن علي بن أبي طالب أنه قال عن صناع الفتن : «ما من ثلاثمائة تخرج إلّا ولو شئت سميت سائقها وناعقها إلى يوم القيامة »[٧٠] فحركت الأحداث عند أمير المؤمنين وأولاده معروفة لأن الرسول أخبر بأسماء رؤوس الهدم على إمتداد التاريخ فعن حذيفة أنه قال : « والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا . والله ما ترك رسول الله من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً . إلّا وقد سماه لنا . باسمه واسم أبيه واسم قبيلته »[٧١] . فحركة الإمام علي والحسنين حركة على بصيرة بالأحداث . لذا وقفوا في مربع المقتول ليقيموا

---

(٦٨) رواه الطبراني (كنز العمال : ٣/٣٦٨) .

(٦٩) رواه البغوي وابن عساكر (كنز العمال : ١٢/٤٢٦) .

(٧٠) رواه الحاكم وأقره الذهبي (كنز ٤/٤٧٢) .

(٧١) رواه أبو داوود : حديث رقم ٤٢٢٢ .

الحجة على كل من سيتاجر بدماء المقتول لأمر في نفسه . وقفوا ليقولوا أن أيديهم نظيفة ولا إجبار في دين الله .

وبقراءة سريعة لأحداث الإنتفاضة الأولى التي مهدت للثانية . نجد سببها الوليد بن عقبة والي عثمان على الكوفة . ولقد ذكرنا من قبل قصته مع النصارى والشعر والخمر . والوليد عندما خرجت رائحته . ذهب وفد من الكوفة إلى عثمان ليشكون إليه الوليد . وتقدم منهم رجلان إلى عثمان وقالا كما ورد في الأغاني : إنا جئناك في أمر ونحن مخرجوه إليك من أعناقنا . وقد قلنا أنك لا تقبله . قال : وما هو ؟ قالا : رأينا الوليد وهو سكران من خمر شربها . وهذا خاتمه أخذناه وهو لا يعقل وفي رواية المسعودي : وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه . فرزأهما ودفع في صدورهما وقال : تنحيا عني . وفي رواية البلاذري : وقد يقال : إن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً . فآتوا علياً فشكوا إليه . فأتى عثمان وقال : عطلت الحدود وضربت قوماً شهود على أخيك فقلبت الحكم . وأخرج البلاذري : فأتى بشهود عائشة . فأخبروها بما جرى بينهم وبين عثمان . وأن عثمان زبرهم . فنادت عائشة : إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود .

وأخرج صاحب الأغاني . أن عثمان قال : أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلّا بيت عائشة . فسمعت فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقالت : تركت سنّة رسول الله صاحب هذا النعل . فتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد فمن قائل : أحسنت . ومن قائل : ما للنساء ولهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال . وأخرج البلاذري . وكان ذلك أول قتال بين المسلمين بعد النبي . ومرت هذه الإنتفاضة بسلام بعد أن أقيم الحد على الوليد بن عقبة . فأما الإنتفاضة الثانية فكان سببها أخو عثمان أيضاً ولكن من الرضاعة . عبدالله بن أبي السرح وكان النبي قد أهدر دمه يوم الفتح ولكنه اختبأ عند عثمان والقصة ذكرناها من قبل . ومن أسبابها أيضاً مروان وهو إبن عم عثمان ومروان طرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أباه ولعنه وذكرنا هذا من قبل . والخلاصة يقول فيها صاحب الإصابة : كان سبب قتل عثمان . أن أمراء الأمصار . كانوا من أقاربه . كان بالشام كلها معاوية وبالبصرة سعيد بن العاص وبمصر عبدالله بن أبي السرح وبخراسان عبدالله بن عامر . وكان من حج من

الناس يشكو من أميره . وكان عثمان يستبدل بعض الأمراء ليرضى الناس . ثم يعيدهم بعد ذلك إلى أن رحل أهل مصرَ يشكون من ابن أبي السرح . فعزله . وكتب لهم كتاباً بتولية محمد بن أبيّ بكر . فرضوا بذلك . فلما كانوا في أثناء الطريق . رأوا راكباً على راحلة . فاستخبروه فأخبرهم أنه من عند عثمان بإستقرار ابن أبي السرح . ومعاقبة جماعة من أعيانهم . فأخذوا الكتاب ورجعوا وواجهوه به . فحلف أنه ما كتب . فقالوا سلمنا كاتبك . فخشي عليه من القتل . وكان كاتبه مروان بن الحكم وهو ابن عمه . فغضبوا . وحاصروه في داره[٧٢] .

وروى ابن أعثم[٧٣] : أن أم المؤمنين عائشة لما رأت إتفاق الناس على قتل عثمان قالت له : أي عثمان خصصت بيت مال المسلمين لنفسك . وأطلقت أيدي بني أمية على أموال المسلمين . ووليتهم البلاد وتركت أمة محمد في ضيق وعسر . قطع الله عنك بركات السماء وحرمك خيرات الأرض . ولولا انك تصلي الخمس لنحروك كما تنحر الإبل . فقرأ عليها عثمان : ﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾[٧٤] وبعد أن فرغ عثمان كانت الفتوى . أخرج الطبري وابن أعثم وابن الأثير وغيرهم . أن أم المؤمنين قالت : « أقتلوا نعثلاً فقد كفر »[٧٥] وانتشرت الكلمة على الأفواه . وخرجت السيدة عائشة قاصدة مكة . ولم ينام بنو أمية على أعتاب دار عثمان . ولم يبدو في الأفق غبار سرية من سرايا أمراء بني أمية الذين فتحوا البلدان ومصروا الأمصار . تبشر بفك الحصار المضروب على أكبر رأس في الدولة .

والخلاصة : قتل عثمان !

٢ ـ أضواء على يوم الجمل :

بعد دفن عثمان . تهافت الصحابة الكبار على علي بن أبي طالب . يطلبون

---

(٧٢) الاصابة : ٤/٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٧٣) تاريخ ابن أعثم : ١٥٥ .

(٧٤) سورة التحريم ، الآية : ١٠ .

(٧٥) الطبري : ٤/٤٧٧ ، ابن الأثير : ٣/٨٧ ، ابن أعثم : ١١٥ .

يده للبيعة . كان قد مضى على وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ربع قرن تقريباً . وخلال هذه المدة لم ترو الأحاديث لتعريف المسلمين بفضائل أهل البيت . ونتيجة لهذا فإن مساحة عريضة من شباب المسلمين حينئذ لم يكن لديهم أدنى معرفة بعلي بن أبي طالب عليه السلام . ويبدو هذا بوضوح في تخاذل قواته فيما بعد في تنفيذ أوامره . فالشباب نشأ في عصر الفتوحات حيث المال والتنافس والجور . ولقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الثقافة في قوله : « لا يلبث الجور بعدي إلّا قليلاً حتى يطلع . فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره . ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شيء . ذهب من الجور مثله حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره »(٧٦) بإختصار كان أمير المؤمنين يقف في دائرة مملوءة بالغرباء . وكان من أقواله في هذه الدائرة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « طلب الحق غربة »(٧٧) لقد كان عليه أن يواجه الرؤوس ولكن القاعدة التي سيستند عليها في معظم الأحوال لم يسهر عليها ولم يربيها بنفسه . وأمام هذه الحقيقة عندما طالب الصحابة بمبايعته تردد في أول الأمر . ليس خوفاً من الموقف . وإنما لعلمه أن تقدمه سيفتح باباً إلى الجنة وباباً إلى النار . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سئل : من يحمل رايتك يوم القيامة يا رسول الله ؟ قال : « من يحسن من يحملها إلّا من حملها في الدنيا علي بن أبي طالب »(٧٨) لقد كان أمير المؤمنين يجد الطريق طويل وعليه يسقط الكثير وهذا ما كان يحزنه . لكنهم عندما أصروا على مبايعته قبلها ومما ذكره الطبري : فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقالوا : إن هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من إمام . ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك . لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله . فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً . فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك . قال : ففي المسجد فإن لا تكون خفياً ولا تكون إلّا عن رضى المسلمين . وروي بسند آخر : « فجاء فصعد المنبر . فاجتمع الناس إليه .

---

(٧٦) رواه أحمد (الزوائد : ٥/١٩٦) .

(٧٧) رواه ابن عساكر عن علي (كنز العمال : ١/٢٣٩) .

(٧٨) رواه الطبراني (كنز العمال : ١٢/١٣٦) .

فقال : إني قد كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم . ألا وإنه ليس لي أمر دونكم . ألا إن مفاتيح مالكم معي . ألا وانه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم . رضيتم ؟ قالوا : نعم . قال : أللهم إشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك(٧٩) .

وروي أن طلحة والزبير كانا ضمن الذين بايعوا الإمام ـ على مشهد من الناس ـ وحينما همَّ أمير المؤمنين لمباشرة أعماله التي بدأها بتغيير الولاة . جرت الأحداث لتعميق كل هذا . فلقد خرجت عليه السيدة عائشة وانضم إليها طلحة والزبير بعد أن نكثا ببيعتهما ومما رواه الطبري : أن عائشة سألت عن الأحداث وهي في طريقها إلى المدينة عبدالله بن أم كلاب . فقال : قتلوا عثمان فمكثوا ثمانية . قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالإجماع . إجتمعوا على علي بن أبي طالب . فقالت : ردوني ردوني . فانصرفت إلى مكة وهي تقول : قتل عثمان مظلوماً . والله لأطلبن بدمه . فقال لها ابن أم كلاب : ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنتِ . ولقد كنت تقولين أقتلوا نعثلاً فقد كفر . قالت : إنهم إستتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها :

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنتِ أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا أنه قد كفر
فهبنا أطعناكِ في قتله ... وقاتله عندنا من أمر

فانصرفت إلى مكة . فنزلت على باب المسجد . فقصدت الحجر فتسترت . واجتمع إليها الناس . فقالت : « يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوماً . والله لأنملة من عثمان خير من عليّ الدهر كله »(٨٠) وعلى إثر هذا بدأت الحركة . وهذه الحركة كانت الحجة قد أقيمت عليها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل . فقد روي أن الناس ذهبوا إلى حذيفة وقالوا : إن عثمان قد قتل فما تأمرنا ؟ قال : آمركم أن تلزموا عماراً . قالوا : إن عماراً لا يفارق عليّ . قال : إن الحسد هو أهلك الجسد . وإنما ينفركم من عمار قربه من عليّ . فوالله لعلي أفضل من

---

(٧٩) الطبري : ١٥٢/٥ .
(٨٠) الطبري : ١٧٢/٥ ، البلاذري : ٩١/٥ .

عمار . أبعد ما بين التراب والسحاب . وإن عمار لمن الأحباب . وهو يعلم أنهم إن لزموا عماراً كانوا مع عليّ[٨١] . وأخرج البزار بسند جيد عن يزيد بن وهب قال : كنا عند حذيفة . فقال : كيف أنتم وقد خرج أهل دينكم يضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف ؟ قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أنظروا إلى الفرقة التي تدعو إلى أمر عليّ فالزموها فإنها على الحق[٨٢] . لقد كان هذا التوجيه حجة على حركة التاريخ في هذا الوقت . فالذي فتك به الحسد عليه بعمار ليسير مع عليّ . وفضل عمار تفيض به كتب الصحاح والمسانيد . ومن لا حسد عنده ولا يريد الخلافة لأحد من قبيلته . فعليه مباشرة بعلي . ليرى تحت رايته العديد من الصحاح عملاً بتوصية النبي فقد قال : إنها ستكون فتنة ؟ قالوا : فما نصنع يا رسول الله ؟ قال : ترجعون إلى أمركم الأول[٨٣] والأمر الأول يقف علي بن أبي طالب في قلب دائرته . ويواصل النبي إقامة الحجة على حركة الأحداث فعن معاذة الغفارية قالت : كنت أخرج مع رسول الله في الأسفار أقوم على المرضى وأداوي الجرحى . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت عائشة وعليّ خارج من عندها . فسمعته يقول لعائشة : إن هذا أحب الرجال إلي وأكرمهم علي . فاعرفي لي حقه وأكرمي مثواه[٨٤] وعن رافع مولى عائشة قال : كنت غلاماً أخدمها إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها . وإنه قال : عادي الله من عادى علياً[٨٥] وعن ابن عباس . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنسائه : ليت شعري . أيتكن صاحبة الجمل الأديب (أي الكثير الشعر) تخرج فتنبحها كلاب الحوأب . يقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير[٨٦] . وأحاديث نباح كلاب الحوأب أخرجها أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم والبيهقي وأبو نعيم . من هذا كله نعلم أن الحركة كلها تحت مظلة الحجة . فالدين دين الله وحركته حركة

---

(٨١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقاة (الزوائد : ٧/٢٤٣) .

(٨٢) فتح الباري : ١٣/٨٥ وقال الهيثمي رجاله ثقاة (الزوائد : ٧/٢٣٦) .

(٨٣) رواه الطبراني (كنز العمال : ١١/١٤٩) .

(٨٤) الاصابة : ٨/١٨٣ .

(٨٥) الاصابة وقال ابن حجر رواه ابن منده وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه : ٢/١٩١ .

(٨٦) رواه البزار وقال الهيثمي رجال رجال الصحيح (الزوائد : ٣/٢٣٤) .

مضبوطة لا تسمح لأي إنسان أن يضيف إليها إضافة . لأن الإضافة هوى . والهوى إذا لبس رداء الدين أفسد الدين . وبدأت الأحداث التي أقيمت عليها الحجة من قبل . وبدأ الزحف قال ابن عباس : دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخصف نعله . فقال لي : ما قيمة هذا النعل ؟ قلت : لا قيمة لها . فقال : والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً . ثم خرج فخطب في الناس فكان مما قال : . . . فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه . ما لي ولقريش . والله لقد قاتلتهم كافرين . ولأقاتلنهم مفتونين . وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم[٨٧] وتقدم علي عليه السلام للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء[٨٨] وتقدمت السيدة عائشة ومعها طلحة والزبير . وأخرج أحمد وأبو يعلى والبزار . لما بلغت عائشة بعض ديار بني عامر . نبحت عليها الكلاب . فقالت : أي ماء هذا ؟ قالوا : الحوأب[٨٩] . قالت : ما أظنني إلاّ راجعة فقال الزبير : لا . تقدمي فيراك الناس ويصلح الله ذات بينهم . قالت : أظنني إلاّ راجعة . سمعت رسول الله يقول : كيف بإحداكن إذا نبحتها كلاب الحوأب[٩٠] وذكر المسعودي أن الزبير قال لها : بالله ما هذا الحوأب ! ولقد غلط فيه من أخبرك به . وكان طلحة في ساقة الناس فلحقها . فأقسم أن ذلك ليس بالحوأب . وشهد معها خمسون رجلاً ممن كان معهم . فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الإسلام[٩١] .

وتقدمت عائشة تاركة وراءها نصيحة العديد ومنهم حارثة بن قدامة السعدي قال : يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح . إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي من حيث جئت إلى منزلك . وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع[٩٢] وقال لها زيد بن

---

(٨٧) نهج البلاغة .
(٨٨) مروج الذهب : ٢/٣٩٠ .
(٨٩) الحوأب منزل بين البصرة ومكة .
(٩٠) الخصائص الكبرى/ السيوطي ٢/٢٣٢ .
(٩١) مروج الذهب : ٢/٣٦٧ ، البداية والنهاية : ٧/٢٣٢ .
(٩٢) البداية والنهاية : ٧/٢٣٣ .

صوحان عندما كتبت له تدعوه إلى نصرتها : أنا في نصرتك ما دمت في منزلك . وأبى أن يطيعها في ذلك وقال : رحم الله أم المؤمنين . أمرها الله أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل . فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي هي أحق بذلك منا[٩٣] .

وعندما التقى الجمعان دنا عمار من موضع عائشة وقال : ماذا تدعين ؟ قالت : الطلب بدم عثمان فقال : قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق . ثم قال : أيها الناس إنكم لتعلمون أينا الممالىء في قتل عثمان[٩٤] وما أن إنتهى عمار . حتى جاء في إتجاه عائشة فوارس أربعة . فهتفت عائشة : فيهم رجل عرفته إن أبي طالب ورب الكعبة . سلوه ما يريد ؟ فقال لها أمير المؤمنين : أنشدك بالله الذي أنزل الكتاب مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتك أتعلمين أن رسول الله جعلني وصياً على أهله وفي أهله . قالت : أللهم نعم . قال : فما لك ؟ قالت : أطلب بدم أمير المؤمنين عثمان . قال : أريني قتلة عثمان . ثم إنصرف[٩٥] وقال لطلحة والزبير : اني أراكما قد جمعتما خيلاً ورجالاً وعدداً . فهل أعددتما عذراً يوم القيامة . فاتقيا الله . ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[٩٦] ثم قال لطلحة : نشدتك الله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : من كنت مولاه فعلي مولاه أللهم وال من والاه وعاد من عاداه ؟ قال : نعم قال : فلم تقاتلني ؟ قال : لم أذكر وانصرف إلى المعسكر[٩٧] ثم قال للزبير : ألم تذكر قول النبي لك . إنك تقاتلني وأنت ظالم ؟ فقال : أللهم نعم . ولو ذكرت ما سرت سيري هذا . والله لا أقاتلك[٩٨] وكان علي قبل ذلك قد أقام الحجة في المسجد وقال للناس : أنشد الله من سمع رسول الله يقول يوم غدير خم من كنت مولاه فعلي مولاه أن يقوم فقام ثلاثون رجلاً . وقالوا نشهد أننا قد

---

(٩٣) البداية : ٧/٢٣٤ .
(٩٤) مروج الذهب : ٢/٣٧١ .
(٩٥) رواه الطبراني (كنز العمال : ٧/٢٣٨) .
(٩٦) البداية : ٧/٢٤١ .
(٩٧) رواه الحاكم (المستدرك : ٣/٣٧١) .
(٩٨) البداية والنهاية : ٧/٢٤١ .

سمعنا هذا . ورجع العديد منهم عن قتال أمير المؤمنين ولكن السواد الأعظم على الرغم من هذه الحجج الدامغة طافوا حول الجمل . وكما روى الطبري . وإذا رجال من الإزد يأخذون بعر الجمل فيفتونه ويشمونه ويقولون : بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك(٩٩) وبدأت المعركة بقول علي عليه السلام : أللهم خذ أيديهم وأقدامهم(١٠٠) ودار القتال وسقط عن يمين الجمل وعن يساره قتلى كثير في رواية إنهم بلغوا خمسون ألف قتيل . وعندما رأى أمير المؤمنين أن المعركة لن تنتهي إلاّ بقتل الجمل . حيث أن معسكر عائشة كانوا يدافعون عن الجمل . ويعملون على رفع رأسه . وكلما قتل منهم واحد سارع الآخر ليمسك بزمام الجمل . حتى قطعت يد سبعين رجلاً وهي آخذة بخطام الجمل . أمر عليه السلام بقتل الجمل . لأن الحرب ستظل قائمة ما دام هذا الجمل واقفاً(١٠١) .

ولما سقط البعير على الأرض . إنهزم أصحابه وحمل هودج عائشة لتعود إلى بيتها . وكان الهودج كالقنفد من السهام . ونادى منادي على الناس . إنه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح(١٠٢) ويقال أن أعين بن ضبعة اطلع في الهودج فقالت عائشة : إليك . لعنك الله . فقال : والله ما أرى إلاّ حميراء . فقالت هتك الله سترك(١٠٣) . وعن أبي ثابت مولى أبي ذر قال كنت مع علي يوم الجمل فلما رأيت عائشة دخلني بعض ما يدخل الناس . فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر . فقاتلت مع أمير المؤمنين . فلما فرغ ذهبت إلى المدينة . فأتيت أم سلمة . فقلت اني والله ما جئت أسأل طعاماً ولا شراباً . ولكني مولى لأبي ذر . فقالت : مرحباً . فقصصت عليها قصتي . فقالت : أين كنت حين طارت القلوب مطائرها ؟ قلت : إلى حيث كشف الله ذلك عني عند زوال الشمس . قالت : أحسنت . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض(١٠٤) .

---

(٩٩) الطبري : ٥/٢١٣ .

(١٠٠) البداية والنهاية : ٨/٧ .

(١٠١) البداية والنهاية : ٢٤٤ ، ٧/٢٦٦ .

(١٠٢) البداية والنهاية : ٧/٢٤٥ .

(١٠٣) البداية : ٨/٢٤٥ .

(١٠٤) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك : ٣/١٢٤) .

وبعد الجمل قال واحد من الناس لأمير المؤمنين لما أظفره الله بأصحاب الجمل : وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا . ليرى ما نصرك الله به على أعدائك . فقال له عليه السلام : أهوى أخيك معنا ؟ قال : نعم قال : فقد شهدنا . ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء . سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان(١٠٥) .

لقد كان لموقعة الجمل أسباباً كثيرة في دوائر كثيرة قد تكون دوائر الحسد وقد تكون دوائر الطمع في الكرسي وقد تكون الطمع في المال . وقد تكون لا هذا ولا ذاك . وتكون الموقعة ضمن المخطط العام لبني أمية للسيطرة على جميع خزائن المال في الدولة . وإشارة ذلك أن مروان ابن طريد رسول الله الحكم . كان في معسكر عائشة ضد علي . لكن قلبه لم يكن مع عائشة . وكان يعمل أعمال الطابور الخامس داخل صفوف الجمل . روى البغوي بسند صحيح عن أبي سبرة . قال : لما كان يوم الجمل . نظر مروان إلى طلحة فقال : لا أطلب ثأري بعد اليوم . فنزع له بسهم فقتله وروي بسند صحيح عنه أنه قال : رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم . فوقع في عين ركبته . فما زال الدم يسبح إلى أن مات(١٠٦) وقتل مروان لطلحة مشهور وصرحت به جميع المصادر التي تعتني بهذه الأمور . فمروان كان عضواً أصيلاً في حركة هدامة تصنع الحدث وتراقبه . وتستأصل في الأحداث كل من يمثل لهم عقبة من العقبات . والدليل على أن حركة الهدم تراقب الأحداث . ما ذكره إبن كثير قال : قام عمر بن العاص في الناس فقال : إن صناديد الكوفة والبصرة قد تقاتلوا يوم الجمل . ولم يبق مع علي إلّا شرذمة قليلة من الناس . وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان . فالله الله في حقكم أن تضيعوه(١٠٧) . قال ذلك عندما هرول إلى معاوية وعقد معه صفقة . أن يساند معاوية في حربه ضد علي نظير أن يعطيه معاوية مصر طيلة حياته . وأخرج يعقوب بن سفيان بسند صحيح عن الزهري . لما بلغ معاوية غلبة

---

(١٠٥) النهج الخطبة : ١٢ .

(١٠٦) الاصابة : ٣/٢٩٢ .

(١٠٧) البداية : ٧/٢٥٥ .

علي على أهل الجمل . دعا إلى الطلب بدم عثمان . فأجابه أهل الشام[١٠٨] لقد كانت معركة الجمل ضرورة لحركة الهدم كي يقتل الصناديد ويبقى من يستطيع معاوية إجتياحه أو اللعب بعقوله .

والخلاصة : لقد اعتبر الخلف أن معارك السلف كانت بين حق وحق وهذه المقولة قامت بتمييع أمور كثيرة . والقضية لم تكن أبداً محاكمة الموتى . وإنما هي النظر في خطوات الماضي التي تنطلق إلى الحاضر . فقد يكون الماضي فتنة وهذه الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة وإنما تتعداهم وتصل إلى عقول التمييع والتلجيم والتكميم وتنطلق بهم إلى الدجال . وما من فتنة صغيرة أو كبيرة منذ صنعت الدنيا إلّا من أجل فتنة الدجال[١٠٩] قال تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾[١١٠] لقد أمر الله المؤمنين بأن يتقوا فهل من الإتقاء أن يقال إن معارك الماضي كانت بين حق وحق ؟ إن هذه الفتنة التي أمر الله بإتقائها . قال عنها ابن كثير : قال السدي نزلت في أهل بدر . فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا . . وقال مجاهد : هي أيضاً لكم . وفي قول لابن عباس : أمر الله المؤمنين ان لا يقربوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم بعذاب[١١١] .

٣ ـ أضواء على صفّين وقتال الخوارج :

إذا جاز لنا أن نضع عنواناً لهذه الموقعة . فإننا نختار قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « علي يعسوب المؤمنين . والمال يعسوب المنافقين »[١١٢] وعن عليّ انه قال : « أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجار »[١١٣] وقال مرة : والمال يعسوب الظلمة[١١٤] . كان مع علي في قتاله معاوية ثمانون بدرياً

(١٠٨) فتح الباري : ١٣/٨٥ .
(١٠٩) حديث مخرج سابقاً .
(١١٠) سورة الأنفال ، الآية : ٢٥ .
(١١١) ابن كثير في التفسير : ٢/٢٩٩ .
(١١٢) يعسوب أي ملك المؤمنين . واليعسوب ملك النحل . رواه ابن عدي (كنز العمال : ١١/١٤) .
(١١٣) رواه أبو نعيم (١٣/١١٩ كنز العمال) .
(١١٤) أبو نعيم (كنز : ١٣/١١٩) .

ومائة وخمسون ممن بايـع تحت الشجرة[115] أمـا معاويـة فلقد أرسـل إلى علي : « أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمـل . وقد بلغ في طاعتهم لمعاوية أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعة يوم الأربعاء . ولقد أعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه عليها[116] والعمود الفقري لهذه المعركـة كان عمار بن ياسر . فهو ميزان الحركـة . من في صفه فهـو على الحق ومن خالفـه فهو من البغـاة . وفيه قـال النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم : « من عـادى عمـار عـاداه الله . ومن أبغض عمـاراً أبغضه الله »[117] وكـان عمـار مـع علي . وقـال النبي : « إذا اختلف الناس كان ابن سميـة مع الحق »[118] وقـال : « دوروا مع كتـاب الله حيث دار » فقـال الناس : يـا رسول الله فـإذا اختلف النـاس . فمـع من نكـون ؟ فقـال : أنظروا الفئـة التي فيها ابن سميـة . فالـزمـوهـا . فـإنـه يـدور مـع كتـاب الله »[119] وعلي يدور مع كتاب الله ويقاتل معاركة على تأويله . قـال رسول الله : « أنا أقاتل على تنزيل القرآن وعلي يقاتل على تأويله »[120] .

وأهم العلامات التي وضعها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله : « ويح عمار تقتله الفئة البـاغية يـدعوهم إلى الجنـة ويدعـونه إلى النـار »[121] فإذا كـانوا يـدعونـه إلى النـار فكيف يكـون قتـال السلف حق ضـد حق ؟؟ وروي في بـدايـة المعركة أن عمار خطب الناس فقال فيما ذكره الطبري : أيها الناس أقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان . ويزعمون أنه قتل مظلوماً . والله مـا قصدهم الأخذ بدمه . ولا الأخذ بثاره . ولكن القوم ذاقـوا الدنيـا . واستحلوها واستمـرأوا

---

(115) البداية : ٧/٢٥٥ .

(116) مروج الذهب : ٣/٤١ .

(117) رواه أحمـد وقال الهيثمي رواه أحمـد والطبـراني ورجالـه رجـال الصحيـح (الفتـح الرباني : ٢٢/٣٢٩) .

(118) رواه الطبراني (كنز : ١١/٧٢١) .

(119) رواه الحاكم (كنز العمال : ١١/١٦٨) ، البداية : ٧/٢٧١ .

(120) الاصابة : ١/٢٢ وحديث قتال علي على التأويل أخرجها أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم .

(121) رواه أحمد والبخاري وابن عساكر وابن أبي شيبة (الفتح الرباني : ٢٢/٣٢١ ، كنز العمال ١١/٧٢٤ ، البداية والنهاية : ٧/٢٦٩ .

الآخرة فقلوها . وعلموا أن الحق إذا لزمهم . حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم . ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم . ولا الولاية عليهم . ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات . وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها . وتحمله على إتباع الحق والميل إلى أهله . فخدعوا أتباعهم بقولهم إمامنا قتل مظلوماً . ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً . وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون . ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان . ولكانوا أذل وأخس وأقل . ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين . فسيروا إلى الله سيراً جميلاً . واذكروا الله ذكراً كثيراً(١٢٢) . وقال : والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة . والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر . لعرفت أن مصلحنا على الحق وأنهم على الضلالة(١٢٣) وقال : من سره أن يكتنفه الحور العين فليتقدم بين الصفين محتسباً(١٢٤) وأنشد شعراً يقول فيه :

نحن ضربناكم على تنزيله والیوم يضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله(١٢٥)

وكان علي عليه السلام قد خاطب معاوية مرات عديدة كي يدخل في الجماعة . ويكف عن تعبئة الناس للحرب ولكن معاوية رفض جميع المبادرات السلمية . ومارس هو وطابوره كل الأعمال لعرقلة مسيرة الإصلاح وعندما جاء القتال . . ذكر علماء التاريخ وغيرهم . أن علياً بارز في أيام صفّين وقاتل وقتل خلفاً حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة . ونادى عليّ : ويحك يا معاوية . إبرز إلي ولا تفني العرب بيني وبينك . فقال عمر بن العاص لمعاوية : إغتنمه . . فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط . وإنما أردت قتلي لتصيب

---

(١٢٢) البداية والنهاية : ٧/٢٩٢ .
(١٢٣) رواه أحمد (البداية : ٧/٢٦٧) .
(١٢٤) أخرجه ابن أبي شيبة (فتح الباري : ١٣/٨٦) .
(١٢٥) تاريخ الشعر : ٣٥٤ .

الخلافة من بعدي[١٢٦] .

إن عين كل منهما على الكرسي . كي يتسمى بأمير المؤمنين . وينتج ثقافة لا تنتج إلّا غثاء لو قاتلتهم الثعالب يوماً لغلبتهم . ودارت المعارك وقال في الفتح : قتل من الفريقين فيما ذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه . نحو سبعين ألفاً . وقيل كانوا أكثر من ذلك . ويقال كان بينهم أكثر من سبعين زحفاً[١٢٧] وعلى امتداد المعارك قتل عمار . وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر بأن آخر زاد له من الدنيا ضياح من لبن . يقول حبة بن جوين : شهدت عمار يوم قتل وهو يقول : إئتوني بآخر رزق لي في الدنيا . فأتى بضياح من لبن في قدح له حلقة حمراء . وقال : اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه . ثم قاتل حتى قتل[١٢٨] وبعد قتل عمار إلتهبت المعارك وشارك فيها نفر من الذين اعتزلوا القتال . بعد أن تبينوا أن معسكر معاوية على الضلالة . فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد إشتد وخاف الهلاك . قال لمعاوية : هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلّا إجتماعاً . ولا يزيدهم إلّا فرقة ؟ قال : نعم قال نرفع المصاحف ثم نقول هذا حكم بيننا وبينكم . فإن بعضهم سيقول ينبغي أن نقبل فتكون فرقة بينهم . وإن قبلوا رفعنا القتال عنا إلى أجل . فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم . فلما رآها الناس قالوا نجيب إلى كتاب الله[١٢٩] .

لقد تاجروا بما تأولوه ووضعوه في غير موضعه . تاجروا بالمصحف الذي أخفوه تحت أغطية الرأي . ودخلت الحيلة على الأجيال التي شبت في عالم الرأي . وطالبوا الأمير بأن يقبل التحكيم . فقال : « عباد الله ! إمضوا إلى حقكم وصدقكم . وقتال عدوكم . فإن معاوية وعمرو بن العاص ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن . وأنا أعرف بهم منكم . صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فهم شر أطفال

---

(١٢٦) البداية : ٧/٢٦٤ ، ابن الأثير : ٣/١٥٨ .
(١٢٧) فتح الباري : ١٣/٨٦ .
(١٢٨) ابن الأثير : ١٥٧ ، ٣/١٦١ .
(١٢٩) الطبري : ٦/٤٨ .

وشر رجال ـ وفي رواية ـ فهم أهل مكر وغدر(١٣٠) . . ما رفعوها لكم إلاّ خدعة ودهاء ومكيدة »(١٣١) فقالوا : لا يسعنا أن ندعي إلى كتاب الله فتأبى أن تقبله فقال لهم : « ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله . وأول من أجاب إليه . وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعي إلى كتاب الله فلا أقبله . إني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن . فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده . ونبذوا كتابه . ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون »(١٣٢) . فقال له بعض القراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلاّ دفعناك برمتك إلى القوم . فقال : فاحفظوا عني نهي إياكم . واحفظوا مقالتكم لي . فإن تطيعوني فقاتلوا . وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم(*) . وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قد أخبر عن إختلاف الأمة بعد موته . وان دائرة هذا الإختلاف ستتسع عند تحكيم حكمين . فقال : « إن بني إسرائيل إختلفوا . فلم يزل إختلافهم بينهم . حتى بعثوا حكمين فضلا وأضلاّ . وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال إختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلاّ وضلّ من اتبعهما »(١٣٣) واتفق الطرفان على الحكمين وارتضى معسكر معاوية بابن العاص حكماً وارتضى الذين في معسكر أمير المؤمنين أبو موسى الأشعري حكماً . ولكن أمير المؤمنين اعترض وقال : « إني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى ان أوليه » فقالوا : لكنا لا نرضى إلاّ به . فقال لهم : إفعلوا ما شئتم(١٣٤) واحفظوا عني نهي إياكم . واحفظوا مقالتكم لي(١٣٥) .

وبدأ التحكيم . وكما بدأت الحركة بخدعة المصاحف أنهت الموقف

---

(١٣٠) ابن أبي الحديد : ١/٤٢٦ ، البداية : ٧/٢٧٤ ، الطبري : ٦/٤٨ ، ابن الأثير : ٣/١٦١ .

(١٣١) أبي الحديد : ١/٤٢٦ .

(١٣٢) البداية : ٧/٢٩٩ .

(*) ابن الأثير : ٣/١٦١ .

(١٣٣) أخرجه البيهقي (الخصائص الكبرى : ٢/٢٣٤) .

(١٣٤) الطبري : ٦/٣٨ .

(١٣٥) البداية : ٧/٢٧٤ .

بخدعة التحكيم . فبعد تداول الحكمين إتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه . وأن يجعلا الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . وأمام الناس دعا عمرو أبا موسى أن يقدمه في الكلام . فتقدم وقال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة . فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشملها . من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه . وهو أن نخلع علياً ومعاوية . ويولي الناس أمرهم من أحبوا . وأني قد خلعت علياً ومعاوية . وإستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً . ثم قام عمرو . فقال : إن هذا قد قال ما سمعتموه . وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية . فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه[١٣٦] .

فقال أبو موسى لعمرو : ما لك . لا وفقك الله . غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً فقال له عمرو : بل إياك يلعن الله . كذبت وغدرت . إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ثم وكز أبا موسى فألقاه لجنبه[١٣٧] وهكذا إكتملت المأساة وصار مصير الأمة يلهو به من مثله كمثل الحمار والكلب . وهكذا خضع كل شيء للتجارة بعد رحيل النبي بزمن يسير .

وعندما علم أمير المؤمنين بهذه الخدعة قال : قد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر . ولكن أبيتم إلاّ ما أردتم . . ألا إن هذين الرجلين الذين إخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما . وأحييا ما أمات القرآن . واتبع كل واحد منهما هواه . بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنّة ماضية . واختلفا في حكمهما . وكلاهما لم يرشد . فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . إستعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام[١٣٨] وكان معسكر أمير المؤمنين قد انشق قبل التحكيم وظهرت الخوارج على مسرح الأحداث وكانوا قد أنكروا تحكيم الرجال . فبعث إليهم يخبرهم بالنتيجة التي أسفر عنها رفع المصاحف . وقال لهم : فإذا بلغكم كتابي هذا

---

(١٣٦) ابن الأثير : ٣/١٦٨ .
(١٣٧) المسعودي : ٢/٤١ ، ابن الأثير : ٣/١٦٨ .
(١٣٨) ابن الأثير : ٣/١٧١ .

فأقبلوا إلينا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه . فكتبوا إليه : إن شهدت على نفسك بالكفر وإستقلبت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلاّ فقد نبذناك على سواء ! فلما قرأ كتابهم آيس منهم . ورأى أن يدعهم ويمضي بالناس حتى يلقى أهل الشام . فيناجزهم . فقام في أهل الكوفة ثم قال : إتقوا الله . وقاتلوا من حاد الله ورسوله وحاول أن يطفىء نور الله . فقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين الذين ليسوا بقراء القرآن ولا فقهاء في دين الله ولا علماء في التأويل . ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل تيسروا للمسير إلى عدوكم(١٣٩) وفي الوقت الذي كان يشدهم شداً لقتال معسكر معاوية . كان الناس يقولون لو سار بنا لقتال الحرورية (الخوارج) فلما بلغه ذلك قال لهم : بلغني ما قلتم . فدعوا ذكر هؤلاء . وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً ويتخذوا عباد الله خولاً . فناداه الناس أن سر بنا حيث أحببت(١٤٠) .

وبينما أمير المؤمنين يستعد لقتال معاوية قتل الخوراج بعض من شيعته وكان فيهم أطفالاً . وأتى الخبر علياً والناس معه فقالوا يا أمير المؤمنين علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفونا في عيالنا وأموالنا سر بنا إلى القوم . فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام . وسار أمير المؤمنين لقتال الخوارج . وقال قبل بدء قتالهم : . . . ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة . ونبأتكم أنها مكيدة . وإن القوم ليسوا بأصحاب دين فعصيتموني . فلما فعلت شرط واستوثقت على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن . فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنّة . فنبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول فمن أين أنتم ؟ قالوا : إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا . وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن تبت فنحن معك ومنك . وإن أبيت فإنا منابذوك على سواء . فقال علي : أصابكم حاصب ولا بقي منكم وابر . أبعد إيماني برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله . أشهد على نفسي بالكفر . لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . ثم انصرف

(١٣٩) ابن الأثير : ٤/١٧١ .
(١٤٠) ابن الأثير : ٣/١٧٤ .

عنهم[١٤١] .

هكذا تحدث غلمان ثقافة الرأي والتأويل . الغلمان الذين تغذوا على ثقافة الوليد بن عقبة ونديمه النصراني أبـو زبيد الـطائي . لقد قـطع الغلمان شـوطاً مـع أميـر المؤمنين وفي منتصف الطريق عصـوه وفي نهايتـه كفـروه لعنهم الله . وكـان تخـاذل الغلمان سببـاً في أن أهل الشـام سلموا على معـاوية بـالخلافـة . وعندمـا اشتغل أمير المؤمنين بالخوارج إشتغل معاويـة بالإغـارة على أعمال أميـر المؤمنين هنا وهناك . وكان يشعر بالفخر عنـدما تحمـل إليه الأخبـار أن بسر بن أرطـأة يمزق أحشاء الأطفال والنساء الذين يوالون علي بن أبي طـالب . لقد فتـح غلمان الـرمز والشعار الخالي من الشعور على أمير المؤمنين جبهة وفتح الذين صلى بهم معاويـة الجمعـة يوم الأربعـاء جبهة أخـرى . وأصبح الإسـلام بين نابين نـاب يقتل بـاسم الدين والدين منه بريء . وناب يبث سموم هواه المزخرفة بالذهب والفضة ويرفـع راية الدين والدين من بريء . لقد تكاتفوا ليقيضوا الصراط المستقيم ويقع الكثـرة في مهاوي الضلال . وبـدأ أمير المؤمنين في قتـال الخوارج . وبعـد أن نصره الله عليهم قـال : « إن خليلي أخبرني أن قـائد هؤلاء رجـل مخدج اليـد . على حلمة ثديه شعرات كأنهن ذنب اليربوع . فالتمسوه » فلم يجدوه . فجعل يقـول : أقلبوا ذا . أقلبـوا ذا . فقالـوا يا أميـر المؤمنين لم نجده . فقـال ما إسم هـذا المكـان ؟ قالوا : النهروان . قال : صدق رسول الله وكذبتم إنه لفيهم . فالتمسوه . فوجدوه وجاؤوا به وعليه العلامة التي قد قالها لهم . فكبر عليّ عليه السلام . وعندما سمع أحد أبنائه يقول : الحمـد لله الذي أراح أمـة محمد صلى الله عليـه وآله وسلم من هذه العصابة . قال أمير المؤمنين : لو لم يبق من أمة محمد إلّا ثلاثة لكـان أحدهم على رأي هؤلاء . أنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء[١٤٢] .

لقد كشف أمير المؤمنين عن مناهج ثلاث داخل البيت الإسلامي :

أحدهما : على رأي الخوارج .

والثاني : على رأي أهل الشام .

---

(١٤١) ابن الأثير : ٣/١٧٤ .

(١٤٢) رواه الطبراني في الأوسط (كنز : ١١/٢٩١) .

والثالث : على ما عليه أمير المؤمنين . وهذا كائن على إمتداد التاريخ الإسلامي منذ ذلك الحين .

٤ ـ مقتل الإمام :

بعد الفراغ من الخوارج ظل أمير المؤمنين يدعو في معسكره لقتال معاوية . ولكنه عندما رأى منهم التكاسل قال : « إني أرى أهل الشام على باطلهم أشد إجتماعاً منكم على حقكم » والله لتطأون هكذا هكذا ـ وضرب برجله على المنبر حتى سمع قدمه في آخر المسجد ـ ثم قال : ثم لتستعملن عليكم اليهود والنصارى حتى تنفوا ثم لا يرغم الله إلّا بآنافكم »(١٤٣) لقد وعدوه بأنهم بعد الفراغ من الخوارج يسيرون معه إلى أهل الشام . ولكن هذا الوعد كان كرغوة جوفاء وهباء ضائع في خلاء . وفي كل يوم يدفع معاوية بأمواله لتزداد رقعة طابور النفاق الطويل الذي ورث إنحرافات البشرية منذ أيام قابيل . يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصاب ديناراً أو درهماً في فتنة طبع على قلبه بطابع النفاق »(١٤٤) وقال : لكل أمة عجل يعبدونه وعجل أمتي الدرهم والدينار(١٤٥) ، كان أمير المؤمنين يحذرهم ويطالبهم بأن يأخذوا بالأسباب لوقف تقدم الإنحراف . ولكن القوم لم يثبتوا معه على رأي . فضاق بهم ذرعاً . ووضع المصحف على رأسه وقال : أللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه . فاعطني ثواب ما فيه أللهم إني قد مللتهم وملوني وأبغضتهم وأبغضوني . . فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني . أللهم أمت قلوبهم ميت الملح في الماء(١٤٦) .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر بأن علياً لن يموت إلّا مقتولاً فقال : ألا أحدثكما بأشقى الناس . رجلين : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة . والذي يضربك يا علي . على هذه ـ يعني قرنه ـ حتى تبتل هذه من الدم ـ يعني

---

(١٤٣) الدولابي في الكنى والأسماء ، ابن أبي شيبة (كنز : ٥/٧٨٠) .
(١٤٤) رواه الديلمي (كنز العمال : ١٧/١٨٧) .
(١٤٥) الديلمي (كنز : ٣/٢٢٣) .
(١٤٦) ابن عساكر : ١٣/١٩٥ كنز العمال ، البداية : ٨/١٤ ، المسعودي : ٣/١٣٩ .

لحيته[١٤٧] . وكان عليٌّ يقول : أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط . وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد . فعمهم الله بالعذاب فقال تعالى : ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين** ﴾ فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوراء . أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع في التيه[١٤٨] وكان أمير المؤمنين يقول لأهل العراق . وددت أنه قد انبعث أشقاكم يخضب هذه ـ يعني لحيته ـ من هذه ـ ووضع يده على مقدمة رأسه[١٤٩] وقال لابنه الحسن : رأيت في منامي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقلت : يا رسول الله ما لقيت من أمتك من الأود واللدد[١٥٠] . فقال لي : أدع الله عليهم . فقلت : أللهم أبدلني بهم خيراً لي منهم . وأبدلهم بي شراً لهم مني[١٥١] وكان يقول : غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني . وقيام غيري مقامي[١٥٢] .

ولما كانت الليلة التي أصيب فيها أمير المؤمنين أتاه إبن النباح حين طلع الفجر يؤذن بالصلاة وهو مضطجع فتثاقل . فعاد إليه الثانية وهو كذلك . ثم عاد الثالثة فقام عليه السلام يمشي وهو يقول :

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير ضربه إبن ملجم لعنه الله على رأسه فابتلت لحيته[١٥٣] .

---

(١٤٧) رواه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم (الخصائص الكبرى : ٢/٢١١) وأحمد والطبراني والبزار (الزوائد : ٩/١٣٦) .
(١٤٨) النهج خطبة : ١٩٩ .
(١٤٩) رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقاة (الزوائد : ٩/١٣٦) .
(١٥٠) الأود/ العوج ، اللدد/ الخصومة الشديدة .
(١٥١) الطبقات : ٣٦/٣ ، مقاتل الطالبين ١٦ ، العقد الفريد : ٢/٢٩٨ ، البداية والنهاية : ٨/١٤ ، تاريخ الخلفاء : ١٦٤ .
(١٥٢) النهج خطبة : ١٤٨ .
(١٥٣) ابن عساكر (كنز : ١٣/١٩٦) .

وروى الدارقطني والحاكم والخطيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي : إن الأمة ستغدر بك من بعدي . وأنت تعيش على ملتي . وتقتل على سنّتي . من أحبك أحبني . ومن أبغضك أبغضني وإن هذا سيخضب من هذا - يعني لحيته من رأسه(١٥٤) وروي أن الحسن بن علي خطب حين قتل أمير المؤمنين فقال : يا أهل العراق . لقد كان فيكم بين أظهركم رجل قتل الليلة . وأصيب اليوم . لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون . كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم . إذا بعثه في سرية كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره . فلا يرجع حتى يفتح الله عليه(١٥٥) .

وبعد قتل الإمام إتسع الإنحراف وحمل الحسن بن علي راية الإصلاح بعد أبيه . ولكن الناس هم الناس وثقافة الأديرة بدأت تنساب من المخادع . وبدأ المال يكتسب كل يوم أرض جديدة حول الحسن . وفشلت محاولات الحسن لإعداد جيش يقاتل به معاوية . فاللصوص والقتلة حوله في كل مكان . سرقوا بساطه وطعنوه وأرادوا خطفه وتسليمه إلى معاوية . وعندما عرض عليه معاوية الصلح . رفض أن يأخذ في هذا الصلح قراراً حتى يخبر الناس . لعلهم يطيعوه ويقاتلوا معه . فقال الحسن لأتباعه : إن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة . فإن أردتم الموت رددناه عليه . وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبا السيوف . وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا . فناداه الناس من كل جانب . البقية البقية وإمضاء الصلح . واشترط الحسن في وثيقة الصلح . بأن يحكم معاوية بما أنزل الله . وأن يكون للحسن الأمر من بعده . ولكن معاوية أطاح بكل هذا ولم يكن له عهداً . وروي أن الحسن عندما طالبه القوم بإبرام الصلح مع معاوية خطب في الناس وقال : أيها الناس . إنما نحن أمراؤكم وضيفانكم . ونحن أهل بيت نبيكم الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . وكرر ذلك . حتى ما بقي في المجلس إلّا من بكى حتى سمع نشيجه(١٥٦) وبعد إمضاء الصلح خطب

---

(١٥٤) كنز العمال : ١١/٦١٧ .

(١٥٥) رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو نعيم وابن عساكر وابن جرير (الفتح الرباني : ٢٤/١٦٤) ، (كنز العمال : ١٣/١٩٢) .

(١٥٦) ابن الأثير : ٣/٢٠٤ .

معاوية . ثم قال : قم يا حسن فكلم الناس . فتشهد ثم قال : أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا . وإن لهذا الأمر مدة . والدنيا دول « وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » ثم استغفر ونزل(١٥٧) .

٥ ـ ظلال الشجرة الخبيثة :

لقد ظلمت الرعية قيادتها . ولو كانت القيادة تحب الغدر وتعمل به ما وقف في وجهها أحد . ولكن مهمة القيادة رفع أعلام الحق . وعلى الرعية أن تهرول إلى هذه الأعلام . لأن دين الله لا إجبار فيه . فإذا التفت الرعية أخذت القيادة القرار الذي يناسب هذا الإلتفاف . وكل إنسان يقدم لنفسه وكل إنسان محاسب أمام الله عما قدم . لقد ذكرهم الإمام بأنه ولي رسول الله وأنه يقاتل معارك التأويل التي زرع شجرتها القص والرأي . . ولكن المساحة العريضة لم تفهم هذا المعنى لأنهم كانوا يزينون الأمور في أغلب الأحيان برأيهم . ألم تر أنهم قالوا لأمير المؤمنين عند رفع المصاحف : أجب إلى كتاب الله وإلاّ دفعنا برمتك إلى القوم . إن الجيل الذي يقول مثل هذه الكلمة لعلي بن أبي طالب جيل ميؤوس منه عجنت نفسيته بماء اغتسل منه جبابرة قوم نوح وعاد وثمود الذين عقروا الناقة . وعندما جاء الحسن بن علي وجد في الجيل الذي عاصره مجموعة من اللصوص أخبرهم أنه من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . ولكن لا حس لأن السواد الأعظم سار على أهداف دائرة الرجس التي حذر القرآن منها . ومن أخذ مال من رجس لا ينظر إلى تطهير . وقضى الله أنه من يأخذ درهماً أو ديناراً في فتنة طبع الله على قلبه بطابع النفاق .

لقد كافح بني أمية منذ فتح مكة من أجل هذا اليوم . كافح طابورهم الذي يرتدي ملابس الإسلام ويمشي بين الناس بشهادته . وازداد هذا الكفاح استعاراً عندما ألغى عمر بن الخطاب سهم المؤلفة قلوبهم . وهو من الأحكام الشرعية التي وردت في القرآن وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وإنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم** ﴾ ولقد كان الرسول يمنح هؤلاء من

---

(١٥٧) فتح الباري : ١٣/ ٦٣ .

أموال الحرب . والمؤلفة قلوبهم . منهم من لم يكن قد أسلم بعد ومنهم من كان ضعيف الإيمان . ولكنهم كانوا جميعاً قوماً أولي بأس ومكانة بين العرب . فكان الرسول ومن بعده أبو بكر يتألف قلوبهم أي يستميلهم إليه بالهبات والصدقات . إتقاء لشرهم وإبقاء على ودهم ومنهم أبو سفيان بن حرب(١٥٨) رأس بني أمية . ولكن عمر لم يجر على تلك السنّة التي جرى عليها أبو بكر ومن قبله رسول الله تنفيذاً لحكم شرعي جاء في القرآن . وساوى هذا الصنف مع غيره من المسلمين(١٥٩) . ووفقاً لهذه المساواة انطلق طابور النفاق ليغرس مخالبه في جسد الأمة ويحفر له مكاناً فيه وعن حذيفة إنه قال : « إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون »(١٦٠) .

وطابور النفاق حاصره كتاب الله كما ذكرنا من قبل وحاصرته السنّة الشريفة وذلك في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب : « لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق »(١٦١) وقوله : « يا علي معك يوم القيامة عصا من عصي الجنة تذود بها المنافقين عن حوضي »(١٦٢) ومن هذا نعلم أن سياسة علي بن أبي طالب هي الكشاف الذي يظهر المنافقين تحت ضوءه . ونظراً لأن سياسة علي في الأمة لم تنل حظها الوافر بعد رسول الله . فإن أبو بكر أعطى من كان يعطيه رسول الله من المؤلفة قلوبهم . أما الجديد منهم فإن السياسة لم تكتشفه . وعلى هذا اتسعت الدائرة لتصل في عهد عمر أقصى اتساع لها وذلك لإلغائه العلامة التي ضربها الله على هذا الصنف ليميزه بين الأمة . والتمس العديد من المفكرين لعمر في هذا الأعذار ومما قيل : « أن عمر رأى أن الحكمة التي أدت إلى تقرير ذلك الحكم الشرعي قد زالت . بعبارة أخرى : إنه عمل بروح النص لا بظاهره أو حرفيته . أما عن تلك الحكمة فقد كانت حاجة المسلمين في ذلك الحين إلى

(١٥٨) الاصابة : ٣/٢٣٨ .
(١٥٩) أزمة الفكر : ١٢٢ .
(١٦٠) البخاري : ٤/٢٣٠ .
(١٦١) رواه أحمد (الفتح الرباني : ٢٣/١٢١) ومسلم : ١٨/٦٤ .
(١٦٢) رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي فيه سلام بن سليمان وزيد الصمي وهما صديقان وقد وثقا وبقية رجاله ثقاة (الزوائد : ٩/١٣٥) .

المعضدين والمؤيدين من تلك الطائفة التي تدعى « بالمؤلفة قلوبهم »(١٦٣) ومهما يكن من الأمر فلقد اشتد ساعد هؤلاء في عهد عثمان وتعالت صرخات الشعوب تحت إمارتهم وكان نتيجة ذلك قتل عثمان . وعندما جاء أمير المؤمنين علي . وجد رقعة واسعة فيها من يريد الكرسي أو المال وفيها من يتأول القرآن ويضعه أين يشاء . وعلى الرغم من هذا الإتساع . اعتمد أمير المؤمنين على القاعدة المؤمنة وقام بمعاركه . وعندما أكلت الحرب أصحابه ولم يبق معه إلّا غلمان ساحة الإتساع . كان ما كان وارتفع السفهاء على الحلماء كما في الحديث الشريف « ضاف ضيف رجلاً من بني إسرائيل . وفي داره كلبة محج(١٦٤) . فقالت الكلبة : والله لا أنبح ضيف أهلي . فعوى جراؤها في بطنها . قيل ما هذا ؟ فأوحى الله عز وجل إلى رجل منهم : هذا مثل أمة تكون بعدكم يقهر سفهاءها حلماءها »(١٦٥) وفي رواية : يستعلي سفهاؤها على علمائها(١٦٦) .

وبني أمية كان عليهم من الله ورسوله تحذير ولكن هذا التحذير ضاع من الذاكرة كما ضاع غيره . قال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر الذين بدلوا نعمة الله كفراً** ﴾ أنهم « بنو المغيرة وبنو أمية » وفي رواية « بنو أمية وبني مخزوم »(١٦٧) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لكل دين آفة وآفة هذا الدين بنو أمية »(١٦٨) وقال : « شر قبائل العرب بنو أمية وبنو حنيفة وثقيف »(١٦٩) وقال : « يهلك الناس هذا الحي من قريش » قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم(١٧٠) وقال في فتح الباري : المراد أنهم بها كون

---

(١٦٣) أزمة الفكر السياسي في الإسلام : ١٢٢ .
(١٦٤) محج / أي حامل .
(١٦٥) رواه أحمد والطبراني والرامهرمزي (كنز العمال : ٢٥٤ ، ١٤/٢٥٦) والبزار (كنز : ٧/٢٨٠) .
(١٦٦) رواه الطبراني (كنز : ١٤/٢٥٦) .
(١٦٧) أخرجه البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر (الدر المنثور : ٤/٨٤) .
(١٦٨) أخرجه أبو نعيم (كنز : ١٤/٨٧) .
(١٦٩) رواه البيهقي ورجاله ثقاة (البداية والنهاية : ٦/٢٦٨) .
(١٧٠) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

الناس . بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله . فتفسد أحوال الناس ويكثر الخبط بتوالي الفتن . وقد وقع الأمر كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم[١٧١] والنبي كان يعلم من ربّه أن الكثرة من الناس لن يعتزلوا وأن بني أمية سيقيمون جسوراً لهم على عقول هذه الكثرة . وعن رسول الله أنه قال : « رأيت في المنام بني الحكم أو بني العاص - وفي رواية بني أمية - ينزون على منبري كما تنزو القردة » وبعد هذا اليوم لم ير رسول الله مستجمعاً ضاحكاً حتى مات[١٧٢] . ولقد فتح الباب على مصرعيه وجاء أغيلمة قريش وجاء السفهاء كما أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « هلاك أمتي على يد غلمة من قريش »[١٧٣] وقال : « إن هلاك أمتي أو فساد أمتي رؤوس أمراء أغيلمة سفهاء من قريش »[١٧٤] . قال يوسف بن أسباط كان سفيان الثوري يقول في هؤلاء الأغيلمة : « ما أشبه طعامهم بطعام الدجال »[١٧٥] وقيل لسفيان : معاملة الأمراء أحب إليك أم غيرهم ؟ فقال : معاملة اليهود والنصارى أحب إليّ من معاملة هؤلاء الأمراء[١٧٦] وقال : لا تنظروا إلى الأئمة المضلين إلّا بإنكار قلوبكم عليهم لئلا تحبط أعمالكم[١٧٧] . وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إمارة السفهاء : « أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهدي ولا يستنون بسنتي . فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم . فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون علي حوضي »[١٧٨] .

وبداية ظهور هؤلاء الأمراء لم تكن بعد ثلاثة قرون من البعثة أو بعد ألف سنة منها . وإنما كان الظهور في وقت مبكر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١٧١) فتح الباري : ١٣/١٠ .

(١٧٢) البداية والنهاية : ٢٧٥ ، ٦/٢٧٦ .

(١٧٣) أخرجه أحمد (الفتح الرباني : ٢٣/٣٣) والبخاري والحاكم (كنز العمال : ١١/١٢٨) .

(١٧٤) أحمد (الفتح : ٢٣/٣٤) .

(١٧٥) أحمد في كتاب الورع : ص٩٤ .

(١٧٦) أحمد في كتاب الورع : ص٩٦ .

(١٧٧) أحمد في كتاب الورع : ص٩٦ .

(١٧٨) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح (الزوائد : ٥/٢٤٧) .

قال عليه الصلاة والسلام : « تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان »[179] وقال : « تعوذوا بالله من رأس السبعين »[180] فمن هنا يبدأ الطوفان الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يكون خلق من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ثم يكون خلفاً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . ويقرأ القرآن ثلاثة . مؤمن ومنافق وفاجر »[181] فالمنافق كافر به . والفاجر يأكل به . والمؤمن يؤمن به وعلى أكتاف هؤلاء تأتي أشد الفتن . وسأل حذيفة : أي الفتن أشد ؟ قال : أن يعرض عليك الخير والشر لا تدري أيهما تركب[182] فالجميع يقرأون القرآن والجميع يقول من أقرأ منا ؟ من أفقه منا ؟ من أعلم منا ؟ إنها كارثة الكوارث . في عالم اختلفت فيه الأمة ضروباً من الإختلاف . في الأصول والفروع وتنازعوا فيها فنوناً من التنازع في الواضح والمُشكل من الأحكام والحلال والحرام والتفسير والتأويل والعيان والخبر والعادة والإصطلاح . إنه عالم يحق فيه البكاء بلا اختجاز عملاً بقول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن إبكوا عليه إذا وليه غير أهله »[183] فغير أهله يحفرون العوائق أمام الفطرة الإنسانية . وغير أهله هم الذين قتلوا أهله . قتلوا الإمام . ودسوا السم للحسن . وقتلوا الحسين في أبشع مجزرة في تاريخ الإسلام . حتى أن إبراهيم النخعي قال : لو كنت فيمن قاتل الحسين ثم دخلت الجنة لاستحيت أن أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم[184] وفي الصحيح أن النبي قال عن الحسن والحسين : « هما ريحانتاي من الدنيا »[185] وقال : « من أحبني وأحب هذين وأباهما كان معي في

---

(١٧٩) أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والبيهقي والحاكم (كنز العمال : ١١/١١٩) (الخصائص الكبرى : ٢/٢٣٦) (البداية والنهاية : ٦/٢٦٠) .

(١٨٠) رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى (البداية : ٨/٢٤٩ ، ٦/٢٦٦) .

(١٨١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقاة (الزوائد : ٦/٢٣١) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرك : ٤/٥٤٧) وابن حبان والبيهقي (كنز العمال : ١١/١٩٥) .

(١٨٢) أسد الغابة : ١/٤٦٨ .

(١٨٣) الحاكم وأقره الذهبي (المستدرك : ٤/٥١٥) .

(١٨٤) الاصابة : ٢/١٧ .

(١٨٥) الاصابة : ٢/١٥ .

درجتي في الجنة »[186] ونظر النبي إلى الحسن والحسين وفاطمة وقال : « أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم »[187] والحسين قتل عندما هب عام ستين الذي حذر منه النبي ليوقف زحف طوفان الإنحراف والشذوذ . ففي هذا العام سنة ستين أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد[188] بعد ان دس السم للحسن وكان قد صالح الحسن على أن يكون للحسن الأمر من بعده . وعندما خرج شهيد الأمة الحسين بن علي ليوقف تدوين عصور السفهاء . لم يفهم الكثرة حقيقة هذه الحركة . لأن معاوية حاصر هذه الكثرة بثقافة سب علي بن أبي طالب على المنابر . حتى أن أم سلمة قالت لعبدالله الجدلي : أيسب رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم ؟ فقال : معاذ الله . فقالت : سمعت رسول الله يقول من سب علياً فقد سبني[189] وكان الإمام علي قد أخبر عن هذه الثقافة فقال : إنه سيأتيكم رجل يدعوكم إلى سبي وإلى البراءة مني . فأما السب فإنه لكم نجاة ولي زكاة . وأما البراءة فلا تبرأوا مني فإني على الفطرة »[190] فمعاوية حاصر الكثرة بثقافة السب التي تكاتفت مع ثقافة القصاص في المساجد ومن وراء هذا وذاك المال الذي سال على كل جانب . ووفقاً لهذا لم تفهم الكثرة حركة الحسين التي تستقيم مع حركة الدعوة . وقتل الحسين . والكثرة يلعقون من فوق موائد معاوية ما يشتهون . ولم يعد للإمام علي ذكر في عالم السب . وروي أنه قيل لزعيم من زعماء الرأي والعقل من أهل الشام : من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر ؟ قال : أراه لصاً من لصوص الفتن[191] فإذا كان الأكثر علماً في عالم بني أمية لا يعلم من هو علي بن أبي طالب فما هو الفرق بينه وبين من صلى الجمعة يوم الأربعاء وفي عالم يزيد بن معاوية نصبت مجزرة لأهل المدينة بعد مجزرة الحسين . وذلك عندما خلعه أهل المدينة لما رأوا من فسوقه . وروي أن

---

(١٨٦) أخرجه عبدالله بن أحمد والترمذي (الفتح الرباني : ٢٢/١٠٤) .
(١٨٧) رواه أحمد والطبراني (الفتح الرباني : ٢٢/١٠٦) .
(١٨٨) الطبري : ٦/١٧٩ .
(١٨٩) رواه أحمد (الفتح : ٢٣/١٢١) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرك : ٣/١٢١) .
(١٩٠) ابن عساكر والحاكم (كنز : ١١/٣٠٢) .
(١٩١) مروج الذهب : ٣/٤٢ .

عبدالله بن حنظلة قال : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا آن نرمى بالحجارة من السماء . إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة[١٩٢] وكان (أمير المؤمنين) معاوية قد أوصى (أمير المؤمنين) يزيد قائلاً : قد وطأت لك البلاد ومهدت لك الناس . ولست أخاف عليك إلاّ أهل الحجاز . فإن رابك منهم ريب . فوجه إليهم مسلم بن عقبة فإني قد جربته وعرفت نصيحته[١٩٣] فلما خرج أهل المدينة على يزيد . قال لمسلم بن عقبة : ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلاّ فقاتلهم . فإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً . فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند . فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس[١٩٤] وذهب الجيش . وقيل في المجزرة : والله ما كان ينجو منهم أحد . قتل خلق من الصحابة ونهبت المدينة وافتض منها ألف عذراء[١٩٥] وقتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن[١٩٦] . وراثت الخيل وبالت بين القبر والمنبر . ولم تصلِ في مسجد النبي جماعة . وكان هذا اليوم من أكبر مصائب الإسلام وخرومه . ثم انتقل الجيش بعد ذلك إلى مكة فحوصرت ورمي البيت بالحجارة[١٩٧] لقد وضعت بني أمية بذور الأنياب التي تحافظ على الإنحراف والشذوذ تحت مظلة قالوا بأنها مظلة الإسلام . وأثمرت هذه البذور شجرة كبيرة . مارس أصحابها فيما بعد الإعتداء والترويع والتنكيل وقتل وصلب المخالفين لهم في الرأي . ولم يكن هذا الإرهاب أو الحكم بالرعب والتخويف سوى تحصين لمصالح الحاكم دون الشعب . ولم يقف هذا الأمر عند بني أمية بل أصبح سُنة رفع أعلامها الذين جاؤوا من بعدهم على الرغم من إختلاف الأسماء . روي أن عصر أبو جعفر المنصور كان من أشد العصور قسوة على المعارضين له في الرأي وظلت الدائرة تتسع وتحمل ثقافة كاملة تبارك حكم الجبرية والطاغوت وتزينه بأعلام الفتوى .

---

(١٩٢) تاريخ الخلفاء : ١٩٥ .
(١٩٣) فتح الباري : ١٣/٧١ .
(١٩٤) ابن الأثير : ٣/٣١١ .
(١٩٥) تاريخ الخلفاء : ١٩٥ .
(١٩٦) الخصائص الكبرى : ٢/٢٤٠ .
(١٩٧) رسائل ابن حزم ط المؤسسة العربية : ص١٤٠ .

تحت ظلال الشجرة :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة . ووزراء فجرة . وأمناء خونة وقراء فسقة . سمتهم سمة الرهبان . وليس لهم رغبة . فيلبسهم الله فتنة غبراء مظلمة يتهوكون[198] فيها تهوك اليهود في الظلم »[199] .

لقد بدأ بنو أمية الطريق وحصنوا أنفسهم على حساب غيرهم . . فتحت شعار الفتوحات وضعوا أعينهم على خزائن المال . كانت هذه خطوتهم الأولى . أما الخطوة الثانية فلقد جاءت على حساب الصحابة . وذلك أنهم وضعوا الصحابة في مرتبة القداسة . وبما أنهم ممن ينطبق عليهم تعريف الصحابي . فقد دخلوا حظيرة هذه القداسة التي تقول بعدالة الصحابة وعدم إجتماعهم على ضلالة . فالتشكيك فيهم يعني التشكيك في الصحابة . ونحن بدورنا لا ننكر فضل الصحابة . ولكن أي صحابة ؟ إن القرآن الكريم وصف دوائر منهم بالنفاق والخروج على الرسول ورسالته كما جاء في سورة التوبة ووصف دوائر منهم بالفسق وفضح مؤامراتهم ودسائسهم التي كانوا يحيكونها في الظلام كما فضح تخاذلهم عن نصرة الرسول في بعض الغزوات وتجسسهم عليه إلى غير ذلك مما نص عليه القرآن . هذا بالإضافة إلى عشرات الأحاديث التي إختارها أصحاب الصحاح ووصفتهم بالإرتداد عن الدين والتمرد على أصوله ومبادئه بنحو لا يدع مجالاً للريب . والتاريخ أثبت في أن العديد منهم كان كغيرهم من سائر الناس . فيهم الصالح والظالم والمنافق ومن قذفت به النزعات والأهواء إلى أسفل درك من الإنحطاط والتدهور . ولقد أخبر رسول الله بأن هذا التدهور سيقود أصحابه إلى فتنة غبراء مظلمة يتهوكون فيها تهوك اليهود في الظلم . إن الصحابة الذين لا ينكر فضلهم هم من حدث التاريخ ان أعمالهم وأقوالهم خرجت من تحت ظلال القرآن الكريم . ومن لم يأتِ ذكره في التاريخ وثبت أنه من الصحابة فله نصيب وافر من

---

(١٩٨) أي يقعون فيها بغير روية .

(١٩٩) رواه البزار (الزوائد : ٥/٢٣٣) وأحمد (الورع : ٩٤) .

الإجلال . أما مظلة الصحابة التي شيدها بنو أمية . فهي مظلة تخضع للبحث العلمي . حتى لا يأتي اليوم الذي نصلي فيه الجمعة يوم الأربعاء . أو نجد أنفسنا نسير على قاعدة لا تحقق إلّا المجد الشخصي لفرد ما أو لقبيلة ما أو لحزب ما وجميع هذه المناهج لها أصول قيل بأنها دينية في عالم بني أمية . لقد شيد بني أمية صرحهم على حساب الصحابة . فقام هذا العهد بوضع العديد من الأحاديث التي تنتقص من أهل البيت :

أولاً : ثم التي تحور من مفهوم الخلافة وتنتهي به إلى مفهوم الوراثة وحكم الفرد .

ثانياً : ومن أجل الوصول إلى هذه الأهداف اشترى بنو أمية ضمائر المرتزقة والحاقدين لينسجوا لهم ولأتباعهم ثوباً من الفضائل ليستتروا به أمام رعاياهم . وبالإضافة إلى هؤلاء . قاموا بتغذية الشعراء بالحياة القبلية . فألقوا بمآثرهم إليهم ليذيعون على الناس مفاخرهم كما يهجون أعداءهم هجاء تفوح منه رياح العصبية الجاهلية الموروثة[٢٠٠] .

ولم يكتفِ بني أمية في وضع أصولهم في الحديث والشعر والقصص . وإنما حفروا بأظافرهم في الكيان الإنساني فوضعوا الأحاديث التي تقول بفضل العرب على من سواهم . وذلك لتذويب الروح الإسلامية التي لم تفصل بين جنس وجنس ولا لون ولون إلّا بالأعمال الصالحة التي تعود بالنفع على الأفراد والجماعات وفقاً لتقوى الله تعالى . وكان شعار الأمويين (السواد بستان قريش) وتحت هذا الشعار تم إحتقار الموالي ودفعهم إلى الأعمال التي كان الأمويون يأنفون منها . وأخذ العرب في العصر الأموي ينظرون للموالي نظرة السيد للعبد . ومضوا يعاملونهم لا تلك المعاملة الإسلامية ألتي أمر بها رسول الله . وإنما معاملة أقل ما توصف به إنها بعيدة عن روح الإسلام ومجافية لمبادئه الإنسانية[٢٠١] . فبني أمية ورثوا ما جاء به الأولون من خيمة « أنا خير منه » تلك الخيمة التي صنفت الناس إلى أشراف وأراذل من عهد نوح . وفي عالم وضع الأحاديث والقصص

---

(٢٠٠) حياة الشعر : ٧٤٢ .

(٢٠١) حياة الشعر : ١٧١ .

وشعر الجاهلية وشعر الأديرة . وفي عالم أمراء بني أمية وفقهائهم . ألقت الشجرة بثمارها التي يسير من أكلها في فتنة يتهوك فيها تهوك اليهود في الظلم . لقد ظهرت المذاهب منها ما هو على الطريق الصحيح ومنها الذي أخطأ الطريق . وأهم مذهب شجعه بني أمية لأنه يتفق مع أهدافهم هو (الإرجاء) يقول الدكتور يوسف خليفة : ظهر هذا المذهب بعد أحداث الفتنة . كما تظهر حمامة السلام . مذهباً سياسياً مسالماً يحمل غصن الزيتون . يلوح به للجميع ويعلن أن الجميع قاتل ومقتول وظالم ومظلوم على حق . لأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يعين أيهم المخطىء وأيهم المصيب لأن الأمور مشتبهة. ولهذا فإن الحكم . أن يترك أمر الجميع إلى الله . ولقد عمل الأمويون على إستقرار مذهب المرجئة ذلك المذهب الذي يخدم البيت الأموي(٢٠٢) بعد ان ثار جدل طويل حول موقعة الجمل وصفّين والنهراوين . وبدأ البعض بحث عن الحقائق . ولقد جاء هذا المذهب نتيجة للكم الرهيب من الأحاديث والقصص التي وضعها مرتزقة بني أمية وخلطوا فيها بين الحق وبين الباطل حتى التبس الأمر على الكثير . ومذهب الإرجاء هذا تحيط به الشبهات . فكما أن اليهود إخترقوا الساحة قديماً عندما كف الناس عن الرواية وتفرغوا للقص في المساجد وكما دخل النصارى إلى ساحة الشعر تحت مظلة الوليد بن عقبة في عهد عثمان . كذلك كان النصارى وراء مذهب الإرجاء الذي جاء على هذا الكم من القص والحديث . يقول الدكتور يوسف خليفة : ويميل (كريمر) إلى القول بأن هناك صلة بين مبادىء المرجئة وبين تعاليم الكنيسة الشرقية . ويرى أن هذا واضح بالذات في فكرة عدم التخليد في النار . كما أن إيمان المرجئة الهادىء الذي يغلب عليه الإنشراح وتعزية النفس . يتفق كل الإتفاق مع تعاليم يوحنا الدمشقي الذي كان وقت ظهور هذه الطائفة . يشتغل بالأبحاث الدينية . ويتمتع بشهرة كبيرة في عاصمة الخلفاء الأمويين . ثم يؤكد في النهاية إن آراء المرجئة ترجع في أصلها ومسلكها إلى فلسفة الكنيسة الإغريقية . ونحن لا نرفض القول بأن تعاليم المرجئة قد تكون متأثرة بتعاليم الكنيسة الشرقية(٢٠٣) وهكذا التقى البدء مع الختام وقام بني أمية بإزالة الفوارق بين دائرة

(٢٠٢) حياة الشعر : ٣٠٩ .

(٢٠٣) حياة الشعر : ٣١٢ .

الرجس وبين دائرة النجس .

وكان القرآن قد حذر من أصحاب هذه الدوائر كما ذكرنا من قبل . وسقط من مذهب المرجئة قطرات جرت من الماضي إلى الحاضر وتنطلق إلى المستقبل . ولم تكن بصمات أهل الكتاب على هذا المذهب العقائدي فقط وإنما وضعوا بصماتهم على العديد من شؤون الحياة يقول الدكتور صابر دياب : والدارسون للسياسة الأموية المالية كان من رأيهم إنها كانت إحياء للسياسة البيزنطية القديمة بمساوئها ومظالمها معاً . فولاة الأمويين لم يكونوا رسل إصلاح . . إنما كانوا جباة للمال همهم أن تحصل الضرائب . وكان من يسلم لا يعفى من دفع الجزية . . وأباح الأمويون للقبائل العربية التي توافدت على مصر أن تحوز الأرض إلى جانب ما كانت تناله من عطاء . . وعادت ظاهرة الهرب الجماعية من الأرض الزراعية هرباً من ضرائب الأمويين مثلما كان يحدث في العصر البيزنطي(٢٠٤) .

ومن هنا بدأت الإنطلاقة التي أخبر عنها الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ »(٢٠٥) وقال الصادق صلى الله عليه وآله وسلم : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم من أهل الكتاب حذو القدة بالقدة »(٢٠٦) ولما كان الطريق هو طريق الطمس والقهقري فإن لبني إسرائيل على هذا الطريق فرق عديدة . يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن بني إسرائيل تفرقت على إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون فرقة وخلصت فرقة . وإن أمتي ستتفرق على إثنتين وسبعون فرقة . فتهلك إحدى وسبعين وتخلص فرقة . ـ وفي رواية : كلها في النار إلّا فرقة ـ قالوا يا رسول الله من تلك الفرقة ؟ قال « الجماعة .

---

(٢٠٤) تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها/ د . صابر دياب : ص٦٦ .

(٢٠٥) رواه البخاري : ٤/٢٦٤ ، مسلم : ١٦/٢١٩ ، أحمد (الفتح : ١/١٩٧) .

(٢٠٦) رواه أحمد والبغوي وابن قانع والطبراني وسعيد بن منصور (كنز العمال : ١١/١٧٠) .

الجماعة »[٢٠٧] .

لقد كان بنو أمية ثمرة لطريق بدأ بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم . وهذه الثمرة حملت شذوذ وإنحراف بني إسرائيل الذين حملوا شذوذ وإنحراف البشرية كلها . ويخطىء من يظن أن بني أمية إنتهوا بنهاية دولتهم على أيدي العباسيين . لأن ثمرتهم طرحت بذرتها بعد نهاية دولتهم بستاناً من الشذوذ ـ الخارج عليه خارج عن القانون . وفي ظل هذا القانون إتسعت حضارة الثراء والترف والرقيق والجواري والغناء والمجون والشعوبية والزندقة . فبني أمية حفروا في جسد الأمة مجاري طويلة . ورفعوا فوق هذه المجاري أعلام القداسة . وعندما جاء العباسيون ثاروا على بني أمية في الوقت الذي استعملوا فيه هذه المجاري يقول الدكتور شوقي ضيف : أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث رسول الله . ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس . كان لها أسوأ الأثر في خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد . . وفي ظل هذا الحكم الإستبدادي لم يحسب أي حساب للرعية . فهي أدوات مسخرة للحاكم . وليس لها من الأمر أي شيء . فالحاكم في يده كل الأمر وكل السلطات[٢٠٨] وكثر الرقيق في العصر العباسي . وكان يشيع بينهم الخصيان . والإسلام يحرم خيصاء الإنسان إحتراماً لآدميته . وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال . وكانت هؤلاء الجواري والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة . فأثرن آثاراً واسعة في أبنائهن ومحيطهن . وهي آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملاً بعيد الغور . فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن . فالمنصور أمه حبشية والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية . وكانت أم الواثق رومية . وقد أخذ هؤلاء الجواري يكثرن في القصر منذ المهدي وكان بينهن من يعلقن الصلبان . وكان قصر الأمين يزخر بالجواري الغلاميات اللاتي يلبسن لبس الغلمان وزخر قصر المعتصم والواثق بالجواري المسيحيات[٢٠٩] .

---

(٢٠٧) رواه أحمد (الفتح الرباني : ٢٤/٦) وابن ماجة وابن جرير في التفسير ورجاله رجال الصحيح .

(٢٠٨) العصر العباسي الأول/ د . شوقي ضيف ط دار المعارف : ص٢١ .

(٢٠٩) العصر العباسي الأول/ د . شوقي ضيف ط دار المعارف : ص٥٨ .

ان الطريق الذي بدأه الوليد بن عقبة في عهد عثمان أثمر في نهايته مأساة . وعلى إمتداد هذا الطريق ذبحت الفضيلة بمقاصل القبائل التي إستسلمت للإسلام كي تحفر المجاري التي تدفن فيها الفطرة . ونحن لا ننكر انه خلال هذه العصور كان هناك تقدماً مدنياً في مجالات عديدة مثل الطب والهندسة الفلك وغير ذلك . ولكن ما قيمة هذا كله إذا كان يتجه بأصحابه نحو الطمس . إننا ننظر هنا إلى الدعوة الإسلامية التي بعث الله تعالى رسولها لينقذ الفطرة من عالم الزخرف والفتن . ونحن نقول إن هذه الدعوة واجهت عثرات على إمتداد التقدم المدني . وقُتل على طريق هذا التقدم والطرب. الإمام علي بن أبي طالب . قتل الإمام الذي قاتل على تأويل القرآن . فإذا كان فقيه التأويل قد قتل في بداية الطريق . فبماذا نسمي نهاية الطريق ؟ لقد كان التقدم المدني تقدماً عظيماً في عالم الفتن . وكان قتل الإمام ومن بعده أولاده تقدماً أعظم في اتجاه المسيح الدجال .

إنها الفتن وعن حذيفة انه قال : « ان للفتنة وقفات وبعثات فإن إستطعت أن تموت في وقفاتها فافعل . وما الخمر صرفاً بأذهب بعقول الرجال من الفتن »(٢١٠) ولقد جاء النبي بدين الحق . ولا اكراه في دين الله . والله غني عن العالمين ﴿ **وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾(٢١١) قال المفسرون : أفإن مات أيها القوم لانقضاء مدة أجله . أو قتله عدوكم انقلبتم على أعقابكم . يعني إرتددتم عن دينكم الذي بعث الله محمداً بالدعاء إليه . ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمان به . وبعد ما قد وضحت لكم صحة ما دعاكم محمد إليه . وحقيقة ما جاءكم به من عند ربه ومن ينقلب على عقبيه . أي من يرتد منكم عن دينه ويرجع كافراً بعد إيمانه . فلن يضر الله شيئاً . أي فلن يوهن ذلك عزة الله ولا سلطانه . ولا يدخل بذلك نقص في ملكه . بل نفسه يضر بردته .

---

(٢١٠) رواه ابن أبي شيبة (كنز العمال : ١١/٢٢٩) .
(٢١١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤ .

٧ ـ خاتمة المطاف :

في عالم الفتن تطير العقول . وفي عالم العقول الطائرة . لا تسأل عن إجابة لأي سؤال . لقد ذم الإسلام منذ عهد نوح عليه السلام وحتى الرسالة الخاتمة إتباع الأهواء . ولم يضع الله دينه على مائدة البشرية كي يقول فيه كل منهم برأيه . وإنما كانت العامود الفقري للدين . أتؤمن أو لا تؤمن ؟ ونحن نقول هل شذت الرسالة الخاتمة عن هذا ؟ بمعنى هل ترك الله دينه الخاتم لتنهش فيه القبائل كل منهم حسب ما يراه . أم قام سبحانه بتحصين هذا الدين من مختلف الأهواء حتى قيام الساعة ؟ فإذا كانت الإجابة أن الدين لم يشذ عن القاعدة وأن الله تعالى حصن دينه من أطماع الطامعين . فما معنى أن يجلس يزيد بن معاوية على رقبة الأمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأقل من خمسين عاماً . وكان يزيد فاتحة للغلمان من كل جنس ولون بعد ذلك ؟ إذا كانت هناك إجابة فهي أن مبادىء التحصين لم يلتفت إليها بعد الرسول إلّا في حدود ضيقة . فإن قيل أن مبادىء التحصين وضعت أيام الرسول وسارت عليها الأمة من بعده مدة طويلة . نقول أن التاريخ لا يقول بذلك . ونحن أمام التاريخ إما أن نقول . أن الرسول وضع أساساً سار عليه الناس من بعده . وفي هذا ظلماً للدعوة . وإما أن نقول أن الرسول وضع أساساً ولم يسير الناس عليه بعد موته إلّا في حدود وهذا القول يستقيم مع حركة التاريخ وأيضاً مع إخبار الرسول بالغيب عن ربه . فمعنى أن الأمة ستتبع سنن الذين من قبلها . ان حلقات التحصين ستذوب ليختلط هذا مع ذاك . ومعنى أن حلقات التحصين ستذوب أن ساحة النسيان بين الأمة وحلقات التحصين ستتسع . والنسيان أرض خصبة للشيطان وعلى إمتداد التاريخ إنطلق الشيطان منها نحو البشرية . دخل إلى قوم نوح منها وإلى قوم عاد عندما أقاموا أبنيتهم على الأعمدة لتفادي الطوفان لما دثرت ثقافة النسيان حقيقة الطوفان . وعندما أهلكهم الله بالريح . دخل إلى ثمود من بعدهم عندما حفروا بيوتهم في الصخور كي يتفادوا الرياح لما دثرت ثقافة النسيان حقيقة الرياح . وهكذا لا نستبعد أن قول الرسول لعلي بن أبي طالب « من كنت مولاه فعلي مولاه » ضاع أثره في عالم النسيان في الأمة الخاتمة شأنها شأن الأمم السابقة . ولذا نجد أن أمير المؤمنين عندما ذكر العديد بهذا الحديث كانت إجابتهم واحدة « نسينا » !! وكل نسيان له مقدمات

على إمتداد التاريخ الإنساني .

وعلى هذا فالقول بأن الرسول وضع أساساً وسار عليه الناس . هذا القول يذهب كهباء ضائع في خلاء بمجرد النظر في أحداث مقتل الحسين والحرة ودخول الخيل مسجد النبي وحرق البيت العتيق بعد وفاة النبي بنصف قرن تقريباً . ويبدو هذا القول عاجزاً أمام طريقة إختيار الخليفة منذ البداية وحتى عالم الوراثة الذي سنّه معاوية بن أبي سفيان وأخذ من بعده أشكالاً متعددة على إمتداد التاريخ تحفظ للفرد أو القبيلة أو الحزب حقه في رقاب الناس . إن دين الله لا يوضع على الموائد ليقول فيه كل صاحب هوى . وإلّا لماذا أهلك الله الأمم السابقة ومنهم من قال : « ما أريكم إلّا ما أرى » ؟ وقد جعله الله عبرة للمسلمين بمقدار ما هو عبرة لبني إسرائيل . قال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً** ﴾[٢١٢] لم يقل : كما أرسلنا إلى مدين رسولاً أو إلى المؤتفكة رسولاً . وإنما اختار فرعون . ليتدبر الذين أمسكوا بذيول القياصرة والأكاسرة والفراعنة . في قصة الذي عصى الرسول فأخذه الله أخذاً وبيلاً . والآية الكريمة يجد المتدبر فيها شعاعاً يلقي بضوئه على حركة تاريخ المسلمين .

ويبقى سؤال : إذا كانت حركة التاريخ تستقيم مع الأساس الذي وضعه النبي . فكيف يستقيم هذا مع الحديث الشريف : « من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية »[٢١٣] فهل يزيد بن معاوية وأمثاله ومروان بن الحكم والوليد بن يزيد وأمثالهما يدرجوا ضمن الأئمة الذين إذ لم يعرفوا كان مصير من لا يعرفهم أن يموت موتة جاهلية ؟ إن يزيد قتل الحسين والعديد من علماء الإسلام أجازوا لعنه . وفي عهد يزيد إقتحمت الخيول المدينة وبايع أهلها يزيد على أنهم عبيد له . ومروان كان سبباً مباشراً في قتل عثمان وهو قاتل طلحة وفوق كل هذا فهو ابن طريد رسول الله ولعن الرسول أباه وهو في صلبه . والوليد فتح نافذة الغناء والطرب والمجون ليدخل الشذوذ والإنحراف من كل لون . إذا كانت الإجابة . إن هؤلاء

---

(٢١٢) سورة المزمل ، الآيتان : ١٥ ـ ١٦ .

(٢١٣) رواه الطبراني (الزوائد : ٢١٨/٥) .

أئمة ساروا على الأساس الذي وضعه الرسول ، فإن هذه الإجابة ستكون ظلماً للإمامة . وإلاّ يكون تعريف الإمامة نفسه قد إلتقط من على طريق القهقري والطمس . حيث الإمامة على هذا الطريق تدعو إلى النار كما في الحديث : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي . وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس »(٢١٤) . فكيف وعلى أي أساس تعقد الإمامة لمن لا يقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ إن إنعقاد الإمامة لهذه الأنماط البشرية . يعني ان الحركة تسير على غير الأساس الذي وضعه الرسول الأكرم . وإن الحركة تاجرت بالشعار وجندت ألفاظه لخدمة مآربها . ولأن الجماهير في عالم الفتن قد إفتتنت بهذه الشعارات ترتب على ذلك الموتة الجاهلية كما ورد في الروايات المتعددة . ان الذين تاجروا بالشعار أعد الله لهم عذاباً إليماً يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ليتمنين أقوام ولوا هذا الأمر . أنهم خروا من الثريا وأنهم لم يلوا شيئاً »(*) .

وما ينطبق على إستعمال لفظ الإمامة في الفتنة ينطبق أيضاً على استعمال لفظ الجماعة . ففي الحديث الشريف : « من فارق الجماعة شبراً فقد فارق الإسلام »(٢١٥) والحديث : « . . . فمن خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من رأسه »(٢١٦) وغير ذلك من الأحاديث التي تنادي بالجماعة وفقاً للأساس الذي وضعه النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم . فإذا حدث ولم نر جماعة فمعنى ذلك أن الطريق من الأساس إلى نقطة الإفتراق كان به عقبات . ولقد روى أصحاب التواريخ والتراجم والسير والصحاح والمسانيد والتفسير . أن المذاهب الفكرية قطعت الأمة إلى رقع حلال الحقبة الأولى من تاريخ المسلمين . فكان الخوارج في العراق وفارس والجزيرة والأباضية في عمان . ثم بدأت المذاهب تضع الأسوار حول أراضيها . فاستقلت الأدارسة والأغالبة والطاهرية والزيادية من العصر العباسي الأول . وفي عصر المماليك إستقلت

---

(٢١٤) رواه مسلم : ٥/٢٠ .

(*) رواه أحمد (كنز العمال : ٦/٢٣) .

(٢١٥) رواه البزار (الزوائد : ٥/٢٢٤) .

(٢١٦) رواه الإمام أحمد (الزوائد : ٥/٢١٧) .

الصفارية بفارس والسمانية بخرسان والزيدية بطبرستان والطولونيون والإخشيديون بمصر والشام والفاطميون في الشمال . ولم يبق مع عاصمة الخلافة سوى العراق والسواد . ويقول السيوطي : في دولة بني العباس إفترقت كلمة الإسلام وانقسمت ممالك الأرض . وحكم الناس بالعسف والظلم والجور . وقال الذهبي : بدولة العباس تفرقت الجماعة(٢١٧) ان الطريق إلى هذا التمزق لم يكن بحال ينتمي إلى الأساس الذي وضعه النبي الذي لا ينطق على الهوى صلى الله عليه وآله وسلم . فهذا الطريق الذي يدعي الجماعة . ضرب الرسول جماعته عندما تحدث عن أئمة الفتن كما ورد في الصحيح وقال : « لو أن الناس إعتزلوهم » إن هذا القول ينسف قول الذين جندوا لفظ الجماعة لخدمة مآربهم . فإذا قال قائل : إن الجماعة قائمة على مستوى الأمة وهي على نفس الأساس الذي وضعه رسول الله . فإننا نقول : إن هذا القول بالنسبة للمساحة العريضة . قول رده علماء التاريخ . حيث قالوا بدولة العباس تفرقت الجماعة . وفي عالم التتار والمماليك كانت الكارثة عظيمة . وهذه الكارثة مهدت فيما بعد لأيامنا هذه التي لا نعرف حتى أسمائها ولا نعرف لأحداثها ألواناً وهذا كله يصرخ في أسماع الوجود بأن النتيجة لا تنسجم إلّا مع مقدمتها .

ولا يخفى على المتدبر ان الروايات التي تطالب بمعرفة الإمام حتى لا يكون هناك ميتة جاهلية . والروايات التي تطالب بالجماعة حتى لا يكون هناك مفارقة للإسلام . هذه الروايات تنسجم مع الروايات التي حددت أن الأئمة من قريش . ولكن أي قريش ؟ إن التاريخ يخبرنا بأن قريشاً وضعت نظاماً من تحت مظلته حُرقت الكعبة ودام به الحكم بالوراثة وحُكم الناس في ظله بالظلم والجور . فأي قريش يقود إلى النجاة ؟ إننا لا نقبل أن يكون التحديد خاضعاً للأهواء . فلنتدبر تحديد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الشأن وبه نعلم أي قريش يقود إلى النجاة ؟ قريش المال والسلاح . أم قريش العفة والعلم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قريش ولاة هذا الأمر . فبر الناس تبع لبرهم . وفاجرهم تبع لفاجرهم »(٢١٨) وقال : « الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها .

---

(٢١٧) عقيدة المسيح الدجال/ للمؤلف : ص١٨٢ .
(٢١٨) رواه الإمام أحمد وفي الصحيح طرف منه (الزوائد : ١٩١/ ٥) .

وفجارها أمراء فجارها »[219] وقال : « إن خيار أئمة قريش خيار أئمة الناس »[220] .

والخلاصة : إن حركة التاريخ تقر وتعترف بأن السواد الأعظم قد أخذ بذيول أهل الكتاب شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى أن رقعة كبيرة في هذا السواد أصبحت في النهاية تخجل من الإنتساب للإسلام إرضاءً لجبابرة أهل الكتاب الذين يتربعون على قمة النظام الدولي الذي أقرته الأهواء . ووراء ذيول أهل الكتاب تتردد ألفاظ لا معنى لها مثل . الإمامة والجماعة والأمة . ونظراً لأن هذه الألفاظ تستعمل في أكثر من ساحة وتستعمل في كل فتنة . فإن المطلوب إرجاعها إلى الإسلام للوقوف على معناها الدقيق .

○ لقد سردنا على إمتداد هذا الكتاب . الإنحرافات البشرية . وبينا أن الشيطان أفصح عن خطته منذ اليوم الأول عندما رفض السجود لآدم . وبينا أن تحقير الإنسان خرج من تحت إدعاء الشيطان بأنه خير من آدم . وأن تقييض الشيطان للصراط المستقيم تم على إمتداد التاريخ البشري على أكتاف المنافقين الذين يسيرون على الصراط المستقيم بفقه الشعار الخالي من الشعور . فقه القول الذي لا يتطابق مع العمل . وإن الشيطان إعتمد في خطته على التزيين والإغواء وطرح الأماني والآمال على عقول البشر . كي يندفعوا وراء الشذوذ والإنحراف ولا يجدوا حرجاً من تغيير خلق الله والعمل على إجتثاث أي أصول تدعو إلى الفضيلة . وبينا أن الله تعالى حاصر خطوات الشيطان . بإرشاد الإنسان إلى طرق الخير على لسان رسله وأنبيائه عليهم السلام . وان الشيطان لايستطيع أن يضر إنسان لأن الله تعالى ضرب على خطواته العجز بحيث لا تصيب إلّا الذين خرجوا من دائرة الأمان باختيارهم واتجهوا نحو زينة الشيطان وزخرفه وذكرنا أن الرسالة الخاتمة قصت على البشرية الإنحرافات الكبرى . وكيف ضربها الله تعالى بأسباب الكون وطالبت الرسالة البشرية . بالنظر إلى الخلف ليكون للإنسان في ماضيه عبرة . لينطلق إلى المستقبل هو لا يحمل من الماضي إنحرافاً أو شذوذاً . وان يتقدم إلى الأمام بزاد الرسالة الخاتمة . التي حصنت الإنسان من كل موارد

---

(٢١٩) رواه الطبراني (الزوائد : ٥/١٩٢) .

(٢٢٠) رواه الطبراني (الزوائد : ٥/١٩٥) .

الهلاك التي تكمن في المستقبل .

وإذا كـان لنا في الختـام كلمة . فـإننا نقـول : يخطىء من يـظن أن تاريـخ الإسـلام هو نفسـه تاريـخ المسلمين . ويخطىء من يـظن ان تاريـخ الإسـلام كله صراعات وبحث عن المال والكرسي . وهذه المقولة تاجر بها العديد على امتـداد التـاريخ وهي لا تقتـرب من الصواب بحـال من الأحوال . ان تـاريخ الإسـلام في عصر الرسالة الخاتمة إمتداد لتاريخ الإسلام منذ اصطفى الله تعـالى آدم . وتاريـخ الإسلام هو تاريخ الفطرة التي يقف في مربعها نوح وآل إبراهيم وآل عمران . فمن أراد أن يقف على تاريخ الإسلام . فعليه بحركة الأنبياء والرسل ودعوتهم في إتجاه عبادة الله الحق . وفي عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقـرأ تاريـخ الإسلام في دعـوته وحججـه التي أقامهـا على معسكر الشـذوذ والإنحراف . ولأن تـاريـخ الإسلام هو تاريخ الفطرة النقية . فإنك لا تجد على إمتداد هذا التاريخ ما تنفـر منه الفطرة السوية . وتجد أن الله تعالى أيد هـذا التاريـخ على إمتداده بـالنصر والـظفر على أعدائه وإن طال المدى . أما تاريخ المسلمين فهو شيء آخر . فما إستقام منه مع حركة الرسل فهو من تاريخ الإسلام . أما الصـراعات والأحقـاد من أجل هـوى من الأهواء . فهذا لا علاقة للإسلام بـه . لأنه من تـاريخ النـاس . ومن الناس من أغـواهم الشيطان وزين لهم فـانطلقـوا مع أمـانيه في إتجـاه القهقـري والـطمس . فكيف يستقيم تـاريخ قهقـري مع تـاريخ يقيم رسـل الله وأتباعهم وجـوههم فيه في إتجاه العبادة الحق . إن بني إسرائيل قبل أن يعبروا البحر مع مـوسى عليه السـلام كانوا يدونون تاريخ الإسلام . وعندما نصبوا العجل قبل أن تجف أرجلهم من ميـاه البحر . كانوا يدونون تاريخ بني إسرائيـل . والذين آمنـوا منهم برسـول الله عيسى عليه السلام . كانوا يـدونون تـاريخ الإسـلام حتى الليلة التي رفع الله فيهـا رسولـه عيسى . وعنـدما أشـرقت الشمس ووجدوا شبيـه المسيـح على الصليب . وكـان المسيح قد ذكر لهم ذلك . تبخر قول المسيح لهم وراحوا يدونون تـاريخهم الذي لا يعرف المسيح عنه شيئاً . وفي عصر الرسالة الخـاتمة أحكمت الشـريعة القفـل على جميع الإنحرافات وحذر كتاب الله من المنافقين الذين يحملون الرجس على عقـولهم وأبـدانهم وحـذر من المشـركين الـذين يحملون النجس على عقـولهم وأبدانهم . وحذر من إتخاذ بطانة من هؤلاء أو هؤلاء . لأن إتخاذ البطانة من هؤلاء سيكون فاتحة لبكاء بلا إحتجاز . ولكن العديد من المسلمين رأوا أن الإقتراب من

هؤلاء لن يضر المسيرة في شيء . وكانت النهاية كما ذكرنا . واتسعت دائـرتها في عصرنا الحاضر حتى تسلل اليهود من تحت الأظافـر . وامتصت بنوكهم ثـرواتنا . وأصبح لهم ولغيرهم الصوت المسموع في المحافل الدولية التي صنعوها . ونحن لا نجيد إلّا العزف على عود الوليد بن عقبة ونهتز طرباً على أشعار شعـراء المجون والإنحراف .

ويخطىء من يظن أن تاريخ المسلمين قد إبتلع تاريخ الإسلام . فللإسـلام طائفة تعمل على إمتداد التاريخ وهذه الطائفة لا يضرهـا من خالفهـا حتى يأتي أمـر الله . ولقد أفاضت الـروايات في طـائفة الحق منهـا « لا تزال طـائفة من أمتي على الدين ظاهرين . لعدوهم قاهرين . لا يضرهم من جابههم . . . »[٢٢١] ويخطىء من يـظن أن تـاريـخ المسلمين دون كله في دروب الإنحـراف . فــالمسلمين هم وحدهم الذين يعرفون معنى الطهارة والشرف . وغيرهم لا يقيم لهذه الأمور وزناً . ودائرة الإختلاف عند المسلمون منحصرة في القيادة لا غير . فكل طـائفة تـرى أن قيادتها أحق وكل طائفة تدعم أقوالها بما لديها من حجج . ونحن في هـذا الكتاب إبتعدنا عن أي حجة لا تستند على كتاب الله وحديث رسوله وحركة التـاريخ . كي يظهر الحق ويشع بعيداً عن أسواق الجدل . ورغم الجـدل الدائـر حول من الأحق بكـرسي الخـلافـة أو بكـرسي الـوعظ والإرشـاد . إلّا أن المسلمين في العبـادات يتلحفون بلحاف واحد . لا يظهر فيه الإختلافات التي من المفروض أن تكون بين المـذاهب . وعالم المسلمين اليـوم بعد إنهيـار الـنظم الـوضعيـة . تعـدى دائـرة الخلاف التي تنحصر في من الأحق بـالقيادة واتجـه إلى فقه الشعـار الذي يحتضن فقه الشعور ولا يسيـر إلّا به . وذلـك بعد أن تبين المسلمـون حقيقة المخـاطر التي تحيط بهم على مستـوى النظام الـدولي . بـإختصـار بـدأ المخلصـون في العـالم الإسلامي في العمل على رقعة واحدة . ونحن نأمل أن تكـون هذه البـداية مقـدمة لوحدة إقتصادية وتربويـة وعسكريـة . تمهد الـطريق ليوم الإنتصـار . يوم يجتمـع أصحـاب طـريق الـطمس والقهقـري تحت رايـة المسيـح الـدجـال ذلــك الشـر المخبـوء . الذي من عـدل الله جعل أمـامه خيـراً مخبـوءاً يحمـل رايتـه المهـدي المنتظر . وهو من ولد فاطمة عليها السلام كما ذكرت الأحاديث والمهـدي عندمـا

---

(٢٢١) رواه احمد وقال الهيثمي رواه البزار والطبراني ورجاله ثقاة (الزوائد : ٧/٢٨٧) .

يأتي سيمثل تاريخ الإسلام الذي يحتوي على مخزون الفطرة النقية . أما الدجال فإنه يمثل تاريخ الناس في عالم الإنحراف والإغواء . وهناك من ينكر وجود المهدي وفقاً لأطروحة الإنحراف . ونحن لا ندين من اعتقد بهذا الإعتقاد . فدين الله لا إجبار فيه . وهذا الإعتقاد لا يستند إلّا على تاريخ الناس . وتاريخ الناس عندنا يخضع للنقد . لأننا لا نعبد الرجال . أما تاريخ الإسلام . فانتظروا . فغداً سترفع راياته من جديد . وستكون راياته آخر الزمان عنواناً للفطرة النقية في عالم مملوء بالرجس والدنس والعار ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[٢٢٢] وصلى اللهم على النبي الأكرم وآله وسلم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

(٢٢٢) سورة يوسف ، الآية : ٢١ .

المراجع

١ ـ الطباطبائي / تفسير الميزان ، ط الأعلمي بيروت .

٢ ـ ابن جرير / جامع البيان في تفسير القرآن ، ط دار الريان ١٩٨٧ .

٣ ـ الرازي / التفسير الكبير ، ط دار الكتب العلمية ١٩٩٠ .

٤ ـ الزمخشري / تفسير الكشاف ، ط بولاق ١٢٨١ .

٥ ـ ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ، ط التراث بحلب ١٩٥٠ .

٦ ـ ابن كثير / تفسير القرآن العظيم وبهامشه تفسير البغوي ، ط المنار ١٩٤٧ .
تفسير الجلالين ، ط السعيدية ١٩٣٨ .

٧ ـ المتقى / كنز العمال ، ط الرسالة ١٩٧٩ .

٨ ـ أحمد البنا / الفتح الرباني مسند الإمام أحمد ، ط احياء التراث .

٩ ـ البخاري / صحيح البخاري ، ط دار الحديث القاهرة .

١٠ ـ مسلم بن الحجاج / الجامع الصحيح ، ط إستنبول ١٣٢٩ ، ط احياء التراث ١٩٧٢ .

١١ ـ الهيثمي / مجمع الزوائد ، ط القدسي القاهرة .

١٢ ـ ابن أبي عاصم / كتاب السنة ، ط المكتب الإسلامي ١٩٨١ .

١٣ ـ الكتاني / نظم المتواتر في الحديث المتواتر ، ط دار الكتب السلفية القاهرة ١٩٨٣ .

١٤ ـ ابن حجر / فتح الباري ، ط البابي الحلبي ١٣٧٨ .

١٥ ـ ابن حجر / الإصابة ، ط دار الكتب العلمية ، ط دار الفكر العربي .
١٦ ـ الطبري / تاريخ الأمم والملوك ، ط دار الفكر ٧٩ ، ط ليدن ١٩٠١ .
١٧ ـ ابن سعد / الطبقات الكبرى ، ط ليدن ١٩٠٩ .
١٨ ـ المسعودي / مروج الذهب ، ط بولاق ١٢٨٣ ، مكتبة الرياض ١٩٧٣ .
١٩ ـ المباركفوري / تحفة الأحوازي ، ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٩٦٥ .
٢٠ ـ الأصفهاني / الأغاني ، ط بولاق .
٢١ ـ البلاذري / أنساب الأشراف ط القدس ١٩٣٦ .
٢٢ ـ البلاذري / فتوح البلدان ، ط ليدن ١٨٦٦ .
٢٣ ـ الدنيوري / الأخبار الطوال ، ط ليدن ١٨٨٨ .
٢٤ ـ ابن عبد ربه / العقد الفريد ، لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٥٠ .
٢٥ ـ ابن قتيبة / الامامة والسياسة ، مطبعة النيل ١٩٠٤ .
٢٦ ـ ابن قتيبة / عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب ١٩٢٥ .
٢٧ ـ المبرد / الكامل ، ليبزج ١٨٧٤ .
٢٨ ـ ابن مزاحم / موقعة صفين ، القاهرة ١٣٦٥ .
٢٩ ـ ابن كثير / البداية والنهاية ، دار المعرفة ١٩٨١ .
٣٠ ـ السيوطي / تاريخ الخلفاء ، المطبعة الميمنة ١٣٠٥ ، ط دار الفكر .
٣٢ ـ أبو زهرة / تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي .
٣٣ ـ أبو العرب التميمي / كتاب المحن ، ط دار الفكر لإسلامي ١٩٨٣ .
٣٤ ـ الذهبي / دول الإسلام ، مؤسسة الأعلمي ١٩٨٥ .
٣٥ ـ يوسف خليفة / تاريخ الشعر ، دار الكتاب العربي ١٩٦٨ .
٣٦ ـ عبد الحميد متولى / ازمة الفكر السياسي الإسلامي ، الهيئة المصرية ١٩٨٥ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
البذور والجذور	٩
نظرات حول الفطرة وفي فقه الشيطان	١٣
إنحرافات قوم نوح (ع)	٢٧
الأوائل والطوفان: أعلام تحقير الإنسان	٢٩
إنحرافات عاد قوم هود (ع)	٦١
عاد والأعمدة العالية: إنحراف القوة	٦٣
إنحرافات ثمود قوم صالح (ع)	٨٩
ثمود قبور في الصخور: أعلام الجحود	٩١
إنحرافات قوم لوط (ع)	١٢٣
المؤتفكة وأمطار بلا ماء: إنحراف الماء	١٢٥
إنحرافات قوم شعيب (ع)	١٥٧
الأيكة ولهيب تحت الظلال: إنحراف الكيل والميزان	١٥٩
إنحرافات فرعون موسى (ع)	١٨٥
آل فرعون جيش بلا قبور: إنحراف الدولة	١٨٧

الموضوع . . . . **الصفحة**

إنحرافات بني إسرائيل ٢٥٣
الحمار يحمل أسفاراً: الطريق الى المسيح الدجال ٢٥٥
النبي الخاتم (ص) ٣١٣
النبي الخاتم (ص) والقافلة البشرية: الحجة البالغة ٣١٥
حفائر قريش ٤٣٥
حفائر قريش: الطريق الى سنن الأولين ٤٣٧
المراجع ٥٠١
الفهرس ٥٠٣